سعيد حوى

الأساس في التفسير

المجلد السابع

وفيه تفسير المجموعة الثالثة من قسم المئين

وهي سور:

طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان، الشعراء

النمل، القصص

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

سَعيد حَوّى

الأساس في التفسير

المجلّد السّابع

وفيه تفسير المجموعة الثالثة من قسم المئين
وهي سور:
طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان، الشعراء
النمل، القصص

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

المجموعة الثالثة والأخيرة
من قسم المئين وهو القسم الثاني من أقسام القرآن
وتشمل سور
(طه ، الأنبياء ، الحج ، المؤمنون ، النور ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص)

كلمة حول هذه المجموعة :

بهذه المجموعة ينتهي قسم المئين ، وهو القسم الثاني من أقسام القرآن ، ويتألف من ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : فصّلت في سورة البقرة من أولها إلى آخرها ، ثم جاءت **المجموعة الثانية** ففصّلت في سورة البقرة من أولها إلى آخرها ، ثم جاءت **هذه المجموعة** لتفصّل كذلك في سورة البقرة من أولها إلى آخرها ، وكأن هذه المجموعات الثلاث ، ثلاث موجات ، كلّ منها تندفع لتغطّي قطاعاً من الأرض ، وهكذا موجة بعد موجة . وقد رأينا كيف غطّت المجموعتان السابقتان سورة البقرة ، وكيف فصّلتا آيات فيها مع امتدادات معاني هذه الآيات ، وهاهي المجموعة الثالثة تفعل الشيء نفسه .

تأتي سورة طه - كما سنرى - لتفصّل معنىً موجوداً في الآيات الخمس الأولى من البقرة وهي : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وتأتي سورة الأنبياء لتفصّل معنى موجوداً في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾

وتأتي سورة الحج لتفصّل معنىً موجوداً في قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** * ﴾

وتأتي سورة المؤمنون لتفصّل معاني موجودة في قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهَّرة وهم فيها خالدون * إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ومايضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون * كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم *** ﴾

ثم تأتي سورة النّور لتفصّل قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

ثم تأتي سورة الفرقان لتفصّل قوله تعالى : ﴿ **كان النّاس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

وتأتي سورة الشعراء والنمل والقصص لتفصّل معاني موجودة في قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾

وسنرى بالتفصيل كيف أن كل سورة فصلت ماذكرناه ، وكما قلنا من قبل في وصف المجموعات السابقة فإنك لو نظرت إلى الآيات من سورة البقرة التي فصلتها هذه المجموعة من السور ، لرأيتها مترابطة مع بعضها يكمّل بعضها بعضاً ، ويأخذ بعضها بحجز بعض .

ويلاحظ أن المجموعة تبتدىء بسورة مبدوءة بـ (طه) وتنتهي بثلاث سور مبدوءة على الترتيب بـ (طسٓمٓ) و (طسٓ) و (طسٓمٓ) .

إن وجود الحرف (طـ) في بداية أول سورة من المجموعة ، ووجوده في بدايات السور الأخيرة منها ، ثمّ عدم تكراره مرة أخرى في أوائل السور ، يوحي بأن هذه السور مجموعة واحدة . ووجود الحرف (ميم) بعد الطاء والسين في سورة الشعراء ، والقصص ، يوحي بالصلة بسورة البقرة المبدوءة بـ (الٓمٓ) ، والابتداء بحرف (الطاء) بينما سورة يونس بدأت بالألف ، وسورة البقرة بدأت بالألف ، يوحي بأن هذه المجموعة ليست بداية قسم وإنما هي متأخرة عن بدايته ، وقد رأينا من خلال المعاني أنها المجموعة الثالثة والأخيرة من القسم الثاني ، ثمّ إنه بعد هذه المجموعة تأتي أربع سور كلها مبدوءة بـ (الٓمٓ) نفس الأحرف التي بدأت بها سورة البقرة ؛ مما يوحي بقوة أن مابعد هذه المجموعة قسم جديد ، فتكون هذه نهاية قسم .

وكما قلنا من قبل : فإنه ليس أمامنا في هذا النوع من الكلام إلا معالم يستأنس بها ، وإلا انسجام المعاني مع مانذكره دون تكلّف ، ولعلّ هذا وهذا كافيان للتدليل على أن اتجاهنا في فهم الوحدة القرآنية ، والسياق القرآني صحيح .

☆ ☆ ☆

سورة طـه

وهي السورة العشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الثالثة من
قسم المئين ، وآياتها مائة وخمس
وثلاثون آية ، وهي
مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة طه ومحورها :

لاحظنا أن سورة آل عمران قد فصّلت الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، واستدللنا على ذلك ، بأن سورة آل عمران بدئت بـ (الٓمٓ) وانتهت بقوله تعالى ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ كما أن الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة بدأت بقوله تعالى ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وانتهت بذكر كلمة الفلاح ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ونجد الآن ظاهرة مشابهة في سورة طه ، فإنها تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ **طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ** ﴾ وتنتهي بقوله تعالى ﴿ **قل كل متربِّص فتربَّصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى** ﴾ لاحظ كلمة (أنزلنا) في بدايتها ، وكلمة (اهتدى) في نهايتها ، وتأمل الآيات الأولى من سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون *** ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **بما أُنزل إليك** ﴾ وكلمة ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ لترى الصلة واضحة بين سورة طه ، وبين الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة .

فإذا نظرنا إلى مضمون السورة ، وإلى كونها تقصُّ علينا من نبأ موسى عليه السلام ، وإلى قوله تعالى فيها ﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ..** ﴾ وإلى قوله تعالى فيها : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدِث لهم ذكراً** ﴾ وصلة ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن اتَّبع هدايَ فلا يضل ولا يشقىٰ** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وإلى وجود قوله تعالى : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ وصلة ذلك بإقامة الصلاة .

فإننا لم نبعد إذا قلنا إن محور سورة طه هو الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة وقد كنا رأينا من قبل أنّه عندما تفصّل سورة ما (مكاناً) من سورة البقرة فليس معنى هذا أن تفصّله كله ، بل قد تفصّل جزءاً منه ، لأن جزءاً منه قد تفصّله سورة أخرى ، أو

لأن جزءاً منه لا يحتاج لتكرار . وقد رأينا حتى الآن أن الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة فصلتها سورة آل عمران نوع تفصيل . ثمّ جاءت سورة يونس ففصّلت الآية الأولى منها نوع تفصيل ، والآن تأتي سورة طه لينصب تفصيلها على الآية الرابعة والخامسة بشكل مباشر أي على قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون *** ﴾ .

وسنرى في القسم الثالث من أقسام القرآن - قسم المثاني - كيف أن سوراً كاملة تفصّل الآية الثالثة من هذه الآيات الخمس ، أو تفصّل الآيات الخمس تفصيلاً جديداً أو تفصّل ما فصّلته سورة أخرى ، ولكن بشكل آخر ، ومعان أخرى ، وبأسلوب آخر ، وجرس جديد ، ومن تأمل مثل هذا فقط ، وكيف أن القرآن قد عرض للموضوع الواحد عشرات المرات ، كل مرة ضمن سياق خاص ، وبجرس خاص ، عرف أن مثل هذا لا يدخل ضمن طاقة البشر ، ولا علمهم ، ولا بيانهم ، ولا إمكانياتهم ؛ فسبحان الله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد إمام الأولين والآخرين ، وسيد المرسلين ، الذي خصّه الله بهذا القرآن المبين .

تتألف السورة من مقدمة ، ثم من قصة موسى عليه السلام على ثلاثة مراحل ، ثم فاصل ، ثم قصة آدم عليه السلام ، ثم خاتمة .

تتحدث مقدمة السورة عن حكمة إنزال القرآن ، وتعرفنا على الله منزل هذا القرآن ، ثم تحدّثنا عن نبوّة موسى عليه السلام وجولته الأولى مع فرعون ، ثم تحدّثنا السورة عن الجولة الثانية مع فرعون ، ثم تحدثنا السورة عن مرحلة من مراحل حياة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، ثم تأتي فاصلة تتحدث عن هذا القرآن ، وعن كونه يقصّ علينا من أخبار الماضين ، وعن جزاء المعرضين عنه ، وعن بعض خصائصه ، ثم تأتي قصة آدم عليه السلام لتصل كذلك إلى موضوع جزاء الإعراض عن كتاب الله ، ثم تأتي الخاتمة لتناقش المعرضين ، وتأمر المستجيبين ، وتقيم الحجّة على المعاندين ، فهي تدفع الإنسان في الطريق إلى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وماأنزل من قبل محمد ﷺ وتدفعهم إلى الإيمان باليوم الآخر لتوصلهم إلى الهدى والفلاح ؛ فهي كما قلنا تفصل بشكل مباشر قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون *** ﴾ .

نقـول :

١ – قال الألوسي في تقديمه لسورة (طه) : (وتسمّىٰ أيضا سورة (الكليم) كما ذكر السخاوي في جمال القراء ، وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم مكية . واستثنى بعضهم منها قوله تعالى : ﴿ **واصبر على مايقولون** ﴾ الآية .

وقال جلال السيوطي : ينبغي أن يستثنى آية أخرى ، فقد أخرج البزار وأبو يعلى عن أبي رافع قال : أضاف النبي ﷺ ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب فقال : لا إلا برهْن ، فأتيت النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته فقال : « أما والله إني لأمين في السماء ، أمين في الأرض ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ **لاتمدنّ عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم** ﴾ الآية انتهى .

ولعل ماروي عن الحبرين على القول باستثناء ماذكر باعتبار الأكثر منها . وآياتها كما قال الداني مائة وأربعون آية شامي ، وخمس وثلاثون كوفي ، وأربع حجازي ، وآيتان بصري ، ووجه الترتيب على ماذكره الجلال : أنّه سبحانه لمّا ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء عليهم السلام . وبعضها مبسوط كقصة زكريا ويحيىٰ وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز ، كقصّة إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام ، وأشار إلى بقية النبيين عليهم السلام إجمالاً ، ذكر جلّ وعلا في هذه السورة شرح قصة موسى عليه السلام التي أجملها تعالى هناك ، فاستوعبها سبحانه غاية الاستيعاب ، وبسطها تبارك وتعالى أبلغ بسط ، ثم أشار عز شأنه إلى تفصيل قصّة آدم عليه السلام الذي وقع في (سورة مريم) مجرد ذكر اسمه ، ثم أورد جل جلاله في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر قصته في سورة مريم كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، واليسع ، وذي الكفل ، وذي النون ، عليهم السلام ، وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة كموسى ، وهٰرون ، وإسماعيل ، وذكرت تلو مريم لتكون السورتان كالمتقابلتين . وبسطت فيها قصة إبراهيم عليه السلام البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم يذكر حاله مع أبيه إلا إشارة ، كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ومع أبيه مبسوطاً . وينضم إلى ماذكر اشتراك هذه السورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف المقطعة ، وقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد رضي الله تعالى عنهم أن سورة طه نزلت بعد سورة مريم . ووجه

ربط أول هذه بآخر تلك : أنه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام ، معلّلًا بتبشير المتقين وإنذار المعاندين . وذكر تعالى هنا مافيه نوع من تأكيد ذلك . وجاءت آثار تدل على مزيد فضلها .

أخرج الدارمي . وابن خزيمة في التوحيد . والطبراني في الأوسط . والبيهقي في الشعب . وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قرأ (طه) و (يس) قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بألفي عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليها هذا ، وطوبى لأجواف تحمل هذا ، وطوبى لألسنة تتكلم بهذا » . وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً نحوه) .

٢ - وقال صاحب الظلال في تقديمه للسورة : (تبدأ هذه السورة وتختم خطاباً للرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه .. إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذّب به . إنّما هي الدعوة والتذكرة ، وهي التبشير والإنذار . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره . المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها . الذي تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم .. فلا على الرسول ممّن يكذّب ويكفر ، ولا يشقى لأنهم يكذّبون ويكفرون .

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر ، مفصّلة مطوّلة ، وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون ، وموقف المباراة بين موسى والسحرة .. وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : ﴿ **لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ .

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته وهدايته له . وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

وتحيط بالقصة مشاهد القيامة . وكأنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم . حيث يعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لما قيل لأبيهم آدم ، وهو يهبط إلى الأرض بعد ماكان) .

وقد آن أوان عرض السورة .

مقدمة سورة طه

وتتألف من ثماني آيات ، وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ . أي بل لتسعد ، فالذين يظنّون أنّ اتباع القرآن شقاء واهمون وخاطئون وكاذبون ، ففي الآية دعوة إلى الإيمان بالقرآن وردّ على مزاعم الكافرين في شأنه وتذكير بالنعمة في إنزاله . قال قتادة تعليقاً على الآية : (لا والله ما جعله شقاءً ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة) ثمّ ذكر الله حكمة من حكم إنزاله فقال : ﴿ **إلا تذكرة لمن يخشى** ﴾ . أي لكن أنزلناه تذكرة لمن يخاف الله ، أو لمن يؤول أمره إلى الخشية .

قال ابن كثير : (إن الله أنزل كتابه ، وبعث رسوله ، رحمة رحم بها عباده ؛ ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله به حلاله وحرامه). أقول : دلّت الآيتان على أن السعادة في التزام كتاب الله ، ولاسعادة بدونه ، وهو موضوع ستفصّله السورة كثيراً - كما سنرى - وعلى أن هذا القرآن من خصائصه أنّه

مذكِّر ، فقد عرض كل شيء بصيغة التذكير ، وهذا يفيد أن الحقائق التي عرضها موجودة في الفطرة ، وإنما هو مذكّر بها ، ومن ثمّ فكلّ شذوذ عنه تعذيب للفطرة نفسها ، ومن ثم فلا سعادة لأحد إلا به .

وفي الآية الأخيرة دليل على أنه لايتذكر بهذا القرآن إلّا من كان في قلبه خشية ، ولا خشية إلا بمعرفة ومن ثم فإن معرفة الله هي الفرض الأول على المكلّف ، ولكنها المعرفة المستقرة في القلب ، وليست المعرفة التي تجري على اللسان ، كما دلّت الآية الأخيرة على أن القرآن يربي الخشية من الله ، فمن أحسّ من نفسه ضعف الخشية ، فليكثر من تلاوته ثم قال تعالى : ﴿ **تنزيلاً مِمَّن خلق الأرض والسموٰات العلى** ﴾ . العلىٰ : جمع العليا ، والعليا تأنيث الأعلى ، أي نُزّل هذا القرآن تنزيلاً مِنَ الذي خلق الأرض والسموٰات كلها ، فمن كان هذا شأنه هو الذي أنزل القرآن فكيف لايكون كتابه للإسعاد ، وكيف لايذكّر عباده بما يسعدهم في دنياهم وأخراهم ، فمن خلق الخلق لايهمله - خاصة وهو متَّصف بالرحمة - والرحيم لايترك عباده بلا توجيه يسعدهم ، وهو مالك لكل شيء ، والمالك لايترك مملوكيه بلا رعاية ، وهو العليم بكل شيء ، ومن كان كذلك فهو الحري بأن تسعد توجيهاته ، وهو المتصف بالأسماء الحسنى ، ومن كان كذلك سيصدر عنه ماهو الأحسن ، ولا يصدر عنه إلا مايسعد ، وكل هذه المعاني تضمنتها الآيات الأربع الآتية على الترتيب :

فبعد أن ذكر الله : أن الذي نزّل القرآن هو الذي خلق السموٰات العلىٰ قال : ﴿ **الرحمن على العرش استوىٰ** ﴾ استواءً ليس كمثله شيء . قال ابن كثير : (من غير تكييف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل) .

دلّت الآية على أنه جل جلاله في غاية الرحمة ، وفي غاية العظمة ، ومن كان كذلك فإنّه حري أنْ يُخشىٰ ، وحري أن يكون كتابه مسعداً ، وموجّهاً ومربياً ثم قال تعالى : ﴿ **له مافي السموٰات ومافي الأرض ومابينهما وماتحت الثرى** ﴾ أي ماتحت التراب ، فالكل ملكه ، وإذا كان كل شيء ملكه فهو غني عن أن يشقي أحداً بتوجيهاته . وهو حري أن يسعد بتنزيله ، وهو جدير بأن ينزل كتاباً ﴿ **وإن تجهر بالقول** ﴾ أي وإن ترفع صوتك ﴿ **فإنه يعلم السِّرَّ** ﴾ أي ما أسررته إلى غيرك ، أو ماأسررته في نفسك ﴿ **وأخفىٰ** ﴾ ويعلم ماهو أخفىٰ من السِّر وهو ماأخطرته ببالك ، أو سترته في نفسك للمستقبل ، أو هو مالم تحدّث به نفسك ، ولكنه مستكنّ فيها ، وهو الذي يُسميه علماء

النفس الآن (اللاشعور) فالله عز وجل الذي يعلم السِّر والجهر ، وماهو أخفىٰ من السر ، هو الذي أنزل القرآن ؛ فكيف لايكون القرآن مسعداً ؟ إنّ أي شيء آخر لايمكن أن يسعد الإنسان سوىٰ هذا القرآن ؛ لأنّه وحده الذي يخاطب الكينونة البشرية كلها فيسعدها كلها ، وكل ماسواه يكون إسعاده على حساب إشقاء في جانب آخر .

ثم قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ . قال ابن كثير : (أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله لا إله إلا هو ، ذو الأسماء الحسنى والصفات العلىٰ) . وفي ذكر كلمة التوحيد قبل ذكر الأسماء إشارة إلى أنه واحد في ذاته ، ولو افترقت عبارات صفاته ، وإذ كان الله الواحد الأحد المتصف بالصفات الحسنىٰ هو منزل هذا القرآن فكيف لا يكون كتابه مسعداً ! وكيف لا يذكّر الله عباده بما يسعدهم في دنياهم وأخراهم . هذه هي المقدمة .

كلمة في السياق :

إن صلة هذه المقدمة بمحور السورة واضح ؛ فالمقدمة أقامت الحجة على أن هذا القرآن يسعد ولا يشقي ، وفي ذلك دعوة للإيمان به ، والمقدمة بيّنت أنه مذكِّر لمن يخشى ، فهي دعوة للخشية ، وللتذكّر بهذا القرآن ، أي هي دعوة للإيمان ، فالصلة بينها وبين قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك** ﴾ واضحة ، خاصة وقد عرفت على المُنزِل وهو الله ، وعرفت المُنْزَل وهو القرآن ، وردَّت على توهمات في شأنه ، كما أن الصلة بين المقدمة وقوله تعالى في سورة البقرة عن القرآن ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ وبينها وبين قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ واضحة ؛ مما يؤكد أن محور سورة طه هو الآيات الأولى من سورة البقرة ، وسنرى أن الصلة بين مقدمة سورة طه ، وبقية السورة كاملة .

فعندما نرىٰ مثلاً في المرحلة الأولى من قصة موسى عليه السلام مع فرعون قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكر أو يخشى** ﴾ التي تشبه قوله تعالى في المقدمة : ﴿ **إلاّ تذكرةً لمن يخشى** ﴾ ندرك أن سنة الله الدائمة هي أن يرسل الله رسلاً للبشر ؛ ليتذكروا ويخافوا ، فليس بدعاً أن ينزل الله القرآن تذكرة لمن يخشى .

ولا نستعجل الكلام عن الصلة بين المقدمة وبقيةالسورة ، فسنرىٰ هذا شيئاً فشيئاً .

والمهم هنا هو التذكير السريع بصلة مقدمة السورة بمحور السورة من البقرة ، وصلتها ببقية سياق السورة .

فوائد :

١ - هل يعني قوله تعالى ﴿ **السمٰوات العلى** ﴾ أن هناك سمٰوات دنيا ، وأنه يشير إلى ماهو أعلىٰ منها ؟ نلاحظ أنّه يمر معنا في كتب العهد القديم مثل هذا التعبير : (هوذا للربّ إلٰهك السمٰوات وسماء السماوات والأرض وكل مافيها) تثنية (١٠) . مما يشير إلى أن هناك سمٰوات ، وهذه السمٰوات لها سماوات ،فكأن هناك سمٰوات خاصة للأرض ، ولهذه السماوات سماوات فوقها ، فهل الآية تشير إلى هذا المعنى ؟ . الشيء الذي وضّحناه في بداية سورة البقرة أن السمٰوات السبع المذكورة في القرآن قريبة من الأرض ، ومغيبة عنا ، فهي دون المجرات والله أعلم ، فإذا صح مااتجهنا إليه يمكن أن نفهم من قوله تعالى ﴿ **والسمٰوات العلىٰ** ﴾ أن المراد من ذلك هذه المجرات ومافوقها مماهي فوق السمٰوات السبع ؛ لأن العلىٰ جمع العليا ، والعليا تأنيث الأعلى ، فهي إشارة إلى سمٰوات أعلى من غيرها .

نقول هذا مع احتمالنا أن الآية تشير إلى السمٰوات السبع والله أعلم .

٢ - قال النسفي في قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ : (والمذهب قول علي رضي الله عنه : الاستواء غير مجهول ، والتكييف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) .

وقال الألوسي بمناسبة هذه الآية : (و « العرش » في اللغة : سرير الملك ، وفي الشرع : سرير ذو قوائم له حملة من الملائكة عليهم السلام ، فوق السمٰوات مثل القبة ، ويدل على أن له قوائم ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه فقال : يامحمد رجل من أصحابك قد لطم وجهي . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ادعوه فقال : لم لطمت وجهه ؟ فقال : يارسول الله إني مررت بالسوق وهو يقول : والذى اصطفى موسى على البشر . فقلت : ياخبيث ، وعلى محمد ﷺ ؟ فأخذتني غضبة ، فلطمته ، فقال النبي ﷺ : « لاتخيّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون وأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِي بصعقة الطور » . وعلى أن له

حملة من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به** ﴾ .

ومارواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال : « أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله عز وجلّ من حملة العرش إن مابين أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة » . وعلى أنه فوق السمٰوات مثل القبة مارواه أبو داود أيضاً عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يارسول الله جهدت الأنفس ، ونهكت الأموال - أو هلكت - فاستسق لنا ، فإنا نستشفع بك إلى الله تعالى ، ونستشفع بالله تعالى عليك . فقال رسول الله ﷺ : « ويحك أتدري ماتقول ؟ وسبَّح رسول الله ﷺ ، فمازال يسبّح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك إنه لايستشفع بالله تعالى على أحد من خلقه ؛ شأن الله تعالى أعظم من ذلك . ويحك أتدري مالله ، إن الله تعالى فوق عرشه . وعرشه فوق سماواته ، لـهكذا وقال بأصابعه مثل القبة وإنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب » .

وهو غير الكرسي على الصحيح فقد قال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله تعالى عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ماالكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » . وأنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقاً ، مع نفي التشبيه والتجسيم ، منهم الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام أحمد ، والإمام الشافعي ، ومحمد بن الحسن ، وسعد ابن معاذ المروزي ، وعبدالله بن المبارك ، وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، والترمذي ، وأبو داود السجستاني ، ونقل القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد في كتاب الاعتقاد عن أبي يوسف عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : لاينبغي لأحد أن ينطق في الله تعالى بشيء من ذاته ، ولكن يصفه بما وصف سبحانه به نفسه ، ولا يقول فيه برأيه شيئاً ، تبارك الله تعالى رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبدالأعلى قال : سمعت الشافعي يقول : لله تعالى أسماء وصفات لايسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، لأن علم ذلك لايدرك بالعقل ، ولا الرؤية والفكر ، فنثبت هذه الصفات ، وننفي عنها التشبيه ، كما نفى

سبحانه عن نفسه فقال : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ ، وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنه قد اتفق على ذلك أهل القرون الثلاثة ، وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة ﷺ ، وكلام إمام الحرمين في الإرشاد يميل إلى طريقة التأويل ، وكلامه في الرسالة النظامية مصرّح باختياره طريقة التفويض ؛ حيث قال فيها : والذي نرتضيه رأياً ، وندين به عقداً ، اتباع سلف الأمّة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع ، والدليل السمعي القاطع في ذلك إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم . فإنهم درجوا على ترك التعرّض لمعاني المتشابهات ، مع أنهم كانوا لايألون جهداً فى ضبط قواعد الملة ، والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس مايحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسنوناً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق الاهتمام بفروع الشريعة ، وقد اختاره أيضاً الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي صنفه في اختلاف المصلّين ، ومقالات الإسلاميين ، وفي كتابه الإبانة في أصول الديانة ، وهو آخر مصنفاته فيما قيل . وقال البيضاوي في الطوالع : والأولى اتباع السلف في الإيمان بهذه الأشياء يعني المتشابهات - ورد العلم إلى الله تعالى بعد نفي مايقتضي التشبيه والتجسيم عنه تعالى) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وماتحت الثرى** ﴾ يذكر ابن كثير كلاماً مرجعه إما إلى الإسرائيليات ، وإما إلى حديث رواه من لايساوي شيئاً ، ومن ثم أضربنا عن نقله ، إلا أننا نذكر أن علم الجيولوجيا المعاصر ، أثبت أن في الأرض طبقات ، وقد اكتشف منها حتى الآن خمس طبقات ، كل طبقة تختلف عن الأخرى ، ولازالت نواة الأرض مجهولة حتى كتابة هذه السطور فيما نعلم ، ولاندري إذا كانت ستنكشف عن كونها أكثر من طبقة » هذا ماأخبرني به الأخ الدكتور حسن زينو المختص في علم الجيولوجيا .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والسمٰوات العلىٰ** ﴾ قال ابن كثير : وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره « أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبُعْد مابينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام » .

أقول : هذا دليل لنا على ماذهبنا إليه أن السمٰوات السبع قريبة لنا ، فهي أقرب لنا نسبياً من مجرات هذا الكون البعيدة ؛ إذ بعض تلك المجرات تبعد عنا آلاف السنين الضوئية كما يذكرون ، وهذا يرجح كون السمٰوات السبع دون المجرات ، وأنها مغيبة عنا وهو مااتجهنا إليه في هذا التفسير .

٥ - ذكر ابن كثير سبباً لنزول قوله تعالى : ﴿ **ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ وعلّق

عليه فقال: (قال جبير عن الضحاك : لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه ، فقال المشركون من قريش: ماأنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **طه * ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى** ﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً ، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال : حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا العلاء بن سالم ، حدثنا إبراهيم الطالقاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن سفيان عن سماك ابن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ماكان منكم ولا أبالي » . إسناده جيد ولننتقل إلى المرحلة الأولى من قصة موسى عليه السلام المذكورة في هذه السورة ، وتمتد من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٥٥) وهي المقطع الأول في السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويتضمَّن المرحلة الأولى من قصة موسى عليه السلام في سورة (طه) ويمتدُّ المقطع من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٥٥) وهذا هو :

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل

لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ
أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾
قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ
أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ
فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ
عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ
فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ
ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ
﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي
﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ
يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ
إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن
رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ

فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

التفسير :

﴿ **وهل أتاك حديث موسى** ﴾ أي وقد أتاك حديث موسى ، والكلام عن قصة موسى عليه السلام يأتي في السياق كنموذج على الرسالة والرسول ، وعلى إنزال الوحي من الله ، وفي قصة موسى تدليل على أن إنزال الله وحياً على أحد من خلقه لايكون سببا لشقائه ، كما أن في إنزاله الوحي على موسى كانت الحكمة فيه التذكرة لمن يخشى ، أو إقامة الحجة على الإنسان ليخشى ، وهي نفس الحكمة في إنزال هذا القرآن ، والقصة - وإن كانت في سياقها القريب - تخدم ماذكرناه ، أي تخدم قضية الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ ، فهي كذلك في سياقها تخدم موضوع الإيمان بما أنزل على غيره ، وهذان هما محور السورة في البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وتخدم موضوع التأسيس في تحمّل أعباء النبوة والدعوة ، كما تخدم موضوع وحدة رسالات الله ، عدا عن كونها تعطي دروساً كثيرة خالدة في الحياة البشرية ، ﴿ **إذ رأى ناراً** ﴾ حين مَقْفَلِهِ من مدين ، كما سيقصّ القرآن قصة ذلك في سورة القصص ، التي هي السورة الأخيرة في هذه المجموعة ، وهذا من مظاهر وحدة هذه المجموعة وتكاملها ﴿ **فقال لأهله** ﴾ أي لزوجته ﴿ **امكثوا** ﴾ أي أقيموا في مكانكم ﴿ **إني آنست ناراً** ﴾ أي أبصرت ، والإيناس : رؤية شيء يؤنس به ﴿ **لعلّي آتيكم منها بقبس** ﴾ أي شهاب من النار ، أي نار مقتبسة في رأس عود أو فتيلة ﴿ **أو أجد على النار هدى** ﴾ أي ذوي هدى ، أو قوماً يهدونني الطريق ، دلّ ذلك على وجود البرد والظلام وقتذاك ، وأن موسى عليه السلام قد تاه عن الطريق ، وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان في أشد حالات

الضّيق يكون أقرب مايكون إلى الرحمة ، وفي قوله لأهله ﴿ **امكثوا** ﴾ درس في كمال رحمته وشفقته وغيرته وشجاعته وخدمته لأهله ، وفي استعماله لكلمة ﴿ **لعلّي** ﴾ إشارة إلى دقته في التعبير ؛ إذ بنى الأمر على الرجاء ؛ لئلا يَعِد ماليس يستيقن الوفاء به ﴿ **فلما أتاها** ﴾ أي أتى النار واقترب منها ﴿ **نودي ياموسى إني أنا ربك** ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلّمك ، وفي ذلك تعليم لنا أن نعرّف من نكلفه يوصفنا الذي نكلّفه فيه وبما يؤكد أننا متصفون بهذا الوصف ، وقد عرف موسى عليه السلام أن الله يخاطبه بعلامات قال النسفي : (فعرف أنّه كلام الله عز وجل بأنّه سمعه من جميع جهاته الست ، وسمعه بجميع أعضائه) ﴿ **فاخلع نعليك** ﴾ أي انزعهما ، ثمّ علّل حكمة الأمر بقوله : ﴿ **إنك بالواد المقدس** ﴾ أي المطهّر أو المبارك ﴿ **طوى** ﴾ هذا اسم الوادي ، علّل له الأمر بخلع النعلين بأنه احترام للبقعة ، وتعظيم لها قال سعيد بن جبير : أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة ، كما يؤمر الرجل بخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ، وفي ذكر الأمر مع تعليله تعليم لنا ألا نأمر إلا مع التعليل للأمر ، فإذا كان الله - عز وجل - هذا شأنه فكيف بالبشر مع البشر ؟ وفي حكمة مجيء هذا الأمر من الله بعد إعلامه لموسى أنّه الله ، وقبل إعلامه بالاصطفاء والاجتباء ، تعليم لنا بأنّ ممّا يساعد الإنسان على أن يتخلّص من ارتباكه في المواقف الصعبة أن يفعل شيئاً محسوساً في مثل هذه المقامات ، فلا شك أن الأمر بخلع النعلين ، وتنفيذ ذلك من قِبَل موسى ساعده على تحمّل المفاجأة والتخلّص من إرباكها ، ثم قال تعالى : ﴿ **وأنا اخترتك** ﴾ أي اصطفيتك للنبوة ﴿ **فاستمع لما** ﴾ أي للذي ﴿ **يوحىٰ** ﴾ إليك ، علّمه أولاً التواضع في هيئته ؛ إذ أمره بخلع النعلين ، ثم طالبه بأدب الإنصات ، فدلّ ذلك على أن تعليم الأدب وتعلّمه هو البداية الصحيحة في التربية ، وكم من مربٍ لم يبدأ بتعليم الأدب ففاته كل شيء ، وانقلب تعليمه عليه ، ومن ثم نلاحظ أن كل رسول لله عليهم الصلاة والسلام كان يطالب قومه بأمرين : التقوى والطاعة ، كما سنرى في سورة الشعراء ، التقوى لله ، والطاعة له ؛ للتلازم التام بين الأدب مع الله ، والأدب مع رسله ، فعلى ورّاث النبوة أن يلاحظوا ذلك ، وعلى الراغبين في العلم والتعلم ، والوصول إلى الله أن يعطوا ذلك حقّه ، وبعد أن أمر الله موسى عليه السلام أن يستمع إلى مايقوله ويوحيه له قال : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلا أنا** ﴾ قال ابن كثير : هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وبعد أن عرّفه على ذاته أمره ﴿ **فاعبدني** ﴾ أي وحّدني وأطعني وأقم عبادتي من غير شريك ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ أي صل لتذكرني ، أي أقم

الصلاة لتذكرني فيها ، لاشتمال الصلاة على الأذكار ، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها ، وقد دلّ هذا الخطاب على أن معرفة الله هي البداية ، وأن الصلاة هي التي يثنى بها ، وكل بداية غير هذه البداية ، أو مايؤدي إليها ، ليست من التربية الإسلامية في شيء ، فليلاحظ المربون ذلك ﴿ **إن الساعة آتية** ﴾ أي قائمة لا محالة ، وكائنة لابدَّ منها ﴿ **أكاد أخفيها** ﴾ أي أكاد أسترها عن العباد ، لولا مافي الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة ، وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها في كل وقت ، أي لولا مافي الإخبار بها من الحكمة لما أخبرت به ، وفي الآية اتجاهات أخرى نراها في الفوائد ﴿ **لتجزىٰ كل نفس بما تسعىٰ** ﴾ أي أقمتها لا محالة لأجزي كل نفس بسعيها من خير أو شر ، أخبر بالساعة وحكمة إقامتها بعد الأمر بالعبادة والصلاة ليعلم أن الإنسان مجازى ، ومكافأ على عمله ، وفي ذلك تأديب لنا أن نعرِّف بالجزاء على العمل والمكافأة عليه ، ثمّ قال تعالى : ﴿ **فلا يصدنَّك عنها** ﴾ أي فلا يصرفنك عنها ، أي عن العمل للساعة ﴿ **من لايؤمن بها** ﴾ أي من لايصدِّق بها ﴿ **واتَّبع هواه** ﴾ أي واتبع شهواته في مخالفة أمر مولاه ﴿ **فتردىٰ** ﴾ أي فتهلك وتعطب . قال ابن كثير : (المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي لاتتبعوا سبيل من كذّب بالساعة ، وأقبل على ملاذّه في دنياه ، وعصى مولاه ؛ فاتّبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر) .

وقال النسفي : (فالخطاب لموسى والمراد به أمته ، وقد دلّت الآية على أن الهلاك يكمن في الكفر بالآخرة ، وأن اتباع الهوى مرادف للتكذيب بها ، فلا شيء يطهر من الهوى ويبعد عن الهلاك إلا الإيمان باليوم الآخر)*.

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها ..** ﴾ يقول صاحب الظلال :

(فأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوَجَّه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق .. والله سبحانه يؤكد مجيئها : ﴿ **إن الساعة آتية** ﴾ وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز مايطلعهم عليه من أمرها بقدر مايحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم ..

والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي . فلابدّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم . فوراء المجهول يجرون . فيحذرون ويأملون ، ويجرِّبون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقتهم وطاقات الكون من حولهم ، ويرون آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق ، ويبدعون في الأرض بما شاء لهم الله أن يبدعوا .. وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود ، فهم لايدرون متى تأتي الساعة . فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحّت فطرته واستقام . فأمّا من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى : ﴿ **فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾ .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشيء التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لاتبلغ فيها الإنسانية كالها ، ولايتم فيها العدل تمامه ، وأنه لابدّ من حياة أخرى يتحقّق فيها الكمال المقدّر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال .) .

كلمة في السياق :

في هذا الخطاب لموسى عليه السلام نموذج على التنزيل الذي في مخالفته الهلاك والشقاء ، لا في موافقته ومن ثم قال ﴿ **فلا يصدنّك عنها من لايؤمن بها واتّبع هواه فتردى** ﴾ أي فتهلك ، كما أنه نموذج على التذكرة لمن يخشى ، وقد لاحظنا أنّه ذكّر بالتوحيد والصلاة والساعة ؛ فعرفنا بذلك بماذا يذكّر ، كما عرفنا من ماذا ينبغي أن يخاف الإنسان ويخشى ، فالصلة بين مقدمة السورة ومابعدها واضح جداً ، والصلة بين السورة ومحورها كذلك واضح وهو قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل اليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فإذا كان هؤلاء هم المفلحون فغيرهم خاسر .

ولنعد إلى السياق :

فبعد أن عرّف الله موسى على ذاته ، وأعلمه اجتباءه ، وكلّفه وحذّره ، سأله فقال ﴿ **وماتلك بيمينك ياموسى** ﴾ قال النسفي : (والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت ، أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة) . ﴿ **قال** ﴾

موسى : ﴿ **هي عصاي أتوكأ عليها** ﴾ أي أعتمد عليها إذا أعييت ، أو وقفت على رأس القطيع ، وعند الطفرة ﴿ **وأهشُّ بها على غنمي** ﴾ أي وأخبط بها ورق الشجر على غنمي لتأكل . قال الإمام مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحرّكه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولايكسر العود فهذا الهش ولايخبط ﴿ **ولي فيها مآرب** ﴾ أي حاجات ومصالح ومنافع ﴿ **أخرى** ﴾ قال ابن كثير : (وقد تكلّف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت ... ولكن كل ذلك من الإسرائيليات) ﴿ **قال أَلْقِهَا ياموسى** ﴾ أي اطرحها من يدك ﴿ **فألقاها** ﴾ أي طرحها ﴿ **فإذا هي حيّة تسعى** ﴾ أي تمشي سريعاً وتضطرب . قال صاحب الظلال : (ووقعت المعجزة الخارقة التي تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لاينتبهون إليها . وقعت معجزة الحياة . فإذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحوّل في كل لحظة إلى خلية حية ، ولكنها لاتبهر الإنسان كما يبهره أن تتحوّل عصا موسى حية تسعى ! ، ذلك أن الإنسان أسير حواسّه ، وأسير تجاربه ، فلا يبعد كثيراً في تصوراته عمّا تدركه حواسّه ، وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسيّة تصدم حسّه فينتبه لها بشدّة . أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى ، ومعجزات الحياة التي تدبّ في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها . وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسّه ، فيمر عليها غافلاً أو ناسياً) .

ومن مجموع ماوصف الله هذه الحية في كتابه فهم ابن كثير أنها : صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرّك حركة سريعة ، فإذا هي تهتز كأنّها جانّ ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة ﴿ **قال** ﴾ الله تعالى : ﴿ **خذها ولاتخف ، سنعيدها** ﴾ أي سنردّها ﴿ **سيرتها الأولى** ﴾ أي في طريقتها الأولى ، أي نردها عصا كما كانت ﴿ **واضمم يدك إلى جناحك** ﴾ أي إلى جنبك تحت العضد . أي أدخلها تحت عضدك ﴿ **تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ أي من غير برص ، ولا أذى ، ومن غير شين ﴿ **آية أخرى** ﴾ لنبوّتك ﴿ **لنريك** ﴾ بهاتين الآيتين ﴿ **من آياتنا** ﴾ أي بعض آياتنا ﴿ **الكبرى** ﴾ أي العظمى ، أي فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ أي جاوز العبودية إلى الربوبية ، أي اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارّاً منه ، وهارباً ، فادعه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولايعذبهم ، إنه قد طغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، ونسي الرب الأعلىٰ .

ملاحظــة :

نلاحظ أنه لم يأمر الله موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون إلا بعد أن أراه من آياته الكبرى ، وما ذلك إلا لأن هذا التكليف شاقّ ، فقدّم الله له بما به يهون كل شيء ، ويصغر كل شيء في عيني موسى ؛ إذ رأى من آثار قدرة الله ما رأى ومن ثم فإننا نلاحظ أن موسى عليه السلام عندما كلّفه ربّه بذلك قال ﴿ **رب اشرح لي صدري** ... ﴾ لأنه قريب عهد برؤية الآية ، بينما نلاحظ أنه وأخاه هارون قالا فيما بعد ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ وذلك لبعد العهد عن رؤية الآيتين ، وفي ذلك كله تعريف لنا على خصائص النفس البشرية ، وعلى أن الله هو الأعلم بها لأنه خالقها ، ومن ثم فإنه الأقدر على مايسعدها ومايشقيها وماتحتاجه ، وفي ذلك تعليم لنا أننا إذا أردنا أن نكلّف إنساناً تكليفاً صعباً أن نقدم له بما يستسهل معه المهمة ، ولنعد إلى السياق :

....

﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **رب اشرح لي صدري** ﴾ أي وسّعه ليحتمل الوحي والمشاقّ ورديء الأخلاق ﴿ **ويسّر لي أمري** ﴾ أي وسهّل عليّ ما أمرتني به ، من تبليغ الرسالة والقيام بواجباتها ﴿ **واحلل عقدة من لساني** ﴾ أي وافتح عقدة من عقد لساني ، لم يطلب زوال العقدة بكمالها ، وإنما طلب مايعينه على أداء رسالة ربه ، ومن ثمّ علّل لطلبه فقال : ﴿ **يفقهوا قولي** ﴾ أي عند تبليغ الرسالة ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي** ﴾ أي ظهيراً ومعيناً وملجأ يساعدني ويعينني ، وأبثه ما بنفسي ، وأن يكون من أهلي ، ثم عيّنه ﴿ **هارون أخي اشدد به أزري** ﴾ أي قَوِّ به ظهري ﴿ **وأشركه في أمري** ﴾ أي اجعله شريكي في النبوة والرسالة ثم علّل لطلبة أخاً فقال :﴿ **كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً** ﴾ أي نصلي لك ، ونسبّحك تسبيحاً كثيراً ونذكرك ذكراً كثيراً في الصلوات وخارجها ﴿ **إنك كنت بنا بصيراً** ﴾ أي عالماً بأحوالنا ، فأجابه الله تعالى إلى ما سأل ﴿ **قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ أي قد أعطيت سؤلك .

ملاحظة :

لما أمر الله موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون الطاغية ، وعرف أنّه كُلّف أمراً عظيماً دعا بهذه الدعوات التي يحتاجها من يقوم بمثل هذا الشأن ، وقد أجابه الله إليها منةً عليه فيها ، ولعلمه احتياجه إليها ، من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وطلاقة اللسان ،

وأخ مواتٍ على السراء والضراء ، ومن عانى أمر الدعوة إلى الله عرف أهمية هذه الدعوات ، فبدون شرح الصدر لايستطيع الإنسان أن يقوم بالدعوة إلى الله ، ولا أن يتحمّل لأواءها أبداً ، وبدون تيسير الأمر ينكسر قلب الداعية إلى الله ، وبدون طلاقة لسان لاتقوم الحجة ، ولايوصل إلى المقصود ، وبدون أخ مواتٍ مؤازر في السرّاء والضرّاء يستشار وتُبثُّ الشكوى إليه يحس الداعية بغربة هائلة محزنة ، ولذلك فقد ورد أنّ رسولنا عليه الصلاة والسلام دعا بهذه الدعوات .

قال الألوسي : (وجاء أنّ النبي ﷺ دعا بمثل هذا الدعاء ، إلا أنه أقام عليا كرم الله تعالى وجهه مقام هٰرون عليه السلام ، فقد أخرج ابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت : « رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير وهو يقول : أشرق ثبير ، أشرق ثبير ، اللهم إني أسألك ممّا سألك أخي موسى ، أن تشرح لي صدري ، وأن تيسّر لي أمري ، وأن تحلّ عقدة لساني يفقه قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي ، علياً أخي ، اشدد به أزري ، وأشركه في أمري ، كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنّك كنت بنا بصيراً » . ولا يخفى أنّه يتعيّن هنا حمل الأمر على أمر الإرشاد ، والدّعوة إلى الحق ، ولايجوز حمله على النبوة ، ولايصح الاستدلال بذلك على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد النبي ﷺ بلا فصل . ومثله فيما ذكر ماصح من قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته ! « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هٰرون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي » كما بيّن في التحفة الاثنى عشرية ، نعم في ذلك من الدلالة على مزيد فضل علي كرم الله تعالى وجهه مالا يخفى) .

فائدة :

من كلام موسى عليه السلام عندما سأل الله أن يؤيده بأخيه نفهم أدب الأخوة في الله ، والغاية منها ، فالأدب شد الأزر ، والاشتراك في الأمر ، والهدف ذكر الله ، وتسبيحه ، فما لم يتحقق بالأخوة كثرة الذكر ، لاتكون أخوة خالصة في الله ، وإذا كان لها هدف آخر غير ذلك فليست أخوة في الله . ولنعد إلى السياق :

فبعد أن منّ الله عز وجل على موسى بإعطائه سؤله ذكّره بنعمه عليه من قبل ؛ لتبقى ثقته بالله مطلقة فيما يأتي ، لأنه بدون الثقة المطلقة بالله لايستطيع رجل الدعوة أن يستمر . فقال : ﴿ **ولقد مننّا** ﴾ أي أنعمنا ﴿ **عليك مرّة** ﴾ أي كرّة ﴿ **أخرى** ﴾ أي قبل هذه ، ثم فسّرها فقال : ﴿ **إذ أوحينا إلى أمك** ﴾ إلهاماً أو مناماً حين ولدت وكان

فرعون يقتل أمثالك ﴿ **مايوحى** ﴾ وقد فسرّ مايوحىٰ بقوله ﴿ **أن اقذفيه** ﴾ أي ألقيه ﴿ **في التابوت فاقذفيه في اليم** ﴾ أي في النيل ﴿ **فليلقه اليمُّ بالساحل** ﴾ أي بجانب النهر ﴿ **يأخذه عدو لي وعدو له** ﴾ يعني فرعون ﴿ **وألقيت عليك محبَّة مني** ﴾ أي حببّتك إلى عبادي أو جعلت فرعون يحبك وهو عدوك ﴿ **ولتُصنع على عيني** ﴾ أي ولتربى بمرآى مني ، يعني : أنا راعيك ومراقبك ، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ، وقد نقل ابن كثير في معناها عن الجوني : « أنّه ولتربى بعين الله » قال صاحب الظلال بمناسبة هذه الآية : (إن موسى – عليه والسلام – ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار . إنه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان . إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر . ثم مع قومه بني إسرائيل وقد أذلّهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، وأضعف استعدادهم للمهمّة التي هم منتدبون لها بعد الخلاص ، فربّه يطلعه على أنه لن يذهب غفلا من التهيؤ والاستعداد . وأنه لم يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد . وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرّب على المشاقّ وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف وكان تحت سلطان فرعون وفي متناوله وهو مجرّد من كل عدّة ومن كل قوّة فلم تمتدّ إليه يد فرعون ، ...فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشدّه ، وربّه معه ، قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .) .

﴿ **إذ تمشي أختك** ﴾ هذا تفسير ثان لنعمة الله على موسى ﴿ **فتقول** ﴾ إذا رفضت المراضع ﴿ **هل أدلكم على من يكفله** ﴾ أي علىٰ من يضمّه إلى نفسه فيربيّه ، وأرادت بتلك المرضعة أمه ﴿ **فرجعناك** ﴾ أي فرددناك ﴿ **إلى أمك** ﴾ كما وعدناها كما هو مذكور في سورة القصص ﴿ **كي تقر عينها** ﴾ بلقائك ﴿ **ولا تحزن** ﴾ علىٰ فراقك ﴿ **وقتلت نفساً** ﴾ أي القبطي الكافر ﴿ **فنجيناك من الغمّ** ﴾ وهو ماحصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين ﴿ **وفتَّاك فتوناً** ﴾ أي ابتليناك ابتلاءً بإيقاعك في المحن ، وتخليصك منها ، هذا تذكير من الله لموسى بالمحن التي مر فيها ، وكيف أن كل محنة كانت كافية في عالم الأسباب لأن تقضي عليه ، لولا أن نجاه الله منها ، وفي ذلك تثبيت لقلبه وتقوية له فيما سيلاقيه من أخطار ﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين** ﴾ أي في أرض مدين وبين أهلها ﴿ **ثم جئتَ على قدرٍ ياموسى** ﴾ أي ثم جئت موافقاً لقدر الله وإرادته . وقال مجاهد : أي جئت على موعد . وقال قتادة :

جئت على قدر الرسالة والنبوة . والمعنى بشكل عام . ثم جئت على موعد مع قدرنا لتكون رسولاً نبيًّا ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ أي اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي ، لتتصرف على إرادتي ومحبتي . قال الزّجاج في معناها أي : اخترتك لأمري ، وجعلتك القائم بحجتي ، والمخاطب بيني وبين خلقي ، كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتي** ﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ **ولاتنيا** ﴾ أي ولا تفترا ﴿ **في ذكري** ﴾ أي لا تضعفا فيه ، والمراد أنّ عليهما ألا يفترا عن ذكر الله في كل حال ، ومن ذلك تبليغ الرسالة ، ومواجهة فرعون ، دلّ ذلك على أن رجل الدعوة لاينبغي أن يفتر عن ذكر الله ، ومتى فتر قصر ، ولم يستطع الدعوة والمتابعة والمواجهة والمجابهة على مايقتضيه أمر الله ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ أي جاوز الحد بادعائه الربوبية ﴿ **فقولا له قولاً ليناً** ﴾ أي ألطِفَا له في القول ﴿ **لعلّه يتذكر** ﴾ أي يتّعظ ويتأمّل ؛ فيذعن للحق ويلتزم به ﴿ **أو يخشى** ﴾ أي أو يخاف الله فيحدث له الخوف طاعة ، وفي هذه الآية عبرة وعظة كبيرتان للدعاة ؛ فموسى عليه السلام صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، وأن تكون دعوتهما له بكلام رقيق لين سهل رفيق ؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع ، ولكن هذا في ابتداء الدعوة ، وعند إقامة الحجة ، أما بعد ذلك فقد لاحظ أن موسى قال كما قصّه الله لنا في سورة الإسراء ﴿ **وإني لأظنك يافرعون مثبوراً** ﴾ وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) بيّنا درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن أول الدرجات التعليم ، ثم الوعظ ثم ... ولاشك أن الخطاب يختلف باختلاف المخاطب ، واختلاف حاله ودلّ قوله تعالى ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ أن مهمة الداعية إلى الله إمّا تذكير الإنسان بتعليمه الحقائق ، وإما إثارة الخشية في قلبه من الله تعالى .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثمّ جئت على قدر ياموسى** ﴾ ننقل ماقاله صاحب الظلال في شأن عودة موسى إلى مصر : (ويعود إلى البلد الذي نشأ فيه ، والذي فيه قومه بنو إسرائيل يعيشون تحت سياط فرعون وقهره . لماذا عاد . وقد خرج من مصر طريداً . قتل قبطيا فيها حين رآه يقتتل مع إسرائيلي ، وغادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألواناً ، حيث وجد الأمن والطمأنينة في مدين إلى جوار صهره الذي آواه وزوّجه إحدى ابنتيه . إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستاراً لما تهيئه لموسى من

أدوار .. وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرّك . تحرّكنا أشواق وهواتف ، ومطامح ومطامع ، وآلام وآمال .. وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة ، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولاتدركها الأبصار . يد المدبّر المهيمن العزيز القهار ...) .

كلمة في السياق :

مرّ معنا في مقدمة السورة قوله تعالى : ﴿ **طه * مأأنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى** ﴾ وهنا كلّف الله موسى أن يدعو فرعون إلى الله قائلاً له ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ ، فالسياق بيّن لنا أن إنزال الله القرآن على محمد ﷺ إنما هو استمرار لسنّة الله فى إرسال الرسال فما القرآن إلا وحي الله الذى أنزله على محمد ﷺ كما أنزل وحيه على غيره من الرسل ، فالرسل أمة واحدة والوحي واحد ، والهدف واحد ، والمؤمن يؤمن بوحي الله كله ، وذلك محور السورة من البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ولنعد إلى السياق :

﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا** ﴾ أي يعجل علينا بالعقوبة ﴿ **أو أن يطغى** ﴾ أي أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا ، خشيا أن يقابلهما بعقوبة مستعجلة ، أو بعقوبة قاسية متطاولة ﴿ **قال لاتخافا** ﴾ منه ثم علّل لذلك ﴿ **إنني معكما** ﴾ أي بالحفظ والتأييد والنصرة والتوفيق والرعاية ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ أي أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، وأسمع دعاءكما فأجيب ، وأرى مايراد بكما فأمنع ، لست بغافل عنكما فلا تهتما ، فإنّ ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفسّ ولايبطش إلا بإذني ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي ، ثمّ لقنهما الله مايقولان بما يحقق أمره لهما بالقول اللّين المذكّر الواعظ ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك** ﴾ إليك ﴿ **فأرسل معنا بني إسرائيل** ﴾ أي أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق لنذهب وإياهم إلى حيث شاء الله ﴿ **ولاتعذّبهم** ﴾ بتكليف المشاق ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ أي بحجة على صدق مادعيناه أي بمعجزة من الله ﴿ **والسلام على من اتبع الهدىٰ** ﴾ والمعنى: سلم من العذاب من أسلم ﴿ **إنا قد أوحي إلينا أنّ العذاب** ﴾ في الدنيا والعقبى ﴿ **علىٰ من كذّب** ﴾ بآيات الله ورسله ووحيه ﴿ **وتولّى** ﴾ أي أعرض عن طاعته . وهكذا حدّد الله لهما مضمون الخطاب ، ومن عرف هذا المقام أي كيف أن الله عز وجل أمرهما بالخطاب اللّين ثم حدّد لهما مضمون الخطاب الذي يخاطبانه به بما يحقق الأمر الأول ، أدرك أنّ الله

عزّ وجلّ لايترك شيئاً بلا بيان ، ولا يأمر أمراً إلا ويعلّم الإنسان كلّ مايلزم لتحقيقه وتنفيذه ، ثم طوى السياق مابين الأمر ومابين تنفيذه وحدّثنا مباشرة عمّا كان جواب فرعون لهما والتقدير :

فأتياه وأدّيا الرسالة وقالا له ماأُمرا به فكان الجواب : ﴿ **قال فمن ربكما ياموسى** ﴾ خاطب موسى لأنّه الأصل في النّبوة وهارون تابعه ، أو لأنه يعرفه من قبل ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدىٰ** ﴾ أي أعطىٰ كل شيء صورته وشكله وجبلّته التي تطابق الحكمة التي من أجلها خلق ، ثم هداه ليسير في طريقه المحدد بما يحقق الحكمة في هذا الكون ، وقد كانت هذه الآية مضمون ظاهرة كاملة كتبناها في كتابنا (الله جل جلاله) هي ظاهرة (الهداية) استدللنا بوجود الهداية في المخلوقات الحسية والمعنوية الصغيرة والكبيرة الحية وغير الحية على وجود ذات هادية أعطت كل شيء خلقه ، ثمّ هدته ، دلّل بوجود ظاهرة الهداية في الكون على خالق الكون ، فما أعظم هذا القرآن ، وما أعظم ماألهم الله موسى من حجة .

قال صاحب الظلال عند هذه الآية :(قال ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ .. ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . و(ثمّ) هنا ليست للتراخي الزّمني . فكلّ شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها ، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته ، وإنّما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلىٰ من خلقه غفلاً وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى - عليه والسلام - يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبّرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها . وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها .. وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود مايطيق - في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير . من الذرّة المفردة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخليّة الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان . هذا الوجود الكبير المؤلف ممّا لا يحصى من الذرّات والخلايا ، والخلائق والأحياء ، وكل ذرّة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حي فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى .. وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار

النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات ! وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل في داخله ذرّاته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها ، داخل حدود النّاموس العام ، في توافق وانتظام .

وكل كائن بمفرده - ودعك من الكون الكبير - يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه . دراستها مجرد دراسة لاخلقها ولا هدايتها إلى وظائفها ، فذلك خارج كلّيّة عن طوق الإنسان . وهو خلق من خلق الله ، وهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها ، للوظيفة التي خلق لها ، كأي شيء من هذه الأشياء ، ألا إنه الإله الواحد ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾) .

﴿ **قال فما بال** ﴾ أي فما حال ﴿ **القرون الأولى** ﴾ أي الأجيال السالفة ، أو الأعصار السابقة ، الظاهر أن فرعون سأل هذا السؤال ليفرّ من الإلزام بالحجة ، فلا يعترف لرب موسى بالربوبية ، وعلى هذا فسؤاله يحتمل معنيين الأول : إذا كان الأمر كماتقول بأن الله خالق كل شيء وهاديه ؛ فأخبرني عن تاريخ هذا العالم وأعصاره وأزمانه وأممه مادمت رسولاً لله . والثاني : هو ماعبرّ عنه ابن كثير بقوله : (أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لمّا أخبره موسى بأنّ ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدّر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى ، أي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك - لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ، فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب الأعمال » وعلى كل فإن مراده الفرار من إلزام موسى الحجة ؛ ولذلك أجاب موسى على كلامه جواباً سريعاً ، وعاد ليقيم الحجة عليه بلفت نظره إلى مظاهر هذا الكون ، وفي ذلك تعليم لنا ألا ندخل مع الكافرين في المسارب التي يريدون أن يدخلونا فيها للفرار من الإلزامات الواضحة لهم ﴿ **قال** ﴾ موسى مجيباً ﴿ **علمها عند ربي في كتاب** ﴾ أي في اللوح المحفوظ ، أي هذا سؤال عن الغيب ، وقد استأثر الله بعلمه لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علاّم الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ﴿ **لايضل ربي** ﴾ أي لا يخطيء شيئاً ﴿ **ولاينسى** ﴾ شيئاً وصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط ، وأنه لاينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس ، وتنزه ، فإن علم المخلوق يعتريه

نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه الله عن ذلك، وذكر ذلك بعد قوله تعالى ﴿ **في كتاب** ﴾ إشارة إلى أن الكتاب ليس خشية الخطأ والنسيان، بل لحِكَم، منها أن يعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه عز وجل وأن الأمر في غاية الضبط، وفي ذلك تعليم للإنسان أن يضبط الأمور في كل حال بالكتابة، ثم يستأنف موسى التعريف على الله الذي بدأه بقوله: ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدىٰ** ﴾ ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً..** ﴾).هذه وجهة نظر ابن كثير في السياق وهو الذي يتفق مع مااستنتجناه من أن موسى - عليه السلام - فوّت على فرعون فرصته في الفرار من الجواب الملزم، إلا أنّه يمكن أن يفهم السياق فهماً آخر وهو: أن يكون موسى أجاب فرعون على سؤاله الثاني المستكن في السؤال الأول ثم استمرّ بما يحقّق الجواب عن السؤالين مفوّتاً الفرصة على فرعون في التقديرين من الفرار من الإلزام، وعلى هذا يكون السياق:

﴿ **قال علمها عند ربي في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى، الذي جعل الأرض مهداً ..** ﴾ فيكون قوله تعالى: ﴿ **الذي جعل الأرض مهداً ..** ﴾ تدليلاً على أن الله عزّ وجل لا يضل ولا ينسى، وفي الوقت نفسه تعريفاً على الله، فيكون الكلام الجديد متضمناً الإجابة عن السؤالين بآن واحد:

﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهداً** ﴾ أي بساطاً وفراشاً، أي صالحة للقرار والاستقرار والنوم والراحة ﴿ **وسلك** ﴾ أي جعل ﴿ **لكم فيها سبلاً** ﴾ أي طرقاً ﴿ **وأنزل من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **فأخرجنا به** ﴾ أي بالماء ﴿ **أزواجاً** ﴾ أصنافاً ﴿ **من نبات شتى** ﴾ أي مختلف، أي فأخرج الله بهذا الماء أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر، بعضها للناس، وبعضها للبهائم التي تخدم الإنسان، والتي كثير من علفها هو مما يفضل عن حاجة الإنسان، مما لا يقدر الإنسان على أكله، وفي اختلاف منافع النباتات المختلفة واختلاف لونها ورائحتها وشكلها بما يخدم مصالح الإنسان دليل على أن هناك ذاتاً هي التي سخّرت كل شيء في هذه الأرض لصالح الإنسان، وفي كتابنا (الله جل جلاله) تحدّثنا كثيراً عن ظاهرتي العناية والإرادة مستدلين بهما بما لايقبل الجدل على وجود الله.

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ قال صاحب الظلال: (وقد شاء الخالق المدبّر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء. وهي ظاهرة مطردة في

الأحياء كلها . والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة ، وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية . وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرّد في كل الفصائل والأنواع ..) .

ملاحظة :

نلاحظ أن السياق في الآية ﴿ **وأنزل من السماء ماءً** ﴾ انتقل من الغيبة إلى لفظ المتكلم ﴿ **فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ وقد علّل بعضهم هذا الانتقال بأنه بسبب انتهاء كلام موسى ، فإذا صح هذا يكون فرعون قد قطع على موسى كلامه ؛ ومن ثم فإن الله عز وجل قد أكمل ماكان يريد أن يقوله ، فأخبر الله تعالى عن نفسه بقوله ﴿ **فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى** ﴾ قائلين للناس ﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم** ﴾ وعلّل بعضهم لذلك بأن هذه المعاني كلها قد قالها موسى ، ولكن أراد الله أن يفهمنا أن كلام موسى كان مطابقاً للحق ، حتى لو تحدّث الله عن ذاته ، فذلك يكون كلامه ، ومن ثم أجرى الله عز وجل هذا الكلام على أنّه كلامه ، ولنعد إلى السياق .

﴿ **كلوا وارعَوْا أنعامكم** ﴾ أي أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها ، وتعلفوا بعضها ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾ إنّ في الذي ذكر لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ **لأولي النُّهىٰ** ﴾ أي لذوي العقول ، والنُّهىٰ : جمع نهية وإنما سمي العقل نهية إما لأنه ينهى عن المحظور ، أو لأن الأمور ينتهىٰ بها إليه ، ثم أخبرنا تعالى أن هذه الأرض التي جعلها كما أخبرنا هي بالنسبة لنا منها المبدأ وإليها المصير ، ومنها إخراجنا للبعث ؛ فأن تكون الأرض كذلك فذلك دليل على إرادة الله وعنايته وعلمه وقدرته ، وفي ذلك مايذكّر الإنسان ويعظه ﴿ **منها** ﴾ أي من الأرض ﴿ **خلقناكم** ﴾ أي خلقنا أباكم آدم منها وخلقناكم من أغذيتها ﴿ **وفيها نعيدكم** ﴾ إذا متم ﴿ **ومنها نخرجكم** ﴾ أي عند البعث ﴿ **تارة أخرى** ﴾ أي مرة أخرى قال النسفي :

(والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ، ويردهم كما كانوا أحياءً ويخرجهم إلى المحشر ، وهكذا بيّن ماعلق بالأرض من مرافق حيث جعلها الله للبشر فراشاً ومهاداً يتقلّبون عليها ، وسوّىٰ لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا ، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم ، وعلوفات بهائمهم ، وهي أصلهم الذي

منه تفرّعوا وأُمّهم التي منها ولدوا ، وهي التي تضمهم إذا ماتوا ، فهل يكون ذلك إلا بالله ومن الله ، فكيف يجحد الإنسان بعد ذلك وجود الله رب العالمين ، ولا يعترف له بالربوبية ، ولا يقرّ على نفسه بالعبودية) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الآيات التي مرت معنا استقرت على قوله تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ كما نلاحظ أن بداية الخطاب لموسى- عليه السلام – كان فيه : ﴿ **إنّ الساعة آتية أكاد أُخفيها** ﴾ ممّا يشير إلى أن الكلام عن اليوم الآخر جزء رئيسي في السورة ، وسنرى مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع ، وعن غيره ، ففي السورة حديث موسّع :

١ – عن الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ .

٢ – وماأنزل على مَنْ قبله .

٣ – وعلى اليقين باليوم الآخر ، وأنَّ أصحاب ذلك مهتدون مفلحون ، ولذلك صلة بالمحور : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فالسورة تفصّل هذه المعاني كلها من خلال الخطاب المباشر للرسول ﷺ ، أو من خلال مايقصه الله ، أو من خلال مايعرضه أو يأمر به . ونلاحظ أنه بالآيات التي مرّت معنا تنتهي الجولة الأولى من قصة موسى – عليه السلام – وفيها تمّ الكلام عن التكليف بالرسالة ، وعن القيام بإحدى مهمّات التكليف ، وهي تبليغ فرعون ، وإقامة الحجة عليه ، وقد رأينا من دروس ذلك الكثير ، ورأينا صلة ذلك بالسياق الخاص للسورة ، والسياق القرآني العام ، والآن تأتي جولة ثانية من قصة موسى – عليه السلام – قصة التحدي والغلبة وإيمان السحرة النموذجي ، الذي يقصّه الله علينا ليبيّن لنا أثر الإيمان الحقيقي ، وفلاح أهله بالآخرة ، وكيف أن الذين لايؤمنون إنما هم طاغون باغون ظلمة ، لايصرفهم عن الإيمان ضعف حجة ، بل عمى قلب ، وطغيان نفس ، وكل ذلك يخدم السياق الخاص للسورة ، والسياق القرآني العام .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٥٦) إلى نهاية الآية (٧٦) وهذا هو

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ

لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها** ﴾ لم يذكر هنا الآيات التي أريها ، ولكن من السياق نعرف أنه الحجج والبراهين والمعجزات وهي انقلاب العصا حية ، وخروج يد موسى بيضاء من غير سوء ، وفي سورة الإسراء قال تعالى : ﴿ **ولقد أتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ . ﴿ **فكذّب** ﴾ بالآيات ﴿ **وأبى** ﴾ قبول الحق ، ذلك موقف الكافرين من الحق ، التكذيب به ، ورفضه في كل زمان ومكان ، وإن زخرفوا هذا الرفض وهذا التكذيب بآلاف الصور ، إلا أن المسألة تبقى هكذا ، تكذيب للحق ، ورفض له ، مع قيام الحجة به ، فإذا تذكرنا أن محور السورة من سورة البقرة هو ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك** ﴾ عرفنا أن قصة فرعون في هذا السياق تعرفنا على أن الذين لايؤمنون يكذبون ويرفضون ، لا لقصور في الحجة ، ولا لانعدام الآيات ، بل لمرض في أنفسهم ، ثم قال تعالى ﴿ **قال** ﴾ أي فرعون ﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى** ﴾ قال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من

تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا ، وتستولي به على الناس ، فيتبعونك ، وتكاثرنا بهم ولايتم هذا معك ، فإن عندنا سحراً مثل سحرك ، فلا يغرنك ماأنت فيه .

وقال صاحب الظلال عن هذه الآية والآية التي بعدها : ﴿ **قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟** ﴾ (ويظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم ، وفي سبيل الملك والحكم لايتحرج الطغاة من ارتكاب أشدّ الجرائم وحشية وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية وعن الخلق والشرف والضمير ، ومن ثمّ كان فرعون يستأصل بني إسرائيل ويذلّهم بقتل المواليد الذكور . واستبقاء الإناث ، وتسخير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال .. فلمّا قال له موسى وهارون : أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم . ﴿ **قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟** ﴾ لأن إطلاق بني إسرائيل تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض .

وإذا كان موسى [في زعم فرعون] يطلب إطلاق بني إسرائيل لهذا الغرض ، وكل مايقدمه هو عمل من أعمال السحر ، فما أسهل الرد عليه : ﴿ **فلنأتينك بسحر مثله** ﴾ .. وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض ، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم .. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق . فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهرياً .. سحر نأتي بسحر مثله ! كلام نأتي بكلام من نوعه ! صلاح نتظاهر بالصّلاح ! عمل طيب نرائي بعمل طيّب ! ولايدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان ، ورصيداً من عون الله ، فهي تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال .) .

﴿ **فلنأتينّك بسحر مثله** ﴾ أي فلنعارضك بسحر مثل سحرك ، وهكذا نقل فرعون المسألة من صبغتها الدينية فأعطاها صبغة سياسية ووطنية ، وذلك دأب الظالمين مع أهل الحق ، إذا وعظوهم أو ذكّروهم أو أمروهم أو نهوهم فإنّهم يتهمونهم في نيّاتهم ، ويثيرون عليهم شتى العواطف ، ثم قال فرعون لموسى ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعداً** ﴾ أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه ، فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر في مكان معيّن ، ووقت معيّن ﴿ **لانخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى** ﴾ أي مستويا لايغيّب فيه شيء شيئاً آخر ، من أجل أن يرى الناس جميعاً مايحدث ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **موعدكم**

يوم الزينة ﴾ أي يوم عيدكم ، وتفرغكم من أعمالكم ﴿ **وأن يُحشَر الناس** ﴾ أي يجمعوا ﴿ **ضحى** ﴾ أي وقت الضحوة ، واختياره يوم عيدهم ليشاهد الجميع قدرة الله على مايشاء ، ومعجزات الأنبياء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات ، فيكون التبليغ للجميع ، وتقوم الحجة على الجميع ، واختياره وقت الضحىٰ ليكون هناك متسع من الوقت نهاراً ، ليشيع ماحدث ، ويتذاكر الناس فيه أطول وقت ممكن بقية يومهم ، فيستقر في قلوبهم ، وليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح وأبعد عن الريبة ، وأكثر كشفاً للحق .

قال ابن كثير : (وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، ولذا لم يقل ليلاً ، ولكن نهاراً ضحى) أقول : وفي ذلك درس للدعاة أن يختاروا الوقت الأنسب للشيء الذي يرغبوا أن يقدموه للناس خدمة لدين الله ﴿ **فتولى فرعون** ﴾ أي شرع معرضا عن موسى في جمع السحرة من مدائن مملكته ، وقد كان السحر فيهم كثيراً ﴿ **فجمع كيده** ﴾ أي مكره وسحرته ﴿ **ثم أتى** ﴾ للموعد ﴿ **قال لهم موسى** ﴾ أي للسحرة ﴿ **ويلكم لاتفتروا على الله كذباً** ﴾ أي لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً ، أو لاتخيّلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لاحقائق لها ؛ فتكونوا قد كذبتم على الله ﴿ **فيسحتكم** ﴾ أي فيهلككم بسبب ذلك ﴿ **بعذاب** ﴾ أي فيهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له ﴿ **وقد خاب** ﴾ أي خسر ﴿ **من افترى** ﴾ أي من كذب على الله ، وفي قول موسى هذا درس بليغ للدعاة ألا يقصروا في الوعظ في كل حال ، وحتى لأشد أنصار الظالمين ، فهؤلاء السحرة حشدهم فرعون ليجابه موسى ، فوعظهم موسى ، فأفاد هذا الوعظ مرّتين ، مرّة في خلخلة صفهم ، ومرّة بعد ذلك إذ أسلموا جميعاً ، فلا يتركن المسلم دعوته في أي ظرف ﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ أي اختلفوا وتشاجروا ، ولانعرف بالضبط ماهو مضمون النزاع ، وقد قدّر بعض المفسرين أن يكونوا اختلفوا في شأن موسى هل هو ساحر مثلهم ؟ أو غير ساحر ؟ وليس في معرفة ذلك كبير طائل مادام النصّ قد أبهم مضمون اختلافهم ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ أي كان تناجيهم فيما بينهم سراً ، والذي يبدو - والله أعلم - أنهم تكتّموا على خلافهم ، ولم يحاولوا أن يظهروه ، وردّدوا فيما بينهم ما أعلنه فرعون من قبل ولذلك ﴿ **قالوا إن هذان لساحران** ﴾ أي إنه هذان لساحران ﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم** ﴾ مصر أي يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ليستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ، ويقاتلا فرعون وجنوده فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم ﴿ **بسحرهما ويذهبا بطريقتكم** ﴾

أي بدينكم وشريعتكم ﴿ **المثلى** ﴾ أي الفضلى ﴿ **فأجمعوا** ﴾ أي أحكموا ﴿ **كيدكم** ﴾ أي ماتكيدون به موسى ، أي اجعلوه مجمعاً عليه حتى لاتختلفوا ﴿ **ثم ائتوا صفّاً** ﴾ أي ائتوا مصطفّين ، اتّفقوا على ذلك لأنّه أدلّ على وحدتهم ، وأوقع في قلوب الرائين ﴿ **وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ أي وقد فاز من غلب ، وهكذا حالُ أهلِ الباطلِ في الظاهر مجتمعون ، وفي الباطن مختلفون ، يتظاهرون بشيء ، ويبطنون غيره ، مولعون بالاستعراضات والمظاهر والمسيرات ، ليغطوا بها ضعفهم النفسي ، ثمّ توجّهوا إلى موسى بالخطاب ﴿ **قالوا** ﴾ أي السحرة ﴿ **ياموسى إما أن تلقي** ﴾ عصاك أولاً ﴿ **وإما أن نكون أول من ألقى** ﴾ أي اختر أحد الأمرين : إلقاؤك أولاً ، أو إلقاؤنا أولاً ، وهذا التخيير منهم أدب حسن معه ، وقد وصلت بركة الأدب إليهم إذ أسلموا بعد ذلك ﴿ **قال بل ألقوا** ﴾ أي أنتم أولاً ، وذلك ليبرزوا مامعهم من مكايد السحر ، ويظهر الله سلطانه ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه ، فيصير آية نيرّة للناظرين ، وعبرة بيّنة للمعتبرين فألقوا ﴿ **فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه** ﴾ أي إلى موسى ﴿ **من سحرهم أنها تسعى** ﴾ أي تتحرك وتضطرب ، وهو عمل يشبه معجزة موسى في الظاهر ، ويبدو أن سحرهم كان في غاية القوة ، حتى أن موسى نفسه خيّل إليه أن حبالهم وعصيهم تتحرك ، ولنا في الفوائد كلام حول السحر والفارق بينه وبين المعجزة ﴿ **فأوجس في نفسه خيفة موسى** ﴾ أي أحس برهبة بحكم الجبلّة البشريّة ، أو خاف أن يخالج النّاس شكّ فلايتّبعوه ، وهذا الذي رجحه ابن كثير ولم يحك غيره قال :

(أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم) والظاهر الأول وهو الذي قدّمه النسفي ، وليس في ذلك منقصة لموسى ، بل هو الكمال ليكون قدوة ، فليس الشأن ألاّنحس في الخوف ، ولكنّ الشأن ألاّ نستسلم له ﴿ **قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى** ﴾ أي الغالب القاهر ، أكد له الغلبة بأكثر من مؤكد ، كما هو معلوم في اللغة ﴿ **وألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا** ﴾ أي مازوّرا وافتعلوا ، أي اطرح عصاك تبتلع عصيّهم وحبالهم ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر** ﴾ ليس إلا ، وكيد الساحر لاقيمة له ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ أي أينما كان ﴿ **فألقي السحرة سجّداً** ﴾ أي ألقى موسى عصاه فتلقفت ماصنعوا ؛فلعظم مارأوا من الآية وقعوا ساجدين قال الأخفش : من سرعة ماسجدوا كأنّهم ألقوا . قال النسفي : فما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم

وعصيّهم للكفر والجحود ، ثمّ ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ﴿ **قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ وهكذا شأن المنصفين إذا رأوا الآية ، وقامت عليهم الحجة ، لقد عرفوا - لِعلمهم بالسحر - أن المسألة ليست بسحر ، وبقي الكافر اللعين فرعون يزعم أن فعلة موسى سحر ﴿ **قال** ﴾ فرعون حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ﴿ **آمنتم له** ﴾ أي صدّقتموه ﴿ **قبل أن آذن لكم** ﴾ أي وماأمرتكم بذلك فافتئتم عليّ في ذلك ، طالبهم بمنطق السلطان بالطاعة ، والانضباط والتقيّد بالأوامر ، وعدم التصرف إلا بإذن ، ولم يدر أنّ سلطان الله فوق سلطانه ، وأمر الله فوق أمره ، ثم قال لهم قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿ **إنه لكبيركم** ﴾ أي لعظيمكم أو لمعلمكم ﴿ **الذي علمكم السحر** ﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإيّاه عليّ ، وعلى رعيّتي لتظهروه ، ثم لجأ إلى سلاح الإرهاب والتهديد ، وهو سلاح الظالمين الأخير ﴿ **فلأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ القطع من خلاف : أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، لأنّ كلّ واحد من العضوين يخالف الآخر ، بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال يعني : لأقطعنّها مختلفات ﴿ **ولأصلبنّكم في جذوع النخل** ﴾ هدّدهم بأن يجمع لهم بين القطع والصلب ، وتلك أفظع موتة ، لأنها تجمع بين المثلة والألم والتشهير ثم قال ﴿ **ولتعلمنّ أينا أشد عذاباً وأبقى** ﴾ أي أنا على ترك إيمانكم بي ، أو رب موسى على ترك الإيمان به ، أو أنا أو موسى عذابنا أشد وأبقى ؟ أي أكثر ألما وأدوم ﴿ **قالوا** ﴾ أي السحرة ﴿ **لن نؤثرك** ﴾ أي لن نختارك ﴿ **على ماجاءنا من البيّنات** ﴾ أي الأدلة القاطعة الدالّة على صدق موسى ﴿ **والذي فطرنا** ﴾ أي لن نختارك على الذي جاءنا ولا على الذي خلقنا ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ أي فاحكم ماأنت حاكم ، أي فاصنع ماأنت صانع من القتل والصلب ، أي فافعل ماشئت وماوصلت إليه يدك ﴿ **إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ، أي إنما تحكم فينا مدة حياتنا .

قال ابن كثير : أي إنما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا** ﴾ أي ذنوبنا ﴿ **وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ أي وليغفر لنا ماأكرهتنا عليه من السحر ، لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيّه ﴿ **والله خير** ﴾ لنا منك ، أو خير ثواباً لمن أطاعه ﴿ **وأبقى** ﴾ وأبقى عقاباً لمن عصاه ، وهو ردّ لقول فرعون ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى** ﴾ .

قال ابن كثير : (والظاهر أن فرعون لعنه الله صمّم على ذلك ، وفعله بهم ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء) ثم أتمّوا كلامهم واعظين فرعون ومحذرين له من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ومرغّبين له في ثوابه الأبدي المخلّد ومعلّلين لإيمانهم فقالوا ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً** ﴾ أي كافراً ﴿ **فإن له جهنم لايموت فيها** ﴾ فيستريح بالموت ﴿ **ولا يحيىٰ** ﴾ أي حياة ينتفع بها ﴿ **ومن يأته مؤمنا** ﴾ أي بأن مات على الإيمان ﴿ **قد عمل الصالحات** ﴾ أي بعد أن آمن ﴿ **فأولئك هم الدرجات العلىٰ** ﴾ جمع العليا ثم فسرّ الدرجات العلىٰ بقوله ﴿ **جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ أي دائمين فيها ومعنى النص : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله فأولئك لهم الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ﴿ **وذلك جزاء من تزكى** ﴾ .

قال ابن كثير : (أي طهرّ نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبدالله وحده لاشريك له واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب) .

وماذكرناه من أن هذه الآيات الثلاث هي حكاية قول السحرة هو الذي رجّحه ابن كثير ، وهو الذي مشينا عليه في التفسير ، ورجح النسفي : أنها خبر من الله تعالى لاعلى وجه الحكاية ، والذي نرجّحه هو مارجّحه ابن كثير .

وبهذا تنتهي الجولة الثانية من قصة موسى في هذه السورة .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وقد رأينا في هذه المجموعة من السورة نموذجاً على الإيمان الصادق بالله ورسوله ، ونموذجاً عن الإيمان اليقيني باليوم الآخر ، وماهي آثار ذلك ، فهؤلاء سحرة فرعون عندما خالط الإيمان بالله واليوم الآخر قلوبهم ، أعلنوا إيمانهم في وجه فرعون واستهانوا بكل عقوباته واتهاماته وتهديداته ، ولم يبق في قلوبهم إلا الرغبة في رضوان الله ونيل ثوابه ، وإذا كان المقطع قد قصّ علينا مايفعله الإيمان ، فقد قصّ علينا كذلك من خبر فرعون ماعرفنا به أن عدم الإيمان بوحي الله ليس إلا أثر الكبر والعنجهية .

أمّا الصّلة بين مقدمة السورة وسياقها هنا فهي من حيث إنها تبيّن لنا أن الوحي تذكرة لمن يخشى ، وقد رأينا كيف أن السحرة تذكروا ، فلم يكن الوحي شقاءً لموسى ، ولا لهم ، فالشقاء : هو بقاء الإنسان على الكفر ورفضه للحق ، والعبرة بالخواتيم في الدنيا والآخرة ، ولئن كانت خاتمة السحرة شهادة ، فإنها سعادة إذ هي أمنية المؤمنين وقد نالوا رضوان الله ، ولكن كيف كانت عاقبة فرعون ، وماذا أعد له في الآخرة ؟ .

إنه لاسعادة بدون هداية ، ولا شقاء معها ، ولا فلاح بدون إيمان ولا شقاء معه ، وفي قول السحرة ﴿ **إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾ مايفيد أن الإنسان لو عذّبه الكافرون كل حياته لما كان ذلك يساوي شيئاً ، ولما كان ذلك بالنسبة له شقاءً .

ومن ثم فإننا ندرك - وسيزداد هذا الإدراك وضوحاً - أن السورة تعالج موضوع التصور الخاطىء للشقاء والسعادة الذي عليه الكافرون ، فالسعادة : هي الإيمان بالوحي واليوم الآخر ، والشقاء : هو رفض ذلك ، فالكافر شقيّ شقيٌّ مهما كان غارقاً في اللذات ، والمؤمن سعيدٌ سعيدٌ مهما كان غارقاً في الآلام ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ولننتقل إلى جولة جديدة من قصة موسى - عليه السلام - نرىٰ فيها عاقبة فرعون ، وعاقبة موسى وقومه ، هي تعطي درساً جديداً لأهل الإيمان ، وهذه الجولة تبدأ من الآية (٧٧) إلى نهاية الآية (٩٨) ، ثم تأتي آيات تبين حكمة ذكر قصة موسى في هذا القرآن ، وعاقبة الإعراض عن هذا القرآن ، وتعرض لمشاهد من يوم القيامة ، وتعود للكلام عن القرآن وخصائصه ، وحكمة إنزاله ، وكل ذلك بما ينسجم مع سياق السورة الخاص ، ومع محورها ضمن السياق القرآني العام ، ومن ثم فسنعرض هذه الآيات عرضاً واحداً حتى نهاية الآية (١١٤) أي إلى بداية قصة آدم عليه السلام ، وذلك هو المقطع الثالث في السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث في السورة

ويمتدّ من الآية (٧٧) إلى نهاية الآية (١١٤) وهذا هو :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا

وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ
عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۙ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى
خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى
ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا
قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى** ﴾ حين أصرّ فرعون على أن لا يرسل معه بني إسرائيل بعد كل الآيات والعقوبات ﴿ **أن أسر بعبادي** ﴾ أي أمرناه أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً ، ويأخذ بهم طريق البحر ﴿ **فاضرب لهم** ﴾ أي فاجعل لهم ﴿ **طريقاً في البحر يبساً** ﴾ أي يابساً ﴿ **لاتخاف دركاً** ﴾ أي لحاقاً ﴿ **ولا تخشى** ﴾ أي وأنت لا تخشى أي اضرب لهم طريقاً غير خائف أن يدركك فرعون وجنوده ، أو يلحقوك ، أو تغرق أنت وقومك ﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده** ﴾ أي خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿ **فغشيَهم** ﴾ أي غطّاهم ﴿ **من اليمّ** ﴾ أي من البحر ﴿ **ماغشيهم** ﴾ قال النسفي أي : أصابهم من البحر ماغشيهم ، هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله عز وجل ﴿ **وأضل فرعون قومه** ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿ **وماهدىٰ** ﴾ أي وما أرشدهم إلى الحق والسداد .

كلمة في السياق :

ختم الله عز وجل الكلام عن فرعون بقوله ﴿ **وأضل فرعون قومَه وماهدىٰ** ﴾ مع أنه كان يقول لقومه كما قص الله علينا في مكان آخر ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ (غافر : ٢٩) مما أفهمنا أنه لاهُدىٰ إلا بالإيمان بما أنزل الله ، كما ذكر الله في الآيتين اللتين هما محور هذه السورة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فالخاتمة التي ختمت بها قصة فرعون دلّت على أن الشقاء الحقيقي للكافرين ، إذ لهم سوء العاقبة ، وبعد سوء العاقبة لهم النار ، فهذا هو الشقاء ، أن يكون الإنسان ضالاً ، فيأخذه عذاب الله وهو كذلك ، ثم له النار بعد ذلك . أما أهل الإيمان فالعاقبة لهم في الدنيا ولهم الآخرة ، وهم سعداء في الدنيا بالإيمان والهدى ، وسعداء في الآخرة بالنعيم .

ثم اتجه السياق إلى مخاطبة بني إسرائيل ﴿ **يابني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم** ﴾ فرعون ﴿ **وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ وهو الذي كلّم الله تعالى عليه موسى من قبل ، وكلّمه عليه من بعد ، وأعطاه عليه الألواح ، وسأله عليه الرؤية ، وهذه المواعدة من أجل إعطاء الله موسى الألواح كما سنرى ﴿ **ونزَّلنا عليكم المنّ والسلوى** ﴾ أي في التيه . ذكّرهم بأعظم نعمه عليهم : النجاة من العدو ، وإنزال الكتب ، وإنزال المنّ والسلوى في أيام التيه ، حيث كانوا في أشد حالات الحاجة ، ثم قال تعالى ﴿ **كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾ أباح لهم أن يأكلوا من الحلالات ، وهذا من تمام النعمة ، ثم حذّرهم فقال ﴿ **ولاتطغوا فيه** ﴾ أي ولا تطغوا في رزقي ، فتتعدوا حدود الله ، وتكفروا نعمَهُ ، وتنحرفوا عن شريعته ، ويظلم بعضكم بعضاً ﴿ **فيحلَّ عليكم غضبي** ﴾ أي فأغضب عليكم ﴿ **ومن يحلل عليه غضبي** ﴾ أي عقوبتي ﴿ **فقد هوى** ﴾ أي فقد هلك ، أو سقط سقوطاً لانهوض بعده ، ثمّ بيّن لهم طريق التوبة بعد السقوط ، إذا حدث طغيان ﴿ **وإني لغفّار لمن تاب** ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ﴿ **وآمن** ﴾ أي صدّق بقلبه ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ أي بجوارحه ﴿ **ثم اهتدى** ﴾ أي استقام وثبت على الهدى ، أي استقام على منهج الله وسار عليه حتى لقي الله ، دلّ ذلك على أن الاهتداء الكامل أثر عن الإيمان والعمل الصالح والتوبة .

كلمة في السياق :

هذا الخطاب لبني إسرائيل فيه درس لأهل الإيمان ألا يطغوا ؛ فإنّهم إن طغوا حل بهم ماحل بالطغاة ، ففرعون لم ينزل الله به عقابه إلا لطغيانه واعتدائه على أهل الإيمان ، فإذا أصبح أهل الإيمان طغاة فانهم في هذه الحالة يصبحون كفرعون في استحقاقهم سخط الله وغضبه ، ثمّ أكمل الله الدرس بأن دل على الطريق في حالة وقوع الطغيان وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح والاستقامة .

إنّ أهل الإيمان إذا أيدهم الله قد يظنون أن لهم شأناً خاصاً عند الله يبيح لهم أن يفعلوا ماشاؤوا ، فيخالفوا ويعصوا ، فنبه الله عز وجل على ذلك في هذا السياق ، ففي الآيات تنبيه لأهل الإيمان على منعرج خطر في الطريق .

قد لاحظنا أنّ ممّا منَّ الله على بني إسرائيل هو مواعدته إياهم جانب الطور الأيمن ، وهاقد وصل السياق إلى قصة هذه المواعدة ، وكيف أن بني إسرائيل فتنوا خلال غيبة موسى عنهم ، وكيف عالج موسى هذه الفتنة ، والسياق ينقلنا مباشرة إلى مخاطبة موسى التي نفهم منها أن موسى قد سبق قومه إلى مكان الموعد ﴿ **وما أعجلك عن قومك ياموسى** ﴾ أي وأي شيء عجّل بك عن قومك ، أي أي شيء أوجب عجلتك ، والاستفهام للإنكار كما قال النسفي ، دلّ على أنّ التقيّد الحرفي في الأوامر هو الكمال ، فهذا موسى عجّل للقاء الله مجتهداً ، وهو في اجتهاده يتصور أن في ذلك مرضاة الله ، ولاشك أن الشوق كان يدفعه ويحدوه ، ومع ذلك أنكر الله عليه عجلته ، كما دلّ على أن رعاية شؤون الأمة بالمعاناة معها لإبقائها على أمر الله هو الوضع السليم ، لا الانفراد والسبق ، ولو كان بنيَّة صالحة ﴿ **قال هم أولاء على أثري** ﴾ أي هم خلفي يلحقون لي ، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ، ثم ذكر موجب العجلة فقال ﴿ **وعجلت إليك ربّ** ﴾ أي إلى الموعد الذي وعدت ﴿ **لترضىٰ** ﴾ أي لتزداد عني رضاً ولا نلاحظ أنّ الله عز وجل قد عاقبه على استعجاله ، لأنّه كان مجتهداً ، وأقبل بنيَّة صالحة سوى ذلك العتاب الذي بدأه به لما سأله عن سبب استعجاله ، وهو أعلم ، إلا أنّ السيّاق يفهمنا الكثير :

وذلك أننا نعلم من سياق القصة في مكان آخر أن موسى - عليه السلام - بقي أربعين ليلة ، وأعطاه الله الألواح فيها ، وأعلمه فيها بما أحدث قومُه ، إلا أنه هنا قد

طوى الكلام إلا عن الإخبار بما حدث لقومه بعده ، وفي ذلك نوع إشعار بالخطأ في الاستعجال انعكس على الأمة بأسرها ، وفي ذلك درس لأهل الإيمان بالالتزام الحرفي بالوحي أئمة ومأمومين ، وهذا كله نفهمه من استعمال حرف الفاء في الجواب التي فيها ظلال السببية ﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك** .. ﴾ ولننتقل إلى الآيات التالية :

﴿ **قال فإنا قد فتنّا قومك** ﴾ أي ألقيناهم في فتنة ﴿ **من بعدك** ﴾ من بعد خروجك من بينهم ﴿ **وأضلّهم السامري** ﴾ أي بدعائه إيّاهم إلى عبادة العجل ، وإجابتهم له ﴿ **فرجع موسى إلى قومه** ﴾ من مناجاة ربه ﴿ **غضبان أسِفاً** ﴾ أي شديد الغضب ، شديد الحزن ، وكيف لايغضب ويحزن وهم قد عبدوا غير الله مما يعلم كل ذي عقل بطلان ماعبدوه ، وموسى فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم مافيه هدايتهم وشرفهم من ربهم ﴿ **قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً** ﴾ قال ابن كثير : أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة ، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم ، وإظهاركم عليه ، وغير ذلك من أيادي الله ؟؟ ﴿ **أفطال عليكم العهد** ﴾ أي في انتظار ماوعدكم الله ، ونسيان ماسلف من نعمه ، وما بالعهد من قِدَم ﴿ **أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم** ﴾ أي بل أردتم بصنيعكم هذا أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم ﴿ **فأخلفتم موعدي** ﴾ أي ماوعدتموني إيَّاه في توحيد الله وإقامة أمره ﴿ **قالوا ماأخلفنا موعدك بمَلْكنا** ﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا ، أي ما أخلفنا موعدك إن ملكنا أمرنا ، أي لو ملكنا أمرنا وخُلّينا ورأينا لما أخلفنا موعدك ، ولكنا غُلِبنا عليه ، ثمّ بيّنوا كيف غلبوا بكيد السامري حيث أتاهم بمنطق في غاية الخبث ، وهاهم شرعوا في تبيانه ﴿ **ولكنّا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم** ﴾ أي أثقالاً من حلي القبط ، أرادوا أنها آثام وتبعات لأنّهم استعاروها ليلة الخروج من مصر وأخذوها ﴿ **فقذفناها** ﴾ أي فألقيناها عنا ﴿ **فكذلك ألقىٰ السامري** ﴾ تحتمل أنه ألقى كما ألقوا ، وتحتمل أن مثل هذا الإلقاء أي الوسوسة ألقى لهم السامري ، أتاهم من منطق الورع الكاذب ، ليصل بهم إلى الكفر ، أتاهم أنكم خنتم المصريين يوم استعرتم حليهم استعارة ، ثم أخذتموها ، فهذا غير مباح لكم ، فعليكم أن تتخلوا عنه ، ونسي الخبيث أن موسى ماأمرهم بهذا إلا بأمر الله ، وأنّ الله هو الذي يحلّ ويحرّم فما أحله فهو الحلال ، وماحرّمه فهو الحرام ﴿ **فأخرج لهم** ﴾ السامري من هذا الذهب ﴿ **عجلاً جسداً** ﴾ أي مجسداً ﴿ **له خوار** ﴾ له صوت ، فهو محكم الصنعة جداً ، فمالت طباعهم إلى الذهب ، وكان

عندهم استعداد للشرك ، بدليل أنهم طلبوا من موسى - كما قصّه الله علينا في سورة الأعراف - أن يجعل لهم إلهاً عندما مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم ﴿ **فقالوا** ﴾ ﴿ **هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ أي قال السامري وأتباعه ومن وافقه : هذا إلهكم وإله موسى ﴿ **فنسي** ﴾ إن كان الضمير يعود إلى موسى يكون المعنى : هذا إله موسى ولكنه نسي ربه هنا ، وذهب يتطلبه ، وإن كان الضمير يعود إلى السامري يكون المعنى : فنسي السامري بفعله ذلك ربه ، وترك ماكان عليه من الإيمان الظاهر ، أو نسي السامري أن العجل لايكون إلهاً بدليل مابعده : ﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ أي إن العجل عاجز عن الخطاب ، والضر والنفع ، فكيف تتخذونه إلهاً ، أي أفلا يرون أنه لايجيبهم إذا سألوه ، ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً في دنياهم ، أو أخراهم .

نقل عن الظلال : بمناسبة الكلام عن السامري في الآيات يقول صاحب الظلال :

(والسامري رجل من (السامرة) كان يرافقهم ، أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب . وجعل [للعجل] منافذ إذا دارت فيها الريح ، أخرجت صوتاً كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد - ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه - فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : « هذا إلهكم وإله موسى » . راح يبحث عنه على الجبل . وهو هنا معنا . وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه) .

وبمناسبة قول السامري الذي سيأتي : ﴿ **بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها** ﴾ قال صاحب الظلال :

(وتتكاثر الروايات حول قول السامري هذا . فما هو الذي بصر به ؟ ومن هو الرسول الذي قبض قبضة من أثره فنبذها ؟ وماعلاقة هذا بعجل الذهب الذي صنعه ؟ وما أثر هذه القبضة فيه ؟ . والذي يتردد كثيراً في هذه الروايات أنّه رأى جبريل - عليه السلام - وهو في صورته التي ينزل بها إلى الأرض ، فقبض قبضة من تحت قدمه ، أو من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار . أو أنها هي التي أحالت كوم الذّهب عجلاً له خوار .

والقرآن لايقرر هنا حقيقة ماحدث ، إنما هو يحكي قول السامري مجرّد حكاية ، ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامري وتملّصاً من تبعة ماحدث . وأنه هو الذي صنع العجل من الذهب الذي قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التي أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوّت في فراغه فتحدث صوتاً كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول) .

فائدة وكلمة حول السياق :

فيما فعله السامري وقصّه الله علينا درس بليغ جداً ، فقد استغلّ السامري روح الورع التي ربّاها موسى - عليه السلام - في أتباعه ليوجهها توجيهاً سيئاً ، يخدم أغراضه الكافرة ، وذلك قد يحدث دائماً إذا لم يوجد علم ووعي ، فهذا الذي فعله السامري في حياة موسى - عليه السلام - فعله عبدالله بن سبأ بعد وفاة رسولنا عليه الصلاة والسلام إذ استغلّ روح المثالية التي سيطرت على المسلمين ، وروح الورع ، واستغلّ السوابق التي كانت في عصر أبي بكر وعمر ، وهي سوابق من الورع ، فبدأ يطعن - كذباً وزوراً - في تصرفات عثمان ، مما أدّى إلى الفتنة العمياء ، التي لازلنا نعاني من آثارها ، أخذ بعض المسلمين بحبل الورع الجاهل ليصل بهم إلى الضلال المبين ، وأي ضلال أفظع من قتل عثمان رضي الله عنه ، إلا أن الشيء الذي ينبغي أن نسجّله هنا أن الجيل الذي استطاع السامري إضلاله وفتنته هو نفس جيل موسى - عليه السلام - أما عبدالله بن سبأ فقد فتن جيلاً أصبح الصحابة فيه قلة ، وعلى كل حال فهذا الدرس يعلّمنا أنّه مالم يكن كل فرد من المسلمين على غاية من العلم والوعي فإن استعدادهم للفتنة يبقى قائماً ، وقد تكون الفتنة باسم الدين نفسه .

وفي كون هذه القصة جاءت في سياق السورة التي محورها ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك** ﴾ فإنّها درس لأهل الإيمان أن يحذروا كل سامري يريد أن يفتنهم عماأنزل الله على رسوله ﷺ .

وبعد مامرّ يصل السياق إلى أن يعرض علينا كيف عالج هارون وموسى - عليهما السلام - هذا الوضع وكل منهما رسول ، ومن هذه المعالجة ندرك حكمة الله إذ جعل موسى رئيسا على هارون ، وندرك أهمية العزم والحسم في تصرفات القائد الأعلى :

﴿ **ولقد قال لهم هارون** ﴾ أي لمن عبدوا العجل ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل رجوع

موسى إليهم ﴿ **ياقوم إنما فُتنتم به** ﴾ أي ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه ﴿ **وإن ربكم الرحمٰن** ﴾ لا العجل ﴿ **فاتبعوني** ﴾ أي كونوا على ديني الذي هو الحق ﴿ **وأطيعوا أمري** ﴾ أي فيما آمركم به ، واتركوا ماأنهاكم عنه ، من عبادة العجل ﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين** ﴾ أي لن نزال مقيمين على العجل وعبادته ﴿ **حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ أي حتى يعود إلينا موسى فننظر هل يعبده كما عبدناه ، وهل صدق السامري أو لا ، وهكذا خالفوا هارون في ذلك ، وقد قصّ الله علينا في سورة الأعراف على لسان هارون قوله ﴿ **وكادوا يقتلونني** ﴾ وإذن كان موقفهم شديداً وسفيهاً .

ولنذكر بهذه المناسبة موقف أبي بكر إذ ارتد من ارتد من العرب ، كيف أنّه أرجعهم إلى الجادة بحد السيف ، لنعرف لأبي بكر فضله ، وحاشا لله أن يكون في إشارتنا هذه انتقاص من هارون عليه السلام . فلنر كيف عالج موسى عليه السلام هذه الفتنة .

بدأ موسى عليه السلام السيطرة على الموقف بتوجيه اللوم الشديد لأخيه ، بل بتعزيره لما تصوّره من تقصيره ، بأن أخذ برأس أخيه يجرّه إليه كما قصّ الله علينا ذلك في سورة الأعراف ، وكما يفهم من السياق هنا : ﴿ **قال ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا** ﴾ بعبادة العجل ﴿ **ألا تتبعن** ﴾ أي أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك ، وتلحق بي وتخبرني ؟ أو مامنعك أن تتبعني في الغضب لله ، وهلّا قاتلت من كفر بمن آمن ، ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ﴿ **أفعصيت أمري** ﴾ أي الذي قاله له يوم استخلفه وهو ﴿ **اخلفني في قومي وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين** ﴾ كما ورد في سورة الأعراف ﴿ **قال يابن أم** ﴾ قال ابن كثير : ترقّق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ﴿ **لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي** ﴾ دلّ هذا على أن موسى قد أخذ بشعر رأس أخيه وبشعر لحيته غضباً وإنكاراً عليه ، لأن الغيرة في الله ملكته ، ثمّ إنّ هارون ذكر عذره في عدم قتال من عبد العجل بمن لم يعبده فقال ﴿ **إني خشيت أن تقولَ فَرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي** ﴾ أي ولم تحفظ قولي عند مااستخلفتك وهو كما مرّ في الأعراف ﴿ **وأصلح** ﴾ قال النسفي : وفيه دليل على الاجتهاد . أقول : وفي إنكار موسى على هارون دليل على أن القضاء على الكفر - ولو على حساب وحدة الأمة - هو الإصلاح ، وليس الإصلاح هو المحافظة على وحدة الأمة مع الكفر ، ثم تابع موسى عليه السلام عملية السيطرة على الفتنة ، فأقبل على السامري منكراً ﴿ **قال فما خطبك**

ياسامري ﴾ أي ماحملك على ماصنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت مافعلت ، والمعني الحرفي هو : ماأمرك الذي تخاطب عليه ياسامري ﴿ **قال بصُرت بما لم يبصروا به** ﴾ أي علمت مالم يعلمه بنو إسرائيل ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها** ﴾ أي فطرحتها ﴿ **وكذلك سوّلت لي نفسي** ﴾ أي زيَّنت لي نفسي أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي ، وهو اعتراف بالخطأ واعتذار ، وليس توبة واستعداداً لقبول العقاب ﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **فاذهب** ﴾ أي من بيننا طريداً ﴿ **فإن لك في الحياة** ﴾ أي ماعشت ﴿ **أن تقول** ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بمالك ﴿ **لامساس** ﴾ أي لايمسني أحد ، ولا أمسُّه ولنا عودة على هذا الموضوع ﴿ **وإن لك موعداً لن تخلَفه** ﴾ أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض ، ينجزه لك في الآخرة بعد ماعاقبك بذاك في الدنيا ﴿ **وانظر إلى إلهك** ﴾ أي معبودك العجل ﴿ **الذي ظَلْت** ﴾ أي ظللت ﴿ **عليه عاكفاً** ﴾ أي مقيماً على عبادته ﴿ **لنحرِّقنه** ﴾ بالنار ﴿ **ثم لننسفنّه في اليم** ﴾ أي في البحر ﴿ **نسفاً** ﴾ أي لنذرينه في البحر تذرية ، ومن هذا فهم بعض المفسرين أنهم بردوه في المبارد ، ولما كانوا قد قالوا من قبل عن العجل ﴿ **هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ فإن موسى ختم كلامه بقوله ﴿ **إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو** ﴾ فليس غيره إلهاً ﴿ **وسع كل شيء علماً** ﴾ أي وسع علمه كل شيء ، ومن كان هذا شأنه فهو وحده المستحق للعبادة ، فأين تغيب عقولكم إذ تعبدون العجل ؟! وبهذا قضى موسى على الفتنة وأرجع قومه إلى التوحيد ، وفي ذلك درس لهذه الأمة كيف تقضي على كل انحراف .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن قصة موسى جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرَّ وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى * وهل أتاك حديث موسى ..** ﴾ وختمت قصة موسى بقوله تعالى : ﴿ **إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً** ﴾ إن ذكر قصة موسى بين الآيتين المذكورتين تدليل على أن منزِّل القرآن وسع علمه كل شيء ، وأنه يعلم السرَّ وأخفى ، كما أن في ذكر قصة موسى التي هي تكليف بالتوحيد ودعوة وحماية له بعد قوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ نموذج على أن مايدعو إليه القرآن من التوحيد هو دعوة كل الرسل ، ومن ثم فالصلة بين قصة موسى ومقدمة السورة من الوضوح بما لا مزيد عليه ، وتزداد الصلة وضوحاً في أذهاننا إذا تذكرنا مايلي :

بدأت السورة بقوله تعالى ﴿ **طه * ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلّا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممَّن خلق الأرض والسمٰوات العلى * الرحمٰن على العرش استوىٰ * له مافي السمٰوات ومافي الأرض ومابينهما وماتحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرَّ وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنىٰ** ﴾ . ثم قصة موسى ، وبعد ذلك يأتي قوله تعالى : ﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنّا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ..** ﴾ إن ذكر قصة موسى بين المقدمة وبين هذه الآيات تشير بوضوح إلى أن ذكر هذه القصة من باب التدليل على أن هذا القرآن من عند الله ، الذي يعلم السرَّ وأخفى ، ويعلم كل شيء ، ولو لم تكن المسألة كذلك ماكان القرآن ليقص علينا أنباء ماقد سبق بمثل هذه الدّقة ، فإذا أدركنا هذا عرفنا كذلك الصلة بين مامرَّ معنا من السورة ، وبين محورها من سورة البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك ..** ﴾ فالسورة تعمّق الإيمان بما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام من خلال الكلام عما أنزله من قبل ﴿ **والذين يؤمنون بماأنزل إليك ومأأنزل من قبلك ..** ﴾ ولنكمل تفسير الآيات ملاحظين أن ماسنفسره الآن هو المجموعة الثانية من المقطع الثالث ، وهي تشكل فاصلاً بين قصة موسى وقصة آدم فتبدأ بذكر الحكمة من عرض قصة موسى ، ثم تنطلق بما يخدم سياق السورة الخاص وسياق القرآن العام كما سنرى :

﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق** ﴾ أي مثل قصصنا عليك من قصة موسى وفرعون نقص عليك من أنباء ماقد سبق من أخبار الأمم الماضية ؛ تكثيراً لبيناتك وزيادة في معجزاتك .

قال ابن كثير فيها : أي : كما قصصنا عليك خبر موسى وماجرىٰ له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع ، كذلك نقصّ عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ﴿ **وقد آتيناك من لدُنّا** ﴾ أي من عندنا ﴿ **ذكراً** ﴾ أي وقد أعطيناك من لدنا قرآناً ، وسمي القرآن ذكراً لأن فيه ذكر الله ، ولأنه يذكّر الإنسان ، ولأنه يثير فكره واعتباره ، فهذه واحدة من خصائص هذا القرآن ، أن كل مافيه من قصص وأخبار وتشريع وتقرير ذكر ومذكر ، فكتاب هذا شأنه ، وهذه بعض من خصائصه لايمكن أن يكون إلا من عند الله العزيز الحكيم .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بقوله تعالى ﴿ **طه * ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلّا تذكرةً لمن يخشى** ﴾ وههنا نجد قوله تعالى ﴿ **وقد آتيناك من لدُنّا ذكراً** ﴾ لاحظ الصلة بين الذكر والتذكرة ، ثم لاحظ الصلة بين الآية الآتية ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وِزراً** ﴾ وبين ﴿ **ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ فليس الشقاء في اتباع القرآن ، بل في الإعراض عنه ، ثم لاحظ كيف أن قصّة موسى كانت تذكرة وذكراً لمن يخشى ، وهذا كله يشير إلى أن سياق السورة سائر على نسق واحد . ولنعد إلى التفسير :

﴿ **من أعرض عنه** ﴾ أي من كذّب بهذا الذكر وهو القرآن ، وتولى عنه ولم يؤمن به ﴿ **فإنه يحمل يوم القيامة وِزراً** ﴾ أي عقوبة ثقيلة سمّاها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقَب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الثقيل ﴿ **خالدين فيه** ﴾ أي في الوزر ، أي في جزائه وهو العذاب ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حِمْلاً** ﴾ أي وساء الحمل حملاً وزرهم .

قال ابن كثير : وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم كما قال تعالى ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له ، وداع فمن اتبعه هُدي ، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة ﴿ **يوم يُنفخ في الصور** ﴾ أي ينفخ إسرافيل فيه ، ولنا عودة على ذلك في الفوائد ﴿ **ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً** ﴾ أي عمياً وهذا لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق ، ويمكن أن يراد زرقة أجسامهم من ثقل ماهم فيه ﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾ أي يتسارّون بينهم ، أي يقول بعضهم لبعض سرّاً لهول ذلك اليوم : ﴿ **إن لبثتم إلا عشْراً** ﴾ أي مالبثتم في الدنيا إلا عشر ليال ، يستقصرون مدة لبثهم في القبور ، أو في الدنيا ؛ لما يعاينون من الشدائد التي تذكّرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسفون عليها ، ويصفونها بالقصر ، لأن أيام السرور قصار ، أو لأنها ذهبت عنهم ، والذاهب - وإن طالت مدته - قصير الانتهاء ، أو لاستطالتهم الآخرة ، لأنها أبد يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة ﴿ **نحن أعلم بما يقولون** ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ **إذ يقول أمثلهم طريقةً** ﴾ أي أعدلهم قولاً ، أي العاقل الكامل فيهم ﴿ **إن لبثتم إلا يوماً** ﴾ لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد .

قال ابن كثير : لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها

وساعاتها ، كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدّة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكأن غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدّة ﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ **فقل ينسفها ربي نسفاً** ﴾ أي يذهبها عن أماكنها ، ويمحقها ويسيّرها تسييراً ﴿ **فيذَرُها** ﴾ أي فيذر مقارّها ﴿ **قاعاً صفصفاً** ﴾ أي مستوية ملساء ، هذا إن عاد الضمير إلى الجبال ، وإن عاد إلى الأرض يكون المعنى : فيتركها بساطاً واحداً .

قال ابن كثير : والقاع : هو المستوي من الأرض ، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك ﴿ **لاترى فيها عِوَجاً** ﴾ أي انخفاضاً ﴿ **ولا أمتاً** ﴾ أي ارتفاعاً ﴿ **يومئذ** ﴾ أي يوم تكون الأرض كذلك ﴿ **يّتبعون الداعي** ﴾ إلى المحشر ، أي صوت الداعي وهو إسرافيل ﴿ **لاعوج له** ﴾ أي لايعوجّ له مدعو بل يستوون إليه من غير انحراف متّبعين لصوته ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمٰن** ﴾ أي وسكنت الأصوات هيبة وإجلالاً للرحمٰن ﴿ **فلا تسمع إلا همساً** ﴾ أي إلا صوتاً خفياً لتحريك الشفاه أو المعنى : فلا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ، إذ تسمّي العرب صوت أخفاف الإبل همساً .

قال ابن كثير : (وقال سعيد بن جبير ﴿ **فلا تسمع إلا همساً** ﴾ الحديث وسره ، ووطء الأقدام ، فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأمّا الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى ﴿ **يوم يأت لاتكلّم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيد** ﴾ (هود : ١٠٥) ﴿ **يومئذٍ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **لاتنفع الشفاعة** ﴾ عنده ﴿ **إلا من أذن له الرحمٰن ورضِيَ له قولاً** ﴾ أي لاتنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمٰن أن يشفع ، ورضي له قولاً بأن يكون المشفوع له مسلماً ﴿ **يعلم مابين أيديهم وماخلفهم** ﴾ أي يعلم ماتَقَدَّمهم من الأحوال ومايستقبلونه ﴿ **ولا يحيطون به** ﴾ أي بالله ﴿ **علماً** ﴾ لأنه لايعرف الله حق المعرفة إلا الله ﴿ **وعنت الوجوه** ﴾ أي وخضعت وذلّت ﴿ **للحي** ﴾ الذي لايموت ﴿ **القيوم** ﴾ الدائم القائم على كل نفس بما كسبت ، أو القائم بنفسه الدائم بتدبير الخلق ﴿ **وقد خاب** ﴾ أي قد يئس من رحمة الله ﴿ **من حمل ظلماً** ﴾ أي من حمل إلى موقف القيامة شركاً ، لأن الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريكاً لله ﴿ **ومن يعمل من الصالحات** ﴾ أي الطاعات ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ أي مصدّق بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، قال

النسفي : وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة ، وأن الإيمان شرط قبولها ﴿ **فلا يخاف ظلماً** ﴾ بأن يزاد في سيئاته ﴿ **ولا هضماً** ﴾ أي ولا ينقص من حسناته ؛ إذ أصل الهضم : النقص والكسر ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ هذه الآية معطوفة على قوله تعالى ﴿ **كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق** ﴾ كما ذكر النسفي : والمعنى : ومثل ذلك الإنزال أنزلناه قرآناً عربياً أي بلسان العرب ، وفي ذلك إشارة إلى فصاحة هذا القرآن ، ودقّة بيانه إذ ليس كبيان العرب في الفصاحة والبيان ﴿ **وصرّفنا** ﴾ أي وكررّنا ﴿ **فيه من الوعيد** ﴾ أي من الإنذار ﴿ **لعلهم يتّقون** ﴾ أي يجتنبون الشرك ، ويتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ **أو يُحدث لهم** ﴾ أي القرآن أو الإنذار فيه ﴿ **ذكراً** ﴾ عظة وتذكرة فيفعلون الطاعات والقربات .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه قد وردت آيتان كلٌّ منهما مبدوءة بكلمة (كذلك) هما : ﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لَدُنَّا ذكراً** ﴾ التي جاءت بعد قصة موسى مباشرة . والآية الثانية : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يُحدث لهم ذكراً** ﴾ ومابين ذلك جاء هذا التذكير العالي ، والإنذار المخيف ، والوصف المدهش لليوم الآخر ، ومايكون فيه ، فكان ذلك نموذجاً على الذكر في هذا القرآن ، ونموذجاً على مافي هذا القرآن من تصريف الوعيد ، ورفع للإنسان إلى حقيقة التقوى ، أو التذكر بهذه العظة الرائعة ، ومن الآيتين ومما ورد بينهما نرى بعض خصائص هذا القرآن ، من كونه ذكراً ومذكِّراً ومنذراً ، ومن كون هذه الخصائص موجودة فيه على أرقاها ، والنموذج الذي بين هاتين الآيتين دليل على ذلك وكتاب جاء ليفصّل كل شيء ، وكانت آياته كلها فيها هذه الخصائص وغيرها مجتمعة ، دليل على أنه من عند الله ، ومن ثم فإننا نلاحظ أن الآية التي بعد الآية الأخيرة بدأت بقوله تعالى ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ إن من عرف خصائص هذا القرآن ، عرف علو الله وعظمته وإحاطة علمه .

ولاشك أن القارىء لا تَغيب عنه الصلة بين هذه المجموعة وسياق السورة الخاص ، فالسورة قالت في بدايتها عن هذا القرآن : ﴿ **ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى** ﴾ وقالت ههنا : ﴿ **لعلّهم يتَّقون أو يُحدِث لهم ذكراً** ﴾ . فالآية تؤكد أن القرآن للتذكير ، ولتربية الخشية ، وبنفس الوقت تعلّل لكون القرآن تذكرة لمن يخشى

بقولها ﴿ **وصرَّفنا فيه من الوعيد** ﴾ فتصريف الوعيد ، وكون القرآن ذكراً ، تفصيل لكون القرآن ﴿ **تذكرة لمن يخشى** ﴾ التي وردت في أول السورة ، وفي قوله تعالى ﴿ **لعلّهم يتقون أو يُحدِث لهم ذكراً** ﴾ تفصيل لما يحدثه القرآن عند من يخشى ، فهو يحدث له تقوى أو تذكراً .

فما بين الآيتين [كذلك - وكذلك] ومابين مقدمة السورة صلة واضحة وفيما بين الآيتين نموذج على خصائص هذا القرآن المذكورة . وقصة موسى تخدم سياق السورة من هذا كله ندرك كيف سار السياق الخاص للسورة . والآن لنرى الصلة بين المجموعة الأخيرة والسياق العام للقرآن : إن محور هذه السورة قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بماأُنزل إليك ..** ﴾ وهذه المجموعة بدأت بتهديد من لم يؤمن ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً** ﴾ ثم أنذرت هؤلاء المعرضين ، وبشَّرت المؤمنين ، ثم ذكرت من خصائص هذا القرآن لتنمية الإيمان به ، ثم ختمت الآية الأخيرة بقوله تعالى ﴿ **لعلّهم يتّقون أو يُحدِث لهم ذكراً** ﴾ وفي ذلك بيان أن مقتضى الإيمان بهذا القرآن الوصول إلى التقوى ، والخروج من الغفلة فالإيمان بالقرآن له آثاره العملية إذن ، وقد حدّد الله أثرين من آثار الإيمان بهذا القرآن ، تذكَّر الآن الآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ تذكر هذه الآيات لتجد الصلة على أشدّها مابين سورة طه ومحورها من سورة البقرة ، ولم يبق عندنا من المجموعة إلا آية واحدة لم نفسّرها فلنفسرها ، ثم لنر محلها في السياق :

﴿ **فتعالى الله** ﴾ أي تنزّه وتقدّس وارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام ، ومضاهاة الأنام ، ومشابهة الأجسام ﴿ **الملك** ﴾ الذي له ملك السمٰوات والأرض ومابينهما ﴿ **الحق** ﴾ أي المحق في ألوهيته ﴿ **ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَىٰ إليك وحيُهُ** ﴾ أي ولا تعجل بقراءة القرآن إذا لقّنك جبريل إياه ، من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ، بل أنصت ﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾ أي بالقرآن ومعانيه .

قال النسفي : (وقيل ما أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم) وبهذه الآية انتهت المجموعة الثانية من المقطع الثالث . فلنر محل هذه الآية في السياق الخاص والعام :

كلمة في سياق هذه الاية :

تتألف هذه الآية من ثلاث فقرات :

١ - ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ قررت هذه الآية أن الله هو المالك ، وهو الحق ، وهو المنزّه ، المتعالي وقد رأينا في بداية السورة قوله تعالى ﴿ **له مافي السمٰوات ومافي الأرض ومابينهما وماتحت الثرىٰ** ﴾ وقلنا هناك : إن هذا تعليل لإنزال القرآن ، وكونه على هذه الشاكلة ، فالله الملك لكل شيء ، أنزل هذا القرآن على عبيده ، وكلّفهم به ، فذلك شأنه ، وعلى المؤمن التسليم والإيمان ، فالصلة بين اسم الملك هنا وبين سياق السورة واضح ، وفي ذكر اسم الحق في هذا السياق الذي هو حديث عن هذا القرآن وضرورة الإيمان به إشارة إلى أن كتابه حق ؛ لأن الله الذي أنزله حق ، وفي قوله ﴿ **فتعالى** ﴾ في هذا السياق إشارة إلى أن الله من العلو بحيث يكون كتابه على مثل هذا الكمال ، فالصلة بين هذه الفقرة وبين سياق السورة قائمة .

٢ - ﴿ **ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَىٰ إليك وحيُه** ﴾ في هذه الفقرة توجيه لرسول الله ﷺ ، وإلزام له بأدب الصمت حين التلقي ، وإذا تذكّرنا ماقلناه عند قوله تعالى لموسى ﴿ **فاستمع لما يوحىٰ** ﴾ عرفنا أن تأديب الله لرسله عليهم السلام واحد : الإنصات عند التلقي ، ومن مثل هذه النكات الدقيقة التي ترينا هذه الوحدة في التربية الربانية على مدىٰ العصور ، وهذه الوحدة التي نرى فيها كلّ كلمة في القرآن ، ترتبط بغيرها وتكمّلها ولا ينقض منها شيء شيئاً ، من مثل هذا نجد كيف أن هذا القرآن جلّ أن يكون من عند البشر .

وفي هذه الفقرة شيء آخر وهو أن رسول الله ﷺ متلقٍّ هذا القرآن تلقّياً ، وهو مخاطب به ، ومكلّف فيه ، ويؤمر من أجل ذلك بأوامر ، ففي ذلك تأكيد على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ليس إلا ، ويخدم هذا المعنى الفقرة الثالثة في الآية .

٣ - ﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾ وفي هذا الأمر في هذه الآية المبتدأة بقوله تعالى ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن فيه مالا يتناهى من العلوم .

فهل اتضحت بهذا كله الصلة بين هذه الآية وسياق السورة ولماذا استقر عليها سياق المقاطع الثلاثة :

الله هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم ، فتعالى الله الملك الحق .

أنزل الله هذا القرآن للإسعاد لا للإشقاء ، فتعالى الله الملك الحق .

فيا أيها الذي أنزل عليه هذا القرآن استمع ، وأنصت ، واطلب من الله مزيد العلم ، بدأت مقدمة السورة بالخطاب المباشر لرسول الله ﷺ ، واستقر المقطع الثالث على الخطاب المباشر لرسول الله ﷺ ، ولعله بهذا كله اتضحت صلة هذه الآية بالسياق القرآني العام ، أي بمحورها من سورة البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك** ﴾ الذين يؤمنون بما أنزل الله الملك الحق ، الذي أمرك - أيها الرسول - أن تنصت إذا أنزل عليك القرآن ، والذي أمرك أن تطلب منه مزيد العلم ، فأنت مُنَزَّل عليه ، وأنت متلقٍ عن الله ، وكل ذلك قام عليه الدليل ، فعلى الإنسان أن يؤمن بما أُنزل عليك .

وهكذا انتهى المقطع الثالث من هذه السورة ، ولقد عرضنا المقاطع الثلاثة عرضاً مستمراً مؤخرين الفوائد التي اعتدنا أن نقدّمها وراء المقطع الواحد أو المجموعة الواحدة لأن فهم السياق اقتضى منا ذلك .

وإذ لم يبق عندنا إلا مقطع واحد في السورة ، ثم خاتمة السورة ، فإننا نذكر هنا الفوائد المتعلقة بالمقاطع الثلاثة :

الفوائد :

١ - إن ماورد في السورة من قصة موسى نجده في سفر الخروج ، وكنا نقلنا نقولاً كثيرة من ذلك عند الكلام عن سورة الأعراف ، وبيّنا قيمة هذه النقول ، وذكرنا كيف أن كل كتب العهد القديم فيها علامة تحريفها ، ومن ثم فلا تصلح أساساً للفهم ، ولا للاعتماد ، ولا للتفصيل ، ولا للنظر لما فيها من الخلط والخبط والخطأ والتشويه ، فمن ذلك مثلاً أنها - في موضوعنا - تذكر أن هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه فالحمد لله الذي أكرمنا بهذا القرآن ، وأعطانا التصور الصحيح للحق الذي نزه به الأنبياء عليهم السلام ، وإذا كانت التوراة الحالية على مثل هذه الشاكلة من الخلط والخبط ، فإنك تجد فيها الحوادث مختلطة ، فيها تقديم وفيها تأخير ، وفيها تحريف ، وذلك أثر عن ضياعها وجمعها بعد زمن طويل ، كما أثبتنا ذلك في أكثر من مكان في هذا التفسير ، ومن ثم فإن فيما قصه الله علينا كفاية .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وفتَّاك فتوناً** ﴾ ذكر ابن كثير ماأسماه بحديث الفتون الذي استغرق أربع صفحات من تفسيره ، ثم ختمه بأن علّق عليه بقوله : (وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار . أو غيره والله أعلم ، ثم قال : وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك) أقول : الذي يبدو : أنّ هذا الكلام الذي قاله ابن عباس هو حصيلة مايمكن أن يكون سمعه من أهل الكتاب ، أو فهمه من القرآن أو سمع بعضه من رسول الله ﷺ .

فإذا عرفنا قيمة النقل عن أهل الكتاب فيما هو عنهم ، فلا حرج علينا من نقله ، خاصة وقد أخرجه النسائي في سننه .

قال ابن كثير ناقلاً عن النسائي بسنده إلى سعيد بن جبير قال : سألت عبدالله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام ﴿ **وفتَّاك فتوناً** ﴾ فسألته عن الفتون ماهو فقال : استأنف النهار ياابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً . فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ماوعدني من حديث الفتون ، فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ماكان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لايشكُّون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام ، فقال فرعون : كيف ترون . فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه . ففعلوا ذلك ، فلمّا رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم ؛ فاقتلوا عاماً كل مولود ذكراً ، واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم ؛ فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لايذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل ، حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون ياابن جبير ، مادخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها ﴿ **أن لاتخافي ولاتحزني ، إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم . فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها : مافعلت بابني لو ذبح

عندي فواريته وكفنته كان أحب إليَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ، فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة مستقى جواري امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فأردن أن يفتحن التابوت ، فقالت بعضهن : إن في هذا مالاً ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه ، فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها ، فلمّا فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى الله عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذبّاحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون ياابن جبير ، فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لايزيد بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم ، فأتت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : « والذي يُحلَف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك » فأرسلت إلى من حولها ، إلى كل امرأة لها ، لأن تختار له ظئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يُقْبِل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والهاً ، فقالت لأخته قصّي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكراً ، أحيّ ابني أم أكلته الدواب ، ونسيت ماكان الله وعدها فيه ، فبصرت به أخته عن جنب وهم لايشعرون ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤارات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فأخذوها فقالوا : مايدريك مانصحهم له ، هل تعرفينه ؟ حتى شكّوا في ذلك ، وذلك من الفتون ياابن جبير . فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك ، فتركوها فانطلقت إلى أمها ، فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمه ، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها ، أن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها ، فأتت بها وبه ، فلما رأت مايصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا ، فإني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا الوه خيراً فعلت ، فإني غير تاركة بيتي وولدي ، وذكرت أم موسى ماكان الله وعدها فيه ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من

يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضىٰ فيه ، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ماكان فيهم . فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني ، فدعتها يوماً تزورها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها : لايبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة ، لأرى ذلك ، وأنا باعثة أميناً يحصي مايصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحَل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحِلَته وأكرمته وفرحت به ، ونحَلَت أمه لحسن أثرها عليه ، ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحِلَنَّه وليكْرِمَنَّه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ماوعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به . وأريد به فتوناً ، فجاءت امرأة فرعون فقالت : مابدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ، فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لايؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل . فقرَّب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ماكان قد همّ به ، وكان الله بالغاً فيه أمره ، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع ، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي . فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى ، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على مالم يطلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضل مبين ، ثم قال : ﴿ **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار فأتي فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لايستقيم له أن

يقيد بغير بيِّنة ولاثبت ، فاطلبوا لي علم ذلك ؛ آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لايجدون ثبتاً إذ بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف موسى ، فندم على ماكان منه ، وكره الذي رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم : إنك لغوي مبين ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ماقال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعد ماقال له إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده ، إنما أراد الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي وقال : ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا وانطلق الفرعوني ، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم ، يطلبون موسى وهم لايخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى ، فأخبره ، وذلك من الفتون ياابن جبير . فخرج موسى متوجِّهاً نحو مدين ولم يلق بلاءً قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾ يعني بذلك: حابستين غنمهما فقال لهما : ماخطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقي من فضول حياضهم ، فسقى لهما ، فجعل يغترف في الدلو ماءً كثيراً ، حتى كان أول الرعاء ، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى عليه السلام ، فاستظل بشجرة وقال ﴿ **رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً ، فقال : إنّ لكما اليوم لشأناً فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ﴿ **فلما كلمه قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا في مملكته فقالت إحداهما ﴿ **ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها مايدريك ، ماقوته وما أمانته ، فقالت : أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه

حتى بلّغته رسالتك ، ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسري عن أبيها وصدقها ، وظن به الذي قالت ، فقال له : هل لك ﴿ **أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك * ستجدني إن شاء الله من الصالحين** ﴾ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدّته فأتمها عشراً ، قال سعيد وهو ابن جبير : فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال : هل تدري أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذٍ لا أدري ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي لينقص منها شيئاً ، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى مدّته التي كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ماقصّ الله عليك في القرآن ، فشكا إلى الله تعالى مايحذر من آل فرعون في القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً يتكلم عنه بكثير مما لايفصح به لسانه ، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون ، وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حينا لايؤذن لهما ، ثمّ أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذي قصَّ الله عليك في القرآن قال : فما تريدان ؟ وذكَّره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال : أريد أن تؤمن بالله ، وترسل معنا بني إسرائيل فأبىٰ عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين .

فألقى عصاه فإذا هي حيَّة تسعى عظيمة ، فاغرة فاها ، مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعني : من غير برص ، ثم ردّها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له : هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، يعني : ملكهم الذي هم فيه ، والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطُوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرَهما ، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا يعمل

بالحيات ، قالوا : فلا والله ماأحد في الأرض يعمل بالسحر والحيات ، والحبال والعصي ، الذي نعمل ، فما أجرنا إن نحن غَلَبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى ، قال سعيد بن جبير فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة ، هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ **لعلنا نتَّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾ يعنون موسى وهارون استهزاءً بهما ؛ فقالوا ﴿ **ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال ألقوا فلمّا ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم** ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه ، ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته ، فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله عز وجل ، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، ظهر الحق وبطل ماكانوا يعملون ﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإن كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا كفّ ذلك أخلف موعده ، ونكث عهده ، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا ، أرسل في المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قصيف ، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل ، فيصير عاصيا لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿ **قال أصحاب موسى : إنا لمدرَكون** ﴾ افعل ماأمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي

إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكّره بعد ذلك العصا ، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه ، وكما وعد موسى ، فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أُمر ، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لايكون فرعون غرق ولانؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه ، حتى استيقنوا بهلاكه ، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿**قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة * قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتبر مَّاهم فيه**﴾ الآية . قد رأيتم من العبر وسمعتم مايكفيكم ، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون ؛ فإني قد استخلفته عليكم ، فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها . فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلّم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان قال يارب إني كرهت أن أكلّمك إلا وفمي طيب الريح ، قال : أو ما علمت ياموسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ثم ائتني ، ففعل موسى عليه السلام ما أُمر به ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ، ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري ، وودائع لكم فيها مثل ذلك ، فإني أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برادّين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوها في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لايكون لنا ولا لهم ، وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : ياسامري ألا تلقي مافي يدك ، وهو قابض عليه ، لايراه أحد طول ذلك فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ماأريد . فألقاها ودعا له هارون ، فقال أريد أن يكون عجلا ، فاجتمع ماكان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله ماكان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره ، وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ،

فقالت فرقة : ياسامري ماهذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق ، فقالت فرقة : لانكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه ، وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى ، وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأُشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل ، وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون : ﴿ **ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري** ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا ، هذه أربعون يوماً قد مضت ، وقال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال له ماقال أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً** ﴾ فقال لهم ماسمعتم في القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه وألقىٰ الألواح من الغضب ، ثم إنه عذَر أخاه بعذره ، واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ماحملك على ماصنعت ؟ قال : ﴿ **قبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم . ﴿ **فنبذتها وكذلك سوَّلت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مِسَاس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلْت عليه عاكفاً لنحرّقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا** ﴾ . ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذي كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : ياموسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها ، فيكفّر عنا ماعملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألوا الخير ، خيار بني إسرائيل ، ومن لم يشرك في العجل ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله من قومه ، ومن وفده حين فعل بهم مافعل فقال ﴿ **رب لوشئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ وفيهم من كان الله اطّلع منه على ما أُشرب قلبه من حب العجل ، وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ فقال : يارب سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إن توبتهم أن كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفي علي موسى وهارون ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا به ، وغفر الله للقاتل والمقتول ، ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض

المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب . فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوماً جبارين ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها . فقالوا : ياموسى إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا ولا ندخلها ماداموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون ، قيل ليزيد هكذا قرأه قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه ، قالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم تخافون مارأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لاقلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس إنهم من قوم موسى فقال الذين يخافون بنو إسرائيل ﴿ **قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له ، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين وحرّمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه ؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس .

٣ - في قوله تعالى ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ أكثر من اتجاه للمفسرين ذكر منها ابن كثير قولين ، وأشار إليها النسفي كلها وهذا كلام النسفي وابن كثير :

قال النسفي : ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ (أي لتذكرني فيها ، لاشتمال الصلاة على الأذكار ، أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها ، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء ، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس ، أو لأوقات ذكري ، وهي مواقيت الصلاة لقوله : ﴿ **إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها ، وذا يصح بتقدير حذف المضاف ، أي لذكر صلاتي ، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها) .

وقال ابن كثير : ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ (قيل معناه : صل لتذكرني ، وقيل معناه : وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ماروى الإمام أحمد ... عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله تعالى قال وأقم الصلاة لذكري » وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » . أقول : والقول الأول هو الذي رجحناه ومشينا عليه في التفسير ، وليس في استشهاد الرسول ﷺ في الآية دليل على غير هذا الفهم كما تصوره ابن كثير) .

٤ - يعلل المفسرون وجود اللثغة في لسان موسى بسبب ماذكره ابن عباس في حديث الفتون ، من أنه وضع الجمرة في فيه وهو صغير ، وبمناسبة قوله تعالى على لسان موسى ﴿ **واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي** ﴾ يقول ابن كثير : (وقال الحسن البصري « احلل عقدة من لساني » قال حلّ عقدة واحدة ، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي ، وقال ابن عباس : شكا موسى إلى ربه مايتخوف من آل فرعون في القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ، ويتكلم عنه بكثير مما لايفصح به لسانه ، فآتاه سؤله ، فحل عقدة من لسانه ، وقال ابن أبي حاتم :... عن محمد بن كعب قال : أتاه ذو قرابة له فقال له : مابك بأس لولا أنك تلحن في كلامك ، ولست تعرب في قراءتك ، فقال القرظي : ياابن أخي ألست أفهمك إذا حدثتك قال : نعم . قال : فإن موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحلل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه ، ولم يزد عليها ، هذا لفظه) .

٥ - هل كان هناك فاصل زمني بين الإيحاء لموسى والإيحاء لهارون ؟ قولان للمفسرين : والذي يذهب إليه ابن عباس أن هارون نبيء في الساعة التي نبيء بها موسى ، أي بعد دعاء موسى ، ولقد سرنا في التفسير على القول الآخر ، وفي الإصحاح الرابع من التوراة الحالية المحرفة (وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى ، فذهب والتقاه في جبل الله ، وقبله فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذي أرسله وبكل الآيات التي أوصاه بها) . وبمناسبة قول موسى ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي** ﴾ يذكر ابن كثير هذه القصة التي أخرجها ابن أبي حاتم عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول : أيُّ أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا : لاندري .

قال أنا والله أدري : قالت : فقلت في نفسي : في حلفه لايستثني أنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه . قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله .

٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ثم جئت على قدر ياموسى** ﴾ يذكر ابن كثير ماأخرجه البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « التقى آدم وموسى فقال موسى أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه ، وأنزل عليك التوراة ؟ قال : نعم . قال فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني قال نعم . قال فحج آدم موسى » أخرجاه .

٧ - ذكر النسفي عند قوله تعالى ﴿ **فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ أن هذه الآية تليت عند يحيىٰ بن معاذ فبكى وقال : هذا رفقك بمن يقول أنا إله ، فكيف بمن قال : أنت الإله . وهذا رفقك بمن قال : أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال سبحان ربي الأعلى .

٨ - بمناسبة قول موسى وهارون لفرعون : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدىٰ** ﴾ يذكر ابن كثير أن رسولنا عليه الصلاة والسلام كان يخاطب غير المسلمين في مكاتباته بهذا : السلام على من اتبع الهدىٰ . قال ابن كثير ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدىٰ أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين » .

٩ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرىٰ** ﴾ قال ابن كثير : وفي الحديث الذي في السنن « أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ، وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرىٰ وقال : وفيها نعيدكم ، ثم أخذ أخرىٰ وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرىٰ » .

أقول : وهذا الحديث هو أصل مايفعله المسلمون أو بعضهم ، إذ يأخذ كل منهم ثلاثة قبضات أو قبضة من تراب ، ويضعها في زنبيل ، يمرّره أحدهم عليهم عند دفن الميت ، ثم يوضع التراب في القبر ، غير أن أكثرهم لايعلم لم يفعل ذلك وماأصله وما الحكمة فيه .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولايفلح الساحر حيث أتى** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم .. عن جندب بن عبدالله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أخذتم - يعني الساحر - فاقتلوه » ثم قرأ ﴿ **ولايفلح الساحر حيث أتىٰ** ﴾ قال لايؤمن حيث وجد .

١١ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيىٰ** ﴾ يذكر ابن كثير الأحاديث التالية : قال الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لايموتون فيها ولايحيون ، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم ، فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً ، أذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة فيقال : ياأهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية وهكذا أخرجه مسلم .

وقال ابن أبي حاتم .. عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتىٰ على هذه الآية : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيىٰ** ﴾ قال رسول الله « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فتجعل الضبائر ، فيؤتى بهم نهراً يقال له الحياة أو الحيوان ، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل » .

١٢ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلىٰ** ﴾ يذكر ابن كثير الأحاديث التالية : أخرج الإمام أحمد .. عن عبادة ابن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « الجنة مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاه درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » رواه الترمذي .. عن أبي مالك عن أبيه قال : كان يقال الجنة مائة درجة ، في كل درجة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فيهن الياقوت والحلي ، في كل درجة أمير ، يرون له الفضل والسؤدد » . وفي الصحيحين : « أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء ؛ لتفاضل مابينهم » قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء قال « بلىٰ والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين » وفي السنن « أن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما » .

١٣ - بمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **يابني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون ، فقال : « نحن أولى بموسى فصوموه » .

١٤ - بمناسبة اعتذار من عبد العجل لموسى بقولهم ﴿ **ولكنا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم** ﴾ قال ابن كثير : (وحاصل مااعتذر به هؤلاء الجهلة ، أنهم تورّعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمر ، أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني هل يصلي فيه أم لا - فقال ابن عمر رضي الله عنهما : انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ يعني الحسين وهم يسألون عن دم البعوضة) .

١٥ - هناك سؤال يطرح نفسه وهو : نلاحظ أنه في الهند يعبدون البقر ، وفي الهند طبقة المنبوذين الذين لايلمسون غيرهم من بقية الطبقات ولايلمسهم غيرهم . ماالصلة بين ذلك ، وبين قصة السامري وعقوبة موسى له بأن يقول : (لامساس) ؟ والذي دعانا إلى طرح هذا السؤال : أن بعض المفسرين يذكرون أن السامري ليس من بني إسرائيل .

قال ابن كثير : (وفي رواية ابن عباس أنه من كرمان وبعض المفسرين قال : ولا زالت بقاياهم حتى الآن) . قال ابن كثير وقال قتادة : أن تقول لا مساس قال عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لامساس .

ونحن الآن لا نعرف أحداً يقول لا مساس إلا طبقة المنبوذين في الهند ، فهل ربط هؤلاء المفسرون هذه الظاهرة بهذه القصة ؟ موضوع يحتاج إلى تحقيق لقبوله أو رفضه ، فهل السامري ترك الأرض المقدسة ، وذهب إلى بلد كالهند ، وهؤلاء من ذريته وأتباعه ، خاصة وأهل الهند يعظمون البقر ، أو أن حادثاً مشابهاً حدث في الهند عاقب الله به أصحابه هذه العقوبة على يد رسول ، ثم حرّفت الديانة ، واختلط الأمر وبقيت هذه القضية أثراً عن ذلك - الله أعلم .

١٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم ينفخ في الصور** ﴾ قال ابن كثير : (ثبت في الحديث

أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم - الدائرة منه بقدر السموات والأرض - ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام وجاء في الحديث « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن » فقالوا يارسول الله كيف نقول ؟ قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ») .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً** ﴾ يقول ابن كثير : (وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : « آتي تحت العرش وأخِرُّ لله ساجداً ، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقول : يامحمد ارفع رأسك ، وقل تسمع ، واشفع تشفّع قال : فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود .. فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء ، وفي الحديث أيضا : يقول تعالى : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، فيخرجوا خلقاً كثيراً ، ثم يقول : أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان في قلبه مايزن ذرة ، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرّة من إيمان) الحديث .

١٨ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وقد خاب من حمل ظلماً** ﴾ يقول ابن كثير : (فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء . وفي الحديث يقول الله عز وجل « وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم » . وفي الصحيح : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾) .

١٩ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقضىٰ إليك وحيه** ﴾ قال ابن كثير : كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة ﴿ **لاتحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إنّ علينا بيانه** ﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية ، يعني أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشد الله تعالى إلى ماهو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه فقال ﴿ **لاتحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا**

جمعه وقرآنه ﴾ أي أن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿ **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه** ﴾ وقال في هذه الآية ﴿ **ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقضىٰ إليك وحيه** ﴾ أي بل أنصت فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأ بعده » .

٢٠ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾ قال ابن كثير : أي زدني منك علماً . قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ، ولهذا جاء في الحديث « إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ماكان يوم توفي ﷺ » .

وقال ابن ماجه ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ماينفعني ، وزدني علماً والحمد لله على كل حال » . ولننتقل إلى المقطع الرابع في السورة .

المقطع الرابع

ويمتد من الآية (١١٥) إلى نهاية الآية (١٢٧) .

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ

ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

التفسير :

﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم** ﴾ أي أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة ، والمعنى : وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه ألّا يقرب من الشجرة ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل وجود بنيه فخالف إلى ما نهي عنه ، كما أنهم يخالفون ، يعنى أن أساس أمر بني آدم على المخالفة وعرقهم راسخ فيها فليحذروا ﴿ **فنسي** ﴾ أي نسي آدم العهد أي النّهي قال النسفي : والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلّفوا لحفظوه ﴿ **ولم نجد له عزماً** ﴾ أي ولم نجد له قصداً في الخلاف لأمر الله ، أو لم يكن آدم من أولي العزم ، أو : وعد منا له عزماً ، دلّ المعنيان الأخيران على أنّ التكليف يحتاج إلى عزم وقوة نفس تتحمّل به صراع الشهوات ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أي اذكر ذلك ، والسجود الذي أمروا به يحتمل أنه السجود اللغوي الذي هو الخضوع والتذلل ، ويحتمل أنّه سجود حقيقي ، وكان آدم فيه كالقِبلة لضرب تعظيم له ﴿ **فسجدوا إلا إبليس** ﴾ الذي كان من الجن ودخل في الأمر مع الملائكة لأنه يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿ **أبى** ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿ **فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك** ﴾ أي حواء حيث لم يسجد لك ولم يرفضلك ﴿ **فلا يخرجنّكما من الجنة** ﴾ أي فلا يكونن سبباً لإخراجكما ﴿ **فتشقىٰ** ﴾ أي فتتعب وتعنى ، وتشقى في طلب رزقك فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة وإنما قال : فتشقىٰ ولم يقل فتشقيا مراعاة لرؤوس

الآي ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الرجل هو الكافل للمرأة ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها** ﴾ أي في الجنة ﴿ **ولا تعرى** ﴾ أي عن الملابس لأنها معدّة أبداً فيها ﴿ **وأنك لا تظمؤ فيها** ﴾ أي لا تعطش لوجود الأشربة ﴿ **ولا تضحىٰ** ﴾ أي لا يصيبك حرُّ الشمس إذ ليس فيها شمس ، فأهلها في ظل ممدود ، قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، وقرن بين الظمأ لأنه حر الباطن وهو العطش وبين الضحى الذي هو حر الظاهر ، دلّ ذلك على أن الإنسان يحتاج إلى الطعام والشراب واللباس والسكن ، وذلك كله كان مؤمّنا لآدم وزوجته بدون عناء ، فعصيا ، فأخرجا فلم يعودا يحصلان على هذا إلا بالعناء ، فكان شقاؤهما أثراً عن المخالفة وهذا الإنسان الآن على الأرض ، فعندما ينزل الله له وحيا فإنما ذلك لإسعاده لا لإشقائه ، ولإعادته إلى دار سعادته ، الجنة لا لغير ، وإنما يزيد شقاؤه في الدنيا بإعراضه عن وحي الله ثم مأواه النار في آخرته بإعراضه عن هذا الوحي ، فإذا اتضح لك هذا فقد ا تضحت لك الصلة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى في مقدمة السورة ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾

كلمة في السياق وفي حكمة تكرار القصص القرآني :

نلاحظ في هذه السورة أن قصة آدم قد ذكرت هنا لتعليل الإشقاء ، وتبيان حقيقته وهذا ينسجم مع السياق الخاص لسورة (**طه**) المبدوءة بقوله تعالى ﴿ **طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ** ﴾ نقول هذا لنبيّن أن القصة عندما تتكرر في القرآن فإنها في كلّ مرة تقدم خدمة خاصة تتفق مع سياق السورة الخاص ، منسجمة مع محور السورة العام ، ومن الملاحظ أن كثيراً من قصص القرآن يعرض قسم منها في مكان وقسم آخر في مكان آخر ، وتُبرز منها بعض قضايا في مكان وتبرز منها بعض قضايا في مكان آخر ، وكل ذلك لتؤدي دورها في سياق السورة ومحل السورة من السياق القرآني ، هذا عدا عن كون القصة القرآنية دائماً من القصص الخالد الذي يذكّر الإنسان في كل حالة يحتاج الإنسان إلى أن يتذكّر ، وتكرار ذكر بعضها لأنها من النوع الذي يحتاج الإنسان أن يتذكره أكثر من غيره ومن ذلك قصة آدم عليه السلام فإن الإنسان يحتاج أن يتذكرها دائما . ولنعد إلى لتفسير

....

﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾ أي أنهى إليه الوسوسة ﴿ **قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد** ﴾ وهو الخلود لأن من أكل منها خلد - بزعمه - ولا يموت ﴿ **وملك لا**

يبلىٰ ﴾ أي لا يفنى ، دلّ ذلك على أنّ الرّغبة في الخلود والملك نزعتان عميقتان في الطبيعة البشرية استغلّها الشيطان لحرف الإنسان عن أمر الله ، وهما نزعتان لا يزال الشيطان يستغلهما لصرف الإنسان عن وحي الله وكتبه ، فمن أجل الخلود المزعوم نجد كثيراً من الزعماء والقادة يفعلون الكثير من الباطل على حساب الحق ، ومن أجل الملك نجد الكثير يفعل الكبير من الجرائم على حساب العدل ، ولا خلود ولا ملك إلا بالتزام أمر الله فذلك الملك الحقيقي ، وذلك الخلود الحقيقي إن الرحمن يدل الإنسان على طريق الملك والخلود الحقيقية ، وأما الشيطان فإنه يدله على طريق الملك والخلود الزائفين ، ولذلك قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ فدلّاهما بغرور ﴾ . ﴿ فأكلا ﴾ أي آدم وحواء ﴿ منها ﴾ أي من الشجرة ﴿ فبدت لهما سوْءاتهما ﴾ أي فظهرت لهما عوراتهما ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الستر ملازم لتنفيذ الأمر ، وهذه البشرية الآن تعرَّت عرياً فظيعاً لطاعتها للشيطان في مخالفة الأمر ، إن الشيطان لا يزال بمن يطيعه حتى يعريه تماماً ﴿ وطفقا ﴾ أي وشرعا ﴿ يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي يلزقان الورق بسوآتهما للتستر ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ أي فضلّ عن الرأي

قال النسفي : (والحاصل أن العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي ، وقد يكون عمداً فيكون ذنباً ، وقد لا يكون عمداً فيكون زلة ، ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من أن يكون رشداً ، فكان غياً لأن الغي خلاف الرشد ، وفي التصريح بقوله ﴿ وعصى آدم ربه فغوىٰ ﴾ والعدول عن قوله وزل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين ، كأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلاتتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلًا عن الكبائر) .

﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي قرّبه إليه واصطفاه ﴿ فتاب عليه ﴾ أي قبل توبته ﴿ وهدى ﴾ أي وهداه إلى الاعتذار والاستغفار ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ يعني آدم وحواء دلّ هذا على أن المعصية ولو أعقبتها توبة وقبول من الله فإنّها لا تمر بلا نوع عقوبة ، نسأل الله اللطف ﴿ بعضكم ﴾ يا ذرية آدم ﴿ لبعض عدو ﴾ أي بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين ، والتباغي بأمراض النفوس ، وفي ذلك الشقاء الذي جاءت شرائع الله لتخلص الإنسان منه فليس في اتباع الوحي الشقاء ولكن في الإعراض عنه ﴿ فإمّا يأتينّكم مني هدىً ﴾ أي كتاب وشريعة ، أو وحي بشكل عام ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ ﴾ قال ابن عباس : (لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة) .

قال النسفي : يعني أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين ، فمن اتّبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه ﴿ **ومن أعرض عن ذكري** ﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسلي فتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ **فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ أي ضيقة في الدنيا .

قال ابن كثير : فلا طمأنينة ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعّم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **قال كذلك** ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت ، عميت عن الحق في الدنيا ﴿ **أتتك آياتنا فنسيتها** ﴾ أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ، وتركتها وعميت عنها ، فكذلك اليوم نتركك على عماك ، ولا نزيل غطاءك عن عينيك ﴿ **وكذلك اليوم تُنسى** ﴾ فالجزاء من جنس العمل ، أي لما أعرضت عن آيات الله ، وتناسيتها ، وأغفلتها وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿ **وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه** ﴾ أي وهكذا نجازي المسرفين المكذّبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ **ولعذاب الآخرة أشد** ﴾ ألما من عذاب الدنيا ﴿ **وأبقى** ﴾ أي وأدوم ، وبهذا انتهى المقطع الرابع .

كلمة في السياق :

وهكذا استقرت قصة آدم عليه السلام على السنة الخالدة ﴿ **فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ** ﴾ فالضلال والشقاء ملازمان للإعراض عن دين الله ، والهداية والسعادة ملازمان لاتباع دين الله ، والصلة بين هذا وبين قوله تعالى في أول سورة طه ﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ** ﴾ واضحة ، فالسنة الخالدة لله تعالى هي أنه إنما ينزل وحياً ، ويبعث رسلًا للإسعاد لا للإشقاء ، وللهداية والإكرام لا للإضلال والإبعاد فقصة آدم هنا إذن تخدم السياق الخاص لسورة طه بشكل واضح مبين .

ولنتأمل الآن صلة هذا المقطع بمحور السورة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من**

ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

إن الصلة واضحة بين مقدمة سورة البقرة وبين قوله تعالى في هذه المجموعة ﴿ **فإما يأتينّكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ** ﴾ فإن الآيات الأولى في سورة البقرة تصف أهل التقوى بالإيمان بكل هدى أنزله الله ، وتبين أنهم المهتدون ، وأنهم المفلحون ، إن صلة ذلك بقوله تعالى في سورة طه ﴿ **فلا يضل ولا يشقىٰ** ﴾ واضحة .

وقد كنا قلنا من قبل إن سورة (طه) توضح مفهوم السعادة والشقاء ، وتصحح المفاهيم الخاطئة في هذا الأمر . فالشقاء الحقيقي هو الشقاء في الآخرة ، والشقاء الحقيقي في ترك الهدى مهما ظن ظان أن السعادة في غير ذلك .

إنه عند ما يترك الخلق دين الله يصبح بعضهم لبعض عدواً ، ويصبح الإنسان لنفسه عدواً ؛ إذ يتناقض مع فطرته ، وفي ذلك الشقاء الحقيقي ، إن دين الله هو الذي يجعل الإنسان صديقاً مع نفسه ، وهو الذي يوجد صيغة للتعايش المريح بين الخلق ، ومن ثم نلاحظ أن التشريعات الإسلامية منصبّة على إبعاد المؤمنين عن كل خلاف ، إنّ تحريم الغيبة والنميمة ، وتحريم بيع الغرر ، وتحريم الخمر والميسر ، وتحريم الربا ، كل ذلك وغيره يهدف إلى قطع الخصومات والمنازعات بين الناس .

إنه مهما ظن ظانّ أن سعادته فيما حرّم الله عليه فهو مخطيء ، سواء كان هذا المحرّم موسيقى أو زنىً أو خمراً أو غيبة أو نميمة أو غير ذلك ، إن اللذة لا تعني السعادة ، واذا عنت السعادة الآنية فإنّها تعني الشقاء المضاعف البعيد . خذ مثلًا : إن الأمة التي تميل إلى الترف والاسترخاء عندما تغلب على أمرها فإن آلامها التي تنالها عند الغلبة أكبر بكثير من لذاتها التي أصابتها قبل ذلك فهل كان في الترف والاسترخاء سعادة ؟! وهل الموسيقى - وهي عامل من عوامل استرخاء النفس البشرية مثلًا - تشكّل سعادة حقيقة للإنسان ؟ اللهم لا .

في الفصل الرابع من كتاب (الإسلام) من سلسلة الأصول الثلاثة كلام عن العقوبات الفطرية التي تترتب على كل مخالفة يفعلها إنسان أو تفعلها مجموعة ، أو ترتكبها الإنسانية ، وفي ذلك الفصل دليل كامل على أن الشقاء ملازم للإعراض عن وحي الله ، وأن السعادة الحقيقية في ملازمة دين الله ، هذا كله إذا نظرنا إلى المسألة في إطار الدنيا ، ولكن عندما ننظر إلى المسألة في إطارها العام ، دنيا وأخرى ، يتضح

بشكل قاطع أن السعادة في ملازمة شرع الله ، حتى لو أن إنساناً قرض جسمه بالمقاريض من أول هذه الدنيا إلى آخرها لكان هذا عارضاً بالنسبة إلى السعادة الحقيقية للإنسان في الآخرة .

فإذا اتضح هذا كله ، واتضح أن السعادة في الدنيا والآخرة في اتباع دين الله ، وأنّ كلّ شقاء يصيب الإنسان سببه خطيئة آدم ؛ إذ أخرج بها من الجنة ، فعلى الإنسان أن يتعظ ، ويعمل من أجل الخلاص من هذا الشقاء باتباع وحي الله ، إذا اتضح هذا كله وقامت به الحجة تأتي خاتمة السورة لتستنكر عدم اهتداء المكذبين مع إقامة الحجة ، ومع ما يعرفونه من عقوبات الله التي أنزلها بالسابقين ، ثم توجّه رسول الله ﷺ إلى الموقف المكافىء للمكذّبين ، ثمّ تردّ على اقتراح الكافرين إنزال الآيات للإيمان ، فلنر خاتمة السورة وتفسيرها مؤخرين فوائد المقطع الرابع إلى ما بعد عرض تفسير الخاتمة .

خاتمة السورة

وتمتد من الآية (١٢٨) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (١٣٥) وهذه هي :

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ

مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

التفسير

﴿ **أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهىٰ** ﴾ أي لذوي العقول ، فإنهم إذا تفكروا علموا أن استئصال السابقين كان لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ﴿ **لكان لِزاماً** ﴾ أي لكان الهلاك لازماً لهؤلاء ﴿ **وأجل مسمّىٰ** ﴾ هذا معطوف على « كلمة » ، والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربك ، ولولا أجل مسمى ، أي مدة معلومة مضروبة لكل أمة لجاء هؤلاء العذاب ، وأهلكوا بسبب كفرهم وإعراضهم ، وهذا تذكير وإنذار من الله ، وبيان أن ما هم فيه لو شاء الله أن ينهيه بلحظة لأنهاه ، فلا يغتروا مصرّين على الكفر والإعراض عن الوحي ، ومجيء هاتين الآيتين بعد ذكر الله المعيشة الضنك ، والعذاب في الآخرة لمن أعرض عن ذكره يفيد أن هناك عقوبة ثالثة وهي الإهلاك في الحياة الدنيا بسبب الإعراض .

وقد ذكرنا في فصل المؤيدات من الجزء الرابع من كتاب (الإسلام) في سلسلة الأصول الثلاثة :

أن المؤيدات للالتزام بهذا الدين ثلاثة أقسام : بشرية ، وفطرية ، وربانية . والربانية قسمان : عقوبة الدنيا بالعذاب ، وعقوبة الآخرة بالعذاب .

فالصلة بين هاتين الآيتين وما قبلهما واضحة ، ففيهما تذكير ، وذلك منسجم مع مقدمة السورة ﴿ **إلا تذكرة لمن يخشىٰ** ﴾ وفيهما إنذار لمن لم يؤمن ، وذلك منسجم مع

محور السورة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ .

والآن ما هو موقف أهل الحق من هؤلاء المعرضين الخاطئين في تصورهم لموضوع الشقاء والسعادة ؟ ما هي القضايا الرئيسية التي ينبغي أن يلتزم بها أهل الإيمان وأهل الهدى ؟ هذا ما نراه في الآيات الثلاث :

١ - ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ أي من تكذيبهم وأقوالهم التي يُعبّرون بها عن تصوراتهم المريضة ﴿ **وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس** ﴾ أي بصلاة الفجر ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ أي في صلاة العصر ﴿ **ومن آناء الليل فسبّح** ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿ **وأطراف النهار** ﴾ في مقابلة آناء الليل ، وحمله بعضهم على الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ، هذا كله إذا فهمنا أن المراد بالتسبيح هنا تسبيح الصلاة ، إلا أننا إذا فهمنا أن المراد بالتسبيح هنا مطلق التسبيح سواء كان في صلاة أو لا ، يكون ذلك أمراً للمداومة على ذكر الله : سبحان الله وبحمده ليلاً ونهاراً ، قبل طلوع الشمس وبعده ، قبل غروب الشمس وبعده ، في ساعات الليل وفي كل طرف من أطراف النهار بالصلاة وغيرها ﴿ **لعلك ترضى** ﴾ قال النسفي : (أي اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك) هذا هو الأمر الأول هنا ، وهو يفيد أن التسبيح بحمد الله ، مع الصبر ، هو أدب المسلم في صموده أمام أقوال أهل الكفر-وما أكثرها ، وما أشدها - كما أن التسبيح بحمد الله هو وسيلة المسلم للسعادة في الدنيا والآخرة ، هذا وعد الله عز وجل لمن لازم التسبيح بحمده .

٢ - ﴿ **ولا تمدّن عينيك** ﴾ أي نظر عينيك ﴿ **إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ، وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس كل كافر ممتّعاً ، ومعنى مدّ البصر : تطويله ، وألا يكاد يردّه استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به ، دلّ ذلك على أنّ النّظر غير الممدود معفوعنه ، وذلك أن يباده الشيء بالنظر ثم يغض الطرف ، ولقد شدّد المتقون في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة ، ومظاهر الفسق في ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن : لاتنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب؟ وهذا لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم ومغرٍ لهم على اتخاذها والمعنى: لاتنظر إلى مافيه هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك ، وقليل من

عبادي الشكور ، ولذلك قال بعد قوله ﴿ **ولاتمدّن عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾ أي زينتها وبهجتها﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾أى لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم ، أو ليستغرقوا فيما هم فيه من النعيم فينسوا أو ليروا أن ماهم فيه علامة على أن حالهم هي الحال الصحيحة ، ومن ثم فلا تتطلع إلى ماهم فيه ولاتنظر إليه ولا تعظمه ، بل كن زاهداً فيه ﴿ **ورزق ربك** ﴾ أي ثوابه وهو الجنة أو الحلال المشروع الكافي ﴿ **خير** ﴾ أي أحسن ﴿ **وأبقى** ﴾ أي وأدوم مما رزقوا .

ولما كان ميزان الشقاء والسعادة عند أهل الكفر هو نعيم الدنيا وهوأثر عن التصور الخاطىء لهذا الموضوع فقد صحّح الله هذا التصور من خلال النهي عن مدّ البصر نحو مايتمتع به الكافرون

٣ - ﴿ **وأمر أهلك** ﴾ أي أهل بيتك أو أمتك ﴿**بالصلاة** ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ﴿**واصطبر عليها** ﴾ أي واصبر أنت على فعل الصلاة بأن تداوم عليها ﴿ **لانسألك رزقاً**﴾ أي لانسألك أن ترزق نفسك ، ولاأهلك ﴿**نحن نرزقك** ﴾ أي وإياهم ، فلا تهتم لأمر الرزق ، وفرّغ بالك لأمر الآخرة ﴿ **والعاقبة للتقوىٰ** ﴾ أي وحسن العاقبة لأهل التقوى ، في هذه الآية تطمين على الرزق وهو الهمّ الذي يشغل أكثر الخلق ، وأمر بالصلاة ، وأمر بالأمر بها ، لأنّ إقامة الصلاة تعطي الإنسان طمأنينة كاملة ، فهي عامل السعادة الأول في قلب المؤمن ، وفي الأمر بها للأهل تعليم للإنسان أن يكون عاملاً على نشر الهدىٰ ، وخاصة في دائرة أهله .

وهكذا بالصبر والتسبيح والزهد والصلاة والأمر بالصلاة يشقّ المسلم طريقه في هذه الحياة ، فيصمد أمام الكفر ومغرياته ، وادعاءات أهله ويستمر على الهدىٰ وعلى شرع الله .

وقد بقي معنا الآن من السورة ثلاث آيات تتضمن اقتراحاً للكافرين ورداً عليه :

﴿ **وقالوا** ﴾ أي الكافرون ﴿ **لولا يأتينا** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **بآية من ربه** ﴾ أي بعلامة دالة على صحة نبوّته ، وقد ردّ الله عليهم بقوله ﴿ **أولم تأتهم بينة مافي الصحف الأولى** ﴾.أي الكتب المتقدمة يعني : أولم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن الذي فيه برهان مافي سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحتها ، لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهي مفتقرة إلى شهادة على صحة مافيها أليس ذلك

وحده كافياً ؟! وقد عبّر ابن كثير عن قوله تعالى ﴿ **أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى**﴾ بمايلي :

(يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله ، وهو أمي لايحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ، ويبيّن خطأ المكذب فيها وعليها ..... ثم بعد كلام قال: وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه الصلاة والسلام وهو القرآن وإلا فله من المعجزات مالا يحد ولا يحصر ، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه ؟

فإن يكن هذا القرآن على هذه الشاكلة ، فذلك دليل على أنه من عند الله كما قال تعالى في بداية السورة ﴿ **تنزيلًا مِمَّن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن** ﴾ فالسورة تختم بما بدأت به بأن تأتي بالدليل على أن هذا القرآن من عند الله ، إذ أن قصة موسى وقصة آدم موجودتان في الصحف الأولى فأن تعرضهما هذه السورة بمثل هذه الدقّة وبمثل هذا الكمال دون تناقض وكما هما حقاً وصدقاً فذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، وهذا يفيد أنه لاحجة لكافر لايؤمن برسول الله ﷺ وماأنزل عليه ومن ثم ندرك الصلة بين هذه الآية وسياق السورة ومحور السورة من سورة البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ ﴿ **ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله** ﴾ أي : من قبل الرسول أو القرآن ﴿ **لقالوا ربنا لولا** ﴾ أي : هلا ﴿ **أرسلت إلينا رسولًا**﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ﴿ **فنتبع آياتك من قبل أن نذل**﴾ بنزول العـذاب ﴿ **ونخزى** ﴾ يوم القيامة والمعنى : أن هؤلاء الكافرين المكذبين لو أن الله أهلكهم قبل أن يرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وينزل عليهم هذا الكتاب العظيم لاحتجوا على الله بأنه لم يرسل لهم رسولًا فها هو ذا الرسول قد أرسل ، وها هي الآيات قد أنزلت ولم يؤمنوا ولم يتبعوا ، ومن ثم فإنهم يستحقون كل ماأنذروا به ، ومن ثم ختم الله السورة بأن أمر رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ **قل** ﴾ أي يا محمد لمن كذّبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ **كلٌّ** ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ **متربِّص** ﴾ أي ينظر للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿ **فتربصوا** ﴾ أي فانتظروا ﴿ **فستعلمون** ﴾ إذا جاءت القيامة ﴿ **من أصحاب الصراط السويّ** ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ **ومن اهتدى** ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد ،

فإذا نظرت إلى هذه الخاتمة ، وإلى محور السورة من سورة البقرة فإنك تجد الجواب في المحور ﴿ **هدى للمتقين ... والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وبالكلام عن السياق الخاص والعام أثناء عرضنا لهذه الخاتمة نستغني عن أن نفرد كلمة لهذا الموضوع فلنتكلم مباشرة عن فوائد المقطع الرابع وخاتمة السورة :

الفوائد :

١ - بمناسبة ذكر شجرة الخلد في قصة آدم عليه السلام يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه أبو داود الطيالسي والإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد » .

٢ - هناك اتجاه في تفسير العيش الضنك في قوله تعالى ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ أنه عذاب القبر ، وقد ورد فيه أكثر من حديث ، وأحدها إسناده جيد رواه البزار ولا ينفي هذا ما ذكرناه من كون المعيشة الضنك في الدنيا ؛ لأن عذاب القبر هو أثر العمل في الدنيا ، ومن ثم فإن عامة المفسرين ذكروا ما اعتمدناه في صلب التفسير ونؤكد هنا على معنى وهو أن المعيشة الضنك مرتبطة بالشقاء النفسي .

قال النسفي : (فمع الدين ، التسليم والقناعة والتوكل ، فتكون حياته طيبة ، ومع الإعراض ، الحرص والشح فعيشه ضنك ، وحاله مظلمة ، كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى** ﴾ .

قال ابن كثير : (فأما نسيان لفظ القرآن ، وفهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص ، وإن كان متوعَّداً عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾

يذكر ابن كثير الأحاديث التالية : في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي

الله عنه – قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية ، وروى الإمام أحمد ... عن عمارة بن رؤيبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ورواه مسلم وفي المسند والسنن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ إن « أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، ينظر إلى أقصاه ، وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين » وفي الصحيح : يقول الله : « يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون وما أفضل من ذلك ؟ فيقول : : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزوجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ قال ابن كثير : في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل على رسول الله في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسّداً مضطجعاً على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ ، وأهبة معلقة فابتدرت عينا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « مايبكيك ياعمر؟» فقال : يارسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه فقال : « أوَفي شك أنت يابن الخطاب ؟! أولئك قوم عجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عنها ، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد . روى ابن أبي حاتم ...... عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » قالوا وما زهرة الحياة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : « الأرض » وقال قتادة والسدي : زهرة الحياة الدنيا يعني زينة الحياة الدنيا ، وقال قتادة ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ لنبتليهم . وقوله ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم .... عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها ، فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة كما كان يقوم ، وكان إذا استيقظ أقام (يعني) أهله وقال ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ وقوله ﴿ **لا نسألك رزقاً نحن نرزقك** ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ إلى قوله ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ ولهذا قال ﴿ **لا نسألك رزقاً نحن نرزقك** ﴾ وقال الثوري : لا نسألك رزقاً أي لا نكلفك الطلب ، وروى ابن أبي حاتم عن هشام عن أبيه أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ إلى قوله ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ ثم يقول : الصلاة الصلاة رحمكم الله ، وروى ابن أبي حاتم ....عن ثابت قال : كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا صلوا . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسدَّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » .

وروى ابن ماجه .... عن ابن مسعود قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « من جعل الهموم همّا واحداً همّ المعاد كفاه الله هَمّ دنياه ، ومن تشبّعت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك » وروى أيضاً من حديث شعبة .... عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » وقوله ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة – وهي الجنة – لمن اتقى الله ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأوّلت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب»

٦– وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى**﴾

يذكر ابن كثير: حديث الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مامن نبي إلاوقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »

كلمة في سورة طه ومحورها :

لاحظنا أن سورة آل عمران قد فصّلت الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، واستدللنا على ذلك ، بأن سورة آل عمران بدئت بـ (الٓمٓ) وانتهت بقوله تعالى ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ كما أن الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة بدأت بقوله تعالى ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وانتهت بذكر كلمة الفلاح ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ونجد الآن ظاهرة مشابهة في سورة طه ، فإنها تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ **طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ** ﴾ وتنتهي بقوله تعالى ﴿ **قل كل متربِّص فتربَّصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى** ﴾ لاحظ كلمة (أنزلنا) في بدايتها ، وكلمة (اهتدى) في نهايتها ، وتأمل الآيات الأولى من سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** * ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **بما أُنزل إليك** ﴾ وكلمة ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ لترى الصلة واضحة بين سورة طه ، وبين الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة .

فإذا نظرنا إلى مضمون السورة ، وإلى كونها تقصُّ علينا من نبأ موسى عليه السلام ، وإلى قوله تعالى فيها ﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ..** ﴾ وإلى قوله تعالى فيها : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدِث لهم ذكراً** ﴾ وصلة ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ **فمن اتَّبع هدايَ فلا يضل ولا يشقىٰ** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وإلى وجود قوله تعالى : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ وصلة ذلك بإقامة الصلاة .

فإننا لم نبعد إذا قلنا إن محور سورة طه هو الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة وقد كنا رأينا من قبل أنّه عندما تفصّل سورة ما (مكاناً) من سورة البقرة فليس معنى هذا أن تفصّله كله ، بل قد تفصّل جزءاً منه ، لأن جزءاً منه قد تفصّله سورة أخرى ، أو

كلمة في سورة طه

رأينا أن سورة (طه) انصب تفصيلها على قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك** ... ﴾ من مقدمة سورة البقرة ولكنه تفصيل رباني عجيب ، بدأت السورة بتعليل لم أنزل القرآن ثم بالتدليل على أن منزله الله ، ثم قصّت قصة موسى التي هي نموذج كامل على الإرسال والإنزال والإيمان وعاقبة الإيمان ومزالق الطريق وكيفية معالجتها وعن بعض خصائص القرآن ، ثم قصّت لنا قصة آدم وسنة الله الخالدة في موضوع إنزال الهدى ، وعاقبة المهتدين والمعرضين ، وكل ذلك يعمّق موضوع الإيماان بهذا القرآن ، ثم ناقشت الذين كفروا وأمرت ونهت أهل الإيمان ، ثم ردّت على اقتراح الكافرين آية بأن هذا القرآن كاف ،وقد رأينا أثناء الكلام عن السورة مالا نحتاج معه إلى أن نكرره ، سواء حول السياق الخاص للسورة أو حول السياق القرآني العام ،والمهم أن يكون واضحاً لدينا أن مافي السورة من معان إنما هي دعوة للإيمان بهذا القرآن وتربية على مقتضياته تفصيلًا لقوله تعالى: ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك**﴾

☆ ☆ ☆

سورة الأنبياء

وهي السورة الحادية والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الثالثة من قسم
المئين ، وآياتها مائة واثنتا عشرة آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الأنبياء :

(نزلت بمكة كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير - رضي الله تعالى عنهم - وفي البحر وأنها مكية بلا خلاف ، وأطلق ذلك فيها ، واستثنى منها في الإتقان قوله تعالى ﴿ **أفلا يرون أنا نأتي الأرض** ﴾ الآية . وهي مائة واثنتا عشرة آية في عد الكوفي ، وإحدى عشرة في عد الباقين ، كما قاله الطبرسي والداني ،ووجه اتصالها بما قبلها غني عن البيان ، وهي سورة عظيمة فيها موعظة فخيمة ، فقد أخرج ابن مردويه وأبونعيم في الحلية . وابن عساكر عن عامر بن ربيعة أنه نزل رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلّم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول ﷺ وادياً مافي العرب وادٍ أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لاحاجة لي في قطيعك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ **اقترب للناس** ﴾ إلى آخره .

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود قوله:

بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي

دل هذا الأثر على أن سورة الأنبياء من السور التي نزلت قديماً ، وذكرها في هذا الترتيب الموافق للرسم القرآني فيه دليل على أن ترتيب القرآن كما هو مرسوم كان معلوماً للصحابة رضوان الله عليهم ، فالأثر يصلح أن يكون من جملة الأدلة على أن ترتيب هذا القرآن توقيفي)

كلمة في سورة الأنبياء :

قلنا من قبل : إن محور سورة الأنبياء هو قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ تأمّل هاتين الآيتين ، ثم انظر الآيات الثلاث الأولى من سورة الأنبياء ، تجد مصداق ما قلناه : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾

ثم بعد هذه الآيات تأتي آية هي : ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو**

السميع العليم ﴾ هذا ما قاله الرسول ﷺ فهل عليه اعتراض ؟ إنهم يعترضون : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾

ويأتي الرد القرآني عليهم ويستغرق السورة كلها بدليل أن السورة تختم بآية على لسان الرسول ﷺ تبدأ بكلمة (قال) كالآية التي جاءت بعد الآيات الثلاث : ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ وما بين هذه الآية وبين مقدمة السورة نجد مجموعات السورة تضرب على نسق واحد كل مجموعة منها مبدوءة بكلمة (ما) أو (وما)

....

﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين** ﴾
﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾
﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون** ﴾
﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾

....

إنّ هناك إنذاراً ومنذِراً ومنذرين ماهو مضمون الإنذار ؟ وما هي حال المنذرين ؟ وماذا يقول النذير ؟ وماذا يقول المنذرون وما هو الرد عليهم ؟ معان تطرقها السورة ، وكلّها نوع تفصيل لقوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ كما سنراه أثناء عرض السورة تفصيلًا

....

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذه السورة تفصل الآية المذكورة من سورة البقرة هي أنه لم يرد في القرآن إلا سورتان مبدوءتان بكلمة مشتقة من الاقتراب

هذه السورة ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وسورة القمر المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر ....** ﴾ فهذه البداية المشتركة توحي بالموضوع المشترك ، والمحور المشترك ، وأنت عندما تدرس سورة القمر فإنك تجد بوضوح أنّها تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم**

تنذرهم لا يؤمنون ﴾ لاحظ بدايتها : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر** ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **فما تغني النذر** ﴾ وصلتها بقوله تعالى ﴿ **أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ثم لاحظ قوله تعالى فيها : ﴿ **كذبت ثمود بالنذر** ﴾ ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾ ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ ثم لاحظ قوله تعالى فيها ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر** ﴾ تجد الصلة واضحة بقوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم ...** ﴾

وسورة القمر ستأتي معنا بإذن الله ونرى ما ذكرناه هنا بالتفصيل ، ولكنا أسرعنا في هذه الإشارة للتأكيد على أن محور تلك السورة هو محور هذه السورة ؛ بدليل الموضوع المشترك ، واللفظة المشتركة ، التي بدأت بها السورة ، مع ملاحظة أن لكل سورة سياقها الخاص بها ، وطريقتها الخاصة بها في التفصيل .

فسورة الأنبياء إذن تتألف من آيات ثلاث ، ثمّ قول للرسول ﷺ ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ ثمّ مواقف للكافرين من هذا القول ، وردّ عليها ، ثمّ تختم السورة بآية مبدوءة بلفظة (**قال**) على لسان الرسول ﷺ :
﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾

فالكافرون يرفضون البلاغ مع قيام الحجة ، والرّسول ﷺ بعد إقامة الحجة يعلن استسلامه لله ، ويدعو الله أن يحكم بينه وبين هؤلاء الكافرين ، ويطلب العون من الله على أقوال هؤلاء الكافرين .
فلنبدأ عرض السورة لنرى تفصيل ما ذكرناه .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وتتألف من خمس آيات بعد البسملة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)

التفسير :

﴿ **اقترب** ﴾ أي دنا ﴿ **للناس** ﴾ أي للكافرين بدليل السياق كما ذكر النسفي ﴿ **حسابهم** ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم ، ومجازاته على أعمالهم ، وصفه بالاقتراب لقلة ما بقي ، بالإضافة إلى ما مضى ، ولأن كل آتٍ قريب ﴿ **وهم في غفلة** ﴾ على حسابهم وعما يُفعَل بهم هناك ﴿ **معرضون** ﴾ أي عن التأهب لذلك اليوم ﴿ **ما يأتيهم** ﴾ أي هؤلاء الكافرين ﴿ **من ذكر** ﴾ أي من شيء من القرآن ﴿ **من ربهم محدث** ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ **إلا استمعوه** ﴾ وحالهم عند السماع ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ ومع كونهم أثناء السماع لاعبين فإن قلوبهم لاهية ، ومن ثم وصف حال قلوبهم عند السماع ﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾ فأجسامهم في لعب ، وقلوبهم في لهو وغفلة ، فكيف يعقلون عن الله وحيه ؟ ثمّ وصف الله عز وجل حالهم بأنهم زيادة على لعب الجسم ولهو القلب فإنهم يتآمرون ﴿ **وأسروا النجوىٰ** ﴾ أي وبالغوا في إخفاء تناجيهم ﴿ **الذين ظلموا** ﴾ الكلام كله عن الموسومين بالظلم ، فهم الذين يستمعون الذكر والجسم لاعب والقلب لاه ، ويتناجون سراً متآمرين ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ أي قائلين

فيما بينهم خفية هذا الكلام ، يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً أنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم ، ولهذا قالوا كما ذكر الله على لسانهم ﴿ **أفتأتون السحرَ وأنتم تبصرون** ﴾ أي أفتتبعونه فتكونوا كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر . والمعنى : أنهم اعتقدوا أنّ الرسول لا يكون إلا ملَكاً ، وأنّ كلّ من أدّعى الرّسالة من البشر ، وجاء بالمعجزة فهو ساحر ، ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

كلمة في السياق :

وهكذا وصف الله حال هؤلاء الكافرين أنهم غافلون ومعرضون ولا يستمعون الوحي إلا والجسم لاعب ، والقلب لاهٍ ، وقد بنوا الأمر على أنّ محمداً ﷺ بشر وساحر ، وليس من التعقل حضور مجلسه ، فناسٌ هذا شأنهم كيف يصلحهم الإنذار ، أو ينفعهم إن صلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ واضحة ، فهذه الآيات علّلت لنا لمَ لا ينفع الإنذار بهؤلاء ؟ إنهم غافلون معرضون ، لاعبون ، لاهو القلب ، يتآمرون على الرسالة ، ظالمون ، تصوراتهم خاطئة ، فالعلة فيهم ومنهم ، ومن ثم ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وجعل على بصرهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم .

نقــل :

بمناسبة مقدّمة السّورة قال صاحب الظلال :

(هؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ، ومنهاجاً للعمل ، وقانوناً للتعامل .. باللعب . ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة . وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان . فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن . والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ ، لاهدف له ولا قوام !

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذي يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها :

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه .. ثم جاءه هذا الرجل وقد أصاب أرضاً فقال له : إني استقطعت من رسول الله

ﷺ وادياً في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة . التي تكفن ميتتها باللهو ، وتواري خمودها بالاستهتار ، ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة)

فوائد :

١ - كثير من أخلاق الكافرين يمكن أن يبتلى بها المؤمنون ، ومن ثم فإن على المسلم أن يلاحظ نفسه وقلبه ، وإذا مرَّ على خلق للكافرين فتَّش في نفسه وسلوكه أن يكون متخلقا به وهو لا يشعر ، إن هذه الصورة - صورة استماع الوحي والجسم يلعب والقلب لاه - سورة نراها كثيراً في المقاهي والنوادي والمجالس ، يشترك فيها الكافرون والمؤمنون ، ومن ثم قال النسفي : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ (فالاقتراب عام ، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين ، فرب غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه ، وإعراضه عن مولاه ، ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه وإعراضه عن دنياه ، فهو لا يفيق إلا برؤية المولى والأول إنما يفيق في عسكر الموتى ، فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب ، وتتنبه للعرض قبل أن تُنبه ، وتعرض عن الغافلين ، وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين ؛ لتفوز بلقاء رب العالمين) .

٢ - مما استدل به المعتزلة على حدوث القرآن قوله تعالى ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** .... ﴾ ولا يصح لهم هذا الاستدلال ؛ لأن المراد بالمحدث أنه محدث إتيانه قريب عهده باستماعهم ، مبتدأة تلاوته .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾ ذكر النسفي ما قاله أبو بكر الوراق في تفسير القلب اللاهي : المشغول بزينة الحياة وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ ذكر ابن كثير ما قاله ابن عباس (ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرَّفوه وبدّلوه ، وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله ، تقرؤنه محضاً لم يشب) قال ابن كثير رواه البخاري بنحوه .

ولنعد إلى السياق ...

هذا الموقف للكافرين ، الذي رأيناه ، والذي يوصل إلى أنه لا فائدة من إنذارهم ، يكافؤه أن يعلن الرسول هذا الإعلان : ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ إن الموقف المكافىء لموقف الكافرين فيما افتروه واختلقوه من الكذب أن يقول الرسول ﷺ هذا ﴿ **قال** ﴾ أي محمد ﴿ **ربي يعلم القول في السماء والأرض** ﴾ أي يعلم قول كل قائل ، في السماء أو في الأرض سرّاً كان أو جهراً ﴿ **وهو السميع** ﴾ لأقوالكم ﴿ **العليم** ﴾ بأحوالكم ، إن إعلان الرسول عن هذا هو الذي يمثّل الموقف الجدي من موقفهم الهازل الهازىء ، إن الإعلان الرصين ليس موجهاً لهم مباشرة لأنهم لا ينتفعون به ، إلا أن مثل هذا الموقف يثيرهم أكثر وأكثر ومن ثم ينتقلون من موقف التناجي السري والتآمر الخفي إلى الإعلان السافر والاتهام القذر : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أي تخاليط أحلام أي تخاليط منامات ﴿ **بل افتراه** ﴾ أي بل اختلقه ﴿ **بل هو شاعر** ﴾ أي أديب نسج هذا القرآن على هذه الشاكلة ، أو المراد أنه شاعري العواطف والتعبير ، ومن ثم يقول هذا الكلام ، ويعبّر الكافرون في عصرنا عن ذلك : إنه عاطفي وليس موضوعياً ﴿ **فليأتنا بآية** ﴾ أي بمعجزة ﴿ **كما أُرسل الأولون** ﴾ أي كما أرسل مَن قبله باليد البيضاء ، والعصا وإبراء الأكمه ، وإحياء الموتى ، وصفوا القرآن أولًا بأنه سحر ، ثم أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، رآها في نومه فتوهمها وحياً من الله إليه ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا فالباطل لا يستقر على قول ، والمبطل متناقض لا يثبت على قول واحد

قال ابن كثير في الآية : (هذا إخبار عن تعنت الكفار ، وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم فيه ، وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحراً ، وتارة يجعلونه مفترىً) .

كلمة في السياق :

من خلال هذه الآيات الخمس التي مرّت معنا ندرك حقيقة الحالة الكفرية للإنسان الذي لا ينفع معه الإنذار ، إنه الإنسان الذي يعتبر الوحي أضغاث أحلام ، وأنّه مكذوب ، وأنّ الرسول إنسان عاطفي غير موضوعي ، إن هذا النوع من الكفار هم الذين يطلبون الآيات متعنتين ، وهم مستغرقون في الغفلة والإعراض واللعب وسهو القلب ، والتآمر على الرسالة والرسول ، هذه هي أعراض الكفر الكامل الذي لا ينفع معه إنذار ، وبعد أن عرضت السورة علينا هذا الواقع للكفر ، فإن مجموعاتها اللاحقة تقيم الحجة على الكافرين مرّة بعد مرّة.

المجموعة الأولى

وتمتد من الآية (٦) إلى نهاية الآية (١٥) وهذه هي :

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

التفسير :

﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أي ما آتينا أهل قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيهم فآمنوا بها ، بل كذبوا فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها ؟؟ ﴿ **أفهم يؤمنون** ﴾ أي أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو آتيناهم بما اقترحوا ، مع أنّهم أعتى منهم ؟ والمعنى : أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات ، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكم الله ، فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً ، هذا رد لقولهم ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ إنّ الله عزّ وجلّ إذا أرسل رسولًا فإنّه يجعل على

يديه ما تقوم به الحجة على الخلق ، أما إذا اقترح الناس الآيات مما يزيد على ما تحتاجه إقامة الحجة ، فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أجابهم إلى ذلك ثم لم يؤمنوا فإنّ سنّته أن يهلكهم ، ولقد أعطى الله رسولنا ﷺ من الآيات الباهرات ، والحجج القاطعات ، والدلائل البيّنات ، ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما أعطيه أي رسول آخر ، ومع ذلك لم يؤمنوا بل يقترحون الآيات ، وما هم بمؤمنين لو جاءت ، ولو جاءت ولم يؤمنوا لأهلكوا ، فمن إكرام الله لرسوله ﷺ أنّه لم يستجب لهم في اقتراحهم ، وسنلاحظ أنه في نهاية هذه السورة سيأتي قوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ ومن مظاهر كونه رحمة للعالمين هذا الإمهال لمن خالفه ، وعدم الاستئصال .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن الكافرين لا يؤثر فيهم الإنذار ، ولا تؤثر فيهم الحجج ، ورأينا أن هذا المعنى له صلة بمحور السورة من سورة البقرة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ولاحظنا في الآيات الأولى من السورة كيف أن الكافرين يفرون من الحجج إلى اقتراح الآيات ، وقد بدأت الآية الأولى من هذه المجموعة بتبيان أنه حتى ولو جاءهم ما اقترحوا فإنهم لا يؤمنون ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فليس بالإنذار يؤمنون ، وليس بالآيات يؤمنون ، وبعد أن تردّ الآية الأولى في هذه المجموعة على آخر ما قالوه وهو اقتراحهم الآيات ، فإن الآيات التالية ترد على كلامهم الأول الذي عرضه الله علينا من قبل ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ فلنعد إلى التفسير لنرى ذلك :

﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً** ﴾ فتلك سنّة الله الدائمة إذن ، فلماذا يستنكرون أن يكون محمد ﷺ رسولًا بشراً ﴿ **نوحي إليهم** ﴾ فهم بشر كبقية البشر ، إلا أنّهم يمتازون عن البشر بالوحي ﴿ **فاسألوا أهل الذكر** ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ ذلك أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف ، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ، إن كنتم لا تعلمون شيئاً عن شأنهم ، فسيجيبونكم أنهم بشر ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ؛ إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنّون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم ، ولما كان قولهم ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ يتضمّن أنّهم يتصورّون أنّ الرّسول ينبغي أن يكون من غير جنس البشر أو إذا كان من البشر فينبغي أن يكون له وضع خاص ، كأن لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا

يموت ، فمن ثم جاءت الآية التالية تقول :

﴿ **وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام** ﴾ أي وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين ، بل كانوا بشراً من البشر ، أجساداً يأكلون الطعام ، ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ، ولا ناقص منهم شيئاً كما توهّمه المشركون ﴿ **وما كانوا خالدين** ﴾ أي في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ومحمد ﷺ واحد منهم ، فلِمَ تستغربون أن يكون رسولًا ؟

وبهاتين الآيتين ردّ الله عزّ وجلّ على زعمهم أنّ الله لا يبعث بشراً رسولًا ولمّا كان قد ذكر في الردّ الأول ، على موضوع اقتراح الآيات ، إهلاكه القرىٰ ، عاد السياق هنا ليذكر بعد أن ردّ كلامهم الأول ، إلى تبيان أن هذا الإهلاك كان تصديقاً للوعد الذي وعده الرسل وهو قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ **لنهلكن الظالمين** ﴾ وهؤلاء كانوا ظالمين بقولهم ، كما ذكر الله ﴿ **وأسروا النجوىٰ الذين ظلموا** ﴾ ومن ثم فإن الآية الثالثة تقول : ﴿ **ثم صدقناهم** ﴾ أي صدقنا الرسل ﴿ **الوعد** ﴾ وهو إهلاك الظالمين وإنجاء الرسل ﴿ **فأنجيناهم** ﴾ أي مما حل بقومهم ﴿ **ومن نشاء** ﴾ أي المؤمنين ، **فهم** الذين يشاء الله إنجاءهم بدليل ما بعده ﴿ **وأهلكنا المسرفين** ﴾ أي المجاوزين الحد بكفرهم ، وهم المكذّبون بما جاءت به الرّسل .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم ...** ﴾ قال صاحب الظلال : (لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم . وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدي ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة . ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرون النساء ، ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس . فلاهم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلم يحركهم للعمل بما يقول لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل . هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل .

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهاً عن انفعالات البشر .. كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها .. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص . وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر . وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس .

وهنالك اعتبار آخر ، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ، لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية . وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله ، باختيار الرسل منه . ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه ، لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر ، وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت ، ومن عواطف وانفعالات ، ومن آلام وآمال ، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء ، وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم ... أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة)

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة الأنبياء هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾

ونلاحظ في الآية الأخيرة أنّ قوله تعالى ﴿ **ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين** ﴾ فيه إنذار لهم أن يصيبهم ما أصاب الأولين ، دلّ ذلك على أن كون النتيجة أن هؤلاء الكافرين لا يؤمنون لا يعني هذا أنهم لا ينذَرون ، بل الإنذار لابدّ منه لإقامة الحجة عليهم ، ومن ثمّ أمر الله رسوله أن ينذر ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب**

لدى الحناجر ﴾ وهكذا نلاحظ أنّ ما مرّ معنا من هذه المجموعة حتى الآن قد ردَّ على كلمة للكافرين ، ورد على اقتراح ، وبعد الرد حذّر وأنذر ، والآن يأتي الردّ على قولهم إن القرآن أضغاث أحلام وكذب وشعر ، ثمّ يعقب ذلك إنذار آخر ، وتحذير وتذكير ﴿ **لقد أنزلنا إليكم** ﴾ يا معشر قريش ، أو يا معشر العرب الذين تقولون عن هذا القرآن ما تقولون ﴿ **كتابا** ﴾ هو القرآن ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ أي فيه شرفكم ، هكذا فسّرها ابن عباس ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي ما فضّلناكم به على غيركم فتؤمنوا ، أي أفلا تعقلون هذه النعمة وتتلونها بالقبول بدلًا من أن تصفوها بما تصفونها به ؟ ولنا على الآية عودة ، إذ تحتمل أن يكون المراد بالذكر الموعظة ، فكتاب فيه مثل هذا التذكير كيف تصفونه بما تصفونه به ؟ وبعد أن ردّ مزاعمهم في شأن هذا القرآن عاد إلى التحذير والإنذار والتذكير ﴿ **وكم قصمنا** ﴾ أي أهلكنا ﴿ **من قرية كانت ظالمة** ﴾ أي كثير من القرى الكافرة أهلكنا أهلها ، والتعبير بالقصم فيه إشارة إلى شدة الإهلاك ، لأنّ القصم أفظع الكسر ﴿ **وأنشأنا** ﴾ أي وخلقنا ﴿ **بعدها قوما آخرين** ﴾ أي أمة أخرىٰ سكنت مساكن الأوّلين ﴿ **فلما أحسُّوا بأسنا** ﴾ أي فلما أحسّ المهلَكون عذابنا ، أي علموا علم حسّ ومشاهدة تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، كما وعدهم نبيّهم ﴿ **إذا هم منها يركضون** ﴾ أي يفرون هاربين ، فقيل لهم ، والقائل بعض الملائكة ﴿ **لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترِفتم فيه** ﴾ أي إلى ما نُعّمتم فيه من الدنيا ، ولين العيش ، أي إلى نعيمكم ﴿ **ومساكنكم لعلكم تسألون** ﴾ وإنما يقال هذا لهم كما قال قتادة استهزاءً بهم ، والمعنى : لعلكم تسألون غداً عمّا جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل ، عن علم ومشاهدة ، بلسان الحال ، أو لعلكم تسألون عما كنتم فيه من أداء شكر النّعم في دار النّعم ﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿ **فمازالت تلك دعواهم** ﴾ أي دعاءهم وهو اعترافهم بظلمهم ، دلّ ذلك على أن الاعتراف بالخطيئة دعاء لله ، ولكن الدعاء في هذا المقام لا ينفع ﴿ **حتى جعلناهم حصيداً** ﴾ أي مثل الحصيد أي مثل الزرع المحصود ﴿ **خامدين** ﴾ أي ميتين ، شبههم بالنار إذا خمدت ، أي جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود ، أي مازالت تلك المقالة – وهي الاعتراف بالظلم –حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً ، وهكذا حذّر الله هؤلاء الكافرين وأنذرهم وذكّرهم لو كان ينفعهم تحذير .

نقـــل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ؟ ﴾ قال صاحب الظلال : (إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرّقوا بها وغربوا ، فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قروناً طويلة ، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب . حتى إذا تخلوا عنه تخلّت عنهم البشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلًا للقافلة يتخطّفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يُتَخَطّف الناس من حولهم . وهم آمنون .

وما يملك العرب من زادٍ يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد ... فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم ، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به . فأما إذا تقدّموا إليها عرباً فحسب بجنسية العرب ، فما هم ؟ وما ذاك ؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب ؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب . وهذه العقيدة .. لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب . فذلك لا يساوي شيئاً في تاريخ البشرية ، ولا مدلول له في معجم الحضارة ! إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومُثُلَه وفكرته . وهذا أمر له مدلوله في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة !

وذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم ، وهو يقول للمشركين ، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾).

كلمة في السياق :

ردّ الله عز وجل في هذه المجموعة على أقوال الكافرين واقتراحاتهم ووعظهم وذكّرهم ، بتسلسل واضح رأيناه أثناء العرض والتفسير ، وقد رأينا فيما مرّ معنا نموذجاً على كون هذا القرآن (ذكراً) وهو المعنى الذي ورد في الآية الثانية من السورة ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ فالقرآن ذكر يذكّر بالله ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ والقرآن ذكر يذكّر الإنسان ويعظه ﴿ **وكم**

أهلكنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ والقرآن ذكر إذ يقوّم باطل الإنسان بالحجة القاطعة ، ومع كون القرآن هذا كله ، فإن الكافرين يستمعون إليه وهم يلعبون لاهية قلوبهم .. ومن تأمل هذا لا يغيب عنه ارتباط الآيات بمحور السورة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ .

فائدة :

ذكرنا أن لنا عودة على قوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾ لقد فسّر ابن عباس الذكر فيها بأنّه الشرف ، وفسّره آخرون بأنّه الموعظة ، وفسّره آخرون بأنّه الدين ، وسواء فسّر بالشرف أو بالموعظة أو بالدّين فإنه ردّ على ما زعموه فيه أنّه أضغاث أحلام وأكاذيب أو شعر ، وعلى القول الأقوىٰ وهو أن المراد به الشرف يكون خطاباً للعرب ، إذ يذّكّرهم الله بنعمته عليهم إذ شرّفهم بهذا القرآن ، بل التعبير يفيد أنّه شرفهم الوحيد إذ تقديم (فيه) وهو جار ومجرور على المبتدأ يفيد الاختصاص ، ولو أنك تأملت شيئا يشرُف به العرب في هذا العالم لم تجد شيئاً غير هذا القرآن ؛ فما من شيء قدّمه العرب للعالم إلا وهم فيه عالّة على غيرهم ، أو يشاركهم فيه غيرهم إلا هذا القرآن الذي أنزله الله عليهم ، فإنه الشرف الذي لا ينازعهم فيه غيرهم ، وعندما يرفض العرب هذا القرآن يكونون قد رفضوا شرفهم ، ويدللون بذلك على عدم عقلهم ، ولكن الكافر لا تفيده حجة ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ولذلك تجد كفار عصرنا من العرب مصرّين على ألا يبقى لهذا القرآن دور في الحياة ، ونراهم مصرّين على إنكاره والاستهزاء به ، دأب كفار العرب الأولين ، مع أن العرب المحدثين رأوا من آيات الله في هذه الأمة - ببركة هذا القرآن - ما لم يره الأولون ، ومع ذلك يصرّون على أن يكونوا بلا شرف ، وأن يجرِّدوا أمتهم من أسباب شرفها ، وما ذلك بضار هذا القرآن شيئاً قال تعالى : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾

وقد أعطى الله راية الإسلام أكثر من مرة لغير العرب ، فهل يعقل العرب في عصرنا فيعودوا إلى استلام الراية من جديد . ولننتقل إلى المجموعة الثانية بعد المقدمة .

المجموعة الثانية

تمتد من الآية (١٦) إلى نهاية الآية (٢٤) وهذه هي

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

كلمة في السياق :

لاحظ أن بداية السورة كانت ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **معرضون** ﴾ ثم لاحظ أن هذه المجموعة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون** ﴾

فهذه المجموعة تستقر في النهاية على علّة الإعراض ، وهو جهل الكافرين بالحق ، الذي عرضت أحواله هذه المجموعة ، وإذ عرفنا صلة هذه المجموعة بسياق السورة من هذه الملاحظة السريعة ، فإنّنا نعلم كذلك صلتها بالمحور من الملاحظة نفسها ؛ إذ علّة

الإعراض هي علّة عدم الإيمان ، وعلّة استواء الإنذار وعدمه ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فلنر تفسير المجموعة ولنا على السياق كلام آخر .

التفسير :

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما** ﴾ من أصناف الخلق ﴿ **لاعبين** ﴾ أي ما خلقناهما للهو واللعب ، وإنما سويناهما ليستدل بهما على قدرة مدبرّهما ، ولنجازي المحسن والمسيء على مقتضى حكمتنا ، فلم نخلق الخلق إذن عبثاً ولا لعباً ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتّخذناه من لدنا** ﴾ أي من عندنا دون أن نخلق الخلق ﴿ **إن كنا فاعلين** ﴾ أي إنّ كنّا ممّا يفعل ذلك ، ولسنا ممّن يفعله لاستحالته في حقّنا ، أو المعنى : ما كنا فاعلين ﴿ **بل** ﴾ شأننا ﴿ **أن نقذف بالحق على الباطل** ﴾ لا أن نتخذ لهواً ، والمعنى : بل من سنّتنا أن نرمي ونسلط بالحق على الباطل ﴿ **فيدمغه** ﴾ أي فيكسره ويدحض الحقُ الباطل ﴿ **فإذا هو** ﴾ أي الباطل ﴿ **زاهق** ﴾ أي هالك ذاهب ﴿ **ولكم الويل** ﴾ أيها الواصفون الله بغير صفاته ﴿ **ممّا تصفون** ﴾ أي عما تقولونه وتقدمونه ﴿ **وله من في السمٰوات والأرض** ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ **ومن عنده** ﴾ يعني الملائكة ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ أي لا يستنكفون عن عبادته ﴿ **ولا يستحسرون** ﴾ أي لا يتعبون ولا يملّون ﴿ **يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ أي تسبيحهم دائم متصل في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر ، فتسبيحهم جار مجرى التنفس من الإنسان ، فهم دائبون في العمل ليلًا ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملًا قادرون عليه .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ قال صاحب الظلال :(و « بل » للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو ، والعدول عنه إلى الحديث في الواقع المقرر الذي تجري به السنة ويقتضيه الناموس . وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

والتعبير يرسم هذه السُنّة في صورة حسية حَيّة متحركة . فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب ، هذه هي السنة المقررة . فالحق أصيل في طبيعة الكون ، عميق في تكوين الوجود .

والباطل منفي عن خِلْقة هذا الكون أصلًا . طارىء لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ،

يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لشيء . يطارده الله ، ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه .

ولقد يخيل للناس - أحياناً - أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب . ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان ، يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض ، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده ، وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه ، وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه .. فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حيناً من الدهر عرفوا أنها الفتنة ، وأدركوا أنه الابتلاء ، وأحسوا أن ربهم يربيهم ، لأن فيهم ضعفاً أو نقصاً ، وهو يريد أن يعدّهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يختارون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف .. وكلما سارعوا إلى العلاج قصرالله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء .. أما العاقبة فهي مقررة : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾.

كلمة في السياق :

إنّ علة إعراض الكافرين وغفلتهم هي جهلهم بالله وفساد تصوراتهم عن حكمة خلقه السمٰوات والأرض ، إنهم يجهلون أن الله لا يلهو ولا يعبث ، ويجهلون جلاله وعظمته ، ويجهلون أنّ من شأنه وسنّته أن يبطل الباطل ويهلكه ، وأنّ من شأنه أن يُعْبد ويقدّس ، ولو أنّهم عقلوا هذه المعاني ما أعرضوا ولا غفلوا ، ولا أنكروا إرساله الرسل ، ولا أنكروا إنزاله الكتب والوحي ، فلنتأمّل صلة هذه الآيات ومعانيها بمقدمة السورة : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ لِمَ يغفلون ويعرضون ؟ إنهم غافلون معرضون ؛ لتصوّرهم أن هذه السمٰوات والأرض خلقت عبثا ، ولولا هذا لأدركوا أنّهم محاسبون فلم الإعراض ، ولِمَ الغفلة ؟! ، ثمّ لو أدركوا أنّ من شأن الله أن يقذف بالحق على الباطل ، ما أعرضوا ولا غفلوا ولما استمعوا الذكر وهم يلعبون وقلوبهم لاهية ، ولو عرفوا أنّ كلّ من في السمٰوات والأرض ملكه ، ولو عرفوا عبادة

الملائكة لله لمعرفتهم بعظمته وجلاله ما أعرضوا ولا غفلوا ، ولما استمعوا لذكره على هذه الطريقة ، ولكنّهم جاهلون بهذا كله ، ومن ثَم كفروا ، ومن ثم لم يؤمنوا ، ومن ثم ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ومن ثمّ ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾ به الله مما يتعالى عنه .

فالصلة بين هذه الآيات ومقدمة السورة واضحة فلا يغفل إنسان عن اليوم الآخر إلا لجهله بالله .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنْ كنا فاعلين** ﴾ ينقل ابن كثير عن مجاهد أن كل ﴿ **إنْ** ﴾ في القرآن فهو إنكار أي نفي

٢ - في تفسير اللهو في قوله تعالى ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنّا** ﴾ أكثر من قول ، وقد اعتمدنا ما قاله مجاهد ، وهو الذي يتفق مع السياق قال : يعني من عندنا وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً .

٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء . فقال رسول الله ﷺ « إني لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » ذكره ابن كثير بمناسبة قوله تعالى عن الملائكة ﴿ **يسبّحون الليل والنهار لايفترون** ﴾ وقال عن هذا الحديث غريب ، ولم يخرجوه ، ثم ذكر أن ابن أبي حاتم أخرجه عن قتادة مرسلًا .

٤ - ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام فقلت له : أرأيت قول الله تعالى للملائكة ﴿ **يسبّحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل . فقال : من هذا الغلام ؟ فقالوا من بني عبد المطلب ، قال : فقبّل رأسي ثمّ قال : يا بني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس ؟ .

ولنعد إلى السياق :

فقد ذكرت الآيات التي مرّت معنا من المجموعة الثانية بعض التصورات الفاسدة

للكافرين من خلال تقرير الحقيقة المخالفة لتصوراتهم ، والدليل على أن الآيات الخمس السابقة عالجت تصورات فاسدة للكافرين هو ابتداء الآية اللاحقة من المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **أم** ﴾ في الآية ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون** ﴾ إن (أم) التي بمعني بل والهمزة ، والتي تعطف نوع عطف ما بعدها على كلام سابق ، تدلُّ على أن الآيات الأولى من المجموعة الثانية كانت تسجّل موقفاً للكافرين من خلال العرض المقابل لأفكارهم ، فلنستمر في عرض آيات المجموعة الثانية :

....

﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ أي بل اتخذوا آلهة من الأرض ، فبسبب ذلك غفلوا عن اليوم الآخر وعن الحساب وأعرضوا عن الوحي وعن الذكر ﴿ **هم ينشرون** ﴾ أي يحيون ، أي هل هذه الآلهة تحيي وتعيد الحياة حتى عبدوها ؟ أو هل هذه الآلهة الأرضية التي اتخذوها تحيي الموتى فهم مطمئنون إذا بعثتهم أنها لا تعذبهم ؟ ، والمعنى : إنّ الله وحده هو الذي سيحييهم بعد مماتهم ؛ فعليهم أن يعبدوه وحده ويتقوه ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله** ﴾ أي غير الله ﴿ **لفسدتا** ﴾ أي لخربتا والمعنى : لو كان يدبّر أمر السماوات والأرض آلهة شتىٰ غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا ﴿**فسبحان الله**﴾ أي تنزيها له ﴿ **رب العرش عما يصفون** ﴾ من أنّ له شريكاً ﴿ **لا يُسأَل عما يفعل** ﴾ لأنه المالك على الحقيقة ﴿ **وهم يُسألون** ﴾ لأنهم مملوكون خطّاؤون فما أَخلَقهم بأن يقال لهم لم فعلتم عن كل شيء فعلوه ؟ وإذن فالله عز وجل وحده هو الإله الذي يحي الموتى ، وهو وحده الذي يدبّر أمر السماء والأرض ، وهو وحده الذي يَسأل ولا يُسأل ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يغفل الغافلون ، وكيف يعرض المعرضون ، وكيف ينسى حسابه الناس أجمعون ، وكيف إلى ذكره لا يستمعون واجفين ؟ ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ من الأرض ، أو من السماء ؛ فبسبب ذلك هم غافلون عن حسابه ، معرضون عن ذكره ؟! ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ أي حجتكم على ذلك ﴿ **هذا** ﴾ أي القرآن ﴿ **ذكر مَن معي** ﴾ أي ذكر أمتي ﴿ **وذكر مَنْ قبلي** ﴾ يعني : ذكر أمم الأنبياء من قبلي ، يعني هذا القرآن وهذه الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلم يبق مبرر لإعراضكم سوى أنكم جاهلون ، ومن ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم** ﴾ لأجل ذلك ، أي لأجل جهلهم الحق ﴿ **معرضون** ﴾ أي عن الحق .

نقــول :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ قال صاحب الظلال (وهناك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ ..

فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً ؛ وينسّق بين أجزائه جميعاً ، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظّم .. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد .

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات . ولتعددت النواميس تبعاً لها - فالإرادة مظهر الذات المريدة . والناموس مظهر الإرادة النافذة - ولانعدمت الوحدة . التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحّد منهجه واتجاهه وسلوكه ، ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق .. هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين ؛ لأنه واقع محسوس .

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ،لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق ، الذي لافساد في تكوينه ولاخلل في سيره) .

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ **لايسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾ قال صاحب الظلال: ومتى كان المسيطر على الوجود كله يُسأل ، ومن ذالذي يسأله ، وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لايحدّها قيد من إرادة أخرى ، ولاحتى من الناموس الذي ترتضية هي وتتخذه حاكماً لنظام الوجود .والسؤال والحساب إنما يكونان بناء على حدود ترسم ، ومقياس يوضع والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تتقيّد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد ، والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون .

وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسأل سؤال المنكر المتعجب: ولماذا صنع الله هكذا .؟ وما الحكمة في هذا الصنيع ؟ وكأنما يريدون ليقولوا : إنهم لايجدون الحكمة في ذلك الصنيع .

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود

الإدراك الإنساني القاصر الذي لايعرف العلل والأسباب والغايات ، وهو محصور في حيزه المحدود .

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبّر كل شيء ، ويسيطر على كل شيء ، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم . ﴿**لايسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾

وبمناسبة الآية نفسها قال الألوسي :

(وهذا الحكم في حقه تعالى عام لجميع أفعاله سبحانه ويندرج فيه خلق الكفرة وإيجادهم ، ووجه حَلّ السؤال الناشيء مما تقدم بناء على مايشير إليه هذا الجواب الإجمالي أنه تعالى خلق الكفرة – بل جميع المكلفين – على حسب ما علمهم عليه في أنفسهم لأن الخلق مسبوق بالإرادة والإرادة مسبوقة بالعلم ، والعلم تابع للمعلوم ، فيتعلق به على ما هو عليه في ثبوته الغير المجعول ، بما يقتضيه استعداده الأزلي ، وقد يشير إلى بعض ذلك قول الشافعي عليه الرحمة من أبيات:

خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتى والمسن

ثم بعد أن خلقهم على حسب ذلك كلفهم لاستخراج ماسبق به العلم التابع للمعلوم من الطوع والإباء اللذين في استعدادهم الأزلي وأرسل الرسل مبشّرين ومنذرين لتتحرك الدواعي ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة ، ولايكون للناس على الله تعالى حجّة فلا يتوجه على الله تعالى اعتراض بخلق الكافر ، وإنما يتوجّه الاعتراض على الكافر بكفره ، حيث إنه من توابع استعداده في ثبوته الغير المجعول ، وقد يشير إلى ذلك قوله سبحانه ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام « فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومّن إلا نفسه » وهذا وإن كان مما فيه قيل وقال ونزاع وجدال إلا أنه مما ارتضاه كثير من المحققين والأجلة العارفين . (أقول : علم الله أزلًا وأراد أزلًا فذكر السبق للإفهام وللإلزام)

وأقول : إنّ قوله تعالى : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ لا ينفي البحث عن الحكمة في تشريعه وأفعاله ، إن المنهي عنه السؤال للاعتراض ، قال الألوسي ناقلًا عن ابن القيم رحمه الله ، في موضوع وجود الحكمة في أفعاله وتشريعه : (وقال العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الحنبلي المعروف بابن القيم في كتاب شفاء العليل : إن الله سبحانه وتعالى حكيم لا يفعل شيئاً عبثا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة ، بل أفعاله

سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل ، وقد دلّ كلامه تعالى وكلام رسوله ﷺ على هذا في مواضع لا تكاد تحصى ، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها ، فنذكر بعض أنواعها ، وساق اثنين وعشرين نوعاً في بضع عشرة ورقة ثم قال : لو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله تعالى في خلقه وأمره ، لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع ، ثم قال : وهل إبطال الحكم والمناسبات ، والأوصاف التي شرعت الأحكام لأجلها إلا إبطال الشرع جملة ؟ وهل يمكن فقيهاً على وجه الأرض أن يتكلم في الفقه مع اعتقاده بطلان الحكمة والمناسبة والتعليل . وقصد الشارع بالأحكام مصالح العباد ؟ ثم قال : والحق الذي لا يجوز غيره ، هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ، ويفعل ما يفعل بأسباب وحكم ، وهذا قول جمهور أهل الإسلام ، وأكثر طوائف النظار ، وهو قول الفقهاء قاطبة) أ هـ .

كلمة في السياق :

أحصت هذه المجموعة من الآيات مجموعة الأسباب التي تجعل هؤلاء يغفلون عن الحساب ويعرضون عن الحق ، وفندتها كلها ، وأبطلتها ، وإذا كان الأمر كذلك فليس إلا الجهل هو سبب الغفلة والإعراض .

إن الصلة بين هذه المجموعة وسياق السورة الخاص من حيث إن السورة تعلل أسباب الغفلة والإعراض وتفندها ، واضحة ، وقد مَرَّ معنا ما فيه الكفاية في ذلك ، والصلة بين هذه المجموعة ، وبين محور السورة من سورة البقرة كذلك واضحة ففي سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وهذه المجموعة تبيّن علة كفر هؤلاء ، وهي الجهل الذي يترتب عليه إعراض ، ومن اجتمع له الجهل والإعراض ، فهو لا يسمع ولا يرغب أن يسمع ، ومن ثم فالكلام معه وعدمه سواء .

فوائد :

١ - دل قوله تعالى ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون** ﴾ على أنّ من لا يملك النشر - أي إحياء الموتى - لا يصح أن يكون إلهاً وإذا كان الله تعالى وحده هو القادر على كل شيء ، فهو وحده القادر على النشر ، فهو وحده الإله ، وفي ذلك تقريع لمن نسي الحساب ، وتقريع لمن اتخذ معه إلهاً .

٢ - من أعظم الأدلة التي ذكرها القرآن على التوحيد هو قوله تعالى ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾

ويسمي العلماء هذا الدليل على الوحدانية ببرهان التمانع ، وقد شغل هذا البحث عشرات الصفحات من كتب المصنّفين في علم الكلام ، وأنت تعجب عندما تقرأ هذه المباحث الطويلة ، كيف أنّ هذا التعبير القصير يدخل إلى القلب ، وإلى العقل ، بما لا مزيد عليه ، ثمّ إنّه يعجز البشر عن أن يستوعبوا حدود آفاقه ، وبمناسبة هذا النص ذكر الألوسي كلاماً كثيراً للعلماء فيما سمّي - باصطلاح العلماء - ببرهان التمانع ، ونحن ننقل لك ههنا عنه بعض ما نقله عن الدوّاني : قال الدوّاني : (إن للتمانع عندهم معنيين : أحدهما إرادة أحد القادرين وجود المقدور ، والآخر عدمه ، وهو المراد بالتمانع في البرهان المشهور ببرهان التمانع ، وثانيهما إرادة كل منهما إيجاده بالاستقلال من غير مدخلية قدرة الآخر فيه ، وهو التمانع الذي اعتبروه في امتناع مقدور بين قادرين ، وقولهم لو تعدد الإله لم يوجد شيء من الممكنات ؛ لاستلزامه أحد المحالين ، إما وقوع مقدور بين قادرين ، وإما الترجيح بلا مرجِّح ، وحاصل البرهان عليه : أنه لو وجد إلهان قادران على الكمال ، لأمكن بينهما تمانع ، واللازم باطل ؛ إذ لو تمانعا وأراد كل منهما الإيجاد بالاستقلال يلزم : إما أن لايقع مصنوع أصلاً ، أو يقع بقدرة كل منهما ، أو بأحدهما . والكل باطل ، ووقوعه بمجموع القدرتين مع هذه الإرادة يوجب عجزهما ؛ لتخلّف مراد كل منها عن إرادته ، فلا يكونان إلهين قادرين على الكمال ، وقد فرضا كذلك ؛ ومن هنا ظهر أنه على تقدير التعدد لو وجد مصنوع لزم إمكان أحد المحالين ، إما إمكان التوارد ، وإما إمكان الرجحان من غير مرجح ، والكل محال ؛ وبهذا الاعتبار - مع حمل الفساد على الكون - قيل بقطعية الملازمة في الآية فهي دليل إقناعي من وجه ، ودليل قطعي من وجه آخر والأول بالنسبة إلى العوام والثاني بالنسبة إلى الخواص.

٣ - عرّفنا الله عز وجل على ذاته تعريفاً كاملًا بالقدر الذي يحتاجه الإنسان ، وتقوم به الحجة على الإنسان في التدليل على وجود الله ، وعلى اتصافه بالصفات العليا ، والأسماء الحسنى ، وبالقدر الذي تقوم به الحجة على حكمة الله في أفعاله وأحكامه ، وبالقدر الذي يحتاجه المكلّف ، وتقوم به الحجة على التكليف ، وعلى الجزاء والعقاب ، أما ما فوق ذلك فقد أخبرنا الله عزّ وجلّ عن ذاته بقوله : ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾ إن كثيرين من النّاس يوغلون في بعض المباحث إلى الحدّ الزائد عمّا تقوم به الحجة ، وههنا يقعون في الخطأ لأن هذا مقامه ﴿ **لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون** ﴾ فمثلًا : في الدعوة إلى الله علينا أن نبرهن على أنّ الله موجود ، وعلى أنه أرسل رسولًا ، وعلى أنه

أنزل وحياً ، وعلينا أن نعرّف على الله ، وعلى أن الإنسان مسؤول أمامه ، وفي عملية التعريف على الله نذكر أنّ كلّ شيء بعلمه وإرادته وقدرته ، وفي عملية التعريف على مسؤولية الإنسان نثبت أن الإنسان مكلّف مختار ، ونبرهن على أن اختيار الإنسان لا يتنافى مع إحاطة العلم والإرادة والقدرة ، لأن القدرة تعمل على وفق الإرادة ، والإرادة تعمل على وفق العلم ، والعلم كاشف لا مجبر ، عند هذا الحدّ يقف الكلام ، فلو جادلنا مجادل فقال : لـم أراد الله مـا أراد ؟ نقول : الحكمة معروفة وموجوده ، ولكن ما بعد ذلك ﴿ **لا يسأل عمّا يفعل وهم يُسألون** ﴾ إن معرفة هذا الموضوع من أهمّ ما ينبغي أن يعرفه المسلم ، ومن أعظم ما ينبغي أن يتذكره الإنسان في سيره العقلي إلى الله : ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾

لِمَ خلق الله الشر ؟ لم خلق الألم في هذه الدنيا ؟ الجواب : لكل ذلك حكمة يمكن البحث عنها ، ولكن في النهاية لابدّ أن يكون واضحاً أن أحداً ليس من حقه أن يسأل الله فالله هو الربّ ، وهو الذي من حقه أن يسأل ، إن التسليم لله تعالى هو غاية العقل ، وهو غاية الحكمة أما أنه هو غاية العقل فلأن بداهة الفطرة تقول : إن الله وحده له العلم المحيط ، والحكمة البالغة ؛ ومن ثم فلا يحيط بأسرار فعله إلا هو ، فغاية العقل أن يعرف حدوده بالتسليم لله ، وأمّا أنّ التسليم لله غاية الحكمة ، فلأن الاعتراض دأب الجاهلين ، ولم يكن جاهل في يوم ما حكيما ، إن الإنسان مقامه العبودية لله ، والمسؤولية أمامه ، فإذا قلب الإنسان الآية فإنه يكون من الجاهلين بجلال الله ﴿ **لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون** ﴾

٤ - نلاحظ أنه قد ذكر موضوع اتخاذهم الآلهة مرتين في هذه المجموعة : الأولى ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون** ﴾ والثانية ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾. فما حكمة ذلك ؟

يلاحظ أنه قيدت الآلهية المتخذة في الآية الأولى بالأرض ، بينما لم تقيّد في الآية الثانية ، فكأن الآية الثانية تتحدث عن اتخاذهم آلهة من الأرض وغيرها ، وللنسفي تعليل آخر قال : (الإعادة لزيادة الإفادة ، فالأول للإنكار من حيث العقل ، والثاني من حيث النّقل ، أي وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك ، فقيل لمحمد : ﴿ **قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي** ﴾هذا نقلي وذاك عقلي اهـ) عن النسفي بتصرف .

٥ - فسّرنا قوله تعالى : ﴿ **هذا ذكر من معي وذكر من قبلي** ﴾ أن المراد بذكر

من معي القرآن الذي هو ذكر هذه الأمة ، وأن المراد بذكر من قبلي : الكتب السابقة ، ولكننا نحتمل أن يكون المراد القرآن في المرّتين ، فالقرآن فيه ذكر هذه الأمة ، وفيه الذكر الذي أنزل على كل الأمم السابقة ، وعلى القول الأول فقد دلّ قوله تعالى ﴿ **هذا ذكر من معي وذكر من قبلي** ﴾ على أن الكتب السماوية كلها قد دعت إلى التوحيد الخالص ، وهذا شيء بديهي فيها ، ومع أنها الآن محرَّفة ومبدلة - كما أثبتنا ذلك أكثر من مرة - فإنه بقي فيها حتى الآن ما يدل على أن التوحيد الخالص هو دعوة الأنبياء جميعاً ، وقد حاول سيف الله أحمد فاضل في تعقيباته على إنجيل برنابا أن ينقل طرفاً من ذلك فاستوعبتْ نظرته كتب العهد القديم والجديد ، قال : وقد وردت لا إله إلا الله في أسفار العهد القديم والجديد (الكتب التي يؤمن بها اليهود والمسيحيون حالياً) وأبيّن بعضها فيمايلي : (لا تصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالًا أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوّراً لتسجدوا له ؛ لأني أنا الرب إلهكم) (سفر اللاويين ٢٦ : ١) أي أن كل حجر مصوّر لا يمكن أن يكون إلهاً بل هو وثن .

(الرب هو الإله ليس آخر سواه) (سفر التثنية ٤ : ٣٥) (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك) (سفر التثنية ٦ : ٤ ، ٥) أي لاتحب إلا الرب بكل ما أعطيت (فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه) . (سفر التثنية ٧ : ٩) (فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقي الرب إلهك لتسلك في كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك) (سفر التثنية ١٠ : ١٢) (الرب إلهك تتقي إياه تعبد) أي تعبده لا تعبد غيره (وباسمه تحلف) (سفر التثنية ١٠ : ١٢) أي إذا حلفت فاحلف باسم الله - وفي سفر التثنية ١٣ : ٤ (وراء الرب إلهكم تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون وإياه تعبدون) .
(انظروا الرب إلهكم تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون » .. (وإياه تعبدون) . انظروا الآن . أنا أنا هو وليس إله معي . أنا أميت وأحيي . سحقت وإني أشفي وليس من يدي مخلص) . (سفر التثنية ٣٢ : ٣٩) - وتعني ليس من يدي مخلص : أي أنه لا شفيع ولا وكيل من دونه (ليس قدوس مثل الرب لأنه ليس غيرك) (سفر صموئيل الأول ٢ : ٢) ، (ولا تحيدوا عن الرب بل اعبدوا الرب بكل قلوبكم . ولا تحيدوا . لأن ذلك وراء الأباطيل التي لا تفيد ولا تنقذ لأنها باطلة) . (سفر صموئيل الأول : ١٢ : ٢٠ ، ٢١) . (لذلك قد عظمت أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله

غيرك) . (سفر صموئيل الثاني ٧ : ٢٢) : (أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك) . (سفر الملوك الأول ٨ : ٣٣) « ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر) . (سفر الملوك الأول : ٨ : ٦٠) (الرب هو الله الرب هو الله) (سفر الملوك الأول ١٨ : ٣٩) (أصنام الأمم فضة وذهب عمل أيدي الناس . لها أفواه لا تتكلم . لها أعين لا تبصر . لها آذان ولا تسمع . كذلك ليس في أفواهها نفس . مثلها يكون صانعوها وكل من يتكل عليها . يا بيت إسرائيل باركوا الرب ...) (من مزمور ١٣٥ : ١٥ : ٢٠)(اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله) (سفر الجامعة ١٢ : ١٣) (أنا الرب هذا اسمي لا أعطيه لآخر) (سفر أشعياء ٤٢ : ٨) (إني أنا هو . قبلي لم يصوّر إله وبعدي لا يكون . أنا أنا الرب وليس غيري مخلص) (سفر أشعياء ٤٣ : ١٠ ، ١١) (أنا الأول والآخر ولا إله غيرى) .. (وما أعلمتك منذ القدم وأخبرتك فأنتم شهودي . هل يوجد إله غيري) (سفر أشعياء ٤٤ : ٨) (أنا الرب وليس آخر . لا إله سواي . نطقتك وأنت لم تعرفني لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري . أنا الرب وليس آخر) (سفر أشعياء ٤٥ : ٥ ، ٦) (أنا الرب وليس آخر) (سفر أشعياء ٤٥ : ١٨) (أليس أنا الرب ولا إله غيري ، إله بارّ ومخلص ليس سواي التفتوا إليّ وأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر) سفر أشعياء ٤٥ : ٢١) (اذكروا الأوليات من القديم لأني أنا الله وليس آخر الإله وليس مثلي) سفر أشعياء ٤٦ : ٩ « وإني أنا الرب إلهكم وليس غيري) سفر يوئيل ٢ : ٧٢) .

وفي إنجيل مرقص يقول المسيح عليه السلام : (إن أول كل الوصايا : هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى)(إنجيل مرقص ١٢ : ٢٩ ، ٣٠) فقال له الكاتب (وهو نيقو ديموس على ما بيّنه إنجيل برنابا) (بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه)(إنجيل مرقس ١٢ : ٣٢) فأعجب المسيح عليه السلام برده وقال له : (لست بعيداً عن ملكوت الله .. (إنجيل مرقص ١٢ : ٣٤) .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وهي تمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٣٣) وهذه هي

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ أي وحدوني ، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، وعن لا إله إلا الله التي بعث بها الرّسل ينبثق كل خير ، وكل فضل .

قال الألوسي : (في مفتاح السعادة لابن القيم أنه لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ، ولا عمل صالح ، ولا صلاح في معيشة ، ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية ، والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض ، وكل خير في العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع في العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها ، فالعالم جسد روحه النبوة ، ولا قيام للجسد بدون روحه ، ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ، ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة ،انشقت سماؤه ، وانتثرت كواكبه ، وكورت شمسه ، وخسف قمره ، ونسفت جباله ، وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها ، فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة) .

كلمة في السياق :

ما الصلة بين هذه الآية وما سبقها ؟ نلاحظ أنّه ورد قبل هذه الآية قوله تعالى ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ كما ورد قبل ذلك قوله تعالى ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ ومن ثمّ فبعد أن ردّ أكثر من رد على اتخاذ الإنسان مع الله إلها ، جاءت هذه الآية لتؤكد أن كل رسول بعث بالتوحيد فحجّة الله قائمة على البشر .

أما الصلة بين هذه الآية وسياق السورة الخاص فتجده إذا تذكّرت قول الكافرين كما قصّه الله علينا ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ فهذه الآية تقول إن الأولين قد أرسلوا بالتوحيد ، وهذا محمّد ﷺ أرسل بالتوحيد ورسالته مؤكدة لرسالات الرسل من قبله ، فلماذا يطالبون بالآيات ، ويرفضون المضمون ، وهو مضمون كل رسالة لله ، ولماذا يسمّون هذه الرسالة هذه الأسماء وينعتونها هذه النعوت ؟ وهي استمرار لرسالات الله .

وبعد أن يصل السياق إلى هذه الآية يعرض لنا السياق قولًا جديداً من أقوال الكافرين بعد كان قولهم الأول : ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ وقولهم الثاني : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ وقولهم الجديد الذي سنعرضه الآن هو : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ قائل هذا القول بعض قبائل العرب ، كخزاعة التي كانت تزعم أن الملائكة بنات الله ، كما أنه قول النصارى في المسيح ، وقول طائفة من اليهود في عزير ، وقول الكثير من البشر في أنبيائهم على مرّ العصور ، وقد ذكر الله عزّ وجل هذا القول

بعد أن بيّن أنّ كل الرسل بعثوا بالتوحيد وبعبادة الله وحده ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه** ﴾ نزّه الله عز وجل ذاته عن ذلك ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أي بل هم عباد مكرمون مشرّفون مقرّبون ، فهو إذا اتخذ يتخذ عباداً ويكرمهم ، ولا يتخذ أولاداً فالعبودية تنافي الولادة ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ أي لا يسبقونه بقولهم ، فهم في غاية الأدب ، ويدخل في ذلك الملائكة والأنبياء ، إذ المعنى : أنهم يتّبعون قوله ، فلا يسبق قولهم قوله ، ولا يتقدّمون قوله بقولهم ﴿ **وهم بأمره يعملون** ﴾ فهم في غاية الطاعة ، فكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا مبني على أمره ، لا يعملون عملا لم يؤمروا به ، فهم في غاية الأدب وهم في غاية الطاعة ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أي ما قدّموا وأخرّوا من أعمالهم ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ أي لمن رضي الله عنه ، وقال لا إله إلا الله ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ أي خائفون ﴿ **ومن يقل منهم إني إله من دونه** ﴾ أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله ، أي مع الله ﴿ **فذلك** ﴾ القائل ﴿ **نجزيه جهنم** ﴾ وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزي الظالمين** ﴾ أي الكافرين الذين وضعوا الإلهية في غير موضعها .

كلمة في السياق :

الصلة بين هذه الآيات الأربع من المجموعة الثالثة وما قبلها ، من حيث إنّ جَعْل الملائكة أولاداً يتنافى مع التوحيد ، فلا يتفق مع توحيد الله أن يكون له ولد ؛ إذ للولد أحكام الأب ، وبالتالي يكون هناك لله شريك ، والله منزّه عن الشريك ، فالآيات ذكرت اتجاهاً شركياً للكافرين ، وردّت عليه في سياق التأكيد على التوحيد .

والصلة بين هذه الآيات الأربع وسياق السورة : أنّها قصّت لنا قولًا جديداً من أقوال أهل الشرك والكفر ، وردّت عليه ، لتأتي بعد ذلك أربع آيات تنفي كل ما مَرّ من أقوالهم ومواقفهم ، فلنر بقية آيات المجموعة الثالثة .

....

﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً** ﴾ أي كانتا شيئاً واحداً ، أو كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت ﴿ **ففتقناهما** ﴾ أي ففصلنا السماء عن الأرض ، على القول الأول . أو تشقّقت الأرض بالنبات ، وجعلنا السماء تمطر على

الأول : قاله ابن عباس وهذا هو : (كانت السموات رتقاً لاتمطر وكانت الأرض رتقا لاتنبت فلما خلق للأرض أهلًا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات) وهذا الاتجاه في التفسير يتفق مع ما يقوله علماء الكون . فعلماء الكون يقولون : إن الأرض كانت كتلة نارية ولهم أدلة في ذلك تكاد تجعل المسألة من باب القطعيات ، فإذا كان الأمركذلك فإن الأرض كانت أيام ذلك لاتنبت وكانت سماؤها لاتمطر .

الاتجاه الثاني قاله سعيد بن جبير وهذا هو كما نقله ابن كثير : (بل .. كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه) وهذا الكلام نفسه يتفق مع أدق النظريات العلمية في عصرنا ، فالملاحظات العامة في هذا الكون أن بعض المجرات تنطلق بسرعة هائلة خارجة عن مركز الكون ، مما يدل على أن هذا الكون كان ملتزقاً ، وكان كتلة واحدة ، ويؤكد ذلك أنه من خلال طيف الإشعاعات تأكد أن مادة الكون واحدة وهناك نظرية أخرى لاتتحدث عن الكون كله وإنما عن المجموعة الشمسية أنها كانت كتلة واحدة وكل من هاتين النظريتين العلميتين تتفق مع قول سعيد بن جبير في الآية .

فعلى تفسير ابن عباس أو تفسير سعيد بن جبير فإن الآية أشارت إلى شيء لم يعرفه الإنسان إلا متأخراً . والملاحظ أن الذين طرحوا كلًا من النظريتين الكافرون ، فكأنه في قوله تعالى ﴿**أولم ير الذين كفروا**﴾ إشارة إلى أن الكافرين سيكتشفون هذه الحقائق ويبرهنون عليها ، وفي ذلك كله مظاهر من إعجاز هذا القرآن ، الذي لاتتناهى عجائبه ، وهنا يثور سؤال يثيره النسفي ويرد عليه . قال النسفي : فإن قيل متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك ؟ حتى ألزمهم الله بحجيتها عليهم (قلنا-القول للنسفي - إنه وارد في القرآن الذي هو معجزة فقام مقام المرئي المشاهد) . أقول : فكم في هذه الآية من حجة وكم فيها من معجزة ؟!

٢ - فهم بعضهم من قوله تعالى ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ أن الميدان هو الدوران . ففهم من الآية أن الأرض لاتدور ، وهذا فهم خاطىء فإن الجبال تمنع الميدان وهو الاضطراب ، ولاتتحدث عن الدوران ، وهذا الذي ذكره القرآن ، هو الذي دلّل العلم الحديث عليه بوسائله المتوفرة ، إذ من المعلوم علمياً أنه لولا الجبال لكانت القشرة الأرضية في حالة تشققات دائمة ، بسبب تزحلق القشرة الأرضية على طبقة السيما وهي الطبقة الثانية في الأرض وبالتالى فإن الزلازل تكون دائمة والبراكين

مستمرة ففيما ذكره القرآن معجزة علمية من معجزاته الكثيرة .

٣ - وفي قوله تعالى ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كلٌّ في فلك يسبحون**﴾ إشارة إلى دوران الأرض إذ لما قال ﴿**كلٌّ**﴾ والتي تشير إلى الجمع دلّ على أن السابحين أكثر من اثنين والليل والنهار ليسا جرمين ، بل الأرض هي الجرم السابح الذى يشبه الشمس والقمر ، فالسابحون في الآية ثلاثة : الشمس ، والقمر والثالث محل الليل والنهار وهو الأرض ، وبالتالي فالآية تشير إلى الدوران قبل أن تطرح نظرية الدوران طرحها العالمي المعروف ، وفي ذلك معجزة أخرىٰ من معجزات القرآن .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ يذكر ابن كثير ماأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قال : يانبيّ الله إذا رأيتك قرَّت عيني وطابت نفسي فأخبرنا عن كل شيء قال : «كل شيء خلق من ماء» .

وذكر ابن كثير ما أخرجه الإمام أحمد .... عن أبي هريرة قال : قلت يارسول الله اذا رأيتك طابت نفسي ، وقرّت عيني فأنبئني عن كل شيء قال : «كل شئ خلق من الماء» قال : قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال : «أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام»

أقول: الذى ذكره الحديثان شيء آخر ليس له علاقة بموضوعنا ؛ فالحدثان يشيران إلى قوله تعالى ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾ وقد ذكرنا في سورة هود بعض معلومات عصرنا ، إن الفارق بين العناصر المكوّنة لهذا الكون إنما هو في عدد البروتونات والألكترونات ، وأبسط العناصر على الإطلاق هو عنصر الهدروجين الذي تتألف ذرته من أليكترون واحد وبروتون واحد ، ومن المعلوم أن الهدروجين هو العنصر الأصيل في الماء ، فلا تعجب أن يكون أصل هذا الكون هو الماء .

كلمة في السياق :

لفت الله نظر الكفار في الآيات الأربع الأخيرة إلى أصل السمٰوات والأرض وأصل الحياة ، وإلى ظاهرة العناية في خلق الجبال ، وخلق الفجاج وإلى حفظ السماء من الشياطين ، وإلى ظاهرة العناية في خلق الليل والنهار ، وسباحة الشمس والقمر والأرض في هذا الفلك الكبير ، وفي لفت النظر إلى هذا ما يخرجهم من الكفر إلى الإيمان لو عقلوا ، ومن ثم قال في الآية الأولى ﴿**أفلا يؤمنون**﴾ كما أن في هذا ما يخرجهم من

الإعراض إلى الإقبال لو تفكروا ، ومن ثم قال في الآية الثالثة ﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ فالآيات هذه تعالج الإعراض ، وتعالج الكفر ، وفي ذلك مظهر من مظاهر صلة هذه الآيات بالسياق ، وفي لفت النظر إلى هذا تعريف على الله وكمال قدرته وعظمته وفي ذلك رد لما زعموه في حق الله من الولد وتقرير لوجوب توحيده وعبادته ، وهذا مظهر من مظاهر الصلة في السياق ومثقف هذا العصر يدرك أن ذكر هذه الآيات في هذا السياق هو أعظم ردّ على قولهم عن القرآن ﴿**بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر**﴾ إن كتاباً يتحدث عن السماوات والأرض كما رأينا في الآيات الأربع لايمكن أن يكون كما وصفوه ، بل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، وإذن فهذه الآيات إذ تعرض مظهراً من مظاهر عظمة الله ، تردّ على من زعم أن لله ولداًوتذكّر بوحدانيته وضرورة عبادته ، وتردّ على مازعمه الكافرون عن هذا القرآن ، وتؤكد علم الله المحيط كما أنها توقظ من الغفلة ، وتخرج من الإعراض ، ولذلك صلة بما سبق من السورة .

وإذا تأملنا المجموعة الثالثة وهي التي استقرت على الآيات الأربع ، وبحثنا عن صلتها بمحور سورة الأنبياء من سورة البقرة ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ فإننا نلاحظ أن أول آية في الآيات الأربع ختمت بقوله تعالى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ والآية الثالثة منها ختمت بقوله تعالى ﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ فالآيات تقرر أن الكافرين في وضع من قيام الحجة عليهم لا يبقى معه مبرر لكفرهم ، ومع ذلك فهم في وضع نفسي يبعدهم عن الإيمان لإعراضهم عن الآية وما تشير إليه وما تدل عليه .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة

وتمتد من الآية (٣٤) إلى الآية (٤٠) وهذه هي :

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

التفسير :

﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**﴾ أي البقاء الدائم في الدنيا ﴿**أفئن مِّتَّ فهم الخالدون**﴾ كانوا يؤملون أن يموت ويعيشوا بعده ، فنفى الله عنه الشماتة بهذا ، وبيّن أنهم إلى الفناء ، والمعنى : قضى ألا يخلد في الدنيا بشر ، أفئن مت أنت أيبقى هؤلاء ؟ ثم قال تعالى ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ فذلك مقتضى قهره تعالى ﴿**ونبلوكم**﴾ أي ونختبركم ﴿**بالشر**﴾ كالفقر والضر ﴿**والخير**﴾ الغنى والنفع ﴿**فتنة**﴾ أي اختباراً وابتلاءً والله تعالى عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم وإنما أسماه اختباراً لأنه فيما يظهر في صورة الاختبار ﴿**وإلينا تُرجعون**﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر . والمعنى : نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى . بالشدة تارة وبالرخاء

أخرى ، بالصحة تارة وبالسقم أخرى فننظر مَن يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط ، ومن يفز ومن يخسر ، والله أعلم بما هم فاعلون قبل أن يفعلوا ، ولكنه يحاسبهم على فعلهم لتقوم عليهم الحجة .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ قال صاحب الظلال :

(والابتلاء بالشر مفهوم أمره . ليتكشَّف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ومدى ثقته في ربه ، ورجائه في رحمته.. فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان .. إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيِّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير ..

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم ، الجامحة في أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلاتتهاوى نفوسهم ولاتذل ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان ، وما يغريان به من متاع ، ومايثيرانه من شهوات وأطماع

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء .

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ، ثم لايصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح .

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء . ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة .

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في

الابتلاء : وذلك شأن البشر..إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءصبر فكان خيراً له » وهم قليل .

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان...)

كلمة في السياق :

مرّ معنا من قبل قوله تعالى ﴿ **وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** ﴾ في أول ردّ على من يتصوّر أنّ الرسول لا ينبغي أن يكون بشراً ، وههنا يكمّل الله عز وجل الردّ ، فهناك يقول ﴿ **وما كانوا خالدين** ﴾ وههنا يبيّن الله عز وجل أن سنته في البشرية كلها الموت ، وأنه جعل الحياة وما فيها اختباراً وابتلاءً للإنسان ، فالعبرة في النجاح في الامتحان ، ومن ثمّ فانتظار الكافرين موت الرسول شماتة خطأ في التصور ، وتصوّرهم أن المفروض بالرسول ألا يموت خطأ في التصور ، لأنهم بذلك لا يعرفون سنّة الله في خلقه ، وقد دلت الآيتان على أنّ الكافرين كانوا يستعجلون موت الرسول ﷺ ويتمنون وبعد أن سجّل الله عز وجلّ هذا الموقف لهم من خلال الردّ عليهم ، يذكر الآن موقفاً آخر :

....

﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن** ﴾ أي ما ﴿ **يتخذونك إلا هزواً** ﴾ أي يستهزؤون بك وينتقصونك يقولون : ﴿ **أهذا الذي يذكر آلهتكم** ﴾ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفّه أحلامكم ﴿ **وهم بذكر الرحمن** ﴾ أي بذكر الله ، ومايجب أن يذكر به من الوحدانية ، أو بذكر الرحمن الذي هو القرآن ﴿**هم كافرون** ﴾ أي جاحدون أي لايصدقون أصلًا به أي فهم أحق أن يُتّخذُوا هزواً ، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية ، وهي الكفر بالله تعالى ﴿**خلق الإنسان من عجل** ﴾ أي خلق عجِلًا ﴿**سأُوريكم آياتي** ﴾ أي نعمي وحكمي واقتداري على مَنْ عصاني ﴿ **فلا تستعجلون** ﴾أي بالإتيان بها .

قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ (فالعجلة في

طبعه وتكوينه . وهو يمدّ ببصره دائماً إلى ماوراء اللحظة الحاضرة ، يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل مايخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه .. ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر له فلا يتعجّل قضاءه . والإيمان ثقة وصبر واطمئنان) .

وقال ابن كثير : (والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكرالمستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى له ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته يؤجل ثم يُعجل وينظر ثم لا يؤخر ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أي إتيان العذاب يقولون هذا تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً والجواب ﴿ **لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون** ﴾ أي لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ؟! وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدّام ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولايجدون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم ﴿**بل تأتيهم بغتة**﴾ أى بل تأتيهم الساعة فجأة ، أوبل تأتيهم النار فجأة ﴿**فتبهتهم**﴾ أي فتحيرهم وتذعرهم فيستسلمون لها حائرين لايدرون ما يصنعون ﴿**فلايستطيعون ردّها** ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك أي فلا يقدرون على دفعها ﴿**ولاهم ينظرون**﴾ أي ولاهم يمهلون أي لايؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

· كلمة في السياق :

١- مَرّت معنا حتى الآن مقدمة السورة وأربع مجموعات : المجموعة الأولى بدأت بقوله تعالى ﴿**ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** ﴾

والمجموعة الثانية بدأت بقوله تعالى :﴿**وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين**﴾

والمجموعة الثالثة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

والمجموعة الرابعة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مِت فهم الخالدون** ﴾ .

فالملاحظ أن كلمة (**ما**) أو (**وما**) هي بداية المجموعات الأربع ، وسنرى أن آخر

مجموعة في السورة تبدأ بكلمة (**وما**) وهي المجموعة التي بدايتها الآية ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ وفيما بين المجموعة الرابعة ، والمجموعة الأخيرة ، سنجد أربع مجموعات ، كل منها علامته كلمة (**ولقد**) المجموعات الثلاث الأولى منها تبدأ الآيات الأولى منها بكلمة (**ولقد**) والمجموعة الرابعة تنتهي آياتها بآية مبدوءة بكلمة (**ولقد**) وتكاد تكون المجموعات التي علامتها كلمة (**ولقد**) استمرار للمجموعة الرابعة التي مرّت معنا .

٢ - سجّلت المجموعة الرابعة موقفين للكافرين : تمني موت رسول الله ﷺ ، والاستهزاء به وبأقواله ، وعالجت كلًّا من الموقفين ، مفنّده له محذّرة أهله ، ومنذرة لهم وواصفة لهم ما الذي أمامهم . والآن تأتي مجموعة هي استمرار لهذه المجموعة إذ تبيّن أن استهزاء هؤلاء ليس جديداً في تاريخ البشرية مع الرسل .

المجموعة الخامسة

وتمتدُّ من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٤٧) وهذه هي :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ

ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

ملاحظات حول السياق :

١ - نلاحظ أنّه يوجد في هذه المجموعة قوله تعالى : ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ وهذا يذكّرنا بالآية الأولى من هذه السورة ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وهذا يبين صلة المجموعة بسياق السورة الخاص .

٢ - نلاحظ أنه يوجد في هذه المجموعة قوله تعالى ﴿ **قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصمّ الدعاء إذا ما ينذرون** ﴾ وهذا يذكّرنا بمحور السورة من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ لاحظ معنى الختم على الأسماع في المحور ولاحظ كلمة ﴿ **الصمّ** ﴾ في المجموعة .

التفسير :

﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك** ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم ، بأن له بالأنبياء أسوة حسنة وأن ما يفعلونه به سيحيق بهم عقابه كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا ، ومن ثم قال ﴿ **فحاق** ﴾ أي حلّ ونزل ﴿ **بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، وبعد أن سلّى الله رسوله ﷺ ، وبيّن له أن عاقبة هؤلاء كعاقبة أولئك ، إن استمروا على استهزائهم . أمره أن يقول : ﴿ **قل من يكلؤكم** ﴾ أي يحفظكم ﴿ **بالليل والنهار** ﴾ أي ليلًا ونهاراً ﴿ **من الرحمن** ﴾ أي من عذابه ؟ والجواب : لا أحد ، ولكن لما كانوا من الغفلة والإعراض والتصامم بحيث ليس عندهم استعداد حتى للسّماع فضلًا عن الفهم ، فضلًا عن الإجابة الصحيحة ، قال تعالىٰ ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ ثم قرر الله عز وجل أنه وحده هو الكافي ، وبالتالي فهو القادر على إنزال العذاب متى شاء ، قرّر ذلك من خلال هذا السؤال الإنكاري التقريعي التوبيخي ﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا** ﴾ أي ألهم آلهة

تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ما زعموا ، ولهذا قال : ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم** ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها من دون الله لا تستطيع نصر أنفسها ﴿ **ولاهم منا يصحبون** ﴾ أي ولا هؤلاء الآلهة المزعومة يعانون ويوفّقون من الله ، وما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحور من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ؟ ثم قال تعالىٰ : ﴿ **بل متّعنا هؤلاء وآباءهم حتىٰ طال عليهم العُمر** ﴾ أي إنّ ما الكافرون فيه من الحفظ والكلاءة إنمّا هو من الله ، لا من مانع يمنعهم وما كلأهم الله وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا ، وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم ، حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنّوا أنّهم دائمون على ذلك ، وهو أمل كاذب ﴿ **أفلا يرون** ﴾ أي كدليل على أن الأمر أمر الله ، وأن أحداً لا يمنع منه ﴿ **أنا نأتي الأرض** ﴾ لدولة ما ﴿ **ننقصها من أطرافها** ﴾ فنقلّص سلطانهم عليها ، إدالة عليهم لدولة أخرى ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ الذين يغلبون جند الله ورسله ؟ لا . بل الله ورسوله وجندهم الغالبون ، ولنا عودة على تفسير هذه الآية ، ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : ﴿ **قل إنما أنذركم بالوحي** ﴾ إنما أخوّفكم من العذاب بالقرآن الذي هو وحي الله إلي ، فليس ما أنذركم به من عندي وليس كلاماً كبقية الكلام ، بل هو كلام الله المحيط علماً ، القادر القهار ، إلّا أن الله أفهم رسوله ﷺ بعد أن أمره أن يقول ذلك لتقوم على الكافرين الحجة : أنّ هذا الكلام لا يجدي مع من أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه . ولهذا قال : ﴿ **ولا يسمع الصمّ الدعاء** ﴾ أي هؤلاء صم ولا يسمعون ما تدعوهم إليه ﴿ **إذا ما ينذرون** ﴾ أي إذا ما يخوّفون ، فعندهم صمم عن الإنذار ، ثمّ بيّن عزّ وجلّ أن هؤلاء على هذه الصنهجية والكبر إذا مسّهم أدنىٰ عذاب غيّروا واعترفوا فالحماقة والجهل والكبر تجعلهم يستمرون على ما هم عليه : ﴿ **ولئن مستهم نفحة** ﴾ أي دفعة يسيرة ، أي أدنىٰ شيء ﴿ **من عذاب ربك ليقولن** ﴾ معترفين ﴿ **يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أي ولئن مسّهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلّوا ودعوا بالويل على أنفسهم ، وأقرّوا حين تصامّوا وأعرضوا ، فاثبت على ما أنت عليه ، وانتظر فيهم ما وعدناك ، وها هو يوم القيامة آت ﴿ **ونضع الموازين القسط** ﴾ أي العدل ﴿ **ليوم القيامة** ﴾

قال ابن كثير : الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، وقال النسفي : وإنما جمع لتعظيم شأنها ﴿ **فلا تظلم نفس شيئاً** ﴾ ولو قليلاً . فلا ظلم هناك ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها** ﴾ أي أحضرناها ﴿ **و كفى بنا حاسبين** ﴾ أي عالمين حافظين .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون** ﴾ قال صاحب الظلال : (فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم ، والمتاع ترف ، والترف يفسد القلب ويبلّد الحس ، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائماً بالله ، فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذي يقع كل يوم في جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدولة المتغلبة وتنحسر وتتقلص . فإذ هي دويلات صغيرة وكانت إمبراطوريات . وإذ هي مغلوبة على أمرها وكانت غالبة . وإذ هي قليلة وكانت كثيرة . وإذ هي قليلة الخيرات وكانت فائضة الخيرات .

والتعبير يرسم يد القدرة وهي تطوي الرقعة وتنقص الأطراف وتزوي الأبعاد . فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة وفيه الرهبة المخيفة ! ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ ؟ فلا يجري عليهم ما يجري على الآخرين) .

كلمة في سياق المجموعه الخامسة :

هذه المجموعة تبيّن ما هو الموقف المكافىء لموقف الكافرين الذي سجّلته المجموعة السابقة ، وهو أن الكافرين يستهزؤون بالرسول ودعوته ، ووعيده لهم وإنذاره ، وههنا يبيّن الله عزّ وجلّ الموقف المكافىء لذلك ، وهو : أن يعلم الرسول ثمّ من بعده من أمته . أن الاستهزاء بالرسل دأب الكافرين في كل زمان ، وأن الله سينتقم ، وأن الله سيحاسب ، وأن هؤلاء مغرورون ، فهم ضعفاء جبارون ، وأن سبب غرورهم هو إمداد الله لهم وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقيم عليهم الحجة بأكثر من معنى : في عجز آلهتهم وفي انتصارات المسلمين في المآل وفي قوة الوحي وأحقيّة القرآن .

كلمة في سياق السورة :

نلاحظ أن السورة ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ ونلاحظ أن كلمة الإعراض تكررت أكثر من مرّة في السورة ﴿ **قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون** ﴾ ﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمٰن بل هم عن**

ذكر ربهم معرضون ﴾

إن مجموعة صور للإعراض يذكرها السياق : إعراضهم عن السمّاع ، إعراضهم عن التدبر ، إعراضهم عن الإجابة على السؤال المذكّر لهم بالله .

وكل ذلك يقرر عدم استفادتهم من الإنذار بسبب منهم .

هذا الإعراض سببه تصوراتهم الفاسدة عن موضوع الرسالة والرسول ، أوآرائهم الفاسدة عن موضوع الالْهية وقد ردّ الله عليهم ذلك كلّه ، وأعلم الحق فيه لتقوم الحجة عليهم كاملة .

وكل ذلك بلغة التذكير ، فالسورة نموذج على كون هذا القرآن ذكراً .

كلمة في سياق السورة وارتباطه بمحورها :

إن محور السورة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .** ﴾

ومن بداية السورة حتى آخر ماوصلنا إليه نلاحظ أن هناك تأكيداً لموضوع عدم استفادة الكافرين من الإنذار ؛ مع كون السورة تنذر وتأمر الرسول ﷺ بالإنذار . ومن بداية السورة حتى آخر ماوصلنا إليه منها تجد صوراً من العذاب العظيم المعدّ لهؤلاء الكافرين .

ومن بداية السورة حتى آخر ماوصلنا إليه منها تجد صوراً من الإنذار وإقامة الحجة تدللُ على أن العلة في رفض الهدى هي : أنفس هؤلاء الكافرين ومواقفهم ؛ ومن ثم فإذا ختم الله على قلوبهم فلذنوبهم ولاستحقاقهم ذلك .

وإذن فالسّورة مع كونها تفصّل في موضوع العذاب الذي يستحقه الكافرون ، وتؤكد عدم استفادتهم من الإنذار بسبب مرضهم ، إلا أنها لاتبقي حجة ولا شبهة ولا كلمة ولا موقفاً لهؤلاء إلا وتعالجة . وقبل أن نعرض المجموعة السادسة ومحلها من السورة وكيف وصل السياق إليها فلنذكر بعض الفوائد التي لها صلة بالمجموعتين الرابعة والخامسة .

الفوائد :

١ – استدل بعض العلماء بقوله تعالى ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ على أنّ الخضر عليه السلام مات وليس بحيّ لأنّه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً ، وهو موضوع كثر الأخذ والردّ فيه بين طوائف من الناس ، وأكثر الفقهاء على هذا الرأي

٢ –وصف الله الإنسان بأنه خُلق من عجل ، وقد ورد هذا في معرض ذم الاستعجال فكيف نوفّق بين كون الإنسان خلق من عجل ، وبين ذمّ الاستعجال ؟

قال النسفي (وإنما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركّبها فيه ؛ لأنّه أعطاه القوة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة)

وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **خُلق الإنسان من عجل** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق ، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال : يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس »

٣ – قال ابن كثير في قوله تعالىٰ ﴿ **أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ : (اختلف المفسرون في معناه وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالىٰ : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ وقال الحسن البصري يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر ، والمعنىٰ : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذّبة والقرىٰ الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ يعني : بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون)

٤ – وبمناسبة ذكر الميزان في قوله تعالىٰ ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ يذكر ابن كثير أحاديث ننقل منها ما يلي :

أ – في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلىٰ الرحمٰن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »

ب – وروى الإمام أحمد .... عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « إنّ الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ،

فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا مدّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يارب ، قال أفلك عذر أو حسنة ؟ قال فبهت الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول بلىٰ إنّ لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقول أحضروه فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تُظلَم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقال ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم » . ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث ابن سعد وقال الترمذي : حسن غريب

جـ - روي الإمام أحمد .... أنّ رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « يحسب ما خانوك وعصوك ، وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لالك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلك » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ « ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً * وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفي بنا حاسبين** ﴾ فقال الرجل: يارسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم .

ولنعد إلى سياق السورة :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **اقترت للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوىٰ الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ .

ثم جاء قول على لسان الرسول ﷺ ، ثم جاء قول للكافرين : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ وجاءت الردود عليهم تترىٰ : ﴿ **ما** ﴾ و ﴿ **وما** ﴾

﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلا رجالا**

نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين .... ﴾

﴿ وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين .... ﴾
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون .... ﴾
﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإِنْ مت فهم الخالدون .... ﴾

ثم رأينا آخر مجموعة ابتدأت بقوله تعالى : **﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾**

والآن نجد المجموعة السادسه تبدأ بقوله تعالى : **﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين .... ﴾** والمجموعة السابعة تبدأ بقوله تعالى **﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل .... ﴾** ثم يكون حديث بعد قصة إبراهيم عن لوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون وزكريا ومريم وابنها عليهم الصلاة والسلام ثم يأتي كلام ... ثم يأتي قوله تعالىٰ : **﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾** .

ثم تأتي مجموعة مبدوءة بـ **﴿ وما ﴾** كما كانت المجموعات الأولىٰ في السورة تبدأ فيأتي قوله تعالى : **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**

....

فالسورة إذن تتألف من مقدمة وتسع مجموعات ، خمس من هذه المجموعات مبدوءة بكلمة **﴿ ما ﴾** أو **﴿ وما ﴾** ، وأربع مجموعات في الوسط علامتها كلمة **﴿ ولقد ﴾**

....

مرّت معنا منذ قليل المجموعة الخامسة وهي من المجموعات التي بدأت بكلمة **﴿ ولقد ﴾** ، وتأتي الآن المجموعة السادسة وهي مجموعة قصيرة تتحدّث عن موسى وهارون عليهما السلام ، وهي مبدوءة بكلمة **﴿ ولقد ﴾** ، ثمّ تأتي المجموعة السابعة وهي مجموعة طويلة تتحدث عن إبراهيم ولوط ونوح وداوود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون وزكريا ومريم وابنها عليهم السلام ، ثمّ تأتي المجموعة الثامنة لتبين أن هؤلاء الرسل جميعاً مع رسولنا ﷺ وأن أمم هؤلاء جميعاً مع أمتنا ، كلنا

أمة واحدة ، ثمّ يسير السياق فما محلّ هاتين المجموعتين في سياق السورة ؟ وما صلتهما بمحور السورة من سورة البقرة ؟ كل ذلك سنراه تفصيلًا ، وابتداءً نقول : إن المجموعتين تؤكدان على أنّ الأنبياء بشر ، وعلى أنهم ليسوا خالدين ، وعلى أنهم ابتلوا بالخير والشر ، وأن القرآن ليس إلا وحياً من الله ، أوحاه الله إلى محمد كما أوحى إلى غيره من الرسل ، ولذلك صلاته بما مرّ من السورة : ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم** ﴾ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ولذلك كذلك صلاته بالنذير والإنذار ولذلك ارتباطاته بمحور السورة ، وسنرى ذلك تفصيلًا إن شاء الله فلنبدأ عرض المجموعة السادسة .

☆ ☆ ☆

المجموعة السادسة

وتمتدُّ من الآية (٤٨) إلى نهاية الآية (٥٠) وهذه هي :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير :

﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان** ﴾ أي التوراة فهي فرقان بين الحق والباطل ﴿ **وضياءً** ﴾ يستضاء به ويتوصَّل به إلىٰ سبيل النجاة ﴿ **وذكراً** ﴾ أي شرفاً أو وعظاً وتنبيهاً ، أو ذكراً لما يُحتاج إليه في مصالح دينهم ﴿ **للمتقين** ﴾ فهم المنتفعون بوحي الله ، وصف الله عز وجل التوراة بأنها فرقان وضياء وذكر ، وبيّن أنّها كذلك للمتقين ، ثم وصف الله المتقين بقوله ﴿ **الذين يخشون** ﴾ أي يخافون ﴿ **ربهم بالغيب** ﴾ أي في خلوتهم عن العباد ، أو مع كونه غيباً بالنسبة لهم ﴿ **وهم من الساعة** ﴾ أي من القيامة وأهوالها ﴿ **مشفقون** ﴾ أي خائفون ، وصف الله المتقين بصفتين جامعتين : الخشية من الله ، والإشفاق من اليوم الآخر فهؤلاء هم الذين تكون التوراة في حقهم فرقاناً أي

تفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والغي والرشاد والحلال والحرام . وهي في حقهم نور لما يحصل من تطبيقها من نور في القلوب ، وهداية ، وهي في حقهم ذكر لما تحدثه في القلوب من خوف وإنابة وخشية ، وإذا كانت التوراة كذلك فمن باب أولى هذا القرآن ﴿ **وهذا ذكر مبارك** ﴾ أي كثير الخير غزير النفع ﴿ **أنزلناه** ﴾ على محمد ﷺ ﴿ **أفأنتم له منكرون** ﴾ أي جاحدون مع أن فيه خصائص التوراة وزيادة ، أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور على أنه من عند الله .

كلمة في السياق :

١ - تأتي هذه الآيات لتقرر أن موسى وهارون عليهما السلام وهما بشران لم يكونا خالدين ، قد أنزل الله عليهما التوراة ، فاستغراب الناس أن ينزل الله القرآن على بشر هو محمد ﷺ في غير محله ، وهذه أول خدمة تخدمها هذه المجموعة لسياق السورة .

٢ - تحدثت السورة عن موقف الكافرين من الوحي ، وهو الإعراض والغفلة والرفض والتشويه ، وتأتي هذه المجموعة لتقرر مَنْ من الناس يستفيدون من الوحي ، ثمّ تبيّن أن هؤلاء هم الذين يكون الوحي في حقّهم فرقاناً وضياءً وذكراً .

٣ - وبعد أن ذكرت الآيتان الأوليان في المجموعة التوراة عقبت بذكر القرآن ووصفه بأنّه ذكر مبارك ، وأنكرت على من ينكره ووبّخته ، لأن إنكاره في غير محله .

٤ - هذه المجموعة إذن دليل جديد ، وحجة جديدة على صدق الرّسالة وصحة الوحي ، ونقض جديد لأقوال الكافرين ، ومن هذا يظهر لك انسجامها مع سياق السورة الخاص .

٥ - رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم ...** ﴾ وهاتان الآيتان آتيتان في حيّز قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ... والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ..** ﴾ وقد أشارت المجموعة -على قصرها - إلى هذا كله ، وأنكرت على الكافرين الذين ينكرون هذا القرآن ولا يؤمنون به .

٦ - بعد أن حدثتنا المجموعة السادسة عن موسى وهارون عليهما السلام ، وعن التوراة والقرآن ، وعن المهتدين والمنكرين - أي عن المتقين والكافرين - تأتي المجموعة

السابعة وهي معطوفة على المجموعة السادسة ، ولذلك فإنها تبدأ بكلمة ﴿ **ولقد** ﴾ التي بدأت بها المجموعة السادسة .

والمجموعة السابعة تبدأ بالحديث عن إبراهيم عليه السلام ، ثمّ تعطف بالحديث عن لوط عليه السلام ، ثمّ تعطف بالحديث عن نوح عليه السلام ، ثم تعطف بالحديث عن داوود وسليمان عليهما السلام ثمّ تعطف بالحديث عن أيوب عليه السلام ، ثمّ تعطف بالحديث عن إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام ثمّ تعطف بالحديث عن يونس ثمّ تعطف بالحديث عن زكريا عليه السلام ثم تعطف بالحديث عن عيسى وأمه عليهما السلام لتصل إلى المجموعة الثامنة التي بدايتها : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى في السورة : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ولنا كلام على سياق هذه المجموعات الثلاث سيأتي

٧ - ولطول المجموعة السابعة فإننا سنعرضها على فقرتين :

الفقرة الأولى من المجموعة السابعة

وتمتدُّ من الآية (٥١) إلى نهاية الآية (٧٧) وهذه هي :

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

ملاحظات حول السياق :

١ - مرّ معنا في أول السورة قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم ... ثمّ صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين** ﴾ وفي هذه الفقرة يذكر الله عز وجل من هؤلاء الرّسل إبراهيم وإسحق ويعقوب ولوطاً ونوحاً ويذكر جلّ جلاله كيف نجّى إبراهيم ولوطاً ونوحاً عليهم السلام وكيف أهلك المسرفين ، فقال عن إبراهيم ولوط عليهما السلام : ﴿ **ونجيناه ولوطاً** ﴾ وقال عن لوط عليه السلام ﴿ **ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث** ﴾ وقال عن نوح عليه السلام ﴿ **فنجيناه وأهله** ﴾ .

٢ - مرّ معنا في أوائل السورة قوله تعالى : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة** ﴾ وفي هذه الفقرة حديث عن إهلاك قوم لوط وقوم نوح .

٣ - ومرّ معنا في هذه السورة قوله تعالى ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ وههنا يقصّ الله علينا ماذا فعل إبراهيم بالآلهة الأرضية ، وماذا قال عنها ، وإلى ماذا دعا ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرُّكم ..** ﴾ وحدثتنا الفقرة عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فقالت ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ فالفقرة إذن تضرب الأمثلة لتوضّح ولتعمّق معاني قد ذكرت من قبل في السورة .

التفسير :

﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ أي هداه ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل موسى وهارون عليهما السلام أو من قبل محمد ﷺ ﴿ **وكُنّا به** ﴾ أي بإبراهيم عليه السلام ﴿ **عالمين** ﴾ أنّه أهل لذلك ، أي علمنا أنّه أهل لما آتيناه فآتيناه إياه ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل** ﴾ أي الأصنام المصوّرة على صور شتىٰ ﴿ **التي أنتم لها عاكفون** ﴾ أي أنتم لأجل عبادتها مقيمون أي معتكفون على عبادتها ، وفي سؤاله هذا تجاهل لفعلهم ؛ ليحقر آلهتهم

مع علمه بتعظيمهم لها ، وفي كلامه هذا نموذج على الرشد الذي أوتيه من صغره ، ولمّا كان في سؤاله معنىٰ الإنكار عليهم ، وفيه طلب معرفة الدّليل على عبادتهم ، كان جوابهم ﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ أي فقلّدناهم ، عجزوا أن يحتجوا على شركهم إلا بصنيع الآباء ، ولذلك كان جوابه : ﴿ **قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ أراد أن المقلّدين والمقلَّدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر ، لا يخفى على عاقل ، أي أنتم وهم في غير طريق مستقيم ، فلمّا سفّه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ **قالوا أجئتنا بالحق** ﴾ أي بالجدّ ﴿ **أم أنت من اللاعبين** ﴾ أي أجادٌّ أنت فيما تقول أم لاعب ؟ استعظاماً منهم إنكاره عليهم ، واستبعاداً لأن يكون ما هم عليه ضلالًا ، فعندئذ أقبل عليهم مخبراً بأنه جادٌّ فيما قال ، غير لاعب ، مثبتاً لربوبية الملك العلّام ، وحدوث الأصنام ﴿ **قال بل ربكم رب السمٰوات والأرض الذي فطرهنّ** ﴾ أي خلق السمٰوات والأرض ، أو خلق التماثيل فأنّى يعبد المخلوق ويترك الخالق ﴿ **وأنا على ذلكم** ﴾ المذكور من التوحيد ﴿ **من الشاهدين** ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا ربَّ سواه ﴿ **وتالله لأكيدنَّ أصنامكم** ﴾ أي لأكسرنها ﴿ **بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ أي بعد ذهابكم ﴿ **فجعلهم** ﴾ أي فجعل الأصنام ﴿ **جذاذاً** ﴾ أي قطعاً جمع جذاذة ﴿ **إلا كبيراً لهم** ﴾ أي للأصنام ، أو للكفار ﴿ **لعلهم إليه يرجعون** ﴾ أي لعلهم إلى الكبير يرجعون فيسألونه عن كاسرها ، فيتبيّن لهم عجزه ، أو لعلهم يرجعون إلىٰ إبراهيم ليحتج عليهم ، أو لعلهم يرجعون إلىٰ الله لمّا رأوا عجز آلهتهم ﴿ **قالوا** ﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل في أصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلٰهيتها ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ **مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين** ﴾ أي في صنيعه هذا أي إنّ مَن فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الجديرة - عندهم - بالتوقير والتعظيم ﴿ **قالوا** ﴾ أي قال مَنْ سمعه يحلف أنه سيكيد أصنامهم ﴿ **سمعنا فتىً** ﴾ أي شاباً ﴿ **يذكرهم** ﴾ أي يعيبهم ﴿ **يقال له إبراهيم** ﴾ أي اسمه إبراهيم ﴿ **قالوا** ﴾ أي من بيدهم الأمر ﴿ **فأتوا به** ﴾ أي أحضروه ﴿ **على أعين الناس** ﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر ، يحضره الناس كلهم ﴿ **لعلهم يشهدون** ﴾ أي عليه بما سُمع منه ، أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلا بيّنة ويمكن أن يكون المعنى : لعلّهم يحضرون

عقوبتنا له لنريهم كيف ننتقم للآلهة .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبيّن في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام ، التي لا تدفع عن نفسها ضراً ، ولا تملك لهم نصراً فكيف يُطلَب منها شيء من ذلك ؟ ﴿ **قالوا** ﴾ بعد أن أحضروه ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿ **فاسألوهم إنْ كانوا ينطقون** ﴾ .

قال ابن كثير : وإنما أراد بهذا أن يبادروه من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأنّ هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد ﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ أي فرجعوا إلىٰ عقولهم وتفكروا بقلوبهم لمّا أخذ بخناقهم ﴿ **فقالوا إنكم أنتم الظالمون** ﴾ أي على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق ، وليس الظالم من كسَرها ، فإنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس ، كيف يدفع عن عابديه البأس ﴿ **ثمّ نكسوا على رؤوسهم** ﴾ أجرىٰ الله الحق على لسانهم في القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة أي ردّوا إلىٰ الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم ، استقاموا حين رجعوا إلىٰ أنفسهم ، وجاؤوا بالفكرة الصالحة ثم أنقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة ، ارتقوا ابتداءً وعادوا إلى الحضيض انتهاءً وقالوا ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ !والمعنىٰ : لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم ؟ فقال لهم إبراهيم لمّا اعترفوا بذلك محتجاً عليهم : ﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً** ﴾ إنْ عبدتموه ﴿ **ولا يضرّكم** ﴾ إنْ لم تعبدوه ﴿ **أفٍ لكم** ﴾ أف : صوت إذا صوّت به عُلِم أن صاحبه متضجّر ، ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم ، وبعد وضوح الحقّ فتأفّف بهم ﴿ **ولما تعبدون من دون الله** ﴾ أي أفٍ لكم ولآلهتكم ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ، أفلا تعقلون أنّ مَنْ هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً ، فلمّا لزمتهم الحجة ، وعجزوا عن الجواب ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، عدلوا إلى منطق البغي والظلم والإرهاب ، دأب الظالمين في كل زمان ومكان ﴿ **قالوا حرّقوه** ﴾ أي بالنار ؛ لأنّها أهول ما يعاقَب به وأفظع ﴿ **وانصروا آلهتكم** ﴾ بالانتقام منه ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات وهو الإحراق بالنّار ، وإلا فرّطتم في نصرتها ﴿ **قلنا** ﴾ أي حين فعلوا ما قالوه ﴿ **يا نار كوني**

بردًا وسلامًا ﴾ أي كوني ذات برد وسلام ﴿ **على إبراهيم** ﴾ أراد ابردي فيسلم منك إبراهيم ﴿**وأرادوا به كيدًا**﴾ أرادوا أن يكيدوه بالإحراق ﴿**فجعلناهم الأخسرين**﴾ أي المغلوبين الأسفلين ، لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا فكادهم الله ونجاه من النّار فغلبوا هنالك . ﴿ **ونجيناه ولوطًا** ﴾ أي بعد أن سلّمه الله من النّار أخرجه من بين أظهرهم هو ولوط ابن أخيه ﴿ **إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾ أي أرض الشام ، قال النسفي : وبركتها أن أكثر الأنبياء منها ، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة** ﴾ أي عطيّة وهل إسحق ويعقوب نافلة أو أن النافلة يعقوب ؟ قولان للمفسرين : قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم سأل واحدًا فأعطاه إسحق ، وزاده يعقوب نافلة ، قال النسفي : وأعطي يعقوب نافلة أي زيادة وفضلًا من غير سؤال ﴿ **وكلًّا** ﴾ من يعقوب وإسحاق وإبراهيم ﴿ **جعلنا صالحين** ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح ﴿ **وجعلناهم أئمة** ﴾ أي يقتدى بهم في الدين ﴿ **يهدون بأمرنا** ﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** ﴾ وهي جميع الأفعال الصالحة ﴿ **وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾ أي أمرناهم بها ، ووفقناهم إليها ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ لا للأصنام ﴿ **ولوطًا آتيناه حكمًا** ﴾ أي حكمة : وهي ما يجب فعله من العمل ، أو فصلًا بين الخصوم أو نبوّة ﴿ **وعلمًا** ﴾ أي وفقهًا ﴿**ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث**﴾ وهي قرية سدوم ، وقد عدّد النسفي من الخبائث التي كانت تعملها : اللواطة ، والضراط ، وقذف المارّة بالحصى ﴿ **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ﴿ **وأدخلناه في رحمتنا** ﴾ أي في أهل رحمتنا أو في الجنة ﴿ **إنّه من الصالحين** ﴾ دلّ ذلك على أنّ إدخاله في الرحمة ، وإهلاك قومه ، كان جزاءً له على صلاحه ﴿ **ونوحًا** ﴾ أي واذكر نوحًا عليه السلام ﴿ **إذ نادى** ﴾ أي دعا ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ أي دعاءه ﴿ **فنجّيناه وأهله** ﴾ أي المؤمنين من ولده وقومه ﴿ **من الكرب العظيم** ﴾ أي من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان ﴿ **ونصرناه** ﴾ أي ومنعناه ونجيناه وخلّصناه منتصرًا ﴿ **من القوم الذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾ صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم .

فوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن إبراهيم عليه السلام في هذه السورة قال ابن كثير : (وما

يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكواكب والمخلوقات فتبصّر فيها وما قصّه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامّتها أحاديث بني إسرائيل فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه . لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لانصدّقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفاً وما كان من هذا الضرب منها فقد رخصّ كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم ... عن الأصبع بن نباتة قال : (مَرَّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟** ﴾ لأن يمسّ أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها) أقول : هذا مذهب علي رضي الله عنه في الشطرنج ، وهو الذي أخذ به الحنفية ، ما عدا أبا يوسف إذ اعتبروا اللعب بالشطرنج كاللعب بالنّرد ، والكثيرون من الفقهاء يفرّقون بين النّرد والشطرنج ، فيعتبرون اللعب بالشطرنج ما لم يكثر أو يُلْه عن واجب لا بأس به إذا رافقته نيّة صالحة .

٣ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم** ﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب ، وتلا هذه الآية ﴿ **سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم** ﴾

٤ - بمناسبة قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيحين .. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله قوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ ، وقوله ﴿ **إني سقيم** ﴾ قال : وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة إذ نزل منزلًا ، فأتىٰ الجبار رجل فقال : إنه قد نزل ها هنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن النّاس ، فأرسل إليه فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إليّ ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنّك أختي ، فلا تكذبيني عنده ؛ فإنك أختي في الله ، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم عليه السلام ثم قام يصلي ، فلما أن رآها أهوى إليها فتناولها فأخِذ أخذاً شديداً فقال : ادعي الله لي ولا أضرّك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها

فتناولها فأخذ بمثلها أو أشدّ ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال : ادعي الله فلا أضرك ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنىٰ حجّابه فقال : إنك لم تأت بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر ، فأُخرجت وأُعطيت هاجر ، فأقبلت فلما أحسّ إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم ؟ قالت : كفىٰ الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر) .

أقول : وقد أطال بعض المفسّرين في التعليل لموقف إبراهيم عليه السلام عندما سأله قومه ، ولا شك أنّ موقفه كان في معرض إقامة الحجّة ، ولكنّه على كل حال هرب من الجواب المباشر ، وفي ذلك فسحة لمن ابتلي بمثل موقفه ...

٥ - بمناسبة الكلام عن إنجاء الله إبراهيم من النار يذكر ابن كثير ما أخرجه البخاري عن ابن عباس ، أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليه الصلاة والسلام حين قالوا ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ وذكر ابن كثير ما أخرجه أبو يعلى ... عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ « لمّا ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر ابن كثير ما قاله ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله قال : وسلاماً لآذى إبراهيم بردها » كما ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به هذه الأوزاغ . إن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابّة إلا تطفىء النار غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله »

٦ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾ ذكر ابن كثير قول قتادة قال : (كان بأرض العراق فأنجاه إلىٰ الشام ، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص في الشام زيد في فلسطين) .

وذكر النسفي بهذه المناسبة حديثاً قال : « وقال عليه الصلاة والسلام إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار النّاس إلى مهاجر إبراهيم » .

كلمة في السياق :

١ - إن أول شيء يربط قصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح عليهم السلام بسياق السورة هو كونهم بشراً رسلًا ، وهو الشيء الذي يحاول المشركون استبعاده ، كما ذكر الله ذلك في أول السورة ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ .

٢ - في ذكر القصص الثلاث بيان لعاقبة مكر الكافرين ، إذ فشّل الله مكرهم في قصة إبراهيم ، وعوقبوا بسببه في قصة لوط ونوح عليهما السلام وفي عقوبتي قوم لوط وقوم نوح تذكير بما قصه الله علينا في السورة عن حال المعرضين إذ ينزل بهم العقاب .

٣ - في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وكسره الأصنام ، وإقامة الحجة عليهم ، تذكير للعرب الذين يقدّسون إبراهيم ويعرفونه أباً لهم بالتوحيد ، وتذكير لهم بأن ما هم عليه من الشرك لا تقوم به حجّة ، بل هو السّفه والجهل الكاملان ، إذ أننا رأينا أن من عوامل الإعراض عن الوحي الشرك .

٤ - إن قصة إبراهيم ولوط ونوح عليهم السلام تدل على أنّ العبرة بالخواتيم ، فهذا إبراهيم ينجيه الله في أحلك لحظة ، وهذا لوط ينجيه الله في ساعة الكربة ، وهذا نوح ينجيه الله وينصره بعد الزمن الطويل ، وفي ذلك إشارة إلى أن استعجال المعرضين عن الوحي يدلّل على جهلهم بسنة الله .

ومما مَرّ ندرك أن هذه القصص تضيء على ما سبقها من السورة ، بل هي تأتي كالأمثلة لما ذكر في السورة من قبل من قواعد وحجج وأدلة تدحض أقوال الكافرين بالوحي ، والمعرضين عنه ، إذا عرفنا صلة هذه الفقرة من المجموعة السابعة بسياق السورة ، فما هي صلتها بالمحور العام للسورة من سورة البقرة ؟ إن المحور العام هو : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ إن في القصص الثلاث نماذج على ثلاثة أقوام لم ينفعهم الإنذار ، ولم تنفعهم الحجج كما أن في القصص الثلاث تثبيتاً لقلب النذير ، ودروساً هادية له ، نراه يطبقها واحداً فواحداً فقد هاجر ، وقد حطّم بعض الأصنام مع عليّ ، كما تذكر روايات حسنة السند قبل الهجرة وقال في محنته ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ وهكذا ، وعلى هذا فالفقرة تخدم سياق السورة الخاص ،

ضمن محورها في السياق القرآني العام ، وما غاب عنا من حكم في السياق الخاص والعام أكبر ، نسأل الله أن يفتح علينا ، وأن يتوفانا على كمال الإيمان اللهم آمين ولننتقل إلى الفقرة الثانية من المجموعة السابعة .



الفقرة الثانية من المجموعة السابعة

وتمتدُّ من الآية (٧٨) إلى نهاية الآية (٩١) وهذه هي

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا
وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ
لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً
تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ
الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَافِظِينَ (٨٢) * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ
الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ
إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

ملاحظات حول السياق :

١ - هذه الفقرة امتداد للتي قبلها، في أنها تعرض علينا قصص أنبياء، مؤكّدة بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومؤكّدة عناية الله عز وجل بهم ورعايته لهم، ولذلك صلاته بقوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم**﴾ ﴿**وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثمّ صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء**﴾

٢ - مرّ معنا في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ والملاحظة أنّه تعرض علينا في هذه الفقرة قصص أنبياء ابتلوا بالخير، وقصص أنبياء ابتلوا بالشّر، وكيف تمّ للرّسل في المقامين الشكر والصبر، ليكونوا قدوة الخلق في كلّ حال.

٣ - والفقرة تأخذ محلّها في موضوع إقامة الحجة على كل تصوّر كافر في شأن الرّسل والوحي والإنذار ومن هنا تأخذ محلّها في صلتها بمحور السورة من سورة البقرة.

التفسير :

﴿**وداود وسليمان**﴾ أي واذكر داود وسليمان عليهما السلام ﴿**إذ يحكمان في الحرث**﴾ أي في الزرع أو في الكرْم ﴿**إذ نفشت فيه غنم القوم**﴾ أي دخلت فيه ليلًا فأفسدته ﴿**وكُنّا لحكمهم**﴾ أي لحكم داود وسليمان والمتحاكمين إليهما ﴿**شاهدين**﴾ أي كان ذلك بعلمنا ومرأىً منا ﴿**ففهّمناها سليمان**﴾ أي ففهّمنا

قال النسفي : أي أجرينا فيها روح المسيح ، أو أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام . ﴿ **وجعلناها وابنها آية** ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿ **للعالمين** ﴾ أي للجن والإنس .

نقول :

بمناسبة قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ **وعلّمناه صنعة لَبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ قال صاحب الظلال : (تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة ، والزرد المتدخل أيسر استعمالًا وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هوَ الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله . والله يمن على الناس أن علّم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب : ﴿ **لتحصنكم من بأسكم** ﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض : ﴿ **فهل أنتم شاكرون ؟** ﴾ ..

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجيء طفرة ، لأن خلافة الأرض تُركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التي زوّده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة ، ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية ، فهي تهز أعماقها وتغيّر عاداتها ومألوفها ، وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر بعد كل تنسيق جديد .

والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار ، ولا تدع للنفس فرصة التكيّف والتذوق للوضع الجديد) .

وبمناسبة الكلام عن سليمان عليه السلام في السورة يقول صاحب الظلال : (وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل ، معظمها مستمدّ من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام . ولكي لا نضل في هذا التيه . فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات .

والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح - وهي عاصفة - لسليمان تجري بأمره إلى

الأرض التي باركنا فيها . وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم . فكيف كان هذا التسخير ؟ . هنالك قصة بساط الريح الذي قيل : إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام في فترة وجيزة . وهي مسافة كانت تقطع في شهر على الجمال . ثم يعود كذلك .. وتستند هذه الرواية إلى ما ورد في سورة سبأ من قوله تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوُّها شهر ورواحها شهر** ﴾

ولكن القرآن لم يذكر شيئاً عن بساط الريح ذلك ؟ ولم يرد ذكره كذلك في أي أثر مستيقن . فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط ، والأسلم إذن أن نفسّر تسخير الريح بتوجيهها – بأمر الله – إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً كيف ؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تُسأل كيف ؟

فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور : ﴿ **وكنا بكل شيء عالمين** ﴾ ... العالم المطلق لا كعلم البشر المحدود وكذلك تسخير الجن لسليمان – عليه السلام – ليغوصوا في أعماق البحر وأعماق اليابسة . ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان ، أو ليعملوا له أعمالًا غير هذا وذاك .. فالجن كل ما خفي وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقاً يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخّر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وحفَظَهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخّرهم حين يشاء كيف يشاء)

وبمناسبة الكلام عن إدريس وذي الكفل في السورة يقول صاحب الظلال : (وأما إدريس فقد سبق إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وإن هنالك قولًا بأنه أوزوريس الذي عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير . بوصفه المعلم الأول للبشر ، الذي علمهم الزراعة والصناعة : ولكننا لا نملك على هذا دليلًا . فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذي يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي .

وأما ذو الكفل فهو كذلك مجهول لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه . والأرجح أنه من أنبياء بني إسرائيل . وقيل : إنه من صالحيهم ، وأنه تكفّل لأحد أنبيائه قبل موت هذا النبي . بأن يخلفه في بني إسرائيل على أن يتكفّل بثلاث : أن يقوم الليل ، ويصوم النهار ولا يغضب في القضاء . فوفّى بما تكفّل به ، وسمي ذا الكفل لذاك ، ولكن هذه ليست

سوى أقوال لا دليل عليها . والنص القرآني يكفي في هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لذي الكفل) .

كلمة في السياق :

١ - في الفقرة الأولىٰ من هذه المجموعة ذكر الله لنا موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوطاً ونوحاً عليهم السلام وفي هذه الفقرة ذكر لنا داود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ويونس وزكريا وعيسى عليهم السلام ، وكل منهم رسول ، وكل منهم بشر ، وهذا أول مظهر من مظاهر ارتباط ذكرهم عليهم السلام في سياق السورة .

٢ - هؤلاء الرسل منهم الملك الذي أعطي كل شيء كداود وسليمان عليهما السلام ومنهم من ابتلي حتى فقد كل شيء كأيوب ومنهم ومنهم وكلهم يجمعهم وصف ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ يجمعهم وصف العبودية لله ، وهم أكمل خلق الله فأحرى بالناس أن يقتدوا بهم في أحوالهم وعبوديتهم ، بدلًا من أن يعرضوا ، وهذا مظهر من مظاهر ارتباط هذه الفقرة بالسياق .

٣ - في ذكر العطاء الكبير الذي أعطاه الله داود وسليمان عليهما السلام ثم في ذكر قصة أيوب بعد ذلك مباشرة ما يشير إلىٰ أن الرسول يمكن أن يكون كذلك ، ويمكن أن يكون كذلك ، فعطاء الله قد يتفاوت بين الأب والابن ، سواء كان العطاء الدنيوي ، أو العطاء الديني ، ولا هذا يطعن في كون هذا رسولًا ، ولا هذا يطعن في كون هذا رسولًا ، فالتصورات الخاطئة في موضوع الرسالة ينبغي أن تعدّل . وهذا مظهر آخر من مظاهر ارتباط هذه المجموعة في السياق .

٤ - إن صفة الصبر والصلاح صفتان مشتركتان عند كل رسول ، وفي هذا درس للنذير ودرس للاقتداء .

٥ - في ذكر قصة يونس عليه السلام في هذا المقام ما يشير إلى أن الرسول يُحاسب هذا الحساب الدقيق ، مع كل إقباله على الله وخوفه منه ، فما بال المعرضين عن الله في غفلتهم ، وهذا مظهر من مظاهر الصلة في السياق .

٦ - وفي ذكر قصة مريم وابنها عليهما السلام إشارة إلى عبودية المسيح عليه

السلام ، وكونه مخلوقاً وآية ، فليس هو إلا كذلك ، رسول من رسل الله ، وفي ذلك مظهر من مظاهر الارتباط في السياق ؛ لأنه مرّ معنا من قبل قوله تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون** ... ﴾ وإذن فذكر الأنبياء في سياق السورة يخدم كل القضايا التي سبق وذكرت في السورة ، وفي ذكر كل رسول من الرسل إقامة حجة جديدة على الكافرين الذين يرفضون التسليم بنبوة محمد ﷺ ويرفضون التسليم للوحي .

وقد آن الأوان أن نلفت نظرك إلى أهم رابط يربط بين ذكر هؤلاء الأنبياء وسياق السورة فانتبه إليه .

بدأت السورة بمقدمة : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** * ﴾ .

ثم جاء بعد هذا مباشرة قوله تعالىٰ ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ وهذا النصّ يأتي هنا بمثابة رَدّ على كلامهم ، فلمّا قال الرسول هذا الكلام ، ثارت ثائرتهم فقالوا ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ فجاء الجواب على افترائهم الأخير وكلامهم الأول مع الأخير ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** ﴾ .. ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** .... ﴾

وإذ تأتي الردود على منطقهم فتدحضه ، يبقى أن تأتي الأدلة على قول الرسول ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾

وفي ذكر قصص هؤلاء الأنبياء يأتي تقرير ذلك ، ومن ثم نلاحظ تكرار كلمة : ﴿ **إذ نادىٰ** ﴾ ﴿ **فاستجبنا** ﴾ ﴿ **ونوحاً إذ نادىٰ من قبل فاستجبنا له** ﴾ ﴿ **وأيوب إذ نادىٰ ربه** ... **فاستجبنا له** ... ﴾ ﴿ **وذا النون** ... **فنادىٰ في الظلمات** .. **فاستجبنا له** ... ﴾ ﴿ **وزكريا إذ نادىٰ ربه** ... **فاستجبنا له** ... ﴾ .

فالله عز وجل يسمع النداء في كل حال ويستجيب ، وفي ذكر قصة إبراهيم ولوط ، وفي ذكر قصة سليمان وداود وقصة مريم ، وقصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم

السلام ما نرى به مظاهر علم الله : ﴿ **وكنا به عالمين** ﴾ في قصة إبراهيم ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ في قصة داود وسليمان فذكر قصص الأنبياء في السياق يخدم مقدمات السورة كلها ، إنك ترىٰ أن كل ما ورد بعد الآيات الخمس الأُولىٰ في السورة إنما هو خدمة لمضامين هذه الآيات الخمس فإذا أدركت صلة الآيات الخمس الأولىٰ بمحور السورة من سورة البقرة أدركت صلة بقية السورة بهذا المحور فإذا اتضحت صلة الفقرة الثانية من المجموعة السابعة بسياق السورة الخاص والعام فلنر بعض الفوائد المتعلّقة بها

الفوائد :

١ – لخص النسفي قصة نفش الغنم في الحرث ، وحكم كل من سليمان وداود عليهما السلام ومكان هذا الحكم في شريعتنا بما يلي قال : (وقصته أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلًا فتحاكما إلى داود ، فحكم بالغنم لأهل الحرث ، وقد استوت قيمتاهما أي قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث ، فقال سليمان – وهو ابن إحدي عشرة سنة : – غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن ، فقال : أرى أن تُدْفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها ، والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ، ويعود كهيئته يوم أفسد ، ثم يترادّان ، فقال : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك ، وكان ذلك باجتهاد منهما ، وكان ذلك في شريعتهم ، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم بالليل أو بالنهار ، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد ، وعند الشافعي رحمه الله تعالى يجب الضمان بالليل ، وقال الجصاص : إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ، ونسخ الضمان بقوله عليه السلام « العجماء جبار » وقال مجاهد : كان هذا صلحاً ، وما فعله داود كان حكماً والصلح خير) .

٢ – بمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **ففهمناها سليمان وكلًا آتينا حكماً وعلماً** ﴾ ذكر ابن كثير ما يلي : قال : (روى ابن أبي حاتم ... عن حميد أنّ إياس بن معاوية لما استقضي أتاه الحسن فبكىٰ ، قال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أنّ القضاه رجل اجتهد فأخطأ فهو في النّار ، ورجل مال به الهوىٰ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إنّ فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكماً يرد هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالىٰ ﴿ **وداود وسليمان إذ**

يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ، ولم يذم داود ثم قال (يعني الحسن) إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلًا ، ولا يتبعوا فيه الهوىٰ ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا ﴿ **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوىٰ فيضلك عن سبيل الله** ﴾ وقال ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ وقال : ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلًا** ﴾ قلت : – القائل ابن كثير – أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين ، من السلف والخلف ، وأما مَن سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذ اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر » فهذا الحديث يردّ نصّاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذ اجتهد فأخطأ فهو في النار – والله أعلم – . وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاضي في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النّار ، ورجل علم الحق فقضى خلافه فهو في النار »

وقريب من قصة داود وسليمان في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ : بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى » وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوّب عليه النسائي في كتاب القضاء (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق) وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه عن ابن عباس فذكر قصة مطوّلة ملخصها : أنّ امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم ، فاتفقوا فيما بينهم عليها فشهدوا عليها عند داود عليه السلام ، أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عوّدته ذلك ، فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله ، فانتصب حاكماً ، وتزيا أربعة منهم بزي أولئك ، وآخر بزي المرأة ، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً ، فقال سليمان : فرقوا بينهم فسألوا أوّلهم ما كان لون الكلب فقال أسود فعزله ، واستدعى الآخر فسأله عن لونه فقال : أحمر وقال الآخر أغبش وقال الآخر أبيض فأمر

عند ذلك بقتلهم فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره أولئك الأربعة ، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب ، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم »

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وسخّرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردّ عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لمّا مرّ ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل - وكان له صوت طيب جداً - فوقف واستمع لقراءته وقال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزماراً مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام : « لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود »

٤ - لم أجد لقوله تعالى ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره** ﴾ تفسيراً أطمئن إليه ، فالآية تحتمل أنّ الرّيح تتحرك بأمره . بحيث تسيّر السفن في البحر كما يحب ، وتحتمل أنّ الريح تأتي بالمطر والخصب كما يشاء بأمره ، وتحتمل أنّ الريح مسخرة له لشؤون أخرى ، فما هي هذه الشؤون ؟ هل هي حمله وجنده من مكان إلى مكان ، أو حمله منفرداً ؟ يذكر المفسرون شيئاً من ذلك ولكنّه لا يصلح نصاً في الموضوع ، لأنه ليس تفسيراً نبوياً ، ولا توصل إليه اللغة ، فهو إذن في الغالب من الروايات الإسرائيلية التي لا تصلح معتمداً لفهم النصوص ، وعلم تفصيل ذلك لايترتب عليه شيء ، ومن ثم لم يفصله لنا الله ولا رسوله ، والعبرة حاصلة كيف كان هذا التسخير .

٥ - عند قصة أيوب يذكر المفسرون العجائب مما ليس له أصل في الكتاب ، أو في السنة وبعضه لا يجوز اعتماده أبداً كما نص على ذلك علماء التوحيد ، كذكرهم أن الدود أكله إلا قلبه ولسانه ، وأنه ألقي على مزبلة ، إن مثل هذا الكلام لا تصح روايته ، ولا اعتماده ، ولا أصل له إلا كلام أهل الكتاب ، وكلامهم مليء بالسّفه في حق الأنبياء ، فكيف يُعْتَمد ، والسفر الذي يذكر في كتب العهد القديم ويسمّى سفر أيوب فيه من أبشع ما يمكن أن ينسب إلى الأنبياء وظاهر من قراءته أنّه من خيال بعض كتاب اليهود ؛ إذ فيه حوار بين أيوب وصاحبين له . يظهر فيه بمظهر المعترض على الله في ابتلائه له - وحاشاه - والشيء الذي نحب أن نقرره أنه ليس عندنا في قصة أيوب ما نستطيع اعتماده إلا ما يفهمنا إياه النص القرآني ، وما صح عن الرسول ﷺ في هذا الأمر - وهو

قليل - سنراه في سورة (صٓ) إن شاء الله .

٦ - ما ذكرناه في التفسير من أن ذا الكفل هو إما إلياس وإما زكريا وإما يوشع بن نون هو ما ذكره النسفي ، أما ابن كثير فيذكر مجموعة روايات عن المفسرين كلها تشير إلىٰ أن ذا الكفل ليس برسول ، بل هو خليفة رسول ، أو قاض من قضاة بني إسرائيل وينّبه إلى أن الحديث الوارد في قصة الكفل ليس له علاقة في موضوع ذي الكفل ، وقد ذكر ابن كثير روايات عن المفسرين في هذا الشأن إلا أنه قدم لها بقوله : (وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون إنما كان رجلًا وكان ملكاً عادلًا مقسطاً وتوقف ابن جرير في ذلك) ولأن الأمر كما ذكره ابن كثير فقد أضربنا عن ذكر ما نقله .. والذي استقرّ عليه التأليف في العقائد أن ذا الكفل أحد الخمسة والعشرين رسولاً الذين نصّ عليهم القرآن .

٧ - قصة يونس عليه السلام مذكورة في سورة الأنبياء ، وفي سورة الصافات ، وفي سورة (ن) ، وهناك إشارة إليها في سورة يونس ، والدرس الأول الذي نأخذه منها هو أنّ الرّسل لا يعملون ولا يتصرفون إلا بإذن ، فهذا يونس عليه السلام عندما خرج من بين ظهراني قومه بدون إذن عاقبه الله ، والدرس الثاني وهو محل القدوة لنا هو دعاؤه ، قال ابن كثير : فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء ﷺ .

روى الإمام أحمد ..... عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد ، فسلّمت عليه ، فملأ عينيه منّي ، ثم لم يردّ عليّ السّلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء ؟ مرتين قال لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلّمت عليه فملأ عينيه منّي فلم يردّ عليّ السّلام ، قال فأرسل عمر إلىٰ عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت ، قال : سعد قلت بلىٰ حتى حلف وحلفت قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلىٰ ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفا وأنا أحدّث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشىٰ بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها : أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلىٰ منزله ، ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ « من هذا أبو إسحق » قال : قلت نعم يا رسول الله قال : « فمه » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا

أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال « نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له »

٨ - بمناسبة قوله تعالىٰ عن يونس ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾ يذكر النسفي هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه دخل يوماً على معاوية فقال : لقد ضربَتْني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك ، قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية فقال أوَ يظن نبي الله أن لا يُقدَر عليه قال : هذا من القدَر لا من القدْرة .

٩ - وبمناسبة الكلام عن ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام نذكر أنّ حوت العنبر يصل طوله إلى أن يكون تسعين متراً ، وهو يستطيع أن يزدرد سمكة القرش الهائلة ويهضمها على مهل .

١٠ - الضمير في قوله تعالىٰ ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ يعود على مجموعة الأنبياء المذكورين من قبل ممّن استجاب الله لهم ، فدل ذلك على أن الحال الكاملة التي يستجيب بها ربنا الدعاء هي هذه الحال ، التي يجتمع فيها لأصحابها المسارعة إلىٰ الخيرات ، والدعاء رغباً ورهباً ، والخشوع ، ولا يعني هذا أن الله لا يستجيب إلا لمن هذا شأنه ، فحضرة ربنا حضرة كرم ، ولكنّ الله قصّ علينا هذا ليرفع هممنا إليه .

المجموعة الثامنة

وتمتدُّ من الآية (٩٢) إلى نهاية الآية (١٠٦) وهذه هي

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

ملاحظات حول السياق :

١ - لاحظ أن الآية الأولى في هذه المجموعة منتهية بقوله تعالى : ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ وأن آخر آية في المجموعة منتهية بقوله تعالى : ﴿ **إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾ فهذا مما يشير إلى وحدة المجموعة .

٢ - لاحظنا أن المجموعات الخامسة والسادسة والسابعة كل منها قد بديء بكلمة (**ولقد**) ولكن هذه المجموعة تنتهي بكلمة (**ولقد**) وذلك في قوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾ وقد رأينا مثل هذا من قبل ، حيث نرى علامة المقطع قد تأتي في أوله ،

أو في آخره كما رأينا ذلك في سورة النساء بشكل واضح

٣ - مَمّا يؤكّد أنّ المجموعة تنتهي بما ذكرنا مجيء آية بعدها مبدوءة بـ ﴿ **وما** ﴾ وهي قوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ وقد رأينا أنّ مجيء كلمة ﴿ **وما** ﴾ علامة على بداية مجموعة .

٤ - إن الصلة واضحة بين هذه المجموعة وما قبلها ، ومن مظاهر الوضوح أن يأتي قوله تعالى ﴿ **وإنّ هذه أمتكم أمّة واحدة** ﴾ بعد أن قصّ الله علينا قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٥ - من مظاهر ارتباط هذه المجموعة بسياق السورة قوله تعالى : ﴿ **واقترب الوعد الحق** ﴾ لاحظ صلة ذلك بأول آية من السورة ﴿ **اقترب للناس حسابهم** ﴾

٦ - من مظاهر ارتباط المجموعة بمحور السورة من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى من محور السورة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ ولنا عودة على السياق .

التفسير :

﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ أي أن هذه الأمة المتمثلة بجماعة الأنبياء هي أمتكم التي إليها تنتسبون وبها تعتزون ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ أي أنا الذي ربيتكم اختياراً فاعبدوني شكراً وافتخاراً ، أمّتكم هي الأمّة الإسلامية المتمثلة بالرسل عليهم السلام من لدن آدم إلى محمد ﷺ ، والرّب هو الله ﴿ **وتقطعوا** ﴾ أي وتقطع الناس ﴿ **أمرهم** ﴾ أي أمر الأنبياء ﴿ **بينهم** ﴾ فكل أخذ بجزء وقطعة إلا هذه الأمة المسلمة فقد أخذت أمر الأنبياء كله ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ ثم قال تعالىٰ مهدّداً ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أي هؤلاء الذين جهلوا أمر دينهم وساروا فرقاً وأحزاباً ، والآخرون الذين أخذوا أمر الأنبياء كله وهو الإسلام الكامل ، هؤلاء جميعاً راجعون إلينا فنجازيهم على أعمالهم إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر ولهذا قال ﴿ **فمن يعمل من الصالحات** ﴾ شيئاً ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ أي مصدق بما يجب الإيمان به ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أي فإن سعيه مشكور مقبول ﴿ **وإنا له كاتبون** ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء ، والكاتبون هم الحفظة بأمر الله ، والمكتوب هو السعي ، والمكتوب فيه صحائف الأعمال .

كلمة في السياق :

١ - بهذه الآيات الثلاث انتهىٰ الكلام عن الأنبياء عليهم السلام ، فهم أمّة واحدة ومحمد ﷺ واحد منهم ، والله هو الرب ، وانقسام الناس أثر عن الإيمان والكفر ، ونجاة المؤمنين الصالحين بسبب سلوكهم طريق النجاة ، ولقد جاء الكلام عن الأنبياء بعد المجموعة التي بدأت بقوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مُتَّ فهم الخالدون** ﴾ .

ومن ثم فإنّ ذكر مجموعة الأنبياء في هذا السياق فيه إقامة حجة على من تصور أن محمداً ﷺ ليس رسولًا لأنه بشر ، ومجيء الآيات الثلاث بعد ذكر مجموعة الأنبياء يشير إلىٰ أنّ الدّخول في أمّة الأنبياء إنما هو في الدخول في دين محمد ﷺ .

٢ - نلاحظ أنّه قد ورد في المجموعة التي بدايتها قوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مِّتَّ فهم الخالدون** ﴾ ورد قوله تعالى ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ وقد مرّ معنا في قصص الأنبياء كيف أهلك الله قوم لوط وقوم نوح ، والآن يأتي قوله تعالى :

﴿ **وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون** ﴾ يعني أوجب الله وقدّر أنّ أهل كل قرية أهلكوا أنّهم لا يرجعون إلىٰ الدنيا قبل يوم القيامة ، أي انتهى أمرهم ؛ فسارعوا أيّها النّاس إلى الدخول في الإسلام ، ويمكن أن يكون المعنى : وممتنع على مُهْلَك ألّا يرجع إلىٰ الله بالبعث ، أي إن مصير كل قرية أهلكناها البعث ، فليدخل الناس بالإيمان ، وليعملوا عملًا صالحاً لأنهم مبعوثون ، ويمكن أن يكون المعنى : وحرام على قرية قدّرنا إهلاك أهلها ، أو حكمنا بإهلاكهم أن يرجعوا من الكفر إلىٰ الإسلام ، فليحذر الناس أن يستحقوا سخط لله هذا فيهلكوا لا محالة ، فالآية فيها تحذير على كل حال ، ودعوة إلىٰ الدخول في الإسلام والعمل الصالح .

كلمة في السياق :

نلاحظ من الآية السابقة كيف أن الارتباط بين ما ورد قبل ذكر قصص الأنبياء ، وبين آيات هذه المجموعة واضح ، والآن لنلاحظ أنه قبل قصص الأنبياء في السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ولئن**

مسَّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين * ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين ﴾والآن يأتي قوله تعالىٰ :

﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾ على الناس ﴿ **وهم من كل حَدِب** ﴾ أي نشز من الأرض ، أي ارتفاع ﴿ **ينسلون** ﴾ يسرعون في المشي إلى الفساد ﴿ **واقترب الوعد الحق** ﴾ أي يوم القيامة ، فإنّه إذ تفتح يأجوج ومأجوج يكون قد شارف ﴿ **فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا** ﴾ أي مرتفعة الأجفان ، لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه ، وذلك إذا قامت القيامة ﴿ **يا ويلنا** ﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿ **قد كنا في غفلة من هذا** ﴾ في الدنيا ﴿ **بل كنا ظالمين** ﴾ بوضعنا العبادة في غير محلها .

ملاحظة : إذا مستهم نفحة العذاب في الدنيا ﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ وإذا جاء يوم القيامة قالوا ﴿ **يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ ألا ترىٰ الصلة واضحة بين ما ورد قبل قصص الأنبياء ، وبين ما نحن فيه الآن ، وبين بداية السورة ، وبين ما نحن فيه الآن : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ في أول السورة ، وههنا يذكر الله عز وجل موضوع اقتراب يوم القيامة ، وقول الكافرين إذا جاء ﴿ **قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين** ﴾ فهم يعترفون بتقصيرهم حيث لا ينفع التقصير .

وإذ أرجعنا السياق إلىٰ أول السورة فالآن يأتي التهديد للذين ذكر حالهم أول السورة ، وهم المعرضون الغافلون والذين زادتهم السورة توضيحاً بأنهم مشركون فيقول : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله** ﴾ يعني الأصنام وإبليس وأعوانه ، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم ﴿ **حصب جهنم** ﴾ أي حطبها ووقودها ﴿ **أنتم لها واردون** ﴾ أي فيها داخلون ﴿ **لو كان هؤلاء آلهة** ﴾ أي كما زعمتم ﴿ **ما وردوها** ﴾ أي ما دخلوا النار ﴿ **وكلٌّ** ﴾ من العابد والمعبود ﴿ **فيها** ﴾ أي في النار ﴿ **خالدون** ﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿ **لهم** ﴾ أي الكفار ﴿ **فيها زفير** ﴾ أي أنين وبكاء وعويل ﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ شيئاً ما ؛ لأنهم صاروا صمّاً ، وفي السّماع نوع أنس لهم فلم يعطوه .

هذا حال أهل الشقاوة ، فكيف حال أهل السعادة ؟ ﴿ **إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ** ﴾ أي الخصلة المفضّلة وهي السعادة ، أو البشرى بالثواب أو التوفيق للطاعة ﴿ **أولئك عنها** ﴾ أي عن جهنم ﴿ **مُبعدون لا يسمعون حسيسها** ﴾ أي صوتها الذي

يحسُّ أو حركة تلهبها ، أي لا يقربونها حتىٰ لا يسمعوا صوتها وصوت ما يجري فيها ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم** ﴾ ومن النّعيم ﴿ **خالدون** ﴾ أي مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ أي النفحة الأخيرة ﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾ أي تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ أي هذا ثوابكم الذي وعدكم الله به في الدنيا ﴿ **يوم نطوي السماء** ﴾ أي نجمعها ﴿ **كطي السجّل للكتب** ﴾ أي للمكتوبات فيه قال الألوسي : ثم إنّ الظاهر من الأخبار الصحيحة أنّ العرش لا يطوى كما تطوى السماء ﴿ **كما بدأنا أوّل خلق نعيده** ﴾ أي كما أوجدناأول خلق خلقناه نعيد الخلق مرة ثانية ﴿ **وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ أي وعداً منا كائناً لا محالة إنا كنا فاعلين ذلك أي محققين هذا الوعد فاستعدُّوا له ، وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال .

هذا ما أعدّ الله لأهل الإيمان في الآخرة ووعدهم إياه .

وأما ما وعدهم به في الدنيا : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور** ﴾ أي كتاب داود ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ أي بعد التوراة ﴿ **أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ أي من آمن وعمل صالحاً ﴿ **إن في هذا** ﴾ أي القرآن ، أو في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ ﴿ **لبلاغاً** ﴾ أي لكفاية ومنفعة ﴿ **لقوم عابدين** ﴾ أي موحدين .

قال ابن كثير (وهم الذين عبدوا الله بما شرعه ، وأحبّه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم) هذا جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح والعبادة في الدنيا : الاستخلاف .

قال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ (فما هي هذه الوراثة ؟ من هم عباد الله الصالحون ؟ لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها ، وتنميتها وتحريرها واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة ، والبلوغ بها إلى الكمال المقدّر لها في علم الله .

ولقد وضع الله للبشر منهجاً كاملًا متكاملًا للعمل على وفقه في هذه الأرض ، منهجاً يقوم على الإيمان والعمل الصالح . وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصّل هذا المنهج ، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه ، وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته .

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها وهو حده

المقصود . ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ؛ ليبلغ الإنسان كما له المقدّر له في هذه الحياة . فلا ينتكس حيواناً في وسط الحضارة المادية الزاهرة ، ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة .

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفّة وترجح كفة . وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة . وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة وقد يغلب عليها كفار فجّار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالاً ماديا .. ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق . والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين ، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح . فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم .

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ . ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح . وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان .

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح ، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجري سنته : ﴿ **أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ...** ﴾ فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون ...)

كلمة في السياق :

إن الصلة بين هذه المجموعة وبين محور السورة من سورة البقرة وهو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ واضحة ، فقد رأينا صورة عن العذاب المعدّ لهؤلاء ورأينا أن من سبقت له العناية لا يدخل تحت هذا الوعيد :

والآن تأتي المجموعة التاسعة وهي مبدوءة بـ ﴿ **وما** ﴾ وهي تكمل الرّد على ما زعموه في قولهم ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم ...** ﴾ ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ...** ﴾ لتبيّن لهم أن محمداً ﷺ لا كما تصوّروا وتوهّموا . وسنبدأ عرض المجموعة التاسعة مؤخرين ذكر فوائد المجموعة الثامنة إلى ما بعد عرض المجموعة التاسعة .

المجموعة التاسعة

وتمتد من الآية (١٠٧) إلى نهاية الآية (١١٢) وهذه هي

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير :

﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن ابتعوه ، ومن لم يتبع فإنما أوتي من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها . قال النسفي (وقيل هو رحمة للمؤمنين في الدارين وللكافرين في الدنيا بتأخير الاستئصال والمسخ والخسف) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن المجموعات الثمانية ردّت على قول الكافرين كل واحدة منها بشكل يكمّل الآخر . هم قالوا ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون .. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ فجاء الجواب ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** ﴾

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوه** ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

وإذ قامت الحجة عليهم ببطلان ما تصوّروه وردّ ما زعموه فإنّ السياق الآن يأمر رسول الله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل إنما يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون** ﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ، أي أسلموا ، حصر الوحي كله بالتوحيد ووجوب الاستسلام للوحي ﴿ **فإن تولّوا** ﴾ أي فإن تركوا ما دعوتهم إليه ، أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿ **فقل آذنتكم على سواء** ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به مستوين في الإعلام به ولم أخصص بعضكم .

قال النسفي : وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية . ويمكن أن يكون المعنى : فقل أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني ، أي أعلمتكم ببراءتي وبراءتكم مني لعلمي بذلك ﴿ **وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون** ﴾ أي ولا أدري متى يكون يوم القيامة ، لأن الله يطلعني عليه ولكني أعلم بأنه كائن لا محالة ، أو لا أدري متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا ﴿ **إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون** ﴾ في صدوركم من الأحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه ﴿ **وإن أدري لعلّه فتنة لكم** ﴾ أي امتحان ﴿ **ومتاع** ﴾ أي تمتيع ﴿ **إلى حين** ﴾ أي إلى الموت أي وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم ؛ لينظر كيف تعملون وتمتيع لكم إلى الموت ؛ ليكون ذلك حجة عليكم ، وهكذا أمرت هذه المجموعة الرسول ﷺ أن ينذر الإنذار الأخير ، وأن يردّ الردّ النهائي الحاسم .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور سورة الأنبياء من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وقد رأينا في المجموعة الأخيرة كيف أمر الله رسوله ﷺ أن ينذر ، فدل ذلك على أن استواء الإنذار وعدمه في حق الكافرين شيء ، ووجب التبليغ واتخاذ المواقف شيء آخر .

ولم يبق عندنا في المجموعة إلا آية واحدة هي خاتمة هذه السورة وهي قوله تعالى : ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾

﴿ **قال** ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ **رب** ﴾ أي يارب ﴿ **احكم بالحق** ﴾ أي اقض بيننا وبين الكافرين بالعدل ﴿ **وربنا الرحمن** ﴾ أي العاطف على خلقه ﴿ **المستعان** ﴾ أي

المطلوب منه المعونة ﴿ **على ما تصفون** ﴾ أي على ما تقولون وتفترون من الكذب .

قال صاحب الظلال : عند هذه الآية (يتوجه الرسول ﷺ إلى ربه ، وقد أدى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، وآذنهم على سواء ، وحذّرهم بغتة البلاء .. يتوجّه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم ، وهو وحده المستعان .

﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول . فهو الذي أرسله رحمة للعالمين فكذّب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوي الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾

وبعد ذلك جاء قوله تعالى على لسان الرسول ﷺ : ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ ثم لم ترد كلمة (قال) إلا في الآية الأخيرة : ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ وما بين ذلك عرض لتتمة أقوالهم ورد لها لتقوم عليهم الحجة فماذا نفهم من ذلك كله ؟ إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾

جاءت مقدمة السورة لتبيّن حال هؤلاء عند الإنذار مما يدّل على أنهم لا يستفيدون منه . ثم جاءت الآية المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **قال** ﴾ ثم سار السياق حتى آخر آية وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **قال** ﴾ مما يشير إلى : أنه مع هذا النوع من الكافرين علينا أن نقول شيئين : ﴿ **ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ ﴿ **رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ هذا هو الموقف المكافىء لوضع هذا النوع من الكافرين .

ولكن ما بين القولين ردّ وإقامة حجة ، مِمّا يدّل على أنه حتىٰ مع الذين علمنا يقيناً

أنه لا فائدة من إنذارهم لابد من إقامة الحجة عليهم ، وتحطيم كل شبهة يطرحونها وتبليغهم

والآن لاحظ أنه قد جاء في أول السورة قوله تعالى : ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ وها نحن نجد قبل الآية الأخيرة بآية قوله تعالى : ﴿ **إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون** .... ﴾ فالصلة بين ما ورد في أوائل السورة وبين آخرها صلة واضحة ، فالإنذار الأخير المبدوء بقوله تعالى ﴿ **قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون فإن تولوا** ... ﴾ إن هذا الإنذار هو الحصيلة النهائية التي تأتي كنتيجة لكل ما سبق .

ملاحظة : رأينا أن كلمة ﴿ **قال** ﴾ الواردة على لسان الرسول ﷺ تكررت مرتين والذي نحب أن نذكّر به أنها كذلك على قراءة حفص التي مدار هذا التفسير عليها ، إلا أنّها في قراءات أخرى آتية بلفظ ﴿ **قل** ﴾ فلوا أننا ألزمنا أنفسنا بتفسير تلك القراءات لكان للسياق توجيهاته الأخرى ، وعندئذ فالأمر لا يتناهى منه العجب ، ولنا عودة على هذا الموضوع

فوائد حول آيات المجموعتين الثامنة والتاسعة :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات أمهاتنا شتى وديننا واحد » وفي مقدمة كتاب الإسلام من سلسلة الأصول الثلاثة بيّنا كيف أن كل رسول بعث بالإسلام ، وأن رسالات الرسل كلها تتفق في الأصول ، وتختلف أحياناً في بعض الفروع ، وفي الفصل الثالث من كتاب (الإسلام) تحدثنا عن كون الأمة الإسلامية أمة واحدة في كل شيء ومن ذلك تاريخها إذ أن كل رسول لله هو من هذه الأمّة وإليه تنتسب هذه الأمة .

٢ - ذكرنا ماذا تعني آية ﴿ **وتقطّعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون** ﴾ وأنها تعني : أن الكافرين تقطعوا أمر الأنبياء فيما بينهم بينما أمر الأنبياء واحد ، وقد تجمّع أمر الأنبياء كله في محمد ﷺ قال تعالى ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ وتجمع كل هدي الأنبياء في القرآن . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾ وكان رسول الله ﷺ خُلُقه القرآن ، فما لم يأخذ الإنسان القرآن كله ، وما يقتد اقتداءً كاملاً برسول الله فإنه لا يكون قد أخذ أمر الأنبياء كله .

٣ - رأينا أن السورة بدأت بقوله تعالى ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وقبيل نهاية السورة جاء قوله تعالى ﴿ **حتىٰ إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين** ﴾ وإذن ففي أواخر السورة كان حديث عن علامة من علامات الساعة ، وهي خروج يأجوج ومأجوج ، والذي نحب أن نذكره هنا بهذه المناسبة :

أ - خروج يأجوج ومأجوج الذي هو علامة على قيام الساعة وهو خروجهم زمن نزول المسيح عليه السلام ، ومجيئهم إلىٰ بلاد الشام وقتذاك ، وإنزال الله بهم عذاب الاستئصال في هذه البلاد .

ب - فهم الكثير أن قوله تعالىٰ ﴿ **حتىٰ إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾ أن المراد بكلمة ﴿ **فتحت** ﴾ الانهدام الحسي للسد الذي بناه ذو القرنين واللفظ القرآني يحتمل هذا المعنىٰ ويحتمل غيره ، وإذ رأينا في عصرنا أنه لا يحول بين الناس الذين هم مظنة أن يكونوا يأجوج ومأجوج سدّ ، تعين أن نحمل كلمة ﴿ **فتحت** ﴾ على معناها الآخر ، وهي انفتاح هؤلاء الناس على العالم ، واجتياحهم له ، وخاصة أرض الشام ، حيث يكون هلاكهم ، والذي يرجح هذا المعنىٰ أنه ليس في كل الأحاديث التي رويت في شأنهم ما يشير إلىٰ أن خروجهم ذلك مرتبط بانهدام السد الحسي فمثلاً خذ مجموعة الأحاديث التي ذكرها ابن كثير في هذا المقام والتي سننقلها لك تجد التعابير الآتية : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس   فأوحىٰ الله إلىٰ عيسى ابن مريم عليه السلام أني أخرجت عباداً من عبادي لايدان لأحد بقتالهم » « فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ... »

فأنت ترىٰ أن هذه الألفاظ لا تفيد أن خروجهم له علاقة بانهدام سد حسي ، إن يأجوج ومأجوج كما قال ابن كثير : (من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث أي أبي الترك ، والترك شرذمة منهم تُركوا مِنْ وراء السد الذي بناه ذو القرنين) وفي حديث رواه الإمام أحمد سننقله في الفائدة المقبلة يصفهم عليه الصلاة والسلام « عراض الوجوه ، صغار العيون ، صهب الشعاف ، من كل حدب ينسلون كأنّ وجوههم المجانّ المطرقة » .

إن هذه الصفات لا يخطىء أحد صفات أصحابها من شرق آسيا ، وليس شرق آسيا محجوباً عن غربها بسد حسي حالياً ، وإذن فقوله تعالىٰ ﴿ **حتىٰ إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾ يحتمل فتحهم على العالم ، أو يحتمل حالة أخرىٰ تسبق خروجهم ، وهي علامة عليه ، وهي أن يسيطر المسلمون عليهم ، وتفتح بلادهم للمسلمين ، عندئذ تكون الساعة قد قربت ، فإذا أعقب ذلك ردّة فعل عندهم ، يخرجون بها على المسلمين ، ويدمّرون بلادهم حتىٰ يصلوا إلى الشام ، حيث يفنيهم الله ، فإنّ الساعة وقتذاك تكون دانية جداً ، وعلى كل الأحوال فإنّ التحديد الكامل لمعنىٰ ﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ يكاد يكون متعذراً في عصرنا ، ومن ثم فلنعتبر هذا الموضوع في بعض جوانبه قضية غيبية (الله أعلم بها) نؤمن بكل ما ورد فيها ونترك التعيين والتحديد ، ونحب هنا أن نشير إلى أن الشيء الوحيد الذي ذكره ابن كثير مما يفهم منه أن الآية مرتبطة بالفتح الحسي لسد مادي هو كلام مروي عن كعب الأحبار ، خلط به كعب بين ما هو من كلام رسولنا عليه الصلاة والسلام وبين غيره ، ومع أن ابن كثير يثني على كلامه هذا فإننا لا نعطيه إلا ما نعطي بقية كلامه إذا لم يكن له أصل من كتاب أو سنة ، فقد دخل بسبب الثقة بكلام كعب - ولا اعتراض لنا على الثقة بشخصه - لقد دخل بسبب كلامه على كتبنا الطامات .

٤ - قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة حفظة الله ورعاه : (ويأجوج ومأجوج كلّ واحد من هذين اللفظين اسم لقبيل ، وأمة من الناس ، مسكنهم في أقصى الشرق .. قال العلاّمة جمال الدين القاسمي رحمه الله في تفسيره (محاسن التأويل) عند ذكرهم في سورة الكهف ١١ : ٤١١٦ : قال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز المعروف عند العرب بجبل قاف في إقليم داغستان : قبيلتان تسمّى إحداهما : (**آقوق**) والثانية (**ما قوق**) فعرّبها العرب باسم يأجوج ومأجوج ، وهما معروفان عند كثير من الأمم ، وورد ذكرهما في كتب أهل الكتاب ، ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق في روسيا وآسيا .

أقول : ممّا ذكر في كتب أهل الكتاب عن يأجوج ومأجوج ما ورد في كتاب حزقيال في الإصحاح الثامن والثلاثين والإصحاح التاسع والثلاثين ومن ذلك (لذلك تنبأ يا ابن آدم وقل لجوج ...)(وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدّس فيك

أمام أعينهم يأجوج ... ويكون في ذلك اليوم يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل ... ها أنذا عليك يأجوج رئيس روش ما شك وتوبال) وفى هذا السفر كلام واضح عن مجيء يأجوج ومأجوج إلى فلسطين وما يحدث لهم من إقامة .

٥ - بمناسبة ذكر يأجوج ومأجوج في هذه السورة يذكر ابن كثير خمسة أحاديث هذه هي :

أ - روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل ﴿ **وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمّون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتىٰ إن بعضهم ليمر بالنّهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً ، حتى إن من بعدهم ليمرّ بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال ثمّ يهزّ أحدهم حربته ثم يرمي بها إلىٰ السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كَنَغَف الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتىٰ لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ، قال : فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتىٰ بعضهم على بعض ، فينادي يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون رعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » .

ب - روى الإمام أحمد ... عن النواس بن سمعان الكلابي قال ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم ، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وإنه شاب جعد قطط عينه طافية ، وإنّه يخرج خلّة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وشمالًا ، يا عباد الله اثبتوا ، قلنا : يا رسول الله ما لبثه في الأرض ؟ - قال « أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسنة

أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال : « لا ، أقدروا له قدره قلنا : يا رسول الله فما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، قال فيمرّ بالحي فيدعوهم فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذري وأمدّه خواصر وأسبغه ضروعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل - قال - ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لدّ الشرقي - قال - فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام : أنيّ قد أخرجت عباداً من عبادي لايدان لك بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج ، كما قال تعالى ﴿ **وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ فيرغب وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

جـ - روى الإمام أحمد ... عن ابن حرملة عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال « إنكم تقولون لا عدو لكم ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون ، صهب الشعاف من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجانّ المطرقة » .

د - روى الإمام احمد ... عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام - قال - فتذاكروا أمر الساعة ، فردّوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لي بها ، فردّوا أمرهم إلى موسى فقال ؛ لا علم لي بها ، فردّوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إليّ ربي أن الدجال خارج ، ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرّصاص ، قال فيهلكه الله ، إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إنّ تحتي كافراً فتعال فاقتله ، قال فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، ولا يأتون

على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال ثم يرجع الناس إلى أوطانهم يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتىٰ تجوىٰ الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتىٰ يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متىٰ تفجؤهم بولدها ليلًا أو نهاراً »

هـ - أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد قال« قال رسول الله ﷺ ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »

٦ - هناك اتجاهان في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ أولئك عنها مبعدون** ﴾ الاتجاه الأول : أنها في أمثال المسيح وعزير ممن عُبِد من دون الله وهو لا يرضى بذلك . والاتجاه الثاني : أنها في كل مؤمن والمسيح وعزير من أسياد المؤمنين ، ويشهد لذلك قول علي « أنا منهم وعمر منهم ... » - كما سنرى - والذي أقوله : إنّ الآية عامة ويدخل فيها من باب أولى المسيح وعزير ، فليس بين القولين تعارض بحيث يلغي أحد القولين الآخر .

أخرج ابن أبي حاتم ... عن النعمان بن بشير قال وسمر مع علي ذات ليلة فقرأ ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ أولئك عنها مبعدون** ﴾ قال : أنا منهم وعمر منهم ، وعثمان منهم ، والزبير منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم ، أو قال سعد منهم ، قال وأقيمت الصلاة ، فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ .

قال ابن كثير : وذكر بعضهم قصة ابن الزبعرىٰ ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردويه ... عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن الزبعرىٰ إلى النبي ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ فقال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس ، والقمر ، والملائكة ، وعزير ، وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟ فنزلت ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلًا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلًا بل هم قوم خصمون** ﴾ ثم نزلت ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ أولئك عنها مبعدون** ﴾ .

٧ - بمناسبة قوله تعالىٰ : ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ أقول :

أ - يروي بعضهم حديثاً موضوعاً يزعم فيه أن السجّل اسم لكاتب كان يكتب

لرسول الله ﷺ ، قال ابن كثير (وقد صرّح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان في سنن أبي داود) .

ب – اختلفت عبارات المفسرين في تفسير السجل ، وظاهر اللفظ أن السجل شيء يوضع فيه كتب ، ثم يطوىٰ عليها فتنطوى به وهذا من أوضح الواضحات من السياق .

٨ – قوله تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ يعطينا معنى ، وكونه آتياً بعد قوله تعالىٰ ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السّجل للكتب** ﴾ يعطينا معنىً أوسع .

أ – فمما يعطينا قوله تعالىٰ ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ منفصلًا ، هو ما علّمنا إيّاه رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجاه في الصحيحين وهو إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلًا ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾

ب – وأما ما يعطينا إياه هذا القول ، من حيث كونه آتياً بعد قوله تعالىٰ :﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ فهو أن هذه السمٰوات والأرض كانتا في الأصل شيئاً واحداً ، ثم حدث الفصل كما قال تعالىٰ في نفس السورة ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** ﴾ وفي هذه الآية يذكر الله عز وجل أنه سيعيد السمٰوات والأرض شيئاً واحداً كما كانتا قبل الفصل ، وقد ذكر ابن كثير عن هذه الآية ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : (يطوي الله السمٰوات السبع بما فيها من الخليقة ، والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه ، يكون ذلك كله في يده بمنزلة الخردلة)

وبهذه المناسبة نشير إلىٰ مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن نذكره بفائدة مستقلة هي الآتية

٩ – وصف الله كتابه بقوله تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ من هذا النصّ نفهم أنّ القرآن يصدّق بعضه بعضاً ، ولا يتناقض ، وهذا شيء واضح لكل من تأمّل كتاب الله وفهمه ولكن في هذا القرآن من الدقائق ما لو تأمّلها الإنسان لكفته وحدها لإدراك أن هذا القرآن من عند الله .

خذ مثلًا ما نحن بصدده :

جاء في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** ﴾ وجاء فيها ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ وفي سورة الزمر ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالىٰ عما يشركون** ﴾ إنك عندما تتأمل هذه الآيات الثلاث ، وكيف أنها تخدم بعضها ، لتؤدي معنىً معيناً في قضية لا تخطر ببال البشر أصلًا ، لا من حيث الابتداء ، ولا من الانتهاء ، تدرك هذا المظهر من مظاهر الإعجاز .

وخذ مثلًا آخر :

في هذه السورة ورد قوله تعالىٰ عن يونس ﴿ **فنادىٰ في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ ...** ﴾ وفي سورة الصافات ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ عندما تتأمل النّصين ، وهما في سورتين متباعدتين ، وكيف أن أحدهما يخدم الآخر ، والآخر يبني عليه ، فإنك تدرك أن مثل هذه الدقة لا يمكن أن تكون إلا إذا كان هذا الكتاب أثر علم الله المحيط ، فيا أرحم الراحمين زدنا إيماناً ويقيناً وتصديقاً ، وأمتنا على الإسلام واحشرنا عليه وأدخلنا الجنة مع السابقين

١٠ - هناك خلاف بين المفسرين حول المراد (بالزبور) في قوله تعالىٰ ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ وهناك خلاف حول المراد بالذكر في الآية نفسها وقد ذكرنا في صلب التفسير ما نعتمده في هذه القضايا وههنا نفصّل :

- اعتمدنا في تفسير الزّبور والذكر ما نسبه ابن كثير لابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد وهو : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة ، فيكون المعنى : ولقد كتبنا في الزبور الذي أنزل على داود من بعد التوراة أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، وهل التقدير : ولقد كتبنا هذا قبل ذلك في التوراة ، فيكون المعنى ولقد كتبنا في الزبور من بعد ما كتبنا في التوراة ، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، أو التقدير : ولقد كتبنا في الزبور المنزّل بعد التوراة أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ؟ فعلى هذا لا يكون مكتوباً في التوراة هذه البشارة ، الراجح عندي أن هذه البشارة

مكتوبة في التوراة والزبور .

قال ابن كثير : (وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه وتعالىٰ في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السمٰوات والأرض ، أن يورّث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون)

ولقد رجعت إلىٰ ما يسمّونه (المزامير) فوجدت : في المزمور السابع والثلاثين لداود (والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض ... أما الدعاة فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلامة) (لأن المباركين منه يرثون الأرض) (الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد) والظاهر من كلام ابن عباس أن المراد بالأرض أرضنا ، وأن هذه عدة من الله وبشارة لهذه الأمة ، وعلى هذا تكون الآية مبشّرة لهذه الأمة بإرث العالم كله وهو شيء سيأتي إن شاء الله ، وتكون الآية تشبه قوله تعالى ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ واقرأ ما ذكرناه عن هذه الآية ، واقرأ ما كتبناه في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) حول هذا الموضوع وهو يفيد أن في الآية والأحاديث التي تفصّلها أن دولة الإسلام العالمية لابد قائمة وأن ذلك سيكون قبل نزول المسيح ، لا كما يفهم بعضهم ، وعند تحقق ذلك يكون زمن الإرث .

وللنسفي اتجاه في تفسير (الأرض) في الآية وأن المراد بها أرض الشام وكأنه أخذها من كون التوراة بشّرت بني إسرائيل بالشام عندما يكونون صالحين ، والزبور خطاب لبني إسرائيل في أرض الشام ، وكون الرسول عليه الصلاة والسلام تحدث كثيراً عن الشام ، وأنها أرض الإسلام إلىٰ قيام الساعة ، وذلك وجه قوي ، ويكون في الآية بشارة لمسلمي الشام في كل العصور أنهم إذا كانوا صالحين فالأرض هم ، وإن فسدوا سلط عليهم ، والمراد بالشام هنا الشام الكبيرة ، أي سوريا وفلسطين ولبنان والأردن في تقسيمات يومنا هذا وبناءً على هذا القول نقول :

أ – إن ميزان الخيرية في المسلمين في العالم هو الشام لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم » ومن ثم فالعمل للإسلام في بلاد الشام خدمة للمسلمين والإسلام في الأرض كلها .

ب – لله تعالى في أهل الشام سنة وهي أنّ من حمل دينه فيه بصدق فإنّ الله يرعاه

رعاية خاصة ، نأخذ ذلك من الحديث « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » إذ في رواية صحيحة عن معاذ « وهم في الشام » فليثق العاملون في هذه الأرض بربهم ، وليضاعفوا جهودهم

جـ - من فهم النسفي للآية ، ومن نصوص تصلح مؤكّدة لهذا الفهم فإن الآية تبشّر من اجتمعت له صفة الصلاح أن يرث الشام ، وعلى هذا فمتىٰ قامت جماعة لها هذه السمة فلها هذه البلاد ولنعد إلى أصل الموضوع .

فبعد الآية السابقة جاء قوله تعالى ﴿ **إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾ فهل اسم الإشارة(**هذا**) يعود على ما ورد في الآية السابقة من البشارة أو يعود على القرآن كله ؟ اتجاهان . ونفهم من ذلك أنّ الاتصاف بالعبادة شرط للاكتفاء بكتاب الله ، أو شرط تحقق البشارة فلن يرث المسلمون الأرض كلها ، أو بلاد الشام منها ، إلا بالعبادة ، ولن يجد إنسان في القرآن كفاية له عن سواه إلا إذا كان عابداً .

١١ - مظاهر كون رسولنا عليه الصلاة السلام رحمة للعالمين كثيرة منها :
أن الله رفع عذاب الاستئصال الكلي للكافرين بعده مع أن الكافرين أمة الدعوة له ، ومنها أن الله جعل في دينه سعادة الدنيا لمن أقامه ، لما في هذا الدين من سعة ويسر وحق وعدل وخلاص من المشكلات والقلق والحيرة والاضطراب ، وجعل فيه سعادة الآخرة

ومما ذكره ابن كثير عند هذه الآية : وقال مسلم في صحيحه ... عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله : ادع على المشركين قال « إني لم أبعث لعّاناً وإنمّا بعثت رحمة » وفي الحديث الآخر « وإنما أنا رحمة مهداة » ..

وروى أبو القاسم الطبراني .. عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة يامعشر قريش إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرُّوا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين ، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة - يعني الأوس والخزرج- فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم ، والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً ، ولا أصدق موعداً ، من أخيكم الذي طردتم ، وإذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث :

كونوا أشد ما كنتم عليه ، إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمة ، وإن أطمعتموني ألجأتموهم حير كنانة ، أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم ، فيكون وحيداً مطروداً ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء ، وأكفيكم حدّهم وقال :

سأمنح جانباً مني غليظاً على ما كان من قرب وبعد
رجال الخزرجية أهل ذلٍ إذا ما كان هزل بعد جد

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده لأقتلنهم ، ولأصلبنهم ، ولأهدينهم وهم كارهون ، إني رحمة ، بعثني الله ، ولا يتوفاني حتي يظهر الله دينه ، لي خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً . وروى الإمام أحمد ...عن عمر بن أبي قرّة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ ، فجاء حذيفة إلى سلمان ، فقال سلمان : يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال : « أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم ، أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين ، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة » . ورواه أبو داود ... فإن قيل فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير ... عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة . ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف وهكذا رواه ابن أبي حاتم وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف .

١٢ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمٰن المستعان على ما تصفون** ﴾ قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك وعن مالك عن زيد ابن أسلم كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿ **رب احكم بالحق** ... ﴾ .

كلمة في سورة الأنبياء :

رأينا أن محور سورة الأنبياء هو قوله تعالىٰ من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم عليهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾

وهناك تساءلنا من هؤلاء الكافرون الذين هذا شأنهم ؟ وسبب السؤال أن هناك كافرين أسلموا ، وأجبنا هناك على هذا السؤال

وتأتي هنا سورة الأنبياء لتبيّن لنا من هؤلاء الكافرون الذين هذا شأنهم : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوىٰ الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ... بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ إن من اجتمعت فيه هذه الصفات لا يمكن أن يؤمن ، فإذا نقص واحد منها فربما ، فلو كان عنده استعداد للسماع ، أو لم يكن ممّن يتآمر على الإسلام ، أو كان ممّن لا يجهر بالسوء في الرّسول والقرآن كل هؤلاء يمكن أن يؤمنوا ، وإذا كان اجتماع هذه المعاني غيباً فإن الإنذار لابد منه ، وإقامة الحجة لابد منها ، ومن ثمّ لاحظنا أنّ السورة ردّت وأنذرت الإنذار الكافي ؛ ليؤمن من كان في قلبه شيء من الخير ، ومن ثّم فإنّ ملاحظة ما ورد في السورة مهم جداً ، في خطاب الكافرين عامة لاستخراج ما في قلوبهم من خير ، أما النوع الآخر الذي لا فائدة منه بتاتاً فهذا أدبنا فيه آيتان في السورة : ﴿ **قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾

والسورة إذ فصّلت هذا المقام فإنّها فصّلت كذلك كيف يكون عليه حال النذيربما قصّ الله من قوله ، ومن خلال ذكر الأنبياء ، كما ثبّتت السورة قلب النذير بالكلمة والقصة والبشارة والعبرة وجنّبته مزالق الطريق التي يمكن أن يقع فيها ، كما حدث من يونس عليه السلام ، وفي السورة لأهل الإيمان إنذاريحررهم من أخلاق الكفر وسلبياته ، ويرفعهم إلى أخلاق الإيمان وإيجابياته وقد عرضنا السورة كما رأيت على أنها مقدمة ومجموعات

وأهم ما نلفت النظر إليه في السورة أنّ قوله تعالى : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ هو تلخيص لكل ما يقوله الكفار في كل الأعصار في هذا الدين وفي رسوله ﷺ وأن السورة ردّت على هذه الأقوال كلها ، وإنما لفتنا النظر إلىٰ هذا واعتبرناه من أهم ما نلفت النظر إليه ، لأنه لم يقل الكافرون في كل العصور كما قال الكافرون في عصرنا من زخرف قول عرضوه بملايين الصيغ والأشكال ، في القصة والقصيدة والبحث والخطابة والمحاضرة والكتاب العلمي ولكن كل ما قالوه مرجعه إلى ما قاله الكافرون من قبل وهو ما قصّه الله علينا في هذه السورة باختصار وبوضوح ، لقد زعم هؤلاء أنّ قضية النبوة والرسالة تخيلات ومرائي منامية وأنّ محمداً ﷺ كاذب يفتري على الله ما لم يقله ، وأنّ محمداً ﷺ إنسان بليغ شاعري العواطف ، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وعظم رسول الله ﷺ عما يقوله الجاحدون .

إن في هذه السورة دروساً كبيرة لمن يقوم بعملية الإنذار في عصرنا ، وفيها قوله تعالى ﴿ **رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ .

ملاحظتان :

١ - إنّ الذي يقرأ هذا التفسير يلاحظ أننا نعتمد على علامات معيّنة في تحديد بدايات ونهايات المجموعات أو المقاطع أو الفقرات ، فمثلًا رأينا في سورة الأنبياء أنّ من علامات بداية المجموعة مجيء كلمة (**ما**) أو (**وما**) كما رأينا أن كلمة (**ولقد**) كانت علامة على بدايات بعض المجموعات ، أو نهايتها ، غير أنّه في بعض الحالات تصلح أن تكون علامة أخرى في السورة ، عَلَماً على بداية مجموعة أو نهايتها ، ولو أننا اعتمدنا هذه العلامة فإن السياق في هذه الحالة يعطينا معاني جديدة ، غير أننا أضربنا عن الاستقصاء في هذه الشؤون لأن ذلك يمل الكثيرين من القراء ، ويصعب على الكثيرين استيعابه ، وقد ألزمنا أنفسنا - كأصل في هذا التفسير - ألا نخرج عن قراءة حفص ، ولو أننا تتبعنا القراءات كلها ، وذكرنا ما تعطينا إياه هذه القراءات من معان جديدة وما يؤثره ذكرها على عرض معان جديدة في السياق ، لترتب على ذلك أن يكبر هذا التفسير جداً ، وأن يغمض كذلك ، ولذلك لم نتوسّع هذه التّوسعات ، ولكن أحببنا أن نشير إلى ذلك إشارة ليعلم أن آفاق المعاني في هذا القرآن لا تتناهى ، وأن مظاهر الإعجاز ، وكثرة المعجزات فيه لا تتناهى .

٢ - في كتابنا (الرّسول) ﷺ عرضنا سورة الأنبياء على أنّها مقدمة وسبع مقاطع ، وهنا عرضناها على أنّها مقدمة وتسع مجموعات ، هناك عبّرنا عن المجموعة باسم المقطع ، ودمجنا ثلاث مجموعات مع بعضها : هي المجموعات السادسة ، والسابعة والثامنة ، على اعتبار أنها حديث عن الرّسل وتعقيب ، لكننا هنا فَصَلنا بين هذه المجموعات لسهولة العرض فالفارق في الاصطلاح فقط وليس في المضمون .



سورة الحج

وهي السورة الثانية والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الثالثة من قسم
المئين ، وآياتها ثمان وسبعون
آية ، وهي مكية إلا
آيات منها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في تقديمه لسورة الحج :

(أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير – رضي الله تعالى عنهم – أنها نزلت بالمدينة ، وهو قول الضحاك ، وقيل كلها مكية . وأخرج أبو جعفر النحاس عن مجاهد عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات ﴿ **هذان خصمان** ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث فإنها نزلت بالمدينة ، وفي رواية عن ابن عباس إلا أربع آيات ﴿ **هذان خصمان** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **عذاب الحريق** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة أنها مدنية غير أربع آيات ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول** ﴾ إلى ﴿ **عذاب يوم عقيم** ﴾ فإنها مكيات ، والأصح القول بأنها مختلطة ، فيها مدني ومكّي ، وإن اختلف في التعيين وهو قول الجمهور ، وعدة آياتها ثمان وسبعون في الكوفي ، وسبع وسبعون في المكي ، وخمس وسبعون في البصري ، وأربع وسبعون في الشامي . ووجه مناسبتها للسورة التي قبلها ظاهر ، وجاء في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود . والترمذي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله أفضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال :« نعم فمن لم يسجدهمافلا يقرأهما » ، والروايات في أن فيها سجدتين متعددة مذكورة في الدر المنثور ، نعم أخرج ابن أبي شيبة من طريق العريان المجاشعي عن ابن عباس قال : في الحج سجدة واحدة وهي الأولى كما جاء في رواية) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة الحج :

(هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية ، كما يبدو من دلالة آياتها ، وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال . وآيات العقاب بالمثل . فهي مدنية قطعاً . فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة ، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله ﷺ حين بايعه أهل يثرب ، وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم : « إني لم أومر بهذا » حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدّفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين) .

كلمة في سورة الحج ومحورها :

سورة الحج تفصّل قوله تعالىٰ في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ فهي مثل سورة النساء ، ومثل سورة هود ، إلا أن سورة النساء حددت معالم التقوى ، وسورة هود حددت معالم العبادة ، وسورة الحج تهيّج على التقوى وتبعث عليها :

لاحظ بداية سورة النساء : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ .

ولاحظ بداية سورة الحج : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ وكما تهيّج سورة الحج على التقوى فإنها تدل على منعرجات الطريق ومزالقه ، وعلى الصوارف ، وأمثال ذلك مما سنراه .

كما لاحظ أنه في القسم الأول الذي هو السبع الطوال لم يرد معنا إلا سورة واحدة مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ وهي سورة النساء .

وأن في القسم الثاني الذي هو الثلث الثاني من القرآن بمجموعاته الثلاث لم ترد إلا هذه السورة مبدوءة بهذا الخطاب ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ ومن ثم فإن التأمل الدقيق لمعاني هذه السورة مُهِم في موضوع بناء التقوى ، كما أن التأمّل الدقيق في سورة النساء في القسم الأول مُهِم في الموضوع نفسه .

....

نلاحظ أن السورة تتكرر فيها ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ أربع مرات : في الآية الأولى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ وفي الآية الخامسة ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ...** ﴾ وفي الآية (٤٩) ﴿ **قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين** ﴾ وفي الآية (٧٣) ﴿ **يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ..** ﴾

ونلاحظ أن الآيتين الأخيرتين هما :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده .. ﴾ .

لاحظ الصلة بين ذلك ومحور السورة :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ من خلال ورود الأمر بالعبادة في آية البقرة ، وكلمة العبادة في الآيتين الأخيرتين من سورة الحج .

....

ونحن في عرضنا لسورة الحج سنعتبر أن ورود كلمة (يا أيها الناس) هي العلامة على بداية المقطع ، ومن ثم فعندنا في السورة أربعة مقاطع .

ونلاحظ أن المقطع الثاني والثالث طويلان ، ومن ثم فسنعرضهما كمجموعات ، فلنبدأ :

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

وهو أربع آيات وهذا هو مع البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ بالتزامكم بما يوصل إلى التقوى ، وبالعمل بمقتضاها ، وبالتحقق بمضمونها ، فالتقوى ملَكَة في النفس تنبع عنها آثار ، وهي أثر عن أعمال ، والأمر بالتقوى أمر بذلك كله ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ الزلزلة في اللغة : شدة التحريك والإزعاج ، واختلف المفسرون في زلزلة الساعة هذه ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ أو غير ذلك ؟ على أقوال سنراها في الفوائد ، والعظة حاصلة في الآيات أي ذلك كان ، إذ الآية أمرت بني آدم بالتقوى ثم علّلت لضرورة إقامتها وللزوم ذلك بذكر الساعة ، ووصفها بأهول صفة ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ وصف الله عزّ وجلّ زلزلة الساعة هذا الوصف لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ، ويتصورها

بعقولهم ، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم ، من الأخذ بلباس التقوى ، الذي يؤمِّنهم من تلك الأفزاع ، إن الساعة أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، بما يحصل للنفوس من الرعب والفزع ، قال تعالى واصفاً شدة أفزاعها : ﴿ **يوم ترونها** ﴾ أي يوم ترون الزلزلة أو الساعة ﴿ **تذهل** ﴾ أي تغفل من فظاعة الأمر ، ومن شدّة الدهشة ﴿ **كل مرضعة عمَّا أرضعت** ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، وعمّن هي أشفق الناس عليه ، ألا وهو رضيعها ، إنّها تدهش عنه في حال إرضاعها ، وقوله تعالى ﴿ **مرضعة** ﴾ يشير إلى أنّ ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه ، لما يلحقها من الدهشة ، فالمرضعة هي التي تمارس الإرضاع ﴿ **وتضع كل ذات حمل** ﴾ أي كل حبلىٰ ﴿ **حملها** ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ، قال الحسن البصري : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل مافي بطنها لغير تمام ﴿ **وترىٰ** ﴾ أي الناظر ﴿ **الناس سكارى** ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه ، قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارىٰ ﴿ **وماهم بسكارىٰ** ﴾ على التحقيق ﴿ **ولكنّ عذاب الله شديد** ﴾ فخوْف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ، وبعد أن أمر الله بالتقوىٰ ، وعلّل لهذا الأمر ، وهيّج عليه ، يذكر الآن الصارف الرئيسي عنها ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** ﴾ أي علم صحيح كحال أهل البدع والضلال ، المعرضين عن الحق ، المتّبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتّبعون أقوال رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى الكفر والبدع بالأهواء والآراء ﴿ **ويتّبع كل شيطان مريد** ﴾ أي عاتٍ مستمر في الشر ﴿ **كُتِب عليه** ﴾ أي قضي على الشيطان ﴿ **أنه** ﴾ أي أن الأمر والشأن ﴿ **من تولّاه** ﴾ أي اتبعه وقلّده ﴿ **فأنه يضله** ﴾ أي فإن الشيطان يضله عن سواء السبيل ﴿ **ويهديه إلىٰ عذاب السعير** ﴾ أي إلى النار والمعنىٰ : كُتب على الشيطان إضلال من تولّاه وهدايته إلى النار . والسعير : هو الحارّ المؤلم المقلق المزعج .

كلمة في السياق :

أمرت الآيات بالتقوى ، وعلّلت لضرورة إقامتها ، وذكرت مايصرف الناس عنها ، وهو الجهل في الله واتّباع الشيطان ، والذي دلّنا على أن الجهل في الله هو الصارف هو قوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** ﴾ دلّ ذلك على أن هذا المجادل جاهل في

الله ، وأن من آثار هذا الجهل اتّباع الشيطان في طرق الضلال ، الموصلة إلى النار ، فإذا تذكّرنا محور السورة من البقرة وهو ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ عرفنا أنه لا تقوى إلا بعبادة ، ولا عبادة إلا بمعرفة صحيحة لله ، وعلم صحيح به جلّ جلاله ، فمن لم يعرف أسماءه وصفاته وأفعاله ومن يعرف أن الأمر له ، وأن له الحكم وأن له الطاعة ، وأن شرعه واجب الاتّباع ، وأنه وحده الذي يُخاف ، ويستعان ويدعىٰ ، ويُتوكّل عليه ، وغير ذلك مِمّا هو من حقوقه جلّ جلاله ، إن من لم يعرف الله حقّ المعرفة لا يعبده حق العبادة ، وبالتالي فلا يتحقق بالتقوى ، وبالتالي فإنه يكون متبعاً للشيطان ، وعلى هذا فما من نقص في التقوى إلا وسببه نقص في معرفة الله عز وجل .

الفوائد :

- ما المراد بزلزلة الساعة ؟ هل المراد بها زلزلة حسية أو زلزلة نفسية بسبب موقف من مواقف الهول ؟ وهل هذا قبل يوم القيامة أو في مشهد من مشاهد يوم القيامة وإذا كان في مشهد من مشاهد يوم القيامة فهل يكون في ذلك الموقف نساء حوامل ومرضعات ، أو التقدير أنه لو كان هناك حوامل ومرضعات لحدث مثل هذا لهول الموقف ؟ الخلاف بين المفسرين في هذا المقام كثير ، والذي تقوم عليه الأدلة ما رجّحه ابن جرير ، وقد عرضه ابن كثير ، وهو الذي نختاره :

قال ابن كثير : (وقال آخرون بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيامة من القبور ، واختار ذلك ابن جرير ، واحتجوا بأحاديث:

الحديث الأول : روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تقارب من أصحاب السير : رفع بهاتين الآيتين صوته ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد** ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنّه عند قول يقوله ، فلمّا دنوا حوله قال : « أتدرون أي يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول ياآدم ابعث بعثك إلى النار ، فيقول : يارب وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة » قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة فلمّا رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا ؛ فوالذي نفس محمد بيده إنّكم

لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثّرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال : فسرّى عنهم ثم قال : « اعملوا وأبشروا ؛ فوالذي نفس محمد بيده ، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير ، أو الرقمة في ذراع الدابّة » .

الحديث الثاني : روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : نزلت ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ وذكر يعني سياق الحسن عن عمران غير أنه قال : ومن هلك من كفرة الجنّ والإنس » .

الحديث الثالث : روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه ، وقال فيه : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » ثم قال : « إني لأرجو أن تكون شطر أهل الجنة ، ففرحوا وزاد أيضاً : « إنما أنتم جزء من ألف جزء » .

الحديث الرابع : ذكر البخاري عند تفسير هذه الآية :عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : « يقول الله تعالىٰ يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك – فينادى بصوت – إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلىٰ النار ، قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف – أراه قال : – تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ﴿ **وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكنّ عذاب الله شديد** ﴾ فشقّ ذلك على الناس حتىٰ تغيّرت وجوههم قال النبي ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة – فكبّرنا ثم قال : – شطر أهل الجنة » فكبّرنا .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً : يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلىٰ النار ، فيقول آدم : يارب من هم ؟ فيقال له : من كل مائة تسعة وتسعون » فقال رجل من القوم : من هذا الناجي منا بعد هذا يارسول الله ؟ قال :« هل تدرون ؟ ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير »

الحديث السادس : روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ « إنكم تحشرون إلىٰ الله يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً » قالت عائشة : يارسول الله

الرجال والنساء ينظر بعضهم إلىٰ بعض ؟ قال : يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك » أخرجاه في الصحيحين .

الحديث السابع : روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة أما عند ثلاث فلا ؛ أما عند الميزان حتىٰ يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطىٰ بيمينه وإما يعطىٰ بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوي عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وُكِّلت بثلاثة ، وُكِّلت بثلاثة ، وُكِّلت بثلاثة : وُكِّلت بمن ادَّعىٰ مع الله إلهاً آخر ، ووُكِّلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووُكِّلت بكل جبار عنيد ، قال : فينطوي عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر ، وأحدُّ من السيف ، عليه كلاليب وحَسَك يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سَلِّم سَلِّم فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكوَّر في النّار على وجهه » .

من هذه النقول نستطيع أن نقول :

١ - إن قوله تعالىٰ ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ يمكن أن يراد به الزلزلة التي بها تقوم الساعة ، ويمكن أن يراد به زلزلة أخرىٰ لها صلة بالساعة ؛ ولقد جاءت النّصوص فحدّدت المعنى الثاني ، وهو أن المراد بهذه الزلزلة ما يحدث للناس في موقف من مواقف الهول يوم القيامة .

٢ ـ إن قوله تعالىٰ ﴿ **تذهل كل مرضعة عَمَّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها** ﴾ يمكن أن يحمل على الظاهر ، فهناك نساء يمُتْنَ وهنّ حوامل ، ونساء يمُتْنَ هنّ وأولادهن الرُضّع في وقت واحد ، فيحشر الجميع على ما ماتوا عليه ، ويمكن أن يكون المعنى على الظاهر في حق الحامل ، وأن كل مرضع تذهل عَمَّن أرضعته في الماضي .

٣ ـ في سبب نزول قوله تعالىٰ ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** ﴾ قال ابن كثير : وقد قال السدي عن أبي مالك : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وكذلك قال ابن جريج : روى ابن أبي حاتم عن أبي كعب المكي : قال : قال خبيث من خبثاء قريش : أخبِرْنا عن ربكم ، من ذهب هو ، أو من فضة هو ، أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعة - والقعقعة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه

ساقط بين يديه ، وقال ليث بن سليم عن مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من درّ ، أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته . أقول : وأيّاً كان سبب النزول فإن العبرة لعموم اللفظ ، ولننتقل إلى المقطع الثاني .

المقطع الثاني

ويمتدُّ من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٤٨) ، وقد اعتمدنا عرضه كمجموعات لطوله ، ولذلك فسنذكر المجموعة وتفسيرها ، ومحلّها في السياق الخاص والعام ، ثمّ ننتقل إلى غيرها حتى ينتهي المقطع .

يتألف المقطع الثاني من سبع مجموعات وها نحن نبدأ بعرض المجموعة الأولى.

المجموعة الأولى

وتمتدُّ من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٧) وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

التفسير :

رأينا في المقطع الأول من السورة أن الصارف الرئيسي عن التقوى هو الجهل بالله

الذي يستتبع اتّباع الشيطان ، ومن آثار الجهل بالله عدم الإيمان باليوم الآخر ، أو الشك فيه ، ومن ثمّ تأتي المجموعة الأولى في المقطع الثاني لتعالج الشك في اليوم الآخر ، وهي إذ تعالج الشك فمن باب أولى أنها تعالج الكفر أصلاً ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب** ﴾ أي شك ﴿ **من البعث** ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب** ﴾ خلق الإنسان من تراب مرّتين : المرّة الأولى يوم خلق آدم ، والمرّة الثانية يوم أن أصبح نطفة وبويضة فإنّه خلق من الغذاء ، وكان الغذاء تراباً ، وماءً وهواءً ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ أي من حيوان منوي ﴿ **ثم من علقة** ﴾ هذا ذكر للمرحلة الثانية من تطور النطفة ﴿ **ثم من مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة** ﴾ وهذا ذكر للمرحلة الثالثة من تطور الجنين ، وهو موضوع سنفصله في الفوائد ﴿ **لنبيّن لكم** ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ، ثم من نطفة ثانياً ولا مناسبة بين التراب والماء ، وقدر أن يجعل النطفة علقة ومضغة ، والعلقة والمضغة عظاماً قادر على إعادة ما بدأه ، والمعنى العام : إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم ، فمن قدر على صنعكم أوّل مرّة كما رأيتم قادر على إعادتكم ﴿ **ونقرُّ في الأرحام ما نشاء** ﴾ أي نحن نثبت في الأرحام ما نشاء ثبوته ، وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ **إلى أجل مسمّى** ﴾ أي وقت الولادة ﴿ **ثم نخرجكم** ﴾ من الرحم ﴿ **طفلاً** ﴾ ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسّه ، وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ، ويحنّن عليه والديه آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال ﴿ **ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ أي ثّم نربّيكم لتبلغوا كمال عقلكم وقوّتكم بتكامل القوىٰ ، والوصول إلىٰ عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿ **ومنكم من يُتوفىٰ** ﴾ عند بلوغ الأشدّ أو قبله أو بعده ﴿ **ومنكم من يردُّ إلى أرذل العُمر** ﴾ أي أخسّه يعني الهرم والخرف .

قال ابن كثير في تفسير أرذل العمر : وهو الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل ، والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال ﴿ **لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً** ﴾ أي لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه ، أو لكيلا يستفيد علماً وينسىٰ ما كان عالماً به . هذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث ؛ فالله الذي قدر أن يخلق الإنسان من تراب ، ثمّ ينقله من حال إلى حال ، لا يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية بعد إذ صار تراباً . والآن يأتي الدليل الثاني :

﴿ **وترى الأرض هامدة** ﴾ أي ميّتة يابسة ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت** ﴾ أي

تحرّكت بالنبات وحييت بعد موتها ﴿ **وربت** ﴾ أي ارتفعت وهذه إحدىٰ ملاحظات علماء القشرة الأرضية المعاصرين : أن الأرض بعد المطر ترتفع وتربو ، وهو موضوع سنراه في الفوائد ﴿ **وأنبتت من كل زوج** ﴾ أي صنف ﴿ **بهيج** ﴾ أي حسن سار للناظرين إليه ، لفت النظر إلى الأرض إذ أنبتت ما فيها من الألوان والفنون ، من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ، ومنافعها من كل صنف حسن المنظر ، يحدث بهجة في النفس ﴿ **ذلك** ﴾ أي الذي ذكرناه من خلق بني آدم من تراب ، وإحياء الأرض بعد موتها ، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحِكَم ﴿ **بأن الله هو الحق** ﴾ أي ذلك حاصل بسبب أنّ الله هو الحقّ ، أي الثابت الوجود ﴿ **وأنه يحيي الموتىٰ وأنه على كل شيء قدير** ﴾ أي ما كان شيء من ذلك يحدث لولا أن الله حق ، وأنه متّصف بصفة إحياء الموتىٰ ، وأنه قادر على كل شيء ، وإذا ثبت من خلال ما مر هذا كله فإن مقتضىٰ اتصاف الله بهذا أن يبعثكم مرة ثانية ، فهو قادر ، وهو يحيي الموتىٰ ، وهو حق ، ومن مقتضىٰ كونه حقاً ألا يخلق عبثاً ، وألا يترك سدى ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها** ﴾ أي إنّ خلقكم من تراب وإحياء الأرض من بعد موتها حكمته أن الساعة آتية لا ريب فيها ، أي لولا أنه قدَّر الساعة ما خلقكم ، ولا خلق ما في الأرض لكم ﴿ **وأن الله يبعث من في القبور** ﴾ أي وإنّ خلقكم من تراب وإحياء الأرض بعد موتها حكمته أنّ الله يبعث من في القبور ، أي لولا الساعة ، ولولا البعث ، ما خلق الله الذي خلق ، وإذن فمن لم يؤمن بالساعة وبالبعث ، فإنّه لم يعرف الله عز وجلّ ، ولم يعرف حكمته في خلق الإنسان ، وأصناف المخلوقات .

☆　☆　☆

كلمة في السياق :

إن التقوىٰ لها طريق هو عبادة الله ، وعبادة الله مرتكزها معرفته الصحيحة ، ومعرفته الصحيحة تقتضي معرفة حكمته في خلق الأشياء ، وذلك يوصلنا إلى الإيمان باليوم الآخر ، وهذه المجموعة دلّت على اليوم الآخر ، ولفتت نظر الإنسان إلى شيئين يذكّران به : خلق الإنسان ، وإحياء الأرض الميتة ، وعرّفتنا بذلك على الله ، ومما عرّفتنا به على الله ، أن الله ما كان ليخلق الخلق لولا الساعة والبعث ، مما يدل على أن الساعة والبعث تقتضيهما الحكمة ، ومن ظن أنّه لا ساعة ولا بعث فإنه لا يكون قد عرف الله الحكمة ، وهكذا نرىٰ أن سياق السورة يخدم محور السورة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

الفوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **وأنه يحيي الموتىٰ** ﴾ ذكر ابن كثير : ماروواه الإمام أحمد عن وكيع بن عدي عن عمه أبي رزين العقيلي – واسمه لقيط بن عامر – أنه قال : يا رسول الله أكلّنا يرىٰ ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلىٰ القمر مخلياً به ؟ » قلنا : بلىٰ ، قال « فالله أعظم » قال : قلت : يارسول الله كيف يحيي الموتىٰ ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادي أهلك ممحلًا ؟ قال : بلىٰ ، قال : « ثم مررت به يهتز خضراً » قال : بلىٰ ، قال : « فكذلك يحيي الله الموتىٰ ، وذلك آيته في خلقه ») .

٢ – وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة لنبيّن لكم** ﴾ ذكر ابن كثير حديث الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقي ، أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

المجموعة الثانية

وتمتدُّ من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١٠) وهذه هي :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

التفسير :

﴿ **ومن الناس من يجادل في الله** ﴾ أي في وجوده ، أو في أسمائه أو في صفاته بغير وصفه ﴿ **بغير علم** ﴾ ضروري أو مكتسب ﴿ **ولا هدى** ﴾ أي ولا هداية خاصة من الله ، كأثر عن مجاهدة صحيحة ﴿ **ولا كتاب منير** ﴾ من الله ، أي ومن الناس من يجادل في الله بلا عقل صحيح ، ولا هدى إلهام صريح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الهوى ﴿ **ثاني عطفه** ﴾ العطف : الرقبة ، والمعنى : لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء ، يعني : يعرض عما يُدعىٰ إليه من الحق ، ويثني رقبته استنكاراً واستكباراً ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ هذا تعليل للمجادلة في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أي يُجادل ليضل عن دين الله ﴿ **له في الدنيا خزي** ﴾ أي إهانة وذل لمَّا استكبر عن آيات الله لقّاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ **ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ أي جمع له عذاب الدارين ﴿ **ذلك بما قدّمت يداك** ﴾ أي السبب في عذاب الدارين هو ماقدّمت نفسه من الكفر والكبر والتكذيب ، وذكر اليد لأن اليد آلة الكسب ﴿ **وأن الله ليس بظلّام للعبيد** ﴾ أي فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ، ولا يأخذ أحداً بذنب غيره ، وذكر الظلّام بصيغة المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع ، وهو العبيد ، ولأن قليل الظلم منه مع إحاطة علمه واستغنائه كالكثير منا ، وهذا الكلام يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً .

كلمة في السياق :

ذكرت هذه المجموعة الطريق لمعرفة الله : العلم والهداية والكتاب ، فالعلم الضروري والمكتسب يدلّنا على الله وصفاته وأسمائه ، كما برهنّا على ذلك في كتابنا (الله جل جلاله) في بحث دلالات الظواهر ، والهداية الخاصة التي هي أثر عن المجاهدة تدلنا على الله ، قال تعالىٰ ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا** ﴾ (فالمجاهدة توصل إلى المعرفة الصحيحة بالله ، والقرآن وكل كتاب سماوي صحيح النسبة لله يدلّنا على الله دلالة صحيحة ، فالعلم الصحيح ، والهدىٰ الخالص ، والكتاب المنير ، كل منهم يوصل إلىٰ معرفة الله التي هي أساس العبادة ، التي هي طريق التقوىٰ .

قد ذكرت هذه المجموعة نموذجاً من الناس يحاول أن يصرف الناس عن طريق الله ، وعن معرفته وعن دينه ، والحامل له على ذلك الكبر ، وذكرت جزاء هذا الصنف من الناس ، وفي ذلك تحذير للناس أن يكونوا كهذا الصنف ، وتحذير للمؤمنين أن يصرفهم هذا الصنف من الناس عن طريق التقوىٰ ، والصلة بين المجموعة وبين سياق السورة واضح ، وكذلك الصلة بينها وبين محور السورة من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ إذ المجموعة دلتنا بشكل غير مباشر على مايوصلنا إلى معرفة الله ، ودلتنا بشكل مباشر على نوع من الناس ، يصرف عن معرفة الله وعبادته وشريعته ، وحذّرتنا أن نكون من هذا الصنف ، إذ بذلك لا نكون عابدين ولا متقين .

إن السّورة بدأت بالأمر بالتقوى ، وذكّرت بالساعة ؛ لتهيّجنا على سلوك طريق التقوى ، ودلّتنا على صنف من الناس جاهل بالله ، ومُتّبع للشيطان ، ثم دعت السورة إلى الإيمان باليوم الآخر ، ثمّ ذكرتنا بصنف من الناس جاهل بالله ، فالمعاني متكاملة ، كل منها يكمّل الآخر .

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إلى الحسن البصري قال : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة .

٢ – دلتنا المجموعة على أن الكبر علة الضلال ، ولايصل الإنسان إلى حقيقة الإسلام

وفي قلبه مثقال ذرة من كبر ، فليحرر المسلم نفسه من الكبر بعرضه نفسه على الميزان الذي حدده رسول الله ﷺ « الكبر غمط الناس وبطر الحق » .

المجموعة الثالثة

وتمتدُّ من الآية (١١) إلى نهاية الآية (١٤) وهذه هي :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

التفسير :

﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، والمعنى : أنه يعبد الله مضطرباً ﴿ **فإن أصابه خير اطمأن به** ﴾ أي فإن أصابه صحة في جسمه ، وسعة في معيشته ، سكن واستقر بالخير الذي أصابه ، أو بالدين فعبدالله ﴿ **وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه** ﴾ أي ارتدّ ورجع إلى الكفر ، ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾ أما خسرانه الدنيا فإن أهل الإيمان يعادونه ، وأهل الكفر لا يثقون به ، وأما خسرانه الآخرة فبخلوده في النار ﴿ **ذلك** ﴾ أي خسران الدارين ﴿ **هو الخسران المبين** ﴾ أي الظاهر الذي لا يخفى على أحد ﴿ **يدعو من دون الله** ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ **مالا يضرُّه** ﴾ إن لم يعبده ﴿ **ومالا ينفعه** ﴾ إن عبده ، فهو يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها ، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾ من

الصواب ﴿ **يدعوا لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه** ﴾ ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما الآخرة فضرره محقق متيقن ﴿ **لبئس المولى** ﴾ إلهه المزعوم ، أي لبئس الناصر الصاحب ﴿ **ولبئس العشير** ﴾ أي ولبئس الصاحب والمخالط والمعاشر ، وبعد أن ذكر الله عز وجل هذا النموذج الذي يعبد الله على حرف ، ذكر من يعبد الله بكل حال ، وبعد أن ذكر جزاء الأوَّلين ، ذكر جزاء الآخرين ﴿ **إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ قال ابن كثير : (لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء ، من الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات ، من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكن الدرجات العاليات في روضات الجنات) ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿ **إن الله يفعل ما يريد** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - لما كان الطريق إلى التقوى هو العبادة ، ولما كان من مزالق الطريق ترك العبادة بسبب عوارض الطريق وقواطعه ، فقد نبّه الله عز وجل على هذا المزلق الخطر ، والمنعطف القذر ، فأنذر عز وجل هؤلاء الذين يتركون عبادته إذا ماتعرّضوا لابتلاء وامتحان ، ثم بشَّر المؤمنين الصادقين بما أعده لهم ، والصلة واضحة ، بين السياق وهذه المجموعة ، فإذ دعانا الله عز وجل لتقواه ، فقد بيّن لنا ما يقطع عن طريق تقواه ، ولقد أنذرت المجموعة لتهيِّج على الثبات على الطريق ، وبشّرت لتحض على السير في الطريق .

٢ - لنتذكر الآن محور سورة الحج من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى هنا ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ ثمّ لاحظ أن الآية الثانية بعد آية ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ في سورة البقرة موجودة فيها ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ ثمّ تأمّل قوله تعالى في هذه المجموعة ﴿ **يدعو من دون الله مالا يضرُّه ومالا ينفعه** ﴾ ﴿ **يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه** ﴾ لتجد الصلة قائمة ، ثمّ لاحظ أن الآية الرابعة بعد آية ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا** ﴾ في سورة البقرة هي ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وتذكّر أن آخر آية في هذه المجموعة هي ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات** ﴾ لتجد الصلة قائمة بين المحور وامتداداته من سورة البقرة ، وبين هذه المجموعة .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه** ﴾ قال ابن كثير : (أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر ، وإلا انشمر . روى البخاري عن ابن عباس ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، قالوا : إن ديننا هذا لصالح ، فتمسّكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة ، وعام ولاد سوء ، وعام قحط ، قالوا : ما في ديننا هذا خير . فأنزل الله على نبيّه ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به** ﴾ الآية ، وقال العوفي عن ابن عباس : كان أحدهم إذا قدم المدينة وهم أرض دونه ، فإن صح بها جسمه ، ونتجت فرسه مهراً حسناً ، وولدت امرأته غلاماً ، رضي به واطمأن إليه ؛ وقال : ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً ﴿ **وإن أصابته فتنة** ﴾ والفتنة : البلاء ، أي وإن أصابه وجع المدينة ، وولدت امرأته جارية ، وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت منذ كنت على دينك إلا شراً ، وذلك الفتنة ، وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيّرت انقلب ، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أوشدّة أو اختبار ، أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد في قوله ﴿ **انقلب على وجهه** ﴾ أي ارتد كافراً وقوله ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾ فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم ، فهو فيه في غاية الشقاء والإهانة ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ذلك هو الخسران المبين** ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة) .

٢ - قوله تعالى عن آلهة المشركين ﴿ **لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾ يدل على أن بين المرتد وبين ما ارتدّ إليه نوع سيادة وصحبة ، فهو قد أعطى آلهته الجديدة العبودية ، وأعطاها الصحبة وهذا يجعلنا نفهم أن الآلهة التي ينقلب إليها هذا النوع من الناس أوسع من أن تكون صنماً .

المجموعة الرابعة

وتمتدُّ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٤) وهذه هي :

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

التفسير :

﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله** ﴾ هل الضمير في (ينصره) يعود إلى الظانّ نفسه أم إلى محمد ﷺ و إذا كان الضمير يعود إلى الظانّ نفسه فإن الحديث يكون عمّن وصل إلى درجةالقنوط من النصر ، وإن كان الضمير لمحمد ﷺ يكون المعنى : من كان يظن ألنّ ينصر الله محمداً ﴿ **في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء** ﴾ أي فليمدد بحبل إلى سقف بيته هكذا فسرها ابن كثير وغيره ، لأن كل ماعلاك في اللغة فهو سماء ﴿ **ثم ليقطع** ﴾ قال ابن كثير : أي ثم ليختنق به ، قال النسفي : أي ثم ليختنق به ، وسمي الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ﴿ **فلينظر هل يذهبنَّ كيده** ﴾ أي في قتل نفسه ﴿ **ما يغيظ** ﴾ أي الذي يغيظه من أوضاع . قال النسفي : وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه ، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ ، أقول : وفي هذا المقام تختلف عبارات المفسرين ، وما ذكرناه في تفسير الآية هو الذي نرجحه ، والمعنى : من ظن أنه لا نصر للإسلام والمسلمين فليتصوّر أنّه شنق نفسه ، فهل يترتب على ذلك شيء ؟ والمعنى : أنه لا يجوز للمسلم أن يشك في نصر الله ، وأن عليه أن يصبر في كل الظروف لأمر الله تعالى ﴿ **وكذلك أنزلناه** ﴾ أي القرآن ﴿ **آيات بينات** ﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها ، حجّة من الله على الناس ﴿ **وأن الله يهدي من يريد** ﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة ، والمعنى : ومثل ذلك الإنزال أنزل القرآن كله آيات بينات واضحات ، والحكمة في ذلك هداية من علم الله أنهم يؤمنون ، ولذلك أنزل على ماهو عليه .

كلمة في السياق :

بعد المجموعة التي وصف الله عز وجل فيها حال من يعبد الله على حرف ذكر آية ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله** ﴾ والصلة واضحة لأن كثيرين يتركون دعوة الله لاستبطائهم النّصر لها ، أو يأسهم منها ، ومجيء الآية الثانية ﴿ **وكذلك أنزلناه آيات بيّنات** ﴾ للإشارة إلى أنه مامن حالة إلا وفي القرآن تفصيلها الواضح ، أما صلة الآيتين بمحور السورة فواضح ؛ إذ إن استبطاء النصر ، أو اليأس من النصّر صارفان عن التقوىٰ ، والسير إليها ، والتحقق فيها ، ولنعد إلى التفسير .

....

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين** ﴾ مَرّ معنا تعريف الصابئين في سورة البقرة ﴿ **والنصارىٰ والمجوس** ﴾ أي عباد النار ﴿ **والذين أشركوا** ﴾ مع الله غيره كائناً من كانوا ﴿ **إن الله يفصل بينهم يوم القيامة** ﴾ أي يحكم بينهم ﴿ **إن الله على كل شيء شهيد** ﴾ أي عالم به ، حافظ له ، فلينظر كل امرىء معتقده ، وقوله وفعله ، وهو أبلغ وعيد .

كلمة في السياق :

ما محلّ هذه الآية في السياق ؟ إنه بعد أن ذكر الله عز وجل قضية اليأس من نصر الله في الدنيا والآخرة ، قرر هنا مؤكّداً أنّه سيفصل ويحكم يوم القيامة بين أهل العقائد المختلفة ، أي أن أهل الإيمان منتصرون حتماً في الآخرة ، وهذا هو النّصر الكبير ، ولنعد إلى التفسير :

﴿ **ألم تر** ﴾ أي ألم تعلم علماً يقوم مقام العيان ﴿ **أن الله يسجد له من في السمٰوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب** ﴾ يخبر تعالى أنّه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنّه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرها ، وسجود كل شيء مما يختص به ، وهل هو سجود حقيقي فيكون لكلٍ سجوده الخاص وإن كنا لا نقف عليه ، أو أن في ذلك كناية عن مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له ، فهذا سجوده له تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلف الذي كل خضوع دونه ؟ اتجاهان في التفسير ذكرهما النّسفي ﴿ **وكثير من الناس** ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ **وكثير حق عليه العذاب** ﴾ أي وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود الاختيارى ﴿ **ومن يُهن الله فما له من مكِرم** ﴾ أي ومن يهنه الله بالشقاوة فما له من مُكِرم بالسعادة ﴿ **إن الله يفعل مايشاء** ﴾ من الإكرام والإهانة وغير ذلك .

كلمة في السياق :

يأتي هذا الخطاب الذي يقرّر خضوع خلق الله جميعاً لله في سياق الإنكار على من ييأس من نصر الله ، وفي سياق الإنكار على من يعبد الله على حرف ؛ ليبين أن الأمر أمره ، والملك ملكه ، وكل شيء خاضع له ، وأن من يفر من عبادته أمامه ما أمامُه ، وأن الذي ييأس من نصره لا يعرف حقيقة الأمر من كون كل شيء خاضعاً له خضوع

اختيار ، أو اضطرار ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ وأما صلتها في السياق العام من محور السورة فإنّ محور السورة يأمر بالعبادة كطريق للتقوى ، وتأتي هذه الآية لتقرر أن السجود الذي هو أرقى درجات العبادة هو سمة الكون كله بما فيه ومن فيه ، وأن الذين لا يسجدون من البشر معذَّبون ، وأن الذين يسجدون منسجمون مع سجود الخلق كلهم ، وبعد هذه الآية التي مرّت معنا فإنّ المجموعة تعرض لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، تذكر لنا فيه كيف ينصر الله أولياءه في الآخرة ويخذل أعداءه .

....

﴿ **هذان خصمان** ﴾ أي هذان فريقان مختصمان ﴿ **اختصموا في ربهم** ﴾ هذا مصدّق ، وهذا مكذّب ، هذا مؤمن وهذا كافر ، والاختصام قد يكون اختصام حجة ، وقد يكون اختصام قتال ﴿ **فالذين كفروا قُطّعت لهم ثياب من نار** ﴾ أي فصّلت لهم مقطَّعات من النار . قال سعيد بن جبير : من نحاس ، قال ابن كثير : وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ، قال النسفي : كأن الله يقدّر لهم نيراناً على مقادير جثثهم ، تشتعل عليهم ، كما تقطّع الثياب الملبوسة ، واختير لفظ الماضي لأنه كائن لا محالة ، فهو كالثابت المتحقق ﴿ **يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم** ﴾ أي الماء الحار الذي هو في غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ﴿ **يُصهَر به** ﴾ أي يذاب به ، أي بالحميم ﴿ **ما في بطونهم والجلود** ﴾ أي يذيب أمعاءهم وأحشاءهم ، كما يذيب جلودهم ، فيؤثّر في الظاهر والباطن ﴿ **ولهم مقامع** ﴾ أي سياط مختصة بهم ﴿ **من حديد** ﴾ يُضرَبون بها ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها** ﴾ أي من النار ﴿ **من غم** ﴾ أي من أجل غم ﴿ **أعيدوا فيها** ﴾ أي أعيدوا إلى عظم النار ، لأنهم لا ينفصلون عنها أبداً ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا العذاب ليهانوا قولاً وفعلاً ، هذا جزاء الخصم الكافر ، وأمّا خصمه المؤمن فهذا جزاؤه : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ قال ابن كثير : أي تتحرك في أكنافها ، وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقصورها ، يجرونها حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿ **يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ أي يلبسون الحلي من الذهب واللؤلؤ في أيديهم ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصّلت لهم ﴿ **وهُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ أي إلى الطريق المستقيم في الدنيا ،

والحميد : هو الله المحمود بكل لسان ، ويحتمل أن يكون المعنى : وهُدوا في الآخرة إلى القول الطيب ، حتى لا يقولوا إثماً ، ولا يقولوا إلا ذكراً وسلاماً ، وهدوا إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم .

كلمة في السياق :

دلت هذه الآيات على ما أعد الله للخصوم فيه ، فعرفنا بذلك أن نصرة الله في الآخرة لأوليائه ما بعدها نصرة ، وأن خذلان الله لأوليائه مابعده خذلان ، فلنتذكر كيف سارت المجموعة : أنكرت على من ييأس من النصر ، ثمّ بيّنت أن النصر الحقيقي يوم القيامة ، ثم بيّنت أن كل شيء خاضع لله ، ثم بيّنت عاقبة المتخاصمين فيه في الآخرة ، وهكذا عرفتنا أن النّصر الحقيقي هو النصر في الآخرة ، وسنرى أنّه بعد المجموعة اللاحقة ستأتي بشارة الله بالنصر لمن يستحق النصر فالسياق الخاص للسورة يتسلسل - كما نرىٰ - بشكله العجيب الفريد . والصلة بين هذه المجموعة كلها ، وبين محور السورة من البقرة واضح ، فقد استقرّت المجموعة على ذكر عاقبة المتقين ، وعاقبة الكافرين بما لا يبقى معه ذو عقل إلا ويختار طريق التقوىٰ ، كيف والكلام كلام الله ، والوعد والوعيد وعده ووعيده ، وقد رأينا أنّ من امتدادت آية المحور في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾

فـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السمٰوات ومن في الأرض والشمس والقمر ..** ﴾ يروي ابن كثير حديث الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » وانظر ماكتبناه عن هذا الموضوع في أواخر سورة الأنعام ، وقد ساقه ابن كثير للتدليل على سجود الأشياء لله ، وبمناسبة كون هذه الآية آيةُ سجدة قال ابن كثير : وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي ، يقول ياويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ أخرج ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له عليّ : ياعبدالله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ عرض ابن كثير مجموعة من الأقوال في الآية ، ورجح ما أثبتناه في صلب التفسير ، وهذا كلامه : (ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر - لفظ البخاري عند تفسيرها - ثم روى البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي وحمزة وعبيده وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال : اختصم المسلمون ، وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ؛ فنحن أولىٰ منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولىٰ بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه وأنزل ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ وقال شعبة عن قتادة في قوله ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال : مصدّق ومكذب ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون . وقال عكرمة ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال . هي الجنة والنار ، قالت النار : اجعلني للعقوبة ، وقالت الجنة : اجعلني للرحمة . وقال مجاهد وعطاء : إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون ، يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان ، وخذلان الحق ، وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن) .

٤ - بمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير .. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ الجمجمة ، حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتىٰ يبلغ قدميه ، وهو الصهر . ثم يعاد كما كان » وعن ابن أبي حاتم .. عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت عبد الله بن السري قال : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه ، فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه ، فيصل إلى جوفه من دماغه ، فذلك قوله ﴿ **يُصهر به ما في بطونهم والجلود** ﴾ وقوله ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ روى الإمام أحمد .. عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ، ما أقلّوه من الأرض . وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ : « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتّت ثمّ عاد كما كان ، ولو أن دلواً من غسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا » وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور ، وقوله ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أُعيدوا فيها** ﴾ روى الأعمش .. عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة ، لا يضيء لهبها ، ولا جمرها ثم قرأ ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها** ﴾ قال : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيّدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها ، وقوله ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ كقوله ﴿ **وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون** ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

٥ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث المتفق عليه « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ قال ابن كثير : كما جاء في الحديث الصحيح « إنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النّفس » .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة من المقطع الثاني

وتمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٣٧) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ

والقيام بمراعاتها ﴿ **وأحلّت لكم الأنعام إلا مايتلىٰ عليكم** ﴾ أي في القرآن ، مما ورد في سور : البقرة ، والمائدة ، والأنعام ، والنّحل، والمعنىٰ : أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ماحرّمه عليكم في كتابه ، فحافظوا على حدوده ، ولا تحرِّموا شيئاً ممّا أحل الله ، كتحريم البعض البحيرة ونحوها ، ولا تحلّوا ممّا حرّم الله ، كإحلالهم أكل الموقوذة ، والميتة وغيرها ﴿ **فاجتنبوا الرجس** ﴾ الذي هو الأوثان ﴿ **من الأوثان** ﴾ هذا بيان للرجس ، وسمىٰ الأوثان رجساً على طريقة التشبيه ، يعني أنكم تنفرون بطباعكم عن الرجس ، فعليكم أن تنفروا عنها ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ أي الكذب والبهتان ، أو شهادة الزور ، لمّا حثّ على تعظيم حرماته ، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان ، وقول الزور ، وجمع بين الشرك وقول الزور ؛ لأن الشرك من باب الزور ؛ إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة ﴿ **حنفاء لله** ﴾ أي مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل ، قُصَّداً إلى الحق ، ولهذا قال : ﴿ **غير مشركين به** ﴾ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خرّ** ﴾ أي سقط ﴿ **من السماء** ﴾ إلى الأرض ﴿ **فتخطفه الطير** ﴾ أي تسلبه بسرعة ، أي تقطّعه الطيور في الهواء ﴿ **أو تهوي به الريح** ﴾ أي تسقطه ﴿ **في مكان سحيق** ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوىٰ فيه ﴿ **ذلك** ﴾ أي الأمر ذلك ﴿ **ومن يعظّم شعائر الله** ﴾ أي أوامره ﴿ **فإنها من تقوىٰ القلوب** ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوىٰ القلوب ، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوىٰ ، ومن شعائر الله الهدايا لأنها من معالم الحج ، وتعظيمها : أن يختارها عظام الأحرام ، حساناً سماناً غالية الأثمان ﴿ **لكم فيها منافع** ﴾ من الركوب عند الحاجة ، وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿ **إلى أجل مسمّىٰ** ﴾ أي إلى أن تنحر ﴿ **ثم محلّها إلى البيت العتيق** ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق : وهو الكعبة ، والمعنى الدقيق لها : أي إلى وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق ، والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت إذ الحرم حريم البيت ﴿ **ولكل أمة** ﴾ من الأمم قبلكم أرسل الله لها رسولاً ، وطالبها بشريعة ﴿ **جعلنا مَنسكاً** ﴾ أي إراقة دماء وذبح قرابين ﴿ **ليذكروا اسم الله** ﴾ دون غيره ﴿ **على مارزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ أي عند نحرها وذبحها ﴿ **فإلهكم إله واحد** ﴾ أي معبودكم واحد ، وإن تنوّعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضاً ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ **فله أسلموا** ﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ **وبشّر المخبتين** ﴾ أي المطمئنين بذكر الله ، أو المتواضعين الخاشعين ، ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿ **الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أي خافت منه قلوبهم

﴿ **والصابرين على ما أصابهم** ﴾ أي المصائب ﴿ **والمقيمي الصلاة** ﴾ في أوقاتها ﴿ **ومما رزقنهم ينفقون** ﴾ أي المؤدّين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائض أي وينفقون ما آتاهم الله من طيّب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق ﴿ **والبُدْن** ﴾ جمع : بَدَنَة سميت به لعظم بدنها ، وهذا الاسم في الشريعة يتناول الإبل والبقر ﴿ **جعلناها لكم من شعائر الله** ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله ، وجعلُها من شعائره هو أنه جعلها تُهدىٰ إلىٰ بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدىٰ إليه ﴿ **لكم فيها خير** ﴾ أي خير في الدنيا وأجر في العقبىٰ ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها** ﴾ أي عند نحرها ﴿ **صواف** ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ أي إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها ، وسكنت حركتها ﴿ **فكلوا منها** ﴾ أي إن شئتم فالأمر للإباحة ﴿ **وأطعموا القانع** ﴾ أي السائل ﴿ **والمعتر** ﴾ أي الذي يريك نفسه ويتعرَّض ولا يسأل ، وقيل : القانع الراضي بما عنده ، وبما يعطىٰ من غير سؤال ، والمعترّ : المتعرّض للسؤال ﴿ **كذلك سخّرناها لكم** ﴾ أي كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم ، أي ذلّلناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أي لتشكروا إنعام الله عليكم ، أو المعنىٰ : من أجل ما مرّ ذلّلناها لكم ، وجعلناها منقادة لكم خاضعة ، إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم جلستم ، وإن شئتم ذبحتم ؛ من أجل أن تشكروا الله على عنايته بكم ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ أي لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدَّق بها ، ولا الدماء المراقة بالنحر ﴿ **ولكن يناله التقوىٰ منكم** ﴾ أي بالتقوىٰ تنالون رضا الله والمعنىٰ : لن يرضي المضحون والمقرّبون ربهم إلا بمراعاة النيّة والإخلاص ورعاية شروط التقوى ﴿ **كذلك** ﴾ أي من أجل ذلك ﴿ **سخَّرها لكم** ﴾ أي من أجل أن تتحققوا بالتقوىٰ سخَّرها لكم ، إذ تنتفعون بها كما شرع وتضحُّون بها كما أمر ، وتلتزمون في شأنها بما أوصىٰ ﴿ **لتكبرّوا الله** ﴾ أي لتسمُّوا الله عند الذبح ، أو لتعظِّموا الله ﴿ **على ما هداكم** ﴾ أي على ما أرشدكم إليه من دينه وشرعه ، وما يحبه وما يرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه ﴿ **وبَشِّر المحسنين** ﴾ بالثواب ، والمحسنون : هم الممتثلون أوامره ، المراقبون له في كل حال ، القائمون بحدوده ، المتبّعون ما شرع ، المصدّقون لرسوله ﷺ فيما أبلغهم ، وجاءهم به من عند ربه عز وجل ، وبهذا انتهت المجموعة الخامسة من المقطع الثاني .

كلمة في السياق :

هذه المجموعة جسر بين المجموعة التي قبلها والتي بعدها ، وهي في الوقت نفسه تحدّد معالم كبيرة في موضوع التقوى والعبادة ، ومن ثمّ فهي في محلها تؤدي دورين : دوراً في خدمة السياق الخاص ، ودوراً في خدمة السياق القرآني العام ، فلنر كيف كان ذلك :

رأينا أن المجموعة السابقة بدأت في الإنكار على من ييأس من نصر الله في الدنيا والآخرة ، ثم استقرَّت على توضيح كيف ينصر الله أولياءه في الآخرة ولم تحدثنا صراحة عن موضوع نصر الله أولياءه في الدنيا ، وسنرىٰ أن موضوع نصرة الله أولياءه في الدنيا سيأتي في المجموعة اللاحقة ، إذ يحدثنا الله عز وجل عن دفاعه عن الذين آمنوا ، وعن إذنه للمؤمنين بالقتال ، وعن قدرته على نصرهم ، وعن صفات الجماعة التي تستحق النصر ، وعن وعده لها بالنصر ، وفيما بين ذلك تأتي المجموعة التي مرَّت معنا فلماذا ؟ إن المجموعة التي بين أيدينا تعطينا مبررات الإذن في القتال ، فالذين كفروا يصدُّون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام الذي أقامه إبراهيم عليه السلام للتوحيد الخالص ، فإذا بالمشركين يجعلونه للشرك ، ويعطّلون شعائر الله وشرائعه ، ومن ثم فإنه عند ما يأتي الإذن بقتالهم ، تكون المبررات أوضح ، ومن ثم قلنا إن هذه المجموعة جسر بين ما قبلها وما بعدها .

والمجموعة بيّنت معالم في العبادة فذكرت : حج البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام للطواف والقيام والركوع والسجود ، وذكر الله وشكره على رزقه لهم بهيمة الأنعام ، بالتضحية فيها هناك ، والأكل منها ، والإطعام منها ، كما ذكرت عبادة الله في ترك بعض جوانب من التنعم ، وقضاء ما على الإنسان من نذور ، والطواف بالبيت ، وتعظيم حرمات الله ، والتوحيد ، واجتناب الزور ، والإخبات لله ، والخوف منه ، والصبر ، والصلاة ، والإنفاق وذكر اسم الله عند الذبح ، وتعظيم الله ، وغير ذلك ، وهي كلها معان داخلة في التقوىٰ ، أو وسيلة إليها . وأبرزت الآيات معالم من التقوىٰ ، كما أبرزت أهمية التقوىٰ ﴿ **ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوىٰ القلوب** ﴾ ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم** ﴾ كما أبرزت الآيات بعض ما يتنافىٰ مع التقوىٰ : الكفر والصد عن سبيل الله ، والصد عن المسجد الحرام ، والشرك ، وقول الزور ، وغير ذلك . فإذا عرفنا أن محور السورة هو قوله تعالىٰ : ﴿ **يا أيها النّاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وتأملنا في معاني

المجموعة رأينا أنّ المجموعة فصّلت لنا في شأن العبادة والتقوىٰ جوانب كثيرة ، وكلنا يعلم أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فهو جزء من التقوىٰ ، وهو وسيلة للتقوىٰ ، وقد أبرزت الآيات كثيراً من حِكَم أحكامه ، وعلّلت للكثير مما افترض فيه ، والمجموعة جسر لما بعدها مع ما قبلها ، كما قلنا فالجميع في مقطع واحد .

الفوائد :

١ - استدل ابن كثير بقوله تعالىٰ ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام** ﴾ على أن هذه الآية مدنية ، والذي يبدو أن المجموعة كلها والمجموعة التي بعدها مدنيتان .

٢ - للمفسرين والفقهاء وقفات طويلة عند قوله تعالىٰ ﴿ **الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد** ﴾ فقد فهم بعضهم من ذلك أن الناس كلهم متساوون في رباع مكة وسكناها ، وأن دور مكة لاتباع ولا تشترى لأنها لكل المسلمين ، وخالف آخرون في هذا الفهم فقالوا : إن المراد بالآية غير ذلك ، وقد عرض ابن كثير هذه المسألة والخلاف فيها وأدلة كل .

قال : (وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضراً أيضاً ، فذهب الشافعي رحمه الله إلىٰ أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث الزهري عن علي بن الحسن عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال : قلت يارسول : أننزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال « وهل ترك لنا عقيل من رباع » ثم قال « لا يرث الكافرُ المسلمَ ولا المسلمُ الكافرَ » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترىٰ من صفوان ابن أمية داراً بمكة ، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم ، وبه قال طاووس وعمرو بن دينار ، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لاتورث ، ولا تؤجر ، وهو مذهب طائفة من السلف ، ونصّ عليه مجاهد وعطاء واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه ...... عن علقمة بن فضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنىٰ أسكن . وروى عبد الرزاق عن عبد الله ابن عمرو أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ، ولا كراؤها . وقال أيضاً عن ابن جريج : كان عطاء ينهىٰ عن الكراء في الحرم ، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهىٰ عن تبويب

دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها ، فكان أول من بوّب داره سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال : انظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرءاً تاجراً ، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري ، قال : فلك ذلك إذاً . وروى عبد الرزاق عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لاتتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء ، قال : وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول ﴿ **سواءً العاكف فيه والباد** ﴾ قال : ينزلون حيث شاؤوا ، وروىٰ الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفاً « من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً » وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة والله أعلم) .

٣ - نقل ابن كثير كلاماً كثيراً للمفسرين حول قوله تعالىٰ ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ وكلها توضّح جوانب مما يمكن أن يفعله الناس من إلحاد في الحرم ، ومن كلامه قال : (وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : بظلم : بشرك ، وقال مجاهد أن يعبد فيه غير الله ، وكذا قال قتادة وغير واحد ، وقال العوفي عن ابن عباس : بظلم : هو أن تستحلّ من الحرم ما حرّم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لايظلمك ، وتقتل من لايقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد : بظلم : يعمل فيه عملًا سيئاً ، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادىء فيه بالشرّ إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه ، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن السدي أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله - يعني ابن مسعود - في قوله تعالى ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بِعَدَنِ أَبْيَن لأذاقه الله من العذاب الأليم وقال الثوري ...... عن عبد الله قال : ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلاً بعدن أبين همَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم ، وكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد إلحاد فيه لا والله وبلى والله ، وقال سعيد بن جبير : شتم الخادم ظلم فما فوقه ، وقال سفيان الثوري ..... عن ابن عباس في قوله ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : تجارة الأمير فيه ، وقال حبيب بن أبي ثابت ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : المحتكر بمكة ، وكذا قال غير واحد . وروى ابن أبي حاتم عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال : « احتكار الطعام بمكة إلحاد » وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قول الله ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن

أنيس ؛ فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم هرب إلىٰ مكة فنزلت فيه ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم** ﴾ يعني من لجأ إلىٰ الحرم ، بإلحاد يعني : بميل عن الإسلام ، وهذه الآثار - وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد - ولكن هو أعم من ذلك ، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ، ولهذا لما همّ أصحاب الفيل على تخريب البيت ، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء ، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال « يغزو هذا البيت جيش حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم » وروى الإمام أحمد أنه. أتى عبدُ الله بن عمر ، عبدَ الله بن الزبير فقال : يا بن الزبير : إياك والإلحاد في حرم الله ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت » فانظر لاتكن هو ، وروى أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص ..... عن سعيد بن عمرو قال : أتى عبد الله بن عمر ، عبدالله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال : يا ابن الزبير إياك والإلحاد في الحرم ، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول « يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها » قال : فانظر لاتكن هو ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين .

أقول : إن عبد الله بن الزبير ليس هو المعني بالحديث بيقين ، بل هو الخليفة الشرعي للمسلمين مدة خلافته رضي الله عنه وأرضاه .

٤ - ما الصلة بين الآية الأولىٰ في المجموعة وهي قوله تعالىٰ ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله** ..... ﴾ والآية الثانية ﴿ **وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركَّع السجود** ﴾ قال ابن كثير : (هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له) وما الصلة بين الآية الأولىٰ ، وأمره تعالىٰ لإبراهيم في الآية الثالثة ﴿ **وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾ .

أقول : الصلة تكمن - والله أعلم - في أن إبراهيم دعا الخلق كلهم لإتيان المسجد الحرام ، وقريش كانت تصد أوْلىٰ الناس بإبراهيم عن المسجد الحرام .

٥ - عند قوله تعالى ﴿ **وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركَّع السجود** ﴾ تحدث ابن كثير عن حكمة قرن الطواف بالركوع والسجود فقال : (فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال ، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفي الحرب ، وفي النافلة في السفر) .

٦ - لانعلم كيف نفّذ إبراهيم عليه السلام أمر الله ﴿ **وأذّن في الناس بالحج** ﴾ إلا أن ابن عباس ومجاهداً وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف قالوا ما مضمونه : (قال أي عندما أمر : يارب كيف أبلّغ الناس وصوتي لاينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه - وقيل على الحجر وقيل على الصفا ، وقيل على أبي قبيس - وقال : ياأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنّه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك) هذا مضمون ماورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد من السلف والله أعلم .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾ قال ابن كثير : (قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ، لأنّه قدّمهم في الذكر ، فدلّ على الاهتمام بهم ، وقوة هممهم ، وشدة عزمهم ، وروى وكيع عن ابن عباس قال ما آسى على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً ، لأن الله يقول : ﴿ **يأتوك رجالاً** ﴾ والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ فإنّه حجّ راكباً مع كمال قوته عليه الصلاة والسلام) .

٨ - بعد قوله تعالى ﴿ **يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين** ﴾ ذكر الله عزّ وجلّ حِكَم فرضه الحج على الناس فقال :

﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ ﴿ **ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ ﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ ﴿ **وليوفوا نذورهم** ﴾ ﴿ **وليطوَّفوا بالبيت العتيق** ﴾ .

وقد قدّم الله عز وجل من هذه الحِكَم الخمسة شهود المنافع فقال : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ وللنسفي كلام جميل في هذا المقام قال : (نكّرها لأنه أراد منافع مختصة

بهذه العبادة دينية ودنيوية ، لا توجد في غيرها من العبادة ، وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس ، كالصلاة والصوم ، أو بالمال كالزكاة ، وقد اشتمل الحج عليهما ، مع مافيه من تحمل الأثقال ، وركوب الأهوال ، وخلع الأسباب ، وقطيعة الأصحاب ، وهجر البلاد والأوطان ، وفرقة الأولاد والخلان ، والتنبيه على مايستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، فالحاجّ إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده ، ولا يأكل إلا من زاده ، فكذا المرء إذا خرج من شاطىء الحياة ، وركب بحر الوفاة ، لا ينفع وحدته إلا ماسعى في معاشه لمعاده ، ولا يؤنس وحشته إلا ماكان يأنس به من أوراده ، وغسل من يُحرِم وتأهبه ولبسه غير المخيط ، وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيباً بالحنوط ، ملففاً في كفن غير مخيط ، ثم المحرم يكون أشعث حيران ، فكذا يوم الحشر ، يخرج من القبر لهفان ، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغَباً ورهَباً ، سائلين خوفاً وطعماً ، وهم من بين مقبول ومخذول ، كموقف العرصات ، لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد ، والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ، ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين ، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف ، والبيت الحرام الذي من دخله كان آمناً ، من الإيذاء والقتال ، أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال ، غير أن الجنة حفَّت بمكاره النفس العادية ، كما أن الكعبة حفّت بمتالف البادية ، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي شوقاً إلى اللقاء يوم التنادي) .

وقال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ : (والمنافع التي يشهدها الحجيج كثيرة فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم تجارة وموسم عبادة الحج مؤتمر اجتماع وتعارف ومؤتمر تنسيق وتعاون وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .. أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء من أطراف الأرض ، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ماتفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم . يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام في كل عام . وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح . وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد .

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودع البيت وبه فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ : وطيف هاجر ، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش . وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل .. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطّمها اليأس لتجد النبع يتدفّق بين يدي الرضيع الوضيء . وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم – عليه السلام – وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : ﴿ **قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟** ﴾ فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل – عليه السلام – ﴿ **قال : يأبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء : ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم** ﴾.

وطيف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت ، في إنابة وخشوع : ﴿ **ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التوّاب الرحيم** ﴾ .

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب ، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء ، وإذا هو عبد الله وإذا عبد المطلب حريصاً على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله حتى يبلغ الفداء مئة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة فيقبل منه الفداء ، فينحر المئة وينجو عبدالله ، ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله – محمد رسول الله ﷺ – ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير ! .

ثم تتواكب الأطياف والذكريات من محمد رسول الله - ﷺ - وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفىء الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل .. وهو يصلي .. وهو يطوف .. وهو يخطب .. وهو يعتكف .. وإن خطواته - عليه الصلاة والسلام - لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير . يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات .. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وترف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل : ﴿ **ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا** ﴾ .. ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعاً .. ويلتقون عليها جميعاً ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً .. قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين . الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام ، في ظل الله ، بالقرب من بيت الله ، وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة . والذكريات الغائبة والحاضرة ، في أنسب مكاف وأنسب جو ، وأنسب زمان .

فذلك إذ يقول الله سبحانه : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم - عليه السلام - أن يؤذّن به في الناس .) .

٩ - في الآية التي حدّدت حكم الحج ورد قوله تعالىٰ ﴿ **ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ وقد اختلف المفسرون والفقهاء في هذه الأيام المعلومات ، فمن ربط بينها وبين الذبح رأىٰ أنها يوم النحر ، ويومان أو ثلاثة بعده ، ومنهم من لم يربط بينها وبين ذلك ، وقد لخص ابن

كثير كل هذه الأقوال ، وعدّها أربعة ، وكأنه يرجح القول الثالث من هذه الأقوال ، وهذا كلامه : (قال شعبة .. عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات الأيام العشر ، وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « ما العمل في أيام أفضل منها في هذه » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء » وفي الباب عن أبي هريرة وابن عمر وعبد الله بن عمرو وجابر (قال ابن كثير) : وقد تقصّيت هذه الطرق وأفردت لها جزءاً على حدة ، فمن ذلك ما رواه أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر ، فأكثروا فيهن التهليل والتكبير والتحميد » وروي من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه ، وقال البخاري : وكان ابن عمرو وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبِّران ويكبّر الناس بتكبيرهما وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله ﴿ **والفجر وليال عشر** ﴾ وقال بعض السلف إنه المراد بقوله : ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾ وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال « أحتسب على الله أن يكَفِّر به السنة الماضية والآتية » ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث « أنه أفضل الأيام عند الله » وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة ، كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وتوسط آخرون فقالوا أيام هذا أفضل ، وليالي ذاك أفضل ، وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم . (قول ثان) في الأيام المعلومات قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه . (قول ثالث) : قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عليّ به المديني حدثنا يحيى ابن سعيد حدثنا ابن عجلان حدثني نافع أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات : يوم النحر ويومان بعده ، والأيام المعدودات : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وهذا إسناد صحيح إليه ، وقال السدي - وهو مذهب الإمام مالك بن أنس -: ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى ﴿ **على ما رزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ يعني ذكر الله

عند ذبحها (قول رابع) : إنها يوم عرفة ، ويوم النحر ، ويوم آخر بعده ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وقال ابن وهب : حدثني ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : المعلومات : يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .) .

١٠ - بمناسبة قوله عزّ وجلّ : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ نحب أن نقول : إن الحج على ثلاثة أنواع : قران ، وتمتع ، وإفراد ، وقد مرَّ معنا ذلك في سورة البقرة ، وتفصيله في كتب الفقه ، ويجب على القارن أن يذبح ، ويجب على المتمتع أن يذبح ، ويسن للمفرد أن يذبح ، وعند الحنفية يجوز لهؤلاء الثلاثة أن يأكلوا من ذبائحهم ، أما الدم الذي على الحاج إذا جنىٰ جناية تستوجب الدم فلا يجوز أن يأكل منها عند أحد من الفقهاء ، ومتىٰ يجوز الذبح هل يتعيَّن له يوم النحر أو لايتعيّن ؟ قال في بداية المجتهد : (وأما متى ينحر فإنّ مالكاً قال : إنْ ذبح هدي التمتع أو التطوّع قبل يوم النحر لم يجزه ، وجوّزه أبو حنيفة في التطوّع ، وقال الشافعي : يجوز في كليهما قبل يوم النحر) .

١١ - نلاحظ أن الآية التي حدّدت حِكَم الحج قالت ﴿ **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** * **ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ فقد ذكرت الذبح قبل قضاء التفث ، وذكرت قضاء التفث قبل الطواف ، فهل هذا يفيد ترتيباً ما ؟ عند الحنفية يجب وجوباً أن يكون هناك ترتيب يوم النحر بين رمي جمرة العقبة والذبح إن كان على الإنسان دم واجب والحلق ، ثم بعد ذلك يكون الطواف ، ولا يرى آخرون أن الترتيب واجب ، قال ابن كثير مبينا أن الترتيب فعله عليه الصلاة والسلام : « وهكذا صنع رسول الله ﷺ : فإنه لما رجع إلىٰ منىٰ يوم النحر بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت) وإذن فهذا الترتيب المذكور بالآية هو الأفضل بيقين ولكن هل هو واجب أو سنة ؟ قولان للفقهاء .

١٢ - بمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ نقول : إن الطواف المفروض هو الطواف الذي يسمى طواف الإفاضة أو الزيارة ، وهو الذي يبدأ وقته بعد رمي جمرة العقبة يوم النحّر ، وهناك طواف واجب وهو طواف الوداع ، ففي الصحيحين عن ابن عباس قال : (أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف ، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض) وهناك طواف مسنون هو طواف القدوم ، وبمناسبة

الآية وبمناسبة وصف البيت بالعتيق قال ابن كثير : (فيه مستدلّ لمن ذهب إلىٰ أنه يجب الطواف من وراء الحجر ، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام ، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصّرت بهم النفقة . ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر ، وأخبر أن الحجر من البيت ، ولم يستلم الركنين الشاميين ، لأنهما لم يتمّما على قواعد إبراهيم العتيقة ، وقال الترمذي ... عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ « إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » قال الترمذي هذا حديث حسن غريب) ...

١٣- وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال - ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتىٰ قلنا ليته سكت ، وروى الإمام أحمد عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال : « أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله ، ثلاثاً ثم قرأ ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾) .

١٤ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي مر معنا في سورة إبراهيم : قال : ولهذا جاء في حديث البراء أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت ، وصعدوا بروحه إلى السماء ، فلا تفتح له أبواب السماء ، بل تطرح روحه طرحاً من هناك ، ثم قرأ هذه الآية وقد تقدم في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه .

١٥ - مر معنا أن مما يدخل في قوله تعالىٰ ﴿ **ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوىٰ القلوب** ﴾ استحسان الهدايا والبدن واستسمانها ، واستعظامها للذبح في الحج ، ويدخل في ذلك استحسان الأضحية ، واستسمانها ، واستعظامها وفي ذلك قال ابن كثير : (وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمّن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمّنون . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « دم عفراء أحب إلىٰ الله من سوداوين » رواه أحمد وابن ماجه قالوا والعفراء : هي البيضاء بياضاً ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها تجزيء أيضاً ، لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول لله ﷺ ضحىٰ بكبشين أملحين أقرنين موجوأين ..... .

وعن علي رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وأن لا نضحّي بمقابلة ولا مدابرة ، ولا شرقاء ولا خرقاء ، رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي ، ولهم عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن نضحّي بأعضب القرن والأذن ، قال سعيد بن المسيب : العضب : النصف فأكثر ، وقال بعض أهل اللغة : إن كسر قرنها الأعلى فهي قصماء ، فأما العضب : فهو كسر الأسفل ، وعضب الأذن قطع بعضها ، وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره ، وقال أحمد : لا تجزىء الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث . وقال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزىء وإلا أجزأ والله أعلم . وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة : من مؤخر أذنها ، والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولاً ، قال الشافعي والأصمعي : وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً . والله أعلم ، وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البيِّن عورها ، والمريضة البيِّن مرضها ، والعرجاء البيِّن ضلعها ، والكسيرة التي لا تنقى » رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذي وهذه العيوب تنقص اللحم ؛ لضعفها ، وعجزها عن استكمال الرعي ، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ، فلهذا لا تجزىء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة ، كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين ، وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة ، والمستأصلة ، والبخقاء ، والمشيعة ، والكسيرة » فالمصفرة قيل : الهزيلة ، وقيل المستأصلة الأذن ، والمستأصلة : مكسورة القرن ، والبخقاء : هي العوراء ، والمشيعة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ، ولا تتبع لضعفها ، والكسيرة : العرجاء ، فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء . فأما إن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي ، خلافاً لأبي حنيفة ، وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشاً أضحي به ، فعدا الذئب فأخذ الألية ، فسألت النبي ﷺ فقال : « ضح به » ولهذا جاء في الحديث أمرنا : رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي أن تكون الهدية والأضحية سمينة حسنة كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبدالله بن عمر قال : أهدى عمر نجيباً ، فأعطى بها ثلثمائة دينار ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلثمائة دينار أفأبيعها وأشتري بثمنها بدناً ؟ قال : لا « انحرها إياها » .

وعند قوله تعالى ﴿ **ذلك ومن يعظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمّىً ، ثم محلّها إلى اليت العتيق** ﴾ قال صاحب الظلال : (ويربط بين الهدي الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ أن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره ، وهذه المناسك والشعائر إنْ هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته ، وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم - عليه السلام - وما تلاه . وهي ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجّه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهي والدعاء والصلاة سواء . وهذه الأنعام التي تتخذ هدياً ينحر في نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها ، إن كان في حاجة إليها يركبها ، أو في حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها - أي مكان حلها - وهو البيت العتيق ، ثم تنحر هناك ليأكل منها ويطعم البائس الفقير . وقد كان المسلمون على عهد النبي ﷺ يغالون في الهدي ، يختارونه سميناً غالي الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله روى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : أهدىٰ عمر نجيباً فأعطى بها ثلاثمائة دينار ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني أهديت نجيباً ، فأعطيت بها ثلاثمائة دينار أفبيعها وأشتري بثمنها بدناً ؟ قال : « لا . انحرها إياها » . والناقة النجيب التي جاءت هدية لعمر - رضي الله عنه - وقوّمت بثلاثمائة دينار لم يكن عمر - رضي الله عنه - يريد أن يضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها نوقاً أوبقراً للذبح ، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحيِ بالنجيب ذاتها لنفاستها ، وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقاً كثيرة ، قد تعطي لحماً أكثر ، ولكنها من ناحيةالقيمة الشعورية أقل ، والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾ وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمر - رضي الله عنه - « انحرها إياها » هي بذاتها لا سواها !) .

١٦ - وفي قوله تعالى ﴿ **لكم فيها منافع إلى أجل مسمّىً ثم محلها إلى البيت العتيق** ﴾ اتجاهان : الاتجاه الأوّل أنّ المنفعة فيها قبل أن تعيّن للإهداء ، فإذا تعيَّنت لم يبق لصاحبها حق الانتفاع . والاتجاه الثاني : أن لصاحبها أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك ، وقد رجّحنا هذا القول في التفسير ، وفي ذلك قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال « اركبها » قال : إنها بدنة ، قال : « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة ، وفي رواية عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال « اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها » وروى شعبة عن علي أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ،

فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها) .

١٧ – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل وبمناسبة الآية قال ابن كثير : (ثبت في الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمّى وكبّر ، ووضع رجله على صفاحهما) .

١٨ – وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **والبُدْن جعلناه لكم من شعائر الله** ﴾ بذكر ابن كثير مسألة عن كم تجزىء البدنة بقرة كانت أو ناقة ؟ قال : (ثم جمهور العلماء على أنه يجزىء البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة كما ثبت في الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضحىٰ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ، وقال إسحاق بن راهويه وغيره : بل تجزىء البقرة والبعير عن عشرة ، وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما والله أعلم .

١٩ – وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **لكم فيها خير** ﴾ من آية ﴿ **والبُدْن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير** ﴾ قال ابن كثير : (أي ثواب في الدار الآخرة . وعن سليمان ابن يزيد الكعبي ...... عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلىٰ الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفساً) .

٢٠ – وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صوافّ** ﴾ قال ابن كثير : وعن المطلب بن عبد الله عن جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحىٰ فلما انصرف أتىٰ بكبش فذبحه فقال «بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عني وعمن من لم يضح من أمتي » وقال محمد بن إسحاق ... عن جابر قال : ضحّىٰ رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما« وجّهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، اللهم منك ولك عن محمد وأمته » ثم سمّىٰ الله وكبّر وذبح . وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أنّ رسول الله ﷺ إذا ضحىٰ

اشترىٰ كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتىٰ بأحدهما فذبحه بنفسه بالمدية ثم يقول : « اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ » ثمّ يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول « هذا عن محمد وآل محمد » فيعطيهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما) .

٢١ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ بعد قوله تعالىٰ ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صوافّ** ﴾ قال ابن كثير : (وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ يعني نحرت ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **فإذا وجبت جنوبها** ﴾ يعني : ماتت ، وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد ؛ فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتىٰ تموت وتبرد حركتها) .

٢٢ - وبمناسبة قوله تعالىٰ ﴿ **فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ قال ابن كثير : (قال بعض السلف : قوله ﴿ **فكلوا منها** ﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب وهو وجه لبعض الشافعية ...) وقال ابن كثير : وقد احتج بهذه الآية من ذهب من العلماء إلىٰ أن الأضحية تجزّأ ثلاثة أجزاء : فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدّق به على الفقراء ؛ لأنه تعالىٰ قال ﴿ **فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر** ﴾ وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس « إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فكلوا وادخروا مابدا لكم » وفي رواية « فكلوا وادخروا وتصدقوا » وفي رواية « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ، ويتصدق بالنصف ، لقوله في الآية المتقدمة ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ ولقوله في الحديث « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » فإن أكل الكل فقيل لا يضمن شيئاً ، وبه قال ابن سريج من الشافعية ، وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها ، وقيل يضمن نصفها وقيل ثلثها ، وقيل أدنىٰ جزء منها وهو المشهور من مذهب الشافعية ، وأما الجلود ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي « فكلوا وتصدّقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها » ومن العلماء من رخص في بيعها ، ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها والله أعلم .

مسألة : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجع فننحر ، فمن فعل فقد أصاب سُنّتنا ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدّمه لأهله ، ليس من النسك في شيء » فلهذا قال الشافعي وجماعة من

العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النّحر ومضىٰ قدر صلاة العيد والخطبتين ، زاد أحمد وأن يذبح الإمام بعد ذلك ، لما جاء في صحيح مسلم « وأن لا تذبحوا حتىٰ يذبح الإمام » وقال أبو حنيفة : أما أهل السواد من القرىٰ ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لاصلاة عيد تشرع عنده لهم ، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتىٰ يصلي الإمام والله أعلم) .

٢٣ – وفي قوله تعالىٰ ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالىٰ : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها فإنه الخالق الرازق ، لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالىٰ هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالىٰ ﴿ **لن ينال الله لحومها ولادماؤها** ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب رسول الله ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم** ﴾ أي يتقبل ذلك ، ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وجاء في الحديث « إن الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض » .... فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله ، وليس له معنىٰ يتبادر عند العلماء المحققين سوىٰ هذا والله أعلم . وقال وكيع عن يحيىٰ بن مسلم بن الضحاك سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي فقال ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها** ﴾ إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدّق) .

٢٤ – لاحظنا مما مضىٰ أن هناك ارتباطاً بين الأضاحي والهدايا في الحج ، وذلك لأن الموضوع واحد ، والحكمة واحدة والسبب واحد واليوم واحد ، ومن ثم يختم ابن كثير الكلام عن المجموعة السابقة بمسألة قال :

مسألة : وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلىٰ القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً ، واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات عن أبي هريرة مرفوعاً « من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا » على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول

الله ﷺ عشر سنين يضحي رواه الترمذي وقال الشافعي وأحمد : لا تجب الأضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث « ليس في المال حق سوى الزكاة » وقد تقدّم أنّه عليه الصلاة والسلام ضحىٰ عن أمّته فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال أبو شريحة : كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقين ؛ لأن المقصود إظهار الشعار .

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسّنه الترمذي عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول ﷺ يقول بعرفات : « على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة ، هل تدرون ما العتيرة ؟ هي التي تدعونها الرجيبة » وقد تكلّم في إسناده ، وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ، ويطعمون ، حتى تباهى الناس فصار كما ترى رواه الترمذي وصححه وابن ماجه . وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله ، رواه البخاري ، وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « لاتذبحوا إلا مُسِنَّة إلا إن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن » ومن هنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزىء وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزىء من كل جنس وهما غريبان . والذي عليه الجمهور إنما يجزي الثني من الإبل والبقر والماعز ، أو الجذع من الضأن . فأما الثني من الإبل : فهو الذي له خمس سنين ، ودخل في السادسة ، ومن البقر : ماله سنتان ودخل في الثالثة ، وقيل : ماله ثلاث ودخل في الرابعة ، ومن المعز : ماله سنتان ، وأما الجذع من الضأن فقيل : ماله سنة ، وقيل عشرة أشهر ، وقيل ثمانية ، وقيل ستة أشهر ، وهو أقل ما قيل في سنّه وما دونه فهو حمل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم والجذع شعر ظهره نائم ، وقد انفرق صدغين ، والله أعلم) .

كلمة فى السياق :

رأينا أن محور سورة الحج هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وكانت مقدمة سورة البقرة قد عرَّفت المتقين بقوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وقد جاءت هذه المجموعة لتحرر من قضايا تتنافى مع

التقوى ، ولتبين قضايا من التقوى ومن جملة ماقالت ﴿ **وبشّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ فتأمل الصلة بين هذه المعاني وبين تعريف التقوى في سورة البقرة ، لترى كيف أن السورة ماضية في سياقها الخاص والعام على ما ذكرنا .

وإذا تقرر في كل ما مر محل هذه المجموعة فلنتذكر ما ذكرناه من قبل من أن هذه المجموعة جسر بين ما قبلها وما بعدها من مجموعة نواح : جاءت هذه المجموعة قبل الإذن في القتال لترينا مبررات ذلك الإذن : صدّ الكافرين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، تغيير معالم دين إبراهيم ، تحقيق حكم الله في النسك والحج ، كل ذلك يقتضي قتال قريش ؛ ومن ثم يأتي الإذن بالقتال ، ويكون الإذن في القتال في سياق تبيان أن الله ينصر عباده في الدنيا ، وفي ذلك استكمال للرد على يأس اليائسين من النصر ، ومطالبة لهم أن يرتقوا إلى الخصائص التي يستحقون بها النصر ، فلنر إذن المجموعة السادسة .

المجموعة السادسة من المقطع الثاني

وتمتدُّ من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٤١) وهذه هي :

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

بين يدي هذه الآيات :

في الربط بين هذه الآيات وبين ما ورد قبلها من كلام حول الشعائر والمناسك قال صاحب الظلال : (تلك الشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدُّون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرية الشعائر . وتمكّن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة : ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداءَ المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله ووعدهم النصر والتمكين على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بيّنها لهم .) .

....

وفي أجواء هذه الآيات قال صاحب الظلال :

(ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوّان كفور** ﴾ فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوه وظاهر حتماً على عدوه ، ففيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام ... والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ولا تضحية ولا ألم ولا قتل ولا قتال ؟ والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة .. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من « التنابلة » الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتّلون القرآن ويتوجّهون إلى الله بالدعاء ، كلما مَسَّهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء ! نعم إنهم ينبغي

أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتّلوا القرآن ، وأن يتوجّهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ، إنما هي الزاد الذي يزودونه للمعركة ، والذخيرة التي يدّخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله . لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ، وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة ... عندئذ تتحفز كل خلية بكل ماأودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ، ولتتساند الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ، ولتؤتي أقصى ماتملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال . والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوافر كل استعدادها ، وتجمّع كل طاقاتها ، كي يتم نموها، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها . والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هيّناً ليناً على القاعدين المستريحين يعطّل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .. وذلك فوق أن النصر السريع الهيِّن اللَّين سهل فقدانه وضياعه أولا : لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، وثانيا : لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه ، وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات .. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس . من أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء ، والنصر قد يبطىء على الذين ظُلِموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله ؛ قد يبطىء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفّز كل خلية وتتجمع

لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . وقد يبطىء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله . وقد يبطىء النصر حتى تجرِّب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر ، إنما يتنزَّل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجَّها إلا إليه وحده في الضراء ، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله ، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله ، وقد يبطىء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه . وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى ، فأيها في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه الشيخان . كما قد يبطىء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار . وقد يبطىء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشَّف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية . وقد يبطىء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطىء النصر فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الالآم . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه .)

التفسير :

﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ يخبر تعالى أنّه يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الأشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ﴿ **إن الله لا يحب كلّ خوّان** ﴾ في أمانة ﴿ **كفور** ﴾ لنعمة الله ، أي لا يحب من عباده من اتصف بالخيانة في العهود والمواثيق والأمانات ، ومن اتّصف بالجحود للنعم ، والآية قسمها الأخير تعليل لقسمها الأول والمعنى : إن الله يدافع عن الذين آمنوا لأنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ، ويخونون أماناتهم ، ويكفرون نعم الله ، ويغمطونها وهذه الآية مقدمة للإذن في القتال ، **فهي** وعد من الله أن يدافع عن المؤمنين ؛ فليقاتلوا وفي قوله : لا يحب كل خوان كفور تعليل للأمر بالقتال ، وتطمين للمؤمنين في أن الله معهم ، وفي الآية تحذير من الكفر والخيانة وصيغة ﴿ **يدافع** ﴾ تعني الغاية في الدفاع عنهم مما يجعل المسلم في أعلى درجات الاطمئنان وبعد هذه المقدمة يأتي الإذن بالقتال ﴿ **أُذن للذين يقاتلون** ﴾ أي أذن لهم في القتال وحذف المأذون فيه لدلالة ﴿ **يقاتلون** ﴾ عليه ﴿ **بأنهم ظُلموا** ﴾ أي بسبب كونهم مظلومين ﴿ **وإن الله على نصرهم** ﴾ أي على نصر المؤمنين ﴿ **لقدير** ﴾ أي لقادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة ، قال ابن كثير فيها : أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته ...... وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمون -وهم أقل من العشر - بقتال الباقين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا : يارسول الله ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إني لم أومر بهذا » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم ، وهمُّوا بقتله ، وشرَّدوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة وافاهم رسول الله ﷺ ، واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره ، وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلاً يلجؤون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم**

لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً وأصحابه ﴿ **إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحَّدوا الله وعبدوه لاشريك له ، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية فإذا قالوا : إذا أرادوا فتنة أبينا ، يقول : أبينا ، يمد بها صوته) .

والمعنى : ما أخرجوهم من ديارهم إلا بسبب قولهم ﴿ **ربنا الله** ﴾ ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد** ﴾ قال ابن كثير : (أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف) وقال النسفي : أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات أي كنائس ، ولا للمسلمين مساجد . أو لغلب المشركون في أمة محمد ﷺ على المسلمين ، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم ، وهدموا متعبدات الفريقين ، وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً ، أو لقربها من التّهديم ، والصوامع : هي المعابد المرتفعة الصغار للرهبان ، والبيع : هي كنائس النصارى ، والصلوات : هي كنائس اليهود ، والمساجد للمسلمين ﴿ **يُذكَر فيها** ﴾ أى في المساجد أو في جميع ما تقدم ﴿ **اسم الله كثيراً** ﴾ بدأ بذكر الصوامع وختم في المساجد وفي ذلك ترق من الأقل إلى الأكثر ، إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عماراً وأكثر عبّاداً ، وهم ذوو القصد الصحيح ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ أي ينصر دينه وأولياءه ﴿ **إن الله لقوي** ﴾ على نصر أوليائه ﴿ **عزيز** ﴾ على الانتقام من أعدائه ، وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدّره تقديراً ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء

ذليل لديه ، فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور ، ثم وصف من يستحقون نصره وهم في الوقت نفسه الذين ينصرونه ﴿ **الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ هذه سمات الجماعة الربانية وعلامات دولتها ﴿ **ولله عاقبة الأمور** ﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه وتقديره ، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه ، وإعلاء كلمته ، وبهذا انتهت المجموعة السادسة من المقطع الثاني .

كلمة في السياق :

بهذه المجموعة استكمل السياق الرد على من ييأس من نصر الله ، ولعلّه من المناسب أن نذكّر بسياق المقطع كله : بدأ المقطع بتطهير النفوس من الريب في شأن اليوم الآخر ، لأن الإيمان باليوم الآخر هو الطريق إلى التقوى ، ثم عرض نموذجاً من الناس يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثم عَرض نموذجاً آخر لمن يعبد الله على حرف ، ثمّ عرض نموذجا آخر لمن ييأس من نصر الله ؛ فيترك دين الله ، وقد استغرق الرد التفصيلي ومعالجة النموذج الأخير معظم المقطع كما رأينا ، فتمّ بالمجموعة السادسة تقرير كيف ينصر الله عباده في الدنيا والآخرة ، ولعلك لا حظت كيف أن النصر الرباني له شروطه ، وكيف أنّ لأهل النصر مواصفاتهم الخاصة ، والسياق وإنْ صب في سياقه الرئيسي في موضوع معالجة ثلاثة أمراض رئيسية في قضية العبادة والتقوى ، إلا أنه تحدث عن أشياء كثيرة أخرى لها علاقة بالتقوى والتحرر مما يعارضها أو يناقضها ، ولم يبق عندنا إلا المجموعة الأخيرة من المقطع الثاني سنعرضها بعد الفوائد : .

الفوائد :

١ ـ في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ قال ابن كثير : (قال العوفي عن ابن عباس نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم : هذه أول آية نزلت في الجهاد واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وقال ابن جرير .... عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم إنا لله وإنا اليه راجعون ليهلكن ، قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله**

على نصرهم لقدير ﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال ورواه الإمام أحمد .... وزاد قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال . رواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف زاد الترمذي ووكيع كلاهما عن سفيان الثوري به وقال الترمذي حديث حسن وقد رواه غير واحد عن الثوري وليس فيه ابن عباس) .

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى :﴿**الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم قال عثمان بن عفان : فينا نزلت ﴿ **الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ فأُخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ، ثم مكنّا في الأرض ؛ فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ) أقول : وهي لكل المسلمين في كل العصور إذا حققوا الشروط .

٣ ــ حددت المجموعة التي مرت معنا من يستحقون نصر الله الخاص الذي ينزله الله على أوليائه ، وهم الذين إذا كان لهم السلطان ﴿ **أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ ومن ثم فإن على المسلمين أن يكونوا هذه الجماعة التي تحققت بهذه السمات ، وهذا لا يكون إلا إذا وجد علم ووعي وعمل يومي وخصائص معينة .

☆ ☆ ☆

المجموعة السابعة من المقطع الثاني

وتمتدُّ من الآية (٤٢) إلى نهاية الآية (٤٨) وهذه هي :

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

التفسير :

﴿ **وإن يكذبوك** ﴾ يامحمد ﴿ **فقد كذبت قبلهم قوم نوح** ﴾ نوحاً عليه السلام ﴿ **وعاد** ﴾ هوداً عليه السلام ﴿ **وثمود** ﴾ صالحاً عليه السلام ﴿ **وقوم إبراهيم** ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ **وقوم لوط** ﴾ لوطاً عليه السلام ﴿ **وأصحاب مدين** ﴾ شعيباً عليه السلام ﴿ **وكُذب موسى** ﴾ أي كذّبه فرعون وملأه ، ولم يقل وقوم موسى ، لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه ، أو كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وظهور معجزاته ، وإذن فلست بأوحديّ في التكذيب ﴿ **فأمليت للكافرين** ﴾ أي أنظرتهم وأمهلتهم وأخّرت عقوبتهم

﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ أي عاقبتهم على كفرهم ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ، وتغييري بهم ، حيث أبدلتهم بالنّعم نقماً ، وبالحياة هلاكاً وبالعمارة خراباً ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها** ﴾ أي كم من قرية أهلكناها ﴿ **وهي ظالمة** ﴾ أي والحال أنها ظالمة ، أي أهلها مشركون مكذّبون للرسل ﴿ **فهي خاوية على عروشها** ﴾ أي فهي ساقطة على سقوفها ، أي قد خربت منازلها حتى إن السقوف ساقطة ، والجدران سقطت بعد على هذه السقوف لهلاك الجميع ، قال النسفي : أي خرَّت سقوفها على الأرض ، ثمّ تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ﴿ **وبئر معطلة** ﴾ أي متروكة لفقد دلوها ورشائها ، وفقد تفقدها ، أو هي عامرة فيها الماء ، وعندها آلات الاستقاء ، إلا أنها عطّلت ، أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿ **وقصر مشيد** ﴾ أي منيف ، مرتفع منيع حصين مزخرف ، والمعنى : كم من قرية أهلكناها ، وكم من بئر عطّلناها عن سقاتها ، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه ، أي أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً ، فخلت القصور عن أربابها ، والآبار عن ورادها ، بسبب التكذيب والظلم فليحذر المكذبون .

كلمة في السياق :

ما الصلة بين هاتين الآيتين وما قبلهما ؟ إن هاتين الآيتين تتحدثان عن نوع آخر من النصر الذي ينصر الله به رسله ، وهو الأخذ المباشر من الله عز وجل ، فإذا كان الله ينصر رسله وأولياءه في الآخرة ، وإذا كان ينصرهم في الدنيا إذا قاتلوا ، فإنه ينصرهم كذلك بأن يعذّب أعداءهم بعذاب منه تعالى ، وإذ يقرر الله عز وجل هذا النوع من النصر يلفت نظر الكافرين إليه : .

....

﴿ **أفلم يسيروا في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً وقال النسفي : هذا حث على السفر ، ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ﴿ **فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ أي يعقلون ما يجب أن يعقل من أسباب ما حلّ بالأمم المكذبة من النّقم والنّكال ؛ فيعرفون أن سبب ذلك التكذيب والشرك ﴿ **أو آذان يسمعون بها** ﴾ حقائق الوقائع فيعتبرون ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ أى ليس العمى عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، فإنّه وإن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لاتنفذ إلى العبر ، ولا تدري

ما الخبر إذا كان القلب أعمى قال النسفي : (أي فما عميت أبصارهم عن الإبصار بل قلوبهم عن الاعتبار ...... وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال إن القلب يعني به غير هذا العضو) أقول : القلب الذي هو محل الإيمان في الصدر ، وبينه وبين القلب الحسي صلة ، وقد دلتنا الآية على وجوب التفكر والتدبر ، ولكن الكافر بدلاً من أن يفكر فيعتبر فيؤمن ويتابع ، يكذب ويعلن عن تكذيبه بالاستهزاء في مظهر استعجال العذاب ، وقد صور الله هذا بقوله ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ﴾ تكذيباً به واستهزاءً بك واستبعاداً له ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ أي : الذي وعده من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ . قال ابن كثير في الآية : (أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير** ﴾ أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً .... ثم أخذتهم بالعذاب وإليّ المرجع فلا يفوتني شيء ، وبهذا انتهت المجموعة السابعة وانتهى المقطع الثاني .

كلمة في السياق :

صلة هذه المجموعة الأخيرة بما قبلها واضحة من حيث إنها تحذّر من عاقبة التكذيب الذي نهايته الهلاك في الدنيا ، وفي إهلاك المكذبين نصر للرسل عليهم السلام ، فلنتذكر الآن كيف سار المقطع : .

عالج المقطع قضية الشك في اليوم الآخر وهي العقبة الأولى في طريق العبادة والتقوى ، ثم عرض لصنف من الناس جاهل في الله ، والجهل بالله من أعظم الصوارف عن التقوى لأهله وللناس ، ثم عرض لصنف من الناس يعبد الله على حرف ، فعالج شأنه إذ هذا الشأن من أعظم القواطع عن الاستمرار في الطريق الموصلة إلى التقوى ، ثم عرض لموضوع اليأس من النصر ، وهو موضوع خطير ينقطع بسببه الكثير عن السير إلى الله فعالجه معالجة طويلة ، مبيّنا أنّ الله ينصر أهل الإيمان والتقوى ثلاثة أنواع من النصر : في الآخرة ، وفي الدنيا إذا قاتلوا ، وفي الدنيا بإهلاك أعدائهم ، ولمّا كان علم الله محيطاً ، وقد علم جل جلاله أن موضوع القتال في الإسلام ستكثر عليه الحملات ، فقد عرض النصر الذي هو أثر عن القتال بعد أن بيّن مبررات القتال من خلال الواقع العملي لقريش

زمن رسول الله ﷺ ، ومواقفها ، ومن خلال عرض قصة البيت الحرام ، وظلم قريش فيه ، وانحرافها ، واعوجاجها عن منهج إبراهيم عليه السلام ، وإذن فقد عالج الله في هذا المقطع الصوارف عن العبادة وعن التقوى ، وهما موضوعا السورة اللذان ذكرهما محورها من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وقبل الانتقال إلى المقطع الثالث فلنر فوائد المجموعة الأخيرة : .

الفوائد :

١ - من القضايا التي ثار فيها جدل كبير بين أهل السنة والجماعة والمعتزلة قضية الوعد والوعيد ، وهي إحدى المسائل الخمس التي تعتبر عَلَماً على مذهب المعتزلة ؛ فالمعتزلة يرون أنه لا يليق بجلال الله أن يخلف وعده أو وعيده ومن ثم فإن ما أوعد الله به العصاة واقع بهم لا محالة ، وأهل السنة قالوا : إن الله لا يخلف الوعد أما الوعيد فإن كان للكافرين فإنه لايخلفه ، وأما في حق العصاة من أمة محمد ﷺ فإنه قد يوقعه وقد يعفو كرماً ، وابن كثير يذكر هذه المسألة ويقرر مذهب أهل السنة والجماعة فيها من خلال قصة دون التعريج على اختلافات الفرق ، يذكر ذلك عند قوله تعالى ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ قال : قال الأصمعي : كنت عند أبي عمرو بن العلاء فجاء عمرو بن عبيد فقال : ياأبا عمرو هل يخلف الله الميعاد ؟ فقال : لا ، فذكر آية وعيد ، فقال له : أمن العجم أنت ؟ إن العرب تعدُّ الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، أما سمعت قول الشاعر :

ليرهب ابن العم والجار سطوتي ... ولا أنثني عن سطوة المتهدد
فإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ يذكر ابن كثير ما يلي : قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثني عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، خمسمائة عام » ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به وقال الترمذي حسن صحيح ، وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً فقال : حدثني يعقوب ثنا ابن علية ثنا سعيد الحريري عن أبي نضرة عن سمير بن نهار قال : قال أبو هريرة يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم قلت : وما مقدار نصف يوم ؟ قال أو ما تقرأ القرآن ، قلت بلى ؟

قال : ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه : حدثنا عمر بن عثمان حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأرجو أن لا تعجز أمتي ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . ورواه ابن جرير عن ابن يسار عن ابن مهدي ، وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية) .

٣ – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ .

أقول : إن الناس في عصرنا أصبحت لديهم تصورات واسعة حول الكون وعمره ، وحول الزمن كأثر من تطور مئات العلوم ، ومن ثم تجدهم يتحدثون عن كوكب ، أو عن نجم بأن يومه كذا ، ويقصدون بيومه الزمن ، الذي تستغرقه دورته حول نفسه ، وتجدهم يتحدثون عن يوم من أيام نجم أو كوكب بالأيام أو بالشهور أو بالسنين بالنسبة ليوم الكرة الأرضية ، فعندما نجد في القرآن مثل هذا النص الذي يقول ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ ندرك مباشرة أن مثل هذا النص ما كان ليوجد في كتاب قبل أربعة عشر قرناً ، وفي جزيرة العرب لولا أنه من عند الله المحيط علماً بكل شيء والخالق لكل شيء والمنزل هذا القرآن بعلمه قال تعالى ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾ ومن ثم فإنك تجد فيه آثار علم الله المحيط فالحمد لله على نعمة القرآن والإسلام .

ولننتقل إلى المقطع الثالث وهو يتكون من أربع مجموعات .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٧٢) وهذا هو :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ

بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ
﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ
وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ۚ
وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ
عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٧٢)

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثالث

﴿ **قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين** ﴾ أي : واضح النذارة ﴿ **فالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ أي لما سلف من سيئاتهم ﴿ **ورزق كريم** ﴾ أي ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ﴿ **والذين سعوا في آياتنا معاجزين** ﴾ أي سعوا في إبطال معناها بالفساد ، طاعنين فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير السابقين في زعمهم ، وتقديرهم ؛ طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم ، ظانين أنهم يعجزون ربهم ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أي النار ، والجحيم هي النار الحارة ، الموجعة الشديدة عذابها ، ونكالها أجارنا الله منها .

كلمة في السياق :

الصلة بين هذه الآيات الثلاث وما قبلها واضحة لأن ما قبلها ذكر فيه استعجال الذين كفروا للعذاب ، فجاءت هذه الآيات آمرة الرسول ﷺ أن يقول : إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد ، وليس إليّ من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله إن شاء عجّل لكم العذاب وإن شاء أخّره لكم ، ومضمون نذراتي أن من آمن وعمل صالحاً فله المغفرة والجنة ، ومن عاند وجحد وسعى في محاربة الإسلام فله النار .

وأما الصلة بين هذه الآيات والمحور ، فمن حيث إنها تنذر من لم يعبد ويتق ولم يستجب ، وتبشر من عبد واتقى واستجاب . ولنتابع التفسير :

بين أيدينا الآن مجموعة آيات هي من أكثر الآيات التي دارت حولها معارك بين المفسرين ، ونحن سنعرضها كما سنفهمها ، ثم نتحدث في الفوائد عن قضية الخلاف حولها .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من المقطع الثالث

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى** ﴾ أمنية لها علاقة في هداية أمته ﴿ **ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ أي في محل أمنيته وهي أتباعه ﴿ **فينسخ الله مايلقي الشيطان** ﴾ أي يذهب به ويبطله من قلوب المخلصين ﴿ **ثم يُحكم الله آياته** ﴾ أي في قلوب الأتباع المخلصين ، فيثبتها ويحفظها ﴿ **والله عليم** ﴾ بما يلقي الشيطان وبغيره ﴿ **حكيم** ﴾ في وضع كل شيء في محله ، وهو يثبت ما يثبت في القلوب ، وينسخ ماينسخ منها على مقتضى حكمته ﴿ **ليجعل مايلقي الشيطان فتنة** ﴾ أي محنة وابتلاءً ﴿ **للذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي شك ونفاق ﴿ **والقاسية قلوبهم** ﴾ بسبب من أعمالهم ﴿ **وإن الظالمين** ﴾ أي المنافقين والمشركين والفاسقين ﴿ **لفي شقاق بعيد** ﴾ أي لفي خلاف بعيد عن الحق والصواب ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم** ﴾ بالله وبدينه وبالآيات ﴿ **أنه الحق** ﴾ أي أن القرآن حق ﴿ **من ربك فيؤمنوا به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **فتخبت له قلوبهم** ﴾ أي فتطمئن ﴿ **وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** ﴾ في كل شيء قال النسفي فيها : فيتأوّلون ما يتشابه في الدين ، بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ﴿ **ولا يزال الذين كفروا في مرية** ﴾ أي في شك ﴿ **منه** ﴾ أي من القرآن أو الصراط المستقيم ﴿ **حتى تأتيهم الساعة بغتة** ﴾ أي فجأة ﴿ **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾ عن أن يكون للكافرين فيه فرج وراحة يقال : ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً ، أو شديد لارحمة فيه ، أو لامثل له في عظم أمره ﴿ **الملك يومئذ** ﴾ أي يوم القيامة أو يوم يؤمنون ، أو يوم تزول مريتهم ﴿ **لله** ﴾ لا منازع له فيه ﴿ **يحكم بينهم** ﴾ أي يقضي بينهم ثم بين ماسيحكم به فقال ﴿ **فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وحجته وكذّبوا به ، وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم ﴿ **فأولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أي مذل في مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق .

كلمة في السياق :

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في المجموعة الأولى أن يعلن للناس أنّه نذير مبين ، بيّن في هذه المجموعة سنّة من سننه ، أن هناك رغبة موجودة عند كل نبي ورسول ، فكل نبي ورسول يتمنى أماني ضخمة في هداية أمته ، والارتقاء بها إلى الله ،

ولكن الشيطان يلقي في قلب كل فرد من أفراد الأمة إلقاءه ، وفي هذا المقام فإن لله سنّة هي : أن إلقاء الشيطان يؤثر في مرضى القلوب ، وفي أصحاب القلوب القاسية ، ولكن إلقاء الشيطان لا يترتب عليه شيء في صدور الذين أوتوا العلم ، بل يتأكد عندهم بذلك أنّ وحي الله حق فيزدادون إيماناً وخشوعاً تحقيقاً لوعد الله عز وجل ، أن يهدي أهل الإيمان . هذا الذي قرّرناه هنا هو فهمنا لموضوع إحكام الله آياته ، ونسخ ما يلقي الشيطان في الآيات التي مرّت معنا فالله عز وجل في محكم آياته وعد أن لايجعل للشيطان على عباده المخلصين سلطاناً ، أما غيرهم فللشيطان عليهم سلطان ، ومن ثم ينسخ إلقاء الشيطان في قلوب أوليائه ، ويحكم آياته بذلك ، أي يثبتها عملاً بعد أن أثبتها في كتابه ، ثمّ قرّر أن أهل الكفر لا يزالون في شك من القرآن ، فما علاقة هذه المعاني في السياق ؟ إن هذه المعاني تبيّن للنذير سنة الله عز وجل في أمر الناس ، لكي لا يفاجأ إذا تعثّرت الأماني ، أو تعذرت ، ثم الصلة بين هذه المعاني ومحور السورة واضح ، فإن الدعوة عامة ، ولكن السائرين قليلون ، والمستجيبين قليلون ، والسير على طريق العبادة والتقوى يحول دونه قسوة القلب ومرضه ، والظلم والكفر والجهل ، ولنا عودة في الفوائد فلنمض في التفسير : بعد أن ذكر الله عز وجل في نهاية المجموعة السابقة ما سيحكم به لأهل الإيمان ، وما سيحكم به على أهل الكفر ، خص قوماً بالذكر لفضيلتهم ، هم المهاجرون ، وبذلك بدأت المجموعة الثالثة من هذا المقطع :

تفسير المجموعة الثالثة من المقطع الثالث

﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله** ﴾ ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده فتركوا الأوطان والأهلين ، والخلان ، وفارقوا البلاد في الله ورسوله ، ونصرة الإسلام ﴿ **ثم قتلوا** ﴾ أي في الجهاد ﴿ **أو ماتوا** ﴾ أي حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، ومن ثم قال ﴿ **ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً** ﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ **وإن الله لهو خير الرازقين** ﴾ قال النسفي : لأنه المخترع للخلق بلا مثال ، المتكفّل للرزق بلا ملال ﴿ **ليدخلنّهم مدخلاً** ﴾ هو الجنة ﴿ **يرضونه** ﴾ لأن فيها ما تشتهي الأنفس ، وتلذّ الأعين ﴿ **وإنّ الله لعليم** ﴾ بأحوال من قضى نحبه مجاهداً ، وآمال من مات وهو ينتظر أن يقتل في سبيل الله ﴿ **حليم** ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفّرها عنهم ، بهجرتهم إليه ، وتوكّلهم عليه ، أو حليم بإمهال من قاتل أولياءه معانداً .

وبعد أن ذكر الله عز وجل سنة من سننه فيما مضى يذكر ههنا سنة أخرى من سننه فيقول : ﴿ **ذلك** ﴾ أي الأمر ذلك ﴿ **ومن عاقب بمثل ماعُوقِب به** ﴾ أي ردَّ على الإساءة بمثلها ﴿ **ثم بُغيَ عليه** ﴾ أي ثم ظلم بعد ذلك ﴿ **لينصرنّه الله** ﴾ أي من جازى بمثل مافعل به من الظلم ، ثم ظلم بعد ذلك ، فحق على الله أن ينصره ﴿ **إن الله لعفو** ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿ **غفور** ﴾ لمن اجتهد فأخطأ ، أو أذنب فتاب .

كلمة في السياق :

مامحلّ ذكر هذه السُّنة في السياق ؟ وردت هذه السنة بعد ذكر الهجرة والقتال ؛ مما يشير إلى أن حق المهاجرين في الانتقام قائم ، وأنّهم إذا انتقموا ثم اعتدي عليهم فإن الله ناصرهم ، وذكر هذه الآية في هذا السياق يشير إلى أنه لا يتنافى مع التقوى أن يعاقب الإنسان بمثل ماعوقب به ، كما لايتنافى مع التقوى أن يردّ إذا اعتدي عليه مرة ثانية ، وختم الآية بذكر العفو والمغفرة إشارة إلى التجاوز عن المعاقب ، إذا صحت نيته بالعدل ولو زاد ، أو إشارة إلى قدرته على العقوبة ، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ، والآن تأتي آيتان لتعليل سنة الله هذه ، مما يشير إلى أهمية هذه السنة .

﴿ **ذلك** ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على مايشاء ومن آيات قدرته ﴿ **بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ أي يزيد هذا في ذلك ، ومن ذلك في هذا ﴿ **وأن الله سميع** ﴾ بأقوال عباده ﴿ **بصير** ﴾ بهم لا يخفى عليه منهم خافية ، في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم ، فلأن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار بالليل ، ولأنه سميع بصير ، فإنّه ينصر من بغي عليه ، إذ إنهّ إذا لم يفعل ذلك هو فمن يفعله ؟؟ ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق** ﴾ ومن ثم فإنه ينصر الحق ﴿ **وأن مايدعون من دونه** ﴾ من الأصنام والأنداد والأوثان وكل ماعبد من دونه ﴿ **هو الباطل** ﴾ ومن ثم فإنه ينصر أولياءه ، لأنهم يدعونه ﴿ **وأن الله هو العلي** ﴾ فلا أعلى منه شأناً ﴿ **الكبير** ﴾ فلا أكبر منه سلطاناً ، ولعلوه وعظمته فإنه ينصر المظلومين ، فمن أجدر منه بذلك ؟ وهكذا عرض الله علينا سُنتين في المجموعتين الأخيرتين ، عرض علينا في المجموعة الأخيرة سنة من سننه في النصر ، وعرض في المجموعة قبلها سنة من سننه في الهداية والإضلال ، وفي ذكر هاتين السُنّتين بعد الأمر بالإنذار الذي ورد في المجموعة الأولى تعليم للنذير ؛ ليعرف ما يمكن أن يلاقيه في السير ، فما لم يعرف الداعية سنة الله

عز وجل فإنه يفاجأ ، أولا يحسن التصرف ، أو لايعرف كيف يتخذ موقفاً ، وإذا اتخذ موقفاً فقد لا يعرف عاقبته ، إنّه بعد معرفة السنة الأولى لم يعد النذير يفاجأ إذا رأى خللاً في تصرفات بعض الأتباع ، وبعد معرفة السّنة الثانية أصبح النذير أكثر إقداماً على العقوبة العادلة ، والكلام عن العقوبة في السورة التي تأذن في القتال مفهوم الصلة .

إنّ سورة الحج تفصّل في قضية العبادة والتقوى لأنها تفصّل محورها من سورة البقرة وهو : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وإذا كانت السورة تفصّل هذا المقام فإن هذا المقطع يختص بتوجيه الداعية إلى عبادة الله وتقواه وهو رسول الله ﷺ ومن ثم نلاحظ أن المقطع بدأ بكلمة ﴿ **قل** ﴾ وسيأتي معنا فيه ﴿ **ألم تر** .... ﴾ ﴿ **ألم تر** ﴾ ﴿ **ألم تعلم** ﴾ والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ بشكل مباشر - فهو خطاب لورّاثه خاصة وخطاب لأمّته عامّة ، ولنمض في التفسير ملاحظين أنّ المقطع بدأ بقوله تعالى : ﴿ **قل** ﴾ والآن يأتي قوله تعالى ﴿ **ألم تر** ﴾ .

تفسير المجموعة الرابعة من المقطع الثالث

﴿ **ألم تر أنّ الله أنزل من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ بالنبات بعد ماكانت مسودة يابسة ﴿ **إن الله لطيف** ﴾ أي واصل فضله إلى كل شيء ﴿ **خبير** ﴾ أي بمصالح الخلق ومنافعهم وذكر الله اللطيف في هذا السياق يفيد أنه المختص بدقيق التدبير ، وذكر اسم الخبير في هذا السياق يفيد أنّه المحيط بكل قليل وكثير ﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي جميع الأشياء ملكه ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، عبد لديه ، ومن ثم قال ﴿ **وإن الله لهو الغني** ﴾ أي المستغني عن كل شيء ، وغيره فقير إليه ﴿ **الحميد** ﴾ أي المحمود ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض** ﴾ من معادن وتراب وهواء وعناصر ومركّبات وأحياء وجمادات ونباتات ﴿ **والفلك** ﴾ أي السفن ﴿ **تجري في البحر بأمره** ﴾ أي وسخّر لكم الفلك تجري في البحر بتسخيره وتيسيره ﴿ **ويمسك السماء** ﴾ أي كل ما دون الأرض مما هو فوقها ﴿ **أن تقع** ﴾ أي من أن تقع ﴿ **على الأرض إلا بإذنه** ﴾ أي بأمره ومشيئته ، كما يأذن مثلًا لبعض النيازك أن تصل إلى قشرة الأرض ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف** ﴾ بتسخير ما في الأرض ﴿ **رحيم** ﴾ بإمساك السماء لئلا تقع على الأرض . قال النسفي : عدّد آلاءه مقرونة بأسمائه ؛ ليشكروه على آلائه ، ويذكروه بأسمائه

﴿ **وهو الذي أحياكم** ﴾ أي بعد أن كنتم تراباً ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ **ثم يحييكم** ﴾ لإيصال جزائكم ﴿ **إن الانسان لكفور** ﴾ أي جَحود قال النسفي في معناها: (إن الإنسان لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم، أو لايعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصّل إلى المقصود)

كلمة في السياق :

عرّفنا الله عزّ وجّل في هذه الآيات على عدد من آلائه وأسمائه، وكأن هذا التعريف في هذا السياق فيه تعليل للأمر بالإنذار، فإن مقتضى كون الله منعِماً أن يكلف عباده بواسطة رسوله، وأن يحذّرهم عاقبة ترك التكليف، وأن يبشّرهم بما لهم إن قاموا بحقّه، والآيات عرّفت على الله بما يستخرج العبادة والتقوى، إذ العبادة والتقوى أثر المعرفة لله وعرّفت على الله بما يستجيش الشكر، والعبادة والتقوى بهما يكون الشكر .

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .** ﴾ ﴿ **واتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ ولنتابع تفسير المجموعة الرابعة .

﴿ **لكل أمة** ﴾ أي لكل أهل دين، أي لكل أمّة نبيّ ﴿ **جعلنا مَنْسَكاً** ﴾ أي موضعا يحجون إليه ويذبحون عنده ﴿ **هم ناسكوه** ﴾ أي هم معتادون على فعله، إذ أصل المنسَك في كلام العرب : هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه، إما لخير أو شر، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك ؛ لترداد الناس وعكوفهم إليها ﴿ **فلا ينازعُنَّك في الأمر** ﴾ أي أمر الذبائح، أو الدين أي فلا يجادلنّك، والمعنى: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكّنهم من أن ينازعوك في هذا الموضوع ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أي إلى دينه وشريعته، وعبادته وتقواه ﴿ **إنك لعلى هدى مستقيم** ﴾ أي طريق قويم ﴿ **وإن جادلوك** ﴾ مراءً وتعنتاً كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك ألّا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال ﴿ **فقل الله أعلم بما تعملون** ﴾ أي فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول : إن الله أعلم بأعمالكم كلها، ما تخفونه وما تظهرونه، وما تريدون بها وما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا رد ووعيد وإنذار وتأديب يجاب به كلّ متعنّت ﴿ **الله يحكم بينكم** ﴾ أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ﴿ **يوم القيامة** ﴾ ﴿ **فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، ثم ختم الله عز وجل هذه المجموعة بقوله ﴿ **ألم**

تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ أي يعلم الموجود فيهما ﴿ **إن ذلك في كتاب** ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي علمه بجميع ذلك يسير .

نقــل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ....** ﴾ ننقل ما ذكره الأستاذ أبو الحسن النّدوي في كتابة (الأركان الأربعة) عن بقايا ما هو موجود عند الأمم الأخرى من المناسك ، قال :

« الحج والزيارة » في الديانات القديمة ، سماتهما وفوارقهما :

لم تُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم ، إلا وعندها أمكنة مقدسة تشدُّ إليها الرحال ، وتحث فيها المطيَّ ، ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني « والزيارة المقدسة » وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالإنسان كما قلنا لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه ، ويوجّه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاقٍ يكَفِّر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلّب به على وخز الضمير ، وتأنيب الحس الديني ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة إلى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الأخوة الدينية ، والعاطفة الروحية ، لذلك لم تخل أمة من الأمم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ، ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقرِّبون القرابين لله تعالى ، أو لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **لكـل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين** ﴾ (الحج : ٣٤)وقال : ﴿ **لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعُنّك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدىً مستقيم** ﴾ (الحج : ٦٧) وقد كشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه المناسك والمشاهد في المدنيات البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحدث التاريخ عن وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن الاهتداء إلى حقيقتها وتاريخها ، والأحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جداً ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك ، إلا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يكوِّن بها فكرة كاملة ، أو صورة واضحة :

والديانة اليهودية ، ثم المسيحية من أقرب الديانات إلينا ، وقد عاشتا زمناً طويلاً في عصر التاريخ والعلم ، وعني بهما المؤرخون والمؤلفون ولاتزالان ديانتي أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ، ومركزهما الروحي الأصيل ، والحج إليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (إذا قارنا ذلك بالحج الإسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة هائلة ، وهو مدوّن تدويناً لا يجد فيه الباحث عناء) . وهذه خلاصة ما جاء في « دائرة المعارف اليهودية » المجلد العاشر(١) :

« إن الحج إلى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة (RE YIAH) يؤدى في زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد(٢) وعيد الفصح (اليهودي) وعيد المظال ، وكان الحج فريضة على جميع اليهود ، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، والإناث ، والعميان ، والعرج ، والضعفاء المصابين بأمراض بدنية أو عقلية ، وكانت الشريعة الموسويَّة توجب على كل حاج أو زائر) أن يأخذ معه (تقدمة للرب) ، ولكنها لم تعيّن المقدار ، وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة ، كان يؤمه عدد كبير منهم من الأزواج والآباء كما هو الشأن في الأسواق العامة ، ولا تخلو الروايات التي وردت عن عدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة(٣) ، وكانت الخرفان تذبح في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح تقدَّم إلى حرّاس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وأيوائهم من غير مقابل .

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير (المعبد) أيضاً ، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧م ، تسنَّى لليهود القاطنين في المنطقة الشرقية أن يزوروا بيت المقدس ، وما عداه من الأمكنة المقدسة (بين دمشق ، وبابل ، ومصر) وقد اعتاد

---

(١) جيوش انسائكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia-Vol-See Pilgrimage)

(٢) جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان عيد الحصاد ، وهو من أعياد الحج الثلاثة التي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس ، اقرأ عنوان : (Pentecos) .

(٣) منها ، ماقيل أنه بلغ عدد الخرفان المذبوحة ، في عام بين ٦٣ - ٦٦م إلى ٢٥٦٫٥٠٠ ، فإذا فرض أن خروفاً كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم إلى أكثر من مليونين ونصف حاج ، أو زائر ، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الخراف إلى ١٢٠٠٠٠ خروفاً ، وقد اعترف كاتب المقال في (دائرة المعارف) بأنه لا يخلو من المبالغة .

اليهود في الشرق ، ولا سيما في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ، أن يؤدوا فريضة الحج مَرّة في السنة ، على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام ، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود في أوروبا على الحج والزيارة ، وفي عام ١٤٩٢م عندما أجلي اليهود من أسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم إلى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوّار ، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة[١] ، حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية .

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين في بلدان أخرى ، الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيهما ، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالي إفريقيا أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم أن يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ومنهم من اشتهر كملك ، أو كنبي ، أو كصالح ووليّ ، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية وإظهار الفرح والسرور ، شأنهم في الأعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز إلى اليوم التاسع من (آب) ثلاثة وعشرين يوماً متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل (سليمان) ، وتبتدىء هذه العبادة في اليوم التاسع من آب ، من نصف الليل .

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية ، يُشد إليها الرحال في كل قطر وبلد[٢]) .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهذه خلاصة لما جاء في (دائرة الأديان والأخلاق) .

(الحج : اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في (روما) ، أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزّهّاد والشهداء .

إن الجيل المسيحي الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها ، بالنسبة إلى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ،

---

(١) قرية في فلسطين (الجليل) .

(٢) راجع دائرة المعارف اليهودية . عنوان «Pilgrimage» .

وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبّع تعاليمه ووصاياه .

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة ، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً ، وكانت (روما) المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية ، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجمٍّ غفير .

إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قمتها ، جعلت روما مركزاً للزيارة ، ولا سيما ، وأن ضريحي القديس بطرس ، والقديس بولس قد أضفيا عليها من العظمة والجلال ماجعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً ، وقد كان إقبال الزوّار عظيماً على سراديب الأموات (Cata combs)[١] التي تقدّس لأجل عظام الشهداء ، إن الزوّار لم يتوقفوا عن زيارة (روما) في أي فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمان .

والقارىء يتخم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد العامة في أرض فلسطين ، والمحلية المنتشرة في كل قطر أو ولاية ، أو بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد ، وصاحب مقال (الحج والزيارة) في (دائرة المعارف اليهودية) وفي (دائرة الديانات والأخلاق) يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسيوية مختلفة ، ويذكر الأيام والشهور التي تزار فيها ، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد ، وإذا تأمل القارىء في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد ، وتقديسهم لها ، وتجشم الأسفار والمتاعب في سبيلها ، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان ، وكيف أثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم ، حتى وصلوا إلى حد الشرك ، وعبادة غير الله ، عرف سر شدة إنكاره صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة ، وإشفاقه من أن يتسرَّب ذلك إلىٰ المسلمين- حملة لواء التوحيد إلى الأبد ، والأمة الأخيرة - وحرصه الشديد على أن يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلوّ ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الأخير ، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قالا : « لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه ، فقال - وهو كذلك - لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذّر

---

(١) تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان .

ماصنعوا » . وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وعن عائشة رضي الله عنها « أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرت له مارأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح - أو الرجل الصالح - بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » ، وثبت عنه ﷺ أنه قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك في الموطأ .

وقد ضيّق الرسول ﷺ السبيل في وجه تجشُّم السفر الطويل ، وشدّ الرحال إلى المشاهد والضرائح ، والأمكنة المتبرّكة بقوله المأثور المشهور : « لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى » (رواه البخاري) ، فوقى بذلك أمَّته من الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ، والأمم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة .

لكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل بوصيّته التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تُلقِ لها بالاً ، وافتتنت بالمشاهد ، والآثار ، وشدِّ الرحال إليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبرّكاً وتعبُّداً ، افتتاناً عظيماً ، فكان ذلك تصديقاً لقوله ، وتحقيقاً لإخباره : « لَتَتَبِعُنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قيل : يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن » (متفق عليه) ، واغتصبت هذه المشاهد والضرائح - ومنها ماهو مكذوب ومزوّر - حظّ المساجد ، وحظ المسجد الحرام في بعض الأحيان ، وقد جعلها الجهَّال في كثير من الأقطار (كعبة) يشدّون إليها الرّحال ، ويقصدونها من نواحٍ بعيدةٍ ، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه في كل سنةٍ ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الأسواق .

وقد أجاد شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميَّة في وصف هذه الطوائف بجملته التاريخية البليغة ، (مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة[1]) ، والسائح في الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ، ومساحاتها الواسعة ، وأبنيتها الضخمة ، وقبابها الرفيعة في كل بلد يمرّ به ، ويرى هنالك من أعمال شركيّة كالسجود ، والنذور

---

(١) راجع ماقاله شيخ الإسلام في هذا الموضوع في الجزء الأول من منهاج السنة - ص ١٣٠ - ١٣١ .

والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح ، مايندى له جبين الإسلام .

أما الديانات الهندية – بما فيها من البوذية والجينية والبرهميّة – فقد كثُرت فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة (المقدَّسة) المقصودة من النواحي والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الأمكنة التي يرون لها شرفاً عظيماً ، وقُدساً خاصاً ، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة ، وأُكرم فيها بعض عظمائهم بالقُرب أو الكلام ، أو الوصول والمعرفة ، أو تجلَّت فيها بعض آلهتهم – كما يزعمون – تجلِّياً خاصاً ، وكثرت فيها الأعياد الدينيّة ، والمواسم والأسواق ، التي انصبغت بصبغة الدين .

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدَّسة على ساحل نهر (الكنج) (GANGES) المقدَّس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل ، للاغتسال في النهر المقدَّس ، ومنها مايجتمعون فيها سنوياً ، أو عدة مرات في السنة ، ومنها مايجتمعون فيها بعد سنين ، كغسل (KUMBH) الذي يجتمعون له بعد اثني عشر عاماً ، عند ملتقى نهري (الكنج وجمنا ، في برياك (PARAYAG)[1]ومن أشهرها مدينة « بنارس » في الولاية الشمالية ، على نهر (الكنج) ويعدُّون الاغتسال فيه كفّارةً للذّنوب ومن أعظم الحسنات والقربات ، ويؤثرون الموت في هذه المدينة ، وتُنقل إليها جُثث الموتى من النواحي البعيدة ، لتُحرق هناك ، أو تُترك في النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهندية ، ومنها بلدة (أجودهيا) التي كانت مركزاً (لراما) (RAM CHANDER) و (متهرا) التي لها اتصال بتاريخ (كرشنا) (KRISHNA) ، ومنها(هردوار) أي باب المعبود أو باب الإله وكلّها في الولاية الشمالية الغربية ، وهنالك مشاهد وشواطىء ، ومعابد هامّة تُعدّ بالعشرات في شبه القارة الهندية ، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق ، وباختلاف الطوائف التي تدين بها .

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة (كيا) (GAYA) في ولاية (بِهَار) التي قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤَلَّهُ (كوتم بده) GOTAM BUDDHA مدةً طويلةً ، وتشرَّف بالشهود أو المعرفة ، التي يسمونها (نيروان) NIR VAN .

والأعياد والأسواق التي تُقام في هذه الأمكنة المقدّسة ، وعلى الشواطىء ، مسرح الفوضى والجنايات ، ويتجلّى فيها عدم النّظام ، وعدم النّظافة لكثرة الزوّار والقاصدين

(١) من ضواحي « إله أباد » المدينة المشهورة .

الذين قد يبلغ عددهم - خصوصاً في الأعياد والأسواق التي تُقام بعد مجموعة من السنين - إلى ملايين من النفوس ، رغم حرص الحكومة على إقامة النظام وقوانين الصّحة ، والوقاية من الأمراض ، وتقترن بتقاليد جاهلية ، وأعمال شركيّة ، وأساطير الآلهة والإلهات القديمة ، ومن إعجاز القرآن ، أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه إبراهيم وحث عليه ، نعى على الشرك والوثنية والزور الذي تلوَّثت به المناسك ، وأعمال الحج والزيارة في الديانات والأمم الأخرى ، فقال : ﴿ **ذلك ، ومن يعظِّم حرماتِ الله فهو خير له عند ربه * وأُحلَّت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به** ﴾ (الحج : ٣٠ ، ٣١) .

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة ، والرحلة الدينية في ديانات العالم الرئيسية ، التي لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدُّون بالملايين ، وملايين الملايين ، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي رحمة الله عليه ، عميق النظر ، واسع الإطلاع ، غير مجانب للصواب والإنصاف ، إذ قال في كتابه (حجة الله البالغة) وهو يتكلّم في موضوع الحج :

(وأصل الحج موجود في كل أمَّة ، لابدَّ لهم من موضع يتبركُون به ، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيآت مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ، لأنها تذكر المقرَّبين وماكانوا فيه .

وأحقّ مايحج إليه بيت الله ، وفيه آيات بينات ، بناه إبراهيم صلوات الله عليه ، المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم ، بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً ، إذ ليس غيره محجوج إلاَّ وفيه إشراك أو اختراعُ مالا أصل له) .

ويستطيع القارىء في سهولة أن يُقارن بينها وبين الحج الإسلامي ، ويَعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع ، ويقرأ قوله تعالى ، ويحدِّث بنعمة ربِّه : ﴿ **لكل أمةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه ، فلا ينازعُنّك في الأمر وادع إلى ربِّك إنك لعلى هدىً مستقيم** ﴾ (الحج : ٦٧) اهـ كلام الندوي .

أقول : إنّ وجود الحجّ عند كلّ الأمم ، كبقية باقية من هدي الأنبياء السابقين ، يظهر لنا أنّ في قوله تعالى : ﴿ **لكل أمة جعلنا مَنسكاً** ﴾ معجزة من معجزات هذا القرآن الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نقل :

عند قوله تعالى : ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له ، وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً . وكل تفسير فلكي للنظام الكوني ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المعظم للوضع القائم الذي أنشأه خالق هذا النظام . وإن كان بعضهم ينسى هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الكوني ينفي يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ، وهذا وَهْم عجيب وانحراف في التفكير غريب فإن الاهتداء إلى تفسير القانون - على فرض صحته - والنظريات الفلكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الكونية تصح أو لاتصح ، وتثبت اليوم وتبطل غداً بفرض جديد - لا ينفي وجود واضع القانون وأثره في إعمال هذا القانون والله سبحانه ﴿ **يمسك السماء أن تقع على الأرض** ﴾ بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ وذلك يوم يعطّل الناموس الذي يعمل بحكمة ويعطله كذلك لحكمة) .

كلمة في السياق :

لإدراك محلّ الآيات الأخيرة في السياق فلنتذكر ما يلي : في عصرنا نجد كثيراً من المتحذلقين أو الجاهلين عندما يحجون فيرون أن كثيراً مما يذبح من الهدي أثناء تأدية مناسك الحج يذهب هدراً يبدأون يقترحون الاقتراحات ، أو يتساءلون عَمّا إذا كان الأحسن عدم الذبح ، أو يدعون إلى ترك الذبح ، وقد يعللون ذلك بأنَّ الرسول ﷺ عندما سنَّ الذبح لم يكن الوضع على ماهو عليه الآن ، وقد ينظر بعضهم إلى الأمر نظرة اقتصادية - في زعمه - فلا يرى الذبح ، فعندما تأتي هذه الآيات مقرّرة أنّ الذّبح شريعة الله المستمرة في كل العصور ، وأن الذين يجادلون في ذلك ينبغي ألا يلتفت إليهم ، وأن هذا صراط الله ، وأن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ، وأنّه سجّل ذلك كله في كتاب ، مِمَّا يدل على إحاطة علمه بكل شيء ، حتى قبل وجوده ، إن الله الذي يعلم هذا هو الذي شرع هذا ، فليس الأمر كما يزعمون . إن ما يربي التقوى أغلى في ميزان الله من كل مادّيات الدنيا ، فمن نظر إلى المسألة بغير هذا المنظار ، فهو منكوس القلب . إذا اتضح هذا فلنلاحظ : إنّ الكلام عن المناسك جاء بعد التذكير بالنّعم ،

فكأنّ هذا يشير إلى أنّ الذبح هو جزء مما ينبغي أن يفعله العباد ليشكروا نعمة الله ، وإذا كان هذا سينازع فيه فقد ذكر الله عز وجل في هذا المقام ما يقطع النزاع ، وذكره في سياق المقطع الذي يري فيه الداعية أن موضوع الذّبح الذي مكانه في شريعة الله عظيم ومكانه في العبادة والتقوى عظيم يحتاج إلى عودة إليه ، ومن ثم عاد السياق إليه بعد ما ذكر في المقطع السابق ، هناك ذكرت مكانة الذبح في قضية التقوى ، وهھنا يذكر الله عزّ وجلّ عنه أنّه شريعته المستمرّة ، وكيف ينبغي أن يكون الموقف ممن ينازع فيه بشكل مباشر ، فالآيات الأخيرة إذن وضعت الأمر في نصابه في قضية سينازع فيها ، وهي مرتبطة في العبادة والتقوى .

ولنتابع تفسير المجموعة الرّابعة : فمع كلّ الآيات ، ومع كل النعم ، ومع كل الحجج ، فإن الكافرين يصرّون على كفرهم وشركهم ﴿ **ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً** ﴾ أي حجة وبرهاناً ﴿ **وما ليس لهم به علم** ﴾ بل هم يعبدونها بمحض الجهل ، إنّهم لم يتمسكوا في عبادتهم لها ببرهان سماوي من جهة الوحي ، ولاحملهم عليها دليل عقلي ، وهذا غاية الظلم أن يعبدوا غير الله بلا دليل من العقل ولا من النقل ، ومن ثمّ توعّدهم بقوله ﴿ **وما للظالمين من نصير** ﴾ أي وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أي القرآن ﴿ **بينات** ﴾ أي واضحات ، وفيها الحجج والدلائل على توحيد الله ووجوب عبادته وتقواه ﴿ **تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر** ﴾ أي الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿ **يكادون يسطون** ﴾ أي يبطشون ﴿ **بالذين يتلون عليهم آياتنا** ﴾ أي بالرسول ﷺ وأصحابه ، وذلك دأب الكافرين مع الدعاة في كل زمان ومكان ﴿ **قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم** ﴾ أي من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم ، أو ممّا أصابكم من الكراهة والضّجر بسبب ما تلي عليكم ﴿ **النار** ﴾ كأن قائلاً قال : ما هو ؟ فجاء الجواب : هو النار ﴿ **وعدها الله الذين كفروا** ﴾ أي وعد الله النّار أن يعطيها الكافرين ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي وبئس النّار مقيلاً ومنزلاً ومرحباً وموئلاً ومقاماً ، وبهذا انتهى المقطع .

كلمة في السياق :

لاحظ أنّ بداية المقطع هي قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين** ﴾ وأن نهايته هي قوله تعالى : ﴿ **قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم النار وعدها الله الذين**

كفروا وبئس المصير ﴾ وما بين القولين كان المقطع : الذي فيه إنذار وتبشير ، والذي فيه عرض لسنن ، وإقامة حجة على شرائع ، وإنكار على شرك ، وكلها معان تخدم قضية العبادة والتقوى ، والآيات الأخيرة حذّرت من الشرك ودلّت على خلق من أخلاق أهله إذا أنذروا ، وفي ذلك تحذير للمسلمين العابدين المتقين أن يكون موقفهم ممن يذكّرهم يشبه مثل هذا الموقف ، إن المقطع فيه الإنذار الذي يبعث على التقوى ، وفيه التبشير الذي يهيّج على التقوى وفيه التعريف على الله ، وهو تعريف يستجيش العواطف نحو عبادته تعالى ، وفيه التذكير بنعم الله ، وهو تذكير يستجيش مشاعر التقوى ، وفيه التعريف على أخلاق للكافرين ، ومواقف لهم تتعارض مع العبادة والتقوى ، وفيه تربية للداعية وتوجيه له وتعليم ، والملاحظ أن الآية قبل الأخيرة هي : ﴿ **ويعبدون من دون الله** ...... ﴾ ولذلك صلته بمحور السورة الذي هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ لقد بيّن الله عز وجل في هذا المقطع ما يلزم لإقامة العبادة والتقوى ، ولكن مع هذا كله يوجد من يعبد غيره بلا دليل من العقل ، ولامن النقل ، ومع أنهم كذلك فإنهم يكادون يسطون بالذين يدعونهم إلى ما يقوم عليه دليل العقل والنقل . وفي المقطع شيء آخر له علاقة في السياق : عندما قال الله في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ أتْبَع ذلك بتعريفنا عليه فقال ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ وفي هذا المقطع ذكّرنا الله بكل هذه الحقائق الواردة هناك : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرّة إن الله لطيف خبير * له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد * ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور** . ﴾ . مما يدل على أن ذكر الآيات هنا يخدم سياق الأمر بالعبادة والتقوى ، كما أن تلك الآيات تخدم ذلك ، ومما يدل على أن هذا المقطع يصب على الشيء نفسه الذي تصب عليه السورة كلها (**التقوى**) . وقد آن الأوان لنذكّر بأخطر قضية نواجهها في عصرنا قضية منع الناس من الحج من قِبَل الحكومات الظالمة ، فلقد رأينا في هذا المقطع أنه بعد الآيات التي لفتت النظر إلى نعم الله جاء قوله تعالى : ﴿ **لكل أمة جعلنا مَنْسَكاً هم ناسكوه فلا ينازعُنَّك في الأمر** .... ﴾ وهذا أفاد ما أفاد مما

ذكرناه من قبل ، والآن نقول : إن أخطر ما يحاول الكافرون في عصرنا القضاء عليه هو الحج ، وقد ذكرنا أدلة ذلك في مقدمة كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقا) لأن الحج هو الذي يثير كل مشاعر الوحدة عند المسلمين ، ويزيل كل مشاعر الفرقة بينهم ، وقد درجت حكومات في العالم الإسلامي وفي غيره أن تمنع المسلمين من الحج بكل وسيلة ، وبكل حجة ، ومنها الحجج الاقتصادية الباردة ، فتجد هذه الحكومات الفاجرة تنفق قطعها النادر على التجسس على شعوبها ، أو تبذره في كل طريق كافر ، ومع ذلك تمنع المسلم إذا أراد أن يحج بحجة أنه سينفق مالاً خارج قطره ، وكأنه ينفق في أرض غريبة ، وهذا يدخل في قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام** .... ﴾ وقد آن الأوان أن ننقل ما نريد نقله من فوائد لها صلة بهذا المقطع :

الفوائد :

١ ــ عند قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطانُ ثم يحكم الله آياته** ﴾ يذكر المفسرون قصة الغرانيق ، ثم يحاولون تعليلها أو توجيهها ، مع أن المحدّثين يردونها من أساسها ، حتى ألَّف بعضهم رسائل مستقلة في إبطالها ، ومن ثم فإننا لن نذكرها ، ولن نتكلّف للرد عليها مادام أصلها غير ثابت ، ولعلنا نتعرّض لها في كتاب (الأساس في السنة) ولعل من جملة ما جعل للقصة رواجاً هو عجز بعض المفسّرين عن فهم الآيات ، فرأوا في القصة توجيهاً سهلاً للآيات فساروا عليه .

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي** ﴾ قال النسفي : (هذا دليل بيِّن على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي بخلاف ما يقول البعض إنهما واحد وسئل النبي ﷺ عن الأنبياء فقال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » فقيل : فكم الرسل منهم ؟ فقال : « ثلثمائة وثلاثة عشر » والفرق بينهما أن الرسول من جمع إلى المعجزة – الكتاب المنزل عليه ، والنبي من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ، وقيل الرسول واضع شرع والنبي حافظ شرع غيره) .

٣ ــ نلاحظ من قوله تعالى : ﴿ **ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم** ﴾ أن إلقاء الشيطان ونفاذ أمره يحتاجان إلى مناخ ملائم ، والمناخ الملائم لإلقاء الشيطان هو مرض القلب وقسوته ، وقد حمل بعض المفسرين كلمة : ﴿ **والقاسية قلوبهم** ﴾ على الكفار ، وليس لهم دليل على ذلك لأن قسوة القلب مرض

قد يصيب المؤمنين ، والدرس الذي نستفيده من الآيات هو أن مادام هناك قسوة قلب ، ومرض قلب ، فللشيطان سبيل إلى فتنة الإنسان ، ومن ثم فإن أول ما ينبغي أن يعالجه المربُّون هو مرض القلب وقسوته ، ومرض القلب النفاق ، وقسوة القلب مرض غير النفاق ، ولا يتخلّص الإنسان من النفاق وقسوة القلب إلا ببذل جهد ذاتي لذلك ، فمهما كان المربي قوياً إذا لم تواته همة المريد فلا فائدة ، ومن ثم فإن على المسلم أن يبتعد عن كل شيء يقسي القلب .. ككثرة الكلام الذي لا فائدة منه « لاتكثر الكلام بغير ذكر الله فإن الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي وككثرة الضحك فإنها تميت القلب ، وكمجالسة أهل الدنيا بلا ضرورة ، ولابد للمسلم أن يبتعد عن كل أسباب النفاق من محبة الظالمين وموالاتهم ، ومودتهم ، وطاعتهم ..

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم** ﴾ . قال ابن كثير : (فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ (آل عمران : ١٦٩) والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم ، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق وعظم إحسان الله إليه ، روى ابن أبي حاتم عن شرحبيل بن السمط أنه قال : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمرَّ بي سلمان - يعني الفارسي - رضي الله عنه ، فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين » واقرءوا إن شئتم ﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنّهم مُدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم** ﴾ وروى أيضاً عن همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري - صاحب رسول الله ﷺ - فمرَّ بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفىً فمال الناس على القتيل فقال فضاله : مالي أرى الناس مالوا علي هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ماأبالي من أي حُفْرَتيْهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا** ﴾ حتى بلغ آخر الآية) .

٥ - نلاحظ أن هناك ثمانية آيات من قوله تعالى ﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا ....** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ وفي سبع آيات منها ورد في كل منها اسمان من أسماء الله الحسنى ، وقد نقل النسفي عن أبي حنيفة رحمه الله : أن اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية لذلك يستجاب لقرائها .

٦ ـــ عند قوله تعالى ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

أقول : إن قوله قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء يشير إلى أن العرش والماء كانا موجودين ، ولا يفهمنّ فاهم أنّ هذا التقدير مستأنف ، فالله علم أزلاً وقضى وقدّر ولكن الإبراز الأول إلى اللوح المحفوظ كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ولنلاحظ أن الرقم (خمسين ألف سنة) هو يوم من أيام ربنا كما قال تعالى في سورة المعارج ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ فالله عز وجل ذكر يوما عنده كألف مما نعدُّ ، وذكر يوماً عنده مقداره خمسون ألف سنة ، وكما قلنا من قبل فإن مثل هذه الأرقام في القرآن عن الأيام لايدرك مدى الإعجاز في ذكرها إلا الإنسان المعاصر ، الذي صار يقيس دورات المجرات بالسنين الضوئية ، وأبعاد ما بين النجوم بمثل هذا ، ويعرف أنّ أياماً في غير هذه الأرض تزيد كثيراً على يوم الأرض .

٧ ـــ ونحب قبل أن ننتقل عن هذا المقطع أن نؤكد على معنى هو أنّه في هذا المقطع الذي هو أمر لرسول الله ﷺ بالإنذار قد عرض الله علينا سُنّتين : واحدة في قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ......** ﴾ والثانية في قوله تعالى ﴿ **ذلك ومن عاقب بمثل ما عُوقب به ثم بغي**

عليه لينصرنّه الله إنّ الله لعفوّ غفور ﴾ والذي أحب أن أؤكده هنا أن هاتين السُنَّتين ينبغي أن يكونا على بال الداعية إلى الله في كل لحظة ، وعليه أن يبقى ذاكراً ما يلي :

١ ــ أنّ الشيطان لن يترك المدعوين بلا إلقاء ، وأن مظنة الاستجابة له مرضى القلوب وقساتها ، وأن أهل العلم وحدهم بمنجاة من إلقاءاته فليحرص الداعية إذن على تطهير القلب وتعميم العلم .

٢ ــ أنّ عملية الإلقاء من الشيطان والاستجابة لها يترتب عليها موقف ضدّ الداعية ، فإذا قابل الداعية الموقف بمثله فلا حرج عليه ، وإن ظُلم فإن الله ناصره ، إن هاتين القاعدتين مالم تكونا على ذكر دائم لدى الداعية فإنّه يأسى كثيراً .

ولننتقل إلى المقطع الرابع ولنقدم له بكلمة حول السياق :

محور سورة الحج هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وقد بدأت سورة الحج بالامر بالتقوى ، وربّت عليها ، وذكرت الصوارف عنها ، ثّم أمرت الرسول ﷺ بالإنذار في المقطع الثالث الذي ورد في خواتيمه قوله تعالى ﴿ **ويعبدون من دون الله مالم ينزّل به سلطاناً** ﴾ وهاهو المقطع الأخير يأتي مفنّداً عبادة غير الله ، آمراً بعبادة الله ، مفصّلاً في ذلك ، أن نقطة البداية في التقوى عبادة الله ، ومن ثم يأتي هذا المقطع ليهدم في الآية الأولى منه عبادة غير الله ، ولمّا كان المستفيدون الوحيدون من الخطاب هم المؤمنين من النّاس ، فإنّ المقطع في نهايته يتوجّه إلى المؤمنين آمراً إياهم بصنوف من العبادة توصّل إلى التقوى ، إن الآية التي هي محور سورة الحج من سورة البقرة أمرت بالعبادة للوصول إلى التقوى ، وسورة الحج ابتدأت بالأمر بالتقوى ، وختمت بالأوامر بالعبادة ؛ إذ هي الطريق العملي لتحقيق التقوى ، فكانت آخر ما يقرؤه الإنسان في السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتدّ من الآية (٧٣) إلى نهاية الآية (٧٨) أي إلى نهاية السّورة وهذا هو :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ۩ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

التفسير :

﴿ **يا أيها الناس ضُرِب مثل فاستمعوا له** ﴾ أي لهذا المثل أي فأنصتوا له وتفهموه قال النسفي : لما كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال المسيرة قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الناس ضُرب مثل** ﴾ بيّن ﴿ **فاستمعوا له** ﴾ أي

لضرب هذا المثل ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله** ﴾ آلهة باطلة ﴿ **لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له** ﴾ أي لخلق الذباب ، دلّ على أن خلق الذباب منهم مستحيل ، وتخصيص الذباب بالذّكر لمهانته وضعفه واستقذاره ، أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذبابة واحدة ما قدروا على ذلك ﴿ **وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه** ﴾ أي هذا الخلق الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدورا ، وبهذا تمّ المثل ، فهم عاجزون عن خلق ذبابة واحدة، بل أبلغ من ذلك إن هذه الآلهة عاجزة عن مقاومة الذباب ، والانتصار منه ، حتى لو سلبها الذباب شيئاً مما عليها ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ﴿ **ضعف الطالب** ﴾ أي الصنم أو الإله المزعوم يطلب ما سلب منه ﴿ **والمطلوب** ﴾ أي الذباب بما سلب ، وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف ، فإنّ الذباب غالب ، وذاك مغلوب ، فكيف يُعبَد من هذا شأنه ، ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **ما قدروا الله حق قدره** ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف أو غيره من الآلهة المزعومة شريكاً له قال ابن كثير : أي ماعرفوا قدرة الله وعظمته ، حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿ **إن الله لقويٌّ عزيز** ﴾ أي إن الله قادر وغالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقوي ينصر أولياءه ، عزيز ينتقم من أعدائه ، أو هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ، العزيز الذي قد عَزّ كل شيء فقهره وغلبه ، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه ، وهو الواحد القهّار ، وبعد أن أبطل الله ألوهية غيره وأبطل عبادة غيره قال تعالى ﴿ **الله يصطفي** ﴾ أي يختار ﴿ **من الملائكة رسلاً** ﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿ **ومن الناس** ﴾ أي يصطفي رسلاً كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ **إن الله سميع** ﴾ لقولهم ﴿ **بصير** ﴾ بمن يختاره لرسالته ، أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول ، بصير بأحوال الأمم في الرد والقبول ﴿ **يعلم ما بين أيديهم** ﴾ أي ما أمام الرسل ﴿ **وما خلفهم** ﴾ أي ما وراءهم أو ما عملوه وما سيعملونه ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ إليه مرجع الأمور كلها ، دنيوية وأخروية ، إن ذكر اصطفاء الله الرسل بعد أن أبطل ألوهية غيره وعبادة غيره فيه إشارة إلى أن الطريق الوحيد لمعرفته وعبادته وتقواه هو اتّباع الرسل ، ومن ثم فبعد أن قرّر اصطفاءه الرسّل توجّه بالنّداء إلى أهل الإيمان الذين آمنوا بالله ورسله ،

ليأمرهم بعبادة الله وحده ، مطالباً إياهم بأنواع من العبادة ، وقبل أن نستعرض هذه الأوامر نحب أن نلفت النظر إلى قضية في السياق تكاد تكون معجزة :

كلمة مهمة حول السياق القرآني العام :

في سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب مِمّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مُطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ .

ثم بعد ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها** ﴾ هذا المثل الذي أشار الله إليه هناك هو المثل الذي ضربه الله عز وجل في أواخر سورة الحج ، فما الحكمة في الإشارة المتقدمة إليه وتأخير ذكره إلى سورة الحج ؟ أقول في تعليل ذلك – وأستغفر الله – إنّ سورة الحج كلها مستكنّة في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ لأن سورة الحج كلها تفصيل لها فعندما يأتي في سورة البقرة ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ...** ﴾ بعد قوله ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ...** ﴾ فما ذلك إلا لاستكنان سورة الحج قبل ذلك ، ومن ثمّ فكأن سورة الحج سابقة حكماً للآية ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ﴾ إنّ منزّل هذا القرآن المحيط بكل شيء جعل في كتابه من أسرار الإعجاز ومن تشابك الصلات بين سوره وآياته ما به يعرف أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان منزّل هذا القرآن هو الله رب العالمين ، الذي أحاط بكل شيء علماً .

بين يدي خاتمة السورة :

رأينا أن محور سورة الحج هو قوله تعالى ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وقد سارت السورة مفصّلة نوع تفصيل لمعاني

العبادة والتقوى ، والمقطع الذي بين أيدينا أبطل عبادة غير الله ، وها هو السياق الآن يتوجّه إلى المؤمنين ليطالبهم بأنواع من العبادة ، كلها ضروري للتحقق بالتقوى فلنر ذلك .

﴿ **يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا** ﴾ أي في صلاتكم ﴿ **واعبدوا ربكم** ﴾ بطاعته في كل مأمر ﴿ **وافعلوا الخير** ﴾ كله قال النسفي : (قيل : لمّا كان للذكر مزية على غيره من الطاعات ، دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص ، لقوله تعالى ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ (طه : ١٤) ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات ، وقيل أريد به (أي بالخير) صلة الأرحام ومكارم الأخلاق) ﴿ **لعلّكم تفلحون** ﴾ أي كي تفوزوا أو افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح ، غير مستيقنين ، ولاتتّكلوا على أعمالكم ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده** ﴾ أي وجاهدوا في ذات الله ، ومن أجله ، حق جهاده قال ابن كثير :

أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم . وقال النسفي في تفسير الجهاد حقّ الجهاد :

(وهو ألا يخاف في الله لومة لائم) ﴿ **هو اجتباكم** ﴾ أي اختاركم لدينه ونصرته قال ابن كثير : (أي ياهذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضّلكم وشرّفكم وخَصّكم بأكرم رسول وأكمل شرع) ﴿ **وماجعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ أي من ضيق بل رخّص لكم في جميع ماكلّفكم ، من الطهارة والصلاة والحج والصوم ، بالتيمم وبالإيماء ، وبالقصر ، والإفطار لعذر السفر ، والمرض ، وعدم الزاد والراحلة ﴿ **مِلّة أبيكم إبراهيم** ﴾ أي اتبعوا ملّة أبيكم إبراهيم ، أو أعني بالدين ملّة إبراهيم عليه السلام . قال النسفي : (وسماه أباً - وإن لم يكن أباً للأمة كلها - لأنه أبو رسول الله ﷺ ، فكان أباً لأمته ، لأن أمة الرسول في حكم أولاده قال عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا لكم مثل الوالد ») ﴿ **هو** ﴾ أي الله ﴿ **سَمّاكم المسلمين من قبل** ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿ **وفي هذا** ﴾ أي في القرآن أي فضّلكم على سائر الأمم وسَمّاكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ **ليكون الرسول شهيداً عليكم** ﴾ أنه قد بلّغكم رسالة ربكم ﴿ **وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم والمعنى : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم ؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس ، لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتكم وفضلكم على كل أمة سواكم ، فلهذا تُقبل شهادتكم عليهم يوم القيامة ، في أن الرسل بلّغتهم رسالة ربهم ، والرسول ﷺ

يشهد عليكم أنه بلّغكم ذلك ﴿ **فأقيموا الصلاة** ﴾ بواجباتها ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ بشرائطها أي إذ خصّكم بهذه الكرامة ، والأثرة فصلّوا وزكّوا قال ابن كثير : (أي قابلوا هذه النّعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدّوا حق الله عليكم في أداء ماافترض ، وطاعة ماأوجب ، وترك ماحرّم ، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني ، من إخراج جزء نزر من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج ...) ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ قال ابن كثير : (أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه ، وتأيدوا به) . وقال النسفي : (وثقوا بالله وتوكلوا عليه لابالصلاة والزكاة) ﴿ **هو مولاكم** ﴾ أي مالككم وناصركم ، ومتولي أموركم وحافظكم ، ومظفركم على أعدائكم ﴿ **فنعم المولى** ﴾ أي نعم الولي ﴿ **ونعم النصير** ﴾ أي ونعم الناصر من الأعداء ، وقد أفلح من كان الله مولاه وناصره .

كلمة في السياق :

في هاتين الآيتين الأخيرتين ذكر الله مجموعة أوامر كلها تعتبر أجزاءً في التقوى ، الركوع ، والسجود ، والعبادة ، وفعل الخير ، والجهاد والصلاة ، والزكاة ، والاعتصام بالله ، والدليل على أنها من التقوى قوله تعالى ﴿ **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾ إن الله عز وجل قال في أول سورة البقرة بعد أن وصف المتقين ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وفي نهاية الآيات قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ وفي هذه الخاتمة ما يشير إلى أنّ العبادة والتقوى ليست خسارة كما يزعم الكافرون والمنافقون والفاسقون ، بل هي الربح كله ؛ لأن الله جل جلاله سيتولى وينصر .

فوائد حول المقطع الرابع :

١ - إن المثل الذي ضربه الله عز وجل على عجز الآلهة المزعومة ينطبق على أصنام قريش وغيرها ، كما ينطبق على أي نوع من أنواع الآلهة المزعومة ، كما ينطبق على الطبيعة ككل ، وهي الإله المزعوم في هذا العصر ، إذ يعطيها الملحدون كل خصائص الألوهية ، فكأن العقل البشري المشرك لم يخرج من الوثنية إلا في حدود ، فالمشرك الأول كان يعبد جزءًا من مظاهر الطبيعة ، والمشرك المثقف صار يعبد الطبيعة كلها ، وسواء كان الإله المزعوم صنماً ، أو طبيعة ، فإنّه عندما يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذونه منه ، لأنّه في

اللحظة التي يأخذ الذباب منهم شيئاً يحدث تغيّر كلّي لهذا الشيء يخرجه عن مادته الأساسية ، ولذلك فإنّه يستحيل بأي طريقة أن يسترجع عين الشيء الذي أخذه الذباب ، وهم إذا كانوا عاجزين عن استنقاذ شيء سلبه الذباب ، فمن باب أولى أن يكونوا عاجزين عن خلق ذباب ، بل عن خلق أقل من ذباب ، وفي كتابنا (الله جل جلاله) تحدثنا في ظاهرة الحياة عن تجارب البشرية في حقل صنع ذرة حياة ، وعن عجزها عن ذلك ، وكيف أن ظاهرة الحياة تدلنا من وجوه عديدة على الله ، بما لايقبل جدلاً ، وهذا المثل في القرآن الكريم هو الحجّة الكاملة على أنّه لا إله إلا الله .

٢ – هل في آخر سورة الحج عند قوله تعالى ﴿ **اركعوا واسجدوا** ﴾ سجدة أولا ؟ قال ابن كثير : (اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هو مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين وقد قدّمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ « فضّلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما») .

٣ – عند قوله تعالى ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ قال ابن كثير : (أي ما كلّفكم ما لاتطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام – بعد الشهادتين – تجب في الحضر أربعاً ، وفي السفر تقصر إلى اثنتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث وتصلّى رجالاً وركباناً ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها . والقيام فيها يسقط لعذر المرض ، فيصليها المريض جالساً ، فإن لم يستطيع فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرّخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن « بشّرا ولا تنفّرا ويسّرا ولا تعسّرا ») .

٤ – يظن بعضهم أنّ المراد بالضمير في قوله تعالى ﴿ **هو سَمّاكم المسلمين** ﴾ إبراهيم عليه السلام قال ابن جرير : وهذا لاوجه له ؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمِّ هذه الآمة في القرآن مسلمين . وقال ابن كثير : وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ وبمناسبة هذا القول قال ابن كثير : ثم ذكر منّته تعالى على هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها ، والثناء عليها في سالف الدهر ، وقديم الزمان في كتب الأنبياء ، يُتلىٰ على الأحبار والرهبان فقال ﴿ **هو سَمّاكم المسلمين**

من قبل ﴾ أي من قبل القرآن ﴿ **وفي هذا** ﴾ روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم » قال رجل يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم وإنّ صام وصلّى ، فادعوا بدعوة الله التي سمّاكم بها ، المسلمين المؤمنين عباد الله » .

كلمة في سورة الحج :

جاء أول تعريف للمتقين في أول سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** * ﴾ وبعد هذا التعريف في سورة البقرة تأتي آيتان في الكافرين ، وثلاث عشرة آية في المنافقين ، ثم يأتي النداء للناس جميعاً كي يكونوا من المتقين : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وسورة الحج تفصّل هذه الآية ، فهي تخدم قضية سير الإنسان نحو التقوى ، إنْ بتبيان ضرورتها ، أو بإبعاد الصوارف عنها ، أو بتبيان عوارض الطريق ، أو بالدلالة على معان في التقوى ، أو بتحديد قضايا تساعد على الوصول إلى التقوى ، وكل ذلك قد رأيناه ، ومن تعريف المتقين الموجود في أول سورة البقرة نرى أن أركان التقوى هي : الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق ، وأن علامتها الاهتداء بكتاب الله ، ونحن نعلم أن أركان الإسلام خمسة ، منها الصوم والحج ، وفي سورة البقرة حديث عن الصوم ، وعن الحج ، والحديث عن الصوم في سورة البقرة يبدأ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيام كما كُتِب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ فالحديث في سورة البقرة عن الصوم يحدّد أنّ الصوم وسيلة للتقوى ، ونرى في البقرة أمراً بالحج ، وحديثاً عنه وعن بعض شعائره وحكمه ، ولكنا لا نجد تفصيلاً واسعاً حول دور الحج وشعائره في موضوع التقوى ، وهذا الذي نراه في سورة الحج .

وقد رأينا في سورة الأنبياء تعريفاً للمتقين هو : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون** ﴾ (الآيتان ٤٨ ، ٤٩) وهو في الحقيقة يشبه تعريف سورة البقرة ، إلا أنه يبرز معنى مستكناً في قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فالإيمان بالغيب يقتضي خشية من الله ، وإشفاقاً من الساعة ، ومن ثم نلاحظ أنّ سورة الحج فصّلت في مثل

هذه المعاني الكثيرة فهي دلّت على طريق التقّوى ، وفصّلت في ماهية التقوى وعلاماتها وآثارها .

وفي عمليّة تفصيل قضية التقوى ، وتحديد مشاعر المتقين ، وبعض شعائرهم ، عرضت السورة لقضية مهمّة وهي وحدة المتقين ، ووحدة هدفهم ، وضرورة سيرهم في طريق الصراع مع الكفر ، فالنصر الرباني موعود به المتقون ؛ إذا تحققوا بمواصفات خاصة ، هذه المواصفات ضرورية كي لا تفسد الأرض ، فمن طلب النصر الرباني بدون تحقيق الشروط في نفسه من المسلمين ، أو عجب من عدم نزول النصر دون بذل وعطاء ، وتحقق وفداء ، وعمل مشترك مستقيم ، فإنما هو من الجاهلين ، ومن ارتد استبطاءً للنصر فإنه من الكافرين ، وهذا كله عُرض في السورة .

ولما كانت نقطة البداية في السير نحو التقوى هي عبادة الله ، ولما كانت نقطة الانحراف الكبرى هي عبادة غير الله ، فقد ختمت السورة في تفنيد عبادة غير الله ، كما ختمت بتحديد مجموعة الأمور التي هي من التقوى ، أو من الطريق الموصّل إليها ، أو من المعاني التي تبعث على السير ، إن شعور المسلم بالاعتزاز – إذ يصطفيه الله ، وإذ يعطيه اسمه – يبعث على السير والأمر بالركوع والسجود والعبادة ، وفعل الخير والجهاد الشامل المخلص ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتصام بالله ، كلها قضايا من التقوى ، وهي وسائل إليها كذلك ، وأجزاء منها في كل حال .

وههنا نحب أن نسجّل شيئاً : إن آية ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ قد فصلتها سورة النساء بشكل ، وفصلت قسماً منها سورة هود بشكل ، وفصلتها سورة الحج بشكل ، وسنرى أن سوراً كثيرة قادمة ستفصلها بشكل و بآخر ؛ مما يدل على أن محل هذه المعاني من الضخامة في الإسلام إلى الحدّ الذي لا يستقصى ، وسنرى أن بعض آيات في سورة البقرة تفصل باستمرار ، وبكل قسم تقريباً ، مما يشير إلى أهمية التذكير المستمر بهذه المعاني بالنسبة لدين الله وبالنسبة لنفس الإنسان .

ولا يخطرنّ ببال أحد أن المعنى إذا لم يتكرر فإنه يكون فاقد الأهمية ، أو قليلها ، فهذا كفر ، إن المسألة على الشكل التالي : إن هناك معنى تحتاج النفس البشرية أن تُذكّر فيه ليل نهار ، وأن يعرض عليها بأشكال شتى فمثل هذا تجده يتكرّر بشكل ثم بآخر ،

وبجرس ثم بجرس ، وبحجم ثم بحجم ، وبطريقة ثم بطريقة عرض أخرى ، ثم وثم مما لا ينقضي العجب فيه .

ونحب هنا أن نلاحظ أنه في سورة البقرة كان الأمر بالعبادة للوصول إلى التقوى مرفقاً بالتعريف على الله : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ ونلاحظ أن سورة الحج كان فيها تفصيل لهذه المعاني فلقد ركّزت سورة الحج على معرفة الله كثيراً ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ...** ﴾ ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير** ﴾ ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب ...** ﴾ ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة ......** ﴾ ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ....** ﴾ .

☆ ☆ ☆

سورة المؤمنون

وهي السورة الثالثة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الثالثة من قسم
المثين ، وآياتها مائة وثماني عشرة آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة المؤمنون (مكية كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي البحر هي مكية بلا خلاف ، واستثنى منها - كما في الإتقان - قوله تعالى ﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم** ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ **مبلسون** ﴾ واستشكل الحكم على ماعداه بكونه مكيا لما فيه من ذكر الزكاة ، وهي إنما فرضت بالمدينة ، وأجيب بأنه بعد تسليم أن ما ذكر فيه يدل على فرضيتها يقال : إن الزكاة كانت واجبة بمكة ، والمفروض بالمدينة ذات النصب ، وستسمع تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى ، وهي كما في (كتاب العدد) للداني (ومجمع البيان) للطبرسي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي ، ومائة وسبع عشرة آية في الباقي ، وقد مدح النبي ﷺ العشر الأول منها ، فقد أخرج أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، والضياء في المختارة وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : (كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوماً ، فمكثنا ساعة ، فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ، فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » ثم قال : « لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر) ومناسبتها لآخر السور قبلها ظاهرة لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا** ﴾ الآية وفيها ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ فناسب أن يحقق ذلك فقال عز قائلاً : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * قد أفلح المؤمنون** ﴾ .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة (المؤمنون) :

(هذه سورة « المؤمنون » ... اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها .. فهي تبدأ بصفة المؤمنين ، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق . ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد خاتم الرسل والنبيين ؛ وشبهات المكذّبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ، ووقوفهم في وجهها ، حتى يستنصر الرسل بربهم ، فيهلك المكذبين ، وينجي المؤمنين ..... ثم يستطرد إلى اختلاف الناس - بعد الرسل - في تلك الحقيقة الواحدة التي لاتتعدد .. ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول - ﷺ - ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر .. وتنتهي السورة بمشهد من مشاهدة القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنّبون على ذلك الموقف المريب ، يختم

بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ، فهي سورة « المؤمنون » أو هي سورة الإيمان ، بكل قضاياه ودلائله وصفاته . وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادىء ، والمنطق الوجداني ، واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها .. الإيمان ... ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة : ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ . وفي صفات المؤمنين في وسطها : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ . وفي اللمسات الوجدانية : ﴿ **وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون** ﴾ وكلها مظللة بذلك الظل الإيماني اللطيف) .

كلمة في سورة المؤمنون ومحورها :

عندما تقرأ بداية سورة المؤمنون ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون** ..... ﴾ ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ... ﴾ ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ . تجد أنّ بين ذلك صلة وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهَّرة وهم فيها خالدون * إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وعندما تقرأ الآيات من سورة المؤمنون : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لمَيِّتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماءً بقدر .... وإن لكم في الأنعام لعبرة ..... وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ إذا قرأنا هذه الآيات نجد أن بينها صلة وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمٰوات وهو**

بكل شيء عليم ﴾ فمجموع هذه الآيات من سورة البقرة هي محور سورة المؤمنون مع ملاحظة أن هذه الآيات آتية في حيّز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ولذلك فإنك تجد آثار ذلك في السورة : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ...** ﴾ ﴿ **فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ...** ﴾ فالسّورة تفصّل في محورها الآتي ضمن حيّز محدّد ، وكما تفصّل في المحور فإنّها تفصّل في امتداداته ، لتكون مع ما قبلها مقدمة لسورة النّور ، التي تفصّل محوراً في أعماق سورة البقرة .

سنرى أنّ سورة النوّر ستتحدث عن أحكام تطالب بها الأمّة المسلمة ، وستتحدث عن أحكام لها صلة بالنظام الاجتماعي للأمة المسلمة ، ولذلك ولغيره فإننا نجد أن سورتي الأنبياء والمؤمنون تحدثنا عن وحدة الأمة الإسلامية خلال العصور : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون * وتقطّعوا أمرهم بينهم** ﴾ ﴿ **وأنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً** ﴾ إنّ السورتين تتحدثان عن وحدة الأمة الإسلامية خلال العصور وتنكران موضوع تقطيع أمر الأنبياء والأخذ ببعضه وترك بعضه ، كمقدمة لسورة النّور التي تفصّل في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة** ﴾ أي في الإسلام جميعاً .



جاءت سورة طه فتحدثت في سياقها الرئيسي عن الإيمان بالقرآن كجزء من التقوى وجاءت سورة الأنبياء فحذرت من موقف الكافرين من القرآن ، مما يتنافى مع التقوى ، وجاءت سورة الحج لتحمل بصيغة الإنذار على الطريق إلى التقوى ، والآن تأتي سورة المؤمنون لتبشّر وتستخرج عواطف الشكر ، وتذكّر لتؤدي دورها في التحرير من طرق الضلال بالتذكير والتعليم والتربية والتوضيح والتنوير ، وكل ذلك مقدّمة للمطالبة بكثير من الأحكام الإسلامية التي يقتضي القيام بها الدخول في الإسلام كله كما سنرى في سورة النور إن شاء الله .



المجموعة الأولى من المقطع الأول

وتمتدُّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي مع البسملة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ الفلاح: الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب قال النسفي : (والإيمان في اللغة : التصديق ، والمؤمن المصدق لغة ، وفي الشرع : كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فهو مؤمن ، والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين المتّصفين بهذه الصفات قد فازوا بما طلبوا ، ونجوا مما هربوا) قال ابن كثير : أي فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ أي خائفون في القلب ساكنون في الجوارح ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ قال ابن كثير : (أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرّك كما قال بعضهم ،

والمعاصي كما قاله آخرون ، ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال) وقال النسفي : اللغو كلُّ كلام ساقط حقُّه أن يلغى ، كالكذب والشتم والهزل ، يعني أنّ لهم من الجدّ ماشغلهم عن الهزل ، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقّين على الأنفس ، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف ، وقال قتادة في اللغو : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾ أي مؤدون قال النسفي : ولفظ (فاعلون) يدل على المداومة بخلاف مؤدون ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ قال النسفي : الفرج يشمل سوأة الرجل والمرأة ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ أي إنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال ، إلا في حال تزوجهم ، أو تسرّيهم ﴿ **فإنّهم غير ملومين** ﴾ أي لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وإمائهم ﴿ **فمن ابتغىٰ وراء ذلك** .﴾ أي فمن طلب قضاء شهوة من غير الأزواج والإماء ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾ أي الكاملون في العدوان ، والمعنى : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه ، من زنا ولواط ، لايقربون سوى أزواجهم التي أحلّها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحله الله له ، فلا لوم عليه ولا حرج ، وأما من طلب وراء ذلك فإنه هو المعتدي ﴿ **والذين هم لأماناتهم** ﴾ إذا ائتمنوا ﴿ **وعهدهم** ﴾ إذا عاهدوا أو عاقدوا ﴿ **راعون** ﴾ أي حافظون ، إذ الراعي : هو القائم على الشيء بحفظ وإصلاح ، كراعي الغنم ، والمراد أنهم حافظون لكل ما ائتمنوا عليه ، وعوهدوا من جهة الله عز وجل ، ومن جهة الخلق ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ أي يداومون عليها في أوقاتها ، قال النسفي : (وإعادة ذكر الصلاة لأنها أهمّ ، ولأنّ الخشوع فيها غير المحافظة عليها ، أو لأنّها وُحّدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة ، أية صلاة كانت ، وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل) ﴿ **أولئك** ﴾ أي الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ **هم الوارثون** ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا ورّاثاً دون من عداهم ، ثم ترجم الوارثين بقوله ﴿ **الذين يرثون الفردوس** ﴾ هو أعلى الجنان ﴿ **هم فيها** ﴾ أي في جنة الفردوس ﴿ **خالدون** ﴾ لا يموتون ولا يتحولون .

كلمة في السياق :

بدأت هذه السورة وهذه المجموعة بقوله تعالى ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ قال النسفي : (وقد نقيضة لمّا ، هي (أي قد) تثبت المتوقّع ، ولمّا تنفيه ، وكان المؤمنون يتوقّعون مثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقعوه) أنظر كلام النسفي هذا الذي فهمه من مطلق اللغة ، لترى أن ما فهمناه نحن من خلال السياق صحيح من أن محور هذه الآيات هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كُلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ فالمجموعة فصّلت ، وبشّرت ، فصّلت أخلاق الإيمان ، وبيّنت أمّهات الأعمال الصالحة ، وبشّرت لمن اجتمع له ذلك بالفردوس ، لاحظ صلة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ بقوله تعالى من المحور ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا** ﴾ ولاحظ صلة قوله تعالى ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ بقوله تعالى هناك ﴿ **وهم فيها خالدون** ﴾ ولاحظ صلة قوله تعالى ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ بقوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ ولاحظ صلة قوله تعالى عن المؤمنين ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ بقوله تعالى عن الفاسقين : ﴿ **ويفسدون في الأرض ...** ﴾ ولاحظ صلة قوله تعالى ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ بقوله تعالى عن الكافرين في المحور ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ ولاحظ صلة الصلاة والزكاة بموضوع الإيمان والعمل الصالح ، إن هذه المجموعة من سورة المؤمنون تفصّل في ثلاث آيات من محور السورة في البقرة ، وسنرى أن المجموعة اللاحقة تفصّل في الآيتين الأخيرتين من المحور ، فمحور سورة المؤمنون - كما ذكرنا - هو الآيات الخمس من سورة البقرة المبدوءة بقوله تعالى ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...** ﴾ .

نقول :

قال الألوسي عند قوله تعالى ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ (والخشوع : التذلل مع خوف ، وسكون للجوارح . ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير وغيره (**خاشعون**) : خائفون ساكنون . وعن مجاهد أنه هنا غض البصر ، وخفض الجناح ، وقال مسلم بن يسار وقتادة : تنكيس الرأس ، وعن علي كرم الله تعالى

وجهه : ترك الالتفات . وقال الضحاك : وضع اليمين على الشمال . وعن أبي الدرداء : إعظام المقام ، وإخلاص المقال ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام ، ويتبع ذلك ترك الالتفات ، وهو من الشيطان ، فقد روى البخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه : أقعدوني أقعدوني ، فإن عندي وديعة ، أودعنيها رسول الله ﷺ قال : « لايلتفت أحدكم في صلاته ، فإن كان لابد فاعلاً ففي غيرما افترض الله تعالى عليه » .

وترك العبث بثيابه أو شيء من جسده ، وإنكار منافاته للخشوع مكابرة ، وقد أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول - لكن بسند ضعيف - عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » ، وترك رفع البصر إلى السماء وإن كان المصلي أعمى ، وقد جاء النهي عنه ، فقد أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال : « قال النبي ﷺ : لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لاترجع إليهم » وكان قبل نزول الآية غير منهي عنه فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن محمد ابن سيرين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا صلىٰ رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ فطأطأ رأسه، وترك الاختصار: وهو وضع اليد على الخاصرة، وقد ذكروا أنه مكروه . وجاء عنه ﷺ : « الاختصار في الصلاة راحه أهل النار » أي إن ذلك فعل اليهود في صلاتهم استراحة، وهم أهل النار لا أن لهم فيها راحة ، كيف وقد قال تعالى : ﴿ **لايفتّر عنهم وهم فيه مبلسون** ﴾ ومن أفعالهم أيضاً فيها التميّل وقد جاء النهي عنه . أخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : رآني أبو بكر رضي الله تعالى عنه أتميل في صلاتي ، فزجرني زجرة كدت أنصرف عن صلاتي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميّل تميل اليهود ، فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة » وقال في الكشاف من الخشوع أن يستعمل الآداب ، وذكر من ذلك توقي كف الثوب ، والتمطي والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطية الفم ، والسدل والفرقعة ، والتشبيك ، وتقليب الحصي . وفي البحر نقلاً عن التحرير أنه اختلف في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين والصحيح الأول ، ومحله القلب . اهـ ، والصحيح عندنا خلافه ،

نعم الحق أنه شرط القبول لا الإجزاء . وفي المنهاج وشرحه لابن حجر ويسنّ الخشوع في كل صلاته بقلبه ، بأن لا يحضر فيه غير ما هو فيه ، وإن تعلّق بالآخرة وبجوارحه ، بأن لا يعبث بأحدها ، وظاهر أن هذا مراد النووي من الخشوع لأنه سيذكر الأول بقوله : ويسن دخول الصلاة بنشاط وفراغ قلب ، إلا أن يجعل ذلك سبباً له ، ولذا خصّه بحالة الدخول ،وفي الآية المراد كل منهما كما هو ظاهر أيضاً ، وكان سنة لثناء الله تعالى في كتابه العزيز على فاعليه ، ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، ولأن لنا وجها اختاره جمع أنه شرط للصحة ، لكن في البعض فيكره الاسترسال مع حديث النفس ، والعبث كتسوية ردائه ، أو عمامته لغير ضرورة من تحصيل سنة ، أو دفع مضرة ، وقيل يحرم . اهـ ، وللإمام في هذا المقام كلام طويل من أراده فليرجع إليه . وتقديم الظرف قيل لرعاية الفواصل . وقيل ليقرب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان ، فإنهما إخوان وقد جاء إطلاق الإيمان عليها في قوله تعالى ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ وقيل للحصر على معنى : الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون ، وفي تقديم وصفهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يذكر بعد ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع ، وجاء أن الخشوع أول ما يرفع من الناس ، ففي خبر رواه الحاكم وصححه أن عبادة بن الصامت قال : يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال : « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، وتنتقض عرى الإسلام عروة عروة » الخبر).

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ (لغو القول ، ولغو الفعل ، ولغو الاهتمام والشعور . إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر .. له ما يشغله من ذكر الله ، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق . وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، ويحرّك الوجدان ... وله ما يشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها في تطهير القلب ، وتزكية النفس وتنقية الضمير . وتكاليفها في السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان . وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف . وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء ... وهي تكاليف لا تنتهي ، ولايغفل عنها المؤمن ، ولا يعفي نفسه منها ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية . وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري

والعمر البشري . والطاقة البشرية محدودة . وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ؛ وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو . والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح . ولا ينفي هذا أن يروّح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين . ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ ....)

وقال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ : (وصف لهم بالعفة وهو إن استدعاه وصفهم بالإعراض عن اللغو إلا أنه جيء به اعتناءً بشأنه ، ويجوز أن يقال : إن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة لكن جيء بهذا لما فيه من الإيذان أن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها ، وبذلك يتحقق كمال العفة ..... والمراد مما ملكت أيمانهم: السريات ، والتخصيص بذلك للإجماع على عدم حل وطء المملوك الذكر ..... والآية خاصة بالرجال ، فإن التسري للنساء لا يجوز بالإجماع ، وعن قتادة : قال تسرت امرأة غلاماً فذكرت لعمر رضي الله تعالى عنه ، فسألها ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنت أرى أنه يحل لي ما يحل للرجال من ملك اليمين ، فاستشار عمر فيها أصحابَ النبي ﷺ فقالوا : تأوّلت كتاب الله تعالى على غير تأويله .

فقال رضي الله تعالى عنه : لاجرم لاأحلك لحر بعده أبداً ، كأنه عاقبها بذلك ، ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها ..... ويدخل فيما وراء ذلك : الزنا ، ومواقعة البهائم واللواط وهذا مما لاخلاف فيه .... واختلف في استمناء الرجل بيده ويسمى الخضخضة ، وجلد عميرة . فجمهور الأئمة على تحريمه ، وهو عندهم داخل فيما وراء ذلك ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يجيزه ، لأن المني فضلة في البدن ؛ فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة ، وقال ابن الهمام : يحرم فإن غلبته الشهوة ففعل إرادة تسكينها به فالرجاء أن لا يعاقب) .

وقال صاحب الظلال عند الآية نفسها : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ . وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة . ووقاية النفس والأسرة والمجتمع . بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ؛ وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب .

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد . لأنه

لا أمن فيها للبيت ، ولاحرمة فيها للأسرة والبيت هوالوحدة الأولى في بناء الجماعة ، إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج ؛ ولابد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضناً ومدرجاً ، وليعيش فيه الوالدان مطمئناً كلاهما للآخر ، وهما يرعيان ذلك المحضن . ومن فيه من فراخ !

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية ، فالمقياس الذي لايخطىء للارتقاء البشري هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها . وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة ، لايخجل الأطفال معها من الطريقة التي جاؤوا بها إلى هذا العالم ، لأنها طريقة نظيفة معروفة ، يعرف فيها كل طفل أباه . لاكالحيوان الهابط الذي تلقى الأنثى فيه الذكر وبدافع اللقاح ، ثم لايعرف الفصيل كيف جاء ولامن أين جاء !

والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة : ﴿ **إلاعلى أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ .. ومسألة الأزواج لاتثير شبهة ولا تستدعي جدلاً . فهي النظام المشروع المعروف . أما مسألة ملك اليمين فقد تستدعي شيئاً من البيان ، ولقد فصلت القول في مسألة الرق في الجزء الثاني من الظلال ، وبينت هناك أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي . واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي ، فما كان يمكن — والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقه — أن يلغي هذا النظام من جانب واحد ، فيصبح أسارى المسلمين رقيقا عند أعدائه ، بينما هو يحرر أسارى الأعداء .. فجفف الإسلام كل منابع الرق — عدا أسرى الحرب — إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى .

ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات ، تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن.

ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح. فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلاً لتحرير الرقيق.

لعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كي لا

يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق ـــ هذه الفوضى التي لا يحبها الإسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية. والأمة تصل إلى مرتبة الحرة بوسائل كثيرة .. إذا ولدت لسيدها ومات عنها. وإذا أعتقها هو تطوعاً أو في كفارة. وإذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال فافتدت به رقبتها. وإذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها... الخ.

وعلى أية حال فقد كان الاسترقاق في الحرب ضرورة وقتية، هي ضرورة المعاملة بالمثل في عالم كله يسترق الأسرى، ولم يكن جزءاً من النظام الاجتماعي في الإسلام).

أقول : كنا قلنا من قبل : إن الاسترقاق أحد خيارات موضوعة بيد الحكومة الإسلامية ، فإذا أرادت أن تعيده لمصلحة إسلامية محقّقة فلا حرمة في ذلك ، ولكنّه من المستحسن في عصرنا ألا تفعل ذلك مادام العالم قد تواضع على أمر هو مندوب في شريعتنا فلا ينبغي أن يسبقنا أحد في أمر هو من باب المكرمات .

فوائد :

١ ـــ في تفسير الخشوع في الصلاة كلام كثير للفقهاء قال النسفي : (وقيل الخشوع في الصلاة جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها ، وأن لا يجاوز بصره مصلّاه ، وأن لا يلتفت ولا يعبث، ولا يسدل ولا يفرقع أصابعه ، ولا يقلّب الحصى ونحو ذلك ، وعن أبي الدرداء هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام واليقين التام ، وجمع الاهتمام وأضيفت الصلاة إلى المصلين لا إلى المصلّىٰ له ؛ لانتفاع المصلي بها وحده ، وهي عدته وذخيرته ، وأما المصلّىٰ له فغني عنها) وقال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **خاشعون** ﴾ خائفون ساكنون ، وكذا روي عن مجاهد والحسن والزهري ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوع في القلب وكذا قال إبراهيم النخعي ، وقال الحسن البصري كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا الجناح ، وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، قال محمد بن سيرين : وكانوا يقولون : لا يجاوز بصره مصلاه ، فإن كان اعتاد النظر

فليغمضْ ، .... وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها ، واشتغل بها عمّا عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « حبب إليّ الطيب والنساء وجُعلت قرة عيني في الصلاة » وروى الإمام أحمد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال : يابلال « أرحنا بالصلاة » وروى الإمام أيضاً أن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال يا جارية ائتني بوضوء لعلي أصلي فاستريح ، فرآنا أنكرنا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قم يابلال فأرحنا بالصلاة » أقول : ورد في الحديث « أول علم يرفع من الأرض الخشوع » فالخشوع في الحقيقة علم ، إذ هو أثر عن صلاح القلب ، وصلاح القلب علم عظيم جليل ، وقد فصّلنا ذلك في كتابنا (تربيتنا الروحية) .

٢ــ من الملاحظ أن هذه السورة مكية والزكاة المعروفة لدينا حالياً فرضت في المدينة قال ابن كثير في توضيح هذا (الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية ، وإنّما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت في المدينة إنما هي ذات النُصُب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ وكقوله ﴿ **وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة** ﴾ على أحد القولين في تفسيرها ، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس ، وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا ، والله أعلم).

أقولُ : إن كون السورة مكية ، وكونها ذكرت الزكاة في المحل الذي تذكر فيه دائماً فذلك دليل على أن منزل هذا القرآن واحد ، إذ ما كان القرآن ليكون على مثل هذه الوحدة مع نزوله مفرّقاً منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة لولا أنه من عند الله .

٣ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن جرير .... عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت :

تأوّلت آية من كتاب الله ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ تأوّلت آية من كتاب الله عزّ وجلّ على غير وجهها ، قال فضرب العبد وجزّ رأسه ، وقال (أي للمرأة) : أنتِ بعده حرام على كل مسلم ، وهذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق ، وإنّما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم) . وقد استدل الشافعي رحمه الله ومن وافقة على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ قال : فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين ، وقد قال الله تعالى ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث روى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار في أول الداخلين ، إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره » هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يُعرف لجهالته والله أعلم .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

٥ ــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أي ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » أخرجاه في الصحيحين ، وفي مستدرك الحاكم قال « الصلاة في أول وقتها » وقال ابن مسعود ومسروق في قوله ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ يعني مواقيت الصلاة ، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

٦ ـ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ قال ابن كثير : (وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سألتم الله الجنة فأسألوه الفردوس ؛ فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل : في الجنة ومنزل في النار ، فأما المؤمن فيبني بيته في الجنة ، ويهدم بيته الذي في النار ، وأما الكافر فيهدم بيته في الجنة ويبني بيته الذي في النار » وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وتركَ أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل ، بل أبلغ من هذا أيضاً وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى » (أقول : هذا الحديث تفسّره الرواية اللاحقة) وفي لفظ له قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال : هذا فكاكك من النار ، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدّثه عن سول الله ﷺ بذلك قال فحلف له ، قلت : وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ **تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً** ﴾ وكقوله ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير : الجنة بالرومية هي الفردوس ، وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب ، فالله أعلم) .

٧ ـ ولنختم هذه الفوائد بما بدأ به ابن كثير الكلام عن آيات هذه المجموعة قال : (روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا – ثم قال – لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر ، ورواه الترمذي في تفسيره والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرازق به ، وقال الترمذي : منكر ، لانعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه ،وروى

النسائي في تفسيره ...... قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن فقرأت ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى انتهت إلى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال تكلّمي فقالت ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعدّ لهم من الكرامة فيها ، وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك في كتابه . وقد روى ذلك عن أبي سعيد الخدري قال : خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلّمي فقالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فدخلتها الملائكة فقالت : طوبى لك منزل الملوك ثم قال وحدثنا بشر بن آدم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وملاطها المسك » وقال البزار ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث « حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك ، فقال لها تكلّمي فقالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك » ثم قال البزار لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل وهو شيخ متقدم الموت روى الحافظ أبو القاسم ...... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي فقالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ » وروى الطبراني عن ابن عباس يرفعه « لما خلق الله جنة عدن بيده ، ودلّى فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها قال : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ قال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » وروى أبو بكر بن أبي الدنيا ... عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده ، لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوته حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقال تعالى : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن محور سورة (المؤمنون) من البقرة هو مجموع خمس آيات ، إلا أننا نلاحظ أن هذه المجموعة التي مرّت معنا تفصّل الآيات الثلاث الأولى فقط ، بينما نلاحظ أن المجموعة الثانية ستفصل الآيتين الأخيرتين فقط ، وهو نوع من التفصيل رأينا نمطاً منه

من قبل في سورة الحجر : إن الآيات الثلاث الأولى من محور سورة المؤمنون هي : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون * إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ ولقد رأينا أن المجموعة الأولى من سورة المؤمنون فصّلت في ذلك كله : فلقد ذكرت أخلاق المؤمنين ، ومن أخلاقهم العمل الصالح ، وحدّدت أنواعا من العمل الصالح ومن ذلك العمل المقابل لأخلاق الفاسقين ، فالفاسقون ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، والمؤمنون لعهدهم راعون ، والفاسقون يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء يفون بالعهود ، والفاسقون يفسدون في الأرض ، وهؤلاء يحفظون فروجهم ، ويؤدون أماناتهم ، ولنلاحظ أن الآيات الثلاث بدأت بقوله تعالى ﴿ **وبشر** ﴾ وانتهت بقوله تعالى ﴿ **أولئك هم الخاسرون** .﴾ لاحظ الصلة بين هذه البداية والنهاية ، وبين قوله تعالى ﴿ **قد أفلح** ﴾ فإن فيها بشارة ، وإن الفلاح يقابل الخسارة ، وبعد الآيات الثلاث في سورة البقرة يأتي قوله تعالى في الإنكار على من كفر ، وفي التدليل على الإيمان ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وسنرى أن آيات المجموعة الثانية تفصّل هاتين الآيتين ، للتدليل على الإيمان واستخراج عواطفه ، مع فارق هو أن الآيتين ردّتا على الكفر من خلال الإنكار والتقرير وهنا دعت هذه المجموعة إلى الإيمان من خلال التقرير فلنر المجموعة الثانية .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتد من الآية (١٢) إلى نهاية الآية (٢٢)وهذه هي :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

كلمة في السياق :

لاحظ الصلة بين آيتي المحور وآيات هذه المجموعة :

١ — ﴿ **وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ..... ثمّ أنشأناه خلقاً آخر** ﴾ .

٢ - ﴿ ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى هنا : **﴿ ثمّ إنكم بعد ذلك لميتون ثمّ إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾** .

٣ - ﴿ فسواهن سبع سمٰوات ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى هنا : **﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق .. ﴾** .

٤ - ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : **﴿ وأنزلنا من السماء ماءً .... فأنشأنا لكم به جنات ... وشجرة .... وإن لكم في الأنعام لعبرة ... ﴾**

التفسير :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ أي آدم **﴿ من سلالة ﴾** السلالة الخلاصة لأنّها تسلّ من بين الكدر **﴿ من طين ﴾** قال النسفي :(وقيل إنما سميّ التراب الذي خلق آدم منه سلالة لأنه سل من كل تربة) وقال ابن كثير :(وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعني وأقرب إلى السياق ، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون وذلك مخلوق من التراب .....) **﴿ ثم جعلناه ﴾** أي ثم جعلنا جنس الإنسان أي نسله **﴿ نطفة في قرار ﴾** أي في مستقر **﴿ مكين ﴾** أي حصين وهو الرحم **﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾** أي صيّرناها علقة أي على شكل العلقة مستطيلة **﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾** أي صيرّنا العلقة لحماً يشبه المضغة **﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾** مما قرره علماء الأجنة في عصرنا أن أول الخلايا تشكلاً في هذه المرحلة هي الخلايا العظمية وهذه المعاني سنعود إليها في الفوائد **﴿ فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾** قال ابن كثير :(أي ثم نفخنا فيه الروح ، فتحرّك وصار خلقاً آخر ، ذا سمع وبصر ، وإدراك وحركة واضطراب) . وقال النسفي : (أي أنشأناه خلقاً مبايناً للخلق الأول ، حيث جعله حيواناً وكان جماداً ، وناطقاً وسميعاً وبصيراً ، وكان بضد هذه الصفات) وفي الآية كلام كثير سنراه في الفوائد **﴿ فتبارك الله ﴾** أي فتعالى أمره في قدرته وعلمه **﴿ أحسن الخالقين ﴾** أي المقدّرين **﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾** أي بعدما ذكرنا من أمركم **﴿ لميتون ﴾** أي عند انقضاء آجالكم **﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾** أي تحيون للجزاء **﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾** قال النسفي : جمع طريقة وهي السمٰوات لأنها طرق الملائكة ، ومتقلباتهم . قال مجاهد في تفسير السبع الطرائق : يعني السمٰوات

السبع ﴿ **وما كُنّا عن الخلق غافلين** ﴾ قال ابن كثير : أي ويعلم مايلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماءً ولاأرض أرضاً ، ولا جبل إلا ويعلم مافي وعره ولابحر إلا ويعلم مافي قعره ، يعلم عدد مافي الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ، وفي ذكر عدم غفلته عز وجل عن الخلق في هذا السياق تقرير لكونه يعلم مايصلح الخلق ومايحفظه ﴿ **وأنزلنا من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **بقدر** ﴾ أي بتقدير يسلمون معه من المضرّة ، ويصلون إلى المنفعة ، أو بمقدار ماعلمنا من حاجاتهم ﴿ **فأسكناه في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له ، تشربه ويتغذى به مافيها من الحب والنوى ﴿ **وإنا على ذهاب به** ﴾ أي بالماء ﴿ **لقادرون** ﴾ أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه ، فقيّدوا هذه النعمة بالشكر ، قال ابن كثير في تفسيرها : أى لوشئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى والقفاز لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لاتصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار ، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه ، وتتطهرون منه وتتنظفون فله الحمد والمنة ﴿ **فأنشأنا لكم به** ﴾ أي بالماء ﴿ **جنات من نخيل وأعناب لكم فيها** ﴾ أي في الجنات ﴿ **فواكه كثيرة** ﴾ سوى النخيل والأعناب ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ أي ومن الجنات أي من ثمارها تأكلون ﴿ **وشجرة** ﴾ أي وأنشأنا لكم بالماء شجرة ﴿ **تخرج من طور سيناء** ﴾ قال ابن كثير : وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون ﴿ **تنبت بالدهن** ﴾ أي تنبت ومعها الدهن ، قال ابن كثير : فتقديره : تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ﴿ **وصبغ** ﴾ أي أدم ﴿ **للآكلين** ﴾ قال مقاتل : جعل الله تعالى في هذه إداماً ودهناً فالإدام : الزيتون ، والدهن : الزيت ﴿ **وإن لكم في الأنعام** ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ **لعبرة** ﴾ أي لعظة ﴿ **نسقيكم مما في بطونها** ﴾ أي مما تخرج لكم من بطونها أي اللبن ﴿ **ولكم فيها منافع كثيرة** ﴾ سوى الألبان ، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار ﴿ **ومنها** ﴾ أي ومن لحومها

﴿ **تأكلون** ﴾ ومع هذا ﴿ **وعليها** ﴾ أي وعلى بعض الأنعام وهي الإبل في البر ﴿ **وعلى الفلك** ﴾ في البحر ﴿ **تُحملون** ﴾ في أسفاركم .

كلمة في السياق :

لقد رأينا أن محور هذه المجموعة هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ والصلة واضحة تماماً بين هذه المجموعة وهاتين الآيتين ، إن في الآيتين استدلالاً بظاهرتي الحياة والعناية على الله ، فكذلك في هذه الآيات ، مع زيادة تفصيل لما أجمل هناك بذكر معان هي وحدها معجزة ، فأصبح في الآيات أنواع من الأدلة ، ما كانت لتذكر لولا أنّ هذا القرآن من عند الله ــ كما سنرى في الفوائد ــ والصّلة بين المجموعة الأولى وبين هذه المجموعة واضحة ، فالمجموعة الأولى ذكرت أخلاق أهل الإيمان ــ وما أعدّ الله لهم ، والمجموعة الثانية تحدّثت عما يوصل إلى الإيمان وعما يهيّج على العمل الصالح ، وعمّا يبعث على الكفّ عن العمل السيء :

كلمة في السياق :

نحب هنا أن نذكّر بفكرة الحيّز التي تحدثنا عنها أثناء الكلام عن سورة النحل ، والسور بعدها ، فههنا نجد أنّ سورة المؤمنون تفصّل محوراً هو الآيات الخمس التي رأيناها في سورة البقرة ، ولكن الآيات الخمس آتية في حيز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾نقول هذا كي ندرك حكمة ورود بعض المعاني التي لها علاقة مباشرة بالحيز الذي وردت فيه آيات المحور ، والذي فيه أمر بالعبادة والتوحيد والتقوى .

نقل

عند قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأناه خلقاً آخر ....** ﴾ قال صاحب الظلال :

(.. هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة . فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية . ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر . ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء . ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان ، مجرداً من خصائص

الارتقاء والكمال ، التي يمتاز بها جنين الإنسان .

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد . وهو ينشأ ﴿ **خلقاً آخر** ﴾ في آخر أطواره الجنينية ؛ بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني . لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية ، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً – كما تقول النظريات المادية – فهما نوعان مختلفان . اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني ﴿ **خلقاً آخر** ﴾ . إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ؛ ثم يبقى الحيوان حيوانا في مكانه لا يتعداه . ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ من الكمال . بواسطة خصائص مميزة ، وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان(١)

﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .. وليس هنا من يخلق سوى الله . **فأحسن** هنا ليست للتفضيل ، إنما هي للحسن المطلق في خلق الله .

---

(١) تقوم نظرية النشوء والارتقاء على أساس مناقض . إذ تفترض أن الإنسان ليس إلا طوراً من أطوار الترقي الحيوانية . وتفترض أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة الإنسان . والواقع المشهود يكذّب هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والإنسان . ويقرر أن الحيوان لا يحمل هذه الخصائص . فيقف دائماً عند حدود جنسه الحيواني لا يتعداه . وقد يثبت تطوره الحيواني على نحو ما يقول دارون أو على أي نحو آخر . ولكن يبقى النوع الإنساني متميزاً بأنه يحمل خصائص معينة تجعل منه إنساناً ليست نتيجة تطور آلي . إنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية .

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه (معجزات العلم) حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحركه ، دون تدخل مباشر من الإنسان .. فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها ، وتحويلات كاملة في ما هيتها ؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون ، مغلقي القلوب ، لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب .. وإن مجرد التفكير في أن الإنسان – هذا الكائن المعقد – كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة حتى لا تراها العين المجردة ، وإن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوراثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة الصغيرة .. إن مجرد التفكر في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب ..)

﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .. الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار ، وفق السنة التي لا تتبدّل ولا تنحرف ولا تتخلّف ، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنساني ، على أدق ما يكون النظام !

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **تنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾ عن شجرة الزيتون ذكر ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة » وروى عبد بن حميد في مسنده وتفسيره عن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .... روى أبو القاسم الطبراني عن الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة عن أبيه عن جده قال : ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء ، فأطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتاً وقال هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ) .

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال عنه حسن صحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك » .

٣ ــ موضوع انتقال الجنين من حال إلى حال موضوع يمرّ معنا كثيراً ، ونحب هنا أن ننقل نقولاً يتبيّن بها بعض أسرار الإعجاز : قال الدكتور / خالص كنجو : في كتاب (الطب محراب للإيمان) : بعد أن يتم تلقيح البيضة تضرب في محيطها الخارجي جداراً كتيماً ، بحيث إن جميع النطف التي تأتي بعد ذلك وتضرب برؤوسها الجدار لا تستطيع اختراقها ، وهكذا تموت بقية النطف . ثم لنتابع رحلة البيضة الملقحة حيث نجد أنها تبدأ بالانقسام بشكل سلسلة هندسية ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ٢٥٦ ، ٥١٢ ، وهذا ينتج عدداً ضخماً من الخلايا مع عدم زيادة حجم البيضة الأصلية أي أن الذي يحصل هو تقسم البيضة فقط ، وأثناء هذا الانقسام تكون البيضة سائرة في نفق

البوق ، حيث تدفعها التيارات المصلية الموجودة في البوق ، وتستغرق هذه الرحلة عبر هذا النفق البوقي قرابة عشرة أيام ، حيث يكون الانقسام قد أخذ ذروته ، وعلى ما يذكر البعض يحصل قرابة خمسين انقساماً ، وعندما تصل إلى الرحم يكون الغشاء المخاطي الرحمي مهيأ لاستقبالها كما ذكرنا ، وهنا يبدأ عمل عجيب ومهم ، وهو دخول البيضة إلى داخل الجدار الرحمي والجدار مغلق أمامها . ثم لا نلبث أن نرى أن هذه البيضة التي أصبح لها شكل التوتة من كثرة ازدحامها بالخلايا ، تمد أرجلاً كأرجل الأخطبوط تعمل بقوة وعنف في فتح الجدار الرحمي أمام التوتة ، وعندما يتم لها ذلك تنطمر هذه البيضة التوتية في جدار الرحم ، ويغلق الباب الذي فتح لها خلفها ، ثم ماذا ؟ إن هذه الأرجل الأخطبوطية تمتدّ على مدار التوتة وهي ما تعرف (بالزغابات) حيث تقوم بقضم محتويات الجدار مع العروق الدموية ، فينسكب الدم الغزير بشكل برك تحيط بهذه العلقة ! ! لأنها علقت في جدار الرحم ، وتنغمس الأرجل الأخطبوطية في برك الدم ؛ لتمتص الغذاء للجنين .

العلقة واللوحة المضغية :

وهكذا نرى أن العلقة الإنسانية تصبح محاطة من كل الجوانب بالزغابات الكوريونية التي تمتص من الدم كل ما يلزم لتخلق الجنين من الماء والأملاح المعدنية والفيتامينات والسكريات والآحينات والدسم ، فهل هناك أعجب من أن يكون المرء في غرفة ، والمواد الغذائية من فواكه وخضروات ومآكل طيبة ، ووجبات دسمة تقدّم له من السقف والأرض والنوافذ ، وجدران الغرفة ، إن هذا هو ما يحصل بالضبط للعلقة الإنسانية حين تتغذى !! ..... لو دخلنا إلى داخل هذه العلقة لوجدنا أن بعض المناطق فيها لها شكل يختلف عن بقية المناطق ، هذا المكان رقيق يشبه اللوحة أو القرص الصغير ، سمي باللوحة المضغية ، وهو أبعد الأماكن التي يتخيلها الذهن ، والتي يمكن أن تكون مصدر الكيان الإنساني ، وهكذا نرى أن أكداس الخلايا التي تكونت وشكلّت ما يعرف بالتوتة ، يختص قسم منها بالتكوين الخارجي للمضغة ويختص قسم صغير منها في تكوين الخريطة الأولى للمساحة الإنسانية ، هذه اللوحة يسمونها بمجموع الوريقات التي ستتخلّق منها الأعضاء ، وهي تعرف بالوريقة الباطنة والظاهرة والمتوسطة ، فلنر الآن كيف ستبدأ عمليه التخلّق ..... تظهر ميزابة في وسط المضغة والتي ستكون في المستقبل الدماغ والنخاع ، كما تظهر بجانبها قطع عرفت بالقطع البدئية ومن هذه القطع تتولد الفقرات

وامتدادها العظمي ، وهي عظام الأطراف ، ومنها العضلات حيث تمتد لتكوّن عضلات كل الجسم . والعجيب أن العظام تتكون بالأصل ، ثم تأتي العضلات بعد ذلك لتكسوها ، وصدق الله العظيم ﴿ **فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً** ﴾ ثم تبدأ العملية الجبارة في خلق أعضاء الجنين ، فطائفة من الخلايا تختصّ بالحواس ، وأخرى بالعظام ، وثالثة بالعضلات ، ورابعة بالأجهزة ، وهكذا يتكوّن من الوريقة الباطنة الرغامي والقصبات ، والرئتان ، والبلعوم ، والأنبوب الهضمي ، والكبد ، والمعثكلة ، كما يتشكل من الوريقة المتوسطة الجمجمة ، ونسيج الرأس الضام وعضلات الأطراف ، وهيكل العظام ، والجهاز التناسلي ، وغشاء الجنب (غشاء الجنب يغلّف الرئتين) والثامور (غشاء يغلّف القلب) والصفاق (غشاء يغلّف الأمعاء) والقلب والعروق ، والبلغم والجمله البولية ، كما يتكون من الوريقة الظاهرة بشرة الجلد ، والعناصر الملحقة به من غدد وأشعار وأظافر وأعضاء الحواس ، والجملة العصبية ، فكيف خططت كل هذه الأجهزة وكيف سار البناء في نسق واحد ، بحيث أن كل مجموعة خلوية تقوم ببناء جهاز خاص بل نسيج خاص وهي لا تعمل مستقلة ، بل متعاونة مع غيرها ، بحيث إن كل جهاز يأخذ مكانه الطبيعي ، وأي خلل يعطي تشوهات خطيرة للمستقبل ، كما يعرض الحياة للخطر ، ولذا لم نجد أن العين نمت في البطن ، أو أن اليد انبثقت من الرأس ، أو أن الأذن نبتت على الساق ، أو أن الشرج ركب في الظهر ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين** ﴾ .

وعندما ينمو الجنين أو بالأصح عندما تنمو المضغة وجد أنها خلال الأسابيع الأولى تشبه كثيراً مضغة الزواحف والطيور ، وحتى الخنازير ! ! ولكن ما إن يكتمل الشهر الثاني حتى يبدأ تخلق الإنسان ، وينشأ إنشاءً جديداً وصدق الله ﴿ **ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .

٤ ــ رأينا مجموع ما فهم به المفسرون القدامى قوله تعالى ﴿ **وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذَهاب به لقادرون** ﴾ وهناك اتجاه جديد اتجه إليه بعض علماء الطبيعة وهو أن في الآية إشارة إلى الإنزال الأول ، وذلك أن الأرض كانت كتلة نارية ، وإذ ذاك لم يكن الأمر على ما هو عليه الآن ، فلما بدأت تتبرّد لم يكن على قشرتها شيء من الماء ، وإنما كان الماء كله بخاراً ، ثم بدأ البخار ينعقد فيتشكل

مطراً ، ثم يتبخر ، وتكرر ذلك فترة طويلة من الزمان حتى استقر كله على الأرض ، وبدأت دورته تنتظم من الأرض يكون التبخر ، ثم يكون المطر ، وهذا مظهر من مظاهر كون القرآن يسع الزمان والمكان .

إن الحديث عن دورة الماء في هذا الكون لدليل على أن هذا القرآن من عند الله ، وقد لفت هذا الموضوع نظر باحث فرنسي اسمه (موزيس بوكاي) فجعله أحد مواضيعه التي أثبت بها ربانية القرآن في كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) وها نحن أولاء ننقل لك هذا البحث مع ملاحظات لنا على بعض تعبيراته قال :

ــ **دورة الماء** : في عصرنا ، عندما نقرأ ، المرة بعد الأخرى ، الآيات القرآنية الخاصة بدور المياه في حياة الإنسان ، فإنها تبدو لنا معبرة عن أفكار واضحة تماماً . والسبب في ذلك بسيط : ففي عصرنا نعرف كلنا – بدقة قد تقل أو قد تكثر – كيف تتم دورة الماء في الطبيعة . أما إذا أخذنا في اعتبارنا ما كان عليه مختلف المفاهيم القديمة في هذا الموضوع ، فإننا ندرك أن المعطيات القرآنية لا تحتوي على عناصر نابعة من المفاهيم الأسطورية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي كان للتفكير النظري فيها دور أكبر من معطيات الملاحظة ، وإذا كان الناس قد نجحوا بالتجربة في اكتساب معارف عملية مفيدة على مستوى محدود لتحسين ري الأراضي ، فعلى العكس فإن مفاهيمهم عن دورة الماء عموماً غير مقبولة في عصرنا ، وقد كان يمكن تخيّل أن المياه الجوفية تأتي من تسرب مياه الأمطار داخل الأرض ، ولكن ذلك لم يحدث ، والمذكور ــ كاستثناء في تلك العصور القديمة ــ هو مفهوم رجل يدعى فيتروف أيد هذه الفكرة في روما في القرن الأول قبل الميلاد . وعلى هذا وطيلة قرون طويلة ، يقع بينها عصر تنزيل القرآن ، كان للناس مفاهيم مغلوطة تماماً عن جريان المياه في الطبيعة . وفي مقال الهيدروجيولوجيا بدائرة معارف أو نيفرساليس : ج . كاستاني وب . بلافو وهما كاتبان متخصصان في هذه المسائل ، يقدمان عن هذه المسألة اللمحة التاريخية المعبرة التالية : عند تاليس دي ميلات وكان ذلك في القرن السابع قبل الميلاد ، كانت النظرية هي اندفاع مياه المحيطات بتأثير الرياح إلى داخل القارات ، ثم سقوطه على الأرض ، ثم ولوجه إلى التربة . وكان أفلاطون يقاسم هذه الأفكار ، ويعتقد أن عودة المياه إلى المحيط تتم بواسطة هوة سحيقة اسمها تاتار . وقد كان لهذه النظرية أتباع عديدون حتى القرن الثامن عشر ، ومنهم ديكارت ، أما أرسطو فقد افترض أن بخار ماء التربة يتكاثف في التجاويف الباردة

للجبال وتشكل بحيرات تحت الأرض تغذي الينابيع وقد تبعه سنيكا (القرن الأول الميلادي) في ذلك الرأي وكان له أتباع كثيرون حتى عام ١٨٧٧ ومنهم : أ . فولجر ويعود أول مفهوم صحيح عن دورة الماء إلى برنارد باليس عام ١٥٨٠ ، الذي أكد أن المياه الجوفية تأتي من تسرب ماء المطر في التربة ، وقد صادق أ . ماريوت وب . بيرو في القرن السابع عشر هذا الرأي .

أما المفاهيم غير الصحيحة السائدة في عصر محمد ﷺ فإننا لا نجد لها أي صدى في عبارات القرآن ، ولا في أي موضع آخر .

سورة ق ٥٠ ــ الآيات من ٩ إلى ١١ : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾

سورة المؤمنون ٢٣ – الآيتان ١٨ و ١٩ : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعنابٍ لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾ .

سورة الحجر ١٥ ــ الآية ٢٢ : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾ بالنسبة لهذه الآية الأخيرة فهناك إمكانيتان للتفسير : يمكن اعتبار الرياح مخصبة للنباتات بواسطة نقل اللقاح ، ولكن قد يكون المقصود هو صورة تعبيرية تذكر قياساً دور الريح الذي يجعل من سحابة لا تعطي مطراً سحابة تفك المطرة الفجائية ، وكثيراً ما يذكر هذا الدور مثلما نرى في الآيات التالية :

سورة فاطر ٣٥ ــ الآية : ٩ : ﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾

ويلاحظ أن الأسلوب في الجزء الأول من الآية هو أسلوب القصة ، ويليه دون تمهيد تصريح من الله . وهذه التعديلات الفجائية في شكل الخطاب تتردد كثيراً في القرآن .

سورة الروم ٣٠ ــ الآية ٤٨ : ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** ﴾

سورة الأعراف ٧ ــ الآية ٥٧ : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالًا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾

سورة الفرقان ٢٥ ــ الآيتان ٤٨ و٤٩ : ﴿ **وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحييَ به بلدة ميتاً ونسقيهُ مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً** ﴾ .

سورة الجاثية ٤٥ ــ الآية ٥ : ﴿ .... **وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾ . والرزق المقصود في الآية الأخيرة هو الماء الذي ينزل من السماء ، كما يشير السياق إلى ذلك ، ثم إن نبرة الآية تؤكد على تغير الرياح ، فهي التي تعدل نظام سقوط الأمطار .

سورة الرعد ١٣ ــ الآية ١٧ : ﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً** ..... ﴾

سورة الملك ٦٧ ــ الآية ٣٠ : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾

سورة الزمر ٣٩ ــ الآية ٢١ : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه** ...... ﴾

سورة يس ٣٦ ــ الآية ٣٤ : ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون** ﴾ .

تؤكد الآيات الثلاث الأخيرة على أهمية العيون المائية ، وتموينها بماء المطر الذي يتجه إليها ويستحق الأمر وقفة لنذكر بتسلط بعض المفاهيم في القرون الوسطى كمفهوم أرسطو الذي كان يرى أن الينابيع المائية تتموّن بواسطة بحيرات جوفية ، ويصف ر . أمينيَراس الأستاذ بالمدرسة الوطنية للهندسة الزراعية والمياه والغابات في مقاله الهيدرولوجيا بدائرة معارف أونيفرساليس ، يصف المراحل الرئيسية في علم المياه ويستشهد بأعمال الري القديمة الرائعة ، وخاصة تلك التي أنجزت في الشرق الأوسط ، وهو يلاحظ أن المعرفة العلمية قد سادت كل هذه الإنجازات ، على حين كانت الأفكار صادرة عن مفاهيم مغلوطة ويردف المؤلف قائلًا : (ويجب أن ننتظر حتى عصر النهضة

(ما بين ١٤٠٠ و ١٦٠٠) تقريباً حتى تخلي المفاهيم الفلسفية الصرف المكان لأبحاث تعتمد على الملاحظة الموضوعية للظاهرات الهيدرولوجية . فقد ثار ليونارد دافنشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) على دعاوى أرسطو . ويعطي برنارد باليس في بحث له بعنوان (خطاب في روعة طبيعة المياه والعيون الطبيعية منها والصناعية) (باريس ١٥٧٠) يعطي تفسيراً صحيحاً عن دور الماء وخاصة عن تمريره الأمطار للينابيع ...

أليست هذه بالتحديد هي الإشارة التي نجدها في الآية ٢١ من سورة الزمر التي تذكر اتجاه مياه الأمطار نحو الينابيع في الأرض .

إن المطر والبرد موضوعا الآية : ٤٣ من سورة النور : ﴿ **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عـن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾ وتستحق العبارة التالية تعليقاً (سورة الواقعة الآيات من : ٦٨ إلى ٧٠) : ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لونشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾ . الاستشهاد بأن الله كان يستطيع أن يجعل الماء الطيب بطبيعته مالحاً شديد الملوحة . هو طريقة في التعبير عن القدرة الإلهية أو طريقة أخرى في التعبير عن هذه المقدرة نفسها : تحدي الإنسان أن ينزل الماء من السحاب . ولكن ، إذا كانت الطريقة الأولى مجرد قول بديهي ، أفلا تكون الثانية كذلك في العصر الحديث حيث سمحت التكنولوجيا بإطلاق المطر صناعياً ... ؟ أيمكن معارضة دعوى القرآن بطاقة البشر على إنتاج المطر ...؟ ليس الأمر كذلك ، إذ يبدو أنه لابد من الأخذ في الاعتبار بحدود إمكانيات الإنسان في هذا الميدان . وقد كتب م . ا . فاسي . مهندس عام الأرصاد الجوية الوطنية في مقالة « الهواطل » بدائرة معارف أو نيفرث ساليس ما يلي : لن يمكن أبداً إسقاط المطر من سحابة لاتحتوي على سمات السحابة القابلة للهطول أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور (أو النضج) . وبالتالي فإن الإنسان لايستطيع إلا أن يعجّل بعملية الهطول مستعيناً في ذلك بالوسائل التقنية الملائمة على شرط أن تكون الظروف الطبيعية لذلك جاهزة سلفاً . ولو كان الأمر غير ذلك لما كان الجفاف عملياً ، وهذا غير حادث ، كما هو واضح التحكم في المطر والطقس الجميل مازال حتى اليوم حلماً . لايستطيع الإنسان أن يقطع كيفما يشاء الدورة الثابتة التي تضمن حركة المياه في الطبيعة ، وعلى حسب تعليمات

الهيدرولوجيا الحديثة فيمكن تلخيص هذه الدورة كما يلي : -

يثير الإشعاع الحراري للشمس تبخر الماء في المحيطات وكل السطوح الأرضية المغطاة أو المشبعة بالماء يتصاعد بخار الماء بهذا الشكل نحو الجو ، ويشكّل سحباً عن طريق تكاثفه . عندئذ تدخل الرياح لتؤدي دورها في نقل السحب بعد تشكلها إلى مسافات متنوعة . وقد تختفي السحب دون أن تعطي مطراً . كما يمكن أن تلتقي كتل السحاب مع كتل أخرى لتعطي بذلك سحباً ذات كثافة كبرى ، وقد تتجزأ لتعطي مطراً في مرحلة من تطورها . وسرعان ماتتم الدورة بوصول المطر إلى البحار (التي تشكل ٧٠ ٪ من سطح الكرة الأرضية) . أما المطر الذي يصل إلى الأرض فقد يمتص جزئياً بواسطة النباتات ، مساهماً في نموها وهذه بدورها تقوم من خلال ترشيحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجو . أما الجزء الآخر فإنه يتسلل بمقدار قد يقل أو يكثر إلى التربة ليتجه نحو المحيطات عبر مجاري الماء ، أو قد يتسرّب في التربة ليعود نحو الشبكة السطحية عن طريق الينابيع أو الأماكن الأخرى ، التي يخرج منها الماء إلى السطح .

ولنقارن معطيات علم الهيدرولوجيا الحديث بتلك التي نجدها في كثير من الآيات القرآنية المذكورة في هذه الفقرة ، سنلاحظ وجود توافق رائع بين الاثنين

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة من المقطع الأول

وتمتدُّ من الآية (٢٣) إلى نهاية الآية (٥٦) وهذه هي :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ

يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ أي منه أي من أين يدّعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم ﴿ **ولئن أطعتم بشراً مثلكم** ﴾ أي فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿ **إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ بالانقياد لمثلكم ، قال النسفي : ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون** ﴾ أي مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب ﴿ **هيهات هيهات** ﴾ أي بَعُدَ بَعُدَ ﴿ **لما توعدون** ﴾ من العذاب أو من البعث ﴿ **إنْ هي إلا حياتنا الدنيا** ﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منا ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ أي يموت بعض ويولد بعض ، ينقرض قرن فيأتي قرن آخر ﴿ **وما نحن بمبعوثين** ﴾ أي بعد الموت ﴿ **إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً** ﴾ أي ماهو إلا مفتر على الله فيما يدّعيه من استنبائه له ، وفيما يعدنا من البعث ﴿ **وما نحن له بمؤمنين** ﴾ أي بمصدقين ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون** ﴾ استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه ﴿ **قال عما قليل** ﴾ أي عن قليل ﴿ **ليصبحن نادمين** ﴾ إذا عاينوا ما يحل بهم ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾

قال النسفي : أي صيحة جبريل صاح عليهم فدمّرهم ﴿ **بالحق** ﴾ أي بالعدل من الله أي كانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم ﴿ **فجعلناهم غثاء** ﴾ شبههم في دمارهم بالغثاء : وهو حميل السيل مما بلي واسودّ من الورق والعيدان ﴿ **فبعداً** ﴾ أي هلاكاً ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ أي الكافرين ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين** ﴾ أي أمماً وخلائق ، كقوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ﴿ **ماتسبق من أمة** ﴾ أي ما تسبق أمةّ ﴿ **أجلها** ﴾ المكتوب لها ، والوقت الذي حُدّ لهلاكها وكتب ﴿ **ومايستأخرون** ﴾ أي لايتأخرون عنه يعني : بل يؤخذون على حسب ماقدر لهم الله تعالى في كتابه المحفوظ ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا** ﴾ أي متتابعين واحداً بعد واحد قال ابن عباس : يتبع بعضهم بعضاً ﴿ **كلما جاء أمة رسولها** ﴾ المرسل إليها ﴿ **كذبوه** ﴾ أي جمهورهم وأكثرهم ﴿ **فأتبعنا** ﴾ الأمم والقرون ﴿ **بعضهم بعضاً** ﴾ في الهلاك ﴿ **وجعلناهم أحاديث** ﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس قال النسفي : أخبارا يسمع بها ويتعجب منها ، والأحاديث تكون اسم جمع للحديث ، ومنه أحاديث النبي ﷺ ، وتكون جمعاً للأحدوثة وهو مايتحدث به الناس تلهياً وتعجباً وهو المراد هنا ﴿ **فبعداً لقوم لا يؤمنون** ﴾ أي فهلاكاً لقوم كافرين ﴿ **ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا** ﴾ التسع ﴿ **وسلطان مبين** ﴾ أي وحجة ظاهرة ﴿ **إلى فرعون وملئه فاستكبروا** ﴾ أي امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعاً وتكبراً

﴿ **وكانوا قوماً عالين** ﴾ أي متكبرين مترفعين ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما** ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ **لنا عابدون** ﴾ أي خاضعون مطيعون وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب ﴿ **فكذبوهما فكانوا من المهلكين** ﴾ بالغرق ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة ﴿ **لعلهم** ﴾ أي لعل قومه ﴿ **يهتدون** ﴾ أي يعملون بشرائعها ومواعظها ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** ﴾ تدل على قدرتنا على مانشاء لأنه خلق من غير نطفة وكان هو وأمه آية لأن الأعجوبة فيهما واحدة ﴿ **وآويناهما** ﴾ أي جعلنا مأواهما أي منزلهما ﴿ **إلى ربوة** ﴾ أي إلى أرض مرتفعة ﴿ **ذات قرار** ﴾ أي مستقر من أرض مستوية منبسطة ، أو ذات ثمار وماء ، لأنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ﴿ **ومعين** ﴾ أي وماء ظاهر جار على وجه الأرض قال النسفي : وهي بيت المقدس أو دمشق أو الرملة أو مصر . وقال ابن كثير : وأقرب الأقوال في ذلك مارواه العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ قال : المعين : الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى ﴿ **قد جعل ربك تحتك سرياً** ﴾ .

﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ أي الحلال ﴿ **واعملوا صالحاً** ﴾ أي موافقاً للشريعة قال ابن كثير : فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، وقال النسفي (هذا الخطاب والنداء ليسا على ظاهرهما ؛ لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصّي به ، ليعتقد السامع أن أمراً نودي به جميع الرسل ووُصوا به حقيق أن يؤخذ به ، ويعمل عليه أو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله ومقامه مقام الكل في زمانه ، وكان يأكل من الغنائم ، أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره ، وكان يأكل من غزل أمه ، وهو أطيب الطيبات ، والمراد بالطيبات ماحل والأمر للتكليف ، أو مايستطاب يستلذ والأمر للترفيه والإباحة) ﴿ **إني بما تعملون عليم** ﴾ فأجازيكم على أعمالكم ﴿ **وإن هذه أمتكم** ﴾ يامعشر الأنبياء والرسل ﴿ **أمة واحدة** ﴾ ملة واحدة ، وشريعة واحدة ، وديناً واحداً ﴿ **وأنا ربكم** ﴾ وحدي ﴿ **فاتقون** ﴾ أي فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري ﴿ **فتقطعوا** ﴾ أي قطعت الأمم ﴿ **أمرهم بينهم زبراً** ﴾ أي قطعاً يعني : جعلوا دينهم أدياناً ، يعني قطعت الأمم أمر الأنبياء قطعاً ، وأخذت كل طائفة قطعة ، وأمرهم واحد ، وعن الحسن : قطّعوا كتاب الله قطعاً ، وحرّفوه ﴿ **كل حزب** ﴾ أي كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ﴿ **بما لديهم** ﴾ من الهوى والرأي ﴿ **فرحون** ﴾ مسرورون معتقدون أنهم على الحق ، ولهذا قال : متوعداً ﴿ **فذرهم** ﴾ أي فدعهم ﴿ **في غمرتهم** ﴾ أي في

جهالتهم وغفلتهم ﴿ **حتى حين** ﴾ أي إلى أن يقتلوا أو يموتوا ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات** ﴾ أي أيظن هؤلاء المغرورون أنّ مانعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ! كلا ليس الأمر كما يزعمون ، لقد أخطأوا في ذلك ، وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل ذلك استدراجاً وإنظارا وإملاءً ﴿ **بل لايشعرون** ﴾ أنّه استدراج لهم ؛ لأنّهم لايتأمّلون ليدركوا أنّهم لايستأهلون ، فيعرفوا أنهم مستدرَجون والمعنى : أن هذا الإمداد ليس إلّا استدراجاً لهم إلى المعاصي ، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ، ومعالجة بالثواب ، جزاءً على حسن صنيعهم .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ قال ابن كثير : قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولاحلوكم ولاحامضكم ، ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه ، وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿ **كلوا من الطيبات** ﴾ يعني : الحلال ، وقال أبو إسحاق السبيعي ...... كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه . وفي الصحيح « وما من نبي إلا رعى الغنم » قالوا : وأنت يارسول الله ؟ – قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » وفي الصحيح « أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » وفي الصحيحين « إن أحب الصيام إلى الله صيام داوود كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » وروى ابن أبي حاتم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قالت : بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك في أول النهار ، وشدة الحر ، فردّ إليها رسولها أنّى كانت لك الشاة ؟ فقالت : اشتريتها من مالي ، فشرب منه ، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله بنت شداد فقالت : يا رسول الله بعثت إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إليّ الرسول فيه فقال لها :

« بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً » وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيباً وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات**

واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام يمدُّ يديه إلى السماء يارب فأنّى يستجاب لذلك ، وقال الترمذي : حسن غريب .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا : وما بوائقه يارسول الله ؟ قال غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره ، إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لايمحو الخبيث » .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن المجموعة الأولى من السورة حدّدت صفات المؤمنين وبشرتهم ، وأن المجموعة الثانية ذكرت ما يعمّق الإيمان وما يقويه وما يبعث عليه ، وجاءت المجموعة الثالثة وبها تمّ المقطع ، لتذكّر من خلال قصة قوم نوح ومن بعده بجزاء الكافرين ﴿ **فبعداً للقوم الظالمين** ﴾ ﴿ **فبعداً لقوم لايؤمنون** ﴾ ، ولتذكّر بعناية الله بالمؤمنين ، ولتصحّح مفاهيم وأغاليط كافرة ، ثم لتنتهي بدعوة الرسل ، ومن باب أولى الخلق كلهم إلى أكل الحلال والعمل الصالح ، لتصل إلى وحدة الأمة الإسلامية ، وبالتالي وحدة مواقفها ، ثمّ لتحدّد ما ينبغي فعله في مقابل الكفر ، وتصحّح مفهوماً خاطئاً ، هو أن الخير الدنيوي ليس مقياس الحق والرضا من الله ، فالسورة إذن تتعانق مجموعاتها لتخدم قضية الإيمان والعمل الصالح ، ومن ثم نلاحظ أن المجموعة الثالثة بعد أن قصّت علينا شيئاً من سير الأنبياء ، وصلت إلى القول ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾ وقد ذكرنا من قبل الصلة بين العمل الصالح ، وأكل الحلال ، وواضح أن العمل الصالح يخدم قضية الإيمان ويعمقها ، فلنر محلّ هذه المجموعة بالنسبة للسياق القرآني العام :

١ ـــ ذكرنا أن محور سورة المؤمنون وهو الآيات الخمس من سورة البقرة المبدوءة بقوله تعالى ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** .... ﴾ والآتية في حيّز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وكما أنّ الآيات الخمس في سورة البقرة تخدم هذا الأمر ، فإننا نلاحظ أن السورة التي تفصلّ هذه الآيات الخمس تخدم هذا الأمر ، ومن ثم نلاحظ في المجموعة التي بين أيدينا مجيء قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ وكما أننا فهمنا من الآيات الخمس الآتية في حيّز هذا الأمر في سورة البقرة : أنّه وجد كفر وكافرون ، وفساد ومفسدون ، فإن سياق المجموعة دلنا على أنه وجد كفر وكافرون في كل زمان ومكان ﴿ **كلما جاء أمة رسولها كذبوه** .... ﴾ وإذن فكما أن للآيات الخمس في سورة البقرة صلة في الأمر ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا** ...... ﴾ فلهذه المجموعة ولسورة المؤمنين كلها صلة بهذا الحيّز .

٢ ـــ الآية الأولى من الآيات الخمس هي ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ..... ﴾ هذه الآية خدمتها هذه المجموعة ، من حيث عرضت لنا نموذجاً للمؤمنين الكاملين ، المتمثلين بالرسل عليهم الصلاة والصلام والسلام ، بدليل أنها ذكرت بعد ماذكرت الرسل ﴿ **ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ ﴿ **وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً** .... ﴾ إن تقرير وحدة الرسالات والإنكار على من فرّق أمر الرسل ، وذكر اشتراك الرسل بالإيمان والعمل الصالح ، وفي فعل الله للرسل وبهم من نصر وهداية ورعاية كل ذلك نمط من التبشير لأهل الإيمان .

٣ ـــ نهاية الآية الثانية من الآيات الخمس والآية الثالثة منها ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وفي ذكر ما فعل الأقوام برسلهم وماقالوه ، وما حلّ بهم ، نماذج على هذه الأخلاق ، ونماذج على الخسارة ، وفي ذكر إيتاء موسى الكتاب لعلهم يهتدون ، نموذج على سنّة الله في إنزاله الكتب .

٤ ـــ الآية الرابعة من الآيات الخمس في سورة البقرة هي قوله تعالى ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** .... ﴾ وفي هذه الآية تدليل على الإيمان ، وإنكار

على الكفر ، وفي ذكر قصة عيسى وأمه وكونهما آية ، إشارة إلى نوع من خلق الحياة هو وحده دليل على وجود الله .

٥ – الآية الخامسة من الآيات الخمس هي : ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ هذه الآية خدمها في المجموعة قوله تعالى ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ إذ أباحت وطالبت ، فإباحة ما في الأرض يقتضي عملاً صالحاً ، وفي قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ ما يشير إلى أن أدب الأمة الإسلامية في كل العصور ، أكل الطيبات والعمل الصالح ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **فذرهم في غمرتهم حتى حين** ﴾ مشيراً إلى أن الحجة على الكفر قائمة ، وإذا كان عند الكافرين تصور خاطىء هو ارتباط فكرة الرخاء عندهم بفكرة رضى الله فقد صحح الله لهم هذا المفهوم ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ وإذن فالمجموعة الثالثة – كسابقتها – قد خدمت محور السورة ؛ ففصلت نوع تفصيل الآيات الخمس في سورة البقرة مع خدمة حيّز هذه الآيات في سورة البقرة .

....

وفي نهاية هذه الكلمة أذكر هذه الملاحظة :

في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وردت هذه الآية هناك ، ولم يرد مباشرة ماذا يترتب على ذلك ، وفي سورة المؤمنون يرد قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ لاحظ أن آية سورة البقرة مختومة بقوله تعالى ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ وأن آية سورة المؤمنون مختومة بقوله تعالى ﴿ **إني بما تعملون عليم** ﴾ وأن الأمر : ﴿ **كلوا من الطيبات** ﴾ هو مقتضى الإباحة في قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وأن الأمر ﴿ **واعملوا صالحاً** ﴾ هو مقتضى الشكر على الإباحة ، ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ أفلا ترى أن مجيء هذه الآية بعد ذكر المجموعة الثانية التي فصّلت بعض آثار قدرة الله ، وذكّرت أمهات نعمه ، ألا ترى أن ذلك كله مفهوم الاتصال ، مفهوم الروابط !!.

....

وبعدُ ، فإن المجموعات الثلاث التي مرت معنا في سورة المؤمنون تشكّل المقطع الأول من هذه السورة ، وقبل أن نبدأ عرض المقطع الثاني والأخير من السورة فلنذكر كلمة حول المقطع الأول .

كلمة في المقطع الأول :

بشّر المقطع الأول أهل الإيمان والعمل الصالح بالجنة ، وعرض خلال ذلك مجموعة الأخلاق والأعمال التي بها استحقوا ذلك ، ثم عرض علينا مظاهر من أفعاله جل جلاله ، تقتضي منا إيماناً وعملاً وشكراً ، ثم قصّ علينا من قصص الأنبياء ما فيه موعظة وتذكير وتحذير ، ثم خاطب الرسل مطالباً إياهم بالعمل الصالح في مقابل أكل الطيبات ، ثم بيّن لنا أنّ أمتنا واحدة ، ومن ثم فإن كل مسلم مطالب بالعمل الصالح وأكل الحلال ، ثم أنكر على من تقطع أمر الأنبياء ، ثم بيّن أن مجرد السعة في الرزق لا تعني رضا الله ؛ إذ رضا الله مرتبط - كما مر معنا من قبل - بالإيمان والعمل الصالح ، وسار المقطع ، كما رأينا من قبل - مفصّلاً لخمس آيات من سورة البقرة ، حتى وصل السياق إلى ما وصل إليه ، وهو أنه لابد من العمل الصالح ، وإن من يتوهم أن رضوان الله علامته السعة في الدنيا فهو خاطىء ، إن رضوان الله علامته التوفيق إلى العمل الصالح الذي يستحق أهله البشارة ، والذي هو الشكر العملي على إباحة الله للإنسان الطيبات ، وبعد أن تستقر هذه المعاني يأتي المقطع الثاني :

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (١١٨) أي إلى نهاية السورة .

نلاحظ أن المقطع الثاني يتألف من أربع مجموعات ، أو مقدمة ومجموعتين وخاتمة ، المقدمة تتحدث عن الخصائص التي إذا وجدت وجد العمل الصالح ، كما تتحدّث عن كون التكليف بالعمل الصالح إنما هو بقدر الطاقة ، ثم تتحدث عن الكافرين وحالهم في الرخاء وأعمالهم ، ثم تأتي مجموعتان ، ثم يختتم المقطع بخاتمة .

ومن هذه الكلمة المختصرة عن المقطع ندرك أن المقطع الثاني على صلة كاملة بالمقطع الأول ، فهو يربي على العمل الصالح ، ويبيّن مرتكزاته النفسية ، ويعالج موانعه ، وينذر الكافرين الذين لا يؤمنون فيعملون .

ونحن سنعرض المقطع على أنه مجموعات أربع ، ونبيّن خلال العرض صلة آياته بسياق السورة الخاص والعام .

المجموعة الأولى وهي مقدمة المقطع الثاني

وتمتد من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (٦٣) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير :

﴿ **إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون** ﴾ أي : خائفون ، قال ابن كثير ، أي : هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله ، خائفون منه وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً ﴿ **والذين هم بآيات ربهم يؤمنون** ﴾ أي : يؤمنون بآياته الكونية والشرعية ، ومن ذلك كتبه ، فلا يفرقون بين كتبه ولا بين معنى ومعنى في كتاب ، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم ، كأهل الكتاب ﴿ **والذين هم بربهم لا يشركون** ﴾ أي : لا يعبدون معه غيره ، بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله الأحد الصمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفء له ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ أي : يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات ﴿ **وقلوبهم وجلة** ﴾ أي : خائفة ألا تقبل منهم بتقصيرهم . قال ابن كثير : أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألا يتقبّل منهم

لخوفهم أن يكونوا قد قصّروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط ﴿ **أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ أي: لأنهم إلى ربهم راجعون ﴿ **أولئك يسارعون في الخيرات** ﴾ أي يرغبون في الطاعات فيبادرونها ﴿ **وهم لها سابقون** ﴾ أي: وهم لأجل الخيرات سابقون إلى الجنان، أو لأجلها سبقوا الناس.

كلمة في السياق:

بينت الآيات أن من اجتمعت له هذه الخصائص الأربع وهي الخشية، والإيمان، والتوحيد، وتقديم العطاء، مع الوجل من عدم القبول، هو الذي يسارع في العمل الصالح، وعلى هذا فبعد أن بشّرت السورة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وأوصلت إلى ضرورة ذلك بينت هذه الآيات ما هي الخصائص التي ينبع عنها العمل الصالح، ولنعد إلى التفسير:

﴿ **ولا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ أي: طاقتها يعني أنّ الذي وصف به الصالحون وطولب به الإنسان من العمل الصالح، غير خارج عن حدّ الوسع والطاقة ﴿ **ولدينا كتاب** ﴾ هو اللوح، أو صحيفة الأعمال ﴿ **ينطق بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ أي لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا يظلم منهم أحداً بزيادة عقاب أو نقصان ثواب، أو بتكليف مالا وسع له به ﴿ **بل قلوبهم في غمرة من هذا** ﴾ بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ أي ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون ﴿ **هم لها عاملون** ﴾ وعليها مقيمون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

....

كلمة في السياق:

بعد أن بينت السورة ضرورة العمل الصالح، ومن هم أهلُه، بيّنت أنّ التكليف بحسب الوسع، ثّم بيّنت أن الكافرين غافلون عن العمل الصالح، وغارقون في العمل السيّء دلّ ذلك على أن العمل الصالح أثر عن حال معينة للقلبِ وأن العمل السيء أثر عن

حال معيّنة للقلب . والآن نلاحظ أن كلمة (حتى) تتكرر ثلاث مرات بعد قوله تعالى **﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾**

١ - **﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾** الآية ٦٤ .

٢ - **﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾** الآية ٧٧ .

٣ - **﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾** الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

ومن الآيات السابقة ندرك الآن سير السورة ، فالكافرون قلوبهم في غمرة ، وقد أنذرهم الله ثلاثة أشياء ليخرجهم من هذه الغمرة ، ثمّ يأتي الإنذار الأخير في السورة **﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون ... ﴾** فهو إنذار رابع للكافرين الذين يعملون السيئات ، إن السورة تبشّر الذين يعملون الصالحات ، وتنذر الذين يعملون السيئات ، والسورة تبيّن ماهية العمل الصالح ، وما هي مرتكزاته وأسبابه ودوافعه . وتبيّن العمل السيء وأسبابه ودوافعه ومرتكزاته . وها نحن سنعرض عليك المجموعة الثانية في المقطع الثاني بعد أن ذكرنا بعض مفاتيح السياق .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية من المقطع الثاني

وتمتدُّ من الآية (٦٤) إلى نهاية الآية (٧٧) وهذه هي :

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

☆ ☆ ☆

التفسير :

﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم** ﴾ أي متنعميهم ﴿ **بالعذاب** ﴾ في الدنيا ﴿ **إذا هم يجأرون** ﴾ أي يصرخون استغاثة إذ الجؤار : هو الصراخ باستغاثة فيقال لهم : ﴿ **لا تجأروا اليوم** ﴾ فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿ **إنكم منّا** ﴾ أي : من جهتنا ﴿ **لا تنصرون** ﴾ لا يلحقكم نصر أو معونة ، قال ابن كثير : أي : لا يجيركم أحد مما حل بكم ، سواء جأرتم أو سكتم ، لا محيد ولا مناص ولا وَزَر ، لزم الأمر ، ووجب العذاب ، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : ﴿ **قد كانت آياتي** ﴾أي : القرآن ﴿ **تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون** ﴾ أي : ترجعون القهقرى ، النكوص : هو أن يرجع الإنسان القهقرى ، وهي أبشع مشية لأنه لا يرى ما وراءه ، والمعنى : إذا دعيتم أبيتم ، وإذا طلبتم امتنعتم ﴿ **مستكبرين به** ﴾ أي متكبّرين بالبيت أو بالحرم عن قبول الحق ، كأنكم أهل الحرم أكبر من أن تكلّفوا ، أو مستكبرين بالقرآن ، ومعنى استكبارهم به : تكذيبهم به استكباراً ﴿ **سامراً تهجرون** ﴾ الهجر : الهذيان من القول ، والفحش فيه ، والسمر معروف ، والمعنى : تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن ، وتسميته شعراً وسحراً ، وقال النسفي : والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع ﴿ **أفلم يدبروا القول** ﴾أي أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به وبمن جاء به ﴿ **أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين** ﴾ أي بل أجاءهم مالم يأت أباءهم الأولين ، فلذلك أنكروه واستبعدوه ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم** ﴾ محمداً بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق ؟ ﴿ **فهم له منكرون** ﴾ بغياً وحسداً ، فقد عرفوه بصفاته وأنكروه ﴿ **أم يقولون به جنّة** ﴾ أي جنون وليس كذلك لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً ، وأثقبهم ذهناً ﴿ **بل جاءهم بالحق** ﴾ الأبلج والصراط المستقيم ، وبما خالف شهواتهم وأهواءهم ، وهو التوحيد والإسلام ، ولم يجدوا له مرداً ، ولا مدفعاً ، فلذلك نسبوه إلى الجنون ﴿ **وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ الأكثرون منهم يعرفون الحق ولا يؤمنون كراهة له ، وبعضهم - وهم الأقل - لم يكونوا كارهين للحق - بل كانوا تاركين للإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ أقوامهم ، وأن يقولوا صبأوا وتركوا دين آبائهم ، كأبي طالب ﴿ **ولو اتبع الحق** ﴾ أي الله عز وجل ﴿ **أهواءهم لفسدت السمٰوات والأرض ومن فيهن** ﴾ قال ابن كثير : والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ، لفسدت السمٰوات والأرض ومن فيهن ، أي لفساد أهوائهم

واختلافها ﴿**بل أتيناهم بذكرهم**﴾ أي الكتاب الذي هو ذكرهم ، أي وعظهم أو شرفهم ؛ لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ أي بسوء اختيارهم ﴿ **أم تسألهم خَرْجاً** ﴾ أي أجراً ﴿ **فخراج ربك خير وهو خير الرازقين** ﴾ أي أفضل المعطين ، أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ﴿ **وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم** ﴾وهو دين الإسلام فحقيق أن يستجيبوا لك ﴿ **وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون** ﴾ . أي لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم ﴿ **ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر** ﴾ مما يجأرون إلى الله بإزالته ﴿ **لَلَجّوا** ﴾ أي لتمادوا ﴿ **في طغيانهم يعمهون** ﴾ أي يترددون يعني : لعادوا إلى ماكانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين . ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب** ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ **فما استكانوا لربهم** ﴾ أي فما خضعوا ولا خشعوا ﴿ **وما يتضرعون** ﴾ أي وما يدعون الله ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد** ﴾ يعمّهم جميعاً ﴿ **إذا هم فيه مبلسون** ﴾ أي متحيرون آيسون من كل خير .

نقل :

عند قوله تعالى :

﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن** ﴾ ... قال صاحب الظلال : (فالحق واحد ثابت ، والأهواء كثيرة متقلبة . وبالحق الواحد يدبر الكون كله ، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ، ولاتتخلف سننه لرغبة طارئة . ولو خضع الكون للأهواء العارضة ، والرغبات الطارئة لفسد كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، واختلّت الموازين والمقاييس ؛ وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى ، والكره والبغض ، والرغبة والرهبة ، والنشاط والخمول ، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد ، والانفعالات والتأثيرات .. وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد ، على قاعدة ثابتة ، ونهج مرسوم ، لايتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد .

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره ، جعل الإسلام التشريع للحياة

البشرية جزءاً من الناموس الكوني ، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله ، وتنسق أجزاءه جميعاً . والبشر جزء من هذا الكون ، خاضع لناموسه الكبير ، فأولى أن يشرع لهذا الجزء مَنْ يشرع للكون كله ، ويدبره في تناسق عجيب . بذلك لايخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموٰات والأرض ومن فيهنّ** ﴾ .

فوائد المجموعتين :

١ ــ عند قوله تعالى ﴿ **والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلى ربهم راجعون** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : يارسول الله ﴿ **الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لا يابنت الصديق : ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدّق وهو يخاف الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم وقال « لايا ابنة الصديق ولكنّهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألّا يتقبل منهم » .

٢ ــ رأينا أنّ بعض المفسرين فسّروا قوله تعالى ﴿ **أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ فسروها بقولهم هم لأجلها سابقون ، ويمكن أن يكون المعنى أن من اتصف بهذه الصفات يسبق الخيرات ويتقدّم عليها بمعنى : أنه إذا مشى فالخير يمشي على أثره .

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً « فقال له : أسلم » فقال الرجل : إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ : « وإن كنت كارهاً » وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك وكبر عليه ، فقال له نبي الله ﷺ « أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث ، فلقيت رجلاً تعرف وجهه ، وتعرف نسبه ، فدعاك إلى طريق واسع سهل ، أكنت تتبعه ؟ - قال نعم ، وقال : فو الذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت عليه ، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لودُعيت إليه ، وذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ « أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما : إذا حدّثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى إليك . أهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدّثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ؟ » قال : بل فتاي الذي إذا حدّثني صدقني ، وإذا ائتمنه أدى إليّ ، فقال نبي

الله ﷺ : « كذا كم أنتم عند ربكم » .

٤ ـــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم** ﴾ ذكر ابن كثير هذين الحديثين :

أ ـــ روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان ، قعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مَثَل هذا ومثل أمتّه ، فقال : إنّ مثل هذا ومثل أمته ، كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلّة حبرة ، فقال : أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا : نعم ، قال : فانطلق بهم ، وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه ، وحياضاً هي أروى من هذه ، فاتبعوني ، قال : فقالت : طائفة : صدق والله لنتبعنّه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه » .

ب ـــ وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله « إني ممسك بحجزكم هلم عن النار ، هلم عن النار ، وتغلبونني تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرسل حجزكم ، وأنا فرطكم على الحوض ، فتردون علي جمعاً وأشتاتاً ، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم ، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله ، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم رب العالمين ، أي رب قومي أي رب أمتي فيقال يا محمد إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد ، يامحمد فأقول : لاأملك لك من الله شيئاً قد بلّغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة فينادي يامحمد يامحمد ، فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاءً من أدم ينادي يامحمد يامحمد ، فأقول لاأملك لك شيئاً قد بلّغت » .

٥ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز – يعني الوبر والدم – فأنزل الله ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا** ﴾ الآية ، وكذا رواه النسائي ، وأصله في الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن عمر ابن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء : ألا أنشدك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب : نحن في طرف من عذاب الله ، والله يقول : ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ قال : وصام وهب ثلاثاً متواصلة ، فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة) .

كلمة في السياق :

بعد المجموعة الأولى التي حددت صفات من يسارع إلى الخيرات ، وبيّنت أن التكليف بحسب الطاقة وأنّ بعض القلوب في غمرة من مثل هذه الخصائص ، وأعمال أصحابها سيئة ، جاءت هذه المجموعة المبدوءة بـ ﴿ **حتى** ﴾ والمنتهية بـ ﴿ **حتى** ﴾ والتي ذكر فيها نوعان من المنبّهات : ﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون** ﴾ ﴿ **حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون** ﴾ الأولى افتتحت بها المجموعة . والثانية ختمت بها المجموعة . والذي أفهمه أن الله عز وجل أشار في الآيتين إلى نوعين من العذاب : عذاباً يخصّ به ، وعذاباً يعم به .وكنموذج على العذابين في زمن النبوة : ضربة بدر ، إذ أصابت في الغالب المترفين ، ثم تسليط القحط على قريش حتى أكلوا الوبر بالدم . وكنموذج على العذابين في بلاد الإسلام : أن سلط الله الأنظمة المتطرفة على المترفين أولاً ، ثّم عمّ بعذاب هذه الأنظمة الأمة . ففي العذاب الأول لانرى أحداً يتعظ ، وفي العذاب الثاني ييأس الناس . وفي ذكر هذين النوعين من العذاب تخليص للمسلم المؤمن من الغمرة إن أصابته ، وفيما بين العذابين ذكر الله الأدلة ، ووجه النظر ، وأقام الحجة على الإيمان لاستخراج العمل الصالح ، والآن تأتي مجموعة تذّكر بفعل الله للإنسان ، وصلة ذلك بقضية اليوم الآخر ، والردّ على من أنكره ، وفيها أوامر لرسول الله ﷺ ، وتختم المجموعة بكلمة ﴿ **حتى** ﴾ كما ختمت المجموعة السابقة .

المجموعة الثالثة

وتمتدُّ من الآية (٧٨) حتى نهاية الآية (١٠٠) وهذه هي :

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير :

﴿ **وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أي العقول التي يعتبرون بواسطتها بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله ، وأنه الفاعل المختار ، وقد خص الله عز وجل هذه الأشياء الثلاثة بالذكر لما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ، مما لا يتعلق بغيرها ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم أي تشكرون شكرا قليلا . والمعنى : أنكم لم تعرفوا عظم هذه النعم ، ووضعتموها في غير مواضعها ، فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله ، ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له ﴿ **وهو الذي ذرأكم في الأرض** ﴾ أي خلقكم ، وبثكم بالتناسل ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿ **وهو الذي يحيي ويميت** ﴾ أي يحيي النسّم بالإنشاء ويميتها بالإفناء ﴿ **وله اختلاف الليل والنهار** ﴾ المراد مجيء أحدهما عقيب الآخر ، أو اختلافهما في الظلمة والنور ، أو في الزيادة والنقصان ، واختلافهما مختص به وحده ، ولا يقدر على تصريفهما غيره عز وجل ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها قدرتنا على البعث ، أو تستدلون بواسطتها بالصنع على الصانع فتؤمنون ﴿ **بل قالوا** ﴾ أي الكافرون والمشركون ﴿ **مثل ما قال الأولون** ﴾ أي الكفار قبلهم ، ثم بين ما قالوا ﴿ **قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا** ﴾ أي بالبعث ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل بعثة محمد ﷺ ﴿ **إنْ هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أي اختلافات الأولين ، فالأساطير : جمع أسطورة ، والأسطورة هي الشيء المختلق .

كلمة في السياق :

إن سورة المؤمنون محورها الآيات الخمس التي آخرها قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ والملاحظ أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ ومن ثم فإنّ في آية ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ تدليلاً على وجود الله ، وتدليلاً على اليوم الآخر . وقد لاحظنا أنّ المقطع الأول انتهى بالتذكير بما ينبغي أن يكون عليه الناس من شكر المنعم ، والآن يعود السياق إلى ذكر النّعم أي إلى تفصيل قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعاً** .... ﴾ وعقّب على ذلك بذكر إنكارهم لليوم الآخر ، ولو تذكّرنا محور السورة لأدركنا الصلة بين الموضوعين ، فلنر كيف ردّت المجموعة على إنكارهم لليوم الآخر :

....

﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون** ﴾ أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ، إن كان عندكم علم ؟ ﴿ **سيقولون لله** ﴾ لأنهم يقرّون بأنه الخالق ، فإذا أقروا بذلك ﴿ **قل أفلا تذكرون** ﴾ فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها ، كان قادراً على إعادة الخلق وكان حقيقاً بألّا يشرك به بعض خلقه في الربوبية ﴿ **قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم** ﴾ أي من هو خالق العالم العلوي سماواته وعرشه ! ؟ ﴿ **سيقولون لله** ﴾ . وإذا اعترفوا بمالكية الله له فقد اعترفوا بربوبيّته وإذا اعترفوا : ﴿ **قل أفلا تتقون** ﴾ أي أفلا تخافون فلا تشركون به ، أو أفلا تتقون في جحودكم قدرته على البعث ، مع اعترافكم بقدرته على خلق الأشياء ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء** ﴾ أي بيده الملك ﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه** ﴾ يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ، ولا يغيث أحدٌ منه أحداً ﴿ **إن كنتم تعلمون سيقولون لله** ﴾ أي سيعرفون أنّ السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده لا شريك له ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره ، مع اعترافكم وعلمكم بذلك ، وكيف تذهب عقولكم فلا تؤمنون باليوم الآخر . قال النسفي في تفسير ﴿ **تسحرون** ﴾ : تخدعون عن الحق ، أو عن

توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ في أمر العبادة والتقوى والتصورات والعقائد والشعائر والمشاعر وكل شيء ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ في دعواهم الإيمان بالله ، وفي إنكارهم اليوم الآخر ، وفي كلّ موقف خالف الإسلام .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الأسئلة التي وجهت في هذه الفقرة لها صلة بقوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ كما أنها كانت رداً شاملاً لإنكارهم اليوم الآخر ، مع تركيزها على الإيمان الصحيح بالله ، ومن ثمّ تأتي الآن آيتان تنفيان اتخاذ الله ولداً وتنفيان الشرك .

....

﴿ **ما اتخذ الله من ولد** ﴾ لأنّه منزّه عن النّوع والجنس ، وولد الرجل من جنسه ﴿ **وما كان معه من إله** ﴾ أي وليس معه شريك في الألوهية إذ لو كان ﴿ **إذاً لذهب كل إله بما خلق** ﴾ أي لانفرد كل واحد من الآلهة بالذي خلقه فاستبدّ به ، ولـتميّز ملك كل واحد منهم عن الآخر ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ أي ولغلب بعضهم بعضاً ، وإذ لم تروا أثراً لتمايز الممالك ، وللتغالب ، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كلّ شيء ﴿ **سبحان الله عماً يصفون** ﴾ من الأنداد والأولاد ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ **فتعالى عمّا يشركون** ﴾ تقدس وتنزه ، وتعالى عزّ وجلّ عما يقول الظالمون والجاحدون ، وإذ قامت الحجّة على الكفر والشرك يتوجّه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو خطاب لكل مسلم : ﴿ **قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين** ﴾ أي إن كان لابد أنْ تريني ما تعدهم في الدنيا أو في الآخرة فلا تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم ﴿ **وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون** ﴾ قال ابن كثير : (أي لو شئنا لأريناك ما نحلّ بهم من النقم والبلاء والمحنة) . وقال النسفي :(كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ، ويضحكون منه ، فقيل لهم إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار) . قال ابن كثير : (ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ، ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن السيئة** ﴾ ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة) . قال النسفي : وهو أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل ، كأنه قال ادفع بالحسنى السيئة ، والمعنى :

اصفح عن إساءتهم وقابلها بالإحسان ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما مفسراً الحسنى بأنها : شهادة أن لا إله إلا الله والسيئة : بأنها الشرك ، وهناك اتجاهات كثيرة في تفسير الحسنة والسيئة ، قال بعضهم مفسراً الآية : ادفع الفحش بالسلام ، والمنكر بالموعظة ، وذهب بعضهم في الآية إلى أنها منسوخة ، وقال آخرون : إنها محكمة إذ المداراة محثوث عليها مالم تؤد إلى ثلم دين . ﴿ **نحن أعلم بما يصفون** ﴾ من الشرك والأذى وغير ذلك فنجازيهم عليه ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين** ﴾ أي من وساوسهم ونخساتهم . ﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه ، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ، أو عند تلاوة قرآن أو عند النزع .

كلمة في السياق :

أمر الله رسوله ﷺ في الآيتين الأخيرتين : أن يدعو دعوتين ، وأمره قبل ذلك أن يدفع السيئة بالحسنة ، ومن ذلك نفهم أن دفع السيئة بالحسنة يحتاج إلى استعاذة بالله من الشيطان ، إذ النّفس يصعب عليها هذا المقام ، والشيطان يستغل هذه الصعوبة ، ومجيء أمر الدفع بالحسنة بعد الدعاء بألا يصيب رسول الله ﷺ ما يصيب الظالمين ، يشير إلى الحالة الشعورية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ، حتى وهو يحسن ويصفح ، ومجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالإيمان والعمل الصالح يذكّرنا بأن هذه الأمور من الأعمال الصالحة ، ومن مقتضيات الإيمان ، والآن تأتي آخر آية في المجموعة وهي تحذّر من ترك الإيمان والعمل الصالح .

....

﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت** ﴾ أي لايزالون يكفرون ويعملون السيئات إلى هذا الوقت ﴿ **قال رب ارجعون** ﴾ أي ردّوني إلى الدنيا ﴿ **لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ أي في الموضع الذي تركت ، وهو الدنيا لأنّه ترك الدنيا وصار إلى العقبى ، قال قتادة : ما تمنّى أن يرجع إلى أهل ، ولا إلى عشيرة ، ولكن ليتدارك ما فرّط ﴿ **كلّا** ﴾ حرف ردع وزجر ، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه ﴿ **إنها كلمة هو قائلها** ﴾ أي لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أي لابدّ أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ﴿ **ومن ورائهم برزخ** ﴾ أي حائل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ﴿ **إلى يوم يبعثون** ﴾ لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث وإنما هو إقناط كلي ، لما علم أن لارجوع بعد البعث إلا إلى

الآخرة .

كلمة في السياق :

في قوله تعالى : ﴿ **لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ مفتاح من مفاتيح السياق ، فالعمل الصالح أحد مواضيع السورة الرئيسية الموجودة في المحور ، وهذه الآية التي استقر عليها سياق المجموعة التي بين أيدينا ، تدل على ذلك ، ثمّ إن هذه الآية تشكّل التهديد الثالث في هذا السياق للذين قلوبهم في غمرة عن الحق ، ويعملون السيئات .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم** ﴾ ينقل ابن كثير نقولًا حول العرش قال : (كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمٰواته هكذا »وأشار بيده مثل القبة ، وفي الحديث الآخر : « ما السماوات السبع والأرضون السبع وما بينهنّ وما فيهنّ في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة »ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة . وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمي عرشاً لارتفاعه ، وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السماوات والأرض في العرش كالقنديل المعلّق بين السماء والأرض . وقال مجاهد : ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وقال ابن أبي حاتم : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لايقدر قدره أحد ، وفي رواية إلّا الله عزّ وجلّ).

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ ذكر ابن كثير دليل التمانع الذي يتحدث عنه المتكلمون قال : (وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنّه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحد تحريك جسم ، والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلّا من فرض التعدد فيكون محالًا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب ، والآخر المغلوب ممكناً ، لأنه لايليق

بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد ، أو الشريك علواً كبيراً ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ **فتعالى عما يشركون** ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى وعز وجلّ عما يقول الظالمون والجاحدون) .

٣ ـــ وعند قوله تعالى ﴿ **وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ قال ابن كثير : (أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف ، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقوله تعالى : ﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أي في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذلك الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل ، والجماع ، والذبح ، وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت » وروى الإمام أحمد : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلّمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلّمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحاق وقال الترمذي حسن غريب .

٤ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت** ﴾ قال : كان العلاء ابن زياد يقول : لينزلنّ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة والله ما تمنىّ إلّا أن يرجع فيعمل في طاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرّط فاعملوا بها ولاقوة إلّا بالله ، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه ، وروى محمد بن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار قال فيقول : رب ارجعون أتوب وأعمل

صالحاً ، قال فيقال قد عمّرت ما كنت معمّراً ، قال فيضّيق عليه قبره ويلتئم ، فهو كالمنهوش ينام ويفزع ، تهوي إليه هوام الأرض وحيّاتها وعقاربها ، وروى أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور ، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم ، حية عند رأسه ، وحية عند رجليه ، يقرصانه حتى يلتقيان في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ . وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم** ﴾ يعني أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ : الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر البرزخ : المقابر لاهم في الدنيا ولا هم في الآخرة ، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون ، وفي قوله تعالى ﴿ **ومن ورائهم برزخ** ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظَّلَمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى ﴿ **ومن ورائهم جهنم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إلى يوم يبعثون** ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فلا يزال معذّباً فيها » أي في الأرض) .

المجموعة الرابعة وهي خاتمة السورة

وتمتدُّ من الآية (١٠١) حتى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (١١٨) وهذه هي :

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ

قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

كلمة بين يدي المجموعة الرابعة :

لقد تدرّج الإنذار في هذا المقطع ، أنذرهم أولاً بأخذ المترفين ، ثمّ أنذرهم بأخذ الجميع ، ثمّ أنذرهم بالموت ، وها هي المجموعة الرابعة تنذرهم باليوم الآخر .

....

التفسير :

﴿ **فإذا نفخ في الصور** ﴾ نفخة النشور وهي النفخة الثانية ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ** ﴾ يعني في ذلك اليوم يقع التقاطع بينهم ، حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ، فيومئذ لايكون التواصل بينهم بالأنساب ، وإنما بالأعمال ﴿ **ولا يتساءلون** ﴾ أي سؤال

تواصل كما كانوا في الدنيا ، لأنّ كلًّا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله والجمع بين هذا وبين قوله ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ ، أنّ للقيامة مواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون فيتساءلون ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ قال النسفي : جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحة التي لها وزن ، وقدر عند الله تعالى ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

كلمة في السياق :

لاحظ بداية السورة : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ ولاحظ قوله تعالى هنا ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** ﴾ ثم لاحظ الآية اللاحقة ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ تجد أن السورة كلها تصبّ مصباً واحداً ، الفلاح للمؤمنين ، الخسار للكافرين ، وتذكّر بعد ذلك محور السورة ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعلموا الصالحات ..... وما يضل به إلا الفاسقين .... أولئك هم الخاسرون** ﴾

﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ بالسيئات والمراد بهم في هذا المقام الكفار ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أي غبنوها ﴿ **في جهنم خالدون** ﴾ أى ماكثون فيها ، دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ أي تحرقها ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ أي عابسون فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم ﴿ **ألم تكن آياتي** ﴾ أي القرآن ﴿ **تتلى عليكم** ﴾ في الدنيا ﴿ **فكنتم بها** ﴾ بألفاظها ومعانيها ﴿ **تكذّبون** ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا** ﴾ أي ملكتنا شقوتنا أي شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها ﴿ **وكنا قوما ضالين** ﴾ أي ضائعين عن الحق والصواب ﴿ **ربنا أخرجنا منها** ﴾ أي من النار ﴿ **فإن عدنا** ﴾ إلى الكفر والتكذيب والعمل السيء ﴿ **فإنا ظالمون** ﴾ أي لأنفسنا ﴿ **قال اخسئوا فيها** ﴾ أي اسكتوا سكوت ذلة وهوان ﴿ **ولاتكلمون** ﴾ في رفع العذاب عنكم ، فإنه لا يرفع ولا يخفف ، قال النسفي : قيل هو آخر كلام يتكلمون به ، ثم لاكلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير ﴿ **إنّه** ﴾ أي إن الأمر والشأن ﴿ **كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً** ﴾ أي اتخذتموهم هزؤاً وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿ **حتى أنسوكم ذكري** ﴾ أي حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم عن ذكري فتركتموه ، أي كان التشاغل بهم سبباً لنسيانكم معاملتي فلا ذكر ولا اتّباع للذكر ﴿ **وكنتم منهم تضحكون** ﴾ استهزاء

من صنيعهم وعبادتهم وأشخاصهم ﴿ **إني جزيتهم اليوم بما صبروا** ﴾ أي بصبرهم على أذاكم لهم ، واستهزائكم بهم ﴿ **أنهم هم الفائزون** ﴾ أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنّجاة من النار ﴿ **قال** ﴾ الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة ﴿ **كم لبثتم في الأرض عدد سنين** ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿ **قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم في النار ، لما هم فيه من عذابها ، لأن الممتحَن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدّعة ﴿ **فاسأل العادّين** ﴾ أي المؤرخين ، أو الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد وأعمالهم ﴿ **قال إن لبثتم إلا قليلاً** ﴾ أي ما لبثتم إلّا قليلاً ﴿ **لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ صدّقهم الله تعالى في تقالّهم لسني لبثهم في الدنيا ، ووبّخهم على غفلتهم التي كانوا عليها ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ أي عابثين أي أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة ولا حكمة ﴿ **وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ أي لاتعودون في الدار الآخرة أي بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿ **فتعالى الله** ﴾ أي عن أن يخلق عبثاً ﴿ **الملك الحق** ﴾ ومن كان الملك الحق فإنه لايتصرف تصرفاً عابثاً ﴿ **لا إله إلّا هو رب العرش الكريم** ﴾ وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تتنزل منه ، أو لنسبته لأكرم الأكرمين ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به** ﴾ أي لاحجة له به ، وليس إلّا الله تقوم الحجة على ألوهيته ﴿ **فإنما حسابه عند ربه** ﴾ .

أي جزاؤه عند ربه ، أي فهو يجازيه لامحالة ﴿ **إنّه لايفلح الكافرون** ﴾ أي لديه يوم القيامة إنّه لا فلاح لهم ولا نجاة ، قال النسفي : (جعل فاتحة السورة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ وخاتمتها ﴿ **إنه لايفلح الكافرون** ﴾ فشتان بين الفاتحة والخاتمة ، ثمّ علّمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله ﴿ **وقل رب اغفر وارحم** ﴾ ثمّ قال ﴿ **وأنت خير الراحمين** ﴾ لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره ، ورحمة غيره لاتغنيه عن رحمته) .

كلمة في السياق :

أنذرت هذه المجموعة باليوم الآخر ، مبيّنة عاقبة المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وعاقبة الكافرين الذين يعملون السيئات ، ثم أقامت الحجة على الكافرين يوم القيامة ، وختمت ببيان عاقبة المشركين ، وأمرت بطلب المغفرة من الله ، ولذلك صلاته بسياق السّورة الخاص وبمحورها .

فوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه ، قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته ، وإن كان صغيراً ، ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ رواه ابن أبي حاتم ، وروى الإمام أحمد عن المسور - هو ابن مخرمة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فاطمة بضعة مني ، يغيظني ما يغيظها وينشّطني ما ينشّطها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلّا نسبي وصهري » وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة أنّ رسول الله ﷺ قال « فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها ، ويؤذيني ما آذاها » وروى الإمام أحمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لاتنفع قومه ؟ بلى والله إنّ رحمي موصولة في الدنيا والآخرة ، وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم ، قال رجل يا رسول الله أنا ابن فلان ، فأقول لهم : أمّا النسّب فقد عرفت ، ولكنّكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى » وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لمّا تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : أما والله ما بي إلّا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي » رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه ، فقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ .... عن محمد ابن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري » وروي عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً « سألت ربي عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتي ، ولا يتزوج إليّ أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك » .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** ﴾ نقل ابن كثير : ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : ﴿ **وهم فيها**

كالحون ﴾ قال : تشويه النار فتتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته » ورواه الترمذي وقال حسن غريب .

٣ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن أبي حاتم : عن عبد الله بن عمرو قال « إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم » ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثمّ يدعون ربهم فيقولون ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿**اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال فوالله ما نبس القوم بعد بكلمة واحدة ، وما هو إلا الشهيق والزفير في نار جهنّم ، قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير ، أوّلها شهيق وآخرها زفير ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً قال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله تعالى أن لايخرج منهم أحداً أي من جهنم غيّر وجوههم وألوانهم ، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يارب فيقول الله : من عرف أحداً فليخرجه ، فيجيء الرجل من المؤمنين ، فينظر فلا يعرف أحداً ، فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول : ما أعرفك قال : فعند ذلك يقول ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد) .

٤ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين** ﴾ قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه يسمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ، رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلّدين ، ثم قال : يا أهل النّار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول : بئس ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين » .

٥ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن أبي حاتم : عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز : بعد أنْ حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال : أما بعد أيهُّا الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإنّ لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم ، والفصل

بينكم ، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لايأمن غداً إلّا من حذر هذا اليوم وخافه ، وباع نافداً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقين ، حتى تردّون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه وانقضى أجله ، حتى يغيّبوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير ممهّد ولاموسّد ، قد فارق الأحباب وباشر التّراب وواجه الحساب ، مرتهن بعمله غني عمّا ترك ، فقير إلى ما قدّم ، فاتقوا الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وقال ابن أبي حاتم إنّ رجلاً مصاباً مر به على عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملك الحق** .... ﴾ حتى ختم السورة ، فبرأ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « بماذا قرأت في أذنه ؟ « فأخبره فقال له « إنها إذا قرئت في أذنه أحرقته ، أي أحرقت الشيطان » ثم قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال » وروى أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا . وروى ابن أبي حاتم أيضا عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة بسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم ».

٦ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنّما حسابه عند ربه إنّه لايفلح الكافرون** ﴾ قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا النبي ﷺ قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبدالله ، وكذا وكذا ، حتى عدّ أصناماً فقال رسول الله ﷺ : « فأيُّهم إذا أصابك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال « فأيُّهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال : الله عز وجل . وقال : « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه» قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه ، فقال رسول الله ﷺ : « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم : لقيت رجلاً خصمني . هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد رواه أبو عيسى

الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك .

كلمة في سورة المؤمنون :

بدأت السورة بتبشير المؤمنين ، وتحديد صفاتهم التي إذا تحققوا بها اجتمعت لهم صفتا الإيمان والعمل الصالح ، ولما كان الإيمان أثر المعرفة ، والعمل الصالح أثراً عن رؤية النعمة لأنه شكرها فقد جاءت مجموعة تعرّف على الله وعلى نعمه من خلال عرض مظاهر من آثار قدرته وعنايته ، ثم قصّ الله علينا من خبر الأنبياء وختم ذلك بقوله ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾ فكان في ذكره هذه القصص ما يشير إلى عناية خاصة بأهل الإيمان ، وكان في هذا النداء ما يشير إلى أن شكر النعمة إنما هو بالعمل الصالح ، ثم ذكّرنا الله بوحدة هذه الأمة ، ووحدة أمرها مما أفهمنا به أن هذه الأمة مطالبة بهدي الأنبياء كله ، وذلك هو العمل الصالح .

ثم ذكرت السورة الحقائق التي إذا تحقّق بها إنسان عمل الصالحات ، وسارع إليها بل وسبقها ، ثمّ قرّرت أن التكليف بحسب الطاقة مما يشير إلى أنّ الإنسان لا يطالب من الصالحات إلّا في حدود وسعه ، ثمّ بينت السورة أنّ قلوب الكافرين غافلة عن مثل هذا وأن أعمالهم سيئة ، فقررت بذلك أن العمل الصالح أثر عن العقيدة الصالحة ، والقلب الصالح ، والأعمال السيئة أثر عن العقيدة الفاسدة ، والقلب الفاسد ، ثمّ أنذرت أصحاب القلوب الغافلة بعقوبات : فذكرت العقوبة الأولى ، ثم دعت إلى الإيمان ، وفنّدت الكفر ، وبيّنت أن هؤلاء لن يستفيدوا عظة وعبرة من هذه العقوبة . ثم أنذرت هؤلاء بعقوبة ثانية تعمّ الجميع حتى لتجعلهم آيسين ، ثم ذكّرت بنعم الله الكبرى على الإنسان ، وذَكَرت إلحاد الكافرين باليوم الآخر ، وأقامت عليهم الحجة ، ثم ختمت بالتذكير بحال الكافرين عند الموت ، منذرة إياهم ، مبينة أنهم وقتها يطالبون بالعودة إلى الدنيا ، لتتاح لهم فرصة العمل الصالح .

ثم تبيّن السورة حال المؤمنين الصالحين في الآخرة ، وحال الكافرين الذين لا يعملون الصالحات ويسخرون من المؤمنين ، وما أعد الله لهؤلاء وهؤلاء ، مبيّنة من خلال العرض أنه لم يخلق الإنسان سدى ، ومثبتة من خلال ذلك أهل العمل الصالح وأهل الإيمان ، ومصبّرة لهم على أقوال الكافرين وأفعالهم ، وفي هذا السياق أمر الله رسوله

ﷺ بدعائين ، وخُلق هي زاد الطريق للاستمرار على العمل الصالح وختمت السورة بأمر الله رسوله ﷺ أن يقول ﴿ **وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ وهذا الختام في السورة يشير إلى أنّ المؤمن مع كل ما يبذله من جهد يحتاج إلى المغفرة والرحمة ، وهو مفتقر إليهما .

هذه المعاني جاءت في السورة كما رأينا بشكل فصّلت فيه السورة آيات سورة البقرة الخمس : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون * إنّ الله لايستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون * كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فصّلت سورة المؤمنون هذه الآيات بشكل عجيب ، إذ فصّلت بعض آياتها تفصيلاً مباشراً ، وبنت على ما تقتضيه بعض آياتها بناء مباشراً . وإذ كان العمل السيء أثر الكفر فقد تحدثت عن الكفر منكرة له ، وذكّرت بما يقطع دابره لمن كان له قلب ، ولذلك صلاته بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ ومن قرأ السورة وتمعن في معانيها لم يشك بأنها كانت تفصيلاً عجيباً للآيات الخمس .

وقد يكون من المناسب أن نذكر بأمهات الأعمال الصالحة التي ذكرتها السورة : الخشوع في الصلاة ، وترك اللغو ، وفعل الزكاة ، وحفظ الفروج ، وأداء الأمانات ، والوفاء بالعهود ، والمحافظة على الصلوات ، وأكل الحلال ، والعمل الصالح ، والخشية والإيمان ، والتوحيد ، وفعل الخير ، والدعاء ، ودفع السيئة بالحسنة ، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والصبر على إيذاء الكافرين وسخريتهم ، وملازمة قوله تعالى ﴿ **رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ .

سورة النور

وهي السورة الرابعة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة من المجموعة الثالثة من قسم
المئين ، وآياتها أربع وستون آية
وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

قال الألوسي في تقديمه لسورة النور: (مدنية كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم . وحكى أبو حيان الإجماع على مدنيتها ولم يستثن الكثير من آيها شيئاً ، وعن القرطبي أن آية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم** ﴾ الخ مكية ، وهي اثنتان وستون آية ، وقيل أربع وستون آية ، ووجه اتصالها بسورة المؤمنين أنه سبحانه لما قال فيها ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني ، وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنا ، والاستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر وأمر فيها بالإنكاح حفظاً للفرج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، ونهي عن إكراه الفتيات على الزنا .

وقال الطبرسي في ذلك : إنه تعالى لما ذكر فيما تقدم أنه لم يخلق الخلق للعبث بل للأمر والنهي ذكر جل وعلا ههنا جملة من الأوامر والنواهي ، ولعل الأول أولى . وجاء عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارثة بن مضرب رضي الله عنه قال : « كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ») .

وقال صاحب الظلال: (هذه سورة النور .. يذكر فيها النور بلفظه متصلاً بذات الله : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح ؛ ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة . وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية ، تنير القلب ، وتنير الحياة ؛ ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح ، وإشراق في القلوب ، وشفافية في الضمائر ..

وهي تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب وأخلاق : ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون** ﴾ .. فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ؛ ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية ..

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية . التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة ، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد في الشدة واللين .

هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر ؛ ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة ، حتى تشف وترف ، وتتصل بنور الله .. وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله . وهي في صميمها نور وشفافية ، وإشراق وطهارة .) .

ومن تقديم الأستاذ المودودي لسورة النور نأخذ هذه الفقرة :

(والذي يجدر بالملاحظة أن سورة النور خالية من المرارة التي قد تنشأ في الأذهان والقلوب عند رد الحملات الشنيعة القذرة . انظر في جانب في الظروف التي نزلت فيها هذه السورة ، وانظر في الجانب الآخر في ما تشتمل عليه من الموضوعات ، تعرف أي رزانة وتدبر معتدل وترفع عظيم وحكمة بالغة علينا أن نواجه به الفتن ونعالجها في أقسى الظروف المثيرة للعواطف ، بل يثبت لنا في الوقت نفسه أن ليس هذا الكتاب مما اختلقه الرسول ﷺ من عند نفسه ، بل قد أنزله عليه الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولو أن هذا الكتاب كان من عند النبي ﷺ نفسه ، لكان ظهر فيه - على كل ما كان عليه النبي ﷺ من الصبر والأناة ورحابة الصدر وتحمل الشدائد - ولو بعض أثر للمرارة التي لابد أن يجدها كل إنسان عفيف في نفسه إذا أصيب في عرضه) .

كلمة في سورة النور ومحورها :

فكّرت كثيراً أيّ آية يمكن أن تكون محور سورة النور من البقرة ، بحيث تأتي بعد محور سورة (المؤمنون) وقبل محور سورة الفرقان ؟ فوقع في النفس أولاً أن محورها هو قوله تعالى ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ (البقرة : ٩٩) إلا أنني لاحظت أنه قد جاء في سورة المؤمنون قوله تعالى ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾ (الآية : ٥١) وهو يشبه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً** ﴾ (الآية : ١٦٨)ويشبه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ...** ﴾ (الآية : ١٧٢)فافترضت أن يكون المحور متأخراً على هذه الآيات ولذلك فقد استقر القلب على أن محور سورة النور هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم**

كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (البقرة : ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

ولنتساءل ما الذي دلّنا على أن هاتين الآيتين هما محور السورة ؟

نلاحظ أن الآية الأولى في السورة هي :

﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكّرون** ﴾ .

كما نلاحظ أن الآية (٣٤) كانت ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلَوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ كما نلاحظ أن الآية (٤٦) كانت : ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فذكر البينات والمبينات في هذه الآيات ، وكون السورة تفصّل أحكاماً من الإسلام ، وورود النهي عن اتباع خطوات الشيطان فيها ، كلّ ذلك دلّنا على أن هاتين الآيتين هما محور سورة النور .

ونلاحظ أن السورة تتردد فيها كلمة الآيات كثيراً : ﴿ **ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ (١٨) . ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ (٥٨) . ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ (٥٩) . ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ (٦١) . لاحظ صلة هذه الخواتيم للآيات بقوله تعالى : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

إن هذه السورة نموذج على الآيات البينات التي أنزلها الله على رسوله ﷺ ومن ثم تجد فيها روائع التشريع وروائع الأسلوب ، وروائع الانتقال ، وذرى البلاغة ، والقرآن كله كذلك ، ولكن هذه الأمور في هذه السورة تكاد تكون أظهر ، إن في هذه السورة من التصوير أروعه ، ومن التمثيل أروعه ، ومن التشريع أروعه ، ومن الإنذار أروعه ، ومن التبشير أروعه ، ومن التأديب أروعه ، ومن ثم فإن من فهم هذه السورة وعرف أسرارها أدرك من أسرار البيان القرآني وأسرار الإعجاز ما به تشرق أنوار اليقين على قلبه فتغمره .

إنك تجد فيها مقاطع كل مقطع له نكهة خاصة ، وله بداية ونهاية خاصتان ، وفي كل مقطع جمال وجلال وأسرار ، إنها سورة اجتمع فيها من الأناقة والرشاقة في اللفظ والموضوع والتسلسل والتوجيه ما هو النموذج لإدراك أن هذا القرآن آيات بينات .

إن محور السورة هو ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ ومن ثم نلاحظ أن السورة قد عرضت لأحكام في الإسلام :

حد الزنا ، وحد القذف ، واللعان ، وأحكام الاستئذان وآدابه ، وأحكام العورة ، وغض البصر ، وإنكاح الأيامى ، ومكاتبة الرقيق ،وآداب الدخول إلى البيوت المسكونة وغير المسكونة ، وإباحة الأكل من بيوت دوائر معينة ، وبعض آداب الاجتماعات في الإسلام ، وبعض آداب ينبغي أن تُراعىٰ مع رسول الله ﷺ .

وكل هذا يدخل في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ وقد جاء في السورة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ كما ذكرت كثيراً من نماذج اتباع خطوات الشيطان . وذلك واضح الصلة مع قوله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ وفي السورة بيان لما ينبغي فعله إذا حدثت أنواع من الزلل ، وبيان لأنواع من الزلل . فالسورة إذن تعالج الزلل إذا وقع ، ومن خلال هذه المعالجة نتعرف على اسمي الله العزيز والحكيم ، إذ نتعرف على أن الله عزيز من خلال الأحكام ، ومن خلال العقوبات ، ونتعرف على اسم الله الحكيم في كل ما شرع ، ولذلك صلة بقوله تعالى ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

والآن فلنتذكر شيئاً قلناه من قبل : قلنا : إن هناك صلة بين آيات المحاور في سورة البقرة ولو تباعدت هذه الآيات ، مادامت محاور لمجموعة سور ، وكنموذج على ذلك هذه الصلة بين أواخر آيات محور سورة المؤمنون وما ذكرنا أنه محور سورة النور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ (البقرة : ٢٨ ، ٢٩) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾(البقرة : ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

فبعد إقامة الحجة والتذكير بالنعم يؤمر المؤمنون بالدخول في الإسلام كله . إنّ المعاني التي عرضت في السورة ، وطريقة العرض ، وتسلسل المعاني وتنوعها تدل على الإعجاز

في هذا القرآن ، وعلى استحالة أن يكون مصدره بشرياً ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات** ﴾ إن هذا الوضوح وهذا البيان في آيات السورة ، ميزة تشهد على أن هذا الكمال ، وهذا الجمال ، لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذي الكمال والجمال .

تتألف السورة من ثلاثة مقاطع :

المقطع الأول : ويمتد من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٣٤) : الآية الأولى منه هي : ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون** ﴾ والآية الأخيرة منه هي : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ لاحظ الصلة بين بداية هذا المقطع ونهايته .

لقد عرض هذا المقطع آيات بينات في قضايا تشريعية وتوجيهية واجتماعية .

المقطع الثاني : ويمتد من الآية (٣٥) حتى نهاية الآية (٤٦) يبدأ بقوله تعالى ﴿ **الله نور السموٰات والأرض ...** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ لاحظ الصلة بين بداية المقطع ونهايته ويتميز هذا المقطع بكون آياته البينات في موضوع العقيدة والكفر والإيمان والكون والحياة .

المقطع الثالث : ويمتد من الآية (٤٧) إلى نهاية السورة ويتميز هذا المقطع بأن آياته البينات في موضوع المواقف والتوجيه .

وكل مقطع من هذه المقاطع يتألف من مجموعات وكل ذلك يرتبط بعضه ببعض بوشائج كثيرة .

وقد عرض الله عز وجل في هذه السورة أمهات من القضايا الاجتماعية والسلوكية والإيمانية والأخلاقية ، ذات تأثير كبير على المجتمعات البشرية ، وللمرأة من ذلك حظ كبير ، مما يتعين معه على الرّجال والنساء أن يدرسوا هذه السورة ، ولذلك بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **وفرضناها** ﴾ وجاءت آثار تحض على تعليم النساء هذه السورة .

وإنّ امرءاً لا يخرج من دراسة هذه السورة برؤية الإعجاز واضحاً وبالإيمان كاملاً في

مقتضياته السّلوكية والأدبية والاعتبارية ، إنّ امرءاً لا يخرج من دراسة هذه السورة بهذا كله حظه قليل .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدُّ من الآية الأولى إلى نهاية الآية (٣٤) ويتألف من أربع مجموعات ، كل منها يشكّل وحدة متكاملة . والمقطع بمجموعاته الأربع يشكل وحدة متكاملة أكثر شمولًا وسنعرض المقطع على مجموعات .

المجموعة الأولى من المقطع الأول

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٠) وهذه هي مع البسملة :



سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

التفسير :

﴿ **سورة أنزلناها** ﴾ قال النسفي : (والسورة : الجامعة لجملة آيات بفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سُور المدينة وفي قوله ﴿ **سورة أنزلناها** ﴾ تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي الاعتناء بها الاعتناء بما عداها ﴿ **وفرضناها** ﴾ أي فرضنا أحكامها التي فيها ، وجعلناها مقطوعاً بها ، وأصل الفرض في اللغة القطع قال مجاهد وقتادة : « أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي) ﴿ **وأنزلنا فيها آيات بينات** ﴾ أي دلائل مفسرات واضحات ﴿ **لعلكم تذكّرون** ﴾ أي لكي تتعظوا ، فهذه هي حكمة إنزال سورة النور على ما هي عليه ، فمن لم يحقق هذه الحكمة في نفسه فقد أسرف ، ومعنى الآية : سورة أنزلها الله ، وفرض أحكامها ، من حلال وحرام ، وأمر ونهي وحدود ، وأنزل فيها آيات مفسّرات واضحات لكي نتعظ .

هذه الآية هي مقدمة السورة وهي تبين أن السورة محكمة ، وأن فيها فرائض ، وأن فيها آيات بينات ، فهي مدخل إلى السورة التي تفصّل في موضوع الدخول في الإسلام كله ، وبعد أن قرر الله في هذه المقدمة ما قرر تبدأ السورة تفصّل لنا ما فرض الله وما حكم مما فيه آيات بينات ، ومما هو من الإسلام ﴿ **الزانية والزاني** ﴾ البكران اللذان لم يتزوجا أما المحصن الذي قد وطىء ولو مرة واحدة في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل

فله حكم آخر كما سنرى في الفوائد ﴿ **فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ قال النسفي : والجَلْد : ضرب الجِلْد ، وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ ليصل الألم إلى اللحم ، والخطاب للأئمة لأن إقامة الحدّ من الدين ، وهي على الكلّ ، إلا أنّهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم ، وهذا حكم من ليس بمحصن ، إذ حكم المحصن الرجم ، وشرائط إحصان الرجم : الحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والإسلام ، والتزوج بنكاح صحيح ، والدخول ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة** ﴾ أي رحمة ، وقيل الرأفة في دفع المكروه ، والرحمة في إيصال المحبوب ، والمعنى أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده ، فيعطلوا الحدود ، أو يخففوا الضرب ﴿ **في دين الله** ﴾ أي في طاعة الله أو حكمه ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ هذا من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه ﴿ **وليشهد عذابهما** ﴾ أي وليحضر موضع حدّهما - وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة - ﴿ **طائفة** ﴾ أي فرقة تشكّل حلقة ليعتبروا وينزجروا قال النسفي : وأقلها ثلاثة أو أربعة ، وهي أي الطائفة صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شيء وعن ابن عباس رضي الله عنه أربعة إلى أربعين رجلاً ﴿ **من المؤمنين** ﴾ أي من المصدّقين بالله ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ قال النسفي : أي الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء وإنما يرغب في خبيثة من شكله أو في مشركة ، والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين ، فالآية تزهيد في نكاح البغايا إذ الزنا عديل الشرك في القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصّن ... وقدّمت الزانية على الزاني أولاً - أي الآية السابقة على هذه - ثم قدّم عليها ثانياً - أي في هذه الآية - لأن تلك الآية سبقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي منها نشأت تلك الجناية ؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ، ولم تمكنه ، لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً في ذلك بدىء بذكرها ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه ، لأنه الخاطب ومنه بدء الطلب ﴿ **وحُرِّم ذلك على المؤمنين** ﴾ أي الزنا أو نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنا أو لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواقع التهمة ، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة ، ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام ، فكيف كما قال النسفي : (بمزاوجة الزواني والقحاب) وبعد أن قررّ الله عز وجل حدّ الزنا وحرمته وتنزّه المؤمنين والمؤمنات عنه فقد ذكر حدّ القذف الذي شرع لحماية أعراض المؤمنين والمؤمنات أن

تمس إلا ببينة لا تقبل جدلاً فقال : ﴿ **والذين يرمون المحصنات** ﴾ أي يقذفون بالزنا الحرائر والعفائف المسلمات المكلفات ، والقذف يكون بالزنا وغيره ، والمراد هنا قذفهن بالزنا بأن يقول يا زانية بدليل ذكر المحصنات عقيب الزواني ، ولاشتراط أربعة شهداء بقوله تعالى ﴿ **ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ أي ثم لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنا لأن القذف بغير الزنا بأن يقول : يا فاسق يا آكل الربا يكفي فيه شاهدان وعليه التعزير ، وشروط إحصان القذف الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والعفّة عن الزنا ، والمحصن كالمحصنة في وجوب حدّ القذف ﴿ **فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ إن كان القاذف حراً ﴿ **ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً** ﴾ الصيغة تنفي قبول كل شهادة ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال ابن كثير : (أوجب على القاذف إذا لم يقم البيّنة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة (الثاني) أنه ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس) ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك** ﴾ أي بعد القذف ﴿ **وأصلحوا** ﴾ أحوالهم ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي يغفر ذنوبهم ويرحمهم قال ابن كثير : (واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة - وإن تاب - أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق ، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين ، وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط؛ فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، وعبدالرحمن بن زيد بن جابر . وقال الشعبي والضحاك : لاتقبل شهادته وإنْ تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم) .

وبعد أن ذكر حكم قذف الأجنبيات بيّن حكم قذف الزوجات إذ للأزواج وضع خاص ﴿ **والذين يرمون أزواجهم** ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿ **ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم** ﴾ أي لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿ **فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين** ﴾ فيما رماها به من الزنا ، وعلى هذا فإذا قذف أحدهم زوجته ، وتعسّر عليه إقامة البينة ، فإنّ عليه أن يلاعنها كما أمر الله عز

وجل ، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدّعي عليها بما رماها به ، فيحلّفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين ، أي فيما رماها به من الزنا ﴿ **والخامسة** ﴾ أي والشهادة الخامسة ﴿ **أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين** ﴾ أي فيما رماها به من الزنا قال ابن كثير : (فإذا قال ذلك بانت منه بنفس اللعان عند الشافعي ، وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ، ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات إنّه لمن الكاذبين ، أي فيما رماها به) ومن ثم قال تعالى : ﴿ **ويدرأ عنها العذاب** ﴾ أي ويدفع عنها العذاب ، والمراد بالعذاب هنا الحبس عند الحنفية ، فإنها عندهم إذا رفضت الملاعنة تحبس حتى تلاعن أو تعترف ﴿ **أن تشهد أربع شهادات بالله إنه** ﴾ أي الزوج ﴿ **لمن الكاذبين** ﴾ أي فيما رماها به من الزنا ﴿ **والخامسة أن غضب الله عليها إن كان** ﴾ الزوج ﴿ **من الصادقين** ﴾ أي فيما رماها به ، خصّها بالغضب لأن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه . قال النسفي : (وجعل الغضب في جانبها لأنّ النساء يستعملن اللعن كثيراً ، كما ورد به الحديث فربما يجترئن على الإقدام لكثرة جريِ اللعن على ألسنتهن ، وسقوط وقوعه على قلوبهن ، فذكر الغضب في جانبهن ليكون رادعاً لهنّ) ﴿ **ولولا فضل الله عليكم** ﴾ أي ولولا تفضله عليكم ﴿ **ورحمته** ﴾ أي نعمته ﴿ **وأن الله تواب حكيم** ﴾ أي لولا ذلك لفضحكم الله ، أو لعاجلكم بالعقوبة .

نقول : ذكر الأستاذ المودودي موقف النّاس من عقوبة الزنا ، ثمّ ذكر حكم الإسلام في هذا الموضوع فقال :

(الوجهات المختلفة في اعتبار الزنا جريمة مستلزمة للعقوبة : أما القضية التي فيها الخلاف بين مختلف القوانين والشرائع بعد اتفاقها على حرمة الزنا ، فهي كون الزنا « جريمة مستلزمة للعقوبة في نظر القانون » فالمجتمعات التي كانت على قرب من الفطرة الإنسانية ، ما زالت تعد الزنا (أي العلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة) في حد ذاته جريمة قررت لها العقوبات الشديدة ، ولكن ظل سلوك المجتمعات واتجاهها نحو الزنا يلين شيئاً فشيئاً على قدر ما ظلت زخارف المدنية تفسد هذه المجتمعات .

فأول تساهل جيء به عامة في هذه القضية ، أنهم فرقوا بين « الزنا المحض »

(Pornication) و «الزنا بزوجة الغير » (Adultery) فاعتبروا الأول خطيئة أو زلة يسيرة ، ولم يعتبروا جريمة مستلزمة للعقوبة إلا الآخر . أما تعريف « الزنا المحض » عندهم ، فهو « أن يجامع أيما رجل - بكراً كان أو متزوجاً - امرأة ليست بزوجة لأحد » ، فما العبرة في هذا التعريف للزنا بحال الرجل وإنما هي بحال المرأة ، فهي إذا كانت بدون زوج ، فجماعها هو الزنا المحض ، بقطع النظر عما إن كان الرجل الذي جامعها متزوجاً أو غير متزوج . فحد هذه الخطيئة أي عقوبتها هين جداً في قوانين مصر القديمة وبابل وآشور والهند ؛ وهذه القاعدة هي التي أخذت بها اليونان والروم ، وبها تأثر اليهود أخيراً . فهي لم تُذكر في الكتاب المقدس لليهود إلا كخطيئة يلزَم الرجل عَليها غرامةٌ لا غير ، فقد جاء في كتاب الخروج : (وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى)[1] .

وجاء هذا الحكم بعينه في كتاب الاستثناء بشيء من الاختلافات في ألفاظه وبعده التصريح بأنه (إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوُجدا ، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين مثقالاً من الفضة ، وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها)[2] غير أنه إذا زنى أحد ببنت القسيس ، عوقب بالشنق بموجب القانون اليهودي وعوقبت البنت بالإحراق[3] .

وهذه الفكرة ما أشبهها بفكرة الهنادك ، ستعرف ذلك إذا راجعت كتاب (القانون الديني) لمانو[4] ، حيث جاء فيه (أيما رجل زنى ببنت من طبقته عن رضاها فليس عليه شيء من العقوبة ، وله أن يؤدي الأجرة إلى والدها وينكحها إن رضي به . وأما إذا كانت البنت من طبقة أعلى من طبقته ، فلتخرج البنت من بيتها ويعاقب الرجل بقطع الأعضاء » . ويجوز تغيير هذه العقوبة بإحراق البنت حية إذا كانت من الطبقة البرهمية .

فالحقيقة أن هذه القوانين كلها ليست الجريمة الأصلية فيها إلا « الزنا بزوجة الغير » أي أن يزني الرجل بامرأة هي زوجة لغيره ، كأنه ليس الأساس لاعتبار هذه الفعلة جريمة أن

---

(١) الإصحاح الثاني والعشرون : (١٦ ، ١٧) .
(٢) الإصحاح الثاني والعشرون : (٢٨ ، ٢٩) .
(٣) Every man,s Talmud B. P / 319. 20 .
(٤) أكبر واضعي القانون الديني للهنادك .

قد ارتكب الزنا رجل وامرأة ، وإنما هو أنهما قد عرّضا رجلاً في المجتمع لخطر أن يقوم بتربية طفل ليس من صلبه ، أي ليس الزنا هو الأساس ، وإنما الأساس هو خطر اختلاط النسب ، وأن يتربى الطفل على نفقة رجل غير والده ويرثه . وعلى هذا الأساس كان الرجل والمرأة معاً مشتركين في ارتكاب الجريمة . أما عقوبة هذه الجريمة عند المصريين : فهي أن يضرب الرجل ضرباً شديداً بالعصا ، ويجدع أنف المرأة . ومثل هذه العقوبة كانت لهذه الجريمة في بابل وآشور وفارس القديمة . أما الهنود فكانت عقوبة المرأة عندهم أن تطرح أمام الكلاب حتى تمزقها ، وعقوبة الرجل أن يُضْجَع على سرير محمى من الحديد وتشعل حوله النار . وقد كان من حق الرجل عند اليونان والروم في بدء الأمر أنه إذا وجد أحداً يزني بامرأته ، أن يقتله أو ينال منه – إن شاء – غرامة مالية . ثم أصدر قيصر أغسطس في القرن الأول قبل المسيح مرسوماً بأن يصادر الرجل بنصف ما يملك من المال والبيوت ، وينفى من موطنه ، وأن تحرم المرأة من نصف صداقها ، وتصادر بثلث ما تملك من المال ، وتنفى إلى بقعة أخرى من بقاع المملكة . ثم جاء قسطنطين وغيَّر هذا القانون بإعدام الرجل والمرأة . ثم تغير هذا القانون في عهد ليو (Leo) ومارسين (Marcian) بالحبس المؤبد ، ثم جاء قيصر جستينين وخفف هذه العقوبة وغيَّرها بضرب المرأة بالأسواط ثم حبسها في دير الراهبات ، وإعطاء زوجها الحق في أنه إن شاء استخرجها من الدير في ضمن سنتين ، أو تركها فيه إن شاء إلى طول حياتها . وأما الأحكام الموجودة في القانون اليهودي عن الزنا بامرأة الغير ، فهي :

(وإذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع وهي أَمَة مخطوبة لرجل ولم تُفْدَ فداءً ولا أعطيت حريتها ، فليكن تأديب . ولا يُقْتَلا لأنها لم تعتق)[1] .

(إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل ، يقتل الاثنان : الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة)[2] .

(إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، فتنتزع الشر من وسطك . ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل

(١) كتاب التثنية ، الإصحاح الثاني والعشرون ، (٢٢) .
(٢) كتاب التثنية ، الإصحاح الثاني والعشرون ، (٢٢) .

الذي اضطجع معها وحده . وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً)[١] .

ولكن علماء اليهود وفقاءهم وعامتهم كأنهم أسدلوا على هذا القانون ستر الإهمال وألغوه فعلاً منذ عصور قبل عصر عيسى ابن مريم عليهما السلام ، حتى إننا لا نكاد نجد في تاريخ اليهود كله تنفيذاً له مع أنهم كانوا يعتقدونه حكماً إلهياً وكان مكتوباً عندهم في التوراة . ولما أن قام عيسى ابن مريم عليهما السلام بدعوته إلى الحق ، وجد علماءُ اليهود أنهم لا قبل لهم بالقيام في وجه سبيل هذه الدعوة ، أطالوا الفكر ومكروا مكراً وأخذوا زانية وساقوها إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام وقالوا له : اقض لنا في أمرها ، وإنما يقصدون من ذلك أن يحرجوا عليه الموقف ويلقوه إما في البئر أو في الحفرة ، فهو إن قضى في أمرها بالرجم ، صدموه بالقانون الرومي في جانب وقالوا للناس في الجانب الآخر هلموا أيها القوم وآمنوا بهذا النبي العجيب الجديد وقدموا له ظهوركم ونفوسكم لينفذ فيها شريعة التوراة بكل قوته ؛ وأما إن قضى في أمرها بعقوبة غير الرجم ، شوَّهوا سمعته في الناس قائلين : كيف لكم أن تؤمنوا بهذا المدعي للنبوة ، وهو يغير شريعة التوراة ويلغيها مراعاة للمصالح الدنيوية . ولكن عيسى عليه السلام جعل مكرهم السيء لا يحيق إلا بهم إذ قال لهم : من كان عفيفاً منكم ، فليتقدم ويرمها بالحجارة . فبمجرد هذه الفقرة انقشع من حوله جموع الفقهاء وانكشف الغطاء عن وجوه الحمَلة للشريعة الغراء . ولما وجد المرأة قائمة عليه وحدها ، بذل لها النصيحة واستتابها وقال لها ارحلي . ذلك بأن عيسى عليه السلام ما كان قاضياً يقضي في أمرها بصفة رسمية ، ولا كانت هناك حكومة إسلامية تنفذ القانون الإلهي .

وقد استنبط المسيحيون بعض استنباطات خاطئة من هذا الحادث ومن بعض أقوال عيسى عليه السلام المتفرقة الأخرى قالها عند مختلف المواقع وجعلوا لهم تصوراً جديداً لجريمة الزنا . فإذا زنى – عندهم – رجل بكر بامرأة بكر ، فإن فعلهما على كونه ذنباً ، ليس بجريمة مستلزمة للعقوبة على كل حال ، وأما إذا كان أحد المرتكبين لهذا الفعل – الرجل أو المرأة – أو كلاهما متزوجاً فإنه الجريمة ؛ غير أن الذي يجعله الجريمة ، إنما هو « نقض العهد » . فكل من أتى بفعل الزنا بعد كونه متزوجاً ، فإنه مجرم لأنه نقض العهد الذي كان عقده مع زوجته – أو زوجها إن كانت المرتكبة امرأة – أمام المذبح بواسطة القسيس .

(١) كتاب التثنية ، الإصحاح الثاني والعشرون ، (٢٢ – ٢٦) .

أما عقوبته على إتيانه بهذه الجريمة ، فإنما هي أن تقيم زوجته عليه الدعوى وتشكو غدره إلى المحكمة ، وتطلب منها التفريق بينهما . وكذلك ليس من حق زوج المرأة الزانية أن يقيم عليها الدعوى في المحكمة ويطلقها أمامها فحسب ، بل له كذلك أن ينال غرامة مالية من الرجل الذي أفسد زوجته . فهذه هي العقوبة التي يقررها القانون المسيحي للزناة المتزوجين والزانيات المتزوجات ، ومن العجيب أن هذه العقوبة سيف يقطع من جانبين ، فإن المرأة وإن كان لها أن تقيم الدعوى على زوجها الغادر ، وتنال من المحكمة حكم تفريقها منه ، ولكن لا يجوز لها بموجب القانون المسيحي أن تنكح رجلاً آخر طول حياتها . وكذلك إن الرجل وإن كان له أن يقيم الدعوى على زوجته الغادرة ويتخلّص منها أمام المحكمة ، ولكن لا يبيح له القانون المسيحي أن ينكح بعدها امرأة أخرى طول حياته . ومعنى ذلك أن كل من أحب من الزوجين أن يحيا في الدنيا حياة الرهبان والراهبات فعليه أن يشكو إلى المحكمة غدر شريكته – أو شريكها – في الحياة ويطلب منها التفريق بينهما .

إن القوانين الغربية اليوم – وهي التي تتبعها معظم بلاد المسلمين في هذا الزمان – إنما تقوم على هذه التصورات المختلفة . فالزنا في نظرها وإن كان عيباً أو رذيلة أو ذنباً ، ولكنه ليس بجريمة على كل حال . وإن الشيء الوحيد الذي يحوّله إلى الجريمة ، هو الجبر والإكراه ولا غير ، أي أن يجامع الرجل المرأة بدون رضاها . أما الرجل المتزوج ، فإن كان ارتكابه لفعلة الزنا سبباً للنزاع والشكوى ، فإنما هو كذلك لزوجته وحدها ؛ فلها – إن شاءت – أن تطلب من المحكمة تخليصها منه . وأما إذا كانت المرتكبة للزنا امرأة متزوجة ، فما لزوجها أن يشكوها إلى المحكمة ويطلقها فحسب ، بل له كذلك أن يشكو إلى المحكمة ذلك الرجل الذى ارتكب الزنا بزوجته وينال منه غرامة مالية

حكم الإسلام في باب الزنا : أما القانون الإسلامي ، فإنه على العكس من جميع هذه التصورات ، يقرر الزنا – من حيث هو – جريمة مستلزمة للمؤاخذة والعقوبة ؛ وتغلظ في نظره شدة هذه الجريمة أن يرتكبها رجلٌ متحصنٌ (أو امرأة متحصنة) بالزواج ، لا على أساس أنه نقض العهد أو تعدى على فراش غيره ، ولكن على أساس أنه سلك لقضاء شهوته طريقاً غير مشروع ، على كونه متمكناً من قضائها

بطريق مشروع . والنظرة التي بها ينظر القانون الإسلامي إلى فعلة الزنا ، هي أنها إذا أطلق عنان الناس لإتيانها متى شاؤوا ، فإنها لا تلبث أن تستأصل شأفة نوع الإنسان وتمدنه معاً . فمما يستلزمه الاستبقاء على نوع الإنسان وتمدنه أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة محدودة إلى علاقة قابلة للاعتماد عليها حسب القانون . ولا يمكن أن تكون هذه العلاقة محدودة مادام المجال واسعاً معها للعلاقة الحرة ، فإن الناس إذا كان من الميسور لهم أن يقضوا شهواتهم بدون أن يتحملوا أعباء الحياة العائلية وتبعاتها ، لا يمكن أن يرجى منهم بحال أن يرضوا بتحمل هذه الأعباء والتبعات لمجرد قضاء هذه الشهوات نفسها . ومثل ذلك كمثل شرط التذكرة لركوب القطار : إنه لا عبرة بشرط التذكرة لركوب القطار ما دامت للناس الحرية في ركوبه بالتذكرة أو بدون التذكرة . فإن كان شرط التذكرة لازماً ، فمن اللازم لجعله شرطاً متأكداً مؤثراً أن يكون السفر بدون التذكرة جريمة . فمن ركب القطار ولم يأخذ التذكرة لأنه لا يملك من المال ما يأخذها به ، فإنه يأتي بجريمة خفيفة ، ومن ركبه بدون التذكرة على كونه غير معدم للمال ، فإنه يأتي بجريمة أفحش وأغلظ) .

وقال الألوسي معدّداً شروط إحصان الرّجم : وإحصان الرجم يتحقق بأشياء نظمها بعضهم فقال :

شروط إحصان أتت ستة	فخذها عن النص مستفهما
بلوغ وعقل وحرية	ورابعها كونه مسلما
وعقد صحيح ووطء مباح	متى اختل شرط فلن يرجما

وزاد غير واحد أن يكون كلٌّ من الزوجين مساوياً الآخر في شرائط الإحصان وقت الإصابة بحكم النكاح فلو تزوج الحر المسلم البالغ العاقل أمة أو صبية أو مجنونة أو كتابية ودخل بها لايصير محصناً بهذا الدخول حتى لو زنى من بعد لا يرجم ، وكذا لو تزوجت الحرة البالغة العاقلة المسلمة من عبد أو مجنون أو صبي ودخل بها لا تصير محصنة فلا ترجم لو زنت بعد .

وذكر ابن الكمال شرطاً آخر وهو أن لا يبطل إحصانهما بالارتداد فلو ارتدا والعياذ بالله تعالى ثم أسلما لم يعد إلا بالدخول بعده ولو بطل بجنون أو عته عاد بالإفاقة ، وقيل

بالوطء بعده . والشافعي لا يشترط المساواة في شرائط الإحصان وقت الإصابة ، وكذا لا يشترط الإسلام فلو زنى الذمي الثيب الحر يجلد عندنا ويرجم عنده وهو رواية عن أبي يوسف وبه قال أحمد ، وقول مالك كقولنا .

وقال صاحب الظلال في تبيان حكمة بعض العقوبات في الإسلام : (والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها . فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول ، ولا خير لهم في كبتها أو قتلها . ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركّبها الله في كيانهم ، وجعلها جزءاً من ناموس الحياة الأكبر ، يؤدي إلى غايته من امتداد الحياة ، وعمارة الأرض ، التي استخلف فيها هذا الإنسان .

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة ! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني ، وتطيح بكل هذه الأهداف ؛ وترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً ، لا يفرق بين أنثى وأنثى ، ولا بين ذكر وذكر . مسخاً كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة . فليس وراء اللذة بناء في الحياة ، وليس وراءها عمارة في الأرض ، وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج ! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية ، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار . وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المنقطع ، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها ، وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان !

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ؛ إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيواني ، ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . فأما الزنا - وبخاصة البغاء - فيجرد هذا الميل الفطري من كل

الرفرفات الروحية ، والأشواق العلوية ؛ ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ؛ ويبديه عارياً غليظاً قذراً كما هو في الحيوان ، بل أشد غلظاً من الحيوان . ذلك أن كثيراً من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة ، في حياة زوجية منظمة ، بعيدة عن الفوضى الجنسية التي يشيعها الزنا – وبخاصة البغاء – في بعض بيئات الإنسان !

ودفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد في عقوبة الزنا .. ذلك إلى الأضرار الاجتماعية التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن الجريمة ، من اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة .. وكل واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة . ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد ... هذا السبب هو الأهم في اعتقادي . وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى .

على أن الإسلام لا يشدد في العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل ، ومن توقيع العقوبة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها . فالإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ؛ إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة . ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعاً غير مضطر .

وفي هذه السورة نماذج من هذه الضمانات الوقائية الكثيرة ستأتي في موضعها من السياق ..

فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله فهو يدرأ الحد ما كان هناك مخرج منه لقوله ﷺ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة »[١] لذلك يطلب شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفعل أو اعترافاً لا شبهة في صحته .

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها .

وقد يظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحداً ، لأنها غير قابلة للتطبيق . ولكن الإسلام - كما ذكرنا - لا يقيم بناءه على العقوبة ، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ؛ وعلى تهذيب النفوس ، وتطهير الضمائر ؛ وعلى الحساسية التي يثيرها في القلوب ، فتتحرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة . ولا يعاقب إلا المتبجحين بالجريمة ، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود . أو الذين يرغبون في التطهر بإقامة الحد عليهم كما وقع لماعز ولصاحبته الغامدية . وقد جاء كل منهما يطلب من النبي ﷺ أن يطهره بالحد ، ويلح في ذلك ، على الرغم من إعراض النبي مراراً ؛ حتى بلغ الإقرار أربع مرات . ولم يعد بد من إقامة الحد ، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستيقنة لا شبهة فيها . والرسول ﷺ يقول : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب »[٢] .

فإذا وقع اليقين ، وبلغ الأمر إلى الحاكم ، فقد وجب الحد ولا هوادة ، ولا رأفة في دين الله . فالرأفة بالزناة الجناة حينئذ هي قسوة على الجماعة ، وعلى الآداب الإنسانية ، وعلى الضمير البشري . وهي رأفة مصطنعة . فالله أرأف بعباده . وقد اختار لهم . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . والله أعلم بمصالح العباد ، وأعرف بطبائعهم ، فليس لمتشدق أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرية ؛ فهي أرأف مما ينتظر الجماعة التي يشيع فيها الزنا ، وتفسد فيها الفطرة ، وترتكس في الحمأة ، وتنتكس إلى درك البهيمية الأولى ..

والتشديد في عقوبة الزنا لا يغني وحده في صيانة حياة الجماعة ، وتطهير الجو الذي تعيش فيه . والإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفة - كما قلنا - إنما يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة .

لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة . ثم يمضي في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة ؛ فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . وأولئك هم الفاسقون ﴾ ..

---

(٢) أخرجه أبو داوود في كتاب الحدود (باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان) .

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات - وهن العفيفات الحرائر ثيبات أو أبكاراً - بدون دليل قاطع ، يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضي آمناً ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرحة ، وسمعتها ملوثة ؛ وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه ، وكل رجل فيها شاك في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار .. وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث ؛ وأن الفعلة فيها شائعة ؛ فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة تردادها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ؛ والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء .

لهذا ، وصيانة للأعراض من التهجم ، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم .. شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا .. ثمانين جلدة .. مع إسقاط الشهادة ، والوصم بالفسق .. والعقوبة الأولى جسدية . والثانية أدبية في وسط الجماعة ؛ ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهماً لا يوثق له بكلام ! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم .. ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل ، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه . فيكون قوله إذن صحيحاً . ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ، ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة . وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت) .

كلمة في السياق :

١ - هذه الآيات العشر تشكّل المجموعة الأولى من المقطع الأول وهي منتهية بقوله تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ وتأتي بعد ذلك مجموعة ثانية حتى نهاية الآية (٢٠) وهي منتهية بقوله تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ إن هاتين الآيتين المتشابهتين تدلاننا على نهاية كل من المجموعتين وتدلاننا على السياق الواحد ، فبين المجموعتين صلة واتصال ، فالمجموعة الثانية تتحدث عن حادثة الإفك ودروسها ، وهي أصعب حادثة في حياة رسول الله ﷺ ، فكانت المجموعة الأولى مقدمة لها كما كانت هي تعليلاً لضرورة الأحكام الموجودة في المجموعة الأولى .

٢ - لقد ذكرنا أن محور سورة النور هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ وإذا تأمّلنا المجموعة التي مرّت معنا في سورة النور فإننا نجد أنّها حدثتنا عن نوع من الزلل وهو الزنا ، وذكرت عقوبته والمخرج منه وهي عقوبة نعلم منها عزة الله وحكمته ، ثم ذكرت نوعا آخر من الزلل ، وهو قذف المحصنات ، وبينت عقوبته ، وهي عقوبة نعلم بها عزة الله وحكمته ، ثم ذكرت موضوع معالجة زلل الزوجة إذا لم يشهده إلا الزوج والمخرج منه وهو مخرج نرى فيه حكمة الله وعزته ، ثمّ ختمت المجموعة بقوله تعالى ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ لتذكرنا بأن هذه الأحكام أثر عن كون الله توّاباً على من زلّ إذا تاب ، وأن هذه الأحكام أثر عن حكمة الله تعالى ، قارن هذا بقوله تعالى ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

٣ - بدأت المجموعة بقوله تعالى ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها** ﴾ ثمّ جاء فيها أكثر من خطاب للأمة : ﴿ **فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ ﴿ **فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ هذا الخطاب موجّه للأمة التي أمرت في الدخول في السلم كافة ، فمن هذا الخطاب ، ومن مقدمة السورة ، ومن صلة هذه السورة بمحورها ، ندرك أن إقامة الحدود والأحكام فريضة الله على هذه الأمة ، وأنها إذا لم تفعل ذلك لا تكون قد حققت الأمر ، وإذا كان هذا لا يتم إلا بسلطان مسلم أو بخليفة مسلم ، أي لا يتم إلا بحكومة

إسلامية ، فإنّ إقامة الدولة الإسلامية فريضة الله الدائمة على هذه الأمة ، فمن لم يعمل لها في حال فقدانها فإنه آثم ، ومن لم يدعمها حال وجودها فإنه آثم ، ومن لم يقومها حال انحرافها وهو يستطيع فإنّه آثم .

ملاحظات :

١ - الزواج بالزانية حرام إذا لم يكن توبة ، أما مع التوبة فلا حرمة : عن ابن أبي ذئب قال : (سمعت شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال : إني كنت ألمّ بامرأة آتي منها ما حرّم الله عز وجل عليّ ، فرزق الله عز وجلّ من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال : ابن عباس : ليس هذا في هذا انكحها فما كان من إثم فعليّ) .

٢ - ليس المراد بالرأفة في قوله تعالى : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله** ﴾ الرأفة الطبيعية وإنّما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحدّ أو عدم إقامته على وجهه ، لأن القاعدة أنّ الحدّ إذا رفع إلى السلطان فقد وجبت إقامته ، وحرم العفو عن المدعى عليه إذا ثبت عليه الحدّ ، أما إذا لم يصل إلى السلطان فالعفو والسّتر أفضل ، إلا إذا كان الجاني كثير الإفساد ، وفي الحديث : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب » وقد دلّ النّهي عن الرأفة في الحدود ، أنّ الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ، ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده ؛ فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب ، وسنرى كلام ابن كثير في الفوائد في هذا الموضوع .

٣ - قال تعالى : ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ إن شهود المؤمنين للجلد فيه تنكيل للزانيين فذلك أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما ، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة ، إذا كان الناس حضوراً ، وبذلك يعرف الناس المحدود ، حتى إذا وقف موقف ريبة لم يغب ذلك عن النّاس ، وقد أشرنا إلى هذا هنا لأن هناك اتجاهاً سنراه في الفوائد هذا الاتجاه يقول : (ليس ذلك للفضيحة إنّما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة) فالشطر الأول من هذا الكلام مردود ، والشطر الآخر جميل .

٤ - في قوله تعالى : ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين** ﴾ أقوال للمفسرين : فبعضهم اعتبر هذه الآية

منسوخة بقوله تعالى ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم** ﴾ وهو رأي سعيد بن المسيب ، وعلى هذا الاتجاه فالعقد على الزانية ، جائز ونافذ ، وعلى جواز العقد ونفاذه بعض الأئمة ، ولكن مما يضعف اتجاه النسخ أول آية في السورة ؛ إذ إنها تشعر بإحكام السورة كلها .

وبعض العلماء حرّم التزوّج من الزانية والتزويج من الزاني ولكنه اعتبر العقد نافذاً في حالة وقوعه بشروط .

وبعض العلماء حرّم الزواج من الزاني أو الزانية واعتبر العقد باطلاً ولابن عباس اتجاه في الآية ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ هذا الاتجاه الذي يراه ابن عباس هو : أن الآية تقرّر واقعاً وهو أن الزاني لا يزني إلا بزانية ، وكذلك الزانية لا يزني بها إلا زان ، قال ابن عباس بإسناد صحيح عنه « ليس هذا بالنّكاح إنّما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك » فالمعنى في رأيه : أن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده في الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك الزانية ، ويفهم من ذلك أنّ المؤمنين الكمّل لا يقعون في الزنا ويؤيد ذلك الحديث « ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » وعلى كل الأحوال ففي الآية تزهيد في نكاح البغايا إذ الزنا عديل الشرك في القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله تعالى ﴿ **الخبيثات للخبيثين** ﴾ من هذه الحيثية .

٥ - رأينا أن الزاني المحصن والزانية المحصنة حدهما الرجم تواردت على ذلك الآثار من قول رسول الله ﷺ ومن فعله لدرجة التواتر ، فمن أنكر ذلك يكفر ، وأعظم الأدلة في ذلك الآية المنسوخة التلاوة المحكمة الحكم : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » وقد ورد ذلك في الكتب الستة ولكن هل يجمع بين الرجم والجلد ؟

الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة والشافعي ومالك على عدم الجمع ، وذهب الإمام أحمد إلى الجمع : الجلد مائة أولاً ثم الرجم؛ جمعاً بين الكتاب والسنة .

٦ - رأينا أن هناك خلافاً في جواز تزوّج الزانية ، وخلافاً في صحة العقد ، ورأينا الأقوال في ذلك وههنا مسألة هي : لو أن إنساناً تزوّج ثمّ تبيّن له بعد الزواج أنّ زوجته تفجر فما الحكم ؟ لا شكّ أنّ له في هذه الحالة أن يلاعن أو يطلّق دون أن يلاعن ، ولكن هل له أن يحتفظ بها ؟

قال فقهاء الحنفية : « لا يجب على الزوج تطليق المرأة الفاجرة ، ولا عليها تسريح

الفاجر إلا إذا خافت ألا يقيما حدود الله ، والفجور يعمّ الزنا وغيره » ويستند الحنفية فيما ذهبوا إليه على حديث بعض أسانيده جيّدة هو : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنّ عندي امرأة من أحب النّاس إليّ ، وهي لا تمنع يد لامس قال : طلقها ، قال لا صبر لي عنها قال : استمتع بها » وكما ترى فإنّ الرسول ﷺ أمر بالطلاق ابتداءً . وعلى كل الأحوال فإنّ عدم وجوب التطليق لا يعني الرضا بالفاحشة ؛ إذ الرضى بالفاحشة مع استحلالها كفر ، والرضى بالفاحشة مع الركون إليها وألفتها – ولو بلا استحلال – كبيرة . قال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنّة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقرُّ في أهله الخبث » رواه الإمام أحمد .

الفوائد :

١ -- عند قوله تعالى ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ (يُذكر عادة موضوعان) الأول هو هل مع جلد المائة توجد عقوبة أخرى للبكر أو لا ؟ والموضوع الثاني ما هو حد المحصن أي المتزوج ؟ . قال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج ، أو محصناً وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكراً لم يتزوّج فإنّ حدّه مائة جلدة كما في الآية ، ويزاد على ذلك أن يغرّب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرّب وإن شاء لم يغرّب ، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري ...... عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً – يعني أجيراً -- على هذا فزنى بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا : الرجم ، فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده لأقضينّ بينكما بكتاب الله تعالى ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام . واغد يا أنيس – لرجل من أسلم – إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها . وفي هذا دلالة على تعريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج فأما إذا كان محصناً وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك ... عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر

٤ - عامّة الفقهاء على أن الزواج من البغيّ قبل توبتها حرام ، لكنّ العقد عليها جائز بمعنى أنّه غير باطل ، ولكنّ الإمام أحمد يرى أن العقد عليها باطل أخذاً من قوله تعالى ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين** ﴾ قال ابن كثير : ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها ، وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ، قال فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها ، قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين** ﴾ وقال النسائي عن عبدالله بن عمرو قال : كانت امرأة يقال لها أم مهزول ، وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين** ﴾ قال الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد ، وكان رجل يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال وكانت امرأة بغيّ بمكة يقال لها عناق ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله ، قال فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط ، فلمّا انتهت إليّ عرفتني فقالت : مرثد ؟ فقلت : مرثد . فقالت : مرحباً وأهلاً هلم فبت عندنا الليلة ، قال فقلت : يا عناق حرّم الله الزّنا ، فقالت يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم ، قال فتبعني ثمانية ، ودخلت الحديقة ، فانتهيت إلى غار -- أو كهف - فدخلت فيه فجاؤا حتى قاموا على رأسي فبالوا ، فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني ، قال : ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر ، ففككت عنه أحبله فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً - مرتين ؟ - فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يا

مرثد : الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وروى ابن أبي حاتم .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله » وروى الإمام أحمد .. عن عبدالله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالماً يقول : قال : عبدالله قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه والمرأة المترجلّة - المتشبهة بالرجال ، والديوث ، وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن الخمر والمنان بما أعطى » وروى الإمام أحمد .. عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة حرّم الله عليهم الجنّة : مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والذي يقر في أهله الخبث » اهـ كلام ابن كثير .

أقول : إن كثيراً من مناطق العالم قد انتشر فيها الزنا انتشاراً كبيراً ، وأصبح في بعض المناطق عادة ، ولذلك فإنّ على مريد الزواج أن يلحظ هذا الموضوع .

٥ - قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم** ﴾ (وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذِكْرِ سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً** ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه : أهكذا نزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ فقالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلّق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته ، فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق ، وأنها من الله ، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخّذها رجل ، لم يكن لي أن أهيّجه ولا أحرّكه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته - قال : فما لبثوا إلا يسيراً - حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيّجه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاءً فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتدّ عليه ،

واجتمعت عليه الأنصار ، وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، وقال هلال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق ، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي ، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربّد وجهه فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي ، فنزلت ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله** ﴾ الآية فسرّي عن رسول الله ﷺ فقال « أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل ، فقال رسول الله ﷺ : أرسلوا إليها فأرسلوا إليها فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، فذكّرهما وأخبرهما أنّ عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها ، فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » فقيل لهلال : اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإنّ عذاب الدنيا أهون من الآخرة ، وإنّ هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها ، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها في الخامسة : إتق الله فإنّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإنّ هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فتلكّأت ساعة ، وهمّت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي ، فشهدت الخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحدّ ، وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها ؛ من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها ، وقال « إن جاءت به أصيهب ، أُثيبج ، حمش الساقين ، فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق ، جعداً جمالياً خدلج الساقين ، سابغ الأليتين فهو الذي رميت به » فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فقال : رسول الله ﷺ « لولا الأيمان لكان لي ولها شأن » قال عكرمة فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب ، ورواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يزيد بن هارون به نحوه مختصراً . ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة .

وروى الإمام أحمد عن علقمة عن عبد الله قال : كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ، والله لإن أصبحت صحيحاً لأسأل رسول الله ﷺ ، قال فسأله فقال يا رسول الله : إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ اللهم احكم ، قال فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به ، انفرد بإخراجه مسلم فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش به . وروى الإمام أحمد أيضاً عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال له : سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله ﷺ المسائل ، قال فلقيه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت إنك لم تأتني بخير ، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل ، فقال عويمر والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها . قال : فدعا بهما ولاعن بينهما . قال عويمر إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة المتلاعنين ، وقال رسول الله ﷺ « أبصروها فإن جاءت به أسحم ، أدعج العينين ، عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر ، كأنه وحرة ، فلا أراه إلا كاذباً » فجاءت به على النعت المكروه . أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي . ورواه البخاري أيضاً من طرق عن الزهري به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد « أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ » فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله ﷺ « قد قضي فيك وفي امرأتك » قال : فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ ، ففارقها فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملاً ، فأنكر حملها ، وكان ابنها يدعى إليها . ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ، ما فرض الله لها) .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتدُّ من الآية (١١) الى نهاية الآية (٢٠) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

☆ ☆ ☆

بين يدي التفسير :

قال ابن كثير في تقديمه لهذه المجموعة : (هذه الآيات العشر كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال تعالى ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم** ﴾ جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدّم في هذه اللعنة عبدالله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلّموا به ، وجوّزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر ، حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .
وروى الإمام أحمد ... عن الزهري قال أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرَّأها الله تعالى ، وكلّهم قد حدّثني بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض ، وأثبت له اقتصاصاً وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدّثني عن عائشة ، وبعض حديثهم يصدّق بعضاً : ذكروا أنّ عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، فأنا أُحمل في هودجي ، وأنزِل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى تجاوزت الجيش ، فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحّلونني فاحتملوا هودجي ، فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنّي فيه ، قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السنّ ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم ليس بها داع ولا مجيب ، فتيمّمت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونني

فيرجعون إليّ ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني – وكان قد رآني قبل الحجاب – فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمّرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلّمني كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها ، فأنطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزل موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولّى كبره عبدالله بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً ، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول « كيف تيكم ؟ » فذلك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشرّ حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرّزنا ولا نخرج إلّا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنُف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزّه في البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبدالمطلب بن عبد مناف ، وأمّها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبدالمطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أمّ مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ؛ تسبّين رجلاً شهد بدراً فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ قالت : فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلمّا رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ ، فسلّم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبويّ – قالت وَأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلهما – فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويّ فقلت لأمّي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوّني عليك ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها ، فقلت سبحان الله أَوَقد تحدّث النّاس بها ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، قالت فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، قالت فأمّا أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ ، فقال أسامة : يا رسول الله

أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيّق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر ، قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك ، قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة - فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عمّ سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنّه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيَّان الأوس والخزرج ، حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفّضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي قالت : فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم ثمّ جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت : فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه ، فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، قالت فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن - : والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث ، حتى استقرَّ في أنفسكم ، وصدَّقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقونني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنّي فوالله ما أجد لي ولكم

مثلاً إلا كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » قالت : ثم تحوّلت فاضجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلىٰ ، ولَشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلىٰ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله تعالى على نبيّه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجمّان من العرق ، وهو في يوم شاتٍ ، من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت : فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلّم بها أن قال : « أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك » قالت : فقالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ؛ هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله عز وجل ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم** ﴾ العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه – وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره – : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولي القربى** ﴾ إلى قوله ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال « يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك ، قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرّهط . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما) ثمّ ذكر ابن كثير روايات أخرى فليراجعها من شاء .

التفسير :

﴿ **إنّ الذين جاءوا بالإفك** ﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ، بل الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وأصله الأفَك : وهو القلب ، لأنه قول مأفوك عن وجهه ، والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها ﴿ **عُصْبة** ﴾ أي جماعة منكم إذ العصبة : هي الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، وهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين ،

وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، ومن ساعدهم ﴿ **منكم** ﴾ أي من جماعة المسلمين إما ظاهراً وباطناً ، وإمّا ظاهراً وإن كان في القلب كافراً كعبدالله بن أبي ﴿ **لا تحسبوه** ﴾ أيها المسلمون ﴿ **شرّاً لكم بل هو خير لكم** ﴾ لأن الله أنزل في البراءة منه ما أنزل ، وفي ذلك من الدروس والعبر الكثير ؛ إذ حَمىٰ الله بسبب العبرة من هذه القصة ملايين الأعراض ، وبعضهم حمل الخطاب على أن المراد به آل بكر ، وأن الخيرية لهم بسبب أن الحادثة كانت لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿ **لكل أمرىء منهم ما اكتسب من الإثم** ﴾ أي لكل من تكلّم في هذه القضية ، ورمىٰ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب على مقدار خوضه فيه ، وكان بعضهم ضحك ، وبعضهم تكلم فيه ، وبَعضهم سكت ﴿ **والذي تولّى كبره** ﴾ أي عِظَمه ﴿ **منهم** ﴾ أي من العُصْبة ﴿ **له عذاب عظيم** ﴾ أي جهنم ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبدالله بن أبي ﴿ **لولا** ﴾ أي هلا ﴿ **إذ سمعتموه** ﴾ أي ذلك الكلام الذي رُمِيَتْ به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ **ظنّ المؤمنون والمؤمنات** ﴾ ﴿ **بأنفسهم خيراً** ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ، قال النسفي : (وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل « ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم » ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات ، وليدل التصريح بلفظ الإيمان ، على أنّ الاشتراك فيه يقتضي ألا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب أو طاعن ، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به ، والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بإخوانه) ﴿ **وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها قال ابن كثير : (فإن الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان هذا يكون – لو قدّر – خفية مستوراً ، فتعين أنّ ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة) .

﴿ **لولا** ﴾ أي هلا ﴿ **جاءُوا عليه** ﴾ أى على القذف لو كانوا صادقين ﴿ **بأربعة شهداء** ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿ **فإذ لم يأتوا بالشهداء** ﴾ الأربعة ﴿ **فأولئك** ﴾ القاذفون ﴿ **عند الله** ﴾ أى في حكمه وشريعته ﴿ **هم الكاذبون** ﴾ لأن الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة ، وانتفاءها ، والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم يكن لهم بيّنة على قولهم فكانوا كاذبين ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّكم** ﴾ أيها الخائضون ﴿ **فيما أفضتم فيه** ﴾ من قضية الإفك ﴿ **عذاب عظيم** ﴾ قال ابن كثير : وهذا أي الفضل والرحمة فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ، ولا ما يعارضه وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معيَّن يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه ، أو يرجح عليه ﴿ **إذ تلقونه** ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض ﴿ **بألسنتكم** ﴾ أي تنطقون به بمجرد التّلقّي دون التدبّر والتّعقل ﴿ **وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم** ﴾ قال النّسفي : إنّما قيّد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلّا بالفم لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، ثم يترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواههم من غير ترجمة عن علم به في القلب ﴿ **وتحسبونه هيّناً** ﴾ أي وتحسبون خوضكم في عائشة رضى الله عنها يسيراً صغيراً ﴿ **وهو عند الله عظيم** ﴾ أي كبير ، قال ابن كثير : (أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ، ولو لم تكن زوجة النبي لما كان هيّناً فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيدّ المرسلين ؟؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدِّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك -- حاشا وكلا -- ولمّا لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى ﴿ **وتحسبونه هَيِّناً وهو عند الله عظيم** ﴾ وفي الصحيحين « وإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض وفي رواية لا يلقي لها بالاً ») .

﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا** ﴾ والمعنى : هلا قلتم إذ سمعتم الإفك : ما يصح لنا أن نتكلم بهذا ، أي ما ينبغي لنا أن نتفوّه بهذا الكلام ، ولا نذكره

لأحد ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ أي هذا زور كبير ، أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله ، قال ابن كثير : (هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير ، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولاً ينبغي الظن بهم خيراً ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن عَلق بنفسه شيء من ذلك وسوسةً أو خيالاً فلا ينبغي أن يتكلم به ، فإنّ رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى تجاوز لأمّتي عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » أخرجاه في الصحيحين .

وكلمة ﴿ **سبحانك** ﴾ في الآية تفيد التعجب قال النسفي : (« سبحانك » للتعجب من عظم الأمر ، ومعنى التعجب في كلمة التسبيح أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجب من صنائعه ، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة ، وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة ، كامرأة نوح ولوط ، ولم يجز أن تكون فاجرة ؛ لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم ، فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه ، والكفر غير منفّر عندهم وأما الكشخنة فمن أعظم المنفّرات) .

﴿ **يعظكم الله** ﴾ في ﴿ **أن تعودوا لمثله** ﴾ أي لمثل هذا الحديث من القذف أو استماع حديثه ﴿ **أبداً** ﴾ أي ما دمتم أحياءً مكلّفين ، أى ينهاكم الله متوعّداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي فيما يستقبل ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ بالله وشرعه ، قال النسفي : فيه تهييج لهم ليتعظوا ، وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح ﴿ **ويبيّن الله لكم الآيات** ﴾ أي الدلالات الواضحات ، وأحكام الشرائع والآداب الجميلة ﴿ **والله عليم** ﴾ بما يصلح عباده ، وعليم بهم وبأعمالهم ﴿ **حكيم** ﴾ في شرعه وقدره ، ومن حكمته أن كانت حادثة الإفك وإنزاله براءة عائشة لعلمه بصدق نزاهتها لكي لا تقعوا في زلل مشابه ، وإذا وقعتم أن تتوبوا ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة** ﴾ أي ما قبح جداً ﴿ **في الذين آمنوا** ﴾ أي في المؤمنين بنشر إشاعاتها عنهم وفيهم ، فيؤدي ذلك إلى الاستخفاف بالفاحشة ، أو تشويه سمعة المؤمنين ﴿ **لهم عذاب أليم في الدنيا** ﴾ بالحدّ ﴿ **والآخرة** ﴾ بالنار إن لم يتوبوا ﴿ **والله يعلم** ﴾ بواطن الأمور ، وسرائر الصدور ، أي إنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقبه عليها ، أو والله يعلم إذ شرع ما شرع ، وحذّر ما حذّر ، ووعظ ما وعظ ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ فسلّموا لله حكمه وشرعه ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ قال ابن كثير : أي لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف

بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهّر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم .

كلمة في السياق :

إن قصة الإفك تعليل للأحكام التي وردت في المجموعة الأولى ، وتفهيم لحكمة هذه الأحكام ، وتعليم لما ينبغي أن يكون الموقف عندما تحدث شائعة زنا ؛ إنّ من يدرس حادثة الإفك يدرك حكمة اشتراط الشهود للزنا ، وحكمة حدّ القذف ، كما يدرك ضرورة الظنّ الحسن بالمؤمنين ، وأن الأصل في المؤمن والمؤمنة عدم الزنا ، فالصلة إذن بين آيات هذه المجموعة وما قبلها واضحة ، والصلة بينها وبين محور السورة واضح ، فالآيات فصّلت جزءاً من أخلاق الإسلام في موضوع الشائعات ، وبعد المجموعة الثانية تأتي المجموعة الثالثة ، وهي امتداد لقصة الإفك ، ولذلك فسنفسرها ونذكر صلتها بالسياق ، ثمّ نذكر فوائد المجموعتين الثانية والثالثة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتدُّ من الآية (٢١) الى نهاية الآية (٢٦) وهذه هي :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ يعني طرائقه ومسالكه وآثاره ووساوسه وما يأمر به ﴿ **ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنه** ﴾ أي الشيطان ﴿ **يأمر**

بالفحشاء والمنكر ﴾ الفحشاء : ما أفرط قبحه ، والمنكر : ما تنكره النفوس فتنفر عنه ، ولا ترتضيه ، وقد جاءت الشريعة محدّدة لكل ما تستفحشه الفطرة ، وتستنكره الأنفس الصافية ، والعقول الكاملة ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً** ﴾ أي لولا أنّه يرزق من يشاء التوبة ، والرجوع إليه ، ويزكّي النّفوس من شركها وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه ، لما حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ **ولكن الله يزكي** ﴾ أي يطهِّر نفس ﴿ **من يشاء** ﴾ من خلقه ، ويضل من يشاء ، ويرديه في مهالك الضلال والغي ﴿ **والله سميع** ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ **عليم** ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

كلمة في السياق :

جاء هذا النداء بعد مجموعتين سابقتين عليه ، عرض فيهما نماذج على خطوات الشيطان ، وعلى ما يأمر به من فحشاء كالزنا ، وعلى ما يأمر به من منكر كالقذف ، وإذن فالصلة واضحة بين هذا النداء وبين ما قبله ، كما أن الصلة واضحة بينه وبين محور السورة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ (البقرة : ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

إنه في المجموعتين السابقتين ذكرت أحكام وآداب من الإسلام ، أمرنا بمراعاتها وإقامتها ، فهي تفصيل لقوله تعالى ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ وتأتي هذه المجموعة لتؤكد النّهي ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً** ﴾ تأكيد لقوله تعالى ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ فإذا وقع الزلل لا تيأس أن يزكيك الله ، واطلب منه التوبة والمغفرة والتزكية ، إن الصلة بين الآية الأولى من المجموعة الثالثة ، وبين ما قبلها ، وبينها وبين محور السورة من سورة البقرة واضحة .

﴿ **ولا يأتل** ﴾ أي ولا يحلف ﴿ **أولوا الفضل** ﴾ أي في الدين ﴿ **منكم والسَّعَة** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله** ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم والمساكين والمهاجرين ولو أساؤا وظلموا ، أو لا تقصّروا في أن تحسنوا إليهم وإن كانت بينكم وبينهم شحناء ، لجناية اقترفوها ﴿ **وليعفوا وليصفحوا** ﴾ العفو : الستر ، والصفح : الإعراض ، وليتجاوزوا عن الجفاء ،

وليعرضوا عن العقوبة ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ أي فليفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ يغفر ويرحم ، قال النسفي : فتأدبوا بأدب الله ، واغفروا وارحموا .

سبب نزول هذه الآية :

قال ابن كثير : (وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً ، بعد ما قال في عائشة ما قال - كما تقدم في الحديث - فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرَّت ، وتاب الله على من كان تكلّم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنّة - يعطّف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنّه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكيناً لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضُرب الحد عليها ، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ الآية فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك ، يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً - في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً - فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته ») .

أقول : والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

كلمة في السياق :

لقد جاءت الآية الأولى من هذه المجموعة لتحذر وتنفّر عن اتّباع خطوات الشيطان التي رأينا نماذج منها في المجموعتين السابقتين ، ثمّ جاءت هذه الآية لتأسو الجراح إذا حدث في المجتمع الإسلامي اتباع لخطوات الشيطان ، وقد جاء هذا الأدب الآسي في جو لا يسع المسلم معه ألا يرتقي إلى آفاقه ، إنه أدب تتجنب فيه أوامر الشيطان الحاثّة على التقاطع والتدابر ، فهو أدب تظهر به كل معاني المحور : الدخول في الإسلام كله ، ترك اتباع خطوات الشيطان ، ما ينبغي فعله بعد الزلل .

ثمّ تأتي بعد ذلك ثلاث آيات تبيّن ما يستحقه القذَفَة الذين يقذفون الأعراض

المؤمنة ، ونلاحظ أنّ بين هذه الآيات وبين المجموعة الأولى التي تحدّثت عن حدّ القذف صلة واضحة ، وقد جاءت حادثة الإفك في الوسط لنعرف من خلالها شناعة جريمة القذف ، ولنعرف حكمة عقوباتها ، ولقد ذكر في المجموعة الأولى عقوبة القذف الدنيوية ، وههنا تذكر بالتفصيل عقوبته الأخروية وهذه هي الآيات :

﴿ **إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات** ﴾ أي العفائف السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللائي ليس فيهن دهاء ولا مكر ، لأنهن لم يجربن الأمور ﴿ **المؤمنات** ﴾ بما يجب الإيمان به ، وأمهات المؤمنين يدخلن بالأولى في استحقاق قاذفهن هذه العقوبة ﴿ **لُعِنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ قال النسفي : جعل القذفة ملعونين في الدارين ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ أي بما أفكوا أو بهتوا ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾ أي حسابهم الحق الذي لا ظلم فيه ﴿ **ويعلمون** ﴾ عند ذلك ﴿ **أن الله هو الحق المبين** ﴾ لارتفاع الشكوك وقتذاك ، وحصول العلم الضروري قال ابن كثير في تفسيرها : (أي وعده ووعيده ، وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه) ، ولم يبق عندنا من المجموعة الثالثة إلا آية واحدة تختم بها حادثة الإفك ، وتعطي الدرس الأخير في هذا الموضوع ، وتقرر حقيقة ، وتعزّز ثقة .

﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءُون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ قال ابن كثير في هذه الآية :

قال ابن عباس : (الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال . والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول - قال - ونزلت في عائشة وأهل الإفك وهكذا روى مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن بن أبي الحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت والضحاك ، واختاره ابن جرير ووجّهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **أولئك مبرءُون مما يقولون** ﴾ وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك

باللازم ، أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ، لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ **أولئك مبرءُون مما يقولون** ﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ **ورزق كريم** ﴾ أي عند الله في جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ،روى ابن أبي حاتم ... عن الحكم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسيد بن جابر إلى عبدالله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلّم اليوم بكلام أعجبني فقال عبدالله : إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلُها فيضمّها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلُها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبدالله ﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾ الآية . ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً « مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدّث إلا بشرّ ما سمع ، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لي شاة ، فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت ، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » وفي الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها) .

أقول : فالآية تقرر حقيقة ، وتعزز ثقة المسلم بأهله وإخوانه المؤمنين ، وتعزز ثقة المرأة المسلمة بزوجها ، وتبيّن لِمَ يستحق القذفة العقوبة التي حددها الله ، وذلك لأنهم ظلموا وجاروا ، وبهذا تنتهي المجموعة الثالثة .

كلمة في السياق :

هذه المجموعات الثلاث قررت أحكاماً إسلامية ،فهي تفصّل الأمر ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ وبينت مجموعة من خطوات الشيطان ؛ فهي تفصّل ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ وعالجت حالات من الزلل ؛ فهي تفصّل ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ ومن ثم نعلم صلة المجموعات الثلاث بمحور السورة ، أما الصلة فيما بينها فقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية ، وقد بقيت عندنا في المقطع الأول مجموعة رابعة ، تكمّل هذه المجموعات ، إذ إنها تضع القواعد التي تحفظ بها الأعراض ، وتزال بها الشبة عن المجتمع الإسلامي ، وتبعد عن كل ما يؤدي إلى الفواحش والمنكرات قال الألوسي : (ثمّ إنّه عزّ وجلّ إثر ما

فصّل الزواجر عن الزنا ، وعن رمي العفائف عنه ، شرع في تفصيل الزواجر عَمّا عسى يؤدي إلى أحدهما ، من مخالطة الرجال بالنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات ، وتعليم الآداب الجميلة ، والأفاعيل المَرْضية المستتبعة لسعادة الدارين) وقبل أن نعرض المجموعة الرابعة نحب أن ننقل بعض الفوائد المتعلقة بالمجموعتين الثانية والثالثة .

فوائد :

١ - بمناسبة كون آيات المجموعة الثانية والمجموعة الثالثة نزلت في براءة أُمّنا الكريمة السيدة عائشة رضي الله عنها قال ابن كثير : (ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت قال لها : أبشري فإنك زوجة رسول الله ، ﷺ وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء وقال ابن جرير في تفسيره حدثني محمد بن عثمان الواسطي حدثنا جعفر بن عون عن المعلى بن عرفان عن محمد بن عبدالله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب الله ، حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب : يا عائشة ما قلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت : قلت كلمة المؤمنين) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والذي تولّىٰ كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ ذكر ابن كثير أن الأكثرين على أن المراد به هو عبدالله بن أبي ، وهناك قول آخر أنه حسان بن ثابت ، ولكن قال عنه ابن كثير : وهو قول غريب ، ولولا أنّه وقع في صحيح البخاري ما قد يدلّ على إيراد ذلك ، لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن مآثره أنه كان يذبّ عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ « **هاجهم وجبريل معك** » وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : كنت عند عائشة رضي الله عنها فدخل حسان بن ثابت فأمرت فألقي له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك ، وفي رواية قيل لها أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ قالت : وأيُّ عذاب أشد من العمى وكان قد ذهب بصره ، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم ، ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به فقال :

حصان رزان ما تزنُّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت : أما أنت فلست كذلك ، وفي رواية : لكنك لست كذلك ، وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب .

هجوت محمداً فأجبت عنه وعنـد الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالـده وعـرضي لعرض محمـد منكـم وقـاء
أتشتمـه ولست له بكفء ؟ فشركمـا لخيركما الفـداء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكـدّره الـدلاء

فقيل : يا أم المؤمنين أليس هذا لغواً ؟ قالت : لا إنما اللغو ما قيل عند النساء ، قيل أليس الله يقول ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ قالت : أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ؟ تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي حين بلغه أنه يتكلم في ذلك ، فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله) .

أقول : ليس المراد بقوله تعالى ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ حسان ابن ثابت رضي الله عنه وإنما هو عبدالله بن أبي .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً** ﴾ قال ابن كثير : (وقد قيل إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بني النجار ، أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك ، قال فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال في أهل الإفك ﴿ **إنّ الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم** ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ثم قال تعالى ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون** ﴾ الآية أي كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقال محمد بن عمر الواقدي .... عن أفلح مولى أبي أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب ؛ أفكنت يا أم

أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك ، فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك قال الله عز وجل ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال ، ويقال إنما قالها أبي بن كعب) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة أقوال للمفسرين تفسر خطوات الشيطان ، أو تمثل لها ، قال :

(وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان ، وقال أبو مجلز : النّذور في المعاصي من خطوات الشيطان ، وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه فقال هذا من نزغات الشيطان ، كفّر عن يمينك وكل ، وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً ، وقال ابن أبي حاتم .... عن أبي رافع قال : غضبت عليّ امرأتي فقالت هي يوم يهودية ، ويوم نصرانية ، وكل مملوك لها حُر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبدالله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة ، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك) .

٥ - حمل بعض المفسرين قوله تعالى ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ على أنها خاصة فيمن قذف عائشة ، أو فيمن قذف أمهات المؤمنين . قال ابن كثير : (وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم ... عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجاه في الصحيحين ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة ») .

٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم** ﴾ قال ابن كثير :

(قال ابن أبي حاتم ... عن ابن عباس قال : إنهم - يعني المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون حديثاً . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير

أيضاً ... عن النبي ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة عرِّف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ، ثم يصمّهم الله ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » وقال ابن أبي حاتم أيضاً ... عن أنس بن مالك : كنا عند النبي ﷺ فضحك حتي بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مِمَّ أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مجادلة العبد لربه ، يقول يارب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى فيقول : لا أجيز عليّ إلا شاهداً من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً فيختم علي فيه ، ويقال لأركانه : انطقي فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبدالله الأشجعي عن سفيان الثوري به ، ثم قال النسائي لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم ، هكذا قال . وقال قتادة بن أبي آدم : والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك ، فراقبهم واتق الله في سرِّك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، والظلمة عنده ضوء ، والسِّر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .)

٧ - مما قاله النسفي بمناسبة السياقات السابقة : (ولم يغلّظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة رضي الله عنها ، فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصّل وأجمل ، وأكّد وكرّر ، وما ذاك إلا لأمر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته ، إلا من خاض في أمر عائشة . وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك ، ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة : برّأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها . وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم رضي الله عنها بإنطاق ولدها ، وعائشة رضي الله عنها بهذه الآي العظام ، في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر . فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على إنافة محله ﷺ وعلى آله) .

٨ - وقال النسفي : وقالت عائشة رضي الله عنها : « لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة : نزل جبريل بصورتي في راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام أن يتزوجني ، وتزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري ، وتوفي عليه الصلاة والسلام ورأسه في

حجري ، وقبره في بيتي ، وينزل عليه الوحي وأنا في لحافه ، وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذري من السماء ، وخلقت طيبة عند طيّب ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً » .

٩ – إن القرآن كله معجز . والإعجاز يكون في السورة ، ويكون فيما هو أكثر من ذلك ، وفيما هو أقل ، والتدليل على الإعجاز سهل ، ولكنه في بعض المواطن أسهل ، فمثلاً أن قوله تعالى ﴿ **إذ تلقّونه بألسنتكم** ﴾ تحس به الإعجاز الذي يعطيك ذاته ، فالأصل أن يتلقى الإنسان الكلام بأُذنه ، ثم يستوعبه بعقله وقلبه ، ثم يتكلم به بعد ذلك ، أو لا يتكلم ، ولكن في هذه الحادثة كان التلقي باللسان بدل الأذن والقلب ، فهو إشارة إلى سرعة الأخذ ، وسرعة النطق دون التعقل والتدبر ، إن أمثال هذه التعابير المعجزة في القرآن كثيرة ، وهي وحدها تدلك على أن هذا القرآن من عند الله ، فكيف إذا اجتمع مع هذا كله الإعجاز ؟ وكيف إذا رافق هذا الإعجاز معجزات لا تحصى .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة من المقطع الأول

وتمتد من الآية (٢٧) الى نهاية الآية (٣٤) وهذه هي :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ

وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم** ﴾ أي بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ أي تستأذنوا ، والاستئناس في الأصل الاستعلام والاستكشاف ، أي حتى تستعلموا أيطلق لكم الدخول أم لا ، قال النسفي : وذلك بتسبيحة أو بتكبيرة أو بتحميدة أو بتنحنح ﴿ **وتسلّموا على أهلها** ﴾ التسليم أن يقول : السلام عليكم أأدخل ؟ ثلاث مرات فإن أذن له وإلا رجع ، وقيل : إن تلاقيا يقدّم التسليم ، وإلا فالاستئذان . قال ابن كثير : (هذه آداب شرعية أدّب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتي يستأنسوا ، أي يستأذنوا قبل الدخول ، ويسلّموا بعده ، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف ...) وتتمة آداب الاستئذان وأدلتها ستأتي في الفوائد ﴿ **ذلكم** ﴾ أي الاستئذان والتسليم ﴿ **خير لكم** ﴾ أى خير للطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ **لعلكم تذكّرون** ﴾ أي قيل لكم هذا لكي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان .

كلمة في السياق :

لاحظ ما ختمت به الآية الأولى من هذه المجموعة ﴿ **لعلّكم تذكّرون** ﴾ وأنه عَيْنُ الذي ختمت به الآية الأولى من السورة ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون** ﴾ وهذا يفيد أنّ التذكر كما يكون أثراً عن البيان ، يكون أثراً عن تطبيق الأحكام ، فلا يكون الإنسان لله ذاكراً إلا باجتماع الذكر ، وقراءة القرآن ، وتطبيق الأحكام ، ولنعد إلى التفسير .

﴿ **فإن لم تجدوا فيها** ﴾ في البيوت ﴿ **أحداً** ﴾ من الآذنين ﴿ **فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم** ﴾ أي حتى تجدوا من يأذن لكم ، أو فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها ، لأنّ التصرف في ملك الغير لابد أن يكون برضاه ﴿ **وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا** ﴾ إذا كان فيها قوم فقالوا قبل الإذن أو بعده ارجعوا فارجعوا ، ولا تلحُّوا في إطلاق الإذن ، ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تقفوا على الأبواب ، لأن هذا مما يجلب الكراهة ، وإذا نهي عن ذلك فقد نهي ضمناً عن كل ما يؤدي إلى إزعاج أهل البيت ، من قرع الباب بعنف ، ورفع الصوت وغير ذلك ﴿ **هو أزكىٰ لكم** ﴾ أي الرجوع أطيب وأطهر ؛ لما فيه من سلامة الصدور ، والبعد عن الريبة ، أو أنفع وأنمى خيراً ﴿ **والله بما تعملون عليم** ﴾ هذا وعيد للمخاطَبين بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به ، فموف جزاءه عليه ﴿ **ليس عليكم جناح** ﴾ أي إثم في ﴿ **أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة** ﴾ قال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن ، كالبيت المعدّ للضيف ، إذا أذن له فيه أول مرة كفى .. وقال آخرون : هي بيوت التّجار كالخانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك ، واختار ذلك ابن جرير) أقول : ويدخل في ذلك في عصرنا الفنادق ﴿ **فيها متاع لكم** ﴾ المراد بالمتاع إما الأغراض الخاصة ، وإما المنفعة العامّة قال النسفي : أيّ منفعة كالاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرحال ، والسلع والشراء والبيع ﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ قال النسفي : هذا وعيد للذين يدخلون الخربات ، والدور الخالية من أهل الريبة .

كلمة في السياق :

في هذه الآيات الثلاث ذكر الله عز وجل آداباً عامة في موضوع الدخول إلى البيوت

الخاصة والعامة ، ومجيء هذه الآداب بعد الأحكام التي مرّت في المجموعات الثلاث الأولى مرتبط نوع ارتباط بها ؛ فبالاستئذان تنتفي الريبة ، وينتفي الاطلاع على ما لا يرغب الآخرون أن يطلع عليه أحد ، وينتفي سوء الظن إذا رأى الإنسان شيئاً لا يعرف وجهه الصحيح ، ومجيء هذه الآداب في السورة التي محورها ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ معلوم الحكمة ، فهي أجزاء من الإسلام ينبغي أن تطبّق ، وما خالفها اتباع لخطوات الشيطان ، ومن زلّ عنها أخطأ الطريق بعد البيان . ولنعد إلى التفسير :

﴿ **قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم** ﴾ المراد غض البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحل ، قال النسفي :(ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفها وقدميها – في رواية – وإلى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين) وهذا كله بلا شهوة ، أما بشهوة فلا يجوز النظر بحال ، لا لمحرم ولا لأجنبية ، وقال النسفي : هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرّم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ﴿ **ويحفظوا فروجهم** ﴾ أي من الزنا ، ومن النظر إليه لغير زوجة أو زوج أو أمة أو سيد بالنسبة للأمة ﴿ **ذلك** ﴾ أي غضّ البصر وحفظ الفرج ﴿ **أزكىٰ لهم** ﴾ أي أطهر من دنس الإثم قال ابن كثير : (أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم) ﴿ **إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ فيه ترغيب وترهيب ، يعني أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم ، وكيف يجيلون أبصارهم ، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا على تقوى وحذر في كل حركة وسكون ﴿ **وقل للمؤمنات يغضُضْن من أبصارهن ويحفظن فروجهن** ﴾ قال النسفي : (أمرن بغض الأبصار ، فلا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه ، وإن اشتهت غضَّت بصرها رأساً ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثل ذلك ، وغض بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها ، وإنما قدم غض الأبصار على حفظ الفروج ؛ لأنّ النّظر بريد الزنا ، ورائد الفجور ، فبذر الهوى طموح العين) .
﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ أي مواضع زينتهن ، قال النسفي – وهو حنفي – : (ومواضعها الرأس ، والأذن ، والعنق ، والصدر ، والعضدان ، والذراع والساق ، فهي الإكليل ، والقرط ، والقلادة ، والوشاح ، والدملج ، والسوار ، والخلخال) ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ قال النسفي وهو حنفي : إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ، ففي سترها حرج بيّن ، فإنّ المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا في الشهادة ، والمحاكمة ،

والنّكاح ، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها ، وخاصة الفقيرات منهن) .

قال الأعمش : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في تفسير إلا ما ظهر منها قال : وجهها وكفيها والخاتم ، وهذا موضوع سنعود إليه في الفوائد . ﴿ **وليضربن** ﴾ أي وليضعن ﴿ **بخمرهن** ﴾ جمع خمار وهو ما يخمّر به ، أى يغطيٰ به الرأس ﴿ **على جيوبهن** ﴾ يعني على الصدر والنّحر ، فلا يرى منه شيء ، والجيوب فتحات الثياب من العنق قال النسفي : (كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن ، وما حواليها ، وكن يسدلن الخمر من ورائهن ، فتبقى مكشوفة ، فأمرن أن يسدلنها من قدامهن ، حتى يغطينها) وقال ابن كثير : (يعني المقامع ، يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن ، لتواري ما تحتها من صدرها ، وترائبها ؛ ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكنّ يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها ، وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن) . ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ أي مواضع الزينة الباطنة ، كالصدر والساق والرأس ونحوها ﴿ **إلا لبعولتهن** ﴾ أي لأزواجهنّ ﴿ **أو آبائهن** ﴾ ويدخل فيهم الأجداد ﴿ **أو آباء بعولتهن** ﴾ لأنهم صاروا محارم ﴿ **أو أبنائهن** ﴾ سواء كانوا أبناء نسب أو رضاع ﴿ **أو أبناء بعولتهن** ﴾ فقد صاروا محارم . ﴿ **أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن** ﴾ من النسب أو الرضاع ، ويدخل في ذلك سائر المحارم كالأعمام والأخوال ، وغيرهم دلالة ، كما ذكر النسفي إلا أن بعضهم فهم من عدم ذكر العم والخال أنها تحتاط معهما لأنّهما ينعتان لأبنائهما ومن ثم لم يذكرا ، ولما كانت الزينة في الأصل للزوج وحده فإن له ما ليس لغيره من الحقوق ، إذ يحق له أن ينظر إليها كلها ، وتتصنّع له ما لا تتصنَّع لغيره . ﴿ **أو نسائهن** ﴾ قال النسفي : (أي الحرائر لأن مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر) . وقال ابن كثير : (يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ... وقال مجاهد : نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة) ولنا عودة في الفوائد على هذا الموضوع . ﴿ **أو ما ملكت أيمانهن** ﴾ قال النسفي : أي إمائهن ، ولا يحل لعبدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها ، خِصيّاً كان أو عنيناً أو فحلاً ، قال سعيد ابن المسيب : لا تغرنّكم سورة النور ، فإنها في الإماء دون الذكور وقال ابن كثير : قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة ؛

لأنّها أمتها ، وإليه ذهب سعيد بن المسيب ، وقال آخرون بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنّساء ، كظهورها لمحارمها ﴿ **أو التابعين غير أولي الإرْبة من الرجال** ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء ، كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، ولاهمَّ لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، وقال النسفي : قيل هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، ولا حاجة لهم إلى النساء ، لأنهم بله ، لا يعرفون شيئاً من أمرهن ، أو شيوخ صلحاء ، أو العنين أو الخصي أو المخنث . أي الذي لا يشتهي النساء ولا يعرف عن أمرهن شيئاً . ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ قال النسفي : أي لم يطلعوا لعدم الشهوة .. أو لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء ، وقال ابن كثير : يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية ، وحركاتهن ، وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأمّا إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرِّق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكَّن من الدّخول على النساء . ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن لِيُعلَم ما يخفين من زينتهن** ﴾ قال ابن كثير : (كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت ، لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً وتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطّر والتطيّب عند خروجها من بيتها ، فيشمّ الرِّجال طيبها) . ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ قال النسفي : (العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه وإن اجتهد ، فلذا وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة ، وبتأميل الفلاح إذا تابوا ، وقيل أحوج النّاس إلى التوبة من توهّم أنه ليس له حاجة إلى التوبة ، وظاهر الآية يدل على أنّ العصيان لا ينافي الإيمان) وقال ابن كثير : (أي افعلوا ما أمركم من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه) .

نقل :

قال صاحب الظلال بين يدي الآيتين اللتين مرّتا معنا :

(إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا

تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين . فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفىء ولا يرتوي . والنظرة الخائنة ، والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة ، والجسم العاري ... كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة . فإما الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيَّد بقيد ، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب !!!

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً ، وبقوته الطبيعية ، دون استثارة مصطنعة ، وتصريفه في موضعه المأمون النظيف . ولقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة ، والحديث الطليق ، والاختلاط الميسور ، والدعابة المرحة بيْن الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة .. شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت ، ومن العقد النفسية ، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي ، وما وراءه من اندفاع غير مأمون ... الخ . شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين ! - وبخاصة نظرية فرويد - ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية ، رأيت بعيني في أشد البلاد إباحية وتفلتاً من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ، ما يكذبها وينقضها من الأساس .

نعم . شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي ، والاختلاط الجنسي ، بكل صوره وأشكاله ، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها . إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوماً أنها لا تنشأ إلا من الحرمان ، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه .. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ، ولا يقف عند حد ؛ وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء ! وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة ، واللفتات الموقظة . وليس هنا مجال التفصيل وعرض الحوادث والشواهد . مما يدل بوضوح على ضرورة إعادة النظر في تلك النظريات التي كذبها الواقع المشهود .

إن الميل الفطري بين الرجل والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي ؛ لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ؛ وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها . فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود . وإثارته في كل حين تزيد من عرامته ؛ وتدفع به إلى الإفضاء المادي للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة . وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة ! والنظرة تثير . والحركة تثير . والضحكة تثير . والدعابة تثير . والنبرة المعبِّرة عن هذا الميل تثير . والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية ، ثم يلبىٰ تلبية طبيعية .. وهذا هو المنهج الذي يختاره الإسلام . مع تهذيب الطبع ، وشغل الطاقة البشرية بهموم أخرى في الحياة ، غير تلبية دافع اللحم والدم ، فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد !

وفي الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين)

كلمة في السياق :

ذكر في هاتين الآيتين أحكام غض البصر ، وحفظ الفروج ، وحفظ العورات ، وذلك كله لقطع الذريعة إلى الزنا ، فالتبرج وتسريح البصر إلى ما حرّم الله ، هما بابا الزنا الكبيران ، فإذا أغلقا انحسم الزنا وانحسر ، فالصلة بين هاتين الآيتين وبين ما سبقهما في مجموعتهما ، أو في المجموعات الثلاث الأولى واضحة ، وأمّا صلة الآيتين بمحور السورة فمن حيث إنّهما تحدثتا عن أحكام وآداب إسلامية ، وذلك داخل ضمن قوله تعالى ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ ونهتا عن أخلاق جاهلية وذلك داخل تحت قوله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ وطالبتا بالتوبة ، وذكّرتا بعلم الله ، وذلك داخل ضمن قوله تعالى ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ وإذ كان ما مرّ معنا في هاتين الآيتين هو من باب سدّ الذرائع التي توصل إلى الزنا ، ولمّا كان الزّواج هو الطريق الإيجابي الأقوى لقطع الطريق على الزنا ، فإنّ الآية اللاحقة تأمر به .

﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ الأيامى : جمع أيم وهو من لا زوج له ، رجلاً كان أو امرأة ، بكراً كان أو ثيباً ﴿ **والصالحين** ﴾ أي الخيّرين أو المؤمنين ﴿ **من عبادكم** ﴾ أي من عبيدكم أي من أرقائكم ﴿ **وإمائكم** ﴾ أي جواريكم والمعنى : زوّجوا من تأيّم منكم من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح من عبيدكم وإمائكم قال النسفي :

(والأمر للندب إذ النكاح مندوب إليه) أقول : هناك حالات يكون النكاح فيها واجباً أو مفروضاً والمجتمع الإسلامي متضامن متكافل في تحقيق هذا الأمر ، ومن ثم كان عمر ابن عبدالعزيز يرسل مناديه ينادي ... أين الناكحون ... حتى أغنى كلا من هؤلاء ، وقد زوج عمر بن الخطاب من بيت مال المسلمين ، ولنا عودة على هذا الموضوع . ﴿ **إن يكونوا فقراء** ﴾ من المال ﴿ **يغنهم الله من فضله** ﴾ بالكفاية والقناعة ﴿ **والله واسع** ﴾ أي غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق ﴿ **عليم** ﴾ كيف يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً** ﴾ أي لا يجدون استطاعة تزوج من المهر والنفقة ، والمعنى وليجتهد هؤلاء في العفّة بسلوك طريق ذلك من الصوم والفكر في ملكوت السمٰوات والأرض ، والذّكر والبعد عن كل مهيّج من رؤيةٍ وغيرها ﴿ **حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ أي حتى يقدرهم على المهر والنفقة .

قال النسفي : (فانظر كيف رتّب هذه الأوامر ، فأمر أولاً بما يعصم عن الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر ، ثم بالنّكاح المحصن للدين ، المغني عن الحرام ، ثم بعفّة النّفس الأمارة بالسوء ، عن الطّموح إلى الشهوة عند العجز عن النّكاح ، إلى أن تقدر عليه) .

﴿ **والذين يبتغون الكتاب** ﴾ أي المكاتبة ﴿ **مِمَّا ملكت أيمانكم** ﴾ أي من مماليككم رجالاً كانوا أو نساءً ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ أي قدرة على الكسب أو أمانة وديانة ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾ قال النّسفي : (هذا أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتَبين ، وإعطائهم سهمهم من الزكاة ... وعند الشافعي رحمه الله حطوا من بدل الكتابة ربعاً ، وهذا عندنا على وجه الندب ، والكتاب والمكاتبة بمعنى واحد وهو أن يقول لمملوكه : كاتبتك على ألف درهم ، فإن أداها عتق ، ومعناه : كتبت على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال ، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك ، أو كتبت عليك الوفاء ، وكتبت علي العتق ، ويجوز حالّاً ومؤجّلاً ومنجّماً وغير منجم لإطلاق الأمر) وهل يجب على السيد إذا كان لعبده حيلة أو كسب يستطيع أن يؤدي إلى سيده المال أن يكاتبه سيده أو يندب له ؟ قال ابن كثير : (وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ... وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر) ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد .

والملاحظ أن الأمر بالمكاتبة جاء بعد الأمر بالإنكاح ، فما هي الصلة بين الأمرين ؟

أقول : إن الإنكاح سبب لزيادة المسلمين ، والمكاتبة تكثير لسواد المسلمين ، إذ العبودية نوع موت ، ثمّ إنّ الأمر بإنكاح الإماء والعبيد الصالحين يوصل إلى الكلام عن حرّيتهم والطريق إليها ، لأن العبد يحرص على أن يتزوج بعد أن يكون حرًّا ، كما أنّه يكون أكثر حرصاً على الحرية بعد زواجه ، وأما الصلة بين هذا الموضوع وبين محور السورة فواضح ؛ فهذا جزء من نظام الإسلام الذي أمر الله المسلمين في الدخول به كافة .

﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم** ﴾ أي إمائكم ﴿ **على البغاء** ﴾ أي على الزنا إذ البغاء الزنا للنساء خاصة ﴿ **إن أردن تحصُّناً** ﴾ أي تعففاً عن الزنا ، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت ، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك ، ولا يعني هذا أنه يجوز للرجل إذا لم ترد أمته التحصّن أن يدفعها إلى الزنا ، كما لا يعني أن الأمة بالخيار في أن تتحصّن أو تزني ، بل كان القيد بهذا الشرط لأنّ الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصّن ، فآمر المطيعة لا يسمّى مكرِهاً ، ولا أمره إكراهاً ولأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة ، وفيه توبيخ للأسياد فكأنه قال : إذا رغبن في التحصن فأنتم أحق بأن تفرحوا بذلك ، وتعينوهن عليه فكيف تكرهونهنّ ؟ ﴿ **لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** ﴾ أي لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهنّ ﴿ **ومن يكرههن** ﴾ أي على الزنا ﴿ **فإن الله من بعد إكراههن غفور** ﴾ لهن ﴿ **رحيم** ﴾ بهن أو لهم وبهم إذا تابوا .

نقول :

١ ــ قال صاحب الظلال في الآيات الأخيرة : (إن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية . وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة . فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها . والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت ، وتحصين النفوس . والإسلام نظام متكامل ، فهو يفرض العفة وقد هيَّأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء . فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال) ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . إن يكونوا**

فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ .. والأيامى هم الذين لا أزواج لهم من الجنسين .. والمقصود هنا الأحرار . وقد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : ﴿ **والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾ .

وكلهم ينقصهم المال كما يفهم من قوله بعد ذلك : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ ..

وهذا أمر للجماعة بتزويجهم . والجمهور على أن الأمر هنا للندب . ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله ﷺ لم يزوجوا . ولو كان الأمر للوجوب لزوَّجهم .

ونحن نرى أن الأمر للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأيامى على الزواج ؛ ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج ، وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة . وهو واجب . ووسيلة الواجب واجبة .

وينبغي أن نضع في حسابنا - مع هذا - أن الإسلام - بوصفه نظاماً متكاملاً - يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجاً أساسياً ؛ فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال . ولكنه في الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات .. فالأصل في النظام الاقتصادي الإسلامي أن يستغني كل فرد بدخله . وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقاً على الدولة واجباً للأفراد . أما الإعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام . فإذا وجد في المجتمع الإسلامي - بعد ذلك - أيامى فقراء وفقيرات ، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوِّجهم . وكذلك العبيد والإماء . غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزويج - متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساءً - فالرزق بيد الله . وقد تكفَّل الله بإغنائهم ، إن هم اختاروا طريق العفة النظيف : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف(١) » .

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي .

وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ .. ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ .. لا يضيق على من يبتغي العفة ، وهو يعلم نيته وصلاحه .

وهكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية ؛ فيهيء لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج ؛ ولو كان عاجزاً من ناحية المال . والمال هو العقبة الكؤود غالباً في طريق الإحصان . ولما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي ، وأن يعين على الترخص والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية . وكان وجود الرقيق ضرورة إذ ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين . لما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة . حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته . وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته :

﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ .. وآراء الفقهاء مختلفة في هذا الوجوب . ونحن نراه الأولى ؛ فهو يتمشى مع خط الإسلام الرئيسي في الحرية وفي كرامة الإنسانية . ومنذ المكاتبة يصبح مال الرقيق له ، وأجر عمله له ، ليوفي منه ما كاتب عليه ؛ ويجب له نصيب في الزكاة : ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾ . ذلك على شرط أن يعلم المولى في الرقيق خيراً . والخير هو الإسلام أولاً . ثم هو القدرة على الكسب . فلا يتركه كَلّاً على الناس بعد تحرره . وقد يلجأ إلى أحط الوسائل ليعيش ، ويكسب ما يقيم أوده . والإسلام نظام تكافل . وهو كذلك نظام واقع . فليس المهم أن يقال : إن الرقيق قد تحرر . وليست العنوانات هي التي تهمه . إنما تُهمه الحقيقة الواقعة . ولن يتحرر الرقيق حقاً إلا إذا قدر على الكسب بعد عتقه ؛ فلم يكن كَلّاً على الناس ؛ ولم يلجأ إلى وسيلة قذرة يعيش منها ، ويبيع فيها ما هو أثمن من الحرية الشكلية وأغلى ، وهو أعتقه لتنظيف المجتمع لا لتلويثه من جديد ؛ بما هو أشد وأنكى .

وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبغاء . وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ؛ وجعل عليها ضريبة يأخذها منها – وهذا هو البغاء في صورته التي ما تزال معروفة حتى اليوم – فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة ؛ وخص هذه الحالة بنص خاص :

﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾) .

٢ - وقال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً** ﴾ الآية (ويكسر شهوته بالصوم للحديث ، وكونه يثير الحرارة والشهوة إنما هو بابتدائه فإن لم تنكسر به تزوج ، ولا يكسرها بنحو كافور فيكره بل يحرم على الرجل والمرأة إن أدى إلى اليأس من النسل ، وقول جمع : إن الحديث يدل على حل قطع العاجز الباءة بالأدوية مردود ، على أن الأدوية خطيرة ، وقد استعمل قوم الكافور فأورثهم عللاً مزمنة ، ثم أرادوا الاحتيال لعود الباءة بالأدوية الثمينة فلم تنفعهم) .

أقول : أمّا إذا كانت الأدوية تخفف من حدّة الشهوة ولا تؤدي إلى قطع النّسل فلا بأس باستعمالها للرجل أو للمرأة ، ثمّ إذا كان الزوج أو الزوجة في غيبة عن الآخر فلكلّ منهما استعمال الأدوية المهدّأة التي لا تقطع النّسل .

٣ - بمناسبة الكلام عن المكاتبين في الآيات يقول الأستاذ المودودي في تفسيره لسورة النّور : (ومما يجدر بنا ذكره بهذه المناسبة أن الأرقاء في الزمن القديم كانوا على ثلاثة أنواع : ١ - أسارى الحرب ، و٢ - الأحرار الذين كانوا يؤخذون ويُسْترقون ظلماً فيباعون ، و ٣ - الذين كانوا في الرق كابراً عن كابر ، ولا يُعرف متى كان آباؤهم قد استرقوا ، ومن أي النوعين رقُّهم . فلما جاء الإسلام ، كان المجتمع الإسلامي في بلاد العرب وغيرها من أقطار العالم ممتلئاً بالأرقاء من هذه الأنواع الثلاثة ، وعليهم تقريباً كان يعتمد النظام الاقتصادي والاجتماعي في سيره أكثر مما كان يعتمد على الخدَمَة والأُجراء . فالإسلام واجهته في مثل هذا الوضع مسألتان : الأولى هي مشكلة الأرقاء الذين كانوا موجودين في المجتمع إذ ذاك ، والثانية هي حل مشكلة الرق في المستقبل . فجواباً عن المسألة الأولى ما ألغى الإسلام دفعة واحدة حقوق الملكية التي كانت للناس على أرقائهم منذ الزمان القديم ، لأنه لو فعل ذلك ، لما عطل نظامَ البلاد الاقتصادي والاجتماعي بأسره فحسب ، بل لجرَّ البلاد - أيضاً - إلى حرب داخلية مدمرة مثل الحرب التي ظهرت في البلاد الأميركية لما أقدمت على إلغاء نظام الرق ، بل لظلت القضية على ظهور هذه الحرب بدون حل ، كما بقيت قضية ذل الزنوج (Negros) بدون حل في أميركا . فأعرض الإسلام عن هذا الطريق الخاطىء للإصلاح ، وقام في البلاد بحركة شاملة قوية

لمنح الأرقاء حريتهم ، واستحث الناس بوسائل الترغيب والتلقين ، وأحكام الدين ، وقوانين البلاد ، على أن يمنّوا على أرقائهم بالعتق ابتغاء لنجاتهم الأخروية ، أو تكفيراً لذنوبهم حسب الأحكام الدينية ، أو في مقابل مقدار معلوم من المال يأخذونه منهم . فهذه الحركة القوية التي قام بها الإسلام في بلاد العرب أعتق النبي ﷺ بموجبها ٦٣ رقبة ، وأعتقت إحدى نسائه وهي عائشة رضي الله عنها ٦٧ رقبة ، وأعتق عمه العباس بن عبدالمطلب في حياته ٧٠ رقبة ، وأعتق حكيم بن حزام رضي الله عنه مائة رقبة ، وأعتق عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ألف رقبة ، وأعتق ذو الكلاع الحميري رضي الله عنه ثمانية آلاف رقبة ، وأعتق عبدالرحمن بن عوف ثلاثين ألف رقبة . ونجد مثل هذه النظائر كثيرة في حياة غير هؤلاء من الصحابة من أبرزهم ذكراً أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، فكأن الناس في ذلك الزمان كان بهم ولوع شديد بفعل الخيرات ، ونيل رضا ربهم ، فكانوا لأجل ذلك يعتقون أرقاءهم ، ويشترون أرقاء غيرهم ويعتقونهم ، حتى نال أرقاء الجاهلية كلهم حريتهم قبل انقضاء عهد الخلفاء الراشدين . أما قضية الرق بالنسبة للمستقبل ، فعالجها الإسلام بأن حرم تحريماً باتاً أن يؤسر حرّ ويسترق فيباع ويشترى . فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خَصْمَه خصَمتهُ : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره .. » رواه البخاري وغيره . غير أن الإسلام قد أذن – نعم ، أذن فقط ولم يأمر – باستعباد أسارى الحرب في ما إن كانت حكومتهم لا ترضى باستردادهم من الدولة الإسلامية بمن بيدها من أساراها ، ولا هم يفدون أنفسهم بأنفسهم . ولكن مع ذلك فقد ترك الإسلام مجالاً واسعاً في وجوههم لأن يشتروا حريتهم بالمكاتبة ، كما أبقى في حقهم جميع التعاليم والأحكام المتعلقة بتحريض الناس على منح الحرية لأرقائهم القدماء ، أي تحريرهم ابتغاء لمرضاة الله أو تكفيراً للذنوب ، أو وصية الرجل عند وفاته بعتق رقيقه بعده – وهو ما يعبر عنه بالتدبير في المصطلح الإسلامي – أو نيل الأَمَة حريتها مع وفاة سيدها ، سواء أكان أوصى بعتقها أو لم يوص ، إن كان استمتع منها فولدت له ولداً . فهذا هو الحل الموفق الذي عالج به الإسلام قضية الرق . فالجهّال لا يدركون حقيقة هذه القضية في الإسلام فيوردون عليها أنواعاً من الاعتراضات ، وبالجانب الآخر أن محترفي الاعتذار لا يعتذرون عن قضية الرق فحسب ، بل وينكرون أصلاً إباحة الإسلام للرق في أي صورة من صورها) .

كلمة في السياق :

جاء النهي عن إكراه الإماء على الزنا بعد الكلام عن إنكاح الإماء والعبيد ومكاتبتهم ، لعلاقة ذلك ببعضه بعضاً ، والصلة بين ذلك وبين السورة كلها واضحة ، فبعد أن تحدث السياق عن كل ما يتعلق ويحيط بموضوع الزنا ، كان من المناسب أن يذكر في آخر هذا المقطع المؤلف من أربع مجموعات هذا الموضوع ، ثم هو حكم من أحكام الإسلام الذي أمرنا في الدخول فيه كله ، والإكراه عمل من أعمال الشيطان وهو زلل ، يقتضي أن يعرف ما ينبغي فعله إذا وجد ، وهي معان ترتبط كلها بمحور السورة ، ولم يبق عندنا من المجموعة الرابعة ، إلا آية هي خاتمة هذه المجموعات الأربع ، التي تشكّل المقطع الأول من السورة فلنرها :

﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات** ﴾ قال ابن كثير : يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسّرات ، ومن الآيات الواضحات آيات هذه السورة التي اجتمع فيها من الإعجاز الكثير ﴿ **ومثلاً من الذين خلَوْا من قبلكم** ﴾ قال ابن كثير : أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى ﴿ **فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ **وموعظة للمتقين** ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم لمن اتقى الله وخافه ، أي هم المنتفعون بها وإن كانت موعظة للكل ، وقد وضح من هذه الآية أنّ في القرآن معجزات ودلالات تدل على الله ، وأن فيه قصصاً وعبراً ، وأنّ فيه موعظة وتذكيراً ، فمن لم ير في الآيات ، ومن لم يعتبر بما قصّه الله علينا في هذا القرآن ، ومن لم يتذكر ويتعظ بهذا القرآن ، فإنّه يكون بينه وبين القرآن حجاب ، وقد جاءت هذه الآية قبل المقطع الثاني الذي فيه أروع حديث عن الله عزّ وجلّ ، فهو نموذج كامل على أنّ القرآن آيات بيّنات وعلى أنه واعظ ومذكّر ، كما جاءت خاتمة لمقطعها الذي فصّل وبيّن ووعظ وذكّر فهي في محلّها تخدم ما قبلها وما بعدها .

كلمة في المقطع الأول :

تألّف المقطع الأول من أربع مجموعات ، بينها من الصلات والترابط ما رأيناه ، وكلها يخدم تفصيل قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا**

أن الله عزيز حكيم ﴾ وقد رأينا صلة كل مجموعات المقطع بهاتين الآيتين بما يغني عن إعادته هنا ، لقد عمّقت المجموعات الأربع معنى الدخول في الإسلام وعمّقت موضوع ترك اتباع خطوات الشيطان ، وعمّقت موضوع عدم الوقوع في الزلل ، ودلّت على الطريق الواجب اتّباعه للبعد عن الزلل ، وللتوبة منه حين الوقوع فيه ، وقد بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلّكم تذكرون** ﴾ ثمّ سار المقطع ضمن مواضيع متعانقة حتى استقرّ على الآية ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلَوْا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ لاحظ الصلة بين أول آية في المقطع ، وبين آخر آية فيه ، فإذا ما أضيف إلى هذا أنّ آيات المقطع الثاني ذات موضوع جديد ﴿ **الله نور السماوات والأرض** ﴾ فهذا وذلك يدل على أن مقطعاً قد انتهى ، وأن مقطعاً جديداً قد جاء ، وقد عرض المقطع الأول علينا بعض فرائض الله عز وجل ، كما أنّه قد عرض بعض الآيات الواضحات ، كما أنّه ذكّرنا ووعظنا ، وذلك كله قد تضمّنته آيتا البدء والختام .

نقول :

قال ابن تيمية رحمه الله بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم** ﴾ .. والنظر إلى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم ، والمرأة الأجنبية بالشهوة ، سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو كانت شهوة التلذذ بالنظر ، كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، وإذ كان معلوماً لكل أحد أن هذا حرام فكذلك النظر إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة .

وقول القائل : إن النظر إلى وجه الأمرد عبادة كقوله إن النظر إلى وجوه النساء ، والنظر إلى محارم الرجل كبنت الرجل وأمه وأخته عبادة ، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة ، فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة قال الله تعالى ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ (الأعراف : ٢٨) ومعلوم أنه قد يكون في صور النساء الأجنبيات وذوات المحارم من الاعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صور المردان ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر بهذا الوجه إلى صور النساء نساء العالمين وصور محارمه ؛ ويقول إن ذلك عبادة ، بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفاحشة عبادة ، أو

جعل تناول يسير الخمر عبادة ، أو جعل السكر من الحشيشة عبادة .

فمن جعل المعاونة بقيادة أو غيرها عبادة ، أو جعل شيئاً من المحرمات التي يعلم تحريمها في دين الإسلام عبادة ، فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل وهو مضاهاة للمشركين الذين إذا فعلوا الفاحشة ﴿ **قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ وفاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراة ، وكانوا يقولون لا نطوف في الثياب التي عصينا الله فيها ، فهؤلاء إنما كانوا يطوفون عراة على وجه اجتناب ثياب المعصية ، وقد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن جعل جنس الفاحشة المتعلقة بالشهوة عبادة .

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر ، وهو نوعان : غض البصر عن العورة ، وغضها عن محل الشهوة ، فالأول كغض الرجل بصره عن عورة غيره ، كما قال النبي ﷺ « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة » ويجب على الإنسان أن يستر عورته ، كما قال لمعاوية بن حيدة[1] « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك قلت : فإذا كان أحدنا مع قومه ؟ قال : إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها قلت : فإذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يستحيا منه من الناس » ويجوز كشفها بقدر الحاجة كما تنكشف عند التخلي . ولذلك إذا اغتسل الرجل وحده بحيث يجد ما يستره فله أن يغتسل عرياناً ، كما اغتسل موسى[2] عرياناً وأيوب[3] ، وكما في

---

(١) الحديث رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة القشيري الصحابي المشهور قال قلت : يا رسول الله : عوراتنا ما نأتي منها وما نذر فذكر الحديث . وبهز وأبوه ليسا من شرط البخاري ولذلك فقد رواه معلقاً .

(٢) حديث اغتسال موسى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر » إلى آخر الحديث المتفق عليه .

صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٣٨٥ / ١ . ، المنتقى بشرح نيل الأوطار ٣٩٧ / ١ .

(٣) وحديث اغتسال أيوب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بينا أيوب يغتسل عرياناً فخر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحتثي في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ولكن لا غنى لي عن بركتك » . صحيح البخاري بشرح الفتح ٣٨٧ / ١ .

اغتسال النبي ﷺ يوم[1] الفتح ، واغتساله في حديث ميمونة[2] .

وأما النوع الثاني من النظر كالنظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية فهذا أشد من الأول ، كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعلى صاحبها الحد ، وتلك المحرمات إذا نظر لها مستحلًا لها كان عليه التعزير ، لأن هذه المحرمات لا تشتهيها النفوس كما تشتهي الخمر ، وكذلك النظر إلى عورة الرجل لا يُشتهىٰ كما يُشتهىٰ النظر إلى النساء ونحوهن ، وكذلك النظر إلى الأمرد بشهوة هو من هذا الباب ، وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك ، كما اتفقوا على تحريم النظر إلى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة ، والخالق سبحانه يسبح عند رؤية مخلوقاته كلها ، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذي اللحية ، ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرجال ، فتخصيص الإنسان بالتسبيح نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه بالتسبيح بنظره إلى المرأة دون الرجل ، وذاك لأنه أدل على عظمة الخالق عنده ، ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله وقد يذهله ما رآه فيكون تسبيحه لما حصل في نفسه من الهوى ، كما أن النسوة لما رأين يوسف ﴿ **أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ (يوسف ٣١) وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال ، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ، فكيف يفضل الشخص بما لم يفضله الله به .

وقد قال تعالى ﴿ **ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه** ﴾ (طه : ١٣١) وقال في المنافقين ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن**

---

(١) من ذلك حديث أم هانىء بنت أبي طالب : « ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره ، فقال : من هذه ؟ فقلت : أم هانيء » . صحيح البخاري بشرح الفتح ١ / ٣٨٧ .

(٢) حديث ميمونة بنت الحارث ورواه عنها ابن عباس قالت : « وضعت لرسول الله ﷺ غسلاً وسترته فصب على يده فغسلها مرة أو مرتين – قال سليمان (الأعمش أحد رواة الحديث) لا أدري أذكر الثالثة أم لا – ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل فرجه ، ثم دلك يده بالأرض أو بالحائط ، ثم تمضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه وغسل رأسه ثم صب على جسده ثم تنحى فغسل قدميه ، فناولته خرقة فقال بيده هكذا ولم يردها » والحديث رواه الجماعة . الصحيح بشرح الفتح ٣٧٥ / ١ المنتقى بشرح نيل الأوطار ٢٧٨ / ١ .

يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله ﴾ (المنافقون : ٤) فإذا كان هؤلاء المنافقون الذين تعجب الناظر أجسامهم ؛ لما فيهم من البهاء والرواء والزينة الظاهرة ، وليسوا ممن ينظر إليه لشهوة قد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن ينظر إليه لشهوة ، وذلك أن الإنسان قد ينظر إليه لما فيه من الإيمان والتقوى ، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته ، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور ، فهذا حسن ، وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه كما ينظر إلى الخيل والبهائم . وكما ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار ، فهذا أيضاً إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم . بقوله ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه** ﴾ وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط ، كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق .

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراماً بلا ريب ، سواء كانت شهوة تمتع النظر بالشهوة ، أو كان نظراً بشهوة الوطء ، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى النسوان والمردان ، فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي ، فصار النظر إلى المردان ثلاثة أقسام : أحدها ما تقترن به الشهوة ، فهو محرم بالاتفاق ، والثاني ما يجزم أنه لا شهوة معه ، كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن ، وابنته الحسنة ، وأمه الحسنة ، فهذا لا تقترن به شهوة ، إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ، ومتى اقترن به الشهوة حرم .

وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان ، كما كان الصحابة ، وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة ، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي ، لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة ، لأنه لم يعتد ذلك ، وهو سليم القلب من قبل ذلك ، وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات متكشفات الرؤوس ، ويخدمن من الرجال مع سلامة القلوب ، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات ، كما كان أولئك الإماء يمشين ، كان هذا من باب الفساد ، وكذلك المرد الحسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم ، إلا بقدر الحاجة ، فلا يمكّن الأمرد الحسن من التبرج ، ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ، ولا من رقصه بين الرجال ، ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس ، وهو النظر إليه كذلك .

وإنما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر ، وهو النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها ، ففيه وجهان . في مذهب أحمد أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي ، وغيره أنه لا يجوز ، والثاني يجوز لأن الأصل عدم ثورانها ، فلا يحرم بالشك بل قد يكره ، والأول هو الراجح ، كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز ، وإن كانت الشهوة منتفية ، لكن لأنه يخاف ثورانها ، ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية لأنها مظنة الفتنة ، والأصل أن كل ما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز ، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة ، ولهذا كان هذا النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرماً ، إلا إذا كان لحاجة راجحة ، مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما ، فإنه يباح النظر للحاجة ، لكن مع عدم الشهوة ، وأما النظر لغير حاجة محل الفتنة فلا يجوز .

ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه ، وقال : إني لا أنظر لشهوة ، كذب في ذلك ، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر ، لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك .

وأما نظر الفجأة فهو عفو ، إذا صرف بصره ، كما ثبت في الصحاح عن جرير قال سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك » رواه مسلم ، وأحمد ، وفي السنن أنه قال لعلي رضي الله عنه « يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية » : وفي الحديث الذي في المسند وغيره « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » : وفيه « من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها يوم القيامة » أو كما قال .

ولهذا يقال : إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر :

إحداها : حلاوة الإيمان ، ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والنفس تحب النظر إلى هذه الصور ، لاسيما نفوس أهل الرياضة والصفا ، فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع .

ولهذا قال بعض التابعين : ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه

من حدث جميل يجلس إليه ، وقال بعضهم : اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن فتنتهم كفتنة العذارى ، ومازال أئمة العلم والدين كأئمة الهدى وشيوخ الطريق يوصون بترك صحبة الأحداث ، حتى يروى عن فتح الموصلي أنه قال : صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث ، وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان .

ثم النظر يولد المحبة ، فتكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم صبابة لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب كالغريم الملازم لغريمه ، ثم عشقاً إلى أن يصير تتيما ، والمتيَّم المعبد ، وتيم الله : عبدالله ، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا خادماً ، وهذا إنما يبتلى به أهل الأعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك ، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله في حق يوسف عليه السلام ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ (يوسف : ٢٤) فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف عليه السلام مع عزوبيته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة ، وعقوبتها له بالحبس على العفة ، عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله ﴿ **لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ (الحجر : ٣٩ ، ٤٠) قال تعالى ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ (الحجر : ٤٢)والغي : هو اتباع الهوى .

وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى ، ومن أمر بعشق الصور من المتفلسفة كابن سينا وذويه ، أو من الفرس ، كما يذكر عن بعضهم من جهال المتصوِّفة ، فإنهم أهل ضلال ، فهم مع مشاركة اليهود في الغي ، والنصارى في الضلال ، زادوا على الأمتين في ذلك ، فإن هذا – وإن ظن أن فيه منفعة للعاشق كتلطيف نفسه وتهذيب أخلاقه ، أو للمعشوق من السعي في مصالحه وتعليمه وتأديبه ، وغير ذلك – فمضرة ذلك أضعاف منفعته ، وأين إثم ذلك من نفعه .

وإنما هذا كما يقال إن في الزنا منفعة لكل منهما ، بما يحصل له من اللذة والسرور ، ويحصل لها من الجعل وغير ذلك ، وكما يقال : إن في شرب الخمر منافع بدنية ونفسية : وقال تعالى في الخمر والميسر ﴿ **قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعهما** ﴾ (البقرة : ٣٢٩) وهذا قبل التحريم ، دع ما قاله عند التحريم ، وبعده ، فإن التعبد بهذه الصور هو من جنس الفواحش ، وباطنه من باطن الفواحش ، وهو من

باطن الإثم قال الله تعالى ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه** ﴾ (الأنعام : ١٢٠) وقال تعالى ﴿ **قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ (الأعراف : ٣٣) وقال تعالى ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ (الأعراف : ٢٨) .

وليس بين أئمة الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحب ، كما أنه ليس بواجب ، فمن جعله ممدوحاً وأثنى عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود والنصارى ، بل وعما عليه عقلاء بني آدم من جميع الأمم ، وهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ (القصص : ٥٠) وقال تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ (النازعات : ٤٠) وقال تعالى ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ (سورة صٓ : ٢٦) .

وأما من نظر إلى المردان ظاناً أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي ، وجعل هذا طريقاً إلى الله ، كما يفعله طوائف من المدّعين للمعرفة ، فقوله هذا أعظم كفراً من قول عبّاد الأصنام ، ومن كفر قوم لوط ، فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين الذين يجب قتلهم بإجماع كل أمة ، فإن عباد الأصنام قالوا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء يجعلون الله سبحانه موجوداً في نفس الأصنام وحالاً فيها ، فإنهم لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات أنها أدلة عليه ، وآيات له ، بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيها وتجلى فيها ، ويشبهون ذلك بظهور الماء في الصوفة ، والزبد في اللبن والزيت في الزيتون والدهن في السمسم ، ونحو ذلك مما يقضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته أو اتحاده فيها ، فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله النصارى في المسيح خاصة ، ثم يجلون المردان مظاهر الجمال ، فيقرون هذا الشرك الأعظم طريقاً إلى استحلال الفواحش بل استحلال كل محرم ، كما قيل لأفضل مشايخهم ... إذا كان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق ، فما الفرق بين أمي وأختي وبنتي ، حتى يكون هذا حلالاً وهذا حراماً ؟ ، قال : الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ومن هؤلاء الحلولية والاتحادية من يخص الحلول والاتحاد ببعض الأشخاص . إما ببعض الأنبياء كالمسيح ، أو بعض الصحابة ، كقول الغالية في علي أو ببعض الشيوخ

كالحلاجية ونحوهم ، أو ببعض الملوك أو ببعض الصور كصور المردان ، ويقول أحدهم : إنما أنظر إلى صفات خالقي وأشهدها في هذه الصورة ، والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن بالله ورسوله ، ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافراً ، فكيف إذا قاله في صبي أمرد ، فقبَّح الله طائفة يكون معبودها من جنس موطوئها .

وقد قال تعالى ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ (آل عمران : ٨٠) فإذا كان من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله كفاراً ، فكيف بمن اتخذ بعض المخلوقات أرباباً مع قوله إن الله فيها أو متحد بها ، فوجوده وجودها ، ونحو ذلك من المقالات .

(وأما الفائدة الثانية في غض البصر ،) فهو يورث نور القلب والفراسة ، قال تعالى عن قوم لوط ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ (الحجر : ٧٢) فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمى البصيرة ، وسكر القلب ، بل جنونه كما قيل .

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وقيل أيضاً :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر فقال ﴿ **الله نور السمٰوات والأرض** ﴾ وكان شاه بن شجاع الكرماني[1] لا تخطىء له فراسة وكان يقول : من عمّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات وذكر خصلة خامسة أظنه هو أكل الحلال - لم تخطىء له فراسة ، والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، فيطلق نور بصيرته ، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ، ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب .

(الفائدة الثالثة) قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة ، فإن في الأثر : الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه ، وإن الله جعل

(١) كان رحمه الله ورضي عنه من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشمي وأبا عبيد البسري وأولئك الطبقة وكان أحد الفتيان كبير الشان مات قبل الثلاثمائة .

العزه لمن أطاعه والذلّة لمن عصاه قال تعالى ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ (المنافقون : ٨) وقال تعالى ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (آل عمران : ١٣٩) .

ولهذا كان في كلام الشيوخ : الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله : وكان الحسن البصري يقول : إن هملجت بهم البراذين ، وطقطقت بهم البغال ، فإن ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه ، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفي دعاء القنوت « إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت » .

والصوفية المشهورون عند الأمة الذين لهم لسان صدق في الأمة لم يكونوا يستحسنون مثل هذا ، بل ينهون عنه ، ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث وفي الرد على أهل الحلول ، وبيان مباينة الخالق مالا يتسع هذا الموضع لذكره ، وإنما استحسنه من يتشبه به مما هو عاص أو فاسق أو كافر ، فيظاهر بدعوى الولاية ، لله وتحقيق الإيمان والعرفان وهو من شر أهل العداوة لله ، وأهل النفاق والبهتان ، والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة ، ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة ، والله سبحانه أعلم) .

قال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضُضْن من أبصارهن ..** ﴾ :

(فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه كالعورات من الرجال والنساء ، وهي ما بين السرّة والركبة ، وفي الزواجر لابن حجر المكي كما يحرم نظر الرجل للمرأة ، يحرم نظرها إليه ولو بلا شهوة ولا خوف فتنة ، نعم إن كان بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة ، نظر كل إلى ما عدا ما بين سرة الآخر وركبته . والمذكور في بعض كتب الأصحاب إن كان نظرها إلى ما عدا ما بين السرة والركبة بشهوة حرم ، وإن بدونها لا يحرم . نعم غضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن ، فقد أخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي والبيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت : فبينا نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه فقلت : يا رسول الله هو أعمى لا يبصر قال : أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه ؟ » ، واستدل به من قال بحرمة نظر المرأة إلى شيء من الرجل الأجنبي مطلقاً ، ولا يبعد القول بحرمة نظر المرأة المرأة إلى ما عدا ما بين السرة والركبة ، إذا كان بشهوة ، ولا تستبعد وقوع هذا النظر ، فإنه كثير ممن يستعملن

السحاق من النساء والعياذ بالله تعالى ﴿ **ويحفظن فروجهن** ﴾ أي عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ، أو من الإبداء ، أو مما يعم ذلك والإبداء ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ أي ما يتزين به من الحُلي ونحوه ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ أي إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره ، والأصل فيه الظهور ، كالخاتم والفتخة ، والكحل ، والخضاب ، فلا مؤاخذة في إبدائه للأجانب ، وإنما المؤاخذة في إبداء ما خفي من الزينة ، كالسوار ، والخلخال ، والدملج ، والقلادة ، والإكليل ، والوشاح والقرط) .

(المشهور من مذهب الإمام أبي حنيفة أن مواقع الزينة الظاهرة من الوجه والكفين والقدمين ليست بعورة مطلقاً فلا يحرم النظر إليها ، وقد أخرج أبو داود . وابن مردويه . والبيهقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها ، وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه ﷺ » ، وأخرج ابن أبي شيبة . وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ رقعة الوجه وباطن الكف ، وأخرجا عن ابن عمر أنه قال : الوجه والكفان ، ولعل القدمين عندهما كالكفين ، إلا أنهما لم يذكراهما اكتفاء بالعلم بالمقايسة ، فإن الحرج في سترهما أشد من الحرج في ستر الكفين ، لاسيما بالنسبة إلى أكثر نساء العرب الفقيرات اللاتي يمشين لقضاء مصالحهن في الطرقات) .

وعند قوله تعالى ﴿ **أو نسائهن** ﴾ قال الألوسي :

(المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات ، فإن الكوافر لا يتحرجن أن يصفنهن للرجال ، فهن في إبداء الزينة لهن كالرجال الأجانب ، ولا فرق في ذلك بين الذمية وغيرها ، وإلى هذا ذهب أكثر السلف *

وأخرج سعيد بن منصور . وابن المنذر . والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه أما بعد : فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فانْهَ من قبلك عن ذلك فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تنظر إلى عورتها إلا من كانت من أهل مِلّتها . وفي روضة النووي في نظر الذمية إلى المسلمة وجهان : أصحهما ما عند الغزالي أنها كالمسلمة ، وأصحهما عند البغوي المنع ، وفي المنهاج له الأصح تحريم نظر ذمية إلى مسلمة ، ومقتضاه أنها معها كالأجنبي ، واعتمده جمع من الشافعية ، وقال ابن حجر .

الأصح تحريم نظرها إلى ما لا يبدو في المهنة من مسلمة غير سيدتها ، ومحرمها ، ودخول الذميات على أمهات المؤمنين الوارد في الأحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها ما يبدو في المهنة . وقال الإمام الرازي : المذهب أنها كالمسلمة ، والمراد بنسائهن جميع النساء ، وقول السلف محمول على الاستحباب وهذا القول أرفق بالناس اليوم فإنه لا يكاد يمكن احتجاب المسلمات عن الذميات) .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها** ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة من آداب الاستئذان وأدلتها . ونحن نجتزىء لك من كلامه ما يلي : (قال : وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف ، كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر : لتأتيني على هذا ببيّنة وإلا أوجعتك ضرباً ، فذهب إلى ملأ من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدري ، فأخبر عمر بذلك ، فقال ألهاني عنه الصفق بالأسواق . » وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أبي عمرو الأوزاعي سمعت يحيىٰ بن أبي كثير يقول : حدثني محمد ... عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فرد سعد ردّاً خفيا قال قيس : قلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » فرد سعد ردّاً خفيّاً ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع رسول الله واتبعه سعد ، فقال : يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردّاً خفيّاً لتكثر علينا من السلام ؛ قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ، ثمّ رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . قال ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حماراً قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ ، فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ﷺ ،

قال قيس : فقال رسول الله ﷺ « اركب » فأبيت فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » قال : فانصرفت ، وقد روي هذا من وجوه أخرى فهو حديث جيد قوي والله أعلم . ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره ، لما رواه أبو داود : حدثنا مؤمّل بن الفضل الحراني في آخرين قالوا : حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبدالرحمن عن عبدالله بن بشر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول « السلام عليكم السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور ، انفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضاً حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير حينئذ قال أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حفص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل فقال عثمان : سعد ، فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب ، قال عثمان : مستقبل الباب فقال له النبي ﷺ « هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر » وقد رواه أبو داود الطيالسي عن سفيان الثوري عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي ﷺ رواه أبو داود من حديثه ، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لو أن أمرءًا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبي ﷺ في ديْن كان على أبي ، فدققت الباب فقال : « من ذا » فقلت أنا ، قال : أنا أنا ؟! كأنه كرهه ، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه ، أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية .

وقد روى الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني عمرو بن أبي سفيان أن عمرو بن أبي صفوان أخبره أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وجداية وضغابيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي ، قال : فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلِّم ولم استأذن ، فقال ﷺ « ارجع فقل السلام عليكم أأدخل » . وذلك بعد ما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به ، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربعي قال أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « أخرج إلى هذا

فعلمه الاستئذان فقل له : قل السلام عليكم أأدخل » فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل ، فأذن له النبي ﷺ فدخل . وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس عن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال أألج أو أنلج ؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها روضة : « قومي إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل » فسمعها الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل فقال « ادخل » .

وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم . وأخواتكم . وقال أشعث عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها ، لا والد ولا ولد ، وأنه لايزال يدخل عليّ رجل من أهلي ، وأنا على تلك الحال . قال فنزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً** ﴾ الآية . وقال ابن جريج سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ثلاث آيات جَحَدهُن الناس . قال الله تعالى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات : ١٣)قال : ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً ، قال والأدب كله قد جحده الناس ، قال قلت : أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد ؟ قال : نعم فرددت عليه ليرخص لي ، فأبى فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا . قال : فاستأذن ، قال فراجعته أيضاً : أتحب أن تطيع الله ؟ قال قلت : نعم . قال فاستأذن . قال ابن جريج وأخبرني ابن طاووس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد في ذلك وقال ابن جريج عن الزهري : سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم ، وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ؛ لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن حازم عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخي زينب امرأة عبدالله بن مسعود ، عن زينب رضي الله عنها قالت : كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق ؛ كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . إسناده صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا عبدالله بن نمير ، حدثنا الأعمش عن

عمرو بن مرة عن أبي عبيدة قال : كان عبدالله إذا دخل الدار استأنس تكلّم ورفع صوته . وقال مجاهد ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ قال تنحنحوا أوتنخموا . وعن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً ، وفي رواية ليلاً يتخونهم ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء – يعني آخر النهار – حتي تمتشط الشعثة ، وتستحد المغيبة » . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبدالرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثنا أبو ثورة بن أخي أبي أيوب عن أبي أيوب قال : قلت : يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال « يتكلم الرجل بتسبيحة ، أو تكبيرة ، أو تحميدة ، ويتنحنح ، فيؤذن أهل البيت » هذا حديث غريب ، وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ هو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع ، أما الأولى فليسمع الحي ؛ وأما الثانية فليأخذوا حذرهم . وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم ، فإن للناس حاجات ، ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها** ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حييت صباحاً ، وحييت مساءً . وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : قد دخلت ، ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله . فغيَّر الله ذلك كله ، في ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ الآية وهذا الذي قاله مقاتل حسن) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...** ﴾

قال ابن كثير : (هو أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد ... عن جرير بن عبدالله البجلي

رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري وكذا رواه الإمام أحمد ... وفي رواية لبعضهم فقال « أطرق بصرك » يعني : انظر إلى الأرض ، والصرف أعم ، فإنه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى ، والله أعلم ، وقال أبو داود ... عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعليّ : « يا عليّ لا تُتبع النظرة النظرة ؛ فإنّ لك الأولى وليس لك الآخرة » وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » ، قالوا يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقَّه قالوا وما حقّ الطريق يا رسول الله ؟ قال « غضُّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » وقال أبو القاسم البغوي حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضيل بن حسين ، سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لي ستاً أكفل لكم الجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » وفي صحيح البخاري « من يكفل لي ما بين لحييه ، وما بين رجليه ، أكفل له الجنة » وقال عبدالرزاق : أنبأنا معمر عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : كل ما عصي الله به فهو كبيرة ، وقد ذكر الطرفين فقال **﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ﴾** ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف : النظر سهم سمّ إلى القلب . ولذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك فقال تعالى **﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾** وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، كما قال تعالى **﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾** الآية (المعارج : ٢٩) . وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك » **﴿ ذلك أزكى لهم ﴾** أي أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته ، ويروى في قلبه . وروى الإمام أحمد حدثنا عتاب حدثنا عبدالله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أبي أيوب عن عبيد الله بن زحر ، عن علي ابن زيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » وروى هذا مرفوعاً عن أبي عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم ، ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب ، ومثله يتسامح فيه ، وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن عليّ بن

يزيد ، عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً « لتغضن أبصاركم ، ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمن وجوهكم ، أو لتكسفن وجوهكم » .

وقال الطبراني حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحيىٰ بن أبي بكير حدثنا حريم بن سفيان عن عبدالرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » وقوله تعالى ﴿ **إن الله خبير بما تصنعون** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ (غافر : ١٩) وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطى ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » رواه البخاري تعليقاً ، ومسلم مسنداً من وجه آخر بنحو ما ذكر . وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ؛ لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً ، وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدني حدثنا عمر بن سهل المازني حدثني عمر بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل عين باكية يوم القيامة ، إلا عيناً غضت من محارم الله ، وعيناً سهرت في سبيل الله ، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل) .

٣ - ذكر ابن كثير مجموع ما قاله العلماء في الآية ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ...** ﴾ ونلاحظ أن بعض الآيات كان للعلماء فيها وجهتا نظر ، كستر الوجه مثلاً ، فمنهم من يعتبره مفروضاً ، وقد عرض ابن كثير أدلة الطرفين ، والذي نراه في هذا الموضوع وغيره أن القول الأدنى هو الرخصة ، والقول الأعلى هو العزيمة ، ومادام المسلم في الأدنى فلا حرج ، وإذا ارتقى إلى الأعلى فذلك الأكمل ، وهذه وجهة نظر لبعضهم ، إذ يرى أنّ كلّ ما اختلف فيه أئمة الاجتهاد فإنه يدور ما بين رخصة وعزيمة ، والورع هو الأطيب ، ولا يحق للآخذ بالرخصة أن ينكر على من يبتغي الكمال ، كما ليس للعامل في العزيمة أن يطالب كل الناس بالحد الأعلى ، ثم إذا ترجّح لأحد وجهة نظر لدليل - وخاصة إذا كان من أهل النظر - فعليه أن يعمل به ، وله أن يدعو له

بالإحسان ، ولكن ليس له أن يشتد على من خالفه مادام على رأي للأئمة ، وفي هذا المقام نحب أن نسجّل ملاحظة : هي أن هناك أقوالاً تسع عصراً من العصور ، فمن المصلحة في هذه الحالة ألا نعارض مثل هذه الأقوال ، إذا كان عليها بعض أئمة الاجتهاد ، لأنّ طاقة الناس ليست واحدة في مجابهة الضغوط الاجتماعية ، فإذا اتضح هذا المقام فلننقل كلام ابن كثير كله في هذه الآية ؛ فإنّه استوعب الأقوال كلها قال في الآية : (هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرةً منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية ، وفعال المشركات ، وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكر مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبدالله الأنصاري حدّث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات ، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ الآية ، فقوله تعالى ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ أي عَمَّا حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً ، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري ... أن أم سلمة كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة فقالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أوعمياوان أنتما ، أو ألستما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه ، وهو يسترها منهم ، حتى ملّت ورجعت . وقوله ﴿ **ويحفظن فروجهن** ﴾ قال سعيد بن جبير : عن الفواحش ، وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن ، وقال مقاتل : عن الزنا ، وقال أبو العالية : كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية ﴿ **ويحفظن فروجهن** ﴾ أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه ، قال ابن مسعود : كالرداء والثياب ، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب ، فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ،

ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه ، وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ قال وجهها وكفيها والخاتم . وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك ، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبدالله قال في قوله ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ الزينة القرط والدملج والخلخال والقلادة ، وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان : فزينة لايراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري : لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ الخاتم والخلخال ، ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه ، حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ، ومؤمل بن الفضل الحراني قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل . خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم ، وقوله تعالى ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ يعني المقانع ، يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ؛ ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ؛ فإنهن لم يكنّ يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها ، وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ (الأحزاب : ٥٩) وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ والخُمُر : جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس ، وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير ﴿ **وليضربن** ﴾ وليشددن ﴿ **بخمرهن على جيوبهن** ﴾ يعني : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شيء وقال البخاري وقال أحمد بن شبيب :

حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها . وقال أيضاً حدثنا أبو نعيم حدثنا إبراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول لما نزلت الآية ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ : أخذن أزرهن فشققنها من قِبَل الحواشي فاختمرن بها . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس حدثني الزنجي بن خالد حدثنا عبدالله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن ، فقالت عائشة رضي الله عنها : إن لنساء قريش لفضلاً ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، وأشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لقد أنزلت سورة النور ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وبنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحّل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات ، كأن على رؤوسهن الغربان . ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أن قرقرة بن عبدالرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ شققن أكنف مروطهن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به ، وقوله تعالى ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن** ﴾ أي أزواجهن ﴿ **أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن** ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر بزينتها ، ولكن من غير تبرج ، وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى - يعني ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبة - حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن** ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ، ولا الخال ، لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنَّع له بما لا يكون بحضرة غيره . وقوله ﴿ **أو نسائهن** ﴾ يعني : تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد ؛ فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك

حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » وأخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود ، وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد فإنه بلغني أن نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل مِلّتها . وقال مجاهد في قوله ﴿ **أو نسائهن** ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة . وروى عبدالله في تفسيره عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ **أو نسائهن** ﴾ قال : هنّ المسلمات ، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لايحل أن يراه إلا محرم ، وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ **أو نسائهن** ﴾ فليست من نسائهن . وعن مكحول وعبادة بن نسي أنهما كرها أن تقبِّل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة ، فأما ما رواه ابن أبي حاتم عن عطاء قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات ، فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ **أو ما ملكت أيمانهن** ﴾ قال ابن جرير يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها ، وإليه ذهب سعيد بن المسيب ، وقال الأكثرون بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها ، وعلى فاطمة ثوب ، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقي قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » . وقد ذكر الحافظ بن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية أن عبدالله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لا بنته فاطمة فربته ثم أعتقته . ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروى الإمام أحمد عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكن مكاتب ، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه » ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به . وقوله تعالى ﴿ **أو**

التابعين غير أولي الإربة من الرجال ﴾ يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وَلَهٌ، ولا همَّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن. قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنَّث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف. وفي الصحيح من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة، يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله ﷺ «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلَنَّ عليكم» فأخرجه، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة يستطعم. وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث وعندها عبدالله ابن أمية يعني أخاها والمخنث يقول: يا عبدالله إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة «لا يدخلَنَّ هذا عليك» أخرجاه في الصحيحين من حديث هشام بن عروة. وقال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنثاً، وكانوا يعدُّونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة، فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا، لا يدخلَنَّ عليكم هذا» فحجبوه ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق عبدالرزاق به عن أم سلمة. وقوله تعالى ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾ يعني لصغرهم، لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطّفهن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكَّن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «إيّاكم والدخول على النساء» قيل يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال «الحمو الموت» وقوله تعالى ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن** ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق، وفي رجلها خلخال صامت، لا يُعلَم صوته ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذا إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي ولقوله تعالى ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن** ﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطّر والتطيّب عند خروجها من بيتها، فيشم الرجال طيبها، فقد قال أبو

عيسى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » . يعني زانية ، قال : وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حسن صحيح ورواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به . وقال أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار ، فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال إني سمعت حبيبي أبا القاسم ﷺ يقول : « لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة » ورواه ابن ماجه . عن أبي بكر بن أبي شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به . وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » .

ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق ، لما فيه من التبرج قال أبو داود عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ للنساء : « استأخرن فإنه ليس لكنَّ أن تحتضن الطريق ، عليكنَّ بحافات الطريق » فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به . وقوله تعالى ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان) .

٤ - عند قوله تعالى ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ قال ابن كثير : (هذا أمر بالتزويج وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر ، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنّه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء » أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « تزوجوا الولود تناسلوا ؛ فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفي رواية « حتى بالسقط » والأيامى : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها ، وللرجل الذي لا زوجة له ،

وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهري عن أهل اللغة ، يقال رجل أيِّم وامرأة أيِّم وقوله ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ الآية . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : رغَّبهم الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى فقال ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ وقال ابن أبي حاتم ... أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النّكاح ، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى ﴿ **إنْ يكونوا فقراء يغنهمَ الله من فضله** ﴾ وعن ابن مسعود « التمسوا الغنى في النّكاح » يقول الله تعالى ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ رواه ابن جرير وذكر البغوي عن عمر نحوه وعن الليث ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم : النّاكح يريد العفاف ، والمكاتَب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » وقد زوّج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يكن عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوَّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلِّمها ما معه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله ، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له ، ولم أره باسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن . وفي القرآن غنية عنه ، وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها ولله الحمد والمنة) .

٥ – وعند قوله تعالى ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ قال ابن كثير : (هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنّه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنّه له وجاء » الحديث ، وهذه الآية مطلقة ، والتي في سورة النساء أخصّ منها وهي قوله ﴿ **ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **وأن تصبروا خير لكم** ﴾ أي صبركم عن تزوّج الإماء خير لكم ، لأنّ الولد يجيء رقيقاً قال عكرمة في قوله ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً** ﴾ قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر إلى ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله) .

٦ – رأينا أن هناك اتجاهين للمفسرين في قوله تعالى ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم**

خيراً ﴾ هل هذا الأمر للندب أو هو للوجوب ، ولننقل كل ما قاله ابن كثير في هذا الموضوع : ثم نعقّب تعقيباً خفيفاً على موضوع الرق .

قال ابن كثير : (هذا أمر من الله تعالى للسادة ، إذا طلب عبيدهم منهم أن يكاتبوهم ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخيّر إذا طلب منه عبده الكتابة ، إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه ، قال الثوري عن جابر عن الشعبي : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه ، وكذا روى ابن وهب ... عن عطاء بن أبي رباح : إن يشأ كاتبه ، وإن يشأ لم يكاتبه ، وكذا قال مقاتل بن حيان والحسن البصري ، وذهب آخرون إلى إنّه يجب على السيّد إذا طلب منه عبده أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال البخاري ، وقال روح ابن جريج قلت لعطاء : أواجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً ، وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة ، وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر رضي الله عنه ، فقال : كاتبه ، فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ فكاتبه هكذا ذكره البخاري معلقاً ، ورواه عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء : أواجب عليّ إذا علمت له مالاً أن أكاتبه ؟ قال ما أراه إلا واجباً . وقال ابن جرير ... عن أنس بن مالك أنّ سيرين أراد أن يكاتبه فتلكأ عليه ، فقال له عمر لتكاتبنه . إسناد صحيح ، وروى سعيد بن منصور ... عن الضحاك قال : هي عزمة ، وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي ، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس » وقال ابن وهب قال مالك : الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده ، قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله تعالى ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب ، وكذا قال الثوري وأبو حنيفة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية وقوله تعالى ﴿ **إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ قال بعضهم أمانة ، وقال بعضهم صدقاً ، وقال بعضهم مالا ، وقال بعضهم حيلة وكسباً ، وروى أبو داود في المراسيل عن يحيى ابن أبي كثير قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ قال تعالى « إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كَلاًّ على الناس » .

تعقيب :

الرق إما استمرار لوضع وجد قبل الإسلام ، أو هو مبتدأ بعد الإسلام ، وما كان مبتدأ بعد الإسلام ، فإما أنه بسبب من وجوده عند الآخرين ، فيشتري المسلم منهم ، وإما بسبب الحرب . وإنّ نظام الرق في الإسلام - كأثر من آثار الحرب - هو أرفق ملايين المرات من الأسر ونظام السخرة . وفتح باب المكاتبة لا يبقي مجالاً لأحد يرغب في الحرية إلا ويطالها والمسلمون أعطاهم دينهم من السعة ما يستطيعون به أن يتعاملوا مع الشعوب بمثل ما تعاملهم به الشعوب ، بل أكمل ، ولكن يبقى نظام الرق مقرراً وللمسلمين إذا رأوا مصلحة باستئنافه أن يستأنفوه ، إلا إذا دخلوا في معاهدات دولية - لمصلحة إسلامية - فعليهم الوفاء بها .

قارن بين هاتين الصورتين :

في الحرب العالمية الثانية أسرت الأطراف المتحاربة من بعضها الأعداد الهائلة ، وقد ادّعى الروس أن الألمان أسروا لهم ستة ملايين لم ينج منهم إلا مليون ، وكان الأسرى خلال الحرب في معسكرات اعتقال رجالاً ونساءً ، وكان الحرمان والإذلال والجوع والعطش والبرد والحر بعض ما أصابهم ، وكانت الفوضى الجنسية هي الأساس . قارن هذه الصورة بما يحدث إسلامياً :

خيّرنا الإسلام أثناء الحرب بالنسبة للأسرى خيارات متعددة ، أحدها الاسترقاق ، فيوزّع الأسرى على المقاتلين ، ومن كان من الخُمس وُزِّع على مستحقه ، ومن حقّ الرقيق على سيّده أن يطعمه مما يطعم ، وأن يلبسه مما يلبس ، وأن يسكنه السكن المناسب ، ثمّ إن كان للرقيق قدرة على العمل والكسب - بحيث يستطيع أن يؤدي ثمن نفسه - يستطيع أن يطالب بالمكاتبة ، وإذا كاتب طولب المسلمون بمساعدته ، فإذا أدّى الذي عليه أصبح حراً ، وفي هذه الحالة يصبح جزءاً من المجتمع الإسلامي له حق المواطنة كبقية أبناء الوطن الإسلامي ، سواء أسلم أو لم يسلم ، قارن بين هاتين الصورتين لترى أن الصورة الثانية هي الأرفق والأرحم ، ومع هذا فإن الاسترقاق هو أحد الخيارات التي أعطيت لأمير المؤمنين في معاملة الأسرى .

٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ . نقل ابن

كثير الآثار الواردة في سبب نزولها ونحن نجتزىء من ذلك ما يلي :

(قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الزهري قال : كانت جارية لعبدالله بن أبيّ بن سلول يقال لها معاذة ، يكرهها على الزّنا ، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾ الآية ، وروى الأعمش عن جابر في هذه الآية قال : نزلت في أمة لعبدالله ابن أبيّ بن سلول يقال لها مسيكة ، وكان يكرهها على الفجور ، وكانت لا بأس بها فتأبىٰ فأنزل الله هذه الآية ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم علي البغاء** ﴾ إلى قوله ﴿ **ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ وروى النسائي من حديث ابن جرير عن أبي الزبير عن جابر نحوه وروى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر قال كان لعبدالله بن أبي بن سلول جارية يقال لها مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾ إلى قوله ﴿ **ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ ...

وقال مقاتل بن حيان : بلغني - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما أحدهما اسمها مسيكة ، وكانت للأنصار ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبدالله بن أبي ، وكانت معاذة وأروىٰ بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبي ﷺ فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله في ذلك ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾ يعني الزنا .

٨ - للنسفي كلام جميل أثناء حديثه عن المكاتبين إذ عَبَر من الحديث عن أنواع العبيد للناس إلى أنواع العبيد لله فقال :

(واعلم أن العبيد أربعة : قنٌّ مقتنى للخدمة ، ومأذون في التجارة ، ومكاتب ، وآبق . فمثال الأول ولي العزلة الذي حصَّل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة . والثاني وليّ العشرة ، فهو نجيّ الحضرة ، يخالط الناس للخبرة ، وينظر إليهم بالعبرة ، ويأمرهم بالعبرة ، فهو خليفة رسول الله ﷺ ، يحكم بحكم الله ، ويأخذ لله ، ويعطي في الله ، ويفهم عن الله ، ويتكلم مع الله ، فالدنيا سوق تجارته ، والعقل رأس بضاعته ، والعدل في الغضب والرضا ميزانه ، والقصد في الفقر والغنى عنوانه ، والعلم مفزعه ومنحاه ، والقرآن كتاب الإذن من مولاه ، هو كائن في الناس بظواهره ، بائن منهم بسرائره ، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً ، ثم وصلهم فيما لهم عليه ظاهراً .

وما هو منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

يأكل ما يأكلون ، ويشرب ما يشربون ، وما يدريهم أنه ضيف الله ، يرى السمٰوات والأرض قائمات بأمره ، وكأنه قيل فيه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فحال ولي العزلة أصفى وأحلى ، وحال ولي العشرة أوفى وأعلى . ونزل الأول من الثاني في حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان ، أما النبي عليه الصلاة والسلام فهو كريم الطرفين ، ومعدن الشذرين ، ومجمع الحالين ، ومنبع الزلالين ، فباطن أحواله مهتدىٰ ولي العزلة ، وظاهر أعماله مقتدى ولي العشرة ، والثالث : المجاهد المحاسب ، العامل المطالب بالضرائب ، كنجوم المكاتب ، عليه في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ، فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة ، فيسعى في فكاك رقبته خوفاً من البقاء في ربقة العبودية ، وطمعاً في فتح باب الحرية ، ليسرح في رياض الجنة ، فيتمتع بمبياه ، ويفعل ما يشاؤه ويهواه ، والرابع : الأباق فما أكثرهم ، فمنهم القاضي الجائر ، والعالم غير العامل ، والعامل المرائي ، والواعظ الذي لا يفعل ما يقول ، ويكون أكثر أقواله الفضول ، وعلى كل ما لا ينفعه يصول ، فضلاً عن السارق والزاني والغاصب فعنهم أخبر النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم في الآخرة » .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٣٥) إلى نهاية الآية (٤٦) وهذا هو :

* ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ

وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

بين يدي المقطع الثاني :

- إن المقطع الأول ينتهي بقوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ وهذا المقطع ينتهي بقوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبيّنات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

والمقطع يعرفنا على الله بشكل رئيسي ، ولذلك فإن الفقرة الأولى منه تبدأ بقوله تعالى ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ والفقرة الثانية تبدأ بقوله تعالى ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء** ﴾ .

وقد جاء المقطع في وسط سورة النور ، فهو يخدم ما قبله ، وما بعده ، ويعلّل لما قبله ولما بعده ، فهو واسطة العقد في هذه السورة العجيبة .

إنّ في هذا المقطع من الجمال والكمال والإعجاز في اللفظ والمعنى ، كما أن فيه من

المعجزات الأخرى ما يدهش ويحيّر ، وإن فيه من الروّعة ما لا يحيط به بيان ، وقد كتبت في آيات منه رسائل وكتب ، إنّ فيه الكثير مما لو تأمّله المنصف فإنّه يهتدي إلى الإيمان ، وإنّ من فهمه واستوعب معانيه يدرك كيف أنّ في سورة النّور بيّنات ، وكيف أنّ هذا القرآن من عند الله ، ولقد قدّم صاحب الظلال لهذا المقطع بقوله :

(في الدرسين الماضيين من السورة عالج السياق أغلظ ما في الكيان البشري . ليرققه ويطهره ، ويرتفع به إلى آفاق النور . عالج عرامة اللحم والدم ، وشهوة العين والفرج ، ورغبة التجريح والتشهير ، ودفعة الغضب والغيظ . وعالج الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة ، وأن تشيع في القول . عالجها بتشديد حد الزنا وحد القذف . وعالجها بعرض نموذج شنيع فظيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات . وعالجها بالوسائل الواقية : بالاستئذان على البيوت ، وغض البصر ، وإخفاء الزينة ، والنهي عن مثيرات الفتنة ، وموقظات الشهوة . ثم بالإحصان ، ومنع البغاء ، وتحرير الرقيق .. كل أولئك ليأخذ الطريق على دفعات اللحم والدم ، ويهيء للنفوس وسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق .

وفي أعقاب حديث الإفك عالج ما تخلف عنه من غضب وغيظ ، ومن اضطراب في المقاييس ، وقلق في النفوس . فإذا نفس محمد - رسول الله ﷺ - مطمئنة هادئة . وإذا نفس عائشة - رضي الله عنها - قريرة راضية . وإذا نفس أبي بكر - رضي الله عنه - سمحة صافية . وإذا نفس صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - قانعة بشهادة الله وتبرئته . وإذا نفوس المسلمين آيبة تائبة . وقد تكشف لها ما كانت تخبط فيه من التيه . فثابت إلى ربها ، شاكرة فضله ورحمته وهدايته ..

بهذا التعليم . وهذا التهذيب . وهذا التوجيه . عالج الكيان البشري ، حتى أشرق بالنور ؛ وتطلع إلى الأفق الوضيء ؛ واستشرق النور الكبير في آفاق السماوات والأرض ، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل ، الغامر في عالم كله إشراق ، وكله نور :

﴿ **الله نور السماوات والأرض** ﴾ .. وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادىء الوضيء ؛ فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ؛ وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ؛ وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر ؛ وحتى تنزاح الحجب ، وتشف القلوب ، وترف الأرواح .

ويسبح كل شيء في الفيض الغامر ، ويتطهر كل شيء في بحر النور ، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله ، فإذا هو انطلاق ورفرفة ، ولقاء ومعرفة ، وامتزاج وألفة ، وفرح وحبور . وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود ، تتصل فيه السماوات بالأرض ، والأحياء بالجماد ، والبعيد بالقريب ؛ وتلتقي فيه الشعاب والدروب ، والطوايا والظواهر ، والحواس والقلوب ..

﴿ **الله نور السماوات والأرض** ﴾ .. النور الذي منه قوامها ومنه نظامها .. فهو الذى يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها .. ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمّى بالمادة - بعد تحطيم الذرة - إلى إشعاعات منطلقة لاقوام لها إلا النور ! ولا « مادة » لها إلا النور ! فذرة المادة مؤلفة من كهارب وإليكترونات ، تنطلق - عند تحطيمها - في هيئة إشعاع قوامه هو النور ! فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون . كان يدركها كلما شف ورف ، وانطلق إلى آفاق النور . ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله - ﷺ - ففاض بها وهو عائد من الطائف ، نافض كفيه من الناس ، عائذ بوجه ربه يقول : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » . وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور . أنى أراه . » .

ولكن الكيان البشري لايقوى طويلاً على تلقي ذلك الفيض الغامر دائماً ، ولا يستشرف طويلاً ذلك الأفق البعيد . فبعد أن جلا النص هذا الأفق المترامي ، عاد يقارب مداه ، ويقربه إلى الإدراك البشري المحدود ، في مثل قريب محسوس :

﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور** ﴾ ..

التفسير :

﴿ **الله نور السمٰوات والأرض** ﴾ أي هداها فهو الذي هدى السموات والأرض ومن فيهن . قال ابن عباس فيها : (أي هادي أهل السمٰوات والأرض) فلا هدىٰ إلا بهداه ، فكل نوع من أنواع الهدىٰ فإنما هو به ومنه ، وقد تحدّثنا عن ظاهرة الهداية في

كتابنا (الله جل جلاله) فلتراجع ، وبعد أن قرّر الله عزّ وجل هذه القاعدة الكليّة وهي أنّه الهادي لكل شيء ، ضرب مثلاً لنوع من هداه وهو هداه الخاص لقلوب عباده المؤمنين ﴿ **مثل نوره** ﴾ أي مثل هداه ، وإذن فبعد أن قرّر أنّه نور السمٰوات والأرض بدأ بضرب مثلٍ نعرف منه معنى كونه نور السمٰوات والأرض وهاديهما ، هذا المثل يتضمّن الكلام عن الهدى في قلب المؤمن ، فمن عرف هداية الله لقلوب عباده المؤمنين يدرك كيف أنّ الله هادي السمٰوات والأرض ، وإنّما عرفنا ذلك من السياق ، ومن القراءات الشاذّة الواردة في هذا المقام ، إذ القراءات الشاذة إذا كانت صحيحة تعتبر من باب التفسير المأثور للآية ﴿ **كمشكاة** ﴾ المشكاة : هي الكوة – غير النّافذة – في الجدار ﴿ **فيها مصباح** ﴾ أي سراج ضخم ثاقب ﴿ **المصباح في زجاجة** ﴾ أي في قنديل من زجاج صاف ﴿ **الزجاجة كأنّها كوكب دري** ﴾ أي كأنها كوكب مضيء أي كأنها كوكب من در ﴿ **يوقد** ﴾ أي هذا المصباح ﴿ **من شجرة مباركة** ﴾ أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ، وهي شجرة الزيتون ، وبركتها كثرة منافعها كما قال النسفي ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ أي هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً ﴿ **يكاد زيتها يضيء** ﴾ من صفائه ونقائه ﴿ **ولو لم تمسسه نار** ﴾ أي لتلألئه يكاد يضيء من غير نار ﴿ **نور على نور** ﴾ أي هذا النور الذي شُبه به الحق نور متضاعف ، قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور إلا وقد وجدت ، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق – كالمشكاة – كان أجمع لنوره كما نرى ذلك في مصابيح السيارة ، بخلاف المكان الواسع فإنّ الضوء ينتشر فيه ، والزجاج أعون شيء على زيادة الإنارة كما نرىٰ ذلك في عصرنا في المصابيح الكهربائية ، وصفاء الزيت يساعد على صفاء النور وقوته ، وبعد أن أنهىٰ الله ضرب المثل على نوع من هداه قال ﴿ **يهدي الله لنوره** ﴾ أي لهداه ﴿ **من يشاء** ﴾ أي فيوفقه إلى إصابة الحق إما بإلهام من الله أو بنظر في الدليل ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾ تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ فهو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . والآن وقد عرفنا المعنى الحرفي للكلمات فلنر المراد منها :

أما المشكاة فإنها المؤمن ، وأما الزجاجة فإنها قلبه ، وأما المصباح فإنه نور قلبه وفطرته ، وأما الزيت فهو عمله بالشريعة ، وأماّ الزيتونة فإنّها الشريعة لا شرقية ولا غربية ، وأما النور فإنه نور الفطرة ونور الشريعة ، فإذا اجتمع لإنسان نور الفطرة ونور

الشريعة فكيف يكون هداه ؟ إنه يكون على غاية من الهدىٰ في كلّ ما يفعل ويذر ، فهذا نموذج على هدى الله الذي هدى به السماوات والأرض ، فالله عز وجلّ ضرب مثلاً لهداية السمٰوات والأرض بحال المؤمن المهتدي بنور الشريعة والنص في سياقة يفيد أنّ الله - عزّ وجلّ - إذا هدى أحدا بهداه الخاص فإنّه بذلك يكون منسجماً مع نظام الكون كله ، إنّ هذه الآية لا يفهمها إلا من اجتمع له علم وسلوك إلى الله أمثال هؤلاء هم الذين يدركون المعنى الحقيقي للآية . ولتوضيح هذا المقام نذكر الحديث الذي ذكره ابن كثير عند هذه الآية ، والذي رواه الإمام أحمد وقال عنه ابن كثير إسناده جيد ولم يخرجوه .

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس مصفّح ، فأمّا القلب الأجرد : فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ، وأمّا القلب الأغلف : فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس : فقلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفّح : فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يُمدُّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها الدم والقيح فأيّ المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » .

إنّ هذا الحديث يعتبر أساساً في فهم موضوع القلب والسلوك ، فالقلب المذكور فى الآية هو القلب الأجرد الذي فيه مثل السراج يزهر ، هذا القلب يحتاج إلى مدد دائم بالعمل بالشريعة فذلك زيته ووقوده ، والقلب المصفح قلب يحتاج إلى جهد مضاعف ، كي يتخلّص من رواسبه ونفاقه ليصل صاحبه إلى القلب الأول ، وقد يحتاج إلى طبيب يعرف كيف يداويه ، وأما القلب المنكوس والقلب الأغلف فهذان انتهى أمرهما ، ولم يعد منهما خير ، أو فيهما أمل ، إنه مالم يكن في القلب شيء من نور الفطرة ، فإن الإنسان يكاد يكون ميئوساً منه ، ولكون هذا غيباً فإنّ علينا أن ندعو ، والإحساس بهذه المعانى - كما قلنا من قبل - لا يدركها إلا من اجتمع له علم وسلوك ، وسير قلبي إلى الله .

﴿ **في بيوت أذن الله** ﴾ أي أمر الله ﴿ **أن ترفع** ﴾ أي تبنى أو تعظم ﴿ **ويذكر فيها اسمه** ﴾ بالصلاة والذكر والعلم ، وقراءة القرآن ، والمراد بها المساجد ، وتقدير الكلام . كمشكاة في بيوت أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، وقد رأينا أنّ المراد بالمشكاة في

المثل هو المؤمن . قال ابن كثير : (لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدىٰ والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية ، المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلاً ، ذكر محلّها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يُعبد فيها ويوحّد) وعلى هذا فكأن الله عز وجل أفهمنا أنّ مظنّة وجود هذا النّوع من الناس ، الذين وصف الله قلوبهم بما وصف ، هي المساجد التي أمر الله أن تعظّم ، بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأقوال ، والأفعال ، التي لا تليق فيها ، وأن يذكر فيها اسمه في الصلاة ، وحلقات العلم والذكر ، وقراءة القرآن ، وأمثال ذلك . ومن ثم ورد في الحديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » وبعض المفسّرين علّق قوله تعالى ﴿ **في بيوت** ﴾ بقوله تعالى ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾ وعلى هذا يكون المعنى : أن القلوب المؤمنة ، توقد من شريعة الله ، في بيوت أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، وهذا يفيد أنّ مدد الإيمان مظنته المساجد ، ومن ثمّ فعلىٰ العلماء أن يقيموا حلقات العلم ، والقرآن في المساجد ، من أجل أن يوقدوا مصباح الإنسان وهو قلبه ، وعلى أي من التفسيرين ، فإنّ المساجد لها الدور الأول في إيجاد الإيمان ، ووجود المؤمن ، وهذا يجعل مسؤوليتنا كبيرة في عمارة المساجد ، ولنا عودة هذا الموضوع في الفوائد .

بعد أن عرفنا أنّ المساجد هي مظنة وجود هذا النوع من القلوب ، أو هذا النّوع من المؤمنين المهتدين المذكورين في الآية السابقة ، وبعد أن ذكّرنا الله عز وجل أنّ من شأن المساجد أن تعظّم عن كل ما لا يليق بها ، وأنّ من شأنها أن يذكر فيها اسمه قال : ﴿ **يسبّح له فيها** ﴾ أي في المساجد ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ أي في البكور والعشيات ، والآصال : جمع الجمع ، فهي جمع أُصُل ، التي هي جمع أصيل ، وهو آخر النّهار ، وإنّما وحّد الغدو لأنّ صلاته واحدة ، أما الآصال فصلواتها أربع ﴿ **رجال** ﴾ أي يصلي لله في المساجد رجال في الغدو ، أي صلاة الفجر ، والآصال : أي صلاة الظهر ، والعصر ، والعشائين ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « كل تسبيح في القرآن هو الصلاة » ثم وصف الله هؤلاء الرجال بقوله : ﴿ **لا تلهيهم** ﴾ أي لا تشغلهم ﴿ **تجارة** ﴾ في سفر ﴿ **ولا بيع** ﴾ في الحضر ، ويمكن أن يكون المراد بالتجارة الشراء ، والبيع معروف ﴿ **عن ذكر الله** ﴾ بالقلب واللسان ﴿ **وإقام الصلاة** ﴾ أي وعن إقامة الصلاة ﴿ **وإيتاء الزكاة** ﴾ أي وعن إيتاء الزّكاة ، وهل المعنىٰ أنّه لا تجارة لهم أصلاً ؟ أو أن لهم تجارة ولكن لا تشغلهم عن القيام بحق الله ؟ قولان للمفسرين ، والراجح

الثاني ، ويؤيّد هذا ذكر الزكاة ، فمن لا عمل له لا مال له ، ومن لا مال له كيف يزكي ؟ ثم أكمل الله وصفهم بقوله ﴿ **يخافون يوماً** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **تتقلّب فيه القلوب** ﴾ ببلوغها إلى الحناجر ﴿ **والأبصار** ﴾ بالشخوص والزرقة ، أو تتقلّب فيه القلوب والأبصار من حال إلى حال ، على حسب جلال الموقف ورهبته أو تتقلب فيه القلوب إلى الإيمان بعد الكفران ، والأبصار إلى العيان بعد الإنكار في الدنيا وقوله ﴿ **رجال** ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمّاراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه ، كما أن فيه إشعاراً أن صلاة النساء في بيوتهن أفضل . ثم قال تعالى ﴿ **ليجزيهم الله** ﴾ أي هم يفعلون ما يفعلون من أجل أن يجزيهم الله ، فهم يسبِّحون ويخافون ويفعلون ما يفعلونه في الخير ليجزيهم الله ﴿ **أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله** ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، والسياق يشعر أنهم يفعلون الخير ليحصلوا ذاك ، وأنهم قد حصّلوا فعلاً ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أي يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق ، وبهذا أنهىٰ الله الكلام عن صفات المهتدين ، والملاحظ أنّه من خلال عرض صفات المهتدين بنوره ، قد ذكر الله عز وجل ماهية العمل الذي يضيء القلب وينيره ، وهو التسبيح بإقامة الصلوات في المساجد ، والذكر ، والصلاة بشكل مطلق ، والزكاة ، والخوف من الله ، والرغبة فيما عنده ، إنّ هذا هو الطريق لتنمية الإيمان .

تلخيص :

في الآيات التي مَرّت معنا من المقطع الثاني حدّثنا الله عزّ وجلّ عن هدايته للسمٰوات والأرض ، وضرب لنا مثلاً على هذه الهداية بهدايته لعبده المؤمن ، وعرفنا من ذلك أن هناك هدايتين : هداية الفطرة ، وهداية الشريعة ، وأن هداية الفطرة مستمدة من هداية الشريعة .

وأن نور القلب لايزال مشتعلاً مادام هناك عمل بالشريعة ، وقد دلّنا الله عز وجل على الأعمال التي تبقي نور القلب مشتعلاً ، وإذا أردنا أن نقرّب الموضوع للأذهان من خلال ضرب مثل نأخذه من معارف عصرنا نقول : إن المصباح الكهربائي يستمد نوره من مُوَلّد الكهرباء ، والمولّد عادة له مكان ، ويحتاج إلى محرك ، فالمصباح هو القلب ، والمولّد هو الشريعة ، والمكان هو المسجد ، والمحرك هو التسبيح ، والصلاة والزكاة ...

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وفي الآيات الأربع التي مَرّت معنا ذكر الله عز وجل آداب المساجد التي هي بيوت الإسلام كما ذكر أعمالاً من الإسلام ، وعرّفنا على أهل الإسلام ، ما صفاتهم ، وما خصائصهم ، وأين مظنة وجودهم ، وهذا يمضي على نسق سياق السورة ، وضمن محورها ، وقد عرضت هذه المعاني ضمن الحديث عن الله ، وأنه الهادي للسموات والأرض ، وفي ذلك تعليل لضرورة الدخول في الإسلام ، كما أنّه تدليل على ضرورة الشريعة ، وإنزال الوحي ووجوب الاهتداء بهدي الله ، أي وجوب الدخول في الإسلام ، ووجوب الالتزام بالأحكام وقد اختيرت لذلك ألفاظ تسع الزمان والمكان ، فنحن في عصر الكهرباء ، نكاد نحس أنّ جزءاً مما نستعمله في الإضاءة الكهربائية قد أريد ، وفي عصور أخرى يرون المثل كائناً مرئياً أمامهم . إن مثل هذا الإبداع في البيان - الذي لا يمكن أن تجده إلا في هذا القرآن - لأعظم دليل على أنّ منزل هذا القرآن هو الرحمن جل وعلا ، ولنعد إلى التفسير :

بعد أن ضرب الله مثلاً لهداه العام من خلال تعريفنا على هداه الخاص للمؤمنين يضرب مثلين للكافرين :

﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب** ﴾ السراب : هو ما يرىٰ في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر ، يسرب على وجه الأرض ، كأنه ماء يجري ﴿ **بقيعة** ﴾ القيعة : جمع قاع كالجيرة جمع جار ، والقاع : هو المنبسط المستوي من الأرض ﴿ **يحسبه الظمآن** ﴾ أي يظنه العطشان ﴿ **ماءً حتىٰ إذا جاءه** ﴾ أي إذا جاء ما توهم أنه ماء ﴿ **لم يجده شيئاً** ﴾ كما ظنه ، لأنّه لم يبن عمله على إيمان ﴿ **ووجد الله** ﴾ أي جزاءه ﴿ **عنده** ﴾ أي عند الكافر ﴿ **فوفّاه حسابه** ﴾ أي أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً ﴿ **والله سريع الحساب** ﴾ لأنه لا يحتاج إلى عدّ وعقد ، ولا يشغله حساب عن حساب ، أو المعنىٰ : أن حسابه قريب لأن ما هو آت قريب . قال النسفي : (شبّه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ، ولا يتّبع الحقّ ، من الأعمال الصالحة ، التي يحسبها تنفعه عند الله ، وتنجيه من عذابه ، ثم يخيب في العاقبة أمله ، ويلقىٰ خلاف ما قَدّر بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيحسبه ماءً فيأتيه فلا يجد ما

وكلّ من الدّرسين مصدّر بكلمة ﴿ ألم تر ﴾ .

(١)

﴿ **ألم تر** ﴾ أي ألم تعلم علماً يقوم مقام العيان في الإيقان ﴿ **أن الله يسبّح له من في السمٰوات والأرض** ﴾ أي من الملائكة والأناسي والجانّ والحيّوان والنّبات والجماد ﴿ **والطير صافّات** ﴾ يصففن أجنحتهن في الهواء ، فهذه الطيور الصافّات أجنحتها تسبح ربها ، وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ﴿ **كلٌّ قد علم** ﴾ الضمير في (عَلِمَ) لله ، أو للمراد بكلمة (كل) ﴿ **صلاته وتسبيحه** ﴾ أي كلٌّ قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عزّ وجل ﴿ **والله عليم بما يفعلون** ﴾ فلا يعزب عنه شيء ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض** ﴾ لأنه خالقهما ، ومن ملك شيئاً فبتمليك الله إياه ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ فمرجع الكل يوم القيامة إليه ؛ فيحكم بالجميع بما يشاء .

كلمة في السّياق :

إنّ كل شيء يسبّح بحمد الله ، والإنسان يدرك نوع إدراك كيف أن الأشياء كلها تسبح بحمد الله ، فهي شاهدة على تنزيهه ، وشاهدة على إنعامه ، وإذا كان كل شيء يسبّح بحمد الله فهو إذن مهتد ، وهذا هو المعنىٰ الأول الذي يربط هاتين الآيتين بما قبلهما ، وإذا كان كل شيء يسبّح بحمده فهو خاضع وعابد ، فعلىٰ الإنسان أن يخضع ويعبد ، وذلك يكون بدخوله بالإسلام ، فالصلة بين هذا المعنىٰ ومحور السورة قائمة ، وكما ذكّرنا الله عزّ وجلّ في نهاية الآية الأولى بعلمه ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ فههٰنا ذكّرنا بعلمه ﴿**والله عليم بما يفعلون** ﴾ فالله يعلم تسبيح الأشياء ، كما يعلم تسبيح الإنسان وعبادته ، وفي هذا دعوة إلى عبادة الله وحده ، لأنه يعلم ، وغيره لا يعلم . وفي قوله ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض** ﴾ دعوة للدخول في الإسلام ، لأنه المالك ، وفي قوله ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ تهديد ووعيد لمن رفض الدخول الاختياري بالإسلام ، ومن خلال لفت نظر الإنسان في الآيتين عرفنا أن هداية الله شاملة للمخلوقات كلها ، وأن الإسلام دين المخلوقات كلها ، ومن ذلك نعلم محلّ الآيتين ضمن السياق الخاص للسورة ، بما يخدم محور السورة ، والآن يأتي لفت النظر الثاني :

(٢)

﴿ **ألم تر** ﴾ أي ألم تعلم ﴿ **أن الله يزجي** ﴾ أي يسوق ﴿ **سحاباً** ﴾ السحاب جمع سحابة كما قال النسفي ﴿ **ثم يؤلف بينه** ﴾ أي ثم يضم بعضه إلى بعض ﴿ **ثم يجعله ركاماً** ﴾ أي متراكما بعضه فوق بعض ﴿ **فترىٰ الودق** ﴾ أي المطر ﴿ **يخرج من خلاله** ﴾ يخرج من بينه ﴿ **وينزل من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **من جبال فيها** ﴾ أي من كتل ضخمة منها ، تشبه الجبال في عظمتها ، ومساقطها وهيئتها ﴿ **من بَرَد فيصيب به** ﴾ أي بالبرد أو بالبرد والمطر ﴿ **من يشاء ويصرفه عن مَّن يشاء** ﴾ فلا يصيبه البرد وحده ، أو البرد والمطر ، ويمكن أن يكون المراد : يعذب بالبَرَد من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء فلا يعذبه ، ومن ذهب إلى هذا المعنى نظر إلى ما يفعله البَرَد أحياناً من نثر الثمار ، وإتلاف الزروع والأشجار ﴿ **يكاد سنا بَرْقه** ﴾ أي ضوؤه ﴿ **يذهب بالأبصار** ﴾ أي يخطفها والمعنىٰ : يكاد ضوء برقه - من شدته - يخطف الأبصار إذا اتّبعته وتراءته ﴿ **يقلّب الله الليل والنّهار** ﴾ أي هو المصرّف لهما في تعاقبهما واختلافهما طولاً وقصراً ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في إزجاء السحاب ، وإنزال الودق والبرد ، وتقلّب الليل والنهار ﴿ **لعِبْرَة** ﴾ أي لدليلاً على عظمته ﴿ **لأولي الأبصار** ﴾ التي ترىٰ ويعقل أصحابها .

كلمة في السياق :

إن ظاهرة الهداية في المطر والبرد والليل والنهار واضحة ، فما ذكر في هاتين الآيتين فيه إشارة إلى مظهر من مظاهر الهداية ، وإنّ الإنسان المنصف المدرك العاقل يعلم أن هذا ما كان ليكون لولا الله ، فمن لم يعلم ذلك فهو أجهل الجاهلين ، ومن علم ذلك عرف عظمة الله فعبد وخضع ، أي دخل في الإسلام واهتدىٰ بهدى الله ، ومن هذا نعلم صلة الفقرة بسياق السورة ومحورها ، ونحب هنا أن نشير إلى أنّ في الفقرة السابقة معجزة علمية سنراها في الفوائد ، ولنعد إلى التفسير :

﴿ **والله خلق كلّ دابّة** ﴾ أي كلّ حيوان يدبّ على وجه الأرض ﴿ **من ماء** ﴾ يحتمل أن المراد بالماء الماء المخصوص كالنطفة . أو المراد به الماء العادي ، فإنّه واحد ، مع أنّ الأحياء التي يدخل الماء في تركيبها - كأهم شيء وأكثره - مختلفة الأجناس والأشكال . وفي ذلك كله دليل قدرته ﴿ **فمنهم من يمشي على بطنه** ﴾ كالحية وما

شاكلها ﴿ **ومنهم من يمشي على رجلين** ﴾ كالإنسان والطير ﴿ **ومنهم من يمشي على أربع** ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ولهذا قال : ﴿ **يخلق الله ما يشاء** ﴾ أي بقدرته ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولهذا قال ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ لا يتعذّر عليه شيء .

كلمة في السياق :

إن في هذه الآية تدليلاً على هداية الله نجده في قوله تعالى ﴿ **فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع** ﴾ إلا أن الآية في سياقها الرئيسي تدليل على القدرة . فالله الذي خلق من الماء الواحد هذه الأنواع الكثيرة من الأحياء ، قادر على كل شيء . والهداية ليست إلا مظهراً من مظاهر القدرة . فإذا تقرر أن الله هو القادر ، وأنه الهادي ، فكيف لا يسلّم له الإنسان شرعاً وقدراً ؛ فيدخل في الإسلام كله ، ويسلّم له ويستسلم .

ثمّ ختم الله المقطع بآية شبيهة بالآية التي ختم بها المقطع السابق فقال :

﴿ **لقد أنزلنا آيات مبيّنات** ﴾ يقرّر تعالى أنّه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال وغيرها ما هو معجزات ودلائل واضحات ﴿ **والله يهدي من يشاء** ﴾ بلطفه ومشيئته ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ أي إلى دين الإسلام الذي يوصل إلى جنته ، لاحظ الصلة بين قوله تعالى : في هذه الآية ﴿ **والله يهدي** ﴾ وبين بداية المقطع : ﴿ **الله نور السمٰوات والأرض** ﴾ أي هاديهما ، ولاحظ صلة هذه الآية بقوله تعالى في محور السورة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة** ﴾ .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **مثل نوره كمشكاة ...** ﴾ قال النسفي : (وضرب المثل يكون بدنيء محسوس معهود لا بعليّ غير معين ولا مشهود . فأبو تمام لما قال في المأمون :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

قيل له إن الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

٢ – في الضمير في قوله تعالى : ﴿ **مثل نوره** ﴾ قولان : أحدهما أنه عائد إلى الله ، والثاني أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام الآتي . فعلى القول الأول صار المعنى : أن مثل هدى الله الذي هدىٰ به المؤمن في القوة والوضوح وبيان الحجة وفوقها كمثل ما ذكر ، فإذا بقي قلب لم يهتد فما ذلك إلا لعماه ، أو أن المعنى على هذا القول : مثل هدى الله في قلب المؤمن كمثل مشكاة فيها مصباح ، أي هداه في قلب المؤمن في غاية الإنارة والوضوح ، وعلى القول الثاني في الضمير : يكون المعنى : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهر ، وما يستهدي به من القرآن والشرع ، بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل ، الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، أي شبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقّاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه بالمثل المذكور فهو يشبه قوله تعالى ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ فالمشكاة جسد المؤمن ، والزجاجة قلبه ، والمصباح الفطرة ، والزيت شريعة الله المتميزة ، التي ليست بشرقية ولا غربية ، أي ليست بشرية .

ويفهم من هذا أن الفطرة إذا انقطع عنها مدد الشريعة بالإيمان والعمل انطفأت ، كما ينطفىء المصباح لو لم يكن له مدد يستمد منه . ويفهم من هذا أن نور الفطرة قوي جداً ، ويفهم من هذا أن ما أنزل الله من الهدى في غاية الصفاء ، ونصوع الحجة .

المشكاة هي الجسد ؛ إذ هو مركز تجمّع النور ، والزجاجة القلب ، والمصباح الإيمان ، والزيت العمل بالشريعة ، ولا نور إلا بعمل ، فمن افتقد النور فعليه بالعمل .

٣ – في شرح قوله تعالى ﴿ **زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ قالوا : إنها في مستوى من الأرض ، في مكان فسيح باد ، ظاهر ، ضاح للشمس ، تقرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف .

وأقوى الأقوال في هذا النّص : أن هذا مثل ضربه الله تعالى لشريعته ، وهناك اتجاهات أخرى ذكرها ابن كثير ، من ذلك ما قاله شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله تعالى ﴿ **يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار** ﴾ قال : يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أن

يضيء .

ومن الأقوال في النص ما ذكره ابن كثير عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية** ﴾ رجل صالح لا يهودي ولا نصراني .

فعلى هذين الاتجاهين في التفسير –فإن مدد الفطرة إلى القلب لا يستمر إلا إذا وجدت تغذية من رجل صالح ، من لدن محمّد ﷺ إلى قيام الساعة ، وهذا معنى ينبغي أن يفطن له المربّون ، وقد ركّز عليه بعض الصوفية إلا أنّ الكثير منهم خلطه بطامّات كثيرة . وقد ذكّرنا فى بعض كتبنا على ضرورة إحياء رتبة الربانية لاستئناف الحياة الإسلامية .

٤ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **نور على نور** ﴾ قالوا : أي هذا النور الذي شبه به الحق في قلب المؤمن نور متضاعف ، قد تناصر فيه المشكاة ، والزجاجة ، والمصباح ، والزيت ، حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره ، كما نرى ذلك في مصابيح السيارة والكشافات ، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه ، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة ، كما نرى ذلك في المصابيح الكهربائية ، ونور زيت الزيتون الصافي على غاية من الصفاء والقوة .

وقال السدي في تفسير قوله تعالى ﴿ **نور على نور** ﴾ قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ، ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه .

وهذا يؤكد تفسيرنا أن الإيمان في القلب هو السراج ، والزيت هو الشريعة ، والعمل بها . قال أبي بن كعب في تفسير قوله تعالى ﴿ **نور على نور** ﴾ : يتقلب (أي المؤمن) في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره الى نور يوم القيامة إلى الجنة . فكأنه أراد أن يقول إن المؤمن في نور متضاعف متزايد في حاله كله ، في يومه وغده ، في دنياه وأخراه ، مادام قد اجتمع نور الإيمان ونور القرآن .

٥ – لمّا ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية ، المتوقّد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلاً ، ذكر محلها وهي

لمساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ، ويوحّد فقال تعالى ﴿ **في بيوت** ... ﴾ فكأن معدن هذه القلوب هي هذه المساجد ، وهذه إشارة واضحة إلى أن التربية الإيمانية الكاملة إنما تكون في المسجد ، إذ هي وحدها التي تتوافر فيها شروط التربية الصالحة .

والجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكَر فيها اسمه** ﴾ . إمـا أن نعلّقـه بـ(كمشكاة) وإما أن نعلقه بـ (يوقد) السابقين في الذكر ، وإما أن نعلقه بـ (يسبح) المتأخر والتعليقان الأولان أقوى ، فعلى التعليق الأول إنما يأخذ النور الكامل مَنْ حياته في المسجد ، وعلى التعليق الثاني نفهم أن إمداد القلب بالشريعة ومن أهلها إنما يكون داخل المسجد . قال قتادة في تفسير (البيوت) في الآية : هي هذه المساجد ، أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها ، وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : (مكتوب في التوراة إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم زارني في بيتي ، أكرمته ، وحق على المزور كرامة الزائر) ومعنى أذن هنا أُمِرَ بدليل ما بعده ، إلا أن مع الأمر يوجد الإرادة المشرفة ، فقد شاء الله لهذه البيوت أن تكون معدناً للخير ، وفي (أن ترفع) تفسيران : تفسير الرفعة بالرفع الحسي ، فهو أمر ببنائها وتشييدها ، وتفسير الرفعة بالرفع المعنوي ، فهو أمر بتعظيمها ، ولا شك أن المسلمين مأمورون بهذا وهذا ، وموعودون على هذا وهذا الخير الكثير ، ومما يدخل تحت الرفع المعنوي : عدم اللغو فيها ولا يدخل في الرفع الحسي زخرفتها .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يسبّح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار** ﴾ أقول : دلّت الآية على أن أصحاب القلوب المذكورة لهم عمل صالح ، وحال خائف ، فياويح المقصرين بالعمل ، وياويح الغافلين الآمنين .

روى النسائي عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يحاسب سائر الخلائق » .

٧ - تشبيه المؤمن بالمشكاة دليل على أن جسد المسلم هو مركز تجمع النور ، ومركز توجيهه ، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمن الكامل ينير للناس الطريق ، ويرى الناس

به الحقائق .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . الحديث . وعن ابن مسعود قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه) .

أقول : إن كثيراً من الناس أخطأ فهم كلمة ابن مسعود هذه ، والمهم ألا نفهم أن نور الله كالأنوار المحسوسة ، وأن ننزه الله عن أن يكون شيء من الأشياء بمثابة الجزء من الله - تعالى الله عن ذلك - قال تعالى : ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إنّ الإنسان لكفور مبين** ﴾ (الزخرف : ١٥) .

٩ - في قوله تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** ﴾ تلخيص لكل آداب المسلم مع المساجد ، فأدب المسلم مع المساجد تعظيمها ، وذكر الله فيها ، وبمناسبة هذه الآية قال ابن كثير : (وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها ، وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر هنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة » . أخرجاه في الصحيحين . وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة » وللنسائي عن عمرو بن عنبسة مثله . والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظّف وتطيّب . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ، ولأحمد وأبي داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخاري : قال عمر : ابْنِ للنّاس ما يكنّهم ، وإياك ، أنّ تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » . رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي . وعن بريدة أن رجلاً أنشد

في المسجد فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبي ﷺ : « لا وجدت إنّما بنيت المساجد لما بنيت له » . رواه مسلم . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار في المساجد » . رواه أحمد وأهل السنن . وقال الترمذي حسن . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك » رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعاً قال : « خصال لا تنبغي في المسجد : لا يُتّخذ طريقاً ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يمُرّ فيه بلحم نيء ، ولا يضرب فيه ، ولا يقتص فيه أحد ، ولا يُتخذ سوقاً » وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال : « جنّبوا المساجد صبيانكم ، ومجانينكم ، وشراءكم ، وبيعكم ، وخصوماتكم ، ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم ، وسلّ سيوفكم ، واتّخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها في الجُمَع » ورواه ابن ماجه أيضاً وفي إسنادهما ضعف . أما إنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة ، إذا وجد مندوحة عنه . وفي الأثر « وإن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه » وأما أنه لا يشهر فيه بسلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذي أحداً ، كما ثبت ذلك في الصحيح . وأمّا النهي عن المرور باللحم النّيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه . كما نهيت الحائض عن المرور فيه ، إذا خافت التلويث ، وأما أنه لا يضرب فيه حد ، ولا يقتص منه ، فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب ، أو المقطوع ، وأما أنه لا يتخذ سوقاً ، فلما تقدم من النّهي عن البيع والشراء ، فإنّه إنّما بني لذكر الله والصلاة فيه . كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد « إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله . وفي الحديث الثاني : « جنبّوا مساجدكم صبيانكم » وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم . وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة – وهي الدرة – وكان يعس المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً « ومجانينكم » يعني لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم ، فيؤدي إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك « وبيعكم وشراءكم » كما تقدم

« وخصوماتكم » يعني التحاكم والحكم فيه . ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد ، بل يكون في موضع غيره ، لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه ، ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

روى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائماً في المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين ، فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ ؟ . وقال النسائي ... عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدري أين أنت ؟ وهذا أيضاً صحيح . وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » تقدما وقوله « واتخذوا على أبوابها المطاهر » يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء ، وقضاء الحاجة . وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ويتوضؤن وغير ذلك . وقوله : « وجمروها في الجُمَع » يعني بخِّروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ . وقدروى الحافظ أبو يعلى الموصلي : ... عن ابن عمر أن عمر كان يجمّر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به والله أعلم . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الرجل في الجماعة يضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً » . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مصلّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة . وعند الدارقطني مرفوعاً « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » وفي السنن « بشِّر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة » ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » قال : فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم . وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو أبي أسيد - قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم افتح لي أبواب فضلك » . ورواه النسائي عنهما عن النبي ﷺ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أحدكم

المسجد فليسلِّم على النبي ﷺ وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلِّم على النبي ﷺ وليقل : اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم » ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما . وروى الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك » . ورواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى . فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك كله محاذرة الطول داخل في قوله تعالى : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه** ﴾ .

١٠ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يسبِّح له فيها بالغدو والآصال رجال** ﴾ قال ابن كثير (وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » .

وروى الإمام أحمد عن السائب مولى أم سلمة عن رسول الله ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » وقال أحمد أيضاً : عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : « قد علمت أنّك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » قال فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها ، فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى » لم يخرجوه ؛ هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت في الصحيح عن عبدالله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » رواه البخاري ومسلم ، ولأحمد وأبي داود « وبيوتهن خير لهن » وفي رواية « وليخرجن وهنّ تفلات » أي لا ريح لهنّ . وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ « إذا شهدت أحداكن المسجد فلا تمس طيباً » وفي الصحيحين عن عائشة رضي

الله عنها أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهنّ ما يعرفن من الغَلَس ، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل) .

١١ — رأينا في التفسير وفيما نقلناه من فوائد أهمية المساجد في دين الله ، ومن ثم فإننا دعونا في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) إلى إحياء المساجد بحلقات العلم والذكر . وفصّلنا في ذلك ، وبيّنا أن هذا هو الطريق لإحياء الإسلام في كثير من مناطق العالم الإسلامي ، وفصّلنا هناك ما ينبغي فعله من أجل أن يقوم هذا الأمر على كماله وتمامه . وتعرضنا للموضوع نفسه في أكثر من مكان من سلسلة (في البناء) .

١٢ — قلنا إن هناك اتجاهين في فهم قوله تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ الأول أن هؤلاء متفرغون للعبادة . والثاني : أنهم لا يلهيهم العمل مع وجوده عن القيام بالواجبات الدينية . قال ابن كثير : (قال هشيم عن شيبان قال : حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة ، تركوا بياعتهم ونهضوا إلى الصلاة . فقال عبدالله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ الآية . وهكذا روى عمرو ابن دينار القهرماني عن سالم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّه قال : ما يسرّني أني قمت على هذا الدرج أبايع عليه ، أربح كل يوم ثلثمائة دينار ، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد ، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال ، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾) .

أقول : هذا يدلّ على أن أبا الدرداء قد فهم النص على أنّ المراد به التفرّغ للعبادة ، والأكثرون على غير ذلك ، قال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبدالله ، ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمّروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ ثم قال : هم هؤلاء . وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها . وقال مطر الورّاق : كانوا يبيعون

ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة ، وكذا قال مقاتل بن حيان ، والربيع بن أنس . وقال السدي : عن الصلاة في جماعة . وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا علي مواقيتها وما استحفظهم الله فيها » .

١٣ – عند قوله تعالى ﴿ **يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار** ﴾ قال ابن كثير : (وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلّهم لم يشربه ؛ لأنّه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه ، لأنه كان مفطراً ، ثم تلا قوله ﴿ **يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار** ﴾) .

١٤ – وعند قوله تعالى ﴿ **ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله ﴿ **ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾ قال : أجورهم يدخلهم الجنة ، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا » .

١٥ – في كتابنا (الرسول ﷺ) تحدثنا أثناء الكلام عن المعجزة القرآنية عن ما اكتشفه علماء البحار من أن هناك نوعين من الأمواج ، في بعض البحار العميقة أمواجاً باطنية هي أشد وأعتى من الأمواج الظاهرية ، والأمواج الظاهرية المعروفة ، وهي قضية لم يعرفها الإنسان إلا في بداية القرن العشرين الميلادي ، فأن يذكر الله عز وجل هذا المعنى في القرآن فذلك من أكبر الأدلة على أنّ منزل هذا القرآن هو المحيط علماً بكل شيء .

١٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن مَن يشاء يكاد سَنَا بَرْقه يذهب بالأبصار** ﴾ بمناسبة هذه الآية قلنا إن في هذا النص معجزة علمية وفي ذلك يقول موريس بوكاي : في كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) تحت عنوان (الكهرباء الجوية) قال : الكهرباء الجوية ونتائجها الصواعق والبرد مشار إليها في الآيات التالية : سورة الرعد الآيتان (١٢ ، ١٣) .

﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال ۝ ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ .

سورة النور الآية (٤٣) . ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن مّن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ .

وفي هاتين الآيتين تعبير عن علاقة واضحة بين تشكّل سحب المطر الثقيلة ، أو البرد ووقوع الصاعقة) .

وقال صاحب الظلال : (إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان . ثم تؤلف بينه وتجمعه ، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض . فإذا ثقل خرج منه الماء ، والوبل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيها قطع البَرَد الثلجية الصغيرة ... ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحاب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً ، بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها ، وانخفاضاتها ، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات) .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات** ﴾ نذكّر بالحديث الذي رواه الحارث الأعور عن الإمام علي عن رسول الله ﷺ في وصف القرآن : « فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله ... » .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتدّ من الآية (٤٧) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٦٤) وهذا هو :

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

بين يدي المقطع الثالث :

١ - يبدأ المقطع الثالث بنفي الإيمان عن أناس ، وينتهي بتعريف أهل الإيمان : ﴿ **ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثمّ يتولّى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ لاحظ قوله تعالى ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ وينتهي المقطع بقوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ...** ﴾ فالمقطع يبدأ بنفي الإيمان عن أناس ، وينتهي بإثبات الإيمان لأناس وذلك من مظاهر وحدته .

٢ - رأينا أنّ المقطع الثاني قد تحدّث عن المهتدين وعن الكافرين ، وختم بقوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ وبعد ذلك يأتي هذا المقطع لينفي الإيمان والهداية عن ناس يتظاهرون بالإيمان ، وليشدّ عزائم أهل الإيمان ، ثمّ ليوجّه أهل الإيمان إلى كمالاتهم قال النسفي : (لما ذكر إنزال الآيات ، ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق : فرقة صدّقت ظاهراً وكذّبت باطناً ، وهم

المنافقون، وفرقة صدّقت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كذّبت ظاهراً وباطناً، وهم الكافرون، على هذا الترتيب وبدأ بالمنافقين) أقول: يلاحظ أن قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ...** ﴾ قد سبق بكلام عن المؤمنين والمنافقين ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام** ﴾ ... ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد** ﴾ ثم جاء قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾.

وههنا بدأ الكلام عن المنافقين، ثم كان كلام عن المؤمنين، ثمّ جاءت أوامر لأهل الإيمان تفصّل أحكاماً من الإسلام.

٣ - يتألف المقطع من ثلاث مجموعات، أو من مجموعتين وخاتمة: المجموعة الأولى في المنافقين والمؤمنين والكافرين، وفيها وعد لأهل الإيمان، والمجموعة الثانية فيها توجيهات عملية لأهل الإيمان، والمجموعة الثالثة وفيها تعريف لأهل الإيمان.

٤ - سبق هذا المقطع بقوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات** ﴾ وقد أنزلت هذه الآيات على محمد رسول الله ﷺ، وهذا يقتضي أدباً مع رسول الله ﷺ، ومن ثمّ فإنّ المقطع فصّل في هذا الشأن: ﴿ **وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون** ﴾ ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه ...** ﴾ ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...** ﴾ ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ...** ﴾ ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ...** ﴾.

٥ - رأينا أن محور سورة النور هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ وهذا المقطع يعمّق الالتزام بالإسلام، وينفي الصوارف عن الالتزام به، فمن الصوارف عن الالتزام بالإسلام كله؛ ظن بعض النّاس أن الكافرين أقوياء، والمقطع يقول ﴿ **لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض** ﴾ والمقطع يَعِد أهل الإيمان بالاستخلاف ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ...** ﴾ والمقطع يبين أن عدم الالتزام

بالإسلام يعني النفاق ، وإذ كانت إقامة الإسلام كله تقتضي عملاً جماعياً ، فإن المقطع يحدثنا عن بعض آداب الاجتماعات في الإسلام : ﴿ **وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ .

٦ - وقد بدأت السورة بقوله تعالى ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات** ﴾ ولقد جاء هذا المقطع نموذجاً آخر على الآيات البينات في السورة ، ولذلك نجد فيه تأكيداً على ذلك : ﴿ **كذلك يبيِّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ ﴿ **كذلك يبيِّن الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ ﴿ **كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ .

وقد قدّم صاحب الظلال للمجموعة الأولى في هذا المقطع بقوله :

(بعد تلك الجولة الضخمة في مجالي النور ، في مشاهد الكون الكبير .. يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل . موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتتطهر قلوبها وتشرق ، وتتصل بنور الله في السماوات والأرض .

ولقد تناول في الدرس الماضي حديث الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وحديث الذين كفروا وأعمالهم ومآلهم ، وما هم فيه من ظلمات بعضها فوق بعض .

فالآن في هذا الدرس يتحدث عن المنافقين ، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا يهتدون . فهم يظهرون الإسلام ، ولكنهم لا يتأدّبون بأدب المؤمنين في طاعة رسول الله - ﷺ - وفي الرضى بحكمه ، والطمأنينة إليه . ويوازن بينهم وبين المؤمنين الصادقين في إيمانهم . أولئك الذين وعدهم الله الاستخلاف في الأرض ، والتمكين في الدين ، والأمن في المقام ، جزاءً لهم على أدبهم مع الله ورسوله . وطاعتهم لله ورسوله . وذلك على الرغم من عداء الكافرين . وما الذين كفروا بمعجزين في الأرض ومأواهم النار وبئس المصير ..)

ثمّ قدم صاحب الظلال لما بعد المجموعة الأولى من المقطع بقوله :

(إن الإسلام منهاج حياة كامل ؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها ، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفي كل حركاتها وسكناتها . ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ؛ وينسّق بينها

جميعاً ، ويتجه بها إلى الله في النهاية .

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق . لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت . وإلى جانبها جولة ضخمة في مجالي الوجود . ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله ، وسوء أدب المنافقين . إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين . وها هو ذا في هذا الدرس يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت ؛ إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله - ﷺ - وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء ؛ إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول ودعائه ... فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنتظم بها علاقاتها . والقرآن يربِّيها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء) .

المجموعة الأولى
وهي إحدى عشرة آية

﴿ **ويقولون** ﴾ أي يقول المنافقون بألسنتهم وهو خلاف ما في قلوبهم ﴿ **آمنا بالله وبالرسول** ﴾ أي صدّقنا بقلوبنا بالله وبالرسول ﴿ **وأطعنا** ﴾ الله والرسول ﴿ **ثم يتولى** ﴾ أي يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله ﴿ **فريق منهم من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد إعلانهم الإيمان والإسلام ، وإعطائهم الطاعة ، فهم يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ المخلصين ، قال النسفي : (وهو إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا ، لا إلى الفريق المتولي وحده ، وفيه إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان ؛ لاعتقادهم ما يعتقد هؤلاء ، والإعراض وإن كان من بعضهم فالرضا بالإعراض من كلهم) ﴿ **وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم** ﴾ الرسول ﷺ ﴿ **بينهم إذا فريق منهم معرضون** ﴾ أي فاجأ الإعراض من فريق منهم ﴿ **وإن يكن لهم الحق** ﴾ أي إذا كان الحق لهم على غيرهم ﴿ **يأتوا إليه** ﴾ أي إلى الرسول ﷺ ﴿ **مذعنين** ﴾ أي جاؤوا سامعين مسرعين في الطاعة ؛ طلباً لحقّهم ، لا رضاً بحكم رسولهم قال النسفي : والمعنى : أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ ، والعدل الحق ، يمتنعون عن المحاكمة إليك ، إذا وكبهم الحق ؛ لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك ؛ لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم) ﴿ **أفي قلوبهم مرض** ﴾ من

أمراض القلوب ﴿ **أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله** ﴾ قال النسفي : (قسَّم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضىٰ القلوب ، منافقين أو مرتابين في أمر نبوّته ، أو خائفين الحيف في قضائه) ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله ﴿ **بل أولئك هم الظالمون** ﴾ أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون ، يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ ، فمن ثمّ يأبون المحاكمة إليه ، قال ابن كثير في الآية : (يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأيّاً ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات ...)

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ والآيات التي مرّت معنا تذكّر ناساً يتظاهرون بالدخول في الإسلام ، ولكنهم إذا دعوا إلى الاحتكام إلى الإسلام في أمر يتعارض مع مصالحهم رفضوا أن يحتكموا إلى الإسلام وأهله ، فهؤلاء ليسوا من الداخلين في الإسلام ، وبعد أن عرض الله لنا هذه الظاهرة التي تتنافى مع الهدىٰ والإسلام ، يعرض الآن موقف المؤمنين الصادقين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ، ويعطينا بذلك علامة من علامات الاهتداء والدخول في الإسلام كله ، ثم يبشّر هؤلاء :

﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله** ﴾ أي إلى كتابه ﴿ **ورسوله** ﴾ أي إلى شخصه في حياته ﷺ وإلى سنته بعد وفاته ﴿ **ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ أي سمعاً وطاعة ، أي سمعنا قول الله والرسول ، وأطعنا أمر الله والرّسول ، فهذه علامة الاهتداء ، وعلامة الدّخول في الإسلام كله ، ولهذا وصفهم الله بالفلاح : وهو نيل المطلوب ، والسلامة من المرهوب ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون ، ثم بشّرهم ووعدهم مع التفصيل في وصف من هو مظنة هذا الخُلق فقال : ﴿ **ومن يطع الله** ﴾ في كتابه وفرائضه ﴿ **ورسوله** ﴾ في أوامره وسُنّته ﴿ **ويخش الله** ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ **ويتقه** ﴾ فيما يستقبل ﴿ **فأولئك هم الفائزون** ﴾ الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شرّ في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

أعطانا الله عزّ وجل فيما مرّ معنا من آيات المجموعة ميزاناً نعلم به صدق الإنسان في دعواه الدخول في الإسلام وبهذا الميزان نعرف الصادق من الكاذب .

إنّ ميزان الصدق في الدخول في الإسلام كله هو : قبول الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ والسمع والطاعة ، والخشية والتقوىٰ ، وهذه علامة الهداية إلى الصراط المستقيم الذي تحدّثت عنه الآية السابقة على هذه المجموعة : ﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

وإن علامة النفاق رفض الاحتكام إلى الله والرسول ، وهي علامة الضلال ، وعلامة عدم الدخول الصادق في الإسلام وعلامة عدم الدخول في الصراط المستقيم ، فالصلة بين آيات المجموعة وبين ما سبقها واضحة ، والصلة بينها وبين محور السورة واضحة ، فلنر الآن الصلة بينها وبين سياق السورة الخاص :

قال الله تعالى في مقدمة السورة ﴿ **سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيِّنات لعلكم تذكرون** ﴾ والآيات التي مرّت معنا فيها فريضة من فرائض الله ، وهي قبول الاحتكام لله والرسول ﷺ ، وفيها آيات بيّنات تعظ المسلم وتذكّره ؛ وتعظه من أن ينحرف عن أمر الله ، أو يشك ، أو يرتاب ، أو يرفض الاحتكام إلى الله والرسول ، أو يرفض الإذعان الكامل في أيّ حال .

وبعد أن تقرّر أن طاعة الرّسول ﷺ فريضة من فرائض الله ، وأنّها علامة الإيمان الصادق ، ومظهر الدخول في الإسلام ، والصراط المستقيم ، فإن المجموعة تتجه لعرض موقف المنافقين من الطاعة ، ثم لعرض الموقف الصحيح منها ، ثمّ تعقّب بوعد لأهل الإيمان ، كما عرضت موقف المنافقين من الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ ، والموقف الصحيح من ذلك ، ثمّ أتبعت ذلك بوعد .

فالمجموعة تسجّل موقفاً خاطئاً ، ثمّ تصحح ، ثم تَعِد ، ثم تعود لتسجيل موقف خاطىء ، ثم تصحح ، ثمّ تَعِد .

إنّ رفض الاحتكام إلى الله والرسول من قِبَل المنافق هو أثر عن تصوره أن الفلاح والفوز الرفضِ ، فعندما يسجّل الله عز وجل الموقف الصحيح ، ويبيّن أن الفلاح والفوز في غير ذلك ، فذلك تصحيح وتوجيه .

وعندما يعطي المنافق الطاعة بلسانه ويمنعها على أرض الواقع ، فإنما يفعل ذلك لعدم تصوره الصحيح لرعاية الله للمسلمين ، فعندما يأتي في هذا المقام وعد من الله ، وشروط تحقيق هذا الوعد ، فإن في ذلك تصحيحاً وتوجيهاً . وفي ذلك مظهر من مظاهر تكامل المجموعة .

إنّ الذي يصرف الناس عن الدخول في الإسلام ، والالتزام به ، هو خطؤهم في فهم التكليف الإلهي أو تصوّرهم أنّ الدولة لا تكون للمسلمين ، أو توهّمهم أن الكافرين لا يُغلبون والآيات الآتية من المجموعة تعالج ذلك كله .

﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ أي حلف المنافقون بالله جهد اليمين ، ووصفت أيمانهم بذلك لأنّهم يبذلون فيها مجهودهم ، وذلك يكون إذا بالغ الحالف في اليمين فبلغ غاية شدّتها ووكادتها ﴿ **لئن أمرتهم ليخرجُنّ** ﴾ أي حلفوا لئن أمرنا محمد ﷺ بالخروج إلى الغزو لنغزوَنّ ، أو لئن أمرنا بالخروج من ديارنا لنخرجنّ ﴿ **قل لا تقسموا** ﴾ أي لا تحلفوا ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ أي طاعة معروفة أمثل بكم وأولى لكم من هذه الأيمان الكاذبة ، أو الذي يطلب منكم طاعة معروفة ، أي معلومة لا يشك فيها ، ولا يرتاب ، كطاعة المخلص من المؤمنين ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها ، وقيل معناه : طاعتكم طاعة معروفة ، أي قد عرفت طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلّما حلفتم كذبتم ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ من سجيَّتهم الكذب ، حتىٰ فيما يختارونه ، وقيل معناه : ليكن أمركم طاعة بالمعروف ، من غير حلف ولا أقسام ، كما يطيع اللهَ ورسولَه المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ أي هو خبير بكم ، وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق ، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفىٰ ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها ، وفي ذلك تهديد لهم أن يُفضَحوا ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ قال ابن كثير : أي اتّبعوا كتاب الله وسنّة رسوله ﴿ **فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمّلتم** ﴾ يريد فإن تتولوا فما ضررتموه ، وإنّما ضررتم أنفسكم ؛ فإن الرسول ﷺ ليس عليه إلا ما حَمّله الله تعالى ، وكلّفه من أداء الرسالة ، فإذا أدّىٰ فقد خرج عن عهدة تكليفه ، وأمّا أنتم فعليكم ما كلّفتم من التلقي بالقبول والإذعان والعمل ، فإن لم تفعلوا وتولّيتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ أي وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم ، فقد

أحرزتم نصيبكم من الهدىٰ فالضرر والنفع عائدان إليكم ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ أي إلا أن يبلّغ فليس له نفع في قبولكم ، وليس عليه ضرر في توليكم ﴿ **المبين** ﴾ أي الظاهر الواضح لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات .

كلمة في السياق :

رأينا أنّ هذا المقطع قد سبق بقوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبيّنات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ وقد ذكر الله عز وجل في آخر آية عرضناها : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ فدلّ على أن الصراط المستقيم هو الطاعة لله والرسول ، وقد عرض الله علينا فيما مرّ ظاهرتين خاطئتين تتنافيان مع الطاعة والاهتداء وهما : رفض الاحتكام إلى الله والرسول ، وادّعاء الطاعة باللسان ، والأمر على خلافه ، وهذا يدّلنا على أن الصراط المستقيم مظهره قبول الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ في كل شيء ، والطاعة الكاملة في الظاهر والباطن ، والآن تأتي بشارة لأهل الإيمان بالاستخلاف ، ومجيء هذه البشارة في هذا المقام يشير إلى أن المنافقين ليس لهم في هذه البشارة نصيب ، وإنما هي بشارة لمن دخل دخولاً حقيقياً في الصراط المستقيم ، أي هي بشارة لمن دخل في الإسلام كله ، اعتقاداً وعملاً ، وقام بحقّ التكليف الإلهي .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾ وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ، ويورثهم الأرض ، ويجعلهم خلفاء فيها كما فعل بمن حمل دينه من قبل ، وأن يمكّن الدين المرتضىٰ وهو الإسلام - وتمكينه تثبيته وتوطيده - وأن يؤمّن سربهم ، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه ، وقد فعل جل جلاله ، ونسأله سبحانه أن يفعل ، فنحن الآن في غربة الإسلام ، ونحن في خوف وضعف ﴿ **يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** ﴾ يحتمل أن يكون المراد : أن هذا التمكين من أجل أن يعبدوا ، ويمكن أن يكون المراد أنّ هذا التمكين يكون في حال كونهم عابدين ﴿ **ومن كفر بعد ذلك** ﴾ أي بعد هذا التمكين ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أي هم الكاملون في فسقهم ، حيث كفروا تلك النّعمة الجسيمة ، وجسروا على غمطها ، وهي آية تدلّ على صحة الإسلام ، وهي نعمة تستوجب الشكر لا الكفر . ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ قال النسفي : (معطوف على ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا**

الرسول ﴾ ولا يضرّ الفصل وإن طال) .

أقول : مجيء هذا الأمر بعد الوعد - مع كونه معطوفاً على ما ذكر - يفيد أن عليكم أن تفعلوا ذلك في كل الأحوال قبل الاستخلاف وبعده ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ فيما يدعوكم إليه ، قال النسفي : (وكرّرت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها) ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أي لكي ترحموا ، فإنها من مستجلبات الرحمة .

كلمة في السياق :

من خلال العرض السابق اتضحت لنا خصائص رئيسية في الإيمان والنفاق ، واتضحت لنا أوامر هي من الإسلام ، واتضح لنا ما وعد به أهل الإسلام الصادقون .

وقد رأينا أن ذلك كله يتفق مع محور السورة ، الآمر بالدخول في الإسلام كله ويتفق مع سياق السورة ، والآن يأتي نهي ينهىٰ عن خُلِق يتنافىٰ مع الإسلام ، وهو أن يظنّ مسلم بأنّ الكافرين لا يغلبون ، وفي النص إشارة إلى أنّ الكافرين قد يمتلكوْن من أسباب القوة أكثر مما يملكه المسلمون ، ويأتي هذا بعد البشارة بالاستخلاف ، حتىٰ لا يتوهّم متوهّم أن قوة الكافرين تحول دون استخلاف الله للمسلمين .

﴿ **لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض** ﴾ أي فائتين الله ، بألا يقدر عليهم فيها ﴿ **ومأواهم النار** ﴾ أي لا يفوتون الله ، ومأواهم النار ﴿ **ولبئس المصير** ﴾ أي المرجع ، وأي مصير أفظع من النار ، وبئس المآل ، وبئس القرار ، وبئس المهاد .

وبهذا انتهت المجموعة الأولىٰ ، وقد رأينا محلها في السياق الخاص ، ومحلها في السياق العام ، ومحلها في خدمة محور السورة ، والآن تأتي المجموعة الثانية ، وهي مجموعة تتحدث عن مواضيع لها علاقة في الاستئذان ، ودخول البيوت ، وهو موضوع مرّ معنا قبل المقطع الثاني ، فكأن ما يرد هنا استمرار لما ورد هناك .

غير أنه قد فصل بين آيات الاستئذان بمعانٍ متعددة ، بعضها يقتضيه سياق الآيات التي ورد فيها الاستئذان هناك ، وبعضها يخدم قضية الاستئذان ههنا .

جاءت آيات الاستئذان هناك في سياق الكلام عن القذف والزنىٰ فلم يتناسب في ذلك السياق أن يذكر موضوع الاستئذان من قِبَل المماليك والصغار ... ، ثمّ إنّ موضوع الاستئذان بالنسبة للطوّافين يحتاج إلى مقدّمات ، ولذلك فقد جاء هنا بعد

مقدّمات طويلة توطّىء للالتزام .

لقد جاء في وسط السّورة مقطع يتحدث عن الهداية والضلال ، ثمّ جاءت مجموعة تحدث عن علامات الهداية والضلال ، وكلّ ذلك قبل ما تبقّى من المقطع الثالث لاحتياج هذه المعاني إلى تلك التوطئات .

لقد جاءت في وسط السورة آيات فيها معان تخدم الالتزام في الأحكام ، وجاء على حافتي هذه الآيات آيات فيها أحكام . وقبل أن نعرض آيات المجموعة الثانية من المقطع الثالث فلنذكر بعض النقول والفوائد .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ..** ﴾ قال الأستاذ المودودي في تفسيره لسورة النور :

(هذا وعد من الله تعالى للمسلمين ، بأنه سيجعلهم خلفاء الأرض - أي أئمة الناس وقادتهم - والمقصود من هذه الآية - كما أشرنا إليه من قبل - تنبيه المنافقين على أن هذا الوعد الذي قد قطعه الله تبارك وتعالى للمسلمين ، ليس الخطاب فيه لكل من ينتمي إلى الإسلام ولو اسماً ، بل إنما هو للمسلمين الذين هم صادقون في إيمانهم ، وصالحون باعتبار أخلاقهم وأعمالهم ، ومتّبعون لدين الله الذي قد ارتضاه لهم ، وملتزمون لعبادته وعبوديته وحده ، وغير مشركين به شيئاً ، وأما الذين ليسوا على تلك الصفات ، وإنما يدّعون الإيمان بألسنتهم ، فلا يستأهلون هذا الوعد ؛ لأنه لم يقطع لهم ، فلا يرجون أن ينالوا نصيباً منه .

قد رأينا بعض المغرضين من الناس يجعلون « الخلافة » بمعنى : مجرد المُلْك والقهر والغلبة والحكم والتمكن ، ثم يستنتجون من هذه الآية أن كل من حصل له العلو والغلبة في الأرض ، فهو مؤمن صالح ، متّبع لدين الله المرتضى ، قائم بعبوديته مجتنب للشرك به . بل هم - فوق ذلك - يبدّلون مفهوم كل كلمة من كلمات الإيمان والصلاح والدين والعبادة والشرك ، حتى يجعلوها متفقة مع أهوائهم ونظريتهم الزائغة هذه . فهذا أشنع تحريف معنوي للقرآن ، قد فاق تحريف اليهود والنصارى لكتبهم ، عندما أعطى لآية الاستخلاف هذه معنى يريد أن يمسخ تعليم القرآن كله ، ولا يترك شيئاً من الإسلام في مقامه ، فإنه لابد - بعد هذا التحريف للخلافة - أن تنطبق هذه الآية على كل من

لهم العلو والغلبة في الأرض اليوم ، أو كانت لهم في الزمن الماضي ، ولو كانوا جاحدين بالله والرسالة والوحي واليوم الآخر ، منغمسين في أدناس الفسق والفجور التي قد عدّها القرآن من الكبائر ، كأكل الربا ، وارتكاب الزنا ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، وما إليها . فإن كان أمثال هؤلاء من المؤمنين الصالحين ، ولأجل إيمانهم وصلاحهم نالوا العلو والغلبة في الأرض ، فأي معنى يمكن أن يكون للإيمان غير الإذعان لقوانين الطبيعة ، وللصلاح غير العمل وفق هذه القوانين ؟ وماذا يمكن أن يكون دين الله المرتضى غير بلوغ الكمال في العلوم الطبيعية وترقية الصناعة والتجارة والسياسة القومية ؟ وهل يمكن بعد التسليم بنظريتهم الزائغة أن تكون عبادة الله غير التزام القواعد والضوابط التي تساعد على بلوغ النجاح في السعي الفردي والاجتماعي فقط ؟ وهل يبقي الشرك إذن عبارة عن شيء غير مزج هذه القواعد والضوابط المفيدة بالطرق المضرة ؟ ولكن هل لأحد قد قرأ القرآن مرة بقلب مفتوح ، وعينين مبصرتين أن يقول بأن هذه هي المعاني لكلمات الإيمان ، والعمل الصالح ، ودين الحق ، والعبادة ، والتوحيد ، والشرك المذكورة في القرآن ؟ الحقيقة أنه لا يكاد يقول بهذه المعاني إلا رجل لم يكن قد قرأ القرآن ولا مرة واحدة من بدئه إلى آخره ، مع فهم معانيه ، وإدراك مقاصده ، وإنما أخذ آية من هنا وأخرى من هناك فحرَّفها وفقاً لأهوائه ونظرياته وأفكاره ، أو رجل مازال عند قراءته للقرآن يبطل ويخطّىء بزعمه جميع الآيات التي فيها دعوة للناس إلى الإيمان بالله رباً واحداً ، وإلهاً لا شريك له ، وبوحيه الذي أنزله على رسوله وسيلة وحيدة لمعرفة الهداية ، وبكل نبي أرسله إلى الدنيا قائداً ، يجب على الناس أن يطيعوه ، أو فيها الأمر للناس باعتقاد حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، بل قيل لهم فيها أن لا فلاح للذين يريدون الحياة الدنيا فقط ، وهم عن الآخرة غافلون .

وهذه الموضوعات قد أبدىء في ذكرها وأعيد في القرآن بكثرة ، وبطرق مختلفة ، وبألفاظ واضحة صريحة ، حيث يتعسّر علينا تصديق أن يقرأ أحد القرآن - بإخلاص وأمانة - ثم يقع في مثل الأخطاء والأغلوطات التي قد وقع فيها هؤلاء المفسرون الجدد لآية الاستخلاف ، فالحقيقة أن المعنى الذي بيَّنوه لكلمتي : الخلافة والاستخلاف ، وعلى أساسه قد رفعوا بناءهم ، إنما اختلقوه من عند أنفسهم ، ولا يكاد يقول به أحد يعرف القرآن .

إن القرآن يستعمل كلمة الخلافة بثلاثة معان مختلفة ، وفي كل موضع من مواضع

استعماله لهذه الكلمة نعرف بسياقها ، وسياقها من دون شك في أي معنى من هذه المعاني الثلاثة قد استعملها . فمعناها الأول : (حمل أمانة السلطة والصلاحيات) وبهذا المعنى إن ذرية آدم كلها خليفة الله في الأرض . ومعناها الثاني : (ممارسة صلاحيات الخلافة تحت أمر الله التشريعي – لا تحت أمره التكويني فقط – مع التسليم بحاكميته العليا) وبهذا المعنى إنما المؤمن الصالح هو الخليفة في الأرض ، لأنه هو الذي يؤدي حق الخلافة على وجهه الصحيح ، وعلى العكس منه ليس الكافر والفاسق بخليفة لله ، بل هو خارج عليه ، لأنه يتصرف في ملكه على طريق معصيته . ومعناها الثالث : (قيام أمة جديدة مقام أمة غالبة في عصر من العصور بعد انقراضها) المعنيان الأولان مأخوذان من الخلافة بمعنى النيابة ، والمعنى الثالث مأخوذ من الخلافة بمعنى البقاء ، والقيام مقام الغير ، وهذان المعنيان لكلمة الخلافة معروفان في لغة العرب . فمن قرأ الآن آية الاستخلاف بهذا السياق والسباق فإنه لا يكاد يشك لطرفة عين في أن كلمة الخلافة قد استعملت في هذا المقام بمعنى الحكومة القائمة بحق نيابة الله تعالى ، وفق أمره الشرعي ، ولأجل ذلك يأبىٰ الله تعالى أن يشمل المنافقين المدّعين بإسلامهم في وعده الذي يقطعه للمسلمين في هذه الآية ، فضلاً عن أن يشمل فيه الكفار ، ولأجل ذلك يقول : إنه لا يستحق هذا الوعد إلا المتصفون بصفات الإيمان والعمل الصالح ، ولأجل ذلك يذكر سبحانه وتعالى من ثمرات قيام الخلافة في الأرض أن يقوم دينه الذي ارتضى ، أي الإسلام ، على الأسس القوية ، ولأجل ذلك ذكر هذه النعمة مشترطة بأن يبقىٰ المسلمون قائمين بحق عبادته ﴿ **يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** ﴾ أما توسيع هذا الوعد إلى النطاق الدولي ، والتقرّب به إلى كل من كان له العلو والكلمة النافذة في العالم – أمريكا أو روسيا أو غيرهما – فإن هو إلا طغيان في الغي ، وتماد في الجهل والضلال ولا غير .

وأمر آخر يجدر بالذكر في هذا المقام ، هو أن هذا الوعد وإن كان شاملاً للمسلمين في جميع الأزمان ، ولكن الخطاب المباشر فيه لأولئك المسلمين الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ . وحقاً إن المسلمين كانوا في حالة شديدة من الخوف أيام نزول هذا الوعد ، حتى كانوا لا يضعون سلاحهم ، وما كان دين الإسلام قد تمكّن لهم ، حتى ولا في أرض الحجاز ، ولكن هذه الحالة ما تبدّلت في عدة سنوات بحالة الأمن والرفاهة والطمأنينة فحسب ، بل تجاوز فيها الإسلام حدود جزيرة العرب ، وانتشر في أكبر جزء

من إفريقية وآسيا ، ولم ترسخ جذوره في منبت أرومته فقط ، بل وفي أكثر أقطار الأرض . فهذا شاهد تاريخي بأن الله تعالى قد أنجز وعده في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم . ولا يكاد يشك بعد ذلك رجل يقيم أدنى وزن للإنصاف في أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان حقٌّ قد صادق عليه القرآن نفسه ، وأن الله تعالى نفسه يشهد بكونهم مؤمنين صالحين . بيد أن من كان في ريب من ذلك ، فعليه أن يراجع كتاب نهج البلاغة ، ويقرأ فيه الكلام الآتي لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لما استشاره عمر في غزو الفرس بنفسه :

(إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خُذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعدّه وأمدّه ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع . ونحن على موعد من الله تعالى حيث قال عز اسمه ﴿ **وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض** .. ﴾ والله منجز وعده وناصر جنده . ومكان القيِّم بالأمر[١] مكان النظام من الخرز : يجمعه ويضمُّه ، فإذا انقطع النظام ، تفرق الخرزُ وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً . والعرب اليوم وإن كانوا قليلين فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قُطباً واستدر الرَّحىٰ بالعرب وأصلهم دونك نارَ الحرب . فإنك إن شَخَصت[٢] من هذه الأرض انْتَقَضَت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تَدَعُ وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولون : هذا أصل العرب ، فإذا قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبِهم عليك[٣] وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين ، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم ، فإنا لم نكن نقاتل في ما مضىٰ بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالنَّصر والمعونة[٤] .

---

(١) القائم به يريد الخليفة ، والنظام هو السلك الذي ينظم فيه الخرز .

(٢) شخصت : خرجت .

(٣) انتقاضهم عليك للقتل .

(٤) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٨٣ .

ولكل من يقرأ هذا الكلام أن يرى : من الذي يجعله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصداقاً لآية الاستخلاف ؟)

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون** ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ « من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لاحق له » وذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم كسبب لنزول الآيات عن الحسن قال : « كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن ، وعلم أن النّبي ﷺ سيقضي له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النّبي ﷺ أعرض وقال : أنطلق إلى فلان ؛ فأنزل الله هذه الآية فقال النبي ﷺ « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعي إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب له فهو ظالم لا حق له » وهذا حديث غريب وهو مرسل .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال قتادة في هذه الآية ﴿ **أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقبياً بدرياً أحد نقباء الأنصار - أنّه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال : بلى ، قال فإنّ عليك السمع والطاعة ، في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك . وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتّبع كتاب الله وقال قتادة : ذكر لنا أنّ أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة ، والنّصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة ، قال وقد : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولّاه الله أمر المسلمين . ورواه ابن أبي حاتم . والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله ، وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله ، أكثر من أن تحصر في هذا المكان)

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾ قال النسفي : (وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية وهي جامعة لأسباب الفوز) .

عن ذلك ؛ إعظاماً لنبيّه ﷺ قال فقولوا : يا نبيّ الله ، يا رسول الله . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يبجّل وأن يعظّم وأن يسوّد . وقال مقاتل في قوله ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ يقول : لا تسمّوه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبدالله ، ولكن شرّفوه ؛ فقولوا : يا نبيّ الله ، يا رسول الله ، وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ قال : أمرهم الله أن يشرّفوه ، هذا قول ، والظاهر من السياق كقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا** ﴾ إلى آخر الآية ، وقوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ إلى قوله ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم** ﴾ الآية فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبيّ ﷺ ، والكلام معه وعنده ، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثاني في ذلك أن المعنى في ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي والله أعلم) .

٤ - عرض ابن كثير أقوال المفسرين في قوله تعالى ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لواذاً** ﴾ فقال : (قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ، ويعني بالحديث الخطبة ، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض ، حتىٰ يتغيّبوا عنه فلا يراهم . وقال قتادة في قوله ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً** ﴾ يعني لواذاً عن نبي الله وعن كتابه ، وقال سفيان ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لواذاً** ﴾ قال من الصف . وقال مجاهد في الآية ﴿ **لواذاً** ﴾ خلافاً) .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ قال ابن كثير : (روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلمّا أضاءت ما حولها جعل

الفراش وهذه الدوابّ اللائي يقعن في النّار يقعن فيها ، وجعل يحجزهنّ ويغلبنه ، فيقتحمن فيها - قال - فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النّار ، هلمّ عن النّار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها » أخرجاه (في الصحيحين) من حديث عبدالرّزاق) .

كلمة في السياق :

ختم المقطع الثالث وهو المقطع الأخير في السورة بالتذكير بوجوب تعظيم رسول الله ﷺ ، وتعظيم مجالسه ، وجعل ذلك علامة على الإيمان ، فالمقطع بدأ بتبيان ما هو من الإيمان ، وختم بما هو من الإيمان ، وتحدّث في الوسط عن أحكام من الإسلام ، والصلة بين الخاتمة وبين محور السورة واضحة .

إن محور السورة هو ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ والسلم : هو ما جاء به رسول الله ﷺ وقد قالت خاتمة السورة ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ إن هذا النص هو تفسير لقوله تعالى ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم** ﴾ فمن عزته أن يفتنكم إن زللتم ، أو يعذبكم في الدنيا والآخرة ، ومن حكمته أن يفتنكم إن زللتم ، أو يعذبكم في الدنيا والآخرة .

كلمة في سورة النور :

إن سورة النور عرضت بشكل رئيسي إلى أحكام من الإسلام : حد الزنا ، ثم حد القذف ، ثم الملاعنة ، ثم الموقف من إشاعة الفاحشة ، ثم العفو والصفح ، ثم عدم دخول بيت الغير إلا بإذنه ، ثم غض البصر ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء الزينة إلا لدوائر معينّة ، والتوبة ، وإنكاح الأيامىٰ ، والأرقاء ، والاستعفاف عن الزنا حال فقد النكاح ، والمكاتبة ، وعدم إكراه الإماء على البغاء ، وحدّدت خصائص الإيمان الكامل ، وذكرت آداب المسلم مع المساجد ، وحددت وظائف المسجد ، وذكرت خصائص روّاده ، ومثّلت لأعمال الكافرين من أهل الكتاب ، ومثّلت لأعمال الكافرين من غيرهم ، وحدّدت خلقين من أخلاق المنافقين ، وحدّدت ما يقابلهما من أخلاق المؤمنين ، ووعدت المؤمنين بالاستخلاف ، والتمكين والأمن ، وأمرت بالصلاة والزكاة وطاعة الرسول ، ونهت عن حسبان المؤمنين أن الكافرين لا يغلبون ، أو يقهرون ، ثم

أمرت الأرقاء والأطفال أن يستأذنوا على أهليهم في ثلاث أوقات ، وأمرت الكبار بالاستئذان في كل حال ، وأذنت للقواعد من النساء بالتخفف من الثياب ، وأذنت للأعمىٰ والأعرج والمريض بالأكل مما أذن لهم أن يأكلوا منه ، وأذنت للإنسان أن يأكل من بيوت دائرة حددّتها ، وأباحت أكل الجماعة ، وأكل المنفرد ، وأمرت أن يسلم الإنسان على نفسه إذا دخل بيتاً ليس فيه أحد ، وحددت بعض آداب المسلمين في اجتماعاتهم ، وأمرت بالأدب الكامل مع رسول الله ﷺ ، محددة بعض الآداب ، وبهذا يعرف المسلم ماهية كثير من دين الله ، الإسلام الذي أمر أن يدخل فيه ، ولذلك كله صلة بقوله تعالى في المحور ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ .

وقد نهت السورة عن اتباع خطوات الشيطان ، ولذلك صلة بقوله تعالى في المحور ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين** ﴾ .

وحذّرت السورة من الزلل ، وحذّرت من مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، وأوعدت من يفعل ذلك ، ولذلك صلة بقوله تعالى في المحور :

﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

ولقد جاء التحذير الأخير في السورة بعد ذكر الآيات البينات :

﴿ **وأنزلنا فيها آيات بينات** ﴾ . ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات** ﴾ . ﴿ **لقد أنزلنا آيات مبينات** ﴾ . ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ . ﴿ **كذلك يبين الله آياته والله عليم حكيم** ﴾ . ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ .

فالسورة ذكرت آيات بينات ، ثمّ حذّرت من مخالفة الأمر : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ ولذلك - كما قلنا - صلاته بآية المحور : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

وكنّا ذكرنا من قبل أنّ أيّ سورة تفصّل في محور من سورة البقرة فإنّها تفصّل في هذا المحور وفي امتدادات معانيه في سورة البقرة نفسها ولا شك أن قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ مرتبط بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة .. فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ...** ﴾ إن هناك صلة واضحة بين آية سورة البقرة المذكورة ، وبين الآيتين

اللتين شكّلتا محور سورة النّور ، ولذلك نلاحظ أن لسورة النور صلة قوية بتلك الآية ، سواء في شقّها الأول : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات** ﴾ كما رأينا أو في شقها الثاني : ﴿ **وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ فلقد وردت كلمة (الفاسقون) مرتين في سورة النور : مرة في أول السورة :

﴿ **والذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** ﴾

ومرة في أواخر السورة بعد الوعد بالاستخلاف : ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ وفي هذا إشارة إلى فظاعة جريمة الكفر بعد النّصر ، وإلى عظم جريمة القذف .

وبعد : فقد اجتمعت في هذه السّورة خصائص القرآن كلها على أوضح ما يكون ذلك ، ففيها البيان ، وفيها المثل ، وفيها الموعظة ، وفيها الهداية ، وفيها الحق ، والعدل ، وفيها الحكم التكليفي ، وفيها التعليل ، وفيها التذكير ، إلى غير ذلك مما هو من خصائص القرآن .

☆ ☆ ☆

سورة الفرقان

وهي السورة الخامسة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة من المجموعة الثالثة من قسم
المئين ، وآياتها سبع وسبعون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الفرقان : (أطلق الجمهور القول بمكيتها ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ وقال الضحاك : هي مدنية إلا أولها إلى قوله تعالى ﴿ **ولا نشوراً** ﴾ فهو مكي ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية بلا خلاف كما ذكره الطبرسي والداني في كتاب العدد ، ولما ذكر جل وعلا في آخر السورة السابقة وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ ومدح المتابعين ، وحذّر المخالفين ، افتتح سبحانه هذه السورة بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله ، أو على كثرة خيره تعالى ودوامه ، وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً إطماعاً في خيره وتحذيراً من عقابه جل شأنه . وفي هذه السورة أيضاً من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها فقال تبارك وتعالى : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم تَبَارَك الذي نَزَّلَ الفرقان عَلَىٰ عبده ليكونَ للعالمين نذيراً** ﴾ .

وقال صاحب الظلال : هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية ، وتطمين له وتقوية ، وهو يواجه مشركي قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم في وجه الهدى وصدّهم عنه .

فهي في لمحة منها تصوّر الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله ؛ وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رفيقاً ؛ ويهدهد قلبه ، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة ، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة .

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله عناداً ، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم : ﴿ **إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون** ﴾ .. أو تقول : ﴿ **أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بُكْرة وأصيلاً** ﴾ والتي تقول في استهزاء : ﴿ **أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟** ﴾ .. والتي لا تكتفي بهذا الضلال ، فإذا هي تتطاول في فجور على ربها الكبير ﴿ **وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً** ﴾ . أو تتعنت فتقول : ﴿ **لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟** ﴾ .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسه في سلسلة من مشاهد القيامة : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ .. ﴿ **بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ .. ﴿ **ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ..** ﴾

ويسلّيه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ .. ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً** ﴾ .

ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن ، واضح الحجة قوي البرهان عميق الأثر في الوجدان : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ .. ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده * وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾ ..

وهكذا تمضي السورة : في لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله وفي لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله ﷺ وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها ، فإذا ريح رخاء ورَوْح وريحان ، وطمأنينة وسلام .. وإذا صورة ﴿**عباد الرحمن**﴾... ﴿**الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً..**﴾ وكأنما تتمخّض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ؛ وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن في شجرة البشرية ذات الأشواك .

وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجيء إليه وتدعوه : ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾ ..

كلمة في سورة الفرقان ومحورها :

عندما ننظر في المعاني الموجودة في سورة الفرقان ، ونبحث عن محور لها ، يأتي بعد

ويعرض عليه نهايتهم التعيسه في سلسلة من مشاهد القيامة : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ .. ﴿ **بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ .. ﴿ **ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً** .. ﴾

ويسلّيه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ .. ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً** ﴾ .

ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن ، واضح الحجة قوي البرهان عميق الأثر في الوجدان : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ .. ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده * وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾ ..

وهكذا تمضي السورة : في لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله وفي لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله ﷺ وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها ، فإذا ريح رخاء ورَوْح وريحان ، وطمأنينة وسلام .. وإذا صورة ﴿**عباد الرحمن**﴾... ﴿**الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**..﴾ وكأنما تتمخّض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة ؛ وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن في شجرة البشرية ذات الأشواك .

وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجىء إليه وتدعوه : ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾ ..

كلمة في سورة الفرقان ومحورها :

عندما ننظر في المعاني الموجودة في سورة الفرقان ، ونبحث عن محور لها ، يأتي بعد

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ...** ﴾ من سورة البقرة فإننا نجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

إن هذه الآية من سورة البقرة قد فصّلت قسماً من معانيها سورة مريم ، وتفصّل قسماً من معانيها سورة الفرقان ، إن سورة الفرقان تفصّل من هذه الآية جزءاً من قوله تعالى ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾

وذلك أن محمداً ﷺ قد بعث على فترة من الرسل بشيراً ونذيراً ، وأنزل الله معه الكتاب بالحق ، ومن ثم نلاحظ أن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ .

فكيف كان موقف الناس من هذا القرآن !! ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ..** ﴾

﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً** ﴾

﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾

وكيف كان موقفهم من الرسول !! .

﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ..** ﴾

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا** ﴾

﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً** ﴾

من هذه الآيات الواردة في السورة ومن قوله تعالى فيها :

﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً** ﴾ .

ومن قوله تعالى فيها : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً** ﴾

من مثل هذا وغيره في السورة فهمنا أن محور هذه السورة هي الآية التي ذكرناها من سورة البقرة وخاصة قوله تعالى منها :

﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾

وسنرى ذلك بالتفصيل أثناء عرض السورة إن شاء الله .

....

تتألف السورة من مقدمة ، ومقطعين ، وكلها تدور حول كون محمد ﷺ بشيراً ونذيراً ، وأن الله قد أنزل عليه الكتاب ، وكيف كان موقف الكافرين ، وما هو الرد عليه ، وما هي أمهات القضايا التي كان فيها التبشير والإنذار ، وما هو موقف الناس منها ، وإذا كانت السورة اسمها سورة الفرقان فقد كان فيها من المعجزات الزائدة على الإعجاز العام في القرآن ما به تظهر الحجة ظهوراً كاملاً ، ويتم الفرق بين الحق والباطل .

وأمام المواقف الكافرة من هذا الفرقان ومن هذا البشير النذير تبّين السورة كيف ينبغي أن تكون مواقف البشير النذير ، وما هي المعاني التي يجابه بها هذه المواقف . كل هذه المعاني نجدها في السّورة .

....

ولكون الآية التي هي محور سورة الفرقان آتية في حيز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ... ﴾ فإننا نجد آثار ذلك في السورة .

لقد جاءت آية ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ... ﴾ من سورة البقرة في سياق الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ لتخدمها وتعلل لها وتدلل ، وتمكنها في القلب ، وجاء قبل آية ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ ما كان كالتمهيد والأساس لذلك الأمر ، فكذلك ههنا : إن ما قبل سورة النور كان تمهيداً لها وأساساً يوصّل إليها ، وهذه سورة الفرقان تأتي لتخدم سورة النور ، وكل ذلك على أسلوب عجيب ما كان ليكون لولا أن الله رب العالمين هو منزل هذا القرآن الذي لا يحيط أحد بكمالاته .

....

فإذا تقرر هذا فلنبدأ عرض السورة مبتدئين بالمقدمة .

مقدمة السورة

وتتألف من ثلاث آيات وهذه هي مع البسملة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان** ﴾ أي القرآن وسمّي القرآن فرقاناً لفصله بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والهدىٰ والضلال ، والغيّ والرشاد ، ومعنى تبارك الله : أي تزايد خيره ، وتكاثر أو تزايد على كل شيء ، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، وهي كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده ﴿ **على عبده** ﴾ محمد ﷺ ، قال ابن كثير : (هذه صفة مدح وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في مقام الدعوة إليه .. وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب ونزول الملك إليه)﴿ **ليكون** ﴾ أي الرسول ﷺ والقرآن ﴿ **للعالمين** ﴾ إنسهم وجنهم ﴿ **نذيراً** ﴾ أي منذراً أي مخوّفاً أي إنّما خصّه بهذا الكتاب المفصّل العظيم المبين المحكم الذي جعله فرقانا عظيماً ليخصّه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ﴿ **الذي له ملك السموٰات والأرض** ﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي له ملك السموٰات والأرض على الخلوص ﴿ **ولم يتخذ ولداً** ﴾ كما زعم اليهود والنّصارىٰ في عزير والمسيح عليهما السلام ﴿ **ولم يكن له شريك في الملك** ﴾ كما زعم المشركون ، ومن ذلك المجوس الذين يقولون

بالثنوية من النّور والظلمة ، ويزدان وأهر من ﴿ **وخلق كل شيء** ﴾ أي أحدث كل شيء وحده ﴿ **فقدّره تقديراً** ﴾ أي فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه ، كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي نراه ، فقدّره للتكاليف والمصالح في الدين والدنيا ، أو قدره للبقاء إلى أمد معلوم ، أو قدّره تقديراً بما يناسب الحكمة التي لا يحيط بها إلا هو ﴿ **واتخذوا** ﴾ أي واتخذ الكافرون ﴿ **من دونه** ﴾ أي من دون الله ﴿ **آلهة** ﴾ من الحجر والبشر والشجر والشمس والنجوم والقمر ﴿ **لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون** ﴾ أي إنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شيء وهم يُخلَقون ﴿ **ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً** ﴾ فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ **ولا يملكون موتاً** ﴾ أي إماتة ﴿ **ولا حياة** ﴾ أي إحياءً ﴿ **ولا نشوراً** ﴾ أي إحياء بعد الموت ، فكيف يعبد من هذا شأنه ، وكيف تترك عبادة من شأنه الخلق والضرّ والنفع والإماتة ، والإحياء والنشور ؟ .

نقـل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾ (قدر حجمه وشكله . وقدر وظيفته وعمله . وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ، لما يدعو إلى الدهشة حقاً ، وينفي فكرة المصادفة نفياً باتاً . ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهرة ، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير . وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل ﴿ **وخلق كل شيء فقدّره تقديراً** ﴾ .

يقول (ا . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان : « الإنسان لا يقوم وحده[1] » .

ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغاً هذه الدقة الفائقة لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان : (العلم يدعو إلى الإيمان) .

أكسيد الكربون الأوكسيجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

(ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة ،أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقة إرباً من مجرد حرارة مروره !

« إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم ، وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللازم ، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ــ ومعظمها سام ــ فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء ــ أي المحيط ــ الذي استمدت منه الحياة والغذاءوالمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان نفسه ... » .

ويقول في فصل آخر : « لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المئة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في المئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتي لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المئة أو أقل ، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور . ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان ــ كالنار مثلاً ــ تتوافر له » .

ويقول في فصل ثالث .

« ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع أي حيوان ــ مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره ــ من السيطرة على العالم ، منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر . وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات .

« والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان . فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في أستراليا . كسياج وقائي . ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى ، وأتلف مزراعهم ، وحال دون الزراعة . ولم يجد الأهالى وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم في سبيله دون عائق !

« وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها في أستراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار . ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد .

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية .

« ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها ؟ ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . . ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش أيضاً في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود ؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم ، الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهلٍ تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري ، رغم ذلك يدعو حقاً إلى الدهشة ! ...

« إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ؛ ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً . وبسبب جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض . وتصور إنساناً فطرياً يلاقي دبوراً يضاهي الأسد في ضخامته ، أو في مثل هذا الحجم !

« ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات ، والتي بدونها ماكان أي حيوان ــ بل كذلك أي نبات ــ يمكن أن يبقى في الوجود .. الخ » .

وهكذا ينكشف للعلم البشري يوماً بعد يوم ، شيء من تقدير الله العجيب في الخلق ، وتدبيره الدقيق في الكون ، ويدرك البشر شيئاً من مدلولات قوله في الفرقان الذي نزله على عبده : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾ ..

ومع هذا فإن أولئك المشركين لم يدركوا شيئاً من هذا كله . ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ؛ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾ ..

كلمــة في السياق :

هذه مقدمة السورة وهي تتحدّث عن بعثة الرسول وإنزال القرآن عليه لينذر العالم كله ، وكيف كان الناس جميعاً عندما بعث الرسول ﷺ قد عبدوا غير الله فلنر صلة هذه المقدمة في المحور : إنّ محور السورة هو : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ ويوم بعث محمد ﷺ لم يبق في العالم كله أحد على الدين الحق كما هو معروف من قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه وقد عرضناها في كتابنا (الرسول) وكما هو مفهوم من قوله تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل** ﴾ ومعنى هذا أن الناس قبل بعثة رسول الله ﷺ كانوا جميعا كافرين ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ وهذا الذي نراه في قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة** ﴾ أي اتخذ العالمون من دونه آلهة وهذا هو الحال الذي إذا صارت إليه البشرية فإن سنّة الله أن يرسل إليها رسلاً مبشرين ومنذرين وينزل معهم الكتاب ، وهذا الذي كان إذ أنزل الله عز وجلّ هذا القرآن على عبده محمد ﷺ لينـذر ويبشـرّ وهكـذا نجد أن مقدمة السورة فيها الإشارة إلى أن بعثة محمد ﷺ هي مظهر سنّة الله عز وجل المذكورة في قوله تعالى ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ فليس بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن في الوقت الذي لم يبق فيه موحّد إلا استمراراً لسنة الله عز وجل ، فكيف استقبل الكافرون القرآن والرسول والإنذار ، والدعوة إلى التوحيد ؟ هذا وغيره سنجده في المقطعين الآتيين في السورة فلنر المقطع الأول .

المقطع الأول

ويمتد من الآية (٤) إلى الآية (٣١) وهذا هو :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ

بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

التفسير :

﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ قالت هذا الكلام قريش ، ويقوله كل كافر ، وأكثر من فلسف فيه فلسفة ظالمة المستشرقون والمبشرون في عصرنا ﴿ **إنْ هذا** ﴾ أي القرآن ﴿ **إلا إفك افتراه** ﴾ أي كذب اختلفه ﴿ **وأعانه عليه قوم آخرون** ﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين وقد ألف المبشرون والمستشرقون الكتب في مصادر هذا القرآن ، التي استعان بها محمد ﷺ - في زعمهم - وهكذا نجد أن منطق الكافرين في كل عصر واحد ﴿ **فقد جاؤوا** ﴾ أي فقد جاء هؤلاء الزاعمون ﴿ **ظلماً وزوراً** ﴾ التقدير : جاؤوا بظلم وزور ، وظلمهم أنهم جعلوا العربي يتلقّن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ، أو ظلمهم أنهم افتروا على الحقيقة ما ليس منها ، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو برىء منه إليه ﴿ **وقالوا** ﴾ أي وقال هؤلاء الكافرون أيضاً في رفضهم لهذا القرآن ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ أي خرافات الأولين وأحاديثهم ﴿ **اكتتبها** ﴾ أي استنسخها وكتبها لنفسه ﴿ **فهي تملى عليه** ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ **بكرة** ﴾ أي أول النهار ﴿ **وأصيلاً** ﴾ أي آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا ، هذه هي الشبه التي زوّرها الكافرون ضدّ القرآن : أنه كذب ، وأنه أساطير الأولين ، وأن غير محمد ﷺ قد ساعده عليه ، ويأتي الجواب الدامغ على هذه الشبه بآية واحدة : ﴿ **قل** ﴾ أي : جواباً على هؤلاء ﴿ **أنزله** ﴾ أي : أنزل هذا القرآن ﴿ **الذي يعلم السر في السموٰات والأرض** ﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي يعلم كل سر خفي من أسرار السموٰت والأرض ، وكل سر خفي في السموٰت وفي الأرض ، لقد اشتمل هذا القرآن على علوم وأسرار يستحيل في العادة - أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام ، أو غيره ساعة نزول القرآن ، وذلك وحده دليل على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ، وليس من عند محمد ﷺ ، لا منفرداً ، ولا بالتعاون مع الآخرين ، وقد رأينا خلال هذا التفسير ، ورأينا في بحث المعجزة القرآنية من كتابنا (الرسول) الكثير من أسرار السموٰت والأرض ، ممّا تعرّض له القرآن ، ولم يك أحد يعرفه أو يتصوره أو يخطر بباله ، فما بالك إذا كان مع هذا غيره وغيره وغيره ، مما لا يمكن أن يتصور عاقل أن

هذا القرآن يمكن أن يكون بشري المصدر ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ **إنه كان غفوراً رحيماً** ﴾ أي ومن ثم فإنه يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة ، وإن استوجبوها بمكابرتهم . قال ابن كثير : (هذا دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبارهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة ، والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدىٰ ...)

فوائـد :

١ - بمناسبة قول الكافرين عن القرآن إنه إفك ، وأساطير الأولين ، قال ابن كثير : (وهذا كلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته ، وبعده عن الكذب والفجور ، وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث : الأمين ؛ لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيما يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون مجنون ، وتارة يقولون كذاب وقال الله تعالى ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوٰت والأرض** ﴾ الآية أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ، ماضياً ومستقبلاً ، الذي يعلم السر أي الله الذي يعلم غيب السمٰوٰت والأرض . ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

٢ - كنا تحدثنا من قبل عن كتاب (موريس بوكاي) الطبيب الفرنسي (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ونقلنا عن هذا الكتاب بعض النقول ، وعندما ظهر الكتاب إلى الوجود لم يكن مؤلفه قد أعلن إسلامه ، ولقد حاول في كتابه هذا أن يقدم دراسة شاملة ــ من وجهة نظره العلمية ــ حول كل ما ذكر في القرآن ، أو في التوراة والإنجيل الحاليين ، مما يمكن أن يمتحن على ضوء معلومات الإنسان

المعاصرة ، فوصل إلى أنه لا يوجد في القرآن نص يمكن امتحانه علمياً إلا وهو سابق للعلم ، وأنه لا يتناقض مع أي معطيات علمية قطعية على عكس التوراة والإنجيل فيما وصلانا ، فإنّ الكثير مما فيهما لا يثبت أمام المعطيات العلمية ، ولقد تكلم في عشرات الأبواب التي تعرّض لها القرآن وكانت النتيحة واحدة ، وهذا في الحقيقة مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن ، ودليل على أنّ منزله هو الذي يعلم أسرار السموٰت والأرض : ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموٰت والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ يقول موريس بوكاي في مقدّمة كتابه : (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف ، قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث .

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل . أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ـــ أي سفر التكوين ـــ فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا .

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا Lue ، وأن هذا الأخير يقدّم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض) .

كلمـــة في السياق :

رأينا في مقدمة السورة كيف أن الله عز وجل ذكر أنه أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً ، وقد بدأ هذا المقطع في عرض موقف الكافرين من القرآن ، ثم ردّ عليه ، وكنا ذكرنا أن السورة ستتعرض لكيفية استقبال الكافرين للقرآن ولبعثة الرسول ﷺ ، وللإنذار ، وللدعوة إلى التوحيد وقد رأينا في هذه الآيات موقفاً من مواقف الكافرين من القرآن ، ورداً على ذلك الموقف ، والآن يذكر لنا السياق موقفاً من

مواقفهم من البعثة والرسول ، ويردّ عليه ، وصلة ذلك بمقدمة السورة واضحة ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ فهاهم الناس أصبحوا أمة واحدة ، وها أنّ الله قد أرسل لهم محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليه القرآن فكيف استقبل الكافرون القرآن ؟ ردّت على ذلك الآيات السابقة ، وماذا قالوا في الرسول ؟ هذا الذي سنراه فيما يأتي .

فائــدة :

نلاحظ أن بدء النبوة كان بعد إذ أصبح الناس كلهم كافرين ، وأن ختم النبوة كان برسالة محمد بعد إذ أصبح الناس كلهم كافرين ، ومن حكَم ختم النبوة أن البشرية لن تعود مرة ثانية إلى أن تصبح كافرة ، ففي الحديث « لن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله » ثم إن القرآن الذي يقوم بعملية النذارة والبشارة محفوظ إلى قيام الساعة ؛ ومن ثم فلا حاجة إلى بعثة جديدة ، وإنما الحاجة إلى تجديد ، وهذا يقوم به أولياء هذه الأمة وعلماؤها « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها » ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وقالوا مال هذا الرسول** ﴾ يسمونه رسولاً من باب السخرية كأنهم قالوا : أي شيء لهذا الزاعم أنه رسول ﴿ **يأكل الطعام** ﴾ كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ **ويمشي في الأسواق** ﴾ أي يتردّد فيها وإليها ؛ طلباً للتكسب والتجارة ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** ﴾ يقولون : هلّا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون شاهداً على صدق ما يدّعيه ﴿ **أو يُلْقَىٰ إليه كنز** ﴾ ينفق منه ﴿ **أو تكون له جنة يأكل منها** ﴾ أي تسير معه حيث سار ﴿ **وقال الظالمون** ﴾ دلّ هذا على أن اقتراحاتهم كلها وأقوالهم كلها من باب الظلم ﴿ **إن تتبعون** ﴾ أي ما تتبعون إن اتبعتم ﴿ **إلا رجلاً مسحوراً** ﴾ أي رجلاً سُحِر فَجُن .

يقولون : إن صح أنه رسول الله فما باله يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ؟؟ يعنون أنه كان يجب أن يكون ملَكاً مستغنياً عن الأكل والتعيّش ، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء ، يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه

كالمياسير ، وإذا لم يكن هذا وهذا وهذا فما هو إلا رجل مجنون هكذا كان موقفهم من الرسول أنهم نفوا الرسالة عنه لأنه ليس ملكاً وليس معه ملك ، وليس معه كنز ، وليس له بستان ، وبعد أن عرض الله موقفهم تأتي الآيات لتعزي وتنذر وتقيم الحجة ، وكل ذلك في سياق الردّ على هذا الموقف الهازىء من الرسول والردّ يأتي على ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى :

﴿ **انظر** ﴾ يا محمد وأنت أعلم بنفسك ﴿ **كيف ضربوا لك الأمثال** ﴾ أي قالوا فيك تلك الأقوال ، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال ، من المفترى والمملَى عليه والمسحور ﴿ **فضلوا** ﴾ أي عن الحق ﴿ **فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ فلا يجدون طريقاً إلى الحق ، وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيث توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد ، يصدق بعضه بعضاً ، ثم عزّى الله رسوله ﷺ وطيب قلبه فقال ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ أي تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما قالوا ، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور ، فهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة .

هذه هي المرحلة الأولى من الرّد وفيها تبيان أنهم ضلّال وأنهم ماداموا على ماهم عليه من الآراء لا يهتدون ، وأن الله قادر على أن يعطي رسوله أكثر مما طلبوه ، ولكنه لايفعل ؛ لأن حكمته لم تقتض ذلك . وفي هذا الخطاب لرسول الله ﷺ إشارة إلى أن رسول الله أول من يعلم بطلان أقوالهم ، وفي ذلك تعزية له وتبرئة ، والملاحظ أن الردّ عليهم قد جاء من قبل ، حيث قال تعالى ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السر في السموٰت والأرض** ﴾ لأنه متى قامت الحجة على أن هذا القرآن من عند الله ، فقد قامت الحجة على أن محمداً رسول الله ، ولكن لأنهم جعلوا هذه شبهة مستقلة فقد جاء الجواب عليها بشكل مستقل ، ولننتقل إلى المرحلة الثانية في الرد .

المرحلة الثانية :

﴿ **بل كذبوا بالساعة** ﴾ قال ابن كثير (إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال) وهكذا جاء الجواب هنا لافتاً النظر إلى الأصل الذي جعلهم

اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، فهذا رسول مكلّف بالإنذار، وهذا مكلّف بالاتباع، وهذا عالم وهذا جاهل، وهذا سفيه وهذا حليم، وهذا غني وهذا فقير، وهذا ضعيف، وكلّ مكلف بأن يقيم حكم الله، والصبر هو رفيق التكليف، ومن ثم قال تعالى ﴿ **أتصبرون وكان ربك بصيراً** ﴾ أي عالماً بالصواب فيما يبتلي به، أو بمن يصبر على القيام بما كلف به، وهكذا أنهى الله عزّ وجل الردّ على قولهم: ﴿ **وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق** ﴾ وكان ذلك على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى خاطبت رسول الله ﷺ معجبة من كلامهم، ومسلية له، والمرحلة الثانية: ذكرت الأصول التي انبثق عنها كلامهم، والمرحلة الثالثة: ذُكر فيها أن كل رسول بعثه الله للبشر كان بشراً يأكل الطعام، ثم بينت الحكمة في ذلك وأنها الابتلاء، وبينت أن الصابر وحده هو الذي ينجح في الامتحان.

كلمة في السياق:

أرسل الله رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، وأمر بالإنذار في وقت لم يبق فيه توحيد، فوقف الكافرون من الكتاب موقفاً، ووقفوا من الرسول موقفاً، وقد سجّل الله الموقف الأول، ورد عليه وسجل الموقف الثاني ورد عليه، وكل ذلك مرتبط بمحور السورة من سورة البقرة ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ والآن تسجل السورة موقفاً جديداً للكافرين من الرسول والقرآن والإنذار والتوحيد، وقبل أن نعرض هذا الموقف فلنذكر بعض الفوائد حول ما مَرّ.

فوائـد:

١ — في قوله تعالى ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ قال ابن كثير: (وقال محمد ابن إسحاق في قوله تعالى ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾ قال: يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يُخَالَفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم، وأبتليهم بهم، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى (إني مبتليك ومبتل بك) وفي المسند عن رسول الله ﷺ «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة» وفي الصحيح «أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً».

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ قال ابن كثير : وروى ابن أبي حاتم .. عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « من يقل عليّ مالم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار ـ وفي رواية ـ فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ الآية . وروى أيضاً عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديده في النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط ، فمرَّ عبد الله على أتون على شاطىء الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً** ﴾ فصعق ـ يعني الربيع ـ وحملوه إلى أهل بيته ، فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق رضي الله عنه . وروى أيضاً عن ابن عباس قال : « إن العبد ليجَر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقىٰ أحد إلا خاف » وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير .. عن ابن عباس قال : « إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبدي ، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يارب ما كان هذا الظن بك فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول أن تسعنى رحمتك ، فيقول أرسلوا عبدي ، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقىٰ أحد إلا خاف . وروى عبد الرزاق .. عن عبيد بن عمير في قوله ﴿ **سمعوا لها تغيظاً وزفيراً** ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرّ لوجهه ، ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسي وقوله ﴿ **إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين** ﴾ قال قتادة : عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أي من ضيقه . وقال عبد الله ابن وهب .. عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن قول الله ﴿ **وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين** ﴾ قال : « والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط » ...

قال ابن كثير : ورُوي الإمام أحمد .. أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يكسىٰ حلة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي ياثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول يا ثبوراه ، فيقولون : يا ثبورهم فيقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » .

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ قال ابن كثير : قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها مالم نعطه نبياً قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : اجمعوها لي في الآخرة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً** ﴾ قال النسفي : وحكي أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجراً فرأى خصياً في مواكب ومراكب ، فخطر بباله شيء فإذا بمن يقرأ هذه الآية فقالا : بلىٰ فصبراً)

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ وهم الكافرون الذين مَرّ ذكرهم ، وهم الذين لا يؤمنون بالساعة ، والذين قالوا عن القرآن إنه كذب، وقالوا عن الرسول إنه ينبغي أن يكون ويكون .. هؤلاء يعرض الله عز وجل علينا قولاً جديداً من أقوالهم ، فهم مع كونهم لا يرجون لقاء الله لأنهم كفرة لا يؤمنون بالبعث ، ولا يأملون خيراً ولا يخافون عقاباً ، هؤلاء يقولون : ﴿ **لولا أنزل علينا الملائكة** ﴾ أي هلا أنزل علينا الملائكة رسلاً دون البشر ، أو شهوداً على النبوة ، ودعوىٰ الرسالة ﴿ **أو نرىٰ ربنا** ﴾ جهرة فيخبرنا برسالة رسوله ، ويأمرنا باتباعه ، علقوا إيمانهم بالقرآن والرسول على إنزال الملائكة أو رؤية الله ، وهذا موقف جديد وشبهه جديدة وتعنت جديد ، لقد استبعدوا في الموقف الثاني أن يكون الرسول بشراً ، وفي هذا الموقف يعلقون الإيمان على إنزال الملائكة أو رؤية الله ويأتيهم الجواب : ﴿ **لقد استكبروا في أنفسهم** ﴾ أي لم يطلبوا هذا الطلب إلا استكباراً عن الحق الواضح ﴿ **وعتوا عتواً كبيراً** ﴾ أي وظلموا ظلماً

فظيعاً ، أي إنهم لم يجسروا على هذا القول الفظيع إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو ، وفي كتابنا (الله جل جلاله) برهنّا على أن هذا الطلب منهم غاية في الجهل ، لأن الله عز وجل لا يدرك في قوانين هذا العالم بالحواس ، ولكون هذه بديهة في منطق العقل ، لم يرد الله عليهم بخصوصها ، فالله عزّ وجل خالق المادة ، وهو بالتالي ليس مادة ، والحواس اختصاصها ببعض المادة ، ومن ثم فقد انصب الرد على الجانب الآخر ، وهو طلبهم إنزال الملائكة ﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾ يوم الموت أو يوم البعث ﴿ **لا بشرىٰ يومئذ للمجرمين** ﴾ أي للكافرين ﴿ **ويقولون** ﴾ أي الملائكة للكافرين ﴿ **حجراً محجوراً** ﴾ أي حراماً محرماً عليكم البشرى ، أي جعل الله ذلك حراماً عليكم ، إنما البشرىٰ للمؤمنين ، أو حراماً محرماً عليكم الفلاح ، وبهذه الآية جاء الجواب على اقتراحهم المتعنّت ، فكأن الله عز وجل قال جواباً على طلبهم : إنه في عالم غير هذا العالم ، وفي قوانين غير هذه القوانين ، ترون الملائكة ، ولكن رؤيتكم للملائكة يوم ذاك لن تكون خيراً لكم ، ولكن شراً لكم ، والسؤال لماذا بلغوا الغاية في الكبر والظلم بسؤالهم رؤية الملائكة أو رؤية الله ؟ والجواب : أن بداهة العقل تحكم أن الرسول قد قامت كل الحجج على صدق رسالته ، فتعليق الإيمان على شيء آخر كِبْر وظلم ، فكيف إذا كان هذا الشيء الآخر مستحيلاً في العادة ! بحكم بداهة العقل في قوانين الحياة الدنيا ، لقد اقتضت سنة الله ألا يرىٰ الإنسان الملائكة في الدنيا إلا في حالات يختارها الله عزّ وجلّ ولا تملى عليه ، وإذ بيّن الله عز وجل لهؤلاء المتعنتين سفاهة مطلبهم ، بيّن لهم أن رؤيتهم الملائكة تكون عند الموت ، أو عند البعث ، وأن ذلك سيكون وبالًا عليهم ، أتم عرض حال هؤلاء يوم القيامة ﴿ **وقدمنا** ﴾ أي وعمدنا كما قال مجاهد والثوري ﴿ **إلى ما عملوا من عمل** ﴾ كانوا يعتقدون أنهم فيه على شيء ﴿ **فجعلناه هباءً** ﴾ الهباء : هو ما يرىٰ من الكوّة مع ضوء الشمس ، شبهها بالغبار ﴿ **منثوراً** ﴾ أي مفرقاً وفي تفسير الهباء أقوال كثيرة قال ابن كثير : (وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء فلمّا عرضت على الملك الحكم العدل ، الذي لا يجور ولا يظلم ، إذا إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية ، وقد دلت الآية على أن الله عز وجل لا يقبل عملا من كافر ، ولا يعني هذا أنه لا يكافىء الكافر على الخير ، بل يكافؤه بالدنيا ؛ إما بعطاء ، أو بثناء ، وأما في الآخرة فلا يقبل عملاً إلا من مؤمن ، وتعليل ذلك كما قال ابن كثير : وذلك لأنها فقدت الشرط

الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله ، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معاً ، فتكون أبعد من القبول حينئذ) وإذ بين الله عز وجل حال الكافرين وحال أعمالهم ، بين حال أهل الإيمان والجنة ﴿ **أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً** ﴾ المستقر المكان الذي يكونون فيه ، في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون ﴿ **وأحسن مقيلاً** ﴾ المقيل : هو المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نوم في الجنة ولكنه سمى مكان استراحتهم إلى الحُور مقيلاً على طريق التشبيه ، وإنما نال أهل الجنة ما نالوه ، وصاروا إلى ما صاروا إليه بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، بخلاف أهل النار ، فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم ، والنجاة من النار ، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، وفي ذلك تنبيه لهؤلاء المتعنتين على فرط خسارتهم ، وعلى ما تكلفهم مواقفهم المستكبرة الظالمة ، ثمّ يأمر الله رسوله ﷺ أن يتذكر مشهدين من مشاهد يوم القيامة ، في تذكرها عزاء أيّ عزاء لرسول الله ﷺ أمام هذه المواقف المستكبرة الظالمة :

المشهد الأول :

﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ أي واذكر يوم تتشقق السماء بالغمام بأن تنفرج عنه ، قال ابن كثير : وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ﴿ **ونزل الملائكة تنزيلاً** ﴾ والمعني : أن السماء تتفتح بغمام أبيض يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ينزلون فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ﴿ **الملك يومئذ الحق** ﴾ أي الثابت ﴿ **للرحمٰن** ﴾ لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلا ملكه ﴿ **وكان** ﴾ ذلك اليوم ﴿ **يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾ أي شديداً ويفهم منه أنه يسير على المؤمنين ، وإنما كان عسيراً على الكافرين لأنه يوم عدل وقضاء فضل .

كلمـة في السياق :

في قوله تعالى ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ .

فلنتذكر على ضوء ذلك ما يلي :

إن محور سورة الفرقان هو ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ..** ﴾ وقبل هذه الآية بآيتين آية تشبه الآية التي نحن بصددها ، وهي التي ذكرها مجاهد : ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة**﴾ وهذا يؤكّد ما ذكرناه من أن السور تفصّل محاور في سورة البقرة ، وامتدادات معاني هذه المحاور ، والحيّز الذي جاءت فيه هذه المحاور ومن ثم فإن المشهد الثاني في هذا السياق له علاقة بالآية التى جاءت مباشرة قبل آية المحور من سورة البقرة وهي آية ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ فلنر المشهد الثاني .

المشهد الثاني :

﴿ **ويوم** ﴾ أي اذكر يوم ﴿ **يعضُّ الظالم على يديه** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق الرسول ﷺ ، وماجاء به من عند الله من الحق المبين ، الذي لامرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيلِ الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لاينفعه الندم ، وعض على يديه حسرة وأسفاً ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط ، أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ...) فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه و ﴿ **يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول** ﴾ في الدنيا ﴿ **سبيلاً** ﴾ أي طريقاً إلى الجنة والنّجاة وهو الإيمان ﴿ **يا ويلتىٰ ليتني لم أتخذ فلاناً** ﴾ يعني مَنْ صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، قال ابن كثير : وسواء في ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبي بن خلف ، أو غيرهما ﴿ **خليلاً** ﴾ أي صديقاً ورفيقاً ﴿ **لقد أضلني عن الذكر** ﴾ أي ذكر الله ، أو القرآن أو الإيمان ﴿ **بعد إذ جاءني** ﴾ من الله أي بعد بلوغه إليّ ﴿ **وكان الشيطان للإنسان خذولاً** ﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ، ويدعوه إليه ، أي من عادة الشيطان ترك من يواليه ، وهل هذا حكاية كلام الله أو هو تتمة كلام الظالم يحكيه الله ؟ قولان للمفسرين ، وهل المراد بالشيطان في الآية خليل الإنسان الذي أضله أو أن المراد به إبليس ؟ قولان كذلك ، وبهذا انتهى المشهدان اللذان أمر رسول الله ﷺ أن يتذكرهما ؛ لما يترتب على تذكرهما من صبر واستقامة ، وتحمل وعزاء .

كلمة في السياق :

لم يبق عندنا في المقطع الأول إلا آيتان هما شكوى من رسول الله ﷺ من مواقف قومه من هذا القرآن ، وتعزية من الله لرسوله ﷺ على هذه المواقف ، ولنتذكر أن المقطع قد عرض علينا مجموعة من مواقف الكافرين : ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون** ﴾

﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلاً** ﴾

﴿**وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق** ﴾

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرىٰ ربنا** ﴾

إن حصيلة هذه المواقف شيئان الأول : هجر القرآن ، والثاني : العداء لرسول الله ﷺ ، وهذا الذي تعرضه الآيتان الأخيرتان في المقطع فلنرهما :

الآية الأولى :

﴿ **وقال الرسول** ﴾ محمد ﷺ في الدنيا شاكياً إلى الله ﴿ **يارب إن قومي** ﴾ قريشاً أو العرب ﴿ **اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ أي متروكاً ، أي تركوه ولم يؤمنوا به ، والشكوىٰ وإن كانت منصبة انصباباً أولياً على قوم الرسول ﷺ في زمانه ، **فهي** شكوىٰ من قومه في كل زمان ، إذا هجروه ، وها نحن نجد العرب في عصرنا من أكثر الشعوب الإسلامية هجراً للقرآن ، بل إن فيهم من يعادي القرآن عداءاً هو أمرٌ من أي عداء ، وإذ يرفع الرسول ﷺ الشكوى يعزيه الله عز وجل بالآية الثانية :

الآية الثانية :

﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفىٰ بربك هادياً ونصيراً** ﴾ أي كذلك كان كل نبي قبلك ، مبتلى بعدواة قومه ، وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم ، والانتصار منهم ، وناصراً لك عليهم ، هكذا فسّرها النسفي . وقال ابن كثير فيها : أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الأمم الماضية ، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن** ﴾ الآيتين ولهذا قال ههنا

﴿ **وكفى بربك هادياً ونصيراً** ﴾ أي لمن اتَّبع رسوله ، وآمن بكتابه ،وصدَّقه واتَّبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة ، وإنما قال ﴿ **هادياً ونصيراً** ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدي أحد به ، ولتغلب طريقتهم القرآن ، وبهذه الآية انتهى المقطع الأول .

كلمة في السياق :

رأينا أن مقدمة السورة تحدثت عن النذير والقرآن والتوحيد ، ورأينا أن المقطع الأول كان حديثاً عن مواقف الكافرين من النذير والقرآن والردّ على ذلك ، فالصلة بين المقطع الأول ، ومقدمة السورة قائمة وواضحة ، ورأينا محور سورة الفرقان من سورة البقرة ، وصلة المقدمة وكل جزء من أجزاء المقطع الأول بهذا المحور ، وقد بقي معنا مقطع واحد من السورة وسنرىٰ صلته بالمقدمة وبسياق السورة الخاص وصلته بمحور السورة من سورة البقرة ، وهكذا نرىٰ في كل سورة دليلاً على وحدة السورة ، ودليلاً على الوحدة الجامعة لهذا القرآن ، وكل ذلك بشكل عجيب لم يعهده البشر ولم يعرفوه ، وهذا وحده مظهر من مظاهر الإعجاز ، فهذا شيء لا تفطن له العبقريات ، ولا يرتقي إليه شأو الإنسان ولا يطيقه ، خاصة إذا عرفنا أن القرآن نزل مفرّقاً ، فسبحان من جعل كتابه لا تنقضي عجائبه ، وجعل فيه من الأسرار والآيات مالا يحيط به أحد ، فكيف يكفر به الكافرون ، أو يجحده الجاحدون .

فوائـد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ قال ابن كثير : (قال الضحاك عن ابن عباس إنما هي ساعة فيقيل أولياء الله إلى الأسِرَّة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرّنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة ، وأهل النار في النار قال الله تعالى ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ وقال عكرمة : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم في الجنة وأطعموا

كبد حوت فأشبعهم كلهم ، وذلك قوله ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ .

وروى سفيان عن عبد الله بن مسعود قال : لا ينتصف النهار حتىٰ يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ وقرأ ﴿ **ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ قال : قالوا في الغرف من الجنة ، وكان حسابهم إذا عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ وقال قتادة : ﴿ **خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ مأوى ومنزلاً وقال قتادة : وحدّث صفوان بن محرز أنه قال : يجاء برجلين يوم القيامة ، أحدهما كان ملكاً في الدنيا إلى الحمرة والبياض فيحاسب فإذا عَبْد لم يعمل خيراً قط فيؤمر به إلى النار ، والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول : يارب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به ، فيقول الله : صدق عبدي فأرسلوه ، فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ماشاء الله ، ثم يدعى صاحب النار فإذا هو مثل الحمة السوداء فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقيل : فيقال عُدْ . رواها ابن أبي حاتم كلها ، وروى ابن جرير عن عمرو بن الحارث أن سعيداً الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم يتقيلون في رياض الجنة ، حتى يفرغ من الناس ، وذلك قوله تعالى ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ .

٢ ـــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد .. عن أبي سعيد الخدري قال : قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا »

٣ ـــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ عدد ابن كثير صوراً من الهجران لكتاب الله فقال : وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾ الآية فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره

حتى لا يسمعونه ، فهذا من هجرانه وترك الإيمان به ، وترك تصديقه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدل عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب .

٤ ــ وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً** ﴾ يقول النسفي : (والمراد بالظالم عقبة بن أبي معيط لعنه الله تعالى وبفلان أبي بن خلف ، فقد روي أنه كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا عليه أهل مكة كلهم ، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ويعجبه حديثه ، وغلب عليه الشقاء ، فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فقال : اطعم يا ابن أخي فقال ﷺ : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول ، فشهد بذلك وطعم عليه الصلاة والسلام من طعامه ، فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ، وكان خليله فقال : والله ما صبوت ولكن دخل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتفعل كذا ، وذكر فعلًا لا يليق إلا بوجه القائل اللعين ففعل عقبة فقال له رسول الله ﷺ : لا ألقاك خارجاً عن مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، وفي رواية إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، فقال له أصحابه : اخرج معنا قال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم ، فلما هزم الله تعالى المشركين رحل به جمله في جدد من الأرض ، فأخذ أسيراً في سبعين من قريش وقدم إلى رسول الله ﷺ فأمر علياً كرم الله تعالى وجهه - وفي رواية ثابت بن أبي الأفلح - بأن يضرب عنقه ، فقال : أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم ، قال : بم ؟ قال : بكفرك وفجورك وعتوك على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي رواية أنه ﷺ صرح له بما فعل معه ثم ضربت عنقه ، وأما أبي بن خلف فمع فعله ذلك قال : والله لأقتلن محمداً ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : بل أقتله إن شاء

الله تعالى ، فأفزعه ذلك ، وقال لمن أخبره : أنشدك بالله تعالى أسمعته يقول ذلك ؟ قال : نعم فوقعت في نفسه لما علموا أن رسول الله ﷺ ما قال قولاً إلا كان حقاً ، فلما كان يوم أحد خرج مع المشركين فجعل يلتمس غفلة النبي عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه ، فيحول رجل من المسلمين بين النبي عليه الصلاة والسلام وبينه ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه : خلوا عنه ، فأخذ الحربه فرماه بها فوقعت في ترقوته ، فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه ، فجعل يخور كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور فقالوا : ما هذا والله ما بك إلا خدش ، فقال : والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال : أنا أقتله ، والله لو أن الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم ، فما لبث إلا يوماً أو نحو ذلك حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروي هذا القول عن ابن عباس وجماعة ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن الظالم أبي بن خلف وفلان عقبة) .

وقال ابن كثير في الآية : (يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ ، وما جاء من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعضّ على يديه حسرة وأسفاً ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى ﴿ **يوم تقلب وجوههم في النار** ﴾ الآيتين . فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعضّ على يديه قائلاً ﴿ **يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاًياويلتىٰ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً** ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما) .

بين يدي المقطع الثاني :

بدأت المقدمة بالكلام عن القرآن والنذير والتوحيد ، وعرض المقطع الأول بعض مواقف للكافرين من القرآن والنذير ، ورد عليها ، وسنلاحظ أن المقطع الثاني يبدأ بعرض شبهة للكافرين حول القرآن ويرد عليها ، ثم يعرض موقفاً للكافرين من الرسول ويرد عليه ، ثم يعرض وضعاً شركياً ويرد عليه ، ثم يسير المقطع في تقرير التوحيد ، وتبيان مهمة الرسول ، وما ينبغي أن يقوله ، وما ينبغي أن يكون عليه حاله ، ثم يعرض لنفور المشركين من عبادة الله ، ويعرض في مقابل ذلك حال عباد الله ، ويختم المقطع بتوجيه كلام للكافرين ، وسنرى ذلك كله ومحله ضمن السياق الخاص والعام .

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٣٢) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية(٧٧) وهذا هو

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سبيلا ﴿٤٤﴾ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا
الشمس عليه دليلا ﴿٤٥﴾ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴿٤٦﴾ وهو الذي جعل لكم
الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴿٤٧﴾ وهو الذي أرسل الرياح بشرا
بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴿٤٨﴾ لنحيي به بلدة ميتا
ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ﴿٤٩﴾ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا
فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴿٥٠﴾ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ﴿٥١﴾ فلا
تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴿٥٢﴾ وهو الذي مرج البحرين
هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴿٥٣﴾
وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴿٥٤﴾
ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا
﴿٥٥﴾ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴿٥٦﴾ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من
شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴿٥٧﴾ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح
بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴿٥٨﴾ الذي خلق السماوات والأرض
وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴿٥٩﴾ وإذا
قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴿٦٠﴾

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ

كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ أي مجتمعاً ، يعني : هلّا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد ، وماله أنزل علي التفاريق ؟ قال النسفي : وهو فضول من القول ومماراة بمالا طائل تحته ، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو متفرقاً ، وهذا اعتراض فاسد لأنهم تُحُدّوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور ، فأبرزوا صفحة عجزهم ، حتى لاذوا بالمناصبة ، وفزعوا إلى المحاربة ، وبذلوا المهج ، وما مالوا إلى الحجج ﴿ **كذلك لنثبّت به فؤادك** ﴾ أي إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ، ليثبت قلوب المؤمنين به ، وقال النسفي : فاعلم أن ذلك لنثبت به بتفريقه **فؤادك** ، حتى تعيه وتحفظه ، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء ، وجزءًا عقيب جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه ، أو لنثبت به **فؤادك** عن الضجر بتواتر الوصول ، وتتابع الرسول ، لأن قلب المحبّ يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿ **ورتلناه ترتيلاً** ﴾ الترتيل : التبيين في ترسل وتثبّت ، هذا وصف القرآن من ناحية ، وجواب ثان من ناحية أخرى . والمعنى : وبيناه تبييناً . والصلة بين البيان وبين التفريق : أن السورة ــ أو الآية ــ عندما تنزل مع الحادثة أو قبلها مباشرة ، أو بعدها أو معها ، فإن ذلك أدعى إلى الفهم ، وأقوى لمعرفة الحكمة ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً** ﴾ أي ولا يأتونك بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة التي كأنها مثل في البطلان ، إلا أتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه . وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثلهم أي من سؤالهم . وقال ابن كثير في تفسير المثل : أي بحجة وشبهة . فصار المعنى عنده : ولا يأتونك بحجة وشبهة إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، وعلى هذا فقد أجيبوا على شبهتهم في تنزيل القرآن مفرقاً بثلاثة حكم :

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد الرسول ﷺ والمؤمنين أمام ما يواجهونه .

الحكمة الثانية : أن الفهم للقرآن يكون أعمق ، وأن معرفة الحكمة في أحكامه تكون أدق إذا كان تنزل القرآن على حسب الوقائع والحوادث .

الحكمة الثالثة : مجابهة شبه الكافرين شبهة شبهة وحجة حجة .

ثم قال تعالى : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ قال النسفي : والمعني : (أن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تُضللون سبيله ، وتحتقرون مكانه ومنزلته ، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شرٌّ من مكانه ، وسبيلكم أضل من سبيله) . وهكذا بدأ المقطع بعرض الشبهة ثم ردّ عليها ، ثم أنذر وحذّر أهلها .

كلمة في السياق :

النذير والقرآن هما الموضوعان اللذان تدور حولهما السورة ، رأينا ذلك في المقدمة ، وفي المقطع الأول . ورأينا في المجموعة الأولى من المقطع الثاني شبهة حول القرآن ، وردّا عليها ، وإنذاراً لأهلها ، والآن تأتي مجموعة فيها أمثلة وقصص تخدم سياق السّورة بما ينسجم مع سياق المقطع ، وبما ينسجم مع محور السورة ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ .

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة كما آتيناك القرآن ، فلست بدعاً من الرسل ، وليس إنزال الكتاب عليك بدعاً من الإنزال ﴿ **وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً** ﴾ أي نبياً مؤازراً ، ومؤيداً وناصراً وهو بشر ، ولم نجعل له وزيراً من الملائكة كما تتوهمون . قال النسفي : والوزارة لا تنافي النبوة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ، ويؤمرون أن يؤازر بعضهم بعضاً ﴿ **فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أي فرعون وقومه ، كما أرسلناك يا محمد للناس جميعاً ، وقد كفروا وأشركوا ، وحرفوا وبدّلوا ، وكذبوا ﴿ **فدمّرناهم تدميراً** ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً عجيباً . إذ التدمير هو الإهلاك بأمر عجيب ، وكما دمّر الله فرعون وقومه لتكذيبهم ، كذلك دمّر قوم نوح وعاداً وثمود وأصحاب الرس وغيرهم ؛ لتكذيبهم ، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك ﴿ **وقوم نوح** ﴾ أي ودمّرنا قوم نوح ﴿ **لما كذّبوا الرسل أغرقناهم** ﴾ بالطوفان بسبب التكذيب ﴿ **وجعلناهم** ﴾ أي وجعلنا إغراقهم أو قصتهم

﴿ **للناس آية** ﴾ أي عبرة يعتبرون بها ﴿ **وأعتدنا** ﴾ أي وهيأنا ﴿ **للظالمين** ﴾ أي لكل من اتصف بالظلم ﴿ **عذاباً أليما** ﴾ أي النار ﴿ **وعاداً** ﴾ أي ودمرنا عاداً ﴿ **وثمود وأصحاب الرس** ﴾ سنرى من هم في الفوائد ﴿ **وقروناً بين ذلك كثيراً** ﴾ أي وأهلكنا أمماً بين ذلك المذكورين كثيراً لا يعلمها إلا الله، أرسل إليهم رسل، فكذبوهم فأهلكوا ﴿ **وكلاً ضربنا له الأمثال** ﴾ أي بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة وأزحنا الأعذار عنهم ، وبينا له القصص العجيبة من قصص الأولين ﴿ **وكلاً تبرنا تتبيراً** ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً أفلا يتعظ هؤلاء بما حدث لأولئك ، وقد أنذرناهم كما أنذرنا أولئك ، وبعثنا لهم رسولاً كما بعثنا لأولئك ، وضربنا لهم الأمثال كما ضربنا لأولئك ، ثم هم يرون من آثار تعذيبنا ما هو مرأي مشاهد ﴿ **ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء** ﴾ وهي قرية سدوم عاصمة قرى لوط ، أمطر الله عليها الحجارة ﴿ **أفلم يكونوا يرونها** ﴾ أي أما شاهدوا ذلك بأبصارهم فيتفكروا فيؤمنوا ﴿ **بل كانوا لا يرجون نشوراً** ﴾ أي بل كانوا قوماً كفرة بالبعث ، لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون ، أوْلا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون ، يطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم . وبهذا تمّت المجموعة الثانية من هذا المقطع محذرة ومنذرة .

كلمة في السياق :

انصب الكلام في هذه المجموعة على الإنذار ، وهذا يتفق مع سياق السورة منذ الابتداء ﴿ **ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ وهذه المجموعة خدمت سياق السورة كله ، كما خدمت سياق مقطعها ، فإن هؤلاء الكفرة بدلاً من أن يؤمنوا ، وقد قامت عليهم الحجة على صدق القرآن ، وصحة رسالة الرسول ، فإنهم يتعنتون ويتفلسفون ، ويطرحون الشبهة الظالمة بعد الشبهة ، ومن ذلك ما طرحوه مما حدثنا الله عنه في أول المقطع ، فكانوا كمن سبق ، فليحذروا . إن هذه المجموعة تضع الناس أمام ما ينبغي أن يكونوا على ذكر منه ، بدلاً مما هم فيه من بعد بغي وظلم، والمجموعة تخدم محور السورة ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ والآن تأتي آيتان تتحدثان عن موقف الكافرين من الرسول فلنرهما .

تفسير المجموعة الثالثة :

﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً** ﴾ يقولون هذا على

سبيل التنقّص والازدراء ﴿ **إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها** ﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام ، لولا أن صبروا وتجلّوا واستمروا عليها . وفي ذلك دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، حتى شارفوا — بزعمهم — أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاجهم ، واستمساكهم بعبادة آلهتهم ، ولمّا كان هذا الموقف موقفاً جاهلاً كان الردّ عليهم تهديداً ووعيداً ﴿ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب** ﴾ هذا وعيد يدل على أنهم لا يفوتون الله ، وإن طالت مدة الإمهال ﴿ **من أضل سبيلاً** ﴾ لما نسبوا الإضلال إلى رسول الله ﷺ بقولهم ﴿ **إن كاد ليضلنا** ﴾ كان الجواب كذلك ، أي إنهم هم الضالون ، وسوف يرون ذلك عندما يرون العذاب .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن المقطع الأول عرض موقفاً للكافرين من القرآن ، ثم ثنّى بموقف من الرسول ، ونلاحظ كذلك في هذا المقطع أنه ابتدأ بعرض موقف للكافرين من القرآن ، ثم ثنىٰ بموقف من الرسول في هاتين الآيتين ، وكل ذلك يسير ضمن نسق واحد في السورة ، بدأت مقدمة السورة بذكر إنزال القرآن على الرسول للإنذار ، بعد أن كفر الناس ، وسار السياق مبيناً كيف كان الموقف من القرآن ومن الرسول ، وكل ذلك بما يخدم توضيح قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ والآيتان اللتان مرتا معنا أدّتا محلهما في السياق للعبور إلى معنى رئيسي من معاني السورة ، أشارت إليه السورة فيما مضى إشارات ، وهو موضوع الشرك والتوحيد فلنر المسألة بالتفصيل :

بدأت مقدمة السورة بقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً * واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾ .

وقد مر معنا في المقطع الأول موقف للكافرين من القرآن ، وردٌّ عليه ، وموقف للكافرين من النذير ، وردّ عليه ، وقد مَرّ معنا في المقطع الثاني موقف للكافرين من

القرآن وردّ عليه . وموقف للكافرين من النذير ، وردّ عليه . والملاحظ أن الموقف من النذير في المقطع الثاني كان جسراً للوصول إلى الحديث عن الشرك لاحظ ما يلي :

﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً** ﴾ وإذن فهم مشركون . وتأتي الآن المجموعة الرابعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه ..** ﴾

لاحظ أن الآية الثالثة من المقدمة هي ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾

ولاحظ بداية المجموعة الجديدة ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ فإنك تجد الصلة الواضحة بين ﴿ **واتخذوا** ﴾ وبين ﴿ **اتخذ إلٰهه هواه** ﴾

لقد تحدّثت المقدمة عن القرآن والنذير والتوحيد .

وتحدث المقطع الأول عن القرآن والنذير ، ثم تحدث المقطع الثاني عن القرآن والنذير على الشاكلة التي رأيناها ، والآن يبدأ الحديث عن الشرك والتوحيد بعد أن شكلّت آخر آيتين مرتا معنا جسراً إلى الكلام عن ذلك ، إذ ورد فيهما ﴿ **إن كاد ليضلنا عن آلهتنا** ﴾ وهكذا تتحدث المجموعة الرابعة عن الموضوع الثالث في المقدمة ولكنه الحديث الذي يتداخل فيه الكلام عن القرآن والنذير والتوحيد .

أما صلة ذلك بالمحور ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ فمن حيث إن الناس كانوا أمة واحدة مشركة فبعث الله لهم محمداً بشيراً ونذيراً وأنزل معه الكتاب بالحق ، فكيف كان موقف الناس وما هو الحق وما هو الرد ؟

تفسير المجموعة الرابعة :

﴿ **أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه** ﴾ بأن كان مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه ﴿ **أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ أي حفيظاً تحفظه من متابعة هواه وعبادة ما يهواه ، أو أفأنت تكون عليه موكلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى . دلت الآية على أن من أطاع هواه فيما يأتي ويذر ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، ومن ثم بين الله لرسوله ﷺ هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وهذا يفيد أن كل عابد لهواه مشرك ، ويفيد أن من

كان كذلك لا يصلح للاستجابة إلى الحق ، وهذا يفيد أن على النبي ﷺ البلاغ . والآية تنكر على كل من اتبع الهوى وعبد غير الله ومن أولئكم من كان يعبد الأصنام من العرب الذين كانوا كما قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول ﴿ **أم تحسب** ﴾ أي بل أتحسب ﴿ **أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾ أفاد التركيب أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حُقّت بالإضراب عنها إليها ، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ، ولا إلى تدبّره عقلاً ، فهم يشبهون الأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة ، فقد ركبهم الشيطان بالاستدلال لتركهم الاستدلال . ثم هم أرجح ضلالة منها ، لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له ، وتطيع من يعلفها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرّها ، وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم ، من إساءة الشيطان الذي هو عدوّهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضارّ والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنيُّ والعذب الرويُّ ، وقال ابن كثير في الآية : (أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم) وقال النسفي : (وإنما ذكر الأكثر لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حبُّ الرياسة ، وكفى به داءً عضالاً ، ولأن فيهم من آمن) . وبعد أن أثبت الله عز وجل في الآيتين أن كل من عبد غير الله فهو عابد هوى ، وأن أكثر هؤلاء لا عقول لهم ولا أسماع ، وأنهم أضل من البهائم لفت النظر إلى مظاهر قدرته وأدلة توحيده . قال ابن كثير من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة) : ﴿ **ألم تر إلى ربك** ﴾ أي ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ﴿ **كيف مدَّ الظل** ﴾ أي بسطه ﴿ **ولو شاء لجعله ساكناً** ﴾ أي دائماً ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً** ﴾ يعرف بها الظل ، ولولا الشمس لما عرف الظل ، فالأشياء تعرف بأضدادها ﴿ **ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ أي قليلاً خفيفاً . وفي هذا المقام معجزة من أعظم المعجزات القرآنية إذ بها إشارة إلى موضوع الانكسار الضوئي . وهو موضوع سنراه في الفوائد ، قال النسفي : وجاء بثُمّ لتفاضل ما بين الأمور ، فكأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم من الثاني ، ولاشك أن أعظم الثلاثة بالتدليل على عظمة الله

وقدرته ، والتدليل على كون القرآن حقا هو الأخير) ﴿ **وهو الذي جعل لكم الليل لباساً** ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه ، قال النسفي . جعل الظلام الساتر كاللباس . ﴿ **والنوم سباتاً** ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت ، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿ **وجعل النهار نشوراً** ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، قال النسفي : (وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر ، وقال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر) ﴿ **وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته** ﴾ أي قدام المطر ، قال النسفي : لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر ﴿ **وأنزلنا من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **طهوراً** ﴾ أي آلة يتطهر بها ﴿ **لنحيي به** ﴾ أي بالمطر ﴿ **بلدة ميتاً** ﴾ قال ابن كثير : أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ﴿ **ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً** ﴾ قال ابن كثير : أي ويشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم . قال النسفي : وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي لأن حياتها سبب لحياتهما ، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها ، فكأن الإنعام عليهم بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم ، ، وتنكير البلدة لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ، ولما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم وبيان أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم لأن الطهورية شرط الإحياء ﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذَّكَّروا فأبىٰ أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ أي ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن ، وفي سائر الكتب ، وهو ذكر إنشاء السحاب ، وإنزال القطر ؛ ليتفكروا ويعتبروا ، ويعرفوا حق النعمة فيه ، فيشكروا ، فأبىٰ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها ، وقلة الاكتراث لها ، أو المعنى : ولقد صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطلّ وجون ورذاذ وديمة ، مرة في مكان ، ومرَّة في مكان آخر ، فأبى أكثر الناس إلا الكفران ، ولم يعطوا الشكر ، وفي هذه الآية معجزة من معجزات القرآن العلمية سنراها في الفوائد . ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً** ﴾

قال ابن كثير : (يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن) وقال النسفي :(لو شئنا لخففّنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا في كل قرية نبياً ينذرها ولكن شئنا أن نجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كافة العالمين ، فقصرنا الأمر عليك ، وعظمناك به ، فتكون وحدك ككلهم) ﴿ **فلا تطع الكافرين** ﴾ أي فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ، أي قابل نعمتي عليك بالشكر والصبر والتشدّد ، وكما آثرتك على جميع الأنبياء ، فآثر رضائي على جميع الأهواء . قال النسفي : (وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم) ﴿ **وجاهدهم به** ﴾ أي بالقرآن ، أي جادلهم به وقرّعهم بالعجز عنه ﴿ **جهاداً كبيراً** ﴾ أي عظيماً موقعه عند الله ، لما يحتمل فيه من المشاق ومجيء هاتين الآيتين في وسط الآيات التي تتحدث عن قدرة الله سنرى حكمته فيما بعد ﴿ **وهو الذي مرج البحرين** ﴾ قال النسفي : أي خلّاهما متجاورين ، كقول القائل : مَرَجْتُ الدّابة إذا خليتها ترعى ، وسمّى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين ﴿ **هذا عذب فرات** ﴾ أي أحدهما عذب شديد العذوبة ، حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿ **وهذا ملح أجاج** ﴾ أي شديد الملوحة ﴿ **وجعل بينهما** ﴾ أي بين العذب والمالح ﴿ **برزخاً** ﴾ أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ **وحجراً محجوراً** ﴾ قال ابن كثير : أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، ولنا عودة في الفوائد على هذه الآية ، فإنها تحدثت عن مظهر من أعظم مظاهر القدرة الإلهية والرعاية الربانية ﴿ **وهو الذي خلق من الماء** ﴾ أي النطفة ﴿ **بشراً** ﴾ أي إنساناً ﴿ **فجعله نسباً وصهراً** ﴾ قال ابن كثير : (فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولذا قال تعالى : ﴿ **وكان ربك قديراً** ﴾ وقال النسفي في الآية : أراد تقسيم البشر قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم ، فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى في سورة القيامة ﴿ **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ ﴿ **وكان ربك قديراً** ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين ذكراً وأنثى ، وقيل فجعله نسباً أي قرابة وصهراً مصاهرة يعني الوصلة بالنكاح من باب الأنساب ، لأن التواصل يقع بها ، وبالمصاهرة لأن التوالد يكون بهما .

﴿ **ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم** ﴾ أي إن عبدوه ﴿ **ولا يضرهم** ﴾ إن تركوه . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد

الآراء والتشهي والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم) ولهذا قال تعالى : ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيراً** ﴾ أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله . وقال مجاهد : أي يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه .
وبهذا انتهت المجموعة الرابعة :

نقـول :

١ — عند قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ؛ وجعل بينهما برزخاً ، وحجراً محجوراً** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (وهو الذي ترك البحرين ، الفرات العذب والملح المر ، يجريان ويلتقيان ، فلا يختلطان ولا يمتزجان ؛ إنما يكون بينهما برزخ وحاجز من طبيعتهما التي فطرها الله . فمجاري الأنهار غالباً أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذي يصبّ في البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا شذوذاً . وبهذا التقدير الدقيق لا يطغىٰ البحر — وهو أضخم وأغزر — على النهر الذي منه الحياة للناس والأنعام والنبات . ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة وهو يطرد هذا الاطراد . إنما يتم بإرادة الخالق الذي أنشأ هذا الكون .

وقد روعي في نواميس هذا الكون ألا تطغى مياه المحيطات الملحة لا على الأنهار ولا على اليابسة ، حتى في حالات المد والجزر التي تحدث من جاذبية القمر للماء الذي على سطح الأرض ، ويرتفع بها الماء ارتفاعاً عظيماً .

يقول صاحب كتاب : الإنسان لا يقوم وحده (العلم يدعو إلى الإيمان) : « يبعد القمر عنا مسافة مئتين وأربعين ألفاً من الأميال ، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر . والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية .
« والمريخ له قمر . قمر صغير . لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال . ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها . وفي هذه الحالة ربما كانت لا

توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم . « وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت ، فإن معدّل عمق الماء فوق الكرة الأرضية كلها يكون نحو ميل ونصف : وعندئذ ما كانت الحياة لتوجد إلا في أعماق المحيط السحيقة على وجه الاحتمال ! »

ولكن اليد التى تدبّر هذا الكون مرجت البحرين ، وجعلت بينهما برزخاً وحاجزاً من طبيعتهما ، ومن طبيعة هذا الكون المتناسق الذي تجري مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ؛ هذا الجري المقدّر المنسق المرسوم) .

٢ ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً ، وكان ربك قديراً** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (فمن هذا الماء يتخلّق الجنين : ذكراً فهو نسب ، وأنثى فهو صهر ، بما أنها موضع للصهر . وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء . فمن خلية واحدة (من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل) تتحد ببويضة في الرحم ، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب .. الإنسان .. أعجب الكائنات الحية على الإطلاق !

ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة ، لايدرك البشر سرها ، ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها . فما من خلية من آلاف الخلايا يمكن أن تلحظ فيها مميزات معروفة هي التي تؤهلها لأن تنتج ذكراً أو أنثى ، وما من بويضة كذلك لوحظ فيها مثل هذه الميزات . ومع ذلك تصير هذه إلى أن تكون رجلاً ، وهذه إلى أن تكون امرأة ، في نهاية المطاف ؟ ﴿ **وكان ربك قديراً** ﴾ .. وها هي ذي القدرة تكشف عن طرف منها في هذا العجب العجاب !

ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان ، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة ، التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله ، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين ، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة .

وهذه لمحات من كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » عن خصائص الوراثة الكامنة في تلك الذريرات الصغيرة :

« كل خلية ذكراً أو أنثى . تحتوى على كروموزومات[1] وجينات (وحدات الوراثة) والكروموزومة تكون النوية (نواة صغيرة) المعتمة التي تحتوي الجنية . والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان . والسيتوبلازم[2] هي تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بالاثنتين . وتبلغ الجينات (وحدات الوراثة) من الدقة أنها ــ وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً ، التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها ــ لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد ، لكان حجمها أقل من حجم « الكستبان » !

« وهذه الجينات الميكرسكوبية البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات . « والكستبان » الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم . ومع ذلك فإن هذه هي الحقيقة التي لاجدال فيها .

« وإن الجنين وهو يخلص في تطوره التدريجي من النطفة (البروتوبلازم) إلى الشبه الجنسي ، إنما يقص تاريخاً مسجلاً . قد حفظ وعبر عنه بالتنظيم الذري في الجينات والسيتوبلازم .

... « لقد رأينا أن الجينات متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات ، في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي تميز كل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات. تماماً كما تقرر الشكل ، والقشر ، والشعر ، والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان) .

وبهذا القدر نكتفي من عجائب الحياة ، التي أودعتها إياها القدرة الخالقة المدبرة . ﴿ **وكان ربك قديراً** ﴾ ..)

---

(١) الكروموزوم هي وحدة المادة العضوية ، والعامل في نقل الصفات الوراثية .
(٢) السيتوبلازم هي المادة البروتوبلازمية التي حول نواة الخلية .

كلمة في السياق :

يلاحظ أن هذه المجموعة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ .

وختمت بقوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً** ﴾ . وفي الوسط ورد قوله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ وما سوى ذلك كان كلاماً عن مظاهر قدرة الله وعنايته ، تأمّل صلة ذلك بالمقدمة :

بعد أن ذكرت المقدمة إنزال القرآن على الرسول لينذر به قالت :

﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾ وقد جاءت هذه المجموعة لتبين أن الله وحده هو الخالق ، وأنه الذي يملك النفع والضر ، وأنه الذي يملك الموت والحياة والنشور ، وأن من يعبد غيره إنما يعبد هواه ، وأن هؤلاء خاطئون إذ يعبدون مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وإنهم إذ يعبدون غير الله يظاهرون على الله مع أنه خالقهم وخالق كل شيء .

وفي ذكر ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ إشارة إلى ارتباط الكلام عن التوحيد والشرك بموضوع النذير والقرآن ، وهي المواضيع الثلاثة التي تحدثت عنها المقدمة ، ولم يبق عندنا في المقطع إلا مجموعة واحدة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً** ﴾ وفيها أوامر للبشير النذير ، وفيها البشارة لمن يستحقون البشارة ، وهكذا فإن السورة بعد أن أقامت الحجة على أن هذا القرآن من عند الله ، وأقامت الحجة على أن محمداً رسول الله ﷺ وفنّدت الشرك ، وأقامت الحجة على التوحيد تتحدث في مجموعتها الأخيرة عن مضمون محور السورة : التبشير والإنذار ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ إن محمداً البشير النذير الذي بعث والناس أمة واحدة في الكفر يخاطب في المجموعة الأخيرة بتبيان مهمته ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً** ﴾ يؤمر أن يقوم بحق الإنذار والتبشير فلنستعرض المجموعة الأخيرة .

تفسير المجموعة الخامسة

﴿ **وما أرسلناك إلا مبشراً** ﴾ للمؤمنين ﴿ **ونذيراً** ﴾ أي منذراً للكافرين مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ، وإذ تحددت مهمته أنه مبشر ومنذر ، يؤمر ههنا ثلاثة أوامر ، كما يؤمر في آخر السورة أمراً رابعاً .

الأمر الأول :

﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر** ﴾ أي من أجرة أطلبها منكم على البلاغ وهذا الإنذار ، إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى : ﴿ **إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً ، يقتدي فيها بما جئت به والمعنى : لا أسألكم على التبليغ أجراً إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً . أي أجري أن تسلكوا سبيل الله بالإيمان والطاعة والصدقة والنفقة فذلك أجري لأن الله يأجرني عليه .

الأمر الثاني :

﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت** ﴾ أي كن متوكلاً في أمورك كلها على الله الذي لا يموت أبداً . أي اتخذ من لا يموت وكيلاً لا يكلك إلى من يموت ، يعني:ثق به واسند أمرك إليه في استكفاء شرورهم ولا تتكل على حي يموت . والتوكل : الاعتماد على الله في كل أمر ﴿ **وسبّح بحمده** ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ﴿ **وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾ أي كفى الله خبيراً بذنوب عباده ، يعني أنه خبير بأحوالهم ، كاف في جزاء أعمالهم ﴿ **الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام** ﴾ أي كما أنه الحي الذي لا يموت ، فهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق كل شيء بقدرته وسلطانه ﴿ **ثم استوى على العرش الرحمن** ﴾ أي هو الرحمن ﴿ **فاسأل به خبيراً** ﴾ أي استعلم عنه من هو خبير به ، عالم به ، فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ﷺ .. وقال النسفي : (أي فاسأل عنه رجلاً عارفاً برحمته ، أو فاسأل رجلاً عارفاً يخبرك برحمته ، أو فاسأل رجلاً خبيراً به وبرحمته) أقول : هذا الأمر فيه إشارة إلى أن رسول الله ﷺ لو لم يكن أعلم الخلق

بالله لكان عنده استعداد لأن يأخذ العلم بالله عمن هو أعرف بالله منه ، فإذا كان هو أعلم الخلق بالله فعلى كل أحد أن يأخذ عنه ، وكأنه بهذا وما قبله أفهمنا الله عز وجل أن زاد الطريق في الدعوة والتبشير والإنذار هو معرفة الله والتسبيح بحمده والتوكل عليه وطلب الأجر منه وحده .

الأمر الثالث :

﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمٰن** ﴾ أي إذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين صلّوا له واخضعوا له ﴿ **قالوا وما الرحمٰن** ﴾ أي لا نعرف الرحمٰن فنسجد له ، ولا نقر به ﴿ **أنسجد لما تأمرنا** ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ **وزادهم** ﴾ قوله اسجدوا للرحمٰن ﴿ **نفوراً** ﴾ أي تباعداً عن الإيمان ، وأمام هذا الاستكبار عن السجود لله فقد مجّد الله نفسه ، ثم ذكر أنه لم يخلق الليل والنهار ، يخلف أحدهما الآخر إلا للسجود والعبادة والتذكر فقال : ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً** ﴾ أي كواكب عظاماً على قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة ﴿ **وجعل فيها سراجاً** ﴾ وهي الشمس المنيرة ﴿ **وقمراً منيراً** ﴾ أي مشرقاً ومضيئاً ، يعكس نور الشمس حال غيابها : فمن كان هذا شأنه كيف يستكبر الكافرون عن السجود له . وفي إحدى قراءات هذه الآية معجزة كبرى من المعجزات العلمية ، التي في كل واحدة منها دليل على أن هذا القرآن من عند الله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض وسنرى ما ذكرناه في الفوائد ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة** ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك . أو أن أحدهما يخلف الآخر بأن يقضي الإنسان في أحدهما ما فاته في الآخر من أوراده في عبادة الله ﴿ **لمن أراد أن يذّكّر** ﴾ نِعَم الله عليه فيحدث لذلك توبة أو تدبراً ﴿ **أو أراد شكوراً** ﴾ أو أراد أن يشكر نعمة ربه عليه فيهما . قال ابن كثير : أي جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » وقال أبو داود الطيالسي .. إن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ، فقال : إنه بقي علي من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا

هذه الآية : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً** ﴾ .

وبهذا عرض الأمر الثالث : فالأمر الثالث هو أن يأمر رسولُ الله ﷺ الخلق بالسجود لله ، إلا أنه عرض الأمر بصيغة المبني للمجهول ، وموقف الكافرين منه والرد عليه . وقد دل ذلك على أن من مهمات النذير الرئيسية أن يأمر خلق الله بالسجود ، وأمام رفض الكافرين السجود للرحمٰن فإن الله يعرض لنا نموذجاً لعباده المخلصين الذين يستأهلون البشارة ، وكل ذلك يأتي قبل الأمر الرابع :

﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، قال النسفي : أي يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر ، فلا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً . فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشي كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون** ﴾ أي السفهاء ﴿ **قالوا سلاماً** ﴾ أي سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإفك ، ويمكن أن يكون المراد بالسلام التسلم أي تسلماً منكم نتارككم ولا نجاهلكم ، فأقيم السلام مقام التسلّم . قال ابن كثير : (أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً) قال النسفي عن الآية : قيل نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك ، فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً** ﴾ أي في طاعته وعبادته . قال النسفي : و قالوا من قرأ شيئاً من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً ، وقيل هما الركعتان بعد المغرب ، والركعتان بعد العشاء ، والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً** ﴾ أي هلاكاً لازماً دائماً ، وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين ، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم ﴿ **إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ أي بئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقاماً ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا** ﴾ أي لم يجاوزوا الحدّ في النفقة ﴿ **ولم يقتروا** ﴾ أي لم يجاوزوا الحد في التضييق . قال ابن كثير : أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون

فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم بل عدولاً خياراً . وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿ **وكان بين ذلك قواماً** ﴾ قال النسفي : أي عدلاً بينهما . فالقوام العدل بين الشيئين ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ أي لا يشركون ﴿ **ولا يقتلون النفس التي حرم الله** ﴾ أي حرّمها يعني حرم قتلها ﴿ **إلا بالحق** ﴾ قال النسفي : بقود أو رجم ، أو ردة أو شرك أو سعي في الأرض بالفساد ﴿ **ولا يزنون** ﴾ نفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين ، تعريض لما عليه أعداؤهم كأنه قيل : والذين طهرهم الله مما أنتم عليه ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ أي المذكور من الشرك والقتل بغير حق والزنى ﴿ **يلق أثاماً** ﴾ أي نكالاً جزاء الإثم ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة** ﴾ أي يكرر عليه ويغلظ ﴿ **ويخلد فيه مهاناً** ﴾ أي ذليلاً ﴿ **إلا من تاب** ﴾ عن الشرك ﴿ **وآمن** ﴾ بمحمد عليه السلام ﴿ **وعمل** ﴾ بعد توبته ﴿ **عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ إما بأن يوفقهم الله إلى عمل الحسنات بدل السيئات ، أو أن السيئة تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات . قال ابن كثير : وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته . كما ثبتت السنّة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف ، وسنراها في الفوائد .

﴿ **وكان الله غفوراً** ﴾ يكفر السيئات ﴿ **رحيماً** ﴾ يبدّلها بالحسنات ﴿ **ومن تاب** ﴾ إلى الله ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ أي وحقق التوبة بالعمل الصالح ﴿ **فإنه يتوب** ﴾ بذلك ﴿ **إلى الله متاباً** ﴾ أي مرضياً عنده مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ أي الكذب يعني (ينفرون عن محاضر الكذابين ، ومجالس الخطائين ، فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله ، إذ مشاهدة الباطل شركة فيه ، وكذلك النظارة إلى مالم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الآثام ، لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا ، وسبب وجود الزيادة فيه) هذا قول النسفي . وقال ابن كثير : (قيل هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . وقال محمد بن الحنفية : هو اللغو والغناء . وقال أبو العالية وطاووس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم : هو أعياد المشركين . وقال عمرو بن قيس : هي المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه .. وقيل المراد أي شهادة الزور وهي الكذب

متعمداً على غيره .. والأظهر أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ﴿ **وإذا مروا باللغو** ﴾ أي بالفحش وكل ما ينبغي أن يلقى ويطرح . والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به ﴿ **مروا كراماً** ﴾ أي معرضين مكرمين أنفسهم عن التلوث به ﴿ **والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم** ﴾ أي قرىء عليهم القرآن ، أو وعظوا بالقرآن ﴿ **لم يخروا عليها صماً وعمياناً** ﴾ قال النسفي : ليس هذا بنفي الخرور ، بل هو إثبات له ونفي للصمم والعمى . قال قتادة : (أي) لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمّالاً لله تعالى يسرون بمكانهم وتقرّبهم عيونهم ﴿ **واجعلنا للمتقين إماماً** ﴾ أي أئمة يقتدي المتقون بنا في الدين ﴿ **أولئك** ﴾ المتصفون بالصفات المذكورة الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ﴿ **يجزون الغرفة** ﴾ أي الغرفات وهي العلالي في الجنة ﴿ **بما صبروا** ﴾ أي بصبرهم على القيام بذلك . أي بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات ، وعلى أذى الكفار ، ومجاهدتهم ، وعلى الفقر وغير ذلك ﴿ **ويلقّون فيها** ﴾ أي في الجنة ﴿ **تحية وسلاماً** ﴾ يعني : أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم ، أو يحيّي بعضهم بعضاً ، ويسلم عليه . قال ابن كثير : أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزالون عنها ولا يبغون عنها حولاً ﴿ **حَسُنت مستقراً** ﴾ أي موضع قرار ﴿ **ومقاماً** ﴾ أي وموضع إقامة . وبهذا بشروا ، وبما ذكر من خصائصهم استحقوا هذا التبشير .

نقــول :

عند قوله تعالى ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً** ﴾ قال صاحب الظلال : (والبروج ــ على الأرجح ــ منازل الكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة . والفخامة هنا تقابل في الحس ذلك الاستخفاف في قول المشركين : ﴿ **وما الرحمن** ﴾ ؟ فهذا شيء من خلقه ضخم هائل عظيم في الحس وفي الحقيقة ، وفي هذه البروج تنزل الشمس ويسميها ﴿ **سراجاً** ﴾ لما تبعث به من ضوء

إلى أرضنا وغيرها . وفيها القمر المنير الذي يبعث بنوره الهادىء اللطيف .

ويعرض كذلك مشهد الليل والنهار وتعاقبهما . وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس ، وفيهما الكفاية : ﴿ **لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً** ﴾ . ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس ، ويخلف أحدهما أخاه ، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات . بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة .

جاء في كتاب (الإنسان لا يقوم وحده) (العلم يدعو إلى الإيمان) .

(تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدّل مائة فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون ليلنا ونهارنا أطول مما هو الآن عشر مرات . وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض) .

فتبارك الذي خلق السموات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً . وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً** ﴾ ..

وعند قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً** ﴾ . قال صاحب الظلال : وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع ، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال .

والمسلم ـــ مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة ـــ ليس حراً في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء ـــ كما هو الحال في النظام الرأسمالي ، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان . إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين ، الإسراف والتقتير . فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله . فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية. والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي ، وحبس الأموال يحدث أزمات ، ومثله إطلاقها بغير حساب وذلك فوق سمات فساد القلوب والأخلاق . والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس

الفرد ، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان : ﴿ **وكان بين ذلك قواماً** ﴾ ..

كلمة في السياق :

رأينا محل هذه الآيات المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً ...** ﴾ ضمن سياق السورة الخاص من حيث إن أهل هذه الآيات هم المبشرون المستحقون للبشارة ، وذلك هو المعنى الذي ترتبط به هذه الآيات بمحور السورة المباشر ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ فالموصوفون بالآيات هم الذين استجابوا للرسول والقرآن واستحقوا البشارة . وللآيات ارتباط بحيز آية المحور من سورة البقرة :

إن آية ﴿ **كان الناس أمة واحدة ..** ﴾ آتية في حيز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ والذين لا يتبعون خطوات الشيطان هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ وإن هذه الآيات التي مرَّت معنا هي التفصيل لمجموع الصفات والخصائص التي من تحقق بها كان من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان والذين لا يتبعون خطوات الشيطان وهم الذين استجابوا للرسول والقرآن واستحقوا التبشير .

ولم يبق عندنا من السورة إلا آية واحدة.

الأمر الرابع :

﴿ **قل ما يعبأ بكم ربي** ﴾ قال ابن كثير : أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ **لولا دعاؤكم** ﴾ أي لولا عبادتكم له ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ أيها الكافرون ﴿ **فسوف يكون لزاماً** ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ملازماً يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة .

هذا هو الأمر الرابع والأخير ، وهو إنذار للكافرين ، وأمر لهم بالعبادة . وهكذا ترتبط نهاية السورة ببدايتها : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾

﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾

نقـول :

قال صاحب الظلال عند هذه الآية التي هي خاتمة السورة :

والآن وقد صور عباد الرحمٰن . تلك الخلاصة الصافية للبشرية . يختم السورة بهوان البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء . فأما المكذّبون فالعذاب حتم عليهم لزام . **﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً ﴾** .. وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها ؛ ومساقها للتسرية عن رسول الله ـــ ﷺ وتعزيته عما يلاقي من عناد قومه وجحودهم . وتطاولهم عليه ، وهم يعرفون مقامه ؛ ولكنهم في سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون .. فما قومه ؟ وما هذه البشرية كلها ، لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله ، وتتضرع إليه . كما يدعو عباد الرحمٰن ويتضرعون ؟ من هم والأرض التي تضم البشر جميعاً إن هي إلا ذرة صغيرة في فضاء الكون الهائل . والبشرية كلها إن هي إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض . وأمة واحدة من أمم هذه الأرض . والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله ؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئاً ؛ ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه ! وهو هين هين ، ضعيف ضعيف ، قاصر قاصر ، إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد ، وعندئذ فقط يكون شيئاً في ميزان الله ؛ وقد يرجح ملائكة الرحمٰن في هذا الميزان فضلاً من الله الذي كلّم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة ، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له ، فيحفظ بذلك خصائصه التي سجدت له معها الملائكة ؛ وإلا فهو لقى ضائع ، لو وضع نوعه كله في الميزان ما رجحت به كفة الميزان ! **﴿ قل : ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾** .. وفي التعبير سند للرسول ﷺ وإعزاز : **﴿ قل : ما يعبأ بكم ربي ﴾** فأنا في جواره وحماه . هو ربي وأنا عبده . فما أنتم بغير الإيمان به ، والانضمام إلى عباده ؟ إنكم حصب جهنم **﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾**)

كلمة في السياق :

رأينا أن المقطع الثاني بدأ بعرض موقف للكافرين من القرآن ، وردّ عليه ، ثم ثنّى بعرض موقف للكافرين من الرسول ورد عليه ، ثم عرض لشرك المشركين الذي هو العلة الأساسية في كل موقف من النذير والقرآن ورد عليه . ثم بين أن المهمة الرئيسية للرسول ﷺ التبشير والإنذار ، وبناءً عليه صدرت أوامر للرسول ﷺ كي يبلغها أو يفعلها ، وفيما بين الأمر الثالث والرابع عُرضت صفات من يستحقون التبشير وبشروا . وكان من جملة صفاتهم الحميدة تذكّرهم بالقرآن إذا ذكّروا به ، وإذعانهم له ، وإيمانهم بالرسول ﷺ ولذلك كله صلاته بسياق السورة الخاص وبمحورها ، ولقد رأينا أثناء العرض والتفسير صلة كل مجموعة في المقطع ، مع سياق السورة الخاص ، وسياقها العام ، ورأينا ارتباط مقدمتها ومقطعيها بمحور السورة من سورة البقرة ، كما رأينا ارتباط بعض آيات السورة بالآيات التي سبقت آية المحور . وقد آن الأوان لنعرض فوائد المقطع الثاني :

الفوائــد :

١ ــ بمناسبة قول الله عز وجل على لسان الكافرين ﴿ **لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾ يتحدث المفسرون عن كون التوراة والإنجيل والزبور قد أنزلت دفعة واحدة والذي لاحظته من خلال دراسة هذه الكتب ــ كما هي موجودة الآن ــ أنها ليست منزلة جملة واحدة فإذا لم يكن نص عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر ، فإن هذه القضية لا تعتبر جزماً أنها كذلك وبهذه المناسبة قال ابن كثير : (وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث . وروى النسائي بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة) .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ قال ابن كثير : وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » . وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .

٣ ــ ورد في أكثر من مكان من القرآن ذكر أصحاب الرس . فمن هم أصحاب الرس ؟ للمفسرين كلام كثير فيهم . قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يسّ . وقد فسر قتادة فلج فقال : فلج من قرى اليمامة . وعلى هذا القول كان يرى بعض أساتذتنا أن بلدة الرس الحالية الموجودة في القصيم من نجد هي الرس المذكورة في القرآن . وقال ابن عباس عنها : بأنها بئر بأذربيجان . وعن عكرمة أنها سميت رساً لأنها بئر رسوّا فيها نبيهم . أي دفنوه فيها . وذهب ابن جرير إلى أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج .

٤ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقروناً بين ذلك كثيراً** ﴾ قال ابن كثير في تعريف القرن : والأظهر أن القرن هو الأمة من الناس كقوله : ﴿ **ثمّ أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين** ﴾ وحَدّه بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل بمائة ، وقيل بثمانين ، وقيل أربعين ، وقيل غير ذلك . والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر ، كما ثبت في الصحيحين : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث .

٥ ــ أشرنا خلال تفسير المقطع إلى آيتين . كل آية منهما فيها معجزة علمية . وكل منهما تحدثنا عنها في كتابنا (الرسول ﷺ) :

الأولى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مَدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً** ﴾ هذا النص إشارة إلى موضوع الانكسار الضوئي والله أعلم . فإنه لولا انكسار الشعاع إذا مر بالهواء لكان الظل أكثر امتداداً . ولكن بسبب الانكسار فإن ظل الكرة الأرضية عامة والظل أي ظل ــ يكون مقبوضاً انقباضاً يسيراً وهو موضوع مفصّل هناك ، وقد تحدث عن ذلك صاحب الظاهرة القرآنية .

والآية الثانية : هي قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً** ﴾ ففي قراءة حمزة وعلي ﴿ **سُرُجاً** ﴾ والسُّرج : جمع سراج ، والسِّراج هو الشمس ، فالآية تشير إلى وجود شموس لا شمس واحدة . وهذا معنى لم يعرفه الناس إلا في عصرنا . ففي عصرنا عرف الناس أن كل هذه النجوم إنما هي شموس كشمسنا ، إلا أنها لبعدها عنا ترى صغيرة . وعلى هذه القراءة فينبغي أن تفسّر البروج بأنها مسارات النجوم أو أفلاكها .

ومن مثل هذه الدقائق في القرآن وغيرهـا نعلم أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض .

٦ ــ من أعظم الأخطاء الضخمة التي وقع فيها بعض المسلمين أنهم فهموا من قوله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أنه لم يرد بالسماء هنا السحاب ، وإنما أراد بها السماء الغيبية التي هي سكن الملائكة ، وسبب هذا الخطأ كلمة قالها خالد بن يزيد الأموي وخالد ليس إماماً في اللغة ، ولا في الفقه ، ولا في التفسير . وكلمته تناقض صريح القرآن كقوله تعالى : ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن** ﴾ ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً** ﴾ ذكرنا هذا هنا لأن ابن كثير أورد قول خالد بن يزيد عند قوله تعالى ﴿ **وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً** ﴾ فليلحظ القارىء ذلك .

٧ ــ من معجزات الإسلام ما قاله ابن عباس وابن مسعود كما نقله عنهما ابن كثير : « ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **ولقد صرّفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ إن هذا المعنى الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس هو الذي يثبته علماء الكون الآن ، إذ يقولون إن نسبة التبخر والأمطار في العالم لا تزيد ذرة في عام عن عام لأن الحرارة التي تأخذها الأرض سنوياً لا تزيد ولا تنقص ، وإنما المطر ينزل في مكان ما أكثر من مكان ، وهذا عين ما أثبته ابن مسعود وابن عباس في تفسيرهما للآية .

٨ ــ إن فهم قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً** ﴾ إن فهم هذه الآية على الكمال والتمام متوقف على فهم دورة المياه العالمية ، وفهم خصائص ماء البحار والأنهار ، وكلما عرف الإنسان سراً من أسرار ذلك أدرك شيئاً من حكمة الله في هذا الموضوع ، وأدرك مظهراً من مظاهر علم الله وقدرته وعنايته بهذا الإنسان .

٩ ــ في قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرّفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ معنى عميق جداً ، وسر من أسرار كفر الكثيرين ، إن كثيرين من الناس يعللون الأشياء على أنها ظواهر طبيعية ، فالمطر ينزل بسبب مجموعة من العوامل الطبيعية ، والنبات يخرج بسبب مجموعة من العوالم الطبيعية ، ونحن لا ننفي القوانين والأسباب ، ولكنا نقول إن كل شيء بعلم الله وإرادته وقدرته ، فأن يزعم زاعم أنه لا تدخل لله في ظواهر الكون

فذلك كفر ، والآية في شطرها الأخير تشير إلى هذا النوع من الكفر . قال عكرمة : يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وهذا الذي قاله عكرمة ورد في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب » .

١٠ ــ قلنا في أكثر من مكان في هذا التفسير إن الحادثة الواحدة قد يكون لها سبب حسي وسبب غيبي ، وإن كل الأسباب الحسية والغيبية إنما هي بعلم الله وإرادته وقدرته ، ومن ذلك موضوع المطر ، فهناك أسباب حسية له ، هي ما نراه من مجموعة العوامل المؤثرة فيه ، وهناك سبب غيبي له علاقة بعالم الملائكة والكل بأمر الله ، وابن كثير ينقل في هذا المقام حديثاً مرسلاً أخرجه ابن أبي حاتم حول صلة الملائكة بموضوع المطر . قال : وقال عمر مولى عقبة : كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي ﷺ : « يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب » قال : فقال له جبريل : يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله ، فقال : تأتينا صكاك مختمة : اسق بلاد كذا وكذا : كذا قطرة ، وكذا وكذا : كذا قطرة » رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل .

١١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمٰن قالوا وما الرحمٰن** ﴾ قال ابن كثير : وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر في موضعه . أقول : من الملاحظ أن سورة مريم وسورة الفرقان كلتاهما فيها سجدة . والملاحظ بحسب اجتهادنا أن كلاً من السورتين كان محورها الآية : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾

١٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ قال ابن كثير : (وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة ، وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها

وأنتم تسعون وائتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » . وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله : ﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ الآية قال : إن المؤمنين قوم ذلـل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وما بالقوم من مرض ، وإنهم ــ والله ــ لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قلّ علمه وحضر عذابه »)

١٣ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ قال ابن كثير . وروى الإمام أحمد .. عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله ﷺ : وسب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام : فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ملكاً بينكما يذبُّ عنك ، كلما شتمك هذا ، قال له : بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قلت له وعليك السلام قال : لا بل عليك وأنت أحق به » إسناده حسن ولم يخرجوه .

١٤ ــ بمناسبة قوله تعالى عن جهنم ﴿ **إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ ذكر ابن كثير : الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان ، فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتني به ، فإنه في مكان كذا وكذا فيجيء به ، فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له : يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي ، فيقول : يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول الله عز وجل دعوا عبدي » .

١٥ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ ذكر ابن كثير : روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وروى الحافظ أبو بكر البزار .. عن حذيفة

قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر وما أحسن القصد في العبادة » . ثم قال لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه . وقال الحسن البصري ليس في سبيل الله سرف ، وقال إياس بن معاوية : ما جاوزتَ به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله عز وجل .

١٦ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ ذكر ابن كثير بعض الأحاديث نختار منها مايلي : روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قال ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قال : ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » . قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ الآية وهكذا رواه النسائي وقد أخرجه البخاري ومسلم .

وروى الإمام أحمد .. قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون في الزنا ؟ قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لئن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال : « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام . قال : « لئن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له » .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناساً من أهل الشرك ، قتلوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ الآية ونزلت : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية ، وروى ابن أبي حاتم عن عمرو عن أبي فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك . وينهاك أن تزني بحليلة جارك » . قال سفيان وهو قوله تعالى ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ الآية .

١٧ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب** ﴾ الواردة بعد الآية التي تذكر الشرك والزنا والقتل . قال ابن كثير : وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ الآية ؛ فإن هذه وإن كانت مدنية ـ إلا إنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة . ثم قد قال الله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ الآية . وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقرراً من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث وقوله تعالى : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ أقول : وقد تكلمنا عن هذا الموضوع في سورة النساء فراجعه .

١٨ ـ رأينا أن في قوله تعالى : ﴿ **فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ اتجاهين نقلناهما في التفسير . والاتجاه الثاني هو الذي رجحه ابن كثير وذكر أن الأحاديث والآثار تشهد له فقال : « فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار . وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نَحّوا عنه كبار ذنوبه ، وسلوه عن صغارها ، قال فيقال له : عملت يوم كذا : كذا وكذا ، وعملت يوم كذا : كذا وكذا وكذا ، فيقول : نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها ههنا » . قال فضحك رسول الله ﷺ حتي بدت نواجذه » انفرد بإخراجه مسلم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول ﷺ : إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان اعطني صحيفتك فيعطيه إياها ، فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » وروى ابن أبي حاتم عن سلمان قال : يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته ، فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات . وروى أيضاً عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات . قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وروى أيضاً عن أبي الصيف وكان من أصحاب معاذ بن جبل . قال : يدخل أهل الجنة على أربعة أصناف : المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين قلت : لم سموا أصحاب

اليمين ؟ قال : لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرءوا سيئاتهم حرفاً حرفاً ، وقالوا : يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا . فعند ذلك محا الله السيئات ، وجعلها حسنات ، فعند ذلك قالوا ﴿ **هاؤم اقرءوا كتابيه** ﴾ فهم أكثر أهل الجنة . وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿ **يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله . قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال النبي ﷺ : « أأسلمت ؟ » فقال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي ﷺ : « فإن الله غافر لك غدراتك وفجراتك ، ومبدّل سيئاتك حسنات ما كنت كذلك » فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال : « وغدراتك وفجراتك » . فولى الرجل يكبر ويهلل .

وروى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » قال نعم ، قال « فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » . قال وغدراتي وفجراتي ؟ قال « نعم » فما زال يكبر حتى توارى . ورواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زنيت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي ﷺ الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة ، وما قلت لها فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت أما تقرأ هذه الآية ؟ » ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾ إلى قوله ﴿ **إلا من تاب** ﴾ الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً ، وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول ياحسرتا أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ فطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال رسول الله ﷺ فخرّت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها ، وتابت إلى الله عز وجل »

١٩ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث المروي في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثاً ، قلنا بلى يارسول الله . قال : « الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » . فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت ، إلا أن ابن كثير يرجّح أن الآية تريد معنى أوسع من المعنى المراد بالحديث .

٢٠ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** ﴾ قال ابن كثير : روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن ميسرة أن ابن مسعود مَرّ بلهو فلم يقف ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » .. وعن ميسرة قال بلغني أن ابن مسعود مَرّ بلهو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** ﴾

٢١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ قال ابن كثير :(يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلا بهم ومن ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له ، قال ابن عباس : يعنون من يعمل بطاعة الله ، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة . قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً وإنما أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال : أن يري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله ، والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولد ولد أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله) .

قال ابن جريج في قوله : ﴿ **هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ قال : يعبدونك فيحسنون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام ، وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقواماً أكبهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أوَلا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا

تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشر حال بعث عليها نبياً من الأنبياء ، في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقرَّ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنها التي قال الله تعالى : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

٢٢ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **واجعلنا للمتقين إماماً** ﴾ قال ابن كثير : قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعوا له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » .

كلمة في سورة الفرقان :

نلاحظ أن آية ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ قد فصّلتها نوع تفصيل سورة مريم . ثم جاءت سورة الفرقان ففصلتها تفصيلاً آخر ، وعندما نجد آية في سورة البقرة تُفصَّل مرة بعد مرة ، فهذا يفيد أن هذه الآية قد تعرضت لمعنى مهم جداً . وفي هذه الحالة فإن كل سورة تفصّلها تكمّل الأخرى في تعميق كل ماله علاقة في موضوعها .

....

ومن ثم نلاحظ أن سورة مريم عرضت لذكر الرسل ، وبعثة محمد ﷺ ، بعد أن خلف الرسل خَلْف سوء ، وكيف أن محمداً أنزل عليه القرآن ﴿ **لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً** ﴾ ثم جاءت سورة الفرقان تعرض بشكل مباشر مواقف الكافربن من البشير النذير ، ومن الكتاب الذي أنزل عليه ، وترد الردود المفحمة والقاطعة ، ولذلك فإنك تجد في السورة الحجج البالغة العجيبة :

﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض ﴾ .
﴿ ألم تر إلى ربك كيف مَدّ الظل .. ﴾ .
﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذكّروا .. ﴾ .
﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ وكل من هذه الآيات في محلها فيها معجزة وإعجاز وقد رأينا ذلك .

....

إنه بعد التكليفات الكثيرة في سورة النور تأتي سورة الفرقان لتعمق الإيمان ، وترقي المسلم ، وتثبته على الاستقامة ، وتفرق بين ما هو حق وما هو باطل . وتحدد معالم الباطل الرئيسية وتحدد معالم الحق الرئيسية ، وتؤكد على التمسك بالأخلاق الأساسية ، وتربي الإيمان العميق بالنذير والقرآن والتوحيد ، وتعرف على الله منزل القرآن ومرسل النذير .

إن بدء السورة بقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ ثم مجيء قوله تعالى في أواخر السورة : ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً** ﴾ إن في ذلك تعريفاً لنا على الله ، إلى أن الله يعرف بالقرآن ، ويعرف بالخلق ، وإن في قوله تعالى : ﴿ **الرحمٰن فاسأل به خبيراً** ﴾ ما يدل على أن معرفة الله حق المعرفة هدف من أهداف السورة الكبري ؛ لارتباط كل شيء بهذا الأصل ، فما وقع البشر بخطأ إلا كأثر عن معرفة قاصرة ناقصة لله تعالى .

....

وكما عمقت السورة بشكل غير مباشر معرفة الله ، فإنها عمّقت معنى العبودية لله ، وهو موضوع قد حدث خلل كبير بسببه في التفكير البشري ، إذ نقطة البداية في الهداية والضلال : هل الإنسان حر غير مسؤول ، أو عبد لله مسؤول أمامه ؟ لقد نصبت كتابات كتاب في العالم في عصرنا على تعميق حرية الإنسان ، وعدم مسؤوليته أمام الله ، وكانت آخر قفزة لهذه الفكرة هي الفلسفة الوجودية ، التي أعطت هذه الفكرة كل أبعادها الفلسفية ، وزخرفتها الكاذبة ، وهي الفلسفة التي توافق الأهواء البشرية ؛ إذ تطلق للإنسان حريته الشهوانية ، فلا عبادة ، ولا التزام ، ولا ضبط للشهوات ، إطلاقاً لها مع الرفض والتمرد ، وهي فكرة غير جديدة في تاريخ البشرية ، بل تعبير مستمر في

الحياة البشرية عن الانفلات من كل قيد ، وقد عالجت السورة هذا الموضوع ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ كما عالجت مواضيع أخرى .

إن السورة تضيف على التكوين العالي للمسلم لبنة هي في محلها لبنة لا ينوب غيرها منابها .



بين يدي السور الثلاث

﴿ طسٓمٓ ﴾ الشعراء ، ﴿ طسٓ ﴾ النمل ، ﴿ طسٓمٓ ﴾ القصص

هذه السور الثلاث هي نهاية المجموعة المبدوءة بـ (طه) فهي كلها مبدوءة بحرف (الطاء) ثم لايظهر حرف الطاء في فواتح سور القرآن مرة أخرى ، وهي تشبه سورة طه . فقصة موسى ترد في السور الأربع ، ومن مجيء سورة العنكبوت بعد هذه السور ، وهي مبدوءة بـ (الٓمٓ) نشعر بأن هذه السور الثلاث هي نهاية قسم المئين ، ونلاحظ أن بداية السور الثلاث متشابهة ليست فقط في الأحرف بل في الافتتاح كذلك فسورة الشعراء بدايتها : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين** ﴾

وسورة النمل بدايتها : ﴿ **طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ﴾

وسورة القصص بدايتها ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين** ﴾

فكأن السور الثلاث تصب في بحر واحد ، وتتحدث عن محور واحد ، وعندما نبحث عن محور لهذه السور الثلاث بعد محور سورة الفرقان يناسب المقدمة ، ويتفق مع مضمون هذه السور ، فإننا نجده في سورة البقرة بعد قصة طالوت في آخر آية من الجزء الثاني وهي ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ حتى إنك لتجد مقدمة سورة القصص ـــ وهي السورة الأخيرة من هذه السور الثلاث ـــ قد استعملت أكثر ألفاظ هذه الآية : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق** ﴾ .

لاحظ الصلة القائمة بين هذه الألفاظ وألفاظ الآية التي اعتبرناها محوراً للسور الثلاث : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وسنرى بالتفصيل صلة مضمون هذه السور الثلاث بهذه الآية التي ذكرنا أنها محور لهذه السور .

....

ونلاحظ أن آية سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ آتية في السياق البعيد لقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم**

البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ وفي السياق القريب لقوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى** ﴾ ومن ثم نلاحظ أن قصة موسى قد وردت في السور الثلاث وأن لبني إسرائيل حظاً من الذكر في السور الثلاث ، يعطي المسلمين عبراً كثيرة . كما أنّ السور الثلاث تعمّق الكثير من المعاني التي تخدم موضوع الدخول في الإسلام .

....

ومن خلال ماقدمناه تتبين لنا بعض الخصائص العريضة لهذه السور الثلاث :

١ – أن السور الثلاث تعرض لنا نماذج من آيات هذا القرآن ومعجزاته .

٢ – أن السور الثلاث تحدّثنا عن نماذج من النبوات تأتي نبوة محمد ﷺ حلقة من حلقاتها ، بل الحلقة الأخيرة فيها .

٣ – وأن السور الثلاث من خلال البيان والقدوة ستعطينا معاني عليا من الإسلام في جوانب متعددة من الحياة .

٤ – وأن القصة ، وأخذ الدروس منها هي الطريقة المتبعة فيها ، وذلك ينسجم مع كون آية المحور آتية بعد قصة طالوت .

....

ومع أن السور الثلاث تفصّل محوراً واحداً يُفصَّل لأول مرة بسور مستقلة ، فإنّ لكل سورة خصائصها الخاصة ، ومواصفاتها الخاصة وطريقتها الخاصة ، وأسلوبها الخاص ، وجرسها الخاص ، ومعانيها الخاصة . ومن ثم فإنك تجد في السور الثلاث من الإعجاز أنواعاً من حيث صلة السور بعضها ببعض ، ومن حيث كونها تفصّل محوراً واحداً ، كل منها يفصّله بشكل ولون خاصين ، ولكل منها نكهة وعبير خاصان ، مع التنوع في العرض والانتقاء للمعنى والروعة في اللفظ بشكل عجيب ، يجلّ عن طوق البشر ، أفلا يعقل الكافرون فيسترون جهلهم ولو بالسكوت ، بدلاً من أن يثرثروا مثبتين بثرثرتهم أنهم يفتقدون العقل والحس والذوق والفطرة ، والتمييز بين الحق والباطل .

سورة الشعراء

وهـي السـورة السادسة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السابعة من المجموعة الثالثة من قسم المئين
وآياتها مائتان وسبع وعشرون آية
وهـي مكيـة

وهي السورة الأولى من زمرة الطاسينات

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الشعراء :

(وفي تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة ، وقد جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس . وعبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم إطلاق القول بمكيتها ، وأخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ إلى آخرها ، وروي ذلك عن عطاء وقتادة ، وقال مقاتل : ﴿ **ألم يكن لهم آية** ﴾ الآية مدنية أيضاً ، قال الطبرسي : وعدة آياتها مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي . والشامي . والمدني الأول ومائتان وست وعشرون في الباقي .

ووجه اتصالها بما قبلها اشتمالها على بسط وتفصيل لبعض ماذكر فيما قبل ، وفيها أيضاً من تسليته ﷺ مافيها ، وقد افتتحت كلتا السورتين بما يفيد مدح القرآن الكريم ، وختمتا بإيعاد المكذبين به كما لايخفى) .

....

كلمة في سورة الشعراء ومحورها :

قلنا إن محور سورة الشعراء هو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

فلنلاحظ الآن مايلي :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين** ﴾

ثم تأتي مقدمة تختم بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم تأتي قصة موسى عليه السلام وتختم بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم تأتي قصة إبراهيم عليه السلام وتختم بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم تأتي قصة نوح عليه السلام وتختم بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان**

أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

ثم تأتي قصة هود وقصة صالح وقصة لوط وقصة شعيب عليهم السلام وكل منها تختم بنفس الآيتين:

﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ثم تأتي خاتمة السورة وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ...** ﴾ .

وفي أواخر السورة نجد : ﴿ **وما تنزَّلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ...** ﴾

فأنت ترى أن للسورة من أولها إلى آخرها صلة بقوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ إن صلة السورة بهذه الآية واضحة ، ومن ثم لم نتكلّف إذ قلنا إن هذه الآية هي محور السورة .

....

وعند قصة كل رسول في السورة نجد أن لازمة تتكرر ، هذه اللازمة هي قول كل رسول لقومه ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ إن هذه الآية تتكرر في قصة كل رسول ، إما مرة أو مرتين ، ماعدا قصة موسى عليه السلام . حتى إذا وصلنا إلى خاتمة السورة وجدنا قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون** ﴾ .

مما يدل على أن التقوى والطاعة هدفان بُعث من أجلهما كل رسول فإذا تذكّرنا أن محور السور آت في سياق قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ فهذا يعني أنه لا إسلام إلا بتقوى وطاعة .

....

وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) أبرزنا فكرة أن التقوى هي مطلب الله من كل عبد . فالإسلام مجموعة أحكام الله في كل شيء ، ولكن ما يطالب به كل مسلم من هذا الإسلام هو التقوى . وقد شرحنا هناك ماهيّة التقوى في الاصطلاح الإسلامي ، ولأن

المسلم جزء من جماعة ، ولأن مظهر التزامه بالجماعة هو الطاعة ، فهناك تلازم بين التقوى والطاعة ، غير أن الطاعة لرسول الله ﷺ لها شأن خاص ، إذ بدون طاعة للرسول لايكون الإنسان مسلماً . إن التقوى والطاعة هما علامتا إسلام المسلم ، وعلى قدر طاعته وتقواه يكون داخلاً في الإسلام كله ، ومن ثم كانت السورة تفصيلاً لمحورها ضمن حيزه البعيد ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ وكذلك هي تفصيل لمحورها ضمن حيّزه القريب . فقصة طالوت تبرز أهمية الطاعة للقيادة المسلمة ، وهي القصة التي تأتي قبل الآية التي هي محور سورة الشعراء مباشرة .

....

هاتان ملاحظتان بارزتان حول سورة الشعراء ، تبينان صحة ماذهبنا إليه عن السورة ومحورها ، وحيّز هذا المحور ، وهو موضوع سيتعمّق من خلال السير في فهم السورة التي تتألف من مقدمة ، وخاتمة ، ومجموعة قصص . فلنبدأ عرض السورة .

المقدمة : وهي المجموعة الأولى

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٩) وهذه هي مع البسملة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

التفسير :

﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ أي هذه آيات القرآن المبين الواضح الجلي ، الذي يَفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشاد ، الظاهر إعجازه وإنه من عند الله . وهل الإشارة في قوله (تلك) إلى القرآن كله ، أو إلى هذه السورة خاصة ؟ قولان للعلماء . ﴿ **لعلك** ﴾ من الإشفاق ﴿ **باخع** ﴾ أي مُهْلك ﴿ **نفسك** ﴾ أي مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ **ألا يكونوا مؤمنين** ﴾ أي لامتناع إيمانهم ، أو خيفة ألا يؤمنوا . والمعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزناً على ما فاتك من إسلام قومك ، وقد دلت الآية على أن حزن رسول الله ﷺ كان كبيراً على شرود قومه . وفي الآية تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، بعد أن قامت الحجة عليهم بهذا القرآن ﴿ **إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ . أي منقادين . قال ابن كثير في الآية : (أي لو نشاء لأنزلنا آية نضطرهم إلى الإيمان قهراً ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري) وهذا يدل على أن الله قد أنزل من الآيات مايكفي . وعنده المزيد لو شاء ، ولكن أنزل بالقدر الذي تقوم به الحجة ، ويتم به الامتحان ﴿ **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدَث إلا كانوا عنه معرضين** ﴾ قال ابن كثير : أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس . وقال النسفي : (أي ومايجدّد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً إلا جدّدوا إعراضاً عنه وكفراً به) هذا مع قيام الحجة وظهور الإعجاز ومرافقة المعجزات ﴿ **فقد كذبوا** ﴾ أي بما جاءهم من الحق ﴿ **فسيأتيهم أنباء** ﴾ أي أخبار ﴿ **ماكانوا به يستهزؤون** ﴾ هذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسّهم عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة ماهو هذا القرآن الذي كانوا يستهزؤون به ، وسيأتيهم أنباؤه ، وأحواله التي كانت خافية عنهم ﴿ **أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج** ﴾ أي صنف من النبات ﴿ **كريم** ﴾ أي محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في إثبات تلك الأصناف ﴿ **لآية** ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق وخلقه للأشياء ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع وجود الآية ﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ في انتقامه من الكفرة ، أو العزيز الذي عَزّ على كل شيء وقهره وغلبه ﴿ **الرحيم** ﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه ، بل يؤجّله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . أو الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

نقل :

عند قوله تعالى : ﴿ **إن نشأ ننزل عليهم آية من السماء فظلّت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ . قال صاحب الظلال :(ولكنه– سبحانه – لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة معجزاً في كل ناحية :

معجزا في بنائه التعبيري ، وتنسيقه الفني ، باستقامته على خصائص واحدة ، في مستوى واحد ، لايختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه ، كما هي الحال في أعمال البشر ، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لايتخلف ، يدل على مصدره الذي لاتختلف عليه الأحوال .

معجزاً في بنائه من حيث المعنى ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتلبيها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها .. وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة ، في اتساق لايمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولا بد أن تكون هناك إحاطة مطلقة ، غير مقيّدة بقيود الزمان والمكان . هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمته هذا التنظيم .

معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين ، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا لبس ولا معاضلة . لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة الرسالة ، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها ، وتضطرها إلى التسليم – ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لاتلوي إلا أعناق من يشاهدونها ، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعاً يشهد .. فأما القرآن فهاهو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً

كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان مايقوّم حياتهم - لو هُدُوا إلى اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأُفق أعلى ، ومصير أمثل . وسيجد فيه مَنْ بعدنا كثيراً مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لاينفد ، بل يتجدد . ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين)

أقول : وقعت لرسولنا عليه الصلاة والسلام معجزات كثيرة غير القرآن ، ولكن القرآن هو معجزته الرئيسية عليه الصلاة والسلام ، ولو شاء الله معجزة لايبقى معها أحد إلا آمن لفعل ، ولكنه لم يشأ جل جلاله لحكمة ، وهذا النوع من المعجزات هو المنفي في الآية

كلمة في السياق :

حددت هذه المقدمة مجموعة معان :

١ - أن آيات هذا القرآن من الوضوح بالمكان البيّن وهذه السورة نموذج على البيان في الآيات والمعجزات .

٢ - بينت لرسول الله ﷺ أن الله قادر على أن ينزل من الآيات مابه يؤمن البشر إيماناً قسرياً ، وإن لله حكمة في كونه لاينزل من الآيات إلا بالقدر الذي تقوم به الحجة الكاملة ، ومن ثم فعلى رسول الله ﷺ ألا يحزن لعدم إيمان من لم يؤمن .

٣ - ومن ذكر الحقيقتين السابقتين ندرك حكمة إنزال الذكر على ماهو عليه ، وندرك ضلال المعرضين ، وكيف أن هؤلاء المعرضين المكذّبين سيرون أن كل مانزل في الذكر حق .

٤ - لفت الله عز وجل النظر إلى آية من آياته العظمى ، وهي كثرة ماخلق من أصناف النبات في هذه الأرض ، وأنه مع وجود هذه الآية فإن أكثر الخلق لايؤمنون . ثم ذكّرنا الله عز وجل بعزته ورحمته .

هذه مجمل المعاني التي وردت في المقدمة لاحظ الآن صلتها بمحور السورة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ إن المقدمة تحدثت عن آيات هذا

القرآن وأثبتت رسالة الرسول . وتحدثت عن كفاية هذه الآيات للإيمان ، وعن موقف أكثر الخلق منها ، وعن الحكمة في عدم إنزال آيات غير ماأنزل ، ثم لفتت النظر إلى آية دالة على وجود الله ، وهي أصناف النبات ، ومع ذلك فإن الخلق لايؤمنون ، فالعلة فيهم ومنهم ، وعلى الرسول أن يدرك ذلك وألا يحزن ، ولكل ذلك صلة مباشرة بمحور السورة ، ومن مقدمة السورة ندرك أن السورة ستعرض علينا نماذج من الآيات فيها بيان وفيها إقامة حجة ، وفيها كفاية ، وفيها تأكيد لكون محمد رسول الله ﷺ ، وفيها توجيه للرسول الأمين ﷺ ، ولذلك فإننا نجد أن في بداية السورة قوله تعالى : ﴿ **فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** ﴾ وأنّ في خاتمتها قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون** ﴾ .

ولننتقل إلى المجموعة الثانية .



المجموعة الثانية « قصة موسى »

وتمتد من الآية (١٠) إلى نهاية الآية (٦٨) وهذه هي :

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ

فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ملاحظة أولى :

كما أن محور السورة كان خطاباً لرسول الله ﷺ : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فإننا نلاحظ أن كل مجموعة في السورة فيها خطاب مباشر لرسول الله ﷺ ، وفيها ذكر للآيات أو للقرآن : فمثلاً في المقدمة نجد ﴿ **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** ﴾ ونجد ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ كما نجد ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ وفي قصة موسى نجد الآية الأولى فيها : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾

ونجد في خاتمتها : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ .

ونجد أنه بعد كل قصة من القصص اللاحقة يتكرر قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ كما يتكرر قوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ ونجد في خاتمة السورة : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ . وهكذا نجد توافقاً كاملاً بين السورة وبين الآية التي هي محورها من سورة البقرة .

ملاحظة ثانية :

نلاحظ أن مقدمة السورة بعد أن ذكرت أصناف النبات قالت : ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾

كما نلاحظ أن قصة موسى ختمت بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾

كما نلاحظ أن كل قصة ذكرت في السورة ختمت بنفس الآيتين . وهذا يفيد أن على المتأمل والتالي أن يجد آية في كل ما ذكر إن كان مؤمناً ، وأن غير المؤمن هو الذي لايجد الآية في هذا ، والتذكير باسم الله الرحيم في هذا المقام ينسجم مع ذكر الآية ويذكّرنا بشكرها والتذكير باسم الله العزيز فيه إنذار للذين لا يرون الآية ولا يؤمنون ، فإذا تذكرنا محور السورة ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾

عرفنا أن في كل مجموعة من السورة نموذجاً على آيات الله التي أنزلها على رسولة ﷺ والتي فيها دليل رسالته ، ومن ثم فإن على المؤمن أن يتذوّق الآية في كل مجموعة من مجموعات هذه السورة .

وبعد هاتين الملاحظتين فلنبدأ عرض قصة موسى عليه السلام :

....

التفسير :

﴿**وإذ**﴾ أي واذكر إذ ﴿**نادى ربك**﴾ أي دعا ربك ﴿ **موسى أن ائت القوم الظالمين** ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبنى إسرائيل بالاستعباد ، وذبح الأولاد ﴿ **قوم فرعون** ﴾ هم القوم الظالمون ﴿ **ألايتقون** ﴾ أي ائتهم زاجراً فقد آن لهم أن يتقوا دل ذلك على أن المهمة الأولى للرسول هي تربية التقوى في قلوب الناس ، فمن لم يبدأ بتربية التقوى ، أولم يعرف كيف يربي عليها من الدعاة إلى الله لايكون وارثاً للرسول ﴿ **قال رب إني أخاف أن يكذبون** ﴾ الخوف هو : غم يلحق الإنسان لأمر سيقع ﴿ **ويضيق صدري** ﴾ بتكذيبهم إياي ﴿ **ولا ينطلق لساني** ﴾ بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال ، وأسمع من الجدال ﴿ **فأرسل إلى هارون** ﴾ أي أرسل إليه جبريل واجعله نبياً يعينني على الرسالة ، وكان هارون بمصر حين بعث موسى وأوحي إليه عند الطور ، ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقّفاً في الامتثال ، بل التماس عون في تبليغ الرسالة . قال النسفي : وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ، وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لاعلى التعلل ﴿ **ولهم عَلَيَّ ذنب** ﴾ أي تبعة تعللا بقتل من قتلته ﴿ **فأخاف أن يقتلون** ﴾ أي قصاصاً به . قال النسفي : وليس هذا تعللا أيضاً بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وفَرَقٌ من أن يقتل قبل أداء الرسالة .

وهكذا شكا موسى إلى الله عز وجل كل الاحتمالات الصعبة التي يتوقع أن تواجهه . وهذا يدل على تقدير صحيح منه عليه السلام للموقف الذي يواجهه . ومن ثم فإن كل من يقوم بشأن الدعوة إلى الله عليه أن يقدر الموقف الذي يمكن أن يجابهه ، ويطلب من الله العون والله معين ، وقد وعد موسى بالحفظ والدفع عنه : ﴿ **قال** ﴾ ﴿**كلا**﴾ كلمة ردع لما ستدفعه موسى من بلاء وهمّ ، وهي ههنا وعد ، وعده الدفع بكلمة الردع ليردعه عن الخوف ثم قال : ﴿**فاذهبا**﴾ أي أنت وهارون ، دل ذلك على أنه استجاب دعاء موسى بالإرسال إلى هارون ﴿**بآياتنا**﴾ أي مع آياتنا وهي اليد والعصا وغير ذلك ، وهذا يفيد أن كل رسول يعطى من الآيات مابه تقوم الحجة ﴿**إنا معكم**﴾ أي معكما بالعون والنصرة ، ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة ﴿**مستمعون**﴾ أي سامعون ﴿**فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين**﴾ ولم يثن الرسول هنا كما ثناه في سورة

(طه) لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد ﴿**أن أرسل معنا بني إسرائيل**﴾ قال ابن كثير : أي أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك ، وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك في العذاب المهين ، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ، ونظر إليه بعين الازدراء والفحص . فعند ذلك ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**ألم نربك فينا وليداً**﴾ أي ألم تكن صغيراً فربيناك ﴿**ولبثت فينا من عمرك سنين**﴾ وهي الفترة قبل قتله القبطي ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت**﴾ أي قتلك القبطي ﴿**وأنت من الكافرين**﴾ أي الجاحدين . والمعنى : أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا على فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منّا رجلاً ، وجحدت نعمتنا عليك . والملاحظ أن موسى حدد مطلباً رئيسياً من فرعون ، وهو الإذن لبني إسرائيل في الخروج من مصر وهو مطلب سياسي ، فقد كان الهدف هو تحرير بني إسرائيل من العبودية ، والملاحظ أن فرعون فرَّ من الجواب على هذا المطلب الرئيسي بتذكير موسى بنعمته عليه .

ملاحظة مهمة :

في عصرنا وفي بلادنا حيث الصراع بين اليهود و العرب على فلسطين على أشده ، يحاول كثيرون أن يحملوا على اليهود في كل العصور ، والذي نقوله : إن اليهود عندما كانوا مسلمين كانوا جزءاً من الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ، ولقد خرجوا من الأمة الإسلامية بكفرهم ، وقد كفروا يوم رفضوا رسالة عيسى عليه السلام ، وإذ كفروا فهم أعداؤنا ونحن أعداؤهم . وعلى هذا فكل يهودي بعد عيسى كافر ، وقد تأكد هذا الكفر .. برفض اليهود لنبوة محمد ﷺ وبهذا الكفر خرجوا عن الأمة الإسلامية وأما إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان فهم أنبياؤنا ورسلنا ، وأتباعهم منا ونحن منهم ، فكل الرسل وكل خلفائهم على مدى العصور ، يشكّلون أمة واحدة هي الأمة الاسلامية . ولنعد إلى التفسير والحوار الذي تمّ بين موسى وفرعون في الجلسة الأولى ــ جلسة تبليغ الرسالة ..

....

فبعد أن فرَّ فرعون من الجواب على طلب موسى ، وبعد أن مَنَّ عليه وأنّبه على قتله القبطي ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **فعلتها إذاً** ﴾ أي قتلت الرجل إذ ذاك ﴿ **وأنا من الضالين** ﴾ أي من الجاهلين بأن الفعلة تبلغ القتل ، أو من الناسين ، أو من الغافلين ، أو قبل أن يكرمني الله بهداه ووحيه فأكون نبياً ﴿ **ففررت منكم** ﴾ إلى مدين ﴿ **لما خفتكم** ﴾ أن تقتلوني ﴿ **فوهب لي ربي حكماً** ﴾ أي نبوة وعلماً ، فزال عني الجهل والضلالة ﴿ **وجعلني من المرسلين** ﴾ أي من جملة رسله ، وكأنه قال : لقد تغيّر الحال الأول وجاء أمر آخر ، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سلمتَ ، وإن خالفته عطبت .

كلمة في السياق :

إذا تأملنا قوله تعالى على لسان موسى ﴿ **ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين** ﴾ فإننا نجد فيه نكهة شبيهة بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾ وإنك لتلاحظ بشكل عام أن نكهة سورة الشعراء تشبه نكهة آية المحور ، وذلك عدا عن كون معانيها تدور في فلك آية المحور . وهذا مظهر عظيم من أسرار هذا القرآن ، فإنك لاتجد سورة فصّلت آية من سورة البقرة إلا رأيت تشابهاً بين نكهة الآية والسورة . فأن تجد ذلك وأن تجد سورة البقرة ذات نكهة خاصة بها ، وروح خاصة بها . فذلك وحده شيء عجيب . وذلك دليل على أن الله منزل هذا القرآن . ولنعد إلى التفسير لنرى تتمة جواب موسى لفرعون :

....

﴿**وتلك نعمة تمنها علي أن عَبّدت بني إسرائيل** ﴾ أي أن جعلت بني إسرائيل عبيداً أذلاء ، ردّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله ، وأبى أن تسمى هذه نعمة ، لأن سببها هو تعبيد بني إسرائيل ؛ لأن تعبيدهم وذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ولو تركهم لرباه أبواه ، فكأن فرعون امتنَّ على موسى بتعبيد قومه ، وإخراجه من حجر أبويه فكيف تسمى هذه نعمة ؟ قال ابن كثير في تفسير الآية : أي أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً ، تصرّفهم في أعمالك ومشاق رعيتك ، أَفَيَفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم أي ليس ماذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم . وبهذا ختم موسى الرد على فرعون ، وكان رداً في غاية القوة وفيه درس للمشتغلين بقضايا تحرير أقوامهم من ظالميهم وجلاديهم ، ثم إن فرعون فرَّ ثانية من الجواب ،

وطرح سؤالاً . وذلك أن موسى أعلمه أنه رسول رب العالمين ، وهو يدعي الربوبية ، ففي دعوة موسى إبطال لدعواه . ومن ثم أخذ الحوار طابعاً عقدياً ، ونلاحظ أن موسي في هذا الحوار يقابل الحجة بالحجة ، والكلمة بالكلمة ، لأن الصمت في مقام التبليغ إخلال بالتبليغ ، وذلك درس لكل من يتصدى للدعوة إلى الله أو إلى شرعه ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾ قال النسفي : أي إنك تدّعي أنّك رسول رب العالمين فما صفته . وقال ابن كثير : قال هذا له فرعون من الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ، هكذا فسّره علماء السلف وأئمة الخلف ..... ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هنا سؤالاً عن الماهية فقد غلط فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما بظهر ، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين ﴿ **قال رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل ، فالإيقان هو العلم الذي يستفاد بالاستدلال ، ولذا لايقال الله موقن . والمعنى : إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلاً ، أو إن كان يرجىٰ منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلالم ينفع فالله عز وجل خالق السمٰوات والأرض وما بينهما ، ومالك جميع ذلك ، والجميع عبيد له خاضعون ، ومن كانت لهم قلوب موفقة ، وأبصار نافذة عرفوا ذلك فعند ذلك التفت فرعون إلى مَن حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلالهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى كما قال الله تعالى : ﴿**قال لمن حوله ألاتستمعون** ﴾ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلها غيري ؟ ﴿ **قال**﴾ لهم موسى ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ، أي إن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم ، ولعله ذكر آباءهم لأن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم ﴿**قال**﴾ أي فرعون ﴿ **إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون** ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري ﴿ **قال**﴾ موسى ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، قال النسفي . وهذا غاية الإرشاد ، حيث عمم أولاً بخلق السمٰوات والأرض وما بينهما ، ثم خصص... أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ، ومن ولد منه ، وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر (كما يراه الناظر) على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن من الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن

كنعان ... ، قال ابن كثير : لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ، ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنّك من المسجونين**﴾ قال ابن كثير : لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ، وذلك ديدن كل ظالم ، أن يلجأ إلى الإرهاب والتهديد به إذا خالفه الناس في مواقفه الظالمة . وقال النسفي : فلما تحيّر فرعون ولم يتهيأ له ، أن يدفع ظهور آثار صنعه قال ﴿ **لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾ أي لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني . وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّه ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر ولا يسمع ، فكان ذلك أشد من القتل ، ولو قال لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر ﴿ **قال أولوجئتك بشيء مبين**﴾ أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك ببرهان قاطع واضح ﴿ **قال فائت به**﴾ أي بالذي يبيّن صدقك ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ أن لك بينة ، أي فأحضر ما يدل على صدقك ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**﴾ أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح . قال النسفي :(أي ظاهر الثعبانية ، لاشيء يشبه الثعبان ، كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر ﴿ **ونزع يده** ﴾ أي من جيبه أي من فتحة عند القميص بعد أن وضعها تحت إبطه ﴿ **فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾ قال النسفي : دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضها نورياً . وقال ابن كثير : أي تتلألأ كقطعة من القمر فبادره فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد . ﴿ **قال**﴾ فرعون ﴿ **للملأحوله** ﴾ لمن حوله من أشراف مملكته ووجهائهم وأصحاب النفوذ والرأي فيهم ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ أي فاضل بارع في السحر فروّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيّجهم وحرّضهم على مخالفته والكفر فيه فقال :

﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** ﴾أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم فأشيروا عليّ فيه ماذا أصنع به من حبس أو قتل ؟ قال النسفي :(لما تحيَّر فرعون برؤية الآيتين ، زل عنه ، ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه خوفاً ، طفق يؤامر قومه الذين هم — بزعمه — عبيده وهو إلههم . أو جعلهم آمرين ونفسه مأموراً) وذلك دأب الطغاة يتظاهرون بأنهم منفذون لأوامر شعوبهم ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ أي أخّر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة

﴿**وابعث في المدائن حاشرين**﴾ أي شرطاً يجمعون السحرة ﴿ **يأتوك بكل سحار عليم** ﴾ والمعنى : أخّره وأخاه حتى تجمع من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك ، وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس جهرة ﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم** ﴾ وهو يوم الزينة أي يوم العيد والميقات المحدد من ذلك اليوم هو وقت الضحى ، لأنه الوقت الذي وقّته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة ، كما ذكر ذلك في سورة طه ﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ أي اجتمعوا وفي الصيغة ما يفيد استبطاء اجتماعهم . والمراد منه استعجالهم . واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم ﴿ **لعلنا نتبع السحرة** ﴾في دينهم ﴿ **إن كانوا هم الغالبين** ﴾ أي إن غلبوا موسى في دينه ، وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض ألا يتبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساق الكناية ، لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى . قال ابن كثير : ولم يقولوا نتبع الحق ، سواء كان من السحرة أومن موسى ، بل الرعية على دين ملكهم ﴿ **فلما جاء السحرة** ﴾ قال ابن كثير : أي مجلس فرعون ﴿ **قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين** ﴾ طلبوا منه الإحسان إليهم والتقريب ﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **نعم وإنكم إذاً لمن المقربين** ﴾ أي لكم أجر عندي وتكونون مع ذلك من المقربين عندي في المرتبة والجاه ، وهكذا فعل فرعون كل ما في وسعه من أجل أن يغلب موسى ، ولكن هيهات ، فالأمر أكبر من ذلك ، إنها الرسالة ، وإنها المعجزة ، وإن الله من ورائهم محيط ﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ أي من السحر فسوف ترون عاقبته وقد اختصرت في هذا المقام بعض الحيثيات التي ذكرت في سور أخرى ، لأن الهدف هنا هو إبراز النتيجة ، وتصوير العاقبة ﴿ **فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ أقسموا بعزّته وقوته أن لهم الغلبة ، وهو من أيمان الجاهلية ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف** ﴾ أي تبتلع ﴿ **ما يأفكون** ﴾ أي ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ويزورونه ويخيلونه في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى ، فقد اختطفت ذلك كله وابتلعته ، وجمعته من كل بقعة ، فلم تدع منه شيئاً ﴿ **فألقي السحرة ساجدين** ﴾ قال النسفي : عبر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة ، لأنه ذكر مع الإلقاءات ، ولأنهم لسرعة ماسجدوا صاروا كأنهم ألقوا ﴿**قالوا آمنّا برب العالمين** ﴾ وحتى لايبقى لبس بمن أرادوا بكلامهم لأن فرعون يدعي الربوبية قالوا﴿ **رب موسى وهارون** ﴾ قال

ابن كثير : فكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم ، وطلب منهم أن يَغْلبوا غُلبوا ، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذي أرسل موسى وهارون بالحق والمعجزة الباهرة فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ــ فعدل إلى المكابرة والعناد ــ ودعوى الباطل ــ فشرع يتهددهم ، ويتوعّدهم ﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ بذلكم ، أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿ **إنه لكبيركم الذي علّمكم السّحر** ﴾ أي وقد تواطأتم معه على أمر ومكر ، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لايقوله عاقل ، ثم توعدهم فرعون فقال ﴿ **فلسوف تعلمون** ﴾ أي وبال مافعلتم ، ثم صرح بما سيفعله بهم فقال : ﴿ **لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أي من أجل خلاف ظهر منكم ، أو مخالفاً بين أيديكم وأرجلكم في القطع ﴿ **ولأصلبنّكم أجمعين** ﴾ وهي عقوبة أراد بها فيما يبدو ترهيب العامة ، لئلا يتبعوهم في الإيمان ﴿ **قالوا لاضير** ﴾ أي لا ضرر علينا ، ولا نبالي به ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل ، وهو لايضيع أجر من أحسن عملاً ولايخفى عليه مافعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ، ولهذا قالوا ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا** ﴾ أي : ماقارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ **أن** ﴾ أي لأن ﴿ **كنا أول المؤمنين** ﴾ أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان ؟ قال ابن كثير : فقتلهم كلهم . وهكذا قامت الحجة قياماً كاملاً ، ومع ذلك بقي العتو ، وأنزل الله الآيات الأخرى التي ذكرت في سورة الأعراف ، واختصرت هنا ؛ لأن السياق ينصبّ هنا على فعل الله لأنبيائه . ومن ثم فالسياق هنا ينتقل مباشرة إلى موضوع الخروج والإنجاء ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي** ﴾ أي بني إسرائيل . أي سِرْبهم ليلاً . قال النسفي : سماهم عباده لإيمانهم بنبيه ﴿ **إنكم متَّبعُون** ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه . قال النسفي : علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم ، يعني إني بنيت تدبير أمركم وأمرهم ، على أن تتقدموا ويتبعوكم ، حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فأهلكهم ، هذا ماكان من وحي الله وتدبيره ، وقد ذكر تدبير فرعون ضد بني إسرائيل ، ليعلم أن الله عز وجل هو الذي يدبر المعركة بين الكافرين والمؤمنين ، ومن ثم فمهما دبر الكافرون ضد المؤمنين ، فالعاقبة للمتقين ؛ لأن

الله يعلم كيدهم، وهو الذي يدبر للمؤمنين، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب. وأما تدبير فرعون فقد انصب على ما يسمى باصطلاح عصرنا بالتوعية الشعبية ﴿ **فأرسل فرعون في المدائن حاشرين** ﴾ أي جامعين للناس بعنف، أي أرسل من يجمع الناس ليقولوا لهم : ﴿ **إنّ هؤلاء** ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ **لشرذمة** ﴾ أي لطائفة ﴿ **قليلون** ﴾ أي إنهم لقلتهم لايعبأ بهم ﴿ **وإنهم لنا لغائظون** ﴾ أي إنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا، وتضيق صدورنا ﴿ **وإنا لجميع حاذرون** ﴾ أي متيقظون بشكل دائم. يعني : ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور. فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده، وهكذا لخصّ الله لنا بأربع آيات تدبير فرعون ضد بني إسرائيل، وهو التدبير المستمر للطغاة في كل العصور ضد أهل الحق : يحشرون الناس، ويجمعونهم بسلطة السلطان، فيعقدون الاجتماعات والندوات، ويسيّرون المسيرات للتوعية ــ في زعمهم ــ ويقولون عن أهل الحق : إنهم فئة قليلة منحرفة عن إرادة الشعب، وخارجة على إرادة الجماهير، وأنهم يقومون بأعمال إجرامية ضد السلطة، وأن على جميع الشعب أن يكون حذراً وواعياً. إن مثل هذا التسجيل الخالد لفعل فرعون، والذي ينطبق على كل زمان ومكان، لهو وحده معجزة، ومن هنا نفهم سراً من أسرار القصص القرآني، وخصيصة من خصائصه إن القصة القرآنية نموذج خالد مستمر متكرر فيه عبرة وعظة ودروس لكل إنسان، وفي كل زمان. ثم بعد ذلك قص الله علينا عاقبة الجميع ﴿ **فأخرجناهم** ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ **من جنات** ﴾ أي بساتين ﴿ **وعيون** ﴾ أي وأنهار جارية ﴿ **وكنوز** ﴾ أي وأموال ظاهرة من الذهب والفضة. قال النسفي : وسماها كنوزاً لأنهم لاينفقون منها في طاعة الله ﴿ **ومقام** ﴾ أي ومنزل ﴿ **كريم** ﴾ أي بهيّ بهيج ﴿ **كذلك** ﴾ أي الأمر كذلك، أو وأخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا ﴿ **وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ أي إن كان المراد بأورثناها أورثنا بعضها كالكنوز التي استعارها منهم بنو إسرائيل ليلة الخروج فذلك التوريث كان في ليلة الخروج، وإن كان ماحدث بعد ذلك في زمن بعض ملوك بني إسرائيل كسليمان، إذ امتد نفوذ بني إسرائيل حتى غطى مصر، فذلك التوريث فيما بعد، والآية تحتمل هذا وهذا ﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾ أي فلحقوهم داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها. وهذا يفيد أن بني إسرائيل نفذوا الأمر بالإسراء ليلاً، وأن فرعون وقومه أتبعوهم، وكانت لحظة الإدراك وقت طلوع الشمس ﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ أي تقابلا، بحيث يرى كل فريق الآخر. والمراد بالجمع بنو إسرائيل

والقبط ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدَركون** ﴾ أي قرب أن يلحقنا عدونا ، وأمامنا البحر ﴿ **قال** ﴾ موسى عليه السلام ثقة بوعد الله إياه ﴿ **كلا** ﴾ أي ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم ﴿ **إن معي ربي سيهدين** ﴾ أي سيهديني طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ أي البحر الأحمر على القول الراجح ﴿ **فانفلق** ﴾ أي فضرب فانفلق وانشق ، فصار اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط ﴿ **فكان كل فرق** ﴾ أي كل جزء تفرّق منه ﴿ **كالطود العظيم** ﴾ أي كالجبل الكبير الضارب في الجو ﴿ **وأزلفنا ثَمَّ** ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ **الآخرين** ﴾ أي قوم فرعون ، أي قربناهم من بني إسرائيل أو من البحر ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين** ﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ أي فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، ثم تأتي الآيتان اللتان تتكران في هذه السورة عقب المقدمة ، وعقب كل قصة وهما :

﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أي إن في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة ، وحكمة بالغة ، ومع ذلك فإن أكثر الخلق لايؤمنون ، كما أن في هذه القصة دلالة على أن الله متصف بالعزة والرحمة ، ومن عزته أن يقهر أعداءه ، ومن رحمته أن ينصر أولياءه .

ملاحظة :

رأينا أن قصة موسى وفرعون هنا لم تذكر بعض تفصيلات مما ذكر في سور أخرى كالأعراف وطه ، وذكرت تفصيلات لم تذكر هناك ، وذلك لأن القصة في كل سورة من سور القرآن تخدم سياق السورة الخاص ومحورها ، فلا يؤتى منها إلا مايخدم ذلك ، وهذه قضية ينبغي أن يلاحظها الدارسون .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة الشعراء هو قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

وقد وردت هذه الآية بعد قصة طالوت وجالوت ، وكنا قلنا من قبل إن سورة

الشعراء تعرض علينا في كل مجموعة منها آية من آيات الله ومن ثم فكل مجموعة من السورة سوى الأخيرة منها تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ ولمّا كان المفروض أن يعقب الآية إيمان ولما كان أكثر الخلق لا ينتفعون بالآيات يأتي بعد اللازمة قوله تعالى : ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ ثم يأتي بعد ذلك تعقيب هو ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ مما يشير إلى عزته ، وإنْ كفر الكافرون وإلى رحمته بالمؤمنين إذ يريهم الآيات وهكذا عرض الله علينا في المقدمة آية من آياته ثم أرانا في قصة موسى وفرعون آية أخرى من آياته . وسنرى في كل مجموعة آية من آياته وذلك كله منسجم مع محور السورة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وفي آية المجموعة التي مرّت معنا في قصة فرعون رأينا كيف أن الله عز وجل ينصر رسله بالحجة والمعجزة والتدبير ، وفي ذلك درس لرسوله محمد ﷺ –الذي هو من المرسلين –أن يثق بالله حق الثقة في أن العاقبة له ، وقد كان ذلك ، ومن قصة موسى وفرعون نعلم أن الله عز وجل هو الذي يتولى إدارة شؤون المعركة بين أوليائه وأعدائه ، وهو الذي يأخذ بيد أوليائه ويقهر أعداءهم في النهاية مهما كانت الظروف صعبة ، أو كانت المسألة في بعض صورها لغير صالح المؤمنين ، وبعد أن عرض الله علينا آية من آياته في مقدمة السورة وعرض علينا آية ثانية في قصة موسى مع فرعون يعرض علينا نموذجاً آخر من آياته في قصة إبراهيم عليه السلام ، وذلك في المجموعة الثالثة من السورة ويبدؤها بقوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم** ﴾ لاحظ الصلة بين ﴿ **واتل** ﴾ وبين ﴿ **نتلوها** ﴾ من آية سورة البقرة مما يشير إلى وضوح الصلة بين سورة الشعراء ومحورها من سورة البقرة ، وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثالثة نحب أن نشير إلى شيء هو أن آية البقرة التي هي محور سورة الشعراء آتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السّلم كافة** ﴾ وهذا يفيد أن سورة الشعراء ، تخدم هذا الحيّز فإذا اتضح هذا تكون قصة موسى وفرعون في الشعراء درساً لحملة الإسلام الكامل الشامل .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة « قصة إبراهيم »

وتمتدّ من الآية ٦٩ إلى نهاية الآية ١٠٤ وهذه هي :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ

﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

التفسير :

﴿ **واتل** ﴾ يامحمد ﴿ **عليهم** ﴾ أي على أمتك ﴿ **نبأ إبرهيم** ﴾ أي خبره إذ هو خليل الله وإمام الحنفاء ، أمر الله أن تتلىٰ قصته على هذه الأمة ليقتدى به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لاشريك له ، والتبري من الشرك وأهله ﴿ **إذ قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **لأبيه وقومه** ﴾ أي قوم إبراهيم أوقوم أبيه ﴿ **ما تعبدون** ﴾ أي أيّ شيء تعبدون وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة ﴿ **قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين** ﴾ أي مقمين على عبادتها ودعائها ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **هل يسمعونكم** ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم ﴿ **إذ تدعون** ﴾ أي إذ تدعونهم ﴿ **أو ينفعونكم** ﴾ إن عبدتموها ﴿ **أو يضرون** ﴾ إن تركتم عبادتها ﴿ **قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ اعترفوا بأن أصنامهم لاتسمع ولاتنفع ، ولاتضر ولايعبدونها لشيء من ذلك ، ولكن وجدوا آباءهم على شيء فقلدوهم ، وههنا يظهر الفارق بين من يتابع الآباء على الحق ، وبين من يتابع الآباء على الباطل ، ولو قامت الحجة على بطلانه ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ردّا عليهم ﴿ **أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون** ﴾ أي الأولون ﴿ **فإنهم** ﴾ أي هذه الآلهة ﴿ **عدو لي إلارب العالمين** ﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إليّ بالمساءة فإني عدوها ولاأبالي بها ، ولا أفكر فيها وإذ كان جوابهم عاطفياً فإن جوابه كان عاطفياً عقلياً . ولما كان في جوابه إعلان أن الله عز وجل ربه بدأ يعرفهم على الله ربه رب العالمين .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن موسى عليه السلام في هذا السورة قال لفرعون : ﴿**إنا رسول رب**

العالمين ﴾ قال فرعون ﴿**وما رب العالمين** ﴾ قال موسى ﴿ **رب السمٰوت والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ فقد عرّف موسى فرعون على الله رب العالمين من خلال ربوبيته للخلق كلهم ، وربوبيته للإنسان ، وربوبيته للمشرق والمغرب وما بينهما ونلاحظ ههنا أن إبرهيم عليه السلام حدث قومه عن الله رب العالمين ، وسنرى أن إبراهيم سيعرف على الله رب العالمين بما يكمّل كلام موسى عليه السلام . وهذا يشير إلى أن دعوة الرسل واحدة ، وأنها متكاملة ، فإذا تذكرنا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ فإننا ندرك أن السورة تخدم محور السورة بما يعرّفنا على خصائص المرسلين ودعوتهم ، زيادة على كونها تعرض علينا آيات من آيات الله ؛ لنرى من خلال خصائص المرسلين أن محمداً ﷺ من المرسلين وهذا الذي ذكرناه يأتي بشكل متسلسل في السورة لنجده في خاتمة السورة مكثّفاً وموجّهاً نحو الهدف العام والخاص للسورة ، بما يخدم المحور بشكل مباشر ومكثف ، فلنر الآن بم عرّف إبراهيم على الله رب العالمين ؟ قال :

﴿**الذي خلقني فهو يهدين**﴾ أي الذي خلقني بالتكوين في القرار المكين ، هو الذي يهديني لمناهج الدنيا ولمصالح الدين ﴿ **والذي هو يطعمني ويسقين** ﴾ أي مع كونه خالقي وهاديّ فهو كذلك رازقي بما سخر ويسخر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق السحاب ، وأنزل الماء ، وأحيابه الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيّ كثيراً ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ قال ابن كثير : (أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قَدَر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً) ومعنى الآية كما قال ابن كثير : أي إذا وقعت في مرض فإنه لايقدر على شفائي أحد غيره بما يقدّر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ **والذي يميتني ثم يحيين**﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لايقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدىء ويعيد ﴿ **والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين** ﴾ أي يوم القيامة أي لايقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، وكلامه في هذا السياق يفيد أنه .. لايعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء : الخلق والهداية والإطعام والإسقاء والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة يوم القيامة . فمن كان يفعل هذه الأشياء فهو رب العالمين وهو الذي يستحق العبادة وحده .

فائدة :

من كلام إبراهيم عليه السلام نعرف عقيدة الأنبياء في موضوع أفعال الله عز وجل ، ونعرف الحكم القاطع في النزاع الذي داربين أهل السنة والجماعة ، والمعتزلة في موضوع خلق الأفعال ، إن كلام إبراهيم قاطع في أن الله هو المؤثر ، وأنه لا تأثير للأشياء إلا بالله .

....

ولنعد إلى التفسير : فبعد أن أعلم إبراهيم قومه أن معبوديهم أعداؤه ، وأن رب العالمين هو ربه ومعبوده ، وعرفهم على الله رب العالمين ، توجه بالدعاء إلى الله عز وجل فقال :

﴿ **رب هب لي حكماً** ﴾ أي حكمة أو حكماً بين الناس بالحق ، أو علماً أو فصلاً أو نبوة لأن النبي ﷺ ذو حكمة ، وذو حكم بين عباد الله ﴿ **وألحقني بالصالحين** ﴾ أي الأنبياء ، أو واجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾ أي ثناءً حسناً ، وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي ، فأعطي ذلك ، فكل أهل دين يتولّونه ويثنون عليه ، ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به ﴿ **واجعلني من ورثة جنة النعيم** ﴾ أي واجعلني وارثاً للجنة ، أي من الذين يدخلونها خالدين ﴿ **واغفر لأبي إنه كان من الضالين** ﴾ أي اجعله من أهل المغفرة بإعطائه الإسلام إنه كان من الكافرين ﴿ **ولا تخزني يوم يبعثون** ﴾ أي ولا تذلني يوم يبعث الخلق أي يوم القيامة ﴿ **يوم لاينفع مال ولا بنون** ﴾ أي يوم لايقي المرء من عذاب الله ماله ولا أولاده ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ أي عن الكفر والنفاق وبقية الأمراض . وبهذا انتهت دعوات إبراهيم عليه السلام ، وبها عرفنا المطالب العليا للمسلم الكريم : الحكم ، والصلاح ، وحسن الذكر في الله ، والجنة ، والمغفرة للآباء ، وعدم الذلة يوم القيامة .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أن السياق حدثنا عن جولة فقط من النقاش بين إبراهيم وقومه ، ثم سار السياق في عرض دعوات إبراهيم . والآن ينقلنا السياق إلى مشهد من مشاهد يوم

القيامة ، هو في الحقيقة تعقيب على موقف إبراهيم وموقف قومه ؛ بدليل أن الآيتين اللتين تُذكران وراء كل قصة في هذا السياق وهما ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ هاتان الآيتان تأتيان بعد التعقيب ، مما يدل على أن هذا التعقيب تعليق على قصة إبراهيم ، فهو يعرض مايحدث لعباد الله وعباد الشيطان يوم القيامة . ولكنه يذكر بصيغة التعميم ، لأن الآيات تنطبق على كل من شابه إبراهيم وشابه قومه . فلنر الآن التعقيب ثم نعود إلى السياق ، ملاحظين أن الصلة بين التعقيب وبين ماقبله على غاية المتانة . فقد سبق التعقيب قوله تعالى : ﴿ **يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ ثم ينقلنا السياق إلى عرض مشهد من مشاهد ذلك اليوم .

....

﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها ، مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على مافي الدنيا ، وعملوا لها في الدنيا ﴿ **وبرّزت الجحيم للغاوين** ﴾ أي للكافرين . أي أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها . قال ابن كثير : أي أظهرت وكشف عنها ، وبدت منها عنق ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ﴿ **وقيل لهم** ﴾ وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً ﴿ **أين ماكنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون** ﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ أي ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك فَغووا وأغووا ﴿ **وجنود إبليس أجمعون** ﴾ أي متبعوه من عصاة الإنس والجن أو شياطينه ألقي فيها هؤلاء وهؤلاء عن آخرهم ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون** ﴾ أي قال الضعفاء للذين استكبروا ، أو قال العصاة للشياطين ، أو قال عباد غير الله لآلهتهم من الأصنام وغيرهم ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ أي نعدلكم في العبادة برب العالمين . أو كما قال ابن كثير : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ **وما أضلنا إلا المجرمون** ﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، أي رؤساؤهم الذين أضلوهم ، أو إبليس وجنوده ومَنْ سَنّ الشرك ﴿ **فما لنا من شافعين** ﴾ كما للمؤمنين إذ يشفع لهم الأنبياء والأولياء والملائكة ﴿ **ولا صديق حميم** ﴾ أي قريب كما نرى للمؤمنين أصدقاء ،

إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون ، وأما أهل النار فبينهم التعادي . قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع ﴿ **فلو أن لنا كَرّة** ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ **فنكون من المؤمنين** ﴾ يتمنون هناك أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة الله فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو رُدوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم ، والتعقيب عليه لعبرة ومعجزة . قال ابن كثير : أي في محاجة إبراهيم لقومة وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ، لآية أي لدلالة واضحة جليلة على أنه لاإله إلا الله ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع قيام الحجج وظهور الآيات ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ ومن عزته تعذيب الكافرين في النار ، وإدخال المؤمنين الجنة .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ ذكر النسفي أن الخطيئة التي أشار إليها هي قوله : (إني سقيم) و(بل فعله كبيرهم) و (هذا ربي) و(هي أختي لسارة) ثم قال : وما هي إلا معاريض جائزة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار ، واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، وتعليم للأمم في طلب المغفرة .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى على لسان ابراهيم : ﴿ **رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين** ﴾ قال ابن كثير : كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : «اللهم في الرفيق الأعلى : » قالها ثلاثاً ، وفي الحديث في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولامبدّلين»

٣ ــ وبمناسبة دعوة إبراهيم : ﴿ **ولا تخزني يوم يبعثون** ﴾ قال ابن كثير : وقال البخاري عند هذه الآية : قال إبراهيم بن طهمان ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه ، عليه الغبرة والقترة ، وفي رواية أخرى... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه فيقول : يارب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى إنّي حرمت الجنة على الكافرين » هكذا رواه عند هذه الآية ، وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصني ؟! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم يارب إنك

وعدتني أن لاتخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول : يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ورواه النسائي في التفسير من سننه الكبير .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ قال ابن كثير : أي سالم من الدنس والشرك . قال ابن سيرين القلب السليم : أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وقال ابن عباس : ﴿ **إلامن أتى الله بقلب سليم** ﴾ القلب السليم : أن يشهد أن لاإله إلا الله ، وقال مجاهد والحسن وغيرهما ﴿ **بقلب سليم** ﴾ يعني من الشرك ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى . ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة .

٥ ــ لخص النسفي قصة إبراهيم عليه السلام في السورة فقال (وما أحسن ما رتب عليه السلام كلامه مع المشركين ، حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى ، فعظّم شأنه ، وعدّد نعمه من حين إنشائه إلى وقت وفاته ، مع مايرجيّ في الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، ومايدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ماكانوا فيه من الضلال ، وتمنّي الكرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا) .

أقول : والملاحظ أن ما أسميناه تعقيباً على قصة إبراهيم عليه السلام اعتبره النسفي جزءاً من كلام إبراهيم وليس تعقيباً من الله عز وجل على قصته ، وأيّاً كان الأمر فالتعقيب على صلة كاملة بقصة إبراهيم حتى لهو جزء منها . أو لكأنه جزء منها . ومن ثم ختم بالآيتين اللتين هما علامة على انتهاء مجموعة في هذه السورة .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن قصة موسى عليه السلام عرضت لنا فعل الله بموسى وفرعون في الدنيا .

فكانت في ذلك الآية ، ولكننا لانجد في قصة إبراهيم عليه السلام مثل هذا ، وإنما نجد إقامة حجة من قبل إبراهيم وعرض للعقيدة الإبراهيمية . والعبودية الإبراهيمية ، والمعرفة الإبراهيمية لله عز وجل ، والافتقار الإبراهيمي لله . وانتصار من كان على هذه العقيدة في الآخرة . واندحار وذل وخزي وعذاب من كان على العقيدة الآزرية في الآخرة . وفي ذلك آية ومعجزة . إن في وجود إبراهيم وفي صفاء عقيدته وفي صفاء توجهاته وفي مجموع حججه التي تدحض الباطل إن في ذلك كله آية ، وإن في ذكر ذلك المشهد الرائع من مشاهد يوم القيامة والمرتبط بقصة إبراهيم لآية تشهد على الحق ، فلنتذكر الآية التي هي محور سورة الشعراء :

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فقد تلا الله علينا في قصة إبراهيم آية من آيات الله هي حق خالص ، وقد عرضت لنا هذه الآية بعض خصائص دعوة المرسلين . وبعض أخلاقهم . ومحمد ﷺ ليس إلا واحداً منهم في دعوته وأخلاقه . إن مثل هذا الشبه الكامل بين محمد ﷺ وبين الرسل السابقين مع ظهور الآيات معه دليل أي دليل على صدق نبوته ورسالته ، وإن مثل هذا التشابه والتكامل في دعوات المرسلين ــ كما عرضها القرآن ــ ليدلك وحده على إعجاز هذا القرآن الذي لايناقض شيء فيه شيئا آخر . فالقصة والتشريع والواقعة والحادثة والعظة كلها تخرج من مشكاة واحدة ، وتؤدي هدفاً واحداً ، وهذا دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، لأن هذا غير مستطاع للبشر على مثل هذا الكمال . وبعد قصة إبراهيم تأتي الآن قصة نوح عليه السلام وهي المجموعة الرابعة ، لتؤدي دورها في سياق هذه السورة . وقبل أن نذكر المجموعة الرابعة نحب أن نذكر أن آية المحور آتية في السياق البعيد للأمر ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ فليست دعوة إبراهيم ودعواته إلا دخولاً في السلم كافة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة : قصة نوح عليه السلام

وتمتد من الآية ١٠٥ إلى الآية ١٢٢ وهذه هي :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

التفسير :

﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ وإنما قال المرسلين مع أنهم كذبوا رسولهم وهو واحد لأنهم كانوا يكذبون ببعثة الرسل أصلاً . أو لأن من كذّب واحداً من الرسل فقد كذب الكل لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل .

كلمة في السياق :

نلاحظ من الآن فصاعداً أن كل قصة من القصص مبدوءة بهذه البداءة :

﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ ﴿ **كذبت عاد المرسلين** ﴾

﴿ **كذبت ثمود المرسلين** ﴾ ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين** ﴾

﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾

وكلّ ذلك يأتي في مقدمة قصة هي آية من آيات الله ، وكل ذلك يصب في الخاتمة التي تتحدث عن تكذيب المشركين والكافرين لرسول الله ﷺ الذي هو خاتم المرسلين ، لاحظ صلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ لاحظ ختم الآية بكلمة المرسلين ، ولاحظ ذكر كلمة المرسلين في خاتمة كل آية من الآيات الخمس ولنعد إلى التفسير :

﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح** ﴾ أي أخوهم في العشيرة والنسب ﴿ **ألا تتقون** ﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره . قال النسفي : أي ألا تتقون خالق الأنام فتتركوا عبادة الأصنام .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه في كل قصة من قصص السورة ماعدا قصة إبراهيم وردت كلمة (ألا يتقون ، أو ألا تتقون) ففي قصة موسى ﴿ **قوم فرعون إلا يتقون** ﴾ .

وفي قصة نوح ﴿ **ألا تتقون** ﴾ وفي قصة هود ﴿ **ألا تتقون** ﴾ وفي قصة صالح ﴿ **ألا تتقون** ﴾ وفي قصة لوط ﴿ **ألا تتقون** ﴾ وفي قصة شعيب ﴿ **ألا تتقون** ﴾ وهذا المعنى مبثوث في القرآن كله كما سجلناه في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) وهذا من مظاهر الإعجاز في القرآن ، إذ تجد كل معنى من معانيه تصب السور كلها في توضيحه واستكمال جوانبه بحيث لايناقض شيء منه شيئاً آخر . وقد دلتنا هذه الكلمة على أن الهدف الرئيسي من دعوات الرسل جميعاً هو إيصال الناس إلى تقوى الله ، ولنعد إلى التفسير :

....

﴿ **إني لكم رسول أمين** ﴾ أي إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الحق ﴿ **وما أسألكم عليه** ﴾ أي على هذا الأمر ﴿ **من أجر** ﴾ أي جزاءً ﴿ **إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أي فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله وائتمنني عليه ، فحق عليكم أن تجمعوا بين تقوى الله وطاعتي . قال النسفي :(كرره ليقرره في نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة ، فعلّة الأول كونه أميناً فيما بينهم ، وعلة الثاني حسم طمعه منهم ، كأنه قال : إذا عرفتم رسالتي وأمانتي فاتقوا الله ، ثم إذا عرفتم احترازي من الأجر فاتقوا الله) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه قد جاء في قصة نوح عليه السلام قوله تعالى : ﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ وفي قصة هود جاء قوله تعالى : ﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ ثم بعد أربع آيات جاء قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ وفي قصة صالح ﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر * إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ ثم بعد أربع آيات يأتي قوله تعالى ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ وفي قصة لوط يأتي قوله تعالى : ﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ ثم لايتكرر الأمر ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ وفي قصة شعيب يأتي قوله تعالى : ﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ ثم يأتي بعد ثلاث آيات ﴿ **واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولين** ﴾ وفي كل مرة يتكرر قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ يكون لذلك نكتة سنراها ، وحيث لايتكرر فلذلك نكتة كذلك سنراها ، وبشكل عام فإن كل رسول طالب قومه بالتقوى والطاعة ، وأعلن أنه لايريد على دعوته أجراً دنيوياً مما يدل على أن الطاعة التي يريدها الرسل هي من أجل كمال الإنسان ، وليست من أجل مقصد دنيوي ، كما يطلبها أهل الدنيا استزادة للجاه ، أو

رغبة في تحقيق هدف دنيوي من ورائها ، وهذا أدب عظيم يجب أن يلاحظه وراث الأنبياء ، وطلاب الوصول إلى رضوان الله ، وإنه لابد من أن يتربى الإنسان على التقوى لله وأن يعطي الطاعة لأهلها في الله ، ثم إنه لابد أن يلاحظ الدعاة ألا يطلبوا أجراً في مقابل الدعوة إلى الله ، وهذه قضية مهمة جداً ، قلّ من يلاحظ خفاياها في نفسه ، وندر من يعطيها تطبيقاتها العملية ، إن الصدّيقين وحدهم هم الذين يتفطنون لمثل هذه الشؤون . وأما الرسل فالله عز جل أعطاهم الكمال في كل شيء ، وفي قول كل رسول : ﴿ **إني لكم رسول أمين** ﴾ دليل على أن تعريف الإنسان بنفسه لتحقيق مقصد أخروي ، أو مقصد تحتاجه قضية الدعوة إلى الله لا يعتبر من باب تزكية النفس المكروهة . ولنعد إلى التفسير :

﴿ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ قال ابن كثير : يقولون لانؤمن لك ولا نتبعك ، ولا نتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين ، الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا . وقال النسفي في تفسير الأرذلون : (بأنهم السِّفلة ومن كلامه : والرذالة : الخسة والدناءة ، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم ، وقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنيئة ، والصناعة لاتزري بالديانة . فالغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى ، ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلاً ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً ..) .

أقول : ومن كلامهم نعلم أن هناك ناساً يحول بينهم وبين الهدى تكبّرهم عن أن يتبعوا رجلاً التف حوله الفقراء والضعفاء جسماً أو حالاً ﴿ **قال وماعلمي بما كانوا يعملون** ﴾ أي إنما أطلب منهم الإيمان ، ومن ثم فمهما كانوا عليه فلا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص ، إنّما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي ، وأَكِل سرائرهم إلى الله عز وجل ﴿ **إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون** ﴾ قال النسفي : قيل إنهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم ، وقالوا : إن الذين آمنوا بك ، ليس في قلوبهم مايظهرونه فقال : ماعليَّ إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر ﴿ **إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون** ﴾ إن الله يحاسبهم على مافي قلوبهم ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾ قال ابن كثير : كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه ، فأبى عليهم ذلك . وقال النسفي : أي ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم . ﴿ **إن أنا إلا نذير مبين** ﴾ أي إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً . وقال النسفي (أي) ما عليَّ إلا أن أنذركم

إنذاراً بيّناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ، ثم أنتم أعلم بشأنكم ، وفي ذلك كله دروس بليغة للدعاة إلى الله ، فإن كثيرين يحرصون أن ينفضّ الناس عن الدعاة من خلال إيجاد هوّة بين الداعية والمستجيبين له ، وإن كثيرين يطالبون أن يعرض الدعاة عن الأتباع الفقراء ، أو الضعفاء جسماً أو عقلاً أوسلوكاً ، وواجب الأتباع أن لايخُدَعوا ، وواجب الدعاة ألا يفعلوا ، فمهما كانت ظواهر الخلق إليهم منقادة فعليهم قبولها ، ومحاولة تزكيتهم ، وهذا شيء وأنْ يخدع الداعية شيء آخر ﴿ **قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾ أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لتكونن من المقتولين بالحجارة . وتلك عادة أعداء الله : أنهم يلجأون إلى التهديد في النهاية لثنيْ الدعاة إلى الله عن دعوتهم ، وهنالك دعا نوح عليهم ﴿ **قال رب إن قومي كذبون** ﴾ أي في وحيك ورسالتك ﴿ **فافتح بيني وبينهم فتحاً** ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم حكماً . قال النسفي : والفتاحة : الحكومة ، والفتّاح : الحاكم لأنه يفتح المستغلق ، كما سمي فيصلاً ؛ لأنه يفصل بين الخصومات ﴿ **ونجني ومن معي من المؤمنين** ﴾ أي من عذاب عملهم إذا عاقبتهم ﴿ **فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون** ﴾ أي في السفينة المملوءة بالأمتعة والأزواج ﴿ **ثم أغرقنا بعد** ﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن آمن ﴿ **الباقين** ﴾ من قومه ﴿ **إن في ذلك** ﴾ الإهلاك والإنجاء ﴿ **لآية** ﴾ أي لمعجزة ودلالة واضحة على الله عز وجل ، وعلى صدق الرسل ، وعلى صحة دعوتهم ﴿ **وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع قيام الدليل والحجة ﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ أي المنتقم بإهانة وإهلاك من جحد وأضر ﴿ **الرحيم** ﴾ أي المنعم بإعانة وإنجاء من وحدّ وأقرّ .

....

كلمة في السياق :

وهكذا عرض الله عز وجل علينا آية من آياته في قصة نوح وقومه ، إذ كانت له العاقبة ، وكان لهم الهلاك ، وفي ذلك معجزة شاهدة على صدق الرسل فيما يقولونه عن الله ، فليعرف ذلك الناس ، وليحذر من يكذّب محمداً رسول الله ﷺ ، وانظر صلة ذلك كله بالآية التي هي محور سورة الشعراء من سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة : وفيها قصة هود عليه السلام

وتمتد من الآية (١٢٣) إلى نهاية الآية (١٤٠) وهذه هي :

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

التفسير :

﴿ **كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين* أتبنون بكل ريع** ﴾ أي مكان مرتفع ﴿ **آية** ﴾ أي بناءً هو من الضخامة في المكان المدهش : قال ابن كثير : (اختلف المفسرون في الرّيع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً ﴿ **تعبثون** ﴾

اي تلعبون ، أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ، بل لمجرد اللّعب واللّهو ، وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة) هذا كلام ابن كثير ، ويدخل فيما أنكره هود على قومه كثير من الأعمال التي يعملها الحكام الجاهليون ممن تنطبق عليه أوصاف ماأنكره هود عليه السلام ﴿ **وتتخذون مصانع** ﴾ أي قصوراً مشيّدة ، أو حصوناً ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ أي ترجون الخلود في الدنيا ، أو لكي تقيموا فيها أبداً ، وذلك ليس بحاصل لكم ، بل زائل عنكم كما زال عمّن قبلكم ، ويبدو أن إنكار هود عليه السلام ذلك عليهم بسبب استغراقهم في القضايا المادية ، والترّف والنعيم الدنيويين بدون أي هدف غير الدنيا ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ أي وإذا أخذتم أحداً بعقوبة بطشتم جبّارين قتلاً بالسيف وضرباً بالسّوط ، والجبّار : هو الذي يقتل ويضرب على الغضب ، وصفهم بالقوّة والغلظة والجبروت ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ في الكفّ عن الخطأ ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما أدعوكم إليه من الاستقامة على أمر الله وعبادته . قال ابن كثير في الآية : (أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم) وبعد الإنكار والأمر شرع يذكّرهم نعم الله عليهم ، وهي طريقة من طرق الدعوة يعلّمنا الله إياها : أن تبدأ بالإنكار ، وتطالب بالاستقامة ، ثم تذكّر ، ثمّ تعظ كما ههنا ﴿ **واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون** ﴾ أي من النّعم ، ثم عدّدها عليهم فقال : ﴿ **أمدّكم بأنعام وبنين** ﴾ قال النسفي : قرن البنين بالأنعام لأنّهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها ﴿ **وجنّات وعيون** ﴾ أي وبساتين وينابيع وأنهاراً . ثم أنذرهم فقال : ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ إن كذّبتم وخالفتم ، فماذا كان موقفهم من دعوة هود ؟ قال ابن كثير : دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم ﴿**قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين** ﴾أي لانقبل كلامك ونرجع عما نحن عليه وعظت أم سكتّ ﴿ **إنْ هذا إلا خلق الأولين** ﴾ يعنون دينهم ، وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد . ولهذا قالوا : ﴿ **ومانحن بمعذّبين** ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ؛ فإنّه لابعث ولا حساب ﴿ **فكذّبوه** ﴾ أي فكذّبوا هوداً ﴿ **فأهلكناهم** ﴾ بالريح الصرصر العاتية . كما ذكر في غير هذا المكان . قال ابن كثير : (أي استمروّا على تكذيب نبيّ الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله . وقد بيّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن ﴿ **إنّ في ذلك** ﴾ الإهلاك ﴿ **لآية** ﴾ أي دلالة على صدق الرسل في

دعواهم ، وعلى صحّة ماجاءوا به من الله ﴿ **وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع كثرة الآيات ﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ ومن عزته أن يهلك أعداءه ويقهرهم ﴿ **الرحيم** ﴾ ومن رحمته أن ينتصر لأوليائه .

فوائد :

١ – بمناسبة الكلام عن عاد قال ابن كثير : (وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت من جهة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في سورة الأعراف ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارّة ، والأموال والجنّات والأنهار والأبناء ، والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هوداً إليهم ، رجلاً منهم ، رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذّرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ ينقل ابن كثير نصاً ذكره ابن أبي حاتم يدل على تخوّف الصحابة على هذه الأمّة ؛ أن تأخذ بأسباب الترف والبنيان . قال ابن كثير :(وروى ابن أبي حاتم ... « أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ماأحدث المسلمون في الغُوطة من البنيان ، ونصب الشجر (بأن قطعوها وجعلوها في القصور) قام في مسجدهم : فنادى ياأهل دمشق فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ ! ألا تستحيون ! تجمعون ما لا تأكلون ! وتبنون ما لاتسكنون ! وتأملون ما لا تدركون ! إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟) .

٣ – ولابن كثير تحقيق رائع حول عاد وحول إرم ذات العماد . وكلامه في هذا المقام نفيس جداً فتأمله ، وقد قاله بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ قال : (أي استمروا على تكذيب نبيّ الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله ، وقد بيّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن ، بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أي ريحاً شديدة الهبوب ، ذات برد شديد جداً ، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنّهم

كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلّط الله عليهم ماهو أعتى منهم وأشدّ قوة ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد** ﴾ (الفجر : ٦ ، ٧) وهم عاد الأولى كما قال تعالى : ﴿ **وأنه أهلك عاداً الأولى** ﴾ (النجم : ٥) وهم من نسل إرم ابن سام بن نوح ﴿ **ذات العماد** ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل ، ولهذا قال : ﴿ **التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ (الفجر : ٨) أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوّتهم وشدتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال : التي لم يبن مثلها في البلاد . وقال تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ (فصلت : ١٥) وقد قدّمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا مقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن الله لها في ذلك ، فسلكت فحصبت بلادهم فحصبت كل شيء لهم كما قال تعالى : ﴿ **تدمّر كل شيء بأمر ربها** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **فأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **حسوماً** ﴾ أي كاملة ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ (الحاقة : ٧) أي بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصّنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾ (نوح : ٤) ولهذا قال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ الآية) .

....

كلمة في السياق :

جاءت المجموعة الخامسة فأضافت آية جديدة من الآيات التي يتلوها الله عزّ وجلّ في سورة الشعراء وهي ، نموذج على آيات الله خلال العصور ، يتلوها محمد ﷺ وأمّته ؛ لتقوم الحجة بها على رسالته ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ واضحة ، ممّا يؤكّد أنّ ماذهبنا إليه من كون هذه الآية هي محور سورة الشعراء في محلّه – والله أعلم – لقد عرض الله علينا في هذه السورة نماذج من آياته في الكون ، ومن أفعاله خلال العصور : في تنوع أصناف النبات ، وفيما فعل

بفرعون ، وفي نبأ إبراهيم : وفيما فعل بقوم نوح ، وفيما فعل بقوم هود ، وفيما فعله بقوم صالح ، وفيما فعله بقوم لوط ، وفيما فعله بقوم شعيب ، وكلّ آية تختلف عن أختها ، وكلها تصبّ في التأكيد على رسالة محمد ﷺ ، وكلها تحذّر المكذّبين بمحمد ﷺ ، وكلها تأتي تردف بعضها بعضاً لتوصل إلى الخاتمة التي هي المواجهة المباشرة للمكذّبين بمحمد ﷺ ، ونحب هنا أن نسجّل ملاحظة هي : إن كثيراً من آيات القرآن تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية ..** ﴾ ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾ وهذا يشير إلى أن القرآن لفت النظر في كتابه إلى آيات أخرى زائدة على الإعجاز القرآني . ففي القرآن كلّه إعجاز يجعل أقصر سورة أو قدرها من القرآن معجزة . لكنّ آيات القرآن نفسها لفتت النظر إلى آيات أخرى لله في الكون وفي التاريخ ، وفي الواقع اليومي للمسلمين ، فآيات القرآن تلفت النّظر إلى كلّ علامة تدلّ على الله ، وتدلّ على صدق رسله ، هذا عدا عن معجزات كثيرة مبثوثة في القرآن ، كأن يعرض عليك الله أحياناً سراً من أسرار الكون ، أو سراً من أسرار الغيب . وهكذا نجد الآية الواحدة من القرآن قد حوت آيات ، وهذه الآيات تتعاضد وتتكاثر في هذا القرآن ، إنْ في الأسلوب ، أو في اللفظ ، أو في المعاني ، أو في الأفق الذي تتحدث عنه الآيات ، أو في الأفق الذي ترفع إليه الإنسان ، هذا عدا عن كون هذا القرآن لا تجد فيه مظهراً من مظاهر الإسفاف ، لا في المعنى ، ولا في اللفظ ، كما أنك لا تجد فيه مظهراً من مظاهر الضعف البشري إن في الأسلوب ، أو في العرض ، أو في تسجيل معان ضعيفة ، أو في إثارة معنى شهواني ، أو في الاستفادة من غريزة بشرية نازلة ، هذا مع كونه حقاً ، ومع كونه هو الأعلى في اللفظ والأسلوب ، والعرض وطرق الانتقال ، ودقائق الوحدة في السورة والسياق ، إنّ كتاباً هذا بعض وصفه ليدلّ دلالة واضحة على أنّه من عند الله ، وليشهد شهادة كاملة على أنّ محمّداً ﷺ رسول الله .

☆ ☆ ☆

المجموعة السادسة : وفيها قصّة صالح عليه السلام

وتمتد من الآية (١٤١) إلى نهاية الآية (١٥٩) وهذه هي :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

التفسير :

﴿ **كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين *** ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين

وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المرويّة في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد ثغور الشام ، فوصل إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك ، وكانوا قبل عاد وقبل الخليل عليه السلام ، فدعاهم نبيّهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلّغهم من الرّسالة ، فأبوا عليه وكذّبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنّه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل ، ثم ذكّرهم آلاء الله عليهم) فقال : ﴿ **أتتركون في ما ههنا** ﴾ أي في الذي استقر في هذا المكان من النّعيم ﴿ **آمنين** ﴾ من العذاب والزّوال والموت ، ثم فسّر ماكانوا به ﴿ **في جنات وعيون** ﴾ أي بساتين وينابيع ﴿ **وزروع** ﴾ يدخل في ذلك الحبوب وغيرها مما يزرع سنوياً ﴿ **ونخل طلعها هضيم** ﴾ الطلع : هو ما يخرج من النخل ، كنصل السيف والهضيم : هو الليّن التّضيج ، قال النّسفي : كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره . ﴿ **وتنحتون** ﴾ أي وتنقبون ﴿ **من الجبال بيوتاً فارهين** ﴾ أي شرهين أشرين بطرين عابثين من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ، وهي معروفة على بعد حوالي أربعمائة كيلومتر من المدينة المنورة . ولازالت تدهش من يراها لدقّة صنعها ، والحذاقة في ذلك ، والجهد المبذول فيه ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ قال ابن كثير : (أي أقبلوا على مايعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم ؛ لتعبدوه وتوحّدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) ﴿ **ولاتطيعوا أمر المسرفين** ﴾ أي الكافرين أو المتجاوزين الحدّ . ثم عرّف هؤلاء المسرفين فقال : ﴿ **الذين يفسدون في الأرض** ﴾ بالظلم والكفر والصدّ عن سبيل الله ﴿ **ولا يصلحون** ﴾ بالإيمان والعدل ، وفي هذا دليل على أن فسادهم ليس معه شيء من الصلاح والإصلاح .

ملاحظـــة :

إن قول صالح عليه السلام .. ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ يفيد أن الطاعة ينبغي أن تعطى للرسول ﷺ كاملة ، وأن لاتعطى لكل مسرف مفسد غير مصلح ، وموضوع الطاعة من أخطر مواضيع العصر ، فنادراً ماتجد مسلماً يضع الطاعة في محلها ، فهو إما متمرد على كل شيء ، أو مطيع لمسرف أو يرفض الطاعة لأيّ أحد ، أولا يعرف لمن يعطي

الطّاعة . إن الطاعة في الإسلام يجب أن تعطىٰ لرسول الله ﷺ ، وأمرائه الذين أمّرهم ، ثم لخلفائه الراشدين ، ومن أمّره الخلفاء الرّاشدون ، ثم لجماعة المسلمين وإمامهم ، حيث وجد للمسلمين جماعة وإمام ، ولا يجوز للمسلم أن يعطي طاعته لكل صادّ عن سبيل الله ، غير ملتزم بالإسلام ، ولهذا الموضوع حيثيات كثيرة ، محلّها فى سلسلتنا (في البناء) .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **قالوا إنما أنت من المسحّرين** ﴾ أي : من المسحورين الذين سُحروا حتى غلبوا على عقولهم ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ أي في دعوى الرسالة ﴿ **قال هذه ناقة لها شِربٌ** ﴾ أي نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه ﴿ **ولكم شِرْب يوم معلوم** ﴾ أي لاتزاحمكم هي فيه ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ أي بضرب أو عقر أو غير ذلك ﴿ **فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ عظّم اليوم لحلول العذاب فيه . قال ابن كثير : .. (حذّرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت النّاقة بين أظهرهم حيناً من الدّهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها ، يحلبون منها مايكفيهم شرباً وريّاً ، فلمّا طال عليهم الأمد ، وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها) ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين** ﴾ على عقرها ، خوفاً من نزول العذاب بهم ، لا ندم توبة ، أو ندموا حين لا ينفع الندم ﴿ **فأخذهم العذاب** ﴾ قال ابن كثير : (وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالّها ، وأتاهم من الأمر مالم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في ديارهم جاثمين) . وإنّما عذّب الجميع مع أن العاقر واحد ، والمؤتمرين تسعة — كما سنرى في سورة النمل — إلا أنّ الجميع كانوا راضين ، فأصابتهم سنّة الله في الاستئصال ، وذلك أنهم هم الذين اقترحوا الآية ، وأجابهم الله ، وسنّة الله أنّ من كفر بعد أن جاءته آية اقترحها ، أن يستأصل ، وهؤلاء اعتدوا على الآية نفسها ، فأي كفر أكبر من ذلك ؟ وبمناسبة اقتراحهم الآية . قال ابن كثير : (ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبيّ الله صالح العهودَ والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ماسألوا ليؤمنن به ، وليتبعنّه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبيّ الله صالح عليه السلام فصلّى ، ثمّ دعا الله عز وجل أن يجيبهم

إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء ، على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم) . ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي فيما فعل الله بقوم صالح ﴿ **لآية** ﴾ لدلالة وعلامة على صدق الرسل في صحة رسالتهم من الله ﴿ **وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع وجود الآيات ﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ ومن عزته أن يقهر أعداءه والكافرين به ﴿ **الرحيم** ﴾ ومن رحمته أن ينصر أولياءه على أعدائه .

....

فائدة :

استدل الفقهاء بقوله تعالى : ﴿ **لها شِرْب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ على جواز المهايأة في بعض الأموال المشتركة : قال النسفي : (وهذا دليل على جواز المهايأة لأن قوله تعالى : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ من المهايأة) قال فقهاء الحنفية : (المهايأة جائزة استحساناً .. وتجوز في دار واحدة : بأن يسكن كلٌّ منهما طائفة ، أو أحدهما علوها والآخر سفلها ، ولكلّ واحد إجارة ما أصابه ، وأخذ غلّته .. ولو تهايئا في دارين ، على أن يسكن كل واحد داراً جاز .... ولو تهايئا في البيت الصغير على أن يسكن هذا مدّة وهذا مثلها جاز ولا تجوز في ركوب دابّة ولا دابتين ؛ لأن الركوب يختلف باختلاف الرّاكب ، لأن منهم الحاذق ، والجاهل ، فلا تحصل المعادلة .. ولا تجوز في ثمرة الشجرة ولا في لبن الغنم وأولادها لأن مايحصل من ذلك يتفاوت ... وتجوز المهايأة بين مختلفي المنفعة كسكنى الدار وزرع الأرض ، وكذا الحمّام والدار ؛ لأن كلّ واحد من المنفعتين يجوز استحقاقها بالمهايأة) اهـ . بتصرف لا يخلّ بالمعنى من كتاب الاختيار .

كلمة في السياق :

وبقصة صالح عليه السلام عرض علينا ربنا عز وجل آية سادسة تدلّ على صحة رسالات رسله ، وتحذّر من تكذيب رسوله ، وصلة ذلك كله بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين** ﴾ واضحة ، ولا نحب أن نقف ههنا لأنّ مامرّ معنا من قبل من ملاحظات ، وكلمات في السياق ، كافٍ لأن المقام واحد . فلننتقل إلى المجموعة السابعة .

المجموعة السابعة : وفيها قصة لوط عليه السلام

وتمتد من الآية (١٦٠) إلى نهاية الآية (١٧٥) وهذه هي :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

التفسير :

﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها التي اهنلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال البيت المقدس ، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ، فدعاهم إلى الله عز وجل أن

يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ماكانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكور دون الإناث ولهذا قال تعالى : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين** ﴾ أي أتطئون الذكور من الناس مع وجود الإناث ، أو أتطئون أنتم من بين مِنَ عداكم من العالمين الذُّكران ، أي أنتم مختصّون بهذه الفاحشة ﴿ **وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ أي وتتركون فروج الأزواج وقد أباحها الله لكم ﴿ **بل أنتم قوم عادون** ﴾ أي متجاوزون للحدّ في العدوان ، أي بل أنتم قوم أحقُّ بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه الفظيعة ، وبدلاً من أن يستجيبوا لمنطق الهدى والفطرة والعقل كان جوابهم ﴿ **قالوا لئن لم تنته يالوط** ﴾ أي عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿ **لتكونن من المخرجين** ﴾ هددوه بالنفي من بين أظهرهم . والمعنى : لتكونن من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلّهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ، فلمّا رأى أنّهم لا يرتدعون عمّا هم فيه ، وأنّهم مستمرون على ضلالتهم ، تبرأ من عملهم ، وسأل الله نجاته ، ونجاة أهله من عملهم ﴿ **قال إني لعملكم من القالين** ﴾ أي المبغضين لا أحبّه ولا أرضى به ﴿ **ربّ نجّني وأهلي ممّا يعملون** ﴾ أي من الوقوع في عملهم ، ومن عقوبته في الدنيا والآخرة ﴿ **فنجيناه وأهله** ﴾ يعني بناته ومن آمن معه ﴿ **أجمعين** ﴾ أي كلهم ﴿ **إلا عجوزاً في الغابرين** ﴾ هي امرأة لوط ، وكانت راضية بالمعصية ، والراضي بالمعصية في حكم العاصي ، فكانت من الغابرين ، أي في الباقين في العذاب فلم تنج منه ﴿ **ثم دمّرنا الآخرين** ﴾ أي استئصلناهم بالهلاك ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً** ﴾ من حجارة زيادة على جعل عالي بلادهم سافلها ﴿ **فساء مطر المنذَرين** ﴾ أي الذين أُنذروا فكذّبوا فعوقبوا بمثل هذا المطر ﴿ **إنّ في ذلك** ﴾ أي في فعل الله بقوم لوط وإنجائه لوطاً ﴿ **لآية** ﴾ أي لَدلالة على وجود الله وإرساله الرسل ، وتوليه لهم ﴿ **وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع كثرة الآيات ﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ ومن عزته أن يستأصل من شاء ﴿ **الرحيم** ﴾ ومن رحمته أن ينجّي رسله والمؤمنين .

فائدة :

من العقوبة الشديدة التي حلّت بقوم لوط نعلم فظاعة الجريمة التي كانوا عليها ومن قوله تعالى في الآيات : ﴿ **وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ نعلم أن دبر

المرأة محرّم على الأزواج في كل الشرائع . قال النّسفي : (وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيماً) .

....

نقـــل :

قال صاحب الظلال بمناسبة الكلام عن لوط وقومه في هذه السورة : (والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور ، وترك النساء . وهو انحراف في الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ؛ وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام ، الذي يجعل كل من في الكون وكل مافي الكون في حالة تناسق وتعاون . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمي إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق الحكمة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ، لخروجهم من ركب الحياة ، ومن موكب الفطرة ، ولتعريهم من حكمة وجودهم ، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد)

(خسفت قراهم وغطاها الماء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت في الأردن . وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدناً كانت آهلة بالسكان . وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجواره المذبح الذي تقدّم عليه القرابين) .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ في قصة موسى أنّ الخطيئة البارزة التي جاء موسى عليه السلام لعلاجها هي الظلم المتمثّل بادعاء فرعون الربوبية ، وظلمه لبني إسرائيل . وأن الخطيئة البارزة التي جاء إبراهيم لعلاجها هي شرك قومه وعبادتهم الأصنام ، وأنّ الخطيئة البارزة التي جاء

نوح عليه السلام لعلاجها هي الشرّك ، وأنّ الخطيئة البارزة التي جاء هود وصالح يعالجانها هي الشرك مع البطر ، وأن الخطيئة البارزة التي جاء لوط عليه السلام يعالجها هي إتيان الذكور مع الشرك . فالشرك هو العلة التي تنبع عنها كل الخطايا . وكما أنّ مهمّة الرّسل هي هداية النّاس إلى الله رب العالمين فإنّ مهمّتهم أن يبعدوا الناس عن الخطايا كلها ، وواضح من السياق أن من مظاهر تأييد الله لرسله عليهم الصلاة والسلام أن يهلك المعاندين هلاك استئصال في النهاية . وفي ذلك آيات تشهد على صدق الرسل ووجود الله . وإذ كان محمّد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى مادعا إليه كل الرّسل السابقين . فهذا دليل واضح من أدلّة رسالته ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ولنتذكر صلة ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين** ﴾ . ولننتقل إلى المجموعة الثامنة :

☆ ☆ ☆

المجموعة الثامنة : وفيها قصة شعيب عليه السلام

وتمتدُّ من الآية (١٧٦) إلى نهاية الآية (١٩١) وهذه هي :

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

بين يدي المجموعة الثامنة :

قال صاحب الظلال : (وأصحاب الأيكة هم - غالباً - أهل مدين . والأيكة : الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيطة الوريفة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة) .

التفسير :

﴿ **كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين** ﴾ ليس لنا مانقوله حول هذه الآيات سوى الكلام عن أهل الأيكة ، والأيكة في اللغة : هي الغيضة تنبت ناعم الشجر . والمفسرون مختلفون : هل أصحاب الأيكة هم أهل مدين نفسها ، أو أنهم غيرهم ؟ وقد أرسل شعيب مرتّين : مرةّ لمدين ، ومرة لأهل الأيكة ؟ للمفسرين قولان في هذا الشأن ، وبعضهم يرى أن شعيباً أرسل ثلاث مرات ، وقد كانت المرّة الثالثة لأصحاب الرسّ ، والذي رجّحه ابن كثير : أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين . بدليل أنهم أُمروا بوفاء المكيال والميزان ، كما ورد في قصة مدين سواء بسواء . وقد ردّ ما استدل به بعضهم من أحاديث أو آثار بأنها ضعيفة ، أو غريبة ، أو غير مرفوعة . ومن كلامه في هذا المقام : (هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبيّ الله شعيب من أنفسهم ، وإنّما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة وقيل شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ، فلهذا قال : ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين**﴾ ولم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال : ﴿ **إذ قال لهم شعيب** ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أنّ شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمّتين ومنهم من قال إلى ثلاث أمم .. والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصّة مدين سواء بسواء . فدلّ ذلك على أنّهما أمّة واحدة) . ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين** ﴾ أي أتمّوه ولا تنقصوا الناس حقوقهم . قال النّسفي : (فالكيل واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، فتركه دليل على أنّه إن فعله فقد أحسن ، وإن لم يفعل فلا شيء عليه) ﴿ **وزنوا بالقسطاس** ﴾ أي الميزان أو القبّان ﴿ **المستقيم** ﴾ أي الذي لا عوج فيه ﴿ **ولاتبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ أي لا تنقصوهم حقوقهم الماليّة وغيرها ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ أي ولا تبالغوا فيها في الإفساد ، كأن تقطعوا الطريق ، وتغيروا وتُهلكوا الزروع ﴿ **واتقوا الذي خلقكم والجبلّة** ﴾ أي وحلق الجبلة ﴿ **الأوّلين** ﴾ أي وخلق الخلق الأولين . فالجبلّة : هي الخلق ، فماذا كان جوابهم على هذه الأوامر والنواهي العادلة ؟ ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحّرين** ﴾ أي من

المسحورين . نفس الجواب الذي أجابت به ثمود ، فالقلوب متشابهة ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ فلست برسول كما تزعم ﴿ **وإن** ﴾ أي وإنّه ﴿ **نظنك لمن الكاذبين** ﴾ أي تتعمّد الكذب فيما تقوله ، لا أنّ الله أرسلك إلينا ﴿ **فأسقط علينا كِسَفاً** ﴾ أي قطعاً ﴿ **من السماء** ﴾ أي من السحاب ، أو من جهة فوق ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ أي في دعوى النبوة ، وهو نفس ماقالته قريش ، كما ورد في سورة الإسراء وسورة الأنفال ، فقلوب الكافرين متشابهة ، وألفاظهم متشابهة ﴿ **قال ربي أعلم بما تعملون** ﴾ أي إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من العذاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكمُ والمشيئة ﴿ **فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة إنّه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا من جنس ماسألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حرٌّ عظيم ، مدّة سبعة أيام ، لايكنّهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحرّ ، فلمّا اجتمعوا كلهم تحتها ، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم) ﴿ **إنّ في ذلك** ﴾ أي الإهلاك ﴿ **لآية** ﴾ أي لدلالة واضحة على الله ﴿ **وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ مع وجود الآيات وكثرتها ﴿ **وإن ربك هو العزيز** ﴾ ومن عزته أن ينتقم من أعداء رسله ومكذبيهم ﴿ **الرحيم** ﴾ ومن رحمته أنه لا يتخلى عن رسله وأوليائه ، بل يصدّقهم وينتقم لهم وينجيهم .

....

فوائد :

١ - رأينا أن القول الذي اعتمده ابن كثير أن أصحاب الأيكة هم قوم مدين ، ورأينا دليله . وههنا نحب أن ننقل الأقوال الأخرى : قال ابن كثير : (روى إسحق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - عن خصيف عن عكرمة قالا : مابعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً . مَرّة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة . وروى أبو القاسم البغوي عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **وأصحاب الرس** ﴾ قوم شعيب وقوله ﴿ **وأصحاب الأيكة** ﴾ قوم شعيب ، وقاله إسحاق بن بشر . وقال غير جويبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم . وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة .. عن عبدالله

ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام » . وهذا غريب وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً . والصحيح أنهم أمّة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدلّ ذلك على أنهما أمة واحدة) .

٢ - ورد إهلاك قوم شعيب في أكثر من مكان في القرآن ، وفي كل مرّة عُرض فيه نوع مما أصابهم ، ومن ثم قال ابن كثير : (وقد ذكر الله صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف الآية (٨٨) ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا ﴿ **لنخرجنّك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنّ في ملتنا** ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتّبعه فأخذتهم الرجفة ، وفي سورة هود قال : ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبيّ الله في قولهم ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ قالوا ذلك على سبيل التهكّم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ الآية وههنا قالوا : ﴿ **فأسقط علينا كِسَفاً من السماء** ﴾ الآية على وجه التعنّت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظّلّة إنّه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ قال قتادة قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إنّ الله سلّط عليهم الحرّ سبعة أيام حتى مايظلهم منه شيء ، ثم إنّ الله أنشأ لهم سحابة فانطلق إليها أحدُهم فاستظلّ بها فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها فأججت عليهم ناراً ، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : بعث الله إليهم الظلّة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى ، وقال محمد بن كعب القرظي : إنّ أهل مدين عذّبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال : مارأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا ، هلمّوا أيها الناس ، فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة فماتوا جميعاً ، ثم تلا محمد بن كعب ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾وروى محمد بن جرير .. عن يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية : ﴿ **فأخذهم عذاب**

يوم الظلة ﴾ الآية قال : بعث الله عليهم رعداً وحراً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البريّة ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذّة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً . قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين) .

٣ - لاحظنا أنه من أول السورة حتى هنا قد تكرر في آخر كل مجموعة قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ كما رأينا تشابهاً في بدايات المجموعات : الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة . وقد قال النسفي فى حكمة ذلك مايلي : (وقد كرر في هذه السورة في أول قصة وآخرها ماقرر تقريراً لمعانيها في الصدور ليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأنّ كلّ قصّة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل مافي غيرها ، فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به) .

كلمة في السياق :

ورد معنا حتى الآن في السورة ثمان مجموعات ، ولم يبق عندنا إلا الخاتمة التي سيقت المجموعات الثمانية قبلها لتصبّ في خدمتها ، إذ الخاتمة تتحدّث عن المعجزة القرآنية، وتحذّر من الإعراض عنها ، ومن عصيان الرّسول الذي أنزلت عليه ، كما تتحدث عن بعض واجبات هذا الرسول ، وعن نزاهته من أن يكون كاذباً . فالمجموعات السابقة لفتت النظر إلى آيات من آيات الله تدلّ عليه ، وتشهد على عزّته ورحمته ، وفيها تقرير لرسالة المرسلين الذين منهم محمد ﷺ وفيها تحذير من مخالفة المرسلين الذين منهم محمد ﷺ . فإذا اتضح التقرير والتحذير من خلال عرض آيات الله في الكون وفي التاريخ ، يتجه السياق الآن للكلام المباشر عن القرآن والرسول ، إذ الوصول إلى الكلام عن ذلك هو المقصود الأكبر من السياق في السورة ، التي تفصّل قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ وقد تلا الله عز وجل علينا في كل مجموعة آية من آياته ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ ودليل ذلك هذه الآيات المنزلة عليك ، فليحذر مكذّبوك ومخالفوك ، وتأمل مطلع الخاتمة ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين * أولم يكن لهم**

آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ﴾ لتجد أن ماسبق من السورة يخدم هذه الخاتمة ، وأن الخاتمة امتداد للسورة من حيث إنها تعرض لنا آية جديدة من آيات الله في بعثة محمد ﷺ وإرساله وإنزال القرآن الذي هو معجزة عليه .



الخاتمة وهي المجموعة التاسعة

وتمتد من الآية (١٩٢) إلى نهاية السورة . أي إلى نهاية الآية (٢٢٧) وهذه هي :

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ

مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

التفسير :

﴿ **وإنه** ﴾ قال ابن كثير : أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة ﴿ **لتنزيل رب العالمين** ﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك .

....

ملاحظة في السياق :

مرّ معنا في قصة موسى عليه وصف رب العالمين ﴿ **قال ومارب العالمين قال رب السموات والأرض ..** ﴾ ومرّ معنا في قصة إبراهيم وصف رب العالمين ﴿ **إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين ..** ﴾ والآن يأتي معنا أن رب العالمين هو منزل هذا الكتاب ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين** ﴾ وفي ذلك نوع من التكامل في سياق السورة فليتفطّن إليه .

....

﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ أي جبريل وهذا مما لانزاع فيه بين العلماء فجبريل هو الأمين على وحي الله ، وسمّي روحاً لأنّه ينزل بالوحي الذي هو حياة لقلب الإنسان ﴿ **على قلبك** ﴾ أي على قلب محمد ﷺ ، وذلك دليل على أن القلب هو مركز التلقي عن عالم الغيب ، القلب الذي في الصدر وليس الدماغ كما توهم بعضهم ، وهو قلب غيبي ، بينه وبين القلب الصنوبري صلة وهو موضوع فصّلناه في كتابنا (تربيتنا الروحية) ﴿ **لتكون من المنذرين** ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكفر به ، وتبشّر به المؤمنين المتّبعين ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾ أي فصيح وواضح وصحيح . قال ابن كثير : (أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ، أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ؛ ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجّة) .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن محور السورة هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ولاحظنا أن كل مجموعة من المجموعات الثمانية السابقة على هذه المجموعة حدثتنا عن آية من آيات الله . ولكن الآيات الأربع السابقة تنصبّ على أن هذا القرآن من عند الله ، أنزله الله ليكون محمد ﷺ من المنذرين ، وإذن فهي تفصيل مباشر للآية ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ وخاصة في شقّها الأخير ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ فلنلاحظ ذلك ولنتدبّر الخاتمة على ضوء ذلك .

....

﴿ **وإنه** ﴾ أي القرآن ﴿ **لفي زبر الأولين** ﴾ أي لموجود ذكره ، أو لموجودة معانيه في كتب الأوّلين المأثورة عن أنبيائهم ، والتي أنزلها الله نصاً كالكتب السماوية ، أو أوحى معانيها وسجلت لاككتب سماوية ، ولكن كوحي عن الله . هذا شيء ظاهر وواضح ، فإنك عندما تقرأ كتب العهد القديم والجديد ــ على تحريفها ــ تجد القرآن قد استوعبها ، وأن كثيراً من معاني القرآن موجود فيها ، مما يدل على وحدة الوحي ، وأن هذا القرآن من نفس المصدر ، وفي كتابنا (الرسول ﷺ) ذكرنا مجموعة البشارات الواردة بمحمد ﷺ والقرآن في الكتب الدينية فليراجع . ﴿ **أولم يكن لهم** ﴾ أي للخلق عامة ، لأنهم جميعاً مكلّفون بالإيمان بهذا القرآن ﴿ **آية** ﴾ أي علامة واضحة ، ومعجزة كاملة ، تدل على أنه منزل من عند الله ﴿ **أن يعلمه** ﴾ أي أن يعلم

هذا القرآن ﴿ **علماء بني إسرائيل** ﴾ والمراد منهم المنصفون العدول ، فهؤلاء يعلمون أن هذا القرآن موجود فيه التوراة والزبور والإنجيل ، وأن مافيه حق من عند الله ، وأنه هو الذي بشّرت به وبصاحبه الكتب السابقة ، ويدخل في هؤلاء كل من أسلم من علماء التوراة والزبور والإنجيل سابقاً ولاحقاً ، كورقة بن نوفل ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وغيرهم حتى يومنا هذا ومابعده . فما من عالم بكتب العهد القديم والجديد يدخل في الإسلام إلا وفي دخوله معجزة لهذا القرآن ، وشاهد على صدقه ، وأنه من عند الله .

كلمة في السياق :

كما أنه في كل مجموعة من مجموعات السورة لفت الله نظرنا فيها إلى آية ، فإن هذه المجموعة الأخيرة قد لفت الله نظرنا فيها إلى آية ، هي علامة على صحة هذا القرآن ، وأنه من عند الله بقوله تعالى : ﴿ **أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل** ﴾ وهذا مظهر من مظاهر ارتباط الخاتمة بسياق السورة وبمحورها .

﴿ **ولو نزّلناه على بعض الأعجمين** ﴾ الأعجمون : جمع أعجم وهو الذي لا يفصح ، والمراد به هنا من لا يفصح بلسان العرب ، أي ليس عربياً ، ولا يتقن العربية ، ولا يحسن الحديث بها ﴿ **فقرأه عليهم** ﴾ أي فقرأ هذا القرآن على العرب أو على الناس ﴿ **ماكانوا به مؤمنين** ﴾ ممّا يدلّ على أنّ عدم الإيمان ليس لعدم وضوح الحجة ، بل لمرض في العقل والقلب والروح . قال النّسفي في الآيتين : (والمعنى : أنا أنزلنا القرآن على رجل عربيّ مبين ، ففهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز ، وانضمّ إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على أنّ البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم ، وقد تضمّنت معانيه وقصصه ، وصحّ بذلك أنّها من عند الله ، وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به ، وسمّوه شعراً تارة ، وسحراً أخرى ، وقالوا : هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية ـــ فضلاً عن أن يقدر على نظم مثله ـــ فقرأه عليهم هكذا معجزاً ، لكفروا به كما كفروا ، ولتمحّلوا لجحودهم عذراً ، ولسمّوه سحراً) .

﴿ **كذلك سلكناه** ﴾ أي أدخلنا التكذيب أو الكفر ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾ أي الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه ، يعني مثل هذا السلك سلكناه

في قلوبهم ، وقررّناه فيها ، فكيفما فعل بهم ، وعلى أي وجه دُبّر أمرهم ، فلا سبيل إلى أن يتغيّروا عمّا هم عليه من الكفر به ، والتكذيب له ، وقد دلّت الآية على أن صفة الإجرام إذا تلبّس بها إنسان ، حالت بينه وبين قبول الحق ﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أي حتى يعاينوا الوعيد ، والمراد به معاينة العذاب الأليم عند الموت ، ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم . أو المراد به العذاب الرباني في الدنيا ﴿ **فيأتيهم بغتة** ﴾ أي فجأة ﴿ **وهم لايشعرون** ﴾ أي بإتيانه ﴿ **فيقولوا هل نحن منظَرون** ﴾ أي يسألون النّظرة ، والإمهال طرفة عين ، فلا يجابون إليها .

كلمة في السياق :

لاحظنا أنه في نهاية كل مجموعة كان يرد قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين** ﴾ وهذا المعنى نفسه يصاغ في الخاتمة على هذا الشاكلة : ﴿ **أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه في قلوب المجرمين * لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ..** ﴾ فموقف الناس من الآيات هو موقفهم ، الأكثرية لا تؤمن ، والسبب هو أنّ الأكثرية مجرمة . فالعلة في الرفض هي الإجرام .

....

ولنعد إلى التفسير : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ هذا إنكار عليهم وتهديد لهم ، لأنهم مع تكذيبهم يستعجلون العذاب .

....

كلمة في السياق :

لاحظنا من خلال عرض القصص السابقة أن الاستعجال بالعذاب دأب الأمم السابقة ، وفي الخاتمة يسجّل الله عزّ وجلّ استعجال الكافرين من هذه الأمة للعذاب ، وذلك من جملة مظاهر كون خاتمة السورة امتداداً لسياقها . بل إنّ كلّ آية في الخاتمة تكاد تكون امتداداً لمعنى ورد من قبل ، ويأتي الردّ على المستعجلين بالعذاب بقوله تعالى :

....

﴿ **أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ماكانوا يوعدون** ﴾ أي من العذاب ﴿ **ماأغنى عنهم ماكانوا يمتّعون** ﴾ أي به في تلك السنين . أي لو أخرناهم ، وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحيناً من الزمان وإن طال ، ثمّ جاءهم أمر الله ، أيّ شيء يجدي عنهم ماكانوا به من النعيم ؟ ثم قال تعالى مخبراً عن عدله ، وأنّه ما أهلك أمّة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم ، وبعثة الرسل إليهم ، وقيام الحجة عليهم فقال : ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون** ﴾ أي رسل ينذرونهم ﴿ **ذكرى** ﴾ أي فعلنا ذلك تذكرة وموعظة وإقامة حجة ﴿ **وماكنا ظالمين** ﴾ فنهلك قوماً لايستحقون الهلاك . والمعنى : وماظلمنا إذ أهلكنا لأننا ما أهلكنا من أهل قرية إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم .

كلمة في السياق :

يأتي قوله تعالى : ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وماكنا ظالمين** ﴾ كرد ثانٍ على استعجالهم العذاب ؛ إذ يبيّن الله سنّة من سننه في هذا الشأن ، والملاحظ أنه يأتي هذا الموضوع في الخاتمة ، بعد أن عرض الله علينا في السورة ستة نماذج على إهلاكه قرى أُنذرت فكذّبت ، ومن ثمّ تعرف معنى قولنا كيف أن ماذكر قبل الخاتمة يصبّ في خدمة الخاتمة ، وأن كل آية في الخاتمة مرتبطة بسياق السورة الخاص بشكل بارز وواضح ، وبعد أن أثبت الله أنّه هو الذي أنزل هذا القرآن ، وأقام الحجّة على ذلك وعرض لموقف المجرمين ، وسبب هذا الموقف ، وردّ على استعجالهم العذاب ، يأتي الآن نفيه القاطع أن يكون للشياطين صلة بموضوع إنزال هذا القرآن ، ومجيء هذا النفي هنا يشير إلى الشبهة الكافرة الجاحدة التي لازال الكافرون يثيرونها وهي أن محمداً ﷺ (وحاشاه بأبي هو وأمي) كانت له حالات غير صحيّة تحدث له فيها تخيّلات وأوهام ، هي أثر عن وسوسات وصرعات ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ماأجهلهم بالطب ، وماأجهلهم بالقرآن ، وماأجهلهم بحال رسول الله ﷺ ، وما أجهلهم بظاهرة الوحي ، وما أظلمهم وأسفههم . قال تعالى :

....

﴿ **وماتنزّلت به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **الشياطين** ﴾ وذلك لثلاثة أسباب ، ذكرها على

الترتيب : فقال : ﴿ **وماينبغي لهم ومايستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ قال ابن كثير : (ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ماينبغي لهم ، أي ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم ، لأنّ من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وماينبغي لهم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ومايستطيعون** ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله** ﴾ ثم بيّن أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك ، لأنّهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأنّ السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً** ﴾ إلى قوله ﴿ **أم أراد بهم ربهم رشداً** ﴾ . (الجن : ٨ ــ ١٠)

وإذ قامت الحجة الكاملة على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن الله أنزله على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين . فإن السياق الآن يتّجه إلى النذير ، آمراً ناهياً ، موجّهاً مؤدّباً معلّماً ، وفي ذلك وحده آية على أن هذا القرآن من عند الله ؛ إذ تجد فيه آمراً أعلى لا تجد في أوامره أثراً للضعف البشري كما تجد أن محمداً مأمور ، مقامه العبودية ﴿ **فلا تدع مع الله إلهاً آخر** ﴾ وماكان محمد ﷺ ليفعل ، ولكنه التحريك له على زيادة الإخلاص ، والتربية لغيره ، ثم لبيان أن منزل هذا القرآن رب العالمين وأن مقام محمد ﷺ العبودية ، وأنه إذا أخل بمقام العبودية فشأنه أن يعذّب : ﴿ **فتكون من المعذّبين** ﴾ فما أجهل الناس بالله . ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يخص عشيرته الأقربين بالدّعوة ، وفي ذلك كذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن محمداً رسول الله ﷺ ، فتخصيص الأقربين بالدّعوة دليل على أنّ الأمر جدّ وحقّ ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ثم يصدر له الأمر بخفض الجناح للمؤمنين ، وفي ذلك دليل آخر على أن القرآن من عند الله ، فليست المسألة هنا مسألة زعامة ، ولا جاه ، ولا طلب كبرياء ، فلو كان القرآن أثراً عن كبرياء بشر ماكان فيه مثل هذا الأمر

﴿ **واخفض جناحك** ﴾ أي وألن جانبك وتواضع ﴿ **لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ من عشيرتك وغيرهم ، أما الكافرون فالأدب في شأنهم يختلف باختلاف حالهم ﴿ **فإن عصوك** ﴾ بالمخالفة ﴿ **فقل إني بريء مما تعملون** ﴾ أمره أن يتبرأ من أعمالهم العاصية ، لا من ذواتهم . ولمّا كان الإنذار والتبرؤ من معصية العاصين فيه مخاطر ، ولما كان خفض الجناح قد يؤدي إلى أن يسيء المخفوض له الجناح الأدب ، جاء الأمر بالتوكل : ﴿ **وتوكّل على العزيز الرحيم** ﴾ العزيز الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، أي توكّل عليه في جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك ، وحافظك ، وناصرك ، ومظفِرك ، ومعلِ كلمتك ﴿ **الذي يراك حين تقوم** ﴾ أي من الليل متهجّداً ﴿ **وتقلّبك في الساجدين** ﴾ أي ويرى تقلبك في المصلين ، أي حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ لما تقوله ﴿ **العليم** ﴾ بما تنويه وتعلمه . قال النسفي : (هوَّن عليه معاناة مشاقّ العبادات ، حيث أخبره برؤيته له ، إذ لا مشقّة على من يعمل بمرأى مولاه .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أنه في كل مجموعة من المجموعات الثمانية السابقة ورد في خاتمتها قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ وذلك بعد ذكر مظهر من مظاهر عزّته ورحمته ، وهنا رأينا قوله تعالى : ﴿ **وتوكّل على العزيز الرحيم ...** ﴾ أي الذي رأيت مظاهر عزته ورحمته فيما مضى ، بحيث يورثك العرفان الكامل ، والتوكل الأعلى ، كيف وهو الذي يراك في أحوالك كلها ، ويراك في أعلى مقامات عبوديتك مصلّياً في الليل منفرداً ، وإماماً في الليل والنّهار . وإذن فالصّلة بين آيات الخاتمة وسياق السورة واضح في كلّ آية من آيات الخاتمة .

٢ - لو أنك وضعت الآيات التي مرّت معنا أخيراً بجانب آية المحور فماذا ترى ؟

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين** ﴾ (البقرة)

﴿ **فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين** ﴾

﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .

﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون** ﴾

﴿ **وتوكل على العزيز الرّحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنّه هو السميع العليم** ﴾ (**الشعراء**)

إنّك عندما تقرأ آية المحور ثم تقرأ بعدها هذه الآيات فإنّك تشعر كأنّك في موضوع واحد ، وهذا من مظاهر صلة السورة بالمحور .

....

إن شكر نعمة الرسالة يقتضي توحيداً وإنذاراً وخفض جناح وتوكلاً ، ومن ثمّ طالبت الآيات الأخيرة رسول الله ﷺ بذلك .

....

٣ - ولم يبق معنا من السورة إلا سبع آيات فلنر محلّها من الخاتمة كمقدمة لعرضها :

تحدّثت الخاتمة أن منزل هذا القرآن على محمد ﷺ هو الله رب العالمين ، ثم برهنت على ذلك ، ثم ذكرت موقف المجرمين من ذلك وردّت عليه ، ثم نفت أن يكون هذا القرآن من تنزّل الشياطين ، ثم أمرت ونهت رسول الله ﷺ ، هذه الأوامر العالية ليقوم بواجب الشكر ، وإذ كانت الشبهتان الكبيرتان حول هذا القرآن هما : شبهة أن يكون من وساوس الشياطين ، وشبهة أن يكون أثراً أدبياً نابعاً عن بلاغة شاعر فإن السياق الآن يتجه لينفي هاتين الشبهتين .

....

﴿ **هل أنبئكم** ﴾ أي هل أخبركم ﴿ **على من تنزّل الشياطين** ﴾ من البشر ؟ الجواب ﴿ **تنزل على كل أفاك** ﴾ أي كذّاب ﴿ **أثيم** ﴾ أي مرتكب للآثام ، إذ إنهم ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهّان الكذبة ﴿ **يلقون السّمع** ﴾ أي يلقي الشياطين السّمع رغبة منهم أن يتعرّفوا خبر السماء ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ أي فيما ينقلونه ، ومن ثمّ فلا يمكن أن يكون هذا القرآن منهم ، أوله صلة فيهم ، فالقرآن حق خالص ، وماينقلونه فيه الباطل الكثير ، ولا مشاكلة بينهم وبين محمد عليه الصلاة والسلام . فمحمّد صادق وهم كاذبون .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه ورد أولاً قوله تعالى : ﴿ **وماتنزلت به الشياطين وماينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ ثمّ ورد قوله تعالى : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين * تنزّل عل كل أفّاك أثيم * يلقون السّمع وأكثرهم كاذبون** ﴾ وفي الوسط جاء قوله تعالى : ﴿ **فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر .. واخفض .. وتوكل ...** ﴾ فكأن الله عزّ وجلّ جعل في الوسط هذه الآيات ليبيّن أن كتاباً يأمر هذه الأوامر ، ورسولاً يتلقى هذه الأوامر ، لايمكن أن يكون ذلك أثراً عن عالم الشياطين الكاذبين الآثمين ، الذين يأتون أمثالهم من الكاذبين الآثمين ، ليسيّروهم في طريق الكذب والإثم . وقد لاحظ النسفي أن السياق يصب كله في معنى واحد هو التنزيل وعلّل لذكر معانٍ أخرى فيما بين ذلك بقوله : (وإنما فرق بين) و ﴿ **إنّه لتنزيل رب العالمين** ﴾ ﴿ **وماتنزّلت به الشياطين** ﴾ و ﴿ **هل أنبئكم على من تنزّل به الشياطين** ﴾ وهنّ أخوات لأنّه إذا فرق بينهنّ بآيات ليست منهنّ ثمّ رجع إليهنّ مرّة بعد مرّة دلّ ذلك على شدّة العناية بهنّ ، كما إذا حدّثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء فتعيد ذكره ، ولا تنفكّ عن الرجوع إليه) .

فكأن النسفي لاحظ أن المعنى الرئيسي في الخاتمة إنما هو إثبات التنزيل ، وأنه من عند الله رب العالمين ، فإذا اتضح هذا عرفنا حكمة ختم السورة بالكلام عن الشعراء ، فلنر ذلك ثم نعلّق عليه .

﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ أي السفهاء الضلّال . ومحمد ﷺ يتبعه المهتدون ومن ثمّ فليس شاعراً . ﴿ **ألم تر أنهم** ﴾ أي أن الشعراء ﴿ **في كل واد يهيمون** ﴾ أي في كل لغو يخوضون ، وفي كل فنّ من الكلام يتكلمون كذباً أو باطلاً أو غير ذلك ، بينما هذا القرآن يمشي على سنن واحدة ، وطريقة واحدة ، ونسق واحد ، ومحمد ﷺ ليس شاعراً ، لا بأخلاقه ، ولا بسلوكه ، ولا بكلامه ، فكيف يسمّى القرآن شعراً ومحمد شاعراً ﴿ **وأنهم يقولون مالا يفعلون** ﴾ ومحمد ﷺ بشهادة الجميع لا يقول إلا مايفعل . وقد ذكرنا في كتابنا (الرسول) شهادات الجميع على ذلك ، ومن ثمّ ـــ ولهذه الأشياء جميعاً ـــ فإنّ محمداً ﷺ ليس شاعراً ، ولا يمكن أن يكون القرآن شعراً . فسياق الآيات إذن للتدليل على أن محمداً ﷺ ليس شاعراً ، وعلى أن القرآن ليس شعراً ، بل هو تنزيل رب العالمين . وإذ كان السياق لتأكيد هذا المعنى فقط ،

وليس لذمّ الشعر أيّاً كان ، أو لذم الشعراء أيّاً كانوا ، فقد استثنت الآيات من الشعراء المذمومين من صاغهم هذا القرآن ، وهذا الإسلام ، وذلك لا يخرق الحجّة السابقة ؛ لأنّ هؤلاء لولا القرآن والإسلام ماكانوا كذلك ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ كعبدالله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وشعراء الإسلام في كل العصور ﴿ **وذكروا الله كثيراً** ﴾ فتراهم مسبّحين ، مهللين ، مكبّرين ، حامدين ، قارئين للقرآن ﴿ **وانتصروا من بعد ماظُلِموا** ﴾ أي هم يستعملون شعرهم في رد ظلم من يظلم الإسلام وأهله ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا** ﴾ بمحاربة الإسلام وأهله ﴿ **أي منقلب ينقلبون** ﴾ إذا ماتوا ، فإنه المنقلب الصعب .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنّ خاتمة السورة انصبّت على إقامة الحجة على أنّ هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن محمداً رسول الله ﷺ ، والصلة بين الخاتمة ومقدّمة السورة واضحة : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * ومايأتيهم من ذكر من الرحمن محدَث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزؤون *** ﴾ وهكذا نجد السورة ترتبط خاتمتها بمقدمتها ، وترتبط مجموعاتها كلها برباط واحد ، وسياق واحد وكل ذلك تفصيل للمحور ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وقد تحدّثنا عن ذلك كرّة بعد كرّة .

نقــــل :

قال صاحب الظلال في الآيات الأخيرة : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ؟ تنزّل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون** ﴾ ...

(وكان في العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم ويركنون إلى نبوءاتهم . وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لايدعون إلى هدى ، ولا يأمرون بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم .

ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحياناً : إنه شعر ، ويقولون عن النبي ﷺ إنه شاعر . وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لايعرفون له نظيراً ، والذي

يدخل إلى قلوب الناس ، ويهز مشاعرهم ، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له رداً .

فجاء القرآن يبيّن لهم في هذه السورة أن منهج محمد ﷺ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلاً . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح ، ويدعو إلى غاية محددة ،ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول ﷺ لا يقول اليوم قولاً ينقضه غداً ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلّبة ؛ إنما يصر على دعوة ، ويثبت على عقيدة ، ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلّبة . تتحكّم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد في لحظة أسود . وفي لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولاً ، ويسخطون فيقولون قولاً آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال ! .

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ، ويتخيلون أفعالاً ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها . فيقلّ اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم في خيالهم واقعاً آخر يعيشون عليه ! .

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة ، الذي يريد تحقيقها في عالم الواقع ودنيا الناس . فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق . وهو يمضي في طريقه على منهج إلى هدفه مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ؛ لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى تصبح واقعاً في عالم الناس .

فمنهج الرسول ﷺ ومنهج الشعراء مختلفان ، ولا شبهة هناك ، فالأمر واضح صريح : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون ؟!** ﴾ . فهم يتّبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى ، الذين لا منهج لهم ولا هدف . وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات .

وهم يقولون مالا يفعلون . لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ، لأنهم عاشوها في تلك العوالم الموهمة ، وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس المنظورة ! . إن طبيعة الإسلام – وهو منهج حياة كاملة معدّ للتنفيذ في واقع الحياة ،

وهو حركة ضخمة في الضمائر المكنونة وفي أوضاع الحياة الظاهرة - إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية - في الغالب - لأن الشاعر يخلق حلماً في حسّه ويقنع به . فأما الإسلام فيريد تحقيق الكمال ويعمل على تحقيقه ، ويحول المشاعر كلها لتحقق في عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع .

والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوّم . فإذا كانت هذه الحقائق لا تعجبهم ، ولا تتفق مع منهجه الذي يأخذهم به ، دفعهم إلى تغييرها ، وتحقيق المنهج الذي يريد .

ومن ثم لا تبقى في الطاقة البشرية بقية للأحلام المهوّمة الطائرة . فالإسلام يستغرق هذه الطاقة في تحقيق الكمالات الرفيعة ، وفق منهجه الضخم العظيم .

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته - **كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ** . إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن . منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها ؛ ومنهج الأحلام المهوّمة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها . فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً ؛ وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع ؛ ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها ، وتدع واقع الحياة كما هو مشوهاً متخلفاً قبيحاً ! .

وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية ، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام ، في ضوء الإسلام ، ثم تعبّر عن هذا كله شعراً وفناً ، فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن ، كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ .

ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون ، وإلى خفايا النفس البشرية . وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن . وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال .

ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء :

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا ﴾ . **فهؤلاء** ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة ، واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام . وانتصروا من بعد ماظلموا

فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها إبّان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله ﷺ حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة - رضي الله عنهم - من شعراء الأنصار ، ومنهم عبدالله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وقد كانا يهجوان رسول الله ﷺ في جاهليتهما ، فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول الله ونافحا عن الإسلام .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم - أو قال هاجهم - وجبريل معك » .. وعن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عزّ وجلّ قد أنزل في الشعراء ماأنزل . فقال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل » (رواه الإمام أحمد) .

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفنّ الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها . وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ، ليكون شعراً أو فناً يرضاه الإسلام .

وليس من الضروري أن يكون دفاعاً ولا دفعاً ؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيداً له أو لأيام الإسلام ورجاله .. ليس من الضروري أن يكون في هذه الموضوعات ليكون شعراً إسلامياً . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ، ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حسه لهي الشعر الإسلامي في صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله ، أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله ، لكفيلة أن تنشىء شعراً يرضاه الإسلام . ومفرق الطريق أن للإسلام تصوراً خاصاً للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها ، فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام .

* * *

وتختم السورة بهذا التهديد الخفي المجمل : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب . كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات

والقرون . تنتهي بهذا التهديد المخيف . الذي يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب ؛ يتمثل في صور شتى ، يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين زلزالاً شديداً) .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ماكانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الحديث الصحيح « يُؤتىٰ بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويُؤتىٰ بأشدّ الناس بؤساً كان في الدنيا فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يارب » أي ماكأن شيئاً كان) .

وقال النسفي بمناسبة هذه الآية (قال يحيىٰ بن معاذ : أشد الناس غفلة من اغترّ بحياته ، والْتذّ بمراداته ، وسكن إلى مألوفاته ، والله تعالى يقول : ﴿ **أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ماكانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ماكانوا يمتّعون** ﴾ وعن ميمون بن مهران أنّه لقي الحسن في الطّواف - وكان يتمني لقاءه - فقال عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية . فقال ميمون : قد وعظت فأبلغت . وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ قال ابن كثير : (وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ، بل هي فرد من أجزائها ، كما قال تعالى : ﴿ **لتنذر قوماً ماأنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾ : ﴿ **لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ وفي صحيح مسلم : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد رحمه الله .. عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أنزل الله عز وجل ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه

ثم نادى : « ياصباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يابني عبدالمطلب ؛ يابني فهر ، يابني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدّقتموني؟ » قالوا : نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله ﴿ **تبّت يدا أبي لهب وتبّ** ﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به .

الحديث الثاني : روى الإمام أحمد .. عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يافاطمة ابنة محمد ، ياصفية ابنة عبدالمطلب ، يابني عبدالمطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ماشئتم » انفرد بإخراجه مسلم ...

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال : « يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار : فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أنّ لكم رحماً سأبلها ببلالها » . ورواه مسلم والترمذي من حديث عبدالملك بن عمير به .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد .. لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ صعد رسول الله ﷺ رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي « يابني عبد مناف إنما أنا نذير ، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف ياصباحاه » ورواه مسلم والنسائي .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد .. عن عليّ رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم « من يضمن عنّي ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنّة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ » فقال رجل لم يسمّه شريك : يارسول الله أنت كنت بحراً من يقوم بهذا ، قال ثم قال الآخرة - ثلاثاً - قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال عليٌّ أنا .. » وبعد أن ذكر ابن كثير طرق هذا الحديث قال : (**فهذه طرق متعدّدة لهذا**

الحديث عن علي رضي الله عنه ، ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله يعني إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ . فعند ذلك أمن ، وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشدّ إيماناً ويقيناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من عليّ رضي الله عنه ، ولهذا بدرهم إلى التزام ماطلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا ، وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً ، حتي سمّى من سمّى من أعمامه وعمّاته وبناته ، لينبّه بالأدنى على الأعلى ، أي إنمّا أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي من طريق عمرو بن سمرة عن محمد بن سوقة عن عبدالواحد الدمشقي قال : رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم ، ووَلده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدّثون ، فقيل له : مابال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أزهد الناس في الدنيا الأنبياء وأشدّهم عليهم الأقربون » وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فقل إني برىء مما تعملون** ﴾ **اهـ** .

وبمناسبة هذه الآية : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أقول : إن البدء بإنذار الأقربين علامة على صدق الداعية في دعوته ، وعلامة على جديته فيها ، ثمّ إنّه هو الطريق الفطري للدعوة . ومن ثَمّ فعلى الداعية أن يعطي دعوة الأقربين جزءاً من وقته وعمله .

٣ - ليس هناك أبلغ ولا أعظم ولا أروع في الأمر بالتواضع من قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ إن أصل الصلة بين التواضع وخفض الجناح أن الطائر إذا أراد أن ينحطّ للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ، ولين الجانب ، والملاحظ أن الأمر بخفض الجناح قد ورد أكثر من مرة في القرآن من ذلك قوله تعالى : ﴿ **واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ..** ﴾ بالنسبة للوالدين ، فإذا أمر الله عز وجل رسوله بخفض الجناح فإن هذا يعني أنه أمره بأقصى قدر من التواضع ، تواضع يشبه تواضع الإبن لوالديه . فمن يطيق هذا الأدب مع كل مؤمن إلا رسول الله ﷺ ،

ومن وفّقه الله لمثل ذلك ، ولقد رأينا من شيوخنا من يعامل كل مؤمن صغيراً أو كبيراً بمنتهى الأدب ، حتى ليستصغر الإنسان أدبه مع أبويه بجانب ذلك الأدب . فرحمهم الله ورزقنا مكارم الأخلاق ، وإن من الجماعات الإسلامية المعاصرة من جعلت إكرام المسلم إحدى شعاراتها . وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) أبرزنا ماهية الذلة على المؤمنين كخلق أساسي من أخلاق الإسلام .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلّبك في الساجدين** ﴾ قال ابن كثير : (أي في جميع أمورك ، فإنّه مؤيّدك وحافظك ، وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك ، وقوله تعالى ﴿ **الذي يراك حين تقوم** ﴾ أي هو معتن بك كما قال تعالى ﴿ **فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ قال ابن عباس ﴿ **الذي يراك حين تقوم** ﴾ يعني إلى الصلاة ، وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده ، وقال الحسن ﴿ **الذي يراك حين تقوم** ﴾ إذا صليت وحدك ، وقال الضحاك ﴿ **الذي يراك حين تقوم** ﴾ أي من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة ﴿ **الذي يراك** ﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك وقوله تعالى ﴿ **وتقلبك في الساجدين** ﴾ قال قتادة ﴿ **الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين** ﴾ قال : في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراساني ، والحسن البصري وقال مجاهد كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى منْ أمامه . ويشهد لهذا ماصح في الحديث « سووا صفوفكم فإني أراكم من وراء ظهري » . وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : يعني تقلّبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً . وقوله تعالى : ﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى : ﴿ **وماتكون في شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** ﴾ (٦١ : يونس) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون** ﴾ قال ابن كثير : (أي يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس ، فيحدثون بها فيصدّقهم الناس في كل ماقالوه ، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما صحّ بذلك الحديث ، كما رواه البخاري من حديث الزهري أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضي الله

عنها : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يارسول الله فإنّهم يحدثون بالشيء يكون حقاً ، فقال النّبي ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » . وروى البخاري أيضاً .. عن أبي هريرة قال : إنّ النّبي ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنّها سلسلة على صفوان ، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفّ سفيان بيده فحرفها وبدّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربمّا ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقول أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » تفرّد به البخاري . وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريباً من هذا وسيأتي عند قوله تعالى في سورة سبأ ﴿ **حتى إذا فزّع عن قلوبهم** ﴾ الآية . وقال البخاري وقال الليث .. عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تحَدَّثُ في العنان - والعنان : الغمام - بالأمر في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة » . ورواه البخاري في موضع آخر من كتاب بدء الخلق عن عروة عن عائشة بنحوه) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ . قال ابن كثير : (والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى : ﴿ **وما علّمناه الشعر ومايبنغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم * وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين** ﴾ . وهكذا قال ههنا : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين** ﴾ . إلى أن قال ﴿ **وماتنزّلت به الشياطين * وماينبغي لهم ومايستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزّل على كل أفاك**

أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ .

٧ - بمناسبة قوله تعالى عن الشعراء ﴿ **ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون** ﴾ قال ابن كثير : (فإنّ الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم فيتكثّرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدّاً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنّهم يقولون مالا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر . فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... ورقاصة تحنو على كل مبسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلّما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أي والله إنه لِيسوؤني ذلك ، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته ، وكتب إليه عمر ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ أما بعد فقد بلغني قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه ∴ تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوؤني ، وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكّته بهذا الشعر ، فقال : والله ياأمير المؤمنين ما شربتها قط ، وماذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظنّ ذلك ، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ماقلت . فلم يذكر أنّه حدّه على الشراب ، وقد ضمّنه شعره ، لأنّهم يقولون مالا يفعلون ، ولكن ذمّه عمر رضي الله ولامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء في الحديث « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلىء شعراً » .

قال الألوسي : (وما أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه

قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً » حمله الشافعي عليه الرحمة على الشعر المشتمل على الفحش ، وروي نحوه عن عائشة رضي الله عنها فقد أخرج الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أن أبا هريرة يروي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لأن يمتلىء جوف أحدكم » الحديث فقالت : رحم الله تعالى أبا هريرة ، إنما قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » من الشعر الذي هجيت به يعني نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك المرشدي في فتاواه نقلاً عن كتاب بستان الزاهدين) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وانتصروا من بعد ماظلموا** ﴾ في حقّ الشعراء من أهل الإيمان قال ابن كثير : قال ابن عباس : « أي » يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد ، وهذا كما ثبت في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك » وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ماأنزل . فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن - يجاهد بسيفه ولسانه - والذي نفسي بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل ») .

٩ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون** ﴾ قال ابن كثير : (والصحيح أن هذه الآية عامّة في كل ظالم كما قال ابن أبي حاتم : ذكر عن يحيى ابن زكريا بن يحيى الواسطي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدّق الكاذب ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنّي به ورجائي فيه ، وإن يجُر ويبدّل فلا أعلم الغيب ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون** ﴾ .

كلمة في سورة الشعراء :

سورة الشعراء هي إحدى السور الثلاث التي تفصّل قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ومن الملاحظ أن هذه الآية لم تُفصَّل قبل هذه المرّة ، ومن ثمّ فصلتها ثلاث سور كاملة ، تشكل زمرة واحدة ، شعارها الطاء والسين

﴿ **طسم – طس – طسم** ﴾ ، وقد عرضت لنا سورة الشعراء آيات من آيات الله وأقامت الحجة على أن محمداً من المرسلين .

....

وقد رأينا أن السورة عمّقت عندنا مفاهيم تلزم لإقامة الإسلام الكامل الشامل ، وذلك أنّ السورة تفصّل محوراً آتياً في حيّز قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السلم كافة ..** ﴾ ومن أبرز المواضيع التي عمّقتها السورة موضوع التقوى والطاعة ، إن التقوى هي المطلب الرئيسي من كل مسلم ، فالتقوى هي تكليفه من الإسلام بحسب طاقته ، والطاعة هي رمز التحامه مع الجماعة وفي الحديث « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية » وهذا الموضوع من غوامض المواضيع ـــ وخاصة في أيام الفتن ـــ ولذلك كان العلم فيه من جملة العلوم المفروضة فرض عين ، والذين يعرفون أن يتكلموا به قلّة .

....

وقد عرضت السورة الآداب العليا للمرسلين في الدّعوة وأساليبها . وعرضت الأخلاق العليا للرسول من توحيد ، لإنذار ، لخفض جناح ، لتوكل على الله . وقد رأينا ذلك أثناء عرض السورة فلنكتف بهذا القدر . ولننتقل إلى السورة الثانية من هذه الزمرة وهي سورة النّمل . والحمد لله رب العالمين .

☆ ☆ ☆

سورة النمل

وهي السورة السابعة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثامنة من المجموعة الثالثة من قسم المئين
وآياتها ثلاث وتسعون آية
وهي مكية

وهي السورة الثانية من زمرة الطاسينات

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة النّمل : (وتسمى أيضاً كما في الدر المنثور سورة سليمان ، وهي مكية ، كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، وذهب بعضهم إلى مدنية بعض آياتها كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وعدد آياتها خمس وتسعون آية حجازي وأربع بصري وشامي وثلاث كوفي ، ووجه اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها ، حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان ، وبسط فيها قصة لوط عليه السلام أبسط مما هي قبل ، وقد وقع فيها ﴿ **إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً** ﴾ الخ وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل : ﴿ **فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين** ﴾ وقد اشتمل كل من السورتين على ذكر القرآن ، وكونه من الله تعالى وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك ، وروي عن ابن عباس . وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم طس ثم القصص *) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة النّمل : (هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ؛ وهي تمضي على نسقها في الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوّر هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات) .

....

(والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم .. ومن ثم يجيء في مقدمة السورة : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ . ويجيء في التعقيب ﴿ **قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون * بل ادّارك علمهم في الآخرة** ﴾ . ﴿ **وإن ربك ليعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون** ﴾ ﴿ **وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين** ﴾ ويجيء في الختام : ﴿ **سيريكم آياته فتعرفونها** ﴾ .. ويجيء في قصة سليمان : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ .. وفي قول سليمان ﴿ **يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير** ﴾ وفي قول الهدهد : ﴿ **ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ماتخفون وماتعلنون** ﴾ . وعندما يريد سليمان استحضار

عرش الملكة ، لايقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن ، إنما يقدر على هذه : الذي عنده علم من الكتاب) .

كلمة في سورة النّمل ومحورها :

ذكرنا من قبل أن الطاسينات الثلاث محورها آية واحدة من سورة البقرة هي قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وقد رأينا سورة الشعراء وكيف كان تفصيلها . وسورة النّمل ستفصل هذه الآية تفصيلاً آخر ضمن حيّز هذه الآية من سورة البقرة .

بدأت سورة النمل بقوله تعالى : ﴿ **طسٓ * تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ﴾ فلنلاحظ كلمة (آيات) المشتركة مابين بداية السورة ومحور السورة ، ثمّ إذا سرنا في السورة فإننا نجد أن الآية السادسة منها هي قوله تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ فلنلاحظ صلة هذه الآية بقوله تعالى في محور السورة ﴿ **نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ثم إذا سرنا في السورة فإننا نجد أن الآيتين (٧٦ و ٧٧) هما ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ إنّ صلة هاتين الآيتين بآية المحور واضحة ؛ من حيث إنّ آية المحور آتية بعد قصة طالوت التي يختلف في فحواها بنو إسرائيل . ثم إذا سرنا في السورة فإننا نجد الآية (٩٢) هي : ﴿ **وأن أتلو القرآن** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ قائمة ، ثمّ إننا نجد أنّ آخر آية في السورة هي قوله تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ..** ﴾ وصلة ذلك بالمحور ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ..** ﴾ واضحة .

....

ونلاحظ أن آية المحور آتية بعد قصة طالوت وداود : فقبيل آية المحور نجد قوله تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين** ﴾ البقرة : (٢٥١) ثم تأتي آية المحور ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ونلاحظ هنا في سورة النمل أن اسم داود يرد في قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين * وورث سليمان**

داود ﴾ إنّ صلة ذلك بالمحور والآيات التي جاءت قبله واضحة جداً كما سنرى ذلك بالتفصيل .

والسورة عرضت قصة ثلاث رسل : سليمان ، وصالح ، ولوط عليهم السلام وصلة ذلك بكون محمد ﷺ من المرسلين واضحة .

....

ونلاحظ أن السورة تتألف من مقطعين واضحي المعالم : المقطع الأول وفيه حديث عن المرسلين نجد فيه قصة موسى ، وذكر داود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام . المقطع الثاني : وهو مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..** ﴾ ومن بداية المقطع الثاني تشعر أنّ هذا المقطع يبني على ماذكر في المقطع الأول ضمن سياق محدّد هو تفصيل آية المحور .

....

ولقد رأينا أن آية المحور آتية ضمن حيّز الأمر ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ ومن ثمّ فإننا نجد في السورة ماله علاقة بذلك ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ وكما ورد على لسان بلقيس ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ .

....

وإنزال الآيات يقتضي شكراً من الرسول ، وفي السورة دروس في ذلك ، ويقتضي من الأمة عملاً ، وفي السورة دروس في ذلك ، إنّ السورة نموذج عجيب على تفصيل القرآن بعضه لبعض ، ونموذج عجيب على تفصيل المحور ضمن حيّزه ، ونموذج عجيب على كيفية كون السورة في محلّها تخدم مجموعة أمور دفعة واحدة ، إنْ في سياقها الخاص أو العام ، أو ضمن الوحدة القرآنية ، وكل ذلك مع الإحكام ، والبيان ، والدروس الخالدة التي لاتتناهى ، ومن ثمّ يبقى القرآن جديداً على قارئه ولو تلاه آلاف المرات ، وجديداً في كل عصر ، وفي كلّ زمان ، وفي كل مكان ، ولأمور كثيرة ورد في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ **وإنّك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ إن هذا القرآن لايمكن أن يكون على هذه الشاكلة لولا أن منزله المحيط علماً بكل شيء ، ولولا أنّ منزله ذو الحكمة الكاملة .

إن الله عز وجل لا تنفك أقواله وأفعاله وأحكامه عن الحكمة ، يعرف ذلك كل من آتاه الله شيئاً من البصيرة يرى فيها الأشياء على حقائقها ، ومن تأمل هذه السورة عرف أنّ الله عليم وأنه حكيم .

تتألف السورة من مقطعين :

المقطع الأول ويمتدُّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٥٨) وفيه مقدمة السورة وبعض قصص المرسلين .

المقطع الثاني ويمتدُّ من الآية (٥٩) إلى نهاية السورة .

وسنعرض إن شاء الله تعالى مقطعي السورة على مجموعات ، ونتحدث خلال ذلك عن السياق خطوة خطوة ، نسأل الله عزّ وجلّ أن يفتح علينا ، وأن يجنّبنا الزلل ، وأن يتقبل ، وأن يختم لنا بكمال الإيمان ، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات .

المجموعة الأولى : وهي مقدّمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **طسٓ تلك** ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ **آيات القرآن** ﴾ أي معجزات القرآن ﴿ **وكتاب مبين** ﴾ أي وآيات كتاب مبين ، أي ومعجزات كتاب بيّن واضح ، وإبانته أنّه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم ﴿ **هدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ أي فيه هدايَة وبشارة ، ولكن إنما تحصل الهداية والبشارة منه لمن آمن به واتّبعه ، وصدّقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة ، وبالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار . ومن ثمّ وصف الله المؤمنين الذين لهم في القرآن هداية وبشارة فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ أي يديمون المحافظة على فرائضها وسننها ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ أي ويؤدّون زكاة أموالهم ﴿ **وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ قال النسفي : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ...) ثمّ علّل النّسفي لهذا التفسير من جهة اللّغة والإعراب كما سنرى في الفوائد .

نقـول :

قال صاحب الظلال : (وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة .. إن القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب مافيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب ، أول مايخاطب ، ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح ، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين ، وكلما كان القلب ندياً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ، وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ، واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارىء المطموس . وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة ، وهو غافل أو عجول فلا تفضي له بشيء ، وفجأة يشرق النور في قلبه ، فتتفتح له عن عوالم ماكانت تخطر له ببال . وتصنع في حياته صنع المعجزة في تحويله من منهج إلى منهج ، ومن طريق إلى طريق .

....

وكل النظم والشرائع والآداب التي يتضمنها هذا القرآن ، إنما تقوم قبل كل شيء على الإيمان . فالذي لا يؤمن قلبه بالله ، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحي من عند الله

وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذي يريده الله . الذي لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدي بالقرآن كما ينبغي ولا يستبشر بما فيه من بشارات .

إن في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان . والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فأما حين أصبح القرآن كتاباً يترنّم المترنّمون بآياته ، فتصل إلى الآذان ، ولا تتعداها إلى القلوب ، فإنه لم يصنع شيئاً ، ولم ينتفع به أحد .. لقد ظل كنزاً بلا مفتاح) .

(والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى ... إنهم هم **﴿ الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾** ...

يقيمون الصلاة .. فيؤدونها حق أدائها ، يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدي الله ، شاعرة أرواحهم بأنهم في حضرة ذي الجلال والإكرام ، مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضيء ، مشغولة خواطرهم بمناجاة الله ودعائه والتوجه إليه .

ويؤتون الزكاة .. فيطهرون نفوسهم من رذيلة الشح ؛ ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال ؛ ويصلون إخوانهم في الله ببعض مارزقهم الله ؛ ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها أعضاء .

وهم بالآخرة هم يوقنون .. فإذا حسابُ الآخرة يشغل بالهم ، ويصدهم عن جموح الشهوات ، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة .

هؤلاء المؤمنون الذاكرون الله ، القائمون بتكاليفه ، المشفقون من حسابه وعقابه ، الطامعون في رضائه وثوابه .. هؤلاء هم الذين تنفتح قلوبهم للقرآن ، فإذا هو هدى وبشرى . وإذا هو نور في أرواحهم ، ودفعة في دمائهم ، وحركة في حياتهم . وإذا هو زادهم الذي به يبلغون ؛ وريّهم الذي به يستقون .

وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد في صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها ، فيسدرون في غيهم ، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم :

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم

سوء العذاب ، وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ .

والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة ، والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة ، أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب . وهي قصيرة مهما طالت ، وماتكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تنال ! ثم ماالذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ،وتحقيق لذاته ورغباته ؛ وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ؛ ولا يتوقع ثواباً ولا عقاباً يوم يقوم الأشهاد ؟ .

ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزيناً للنفس التي لا تؤمن بالآخرة ، تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء . والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها ، وأن تجده حسناً جميلاً ؛ مالم تهتد بآيات الله ورسالاته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني . فإذا هي تجد لذتها في أعماق أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام ؛ والله ـــ سبحانه ـــ هو الذي خلق النفس البشرية على هذا النحو ؛ وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى ، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها . وسنته نافذة ـــ وفق مشيئته في حالتي الاهتداء والعماء . ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون** ﴾ .. فهم لم يؤمنوا بالآخرة ، فنفذت سنة الله في أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم ... وهذا هو معنى التزيين في هذا المقام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء ﴿ **أولئك الذين لهم سوء العذاب . وهم في الآخرة هم الأخسرون** ﴾ . سواء كان سوء العذاب لهم في الدنيا أو في الآخرة ، فالخسارة المطلقة في الآخرة محققة جزاءً وفاقاً على الاندفاع في سوء الأعمال .

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي يتنزل منه القرآن على رسول الله ﷺ ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ .

ولفظ (تلقى) يلقي ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شيء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم .. وتتجلى حكمته وعلمه في هذا القرآن . في منهجه ،

وتكاليفه ، وتوجيهاته ، وطريقته . وفي تنزيله في إبانة . وفي توالي أجزائه . وتناسق موضوعاته . ثم يأخذ في القصص . وهو معرض لحكمة الله وعلمه وتدبيره الخفي اللطيف) .

كلمة في السياق :

أثبت الله عز وجل في هذه الآيات خاصتين من خواص كتابه وهما : الهداية والبشارة ، ولكن بيّن أن هاتين الخاصيتين إنما ينالهما من اجتمع له إيمان ، وإقامة صلاة ، وإيتاء زكاة ، وإيقان بالآخرة . أما من فقد هذه الصفات فإنه لاينال هداية هذا القرآن ، ولا بشارته . فلنتذكر الآن محور السورة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ إننا نلاحظ الشبه بين قوله تعالى ﴿ **تلك آيات الله** ﴾ في المحور وبين قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ﴾ فتلك آيات الله المذكورة هي آيات هذا القرآن الواضح البين ، هذه الآيات من خصائصها الهداية والبشارة ، ولكن لمن اتصف بمجموعة صفات ، أما إذا أخل بصفة فإن هذه الآيات لا يكون له فيها هداية كاملة ، ولا بشارة كاملة ، فالصلة قائمة بين آية المحور ومقدمة السورة .

فوائـــد :

١ ـــ نلاحظ أن سورة الحجر كانت مقدمتها ﴿ **الر تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ﴾ هناك قدّم لفظ الكتاب وههنا قدم لفظ القرآن ، ويلاحظ أن كلمة القرآن في سورة الحجر جاءت بصيغة التنكير لا التعريف ، بينما جاءت كلمة الكتاب هنا بصيغة التنكير لا التعريف . قال النسفي في ذلك : (وقيل إنمّا نكّر الكتاب هنا وعرّفه في سورة الحجر ، وعرّف القرآن هنا ونكّره ثَمّ لأنّ القرآن والكتاب اسمان عَلَمان للمنزل على محمد ﷺ ، ووصفان له ، لأن يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو الوصف) .

٢ ـــ يلاحظ أن كلمة (هم) تكررت مرتين في قوله تعالى : ﴿ **وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ قال النسفي في تعليل ذلك : (وكرر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيمان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق) أقول : وهؤلاء الذين كانوا كذلك هم وحدهم الذين تنالهم هداية القرآن وبشارته .

ولنعد عودة قصيرة إلى بعض الآيات :

بعد أن بيّن الله عز وجل أهميّة الإيمان بالآخرة ، حتى إنه لا تكون صلاة وزكاة وإيمان بدونه ، وحتى لا يكون اهتداء بالقرآن ولا استبشار بما فيه بدون ذلك ، بعد هذا ذكر حال الذين لايؤمنون بالآخرة فقال : ﴿ **إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ أى يكذّبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ **زينا لهم أعمالهم** ﴾ أي حسّنا لهم ماهم فيه فساروا وراء شهوات الدنيا على أنّها هي الهدف وحدها ، ورأوا ذلك حسناً ﴿ **فهم يعمهون** ﴾ أي فهم يتردّدون في ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطّريق . قال ابن كثير : (أي حسّنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيّهم ، فهم يتيهون في ضلالهم وكأنّ هذا جزاء على ما كذّبوا من الدار (الآخرة) أقول : ومن آثار التزيين ما نراه في عصرنا من ثناء الملحدين على أنفسهم ، واحتقار غيرهم ، بما يطلقونه على أنفسهم من ألقاب ، وغيرهم رجعيون خونة ، أعداء للتقدم إلى آخر ما يطلقونه على غيرهم من ألقاب ﴿ **أولئك** ﴾ أي الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **الذين لهم سوء العذاب** ﴾ في الدنيا والآخرة وهذا أكثر ما يكون وضوحاً في المجتمعات التي تبنّت الكفر باليوم الآخر ، كالمجتمعات الشيوعية ، فإنّك لا تجد أبأس من الإنسان فيها ، وهذا نوع من العذاب ، وأنواع العذاب التي تصيب هؤلاء في الدنيا كثيرة . فالقلق عذاب ، وانقباض القلب عذاب ، وعقوبات الفطرة عذاب ، وغير ذلك كثير : ﴿ **وهم في الآخرة هم الأخسرون** ﴾ أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر ، فهم أشدّ الناس خسراناً وخاصة كفار هذه الأمّة ، لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم ، فخسروا ذلك ، مع خسران النّجاة وثواب الله . وبهذا انتهى عرض خصائص المهتدين المستبشرين بهذا القرآن ، كما عرضت صفات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ثمّ يعود السياق إلى الكلام عن القرآن :

﴿ **وإنك** ﴾ يامحمد ﴿ **لَتَلَقَّى القرآن** ﴾ أي لتؤتاه وتلقّنه ﴿ **من لدن حكيم عليم** ﴾ قال ابن كثير : أي من عند حكيم عليم ، أي حكيم في أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها . فخبره هو الصدق المحض وحكمه هو العدل التام ، قال النّسفي في محلّ هذه الآية من السياق : (وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص ومافي ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه) .

وأول مايأتي بعد هذه الآية قصة موسى عليه السلام ، وفيها نموذج على تلقّي المرسلين

الوحي من الله عز وجل ، وفيها نموذج على الآيات التي يعطيها الله الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهي من الآيات التي يتلوها الله عز وجل على محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك كله صلاته بمحور السورة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها علي بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

المجموعة الثانية من المقطع الأول
وفيها قصة موسى عليه السلام

وتمتدُّ من الآية (٧) إلى نهاية الآية (١٤) وهذه هي :

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

☆ ☆ ☆

التفسير :

﴿ **إذ قال موسى لأهله** ﴾ أي لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين إلى مصر ﴿ **إني آنست** ﴾ أي أبصرت ﴿ **ناراً سآتيكم منها بخبر** ﴾ عن حال الطريق لأنه كان ضائعاً عنه ﴿ **أو آتيكم بشهاب** ﴾ أي شعلة مضيئة ﴿ **قبس** ﴾ أي نار مقبوسة ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أي تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم .

كلمة في السياق :

بعد قوله تعالى : ﴿ **وإنك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ جاء مباشرة قوله تعالى : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً ..** ﴾ فما الصلة بين الآيتين ؟ ذكر النسفي : أن إذ منصوبة بفعل تقديره : (اذكر) ثم قال ذاكراً الصلة بين الآيتين : (كأنه قال : على أثر خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام) أقول : بل في مجيء قصة موسى بعد تلك الآية زيادة على ما قال النسفي : أن في القصة نموذجاً على تلقي رسول - هو موسى - عن الله عز وجل تلقياً تظهر فيه حكمة الله وعلمه ، كما أن ذكر القصة في هذا السياق دليلًا على أنّ هذا القرآن متلقى من الله عز وجل .

....

﴿ **فلما جاءها** ﴾ أي فلما جاء النار التي أبصرها . قال ابن كثير : (أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلًا عظيماً ، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة و نضرة ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهّج) . فوقف موسى متعجباً مما رأى فـ ﴿ **نودي** ﴾ موسى ﴿ **أن بورك من في النار ومن حولها** ﴾ أي حول مكانها أي موسى ، وهذه البركة كانت لحدوث أمر ديني فيها ، وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات ﴿ **وسبحان الله رب العالمين** ﴾ هذا من تتمّه النّداء ، فقد نزه الله ذاته عمّا لا يليق به من التشبيه وغيره ﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ قال ابن كثير : أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عزّ كلّ شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أفعاله وأقواله) قال النّسفي : (وهو (أي هذا الكلام) تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات) ﴿ **وألق عصاك** ﴾ قال النسفي : لتعلم معجزتك فتأنس بها . وقال ابن كثير : أمره أن يلقي عصاه من يده ليُظهر له دليلاً واضحاً على أنه

الفعال المختار القادر على كل شيء ﴿ **فلما رآها** ﴾ أي رأى العصا ﴿ **تهتز** ﴾ أي تتحرك ﴿ **كأنها جان** ﴾ كأنّها حيّة من نوع الجانّ . قال ابن كثير : والجانّ ضرب من الحيّات أسرعه حركة ، وأكثره اضطراباً ﴿ **ولى** ﴾ موسى ﴿ **مدبراً** ﴾ أي منهزماً خوفاً من وثوب الحيّة عليه ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أي ولم يلتفت من شدة خوفه فنودي ﴿ **ياموسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون** ﴾ أي لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إياهم ، أو لا يخاف لديّ المرسلون من غيري . قال ابن كثير في الآية : أي لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ أي لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لا يظلمون ﴿ **ثمّ بدّل حسناً بعد سوء** ﴾ أي أتبع توبة بعد زلّة ﴿ **فإني غفور رحيم** ﴾ أي فإني أقبل توبته ، وأغفر زلّته ، وأرحمه فأحقق أمنيّته . قال النسفي : وكأنه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطي ﴿ **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له** ﴾ قال ابن كثير : (وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيّء ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه) ويحتمل أن يكون المعنى : إلا من ظلم من المرسلين بأن فعل غير ما أذنت له ممّا يجوز على الأنبياء ، وليس من باب المعاصي ، ولكنه لعلو مقامهم يعتبر ظلماً من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإذا وقع الرسول بشيء من ذلك فتاب فإن الله يتوب عليه ويغفر له رحمة به ﴿ **وأدخل يدك في جيبك** ﴾ أي في جيب قميصك وهو فتحة الثوب من العنق وأخرجها بعد إدخالها ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾ أي نيرة ﴿ **من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ أي خارجين عن الطاعة ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة** ﴾ أي بينه واضحة ظاهرة ﴿ **قالوا هذا سحر مبين** ﴾ أي واضح ظاهر لمن تأمّله ﴿ **وجحدوا بها** ﴾ أي بألسنتهم ﴿ **واستيقنتها أنفسهم** ﴾ أي علموا في أنفسهم أنّها حق ؛ ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ **ظلماً** ﴾ أي ظلماً من أنفسهم ، سجسّة ملعونة ، وأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات من عند الله ، ثمّ سمّاها سحراً بيناً ؟ ﴿ **وعُلوّاً** ﴾ أي وترفعاً عن الإيمان بما جاء به موسى . قال النسفي : أي استكباراً عن اتّباع الحق ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ قال النسفي : وهو الإغراق هنا والإحراق ثمّة . وقال ابن كثير : (أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة ، فحوى الخطاب يقول احذروا أيها المكذّبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ؛ فإنّ محمداً ﷺ أشرف وأعظم من

موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له ؛ عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام) .

فوائد :

١ - فسر النّسفي قوله تعالى : ﴿ **أن بورك من في النار** ﴾ بأن المراد من في النار الملائكة ، وفسرّ ﴿ **ومن حولها** ﴾ بأن المراد به موسى ، وهو المعنى الذي اعتمدناه في التفسير . إلا أن ابن كثير : فسّر من حولها بالملائكة . وفسر ﴿ **من في النار** ﴾ بأن الله عز وجل أراد بذلك ذاته جل وعلا ، وعلى هذا المعنى فلا يصح أن يفهم فاهم ماينافي التنزيه ، فالله عز وجل حجابه النور أو النار ، وليس كمثله شيء ، ومثل هذه المعاني الدقيقة لا يفهمها حق الفهم إلا الراسخون في العلم ، السالكون إلى الله ، العارفون به ، جعلنا الله منهم . وبمناسبة هذه الآية نقل ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم .. عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لاينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار ، قبل الليل » زاد المسعودي « وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره » ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ **أن بورك من في النار ومن حولها** ﴾ وأصل الحديث مخرّج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة .

٢ - يلاحظ أنه في هذه السورة قال موسى ﴿ **سآتيكم منها بخبر ..** ﴾ وتعبيره هنا جازم وفي سورة القصص قال ﴿ **لعلي آتيكم منها ..** ﴾ وفيه الترجي ، وقد علّل النسفي لذلك بقوله : (لأنّ الرّاجي إذا قوي رجاؤه يقول سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه الخيبة ، ومجيئه بسين التسويف عدة لأهله أنه يأتيهم به ، وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة ، وبأو لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما ، إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ولم يدر أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ التزوج) . أي بما يفيده معناه وتجيزه الفتوى .

كلمة في السياق :

لقد مرّت معنا هذه المجموعة التي ذكر الله فيها قصة موسى بهذا الاختصار المعجز ،

ورأينا كيف ربط النسفي بين هذه المجموعة وبين الآية التي جاءت قبلها ؛ إذ ذكر فيها أن هذه المجموعة نموذج على أن هذا القرآن أثر عن علم الله وحكمته ، وهي كذلك ، ومع أن المجموعة تؤدي دورها في سياق السّورة ، فإنّها تؤدي دورها في تفصيل محورها : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فقد رأينا في المجموعة كيف يتلقى رسول من الرسل عن الله وكيف تنزل الآيات عليه ، كما رأينا بعض آداب الرسل ﴿ **إني لا يخاف لدي المرسلون** ﴾ ولكل ذلك صلاته بآية المحور ، فأن تكون هذه المجموعة في محلها بما يخدم سياق السورة ، وبما يفصّل محورها ، فذلك لا يمكن أن يكون لولا أن هذا القرآن من عند الله الحكيم العليم ، ثمّ إنّ المجموعة تخدم قضية إنزال الآيات على محمد ﷺ ، وتوضح قضية الإرسال ، وبعد هذه المجموعة تأتي قصة سليمان وداود وهما من المرسلين اللذين يضمهم مع محمد ﷺ سلك الرّسالة ، ففي المجموعة آيات يتلوها الله على محمّد ﷺ عن المرسلين : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وهذه هي المجموعة :

المجموعة الثالثة من المقطع الأول
وفيها قصة سليمان عليه السلام

وتمتدُّ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٤٤) وهذه هي :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ

وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ
﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟
قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ

إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير :

﴿ **ولقد آتينا** ﴾ أي أعطينا ﴿ **داود وسليمان علماً** ﴾ أي علم الدّين والحكم ﴿ **وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ قابلا النّعمة بشكرها .

فائدة :

● بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ قال النسفي : (وفيه أنّهما فضلا على كثير وفضّل عليهما كثير ، وفي الآية دليل على شرف العلم ، وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده ، وماسماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله ، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه ، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر) .

● وبمناسبة هذه الآية .قال ابن كثير :(روى ابن أبي حاتم .. أنه : كتب عمر بن عبدالعزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل : قال الله تعالى ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام) .

كلمة في السياق :

هذه الآية بينت أنه كما أوحي إلى موسى أوحى الله إلى داود وسليمان عليهما السلام وعلّمهما ، وأنّهما قابلا ذلك بالحمد والشكر ، وإذن فلا عجب أن ينزل الله الآيات على محمد ﷺ ويعلّمه ، وفي الآية درس للإنسان أن يقابل التعليم الإلهي بالشكر ، ولنلاحظ أنّه قد وردت قصة موسى بعد قوله تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ فجاءت قصة موسى كنموذج على آثار علم الله وحكمته . وهاهي قصة سليمان تصدّر بقوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علماً** ﴾ فكما أن معلم القرآن هو الله ، فمعلم داود وسليمان هو الله ، فقصّة سليمان إذن نموذج على التعليم الرباني ، فهي نموذج على آثار علم الله وحكمته ، ومن

هذا كله ندرك محلّ هذه المجموعة في سياق السّورة وسياق القرآن .

....

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ أي ورث منه النبوة والملك . قال ابن كثير : (أي في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك لم يخصّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنّه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإنّ الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ماتركناه فهو صدقة ») . قال النسفي : (قالوا : أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنّبوة لا تورث) . ﴿ **وقال يا أيها الناس علّمنا منطق الطير** ﴾ قال هذا تشهيراً لنعمة الله تعالى واعترافاً بمكانها ، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، قال النسفي : (والمنطق : كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض) ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ قال النسفي : المراد به كثرة ما أوتي كما تقول فلان يعلم كل شيء .. وليس التكبّر من لوازم ذلك . وقال ابن كثير (أي مما يحتاج إليه الملك) ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ أي الظاهر البيّن لله علينا قال النسفي : هذا قول وارد على سبيل الشكر كقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أي أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً .

كلمة في السياق :

قلنا إنّ آية المحور هي : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وقد جاءت هذه الآية بعد قصة طالوت التي ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ..** ﴾ فعندما تأتي في هذه السورة قصة داود ووراثة سليمان له ، فإنّ هذا يكون استمراراً لما قصّه الله على رسوله ﷺ من شأن داود قبل آية المحور ، ففي هذه السورة آيات يتلوها الله على رسوله ﷺ من أنباء المرسلين ليعلمه من آدابهم ، وليعطيه من دروسهم ، ولذلك صلاته بآية المحور وسياقها ، ومن مثل هذه الصّلة التي رأيناها هنا ندرك بعض أسرار الوحدة القرآنية .

نقـــول :

قال صاحب الظلال :

(ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالباً عن ابتداع مثله ، على ماأوتوا من عقل راق وإدراك عال) .

....

(وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم - هي لغاتها ومنطقها - فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ ولا تكون أمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان - عليه السلام - فكان شأناً خاصاً به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر . لاعلى طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم ...

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ـــ ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث ـــ يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان - عليه السلام - في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ! وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع . وهو خالق هذه الأنواع ! .

وعلى أن هذا كله لم يكن إلا شقاً واحداً للخارقة التي أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء . والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكاً خاصاً أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير . يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من

أحوال ملكة سبأ وقومها مايدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز ..

حقيقة إن سنة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ؛ وإن خلقة الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام . وإنها خاضعة - كحلقة مفردة - للناموس العام ، الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وجدت به .

وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم ، هو نسخه من الهدهد الذي وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقي إلى نوع آخر .. وإن هذا ـــ كما قلنا طرف من سنة الله في الخلق ، ومن الناموس العام للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لاتمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءاً من الناموس العام الذي لا نعرف أطرافه ، جزءاً يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التي سخرت له في ذلك الزمان) .

فوائد :

١ - بمناسبة قول الله تعالى على لسان سليمان : ﴿ **يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير** ﴾ قال ابن كثير : (أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود ـــ كما قد يتفوّه به كثير من الناس ـــ فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلّهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ماتقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله سبحانه كان قد

أفهم سليمان مايخاطب به الطيور في الهواء وماتنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ **علّمنا منطق الطير** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » قال فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين يدخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت ؟ فقال : الذي لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجّاب ، فقال داود : أنت إذاً والله ملك الموت مرحباً بأمر الله فتزمّل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان عليه السلام للطير أظلّي داود ، فظلّلت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض فقال لها سليمان اقبضي جناحاً جناحاً قال أبو هريرة : يارسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحيّة » قال أبو الفرج ابن الجوزي : المضرحيّة هي النّسور الحمراء .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وحشر** ﴾ أي وجمع ﴿ **لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير** ﴾ قال ابن كثير : يعنى ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم في المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلّته منه بأجنحتها ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال ابن كثير : أي يُكَفُّ أوّلهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جُعل على كل صنف وَزَعَةٌ يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم . وقال النسفي في معني يوزعون : (يحبس أولهم على آخرهم . أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة ، والوزع : المنع ، ومنه قول عثمان رضي الله تعالى عنه : مايزع السلطان أكثر مما يزع القرآن) .

فوائـــد :

١ - من قصة سليمان عليه السلام نعرف كثيراً من خصائص الجن وعالمهم فهم عالم كالإنس ، ونراهم في الآية السابقة منضبطين مع بقية جند سليمان . وسنرى فيما بعد أن عفريتاً منهم قادر أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين خلال ساعات . وهذا يعني أنه قادر على الذهاب والإياب مع معالجة العرش وحمله خلال هذه الساعات ، وهذا ينقض كلام المتأولة الذين لا يؤمنون بالغيب ، فالجنّ عالم مغيّب عنا لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا عنه الوحي المعصوم ، فالإنكار والتأويل في هذا المقام كفر وضلال .

٢ - لم يذكر لنا في الآية سبب الجمع الذي من أجله حُشر لسليمان جنده كله ، هل كان ذلك في أول وراثته لملك أبيه ، فكان ذلك نوعاً من استعراض الملك الجديد لقواته ، أو كان ذلك لمناسبة من المناسبات ، أو كان ذلك لمجرد تعويد الجند على تنفيذ الأوامر والتدريب على التعبئة ؟ والمهم أن الآية تعطينا درساً من دروس الحكم ولا شك أن قصة سليمان كلها دروس في الحكم الإسلامي ، كما أن قصة طالوت في سورة البقرة درس من دروس السياسة لهذه الأمة .

٣ - في قوله تعالى : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ نص على الضبط العسكري ونصّ على وجود النظام في الجند ، وفي ذكر كلمة ﴿ **جنوده** ﴾ نص على فكرة الطاعة ، وهذه المعاني هي أسس حياة الجندية السليمة ، طاعة ، وانضباط ، ونظام دقيق ، وفي عصرنا تقوم الجندية على التدريب الدقيق على النظام المنضم من أجل تعويد الجند على الطاعة والانضباط ، وهذا كله يمكن أن تكون الآية أصلاً فيه ، وفي قوله تعالى : ﴿ **يوزعون** ﴾ ما يشير إلى أن هناك من هو مكلّف بتأمين الضبط ، وهذا يشبه في عصرنا نظام شرطة الجيش ، ونظام المراتب في الجيش (ضباط وضباط صف) . ومن مثل هذا نفهم أن الله عز وجل يعطينا في قصة سليمان دروساً في أصول الحكم الإسلامي كما أنها مثال على أنّ الحكم الإسلامي يمكن أن يأخذ صوراً متعددة ، ومثال على أن المرسلين يمكن أن يكونوا ملوكاً في منتهى العظمة ، كما يمكن أن يكونوا غير ذلك ، وإنّ في عرض هذه الأمور في هذا السياق لآيات تدلّ على أن هذا القرآن من عند الله ، وبهذه المناسبة نقول : إن القصص القرآني يعطينا نماذج تَسَع الزّمان والمكان ، وأن الأمثال القرآنية تستوعب كلّ صور الحياة ، ومن خلال القصّة والمثل ترى الحياة كلها ،

فلا تجد صورة أمامك إلا وتجد مرآة لها في هذا القرآن ، وهذا مظهر آخر من مظاهر الإعجاز . ولنعد إلى التفسير :

....

﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل** ﴾ قال ابن كثير : أي حتى إذا مَرّ سليمان بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ **قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم** ﴾ أي لا يكسرنّكم أو لا يدهسنّكم ﴿ **سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ أي وهم لا يعلمون بمكانكم ، أي لو شعروا لم يفعلوا ، قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل ﴿ **فتبسَّم ضاحكاً من قولها** ﴾ متعجباً من حذرها ، واهتدائها لمصالحها ، ونصيحتها للنمل ، وفرحاً لظهور عدله حتى أحست به الحيوانات ، وراعته في مخاطباتها ﴿ **وقال رب أوزعني** ﴾ أي ألهمني ﴿ **أن أشكر نعمتك التي أنعمت عَلَيَّ** ﴾ من النّبوة والملك والعلم ﴿ **وعلى والديّ** ﴾ لأنّ الإنعام على الوالدين إنعام على الولد ﴿ **وأن أعمل صالحاً** ﴾ أي في بقية عمري عملاً ﴿ **ترضاه وأدخلني برحمتك** ﴾ أي لا بصالح عملي إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله كما جاء في الحديث الصحيح ﴿ **في عبادك الصالحين** ﴾ أي في زمرة أنبيائك المرسلين ، أو مع عبادك الصالحين . أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك ، وهكذا نجد سليمان يقابل كلّ مظهر من مظاهر الإنعام بالشكر .

فوائـــد :

١ - قال ابن كثير : (ومن قال من المفسرين إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها) .

٢ - استطراداً بمناسبة ذكر النملة قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال : خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ؛ ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قرصت نبياً من الأنبياء نملة فأمر بقرية

النّمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أفي أنْ قرصتك نملة أهلكت أمّة من الأمم تسبّح ؟ فهلّا نملة واحدة ؟) .

٣ – إن من مظاهر كون هذا الدين حقاً أنك تجد كل شيء فيه يعضد الشيء الآخر ، ولا تجد شيئاً ينقض شيئاً ، فمثلاً : إنّك تجد سليمان عليه السلام يقول : ﴿ **وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾ فقرّر بذلك أن دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله ، وهو المعنى الذي أدّب الرسول عليه الصلاة والسلام عليه هذه الأمّة ، وهكذا فإنك تجد نصوص هذا الدين تسير كلها باتجاه واحد ، وهذا لا يمكن أن يكون لولا أن هذا الدين دين الله ، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ .

٤ – إن توسع دائرة الاختصاص في عصرنا ، والتتبّع الدقيق من قبل المختصين لكل جانب من جوانب الكون أعطانا تصوراً واسعاً عن عالم الحيوان ، وطرق تخاطبه ولغاته ، والقوانين السائدة عند كل جنس من أجناسه ، ومن ثم فأن يعرض علينا القرآن من خلال قصة سليمان ما يشير إلى مثل هذه المعاني لدليل على أن هذا القرآن فيه تبيان كل شيء ، وعلى أن منزله هو الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . وسنختار لك بعض النقول عن الطيور والنّمل ترى فيها بعض مظاهر الإعجاز .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء :

(والذين لهم مراقبة للحيوان والطير يجدون أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها . فمواء الهرة المحبوسة غير موائها إذا طلبت السفاد والطعام أو الماء . فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر يفهمه عنها أبناء جنسها ، وقد أخبرني صديقي الشيخ أحمد عمر السكندري : أن أطفالاً ألقوا في بيته حدأة بعد أن عبثوا بها ونهكوا قوتها ، ورضوا بعض عظامها ، فألقاها أولاده فوق السطح ، فكان يصدر عنها صوت خاص كلما رأت الحدأ ، فكن يحمن عليها ، وفي كل يوم يلقين إليها بعض الطعام من عظام بها بعض اللحم ، وأرجل دجاج ونحوه مما يرزقهن الله . وكان أولاده يقدمون لها الماء ، وبعض الأكل إلى أن أبلت وقويت وطارت . وعلى كلٍ فإدراك كل صوت من الطير وما يقصد به لم يكن إلا هبة من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده وقد وهبها سليمان عليه السلام)

ثمّ كتب تعليقاً فقال : نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم الأحد ٤ من

فبراير سنة ١٩٣٧ ما يلي :

لغة الطير :

كشف عالم ألماني - بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل - أثراً لم ينتبه إليه أحد قبله وهو أن الطيور لا تصدح فقط ولكنها تتكلم . ولها على مثال البشر لهجات خاصة .

مثال ذلك : أن الشحرور النمساوي لا يفهم لهجة الشحرور البافاري ، والشحرور الفرنساوي لا يفهم لهجة الشحرور الإنكليزي) ا هـ .

وفي كتاب (دنيا الحشرات) تأليف فرديناند لين ترجمة « أحمد عماد الدين أبو النصر » الذي صدر في سلسلة « كل شيء عن » في عددها السابع : هذا البحث عن النّمل : تحت عنوان : النّمل ذلك الشغّال المدهش :

(يقوم النحل والزنابير بأعمال مدهشة ، ولكن النمل يظهر براعة وذكاء أعظم ، ومن بين الحشرات جميعاً يتشابه النمل معنا في العادات ، فهو يبني المدن ، ويشق الطرق ، ويحفر الأنفاق ، ويخزن الطعام في شئون خاصة به وبعض أنواعه تزرع الحدائق والنباتات أيضاً ، ومن النمل نوع يحتفظ بمواش خاصة به ويرعاها ، ومن المؤسف حقاً أن نقول إن النمل أيضاً يعلن الحرب بين قبائله ، ويأخذ المنتصر أسرى من النمل الضعيف ، وبالاختصار فللنمل مدينة غريبة تخصه . يعيش النمل حياة أطول من النحل ، فبينما تفني شغالة النحل المسكينة نفسها في عمل متواصل لمدة ستة أسابيع قد تعيش شغالة النمل مدة سبعة أعوام ويصل عمر ملكة النحل إلى أربعة أعوام أو خمسة ، بينما تدوم ملكة النمل نحو ثمانية عشر عاماً ، ويتغذى النحل على العسل وخبز النحل ، بينما يأكل النمل كل أنواع الطعام تقريباً . ويظهر النمل على صغر حجمه تمسكاً عجيباً بالحياة ، فقد عاشت نملة تحت الماء نحو ثلاثة أيام ، وظلت غيرها مدة ثمانية أيام بدون هواء تماماً ، وثالثة بقيت حية مدة واحد وأربعين يوماً بعد أن فصل رأسها عن جسدها . وهناك آلاف من أنواع النمل ، منها ما يبلغ طوله بوصة تقريباً ، ومنها ما لا يزيد حجمه على ذرة من تراب ، ويختلف النمل في عاداته تماماً كما يحدث عند الإنسان .

وتعيش أغلب أنواع النمل تحت الأرض ، ولكن النمل « النجار » يقيم مساكنه في الأشجار الميتة أو في أخشاب المنازل القديمة ، ويستعمل « نمل الخشب » أوراق الصنوبر الإبرية في بناية مساكنه التي قد ترتفع بضع أقدام ، ويبلغ عرضها عدة أقدام .

وعندما يحين وقت التجمع تطير الذكور والإناث معاً في سحابة كبيرة ، وكلا الجنسين له أجنحة ، وبعد ذلك يتفرق ويموت أغلبه ، ولكن حيثما يحط منه ذكر وأنثى يبدآن في حفر بيت لهما في التربة ، ولا يعيش الذكر طويلاً بينما يكون أمام الأنثى شهور طويلة من العمل . وبما أن أجنحتها أصبحت عديمة الفائدة فهي تقطعها أو تقرضها بفكوكها ، وتبدأ وضع البيض في جرة لها تحت الأرض ، ومنه تخرج يرقات لا أرجل لها ، وبما أنها لا تملك طعاماً فإنها تغذيها من لعابها نفسه . وعندما يشتد بالأم الجوع تأكل بعضاً من بيضها ذاته . بالرغم من أن المعروف عنها أنها قد تعيش مدة عام تقريباً بدون أكل . وتغزل يرقات النمل شرانق صغيرة تتحول داخلها إلى عذارى ، وأخيراً تقرض طريقها إلى الخارج ، والنمل الجديد يكون كما يحدث في معظم أنواع النحل من صنف الشغالة ، وهو يساعد أمه في حفر حجرات أكبر ويسعى إلى جمع الطعام ، وقد تمر أعوام عديدة قبل أن يكتمل نمو المستعمرة وعندئذ تترك النملة الأم العمل وتستريح ، فلقد أصبحت الآن ملكة حقيقية ، وليس أمامها إلا وضع البيض والتمتع بالغذاء . وقد تنمو ملكة الأنواع الاستوائية حتى تبلغ حجماً يساوى حجم الشغالة مائة مرة ، ولكنها على عكس ملكة النحل – التي تغار من شقيقاتها وتلسعها حتى الموت ، ترحب ملكة النمل بمجيء الملكات الجديدة كي تنمو المستعمرة وتكبر . ويملك النحل كيساً للعسل في بطنه يخزن فيه الرحيق ، وعند النمل كيس مشابه يسمى « المعدة الاشتراكية » لأنه كثيراً ما يشاركها غيرها من النمل في محتويات هذا الكيس .

وللنحل ثلاث طوائف فقط : الملكات والذكور والشغالة ، ولكن النمل له عادة طائفة رابعة وهي العساكر ، وهذا الطائفة تحرس العش ، أو تخرج في غارات على قبائل النمل الأخرى ، جسمها أكبر من جسم الشغالة ، ورؤوسها كبيرة ذات فكوك قوية كالمبرد ، وبعضها له إبرة مثل النحل ، ولكن معظم أنواعها يعضّ ويحتوي لعابها علي حامض الفورميك الذي يسبب الألم في لسعة النحلة ، وفي الحقيقة سمي هذا الحامض عن النملة التي أطلق عليها الرومان اسم « فورميكا » .

وتقوم شغالة النحل بأعمال كثيرة ، ولكن النمل قسّم نفسه إلى طوائف مميزة ، ولقد وصف العلماء أكثر من عشرين صنفاً من الشغالة ، وأغربها تلك الشغالة التي أصبحت بمثابة براميل حية لخزن الرحيق ، وعصارة بعض الأشجار والنباتات ، وهي تمتلىء بهذا السائل الحلو حتى تنتفخ معدتها كالبالون الصغير ، وتتعلق في سقف العش عاماً بعد عام

وتملؤها الشغالة الأخرى بالرحيق الذي يعودون لتذوقه بعد حين ، وربما لا نجد مثل هذه التضحية بالنفس في أي مجتمع آخر .

ويصنع النحل من الشمع دور حضانة لصغاره ، أما النمل فكثيراً مايحمل معه الشرانق التي تحوي صغاره حيثما تنقل ، وتسمى هذه الشرانق خطأً بيض النمل ، ولكنها في الحقيقة عذارى النمل وليست بيضه .

وتقوم النملة الشغالة بتنظيف جسمها داخل العش كما تفعل القطة الصغيرة ، وربما تفعل ذلك عشرين مرة في اليوم الواحد ، وأحياناً تتكور النملة وتنام كما يفعل الكلب ، وعندما تستيقظ تتمطى وتفتح فمها كما لو كانت تتثاءب .

وقد يسكن نوعان مختلفان من النمل أنحاء منفصلة في عش واحد ، ويحتفظ النمل بحشرات صغيرة كثيرة استأنسها ، ولقد وجد نحو ألفي نوع من هذه الحشرات المختلفة داخل مساكن النمل الذي نجح في استئناس العدد الكبير من الحيوانات المختلفة أكثر مما استأنسه الإنسان .

ومع ذلك ليس كل هؤلاء السكان من المرغوب فيهم ، فهناك حفار الغيط الصغير الذي يفضّل مساكن النمل الآمنة التي شقي في حفرها النمل ، وكذلك تغزو بعض الخنافس المتوحشة عشه . بيد أن للنمل أعداء أفظع ، فأنواع كثيرة من الطيور تلتهمه ، وكذلك « السحالي » والضفادع ، ويلتقطه آكل النمل العملاق في جنوب أمريكا بالمئات بواسطة لسانه اللزج ، وبعض القبائل من الأهالي تحب أكل النمل ، ويعتبر نمل « قوارير العسل » من الحلوى النادرة عند هنود المكسيك ، وحتى الأوربيون وجدوا أن طعم النمل المحمر يشبه طعم الجوز المحمص . وأغرب أعداء النمل جميعاً حشرة عجيبة تشبه الرعاش ، وهي غير ضارة مطلقاً في طورها الكامل ، ولكن في طورها اليرقي تكون مخلوقاً متوحشاً يسمى « أسد النمل » ويقل طولها حينئذ عن البوصة ، وأرجلها الست ضعيفة لدرجة أنها تمشي بصعوبة ، وإلى الخلف فقط ، ولها ست عيون ، وليس لها فم ، ولكن فكوكها المتباعدة المزودة بأشواك حادة تجري داخلها قنوات تمتص بها غذاءها ، وتحفر هذه الحشرة حفرة قمعية الشكل في الرمل ، وتدفن نفسها في القاع تاركة فكوكها مكشوفة فقط ، وعند مجيء نملة إلى حافة الحفرة تسقط وتنزلق على الرمل الناعم . وإذا ماحاولت الفرار تسرع « أسد النمل » وترميها بحباب الرمل ، حتى تسقط إلى القاع ، وعندما تصبح في متناول الفكوك تمتص جسمها وتتركه جافاً بعد فترة وجيزة ، ويسميها

الأطفال في الريف doodle bug .

ويعتبر النحل صديقاً لنا ، بينما ينافسنا النمل . وكثيراً مايكون عدوًا لنا ، فهو حقًا يقدم لنا بعض الخدمات ، ففي بعض المناطق الأوربية يشجع النمل على حفر مساكن له حول أشجار الفاكهة حيث يهاجم الحشرات الضارة بها .

ولكنه كثيراً مايضايقنا فهو يفسد المروج وسفوح النجيل الخضراء ، ويضر المحصولات المزروعة ، ويختلط بطعامنا ، وفي المناطق الاستوائية يأتي النمل أعمالاً فظيعة ، ففي وادي نهر الأمازون أصبحت الحياة غير محتملة من جرائه ، فبعض أنواعه تقرض ثوباً من الملابس وتتركه خرقاً بالية في ليلة واحدة ، وينتشر على النباتات هناك نوع يسمى « النمل الناري » وهو مشبع بحامض الفورميك لدرجة أن مجرد الاحتكاك به كلمس النار ، وهناك نملة أخرى كبيرة تقرب من البوصة تسمى « النملة الرهيبة » وقد تسبب عضتها الحمى ، ولهذا فإن عدد سكان ذلك الوادي الخصيب - الذي تقارب مساحته مساحة الولايات المتحدة - أقل من سكان الصحراء الكبرى . ولا غرابة إذن أنهم يطلقون عليه اسم « مملكة النمل » .

بعض أنواع النمل الغريبة :

بين الملايين من النمل الجماعي توجد بعض الأنواع يجدر بنا أن نذكرها وخاصة مايسمى « نمل تكساس الزراعي » .

يقيم هذا النمل هضبة من التراب ارتفاعها عدة أقدام ، ويحفر تحتها حجرات متشعبة ، ويزيل ماحولها من مزروعات تاركاً فقط نبات غذائه الأساسي لينمو حول العش وهو ما يسمى « رز النمل » ويعبِّد طرقاً خارجة من الهضبة تشبه في ذلك عجلة العربة الخشبية ، ولقد وجد ثمانية عشر نوعاً من البذور المختلفة في صوامع النمل تحت الأرض . وتملك أفراد العساكر رؤوساً وفكوكاً ضخمة ، وإذا تخيلنا نملة منها في حجم الإنسان لبلغ حجم رأسها جوال البطاطس ، والمسافة بين فكوكها ست أقدام . وتقرض عساكر النمل البذور بفكوكها كي تمنعها من الإنبات ، وكذلك تقوم بتكسير البذور اللازمة لطعام الشغالة ولهذا سميت « كسارة البندق الحية » .

وإذا ما ترطب الأرز المخزون حملته الشغالة لتجفيفه في الشمس ، وإذا أنبتت البذور

حملت إلى خارج العش حتى تنمو لها جذور ، وهذا سبب الاعتقاد السائد بأن هذه الأنواع تزرع المحاصيل حقيقة .

وعلى أية حال هناك نمل يملك حقًّا الحدائق وهو نمل « السوبا » ويسمى أيضاً « قاطع الأوراق » أو « حامل الشماسي » ، وفي بعض أحراش أمريكا الاستوائية قد ترى قطاراً من ورق الشجر المتحرك ، كل قطعة فيه ما هي إلا جزء من ورقة خضراء تحملها نملة ، وعندما تخزن هذه القطع في حجرات تحت الأرض يسمدها النمل ببراز يرقات فراش معين ، وهناك ينمو عليها نوع من الفطر يسمى « عيش الغراب » وهو يتغذى عليه . وعندما تبدأ ملكة نمل من هذا النوع عشًّا جديداً تحمل معها شيئاً من هذا الفطر داخل تجويف صغير بجسمها . ونحن نزرع « عيش الغراب » في الظل ، ولكن النمل يقوم بهذا قبل أن نتعلم نحن السر في ذلك بمدة طويلة ، وقام النمل بزراعة أنواع مختلفة من الفطر في أنفاق طويلة تحت سطح التربة ، ولقد قاس العالم « بيتس » أحد هذه الأنفاق فوجد طوله نحو مائتين وعشر أقدام .

وأحياناً يسبب نمل الورق هذا أضراراً جسيمة ، لأنه قد يجرد الشجر من أوراقه عندما يسعى للحصول على ما يزرعه في حدائقه ، وهو أيضاً محارب شجاع يدافع عن مساكنه ضد هجمات الأنواع الأخرى المتوحشة .

ويحب النمل الندوة العسلية لدرجة أن « داروين » ذكر أنها غذاؤه المفضل ، وهو يلحسها من على الأوراق وقلف الأشجار ، ولكن هناك حشرات أخرى وخاصة « المن » تتخم نفسها بهذا السائل الحلو ، ولهذا يستخدمها النمل في جمع هذا الرحيق فيجلب النمل بيض المن إلى عشه ، وعندما يفقس يحمله إلى الخارج ويضعه على النباتات التي تفرز الندوة العسلية . وعند حلول الليل يقوده ثانية إلى بيته تماماً كما يفعل الفلاح عندما يعود بأبقاره من المراعي كي يحلبها ، وحينما تمسح النملة ظهر حشرة من المن تفرز هذا السائل الحلو ، ولقد لوحظت حشرة منها وهي تعطي ثماني وأربعين نقطة من الرحيق خلال ٢٤ ساعة ، وربما كانت هذه هي صاحبة الجائزة الأولى بين « أبقار النمل » هذا إلى درجة أن النمل يبني حجرات خاصة لما يحتفظ به من حشرات المن تماماً كما يبني الفلاح حظيرة لأبقاره فلا غرابة أنه يسمى « النمل الحالب » .

وبعض النمل يسيء إلى جيرانه من أنواع النمل الأخرى ، وهو محارب مستميت يقرض أطراف أعدائه من قرون استشعارها وأرجلها حتى الرأس . وقيل إنه من عش واحد لهذا

النمل السارق خرجت ست وأربعون حملة من حملات الغزو خلال شهر واحد ، وحينما يتقابل النمل مع عدو يماثله وحشية تقوم بينهما الحرب ، ولقد استمرت إحدى هذه الحروب أكثر من ستة أسابيع بين جماعتين متنافستين من النمل .

وكذلك يستعبد النمل أنواعاً أخرى ضعيفة ، فهو يسرق شرانقها ، وعندما تفقس تعمل الشغالة الجديدة في خدمة أسيادها . وتعتمد بعض هذه الأنواع المستعبدة على عبيدها كي تغذيها وتقوم على خدمتها .

وأكثر أنواع النمل إرهاباً هو النوع المسير للجيوش ، وهو حقاً من أكلة اللحوم ، وكثيراً ما يشاهد في مناطق أمريكا الاستوائية ، ولكنه يبدو أشد تخريباً في أفريقيا ، وقد يبلغ طابور هذا النمل الغازي عدة بوصات في العرض وطوله ميل تقريباً ، وفيه تحمل الشغالة شرانق الصغار ، وتمشي العساكر في المقدمة ، بينما يقوم أفراد أخرى بحماية جناحي الجيش ، وتعين حراساً للمؤخرة ، ولقد سجّل بعض المراقبين لهذه الجيوش أن بها بعض الأفراد أكبر حجماً تقوم بعمل الضباط ، وإذا ما تحرك الطابور سار في خط مستقيم لا يعوقه شيء غير النار أو الماء ، ويهرع الأهالي في تلك الأماكن في فزع عندما تجوس جيوش النمل خلال أكواخهم ، وتقضي على جميع ما بها من قمل وبراغيث وصراصير . ولقد رأى أحد العلماء الإنجليز طابوراً من النمل يهاجم ثعباناً طوله عدة أقدام ، وبعد دقائق قليلة كان النمل قد مزقه فعلاً إلى قطع صغيرة . وحينما ظهر ما يعوق سير الطابور علم به أفراد النمل الذي يبعد عن هذا العائق بنحو مائة ياردة خلال عشر ثوان ، أما كيف سرت الأنباء بهذه السرعة فالنمل وحده-بعد الله-الذي يعلم .

وأحياناً يتجمّع النمل المحارب في دوائر حول أفراد أكبر حجماً يبدو أن لها أهمية خاصة ، وأحياناً يتجمّع على شكل كرة كبيرة حول جذور أحد الأشجار حيث يبدو كالنائم ، ولكنه عندما يزحف يقال عنه إنه أفظع جيش في العالم ، ومن المؤكد أن جميع الحيوانات الأخرى تفر من أمامه وتخلي له الطريق .

وعلى ذلك سواء كان النمل من النوع البناء ، أو المقيم للحدائق ، أو الحالب للحشرات ، أو من النوع المحارب ، فهو حقاً صانع العجائب .)

٥ - في قول النملة ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بعد قولها ﴿ **لا يحطمنّكم سليمان وجنوده** ﴾ دليل على أن جند سليمان جميعاً كانوا في الذروة من الالتزام السلوكي

المعروف ، حتى عند الحيوان ، وأنهم لا يتجاوزون إطار الحق والعدل والمباح إلى غيره . وهذا درس في السياسة مهم ، فعلى رئيس الدولة أن يضبط جنده بضابط العدل . وهذا لا يتم إلا بفقه وتربية وإلزام وعقاب للمخالف . فليلاحظ هذا الدرس ، وليضع الذين يكرمهم الله بالملك مثل هذا الدرس موضع التطبيق . ولنعد إلى التفسير :

....

﴿ **وتفقّد الطير** ﴾ التفقد : طلب ما غاب عنك ﴿ **فقال مالي لا أرى الهدهد** ﴾ والمعنى : أنّه تعرّف الطير فلم يجد الهدهد فقال مالي لا أراه ، على معنى أنه لا يراه ، وهو حاضر لساتر ستره ، أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل هو غائب ، ومن ثم قال : ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ قال ابن كثير أي : أخطأه بصري من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ ﴿ **لأعذبنّه عذاباً شديداً** ﴾ لم يحدد القرآن نوع العذاب الشديد ، وللمفسرين كلام كثير في تحديده ، ويبدو أنّهم أخذوه استنتاجاً أو تلقيّاً عن أهل الكتاب ، وقد لخّص النّسفي هذه الأقوال بقوله : بنتف ريشه ، وإلقائه في الشمس ، أو بالتفريق بينه وبين إلفه ، أو بإلزامه خدمة أقرانه ، أو بالحبس مع أضداده ، وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الأضداد ، أو بإيداعه القفص ، أو بطرحه بين يدي النمل ليأكله ، وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة . ﴿ **أو لأذبحنّه** ﴾ عقوبة له ﴿ **أو ليأتيني بسلطان مبين** ﴾ أي بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته ، ومعنى كلامه : ليكونن أحد الأمور ، يعني : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ، ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما .

....

فوائــد :

١ – في قوله تعالى : ﴿ **وتفقّد الطير** ﴾ درس من دروس الحكم ؛ إذ دلّ ذلك على أن سليمان كان يعرف الصغيرة والكبيرة من أمر جنده ، وعلى أن أي خلل يخل به أحد من جنده كان يعرفه ويشعر به ويبحث عن سببه .

٢ – وفي قول سليمان ﴿ **لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان**

مبين ﴾ درس آخر من دروس الحكم ، بل دروس ، فالخلل لابد أن يعالج بالعقوبة ، ومن ثم قال : ﴿ **لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه** ﴾ ولكن العذاب أو الذبح بعد إذ لم يكن عذر ومن ثم قال : ﴿ **أو ليأتيني بسلطان مبين** ﴾ وإذن فقبل العقوبة لابد من معرفة سبب الغياب ، وهذا هو الدرس الثاني ، والدرس الثالث : دقة كلام الحاكم وإحاطته واختصاره ، وإظهار الغضب إذا وجد الخلل والتهديد بالعقوبة به بحيث يسمعها الجند .

٣ - قدم ابن كثير للكلام عن الهدهد وتفقد سليمان له بما يلي :

(قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندساً يدلّ سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجانّ ، فحفروا ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقّد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ **فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ حدّث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له : قف يا ابن عباس غُلبت اليوم ، ولم ؟ قال أتخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإنّ الصبي ليضع له الحبّة في الفخ ،ويحثو على الفخ تراباً فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ ، فيصيده الصبي، فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس لما أجبته ، ثم قال له : ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً) .

أقول : إن ذكر هذه الخاصية عند الهدهد شيء ليس فيه نص في كتابنا ، ولا عن رسولنا عليه الصلاة السلام ، وإنما هو كلام كبار المفسرين، ولا نعرف من أين أخذوه ، هل هو استنباط أو تلق عن أهل الكتاب ، وعلى كل حال فليس من المستبعد أن يكون عند بعض المخلوقات مثل هذه الخواص ، ففي عصرنا صار بإمكان بعض الاختصاصيين بعلم الجيولوجيا أن يعرفوا من خلال دراسة التربة احتمالات وجود الماء أو البترول في باطن الأرض ، كما أنّه قد وجدت أجهزة تستطيع أن تستكشف الكثير مما هو في باطن الأرض ، فلا يبعد أن تكون عند بعض المخلوقات مثل هذه الخواص ، ألا ترى أن خاصية الرادار موجودة عند الوطواط .

﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أي مكث الهدهد بعد تفقد سليمان إياه مكثاً غير بعيد أي غير طويل . قال النسفي : (ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان) . أقول : (وفي هذا درس في فن الحكم ، وهو أن يكون للدولة هيبتها) فلما رجع الهدهد سأله سليمان عمّا لقي في غيبته ﴿ **فقال أحطت بما لم تحط به** ﴾ قال ابن كثير : أي اطلعت على مالم تطلع عليه أنت ولا جنودك . وقال النسفي في تفسير قول الهدهد : علمت شيئاً من جميع جهاته . ﴿ **وجئتك من سبإ بنبإ يقين** ﴾ أي بخبر صدق حق يقين . قال ابن كثير : وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن ، ثم تابع الهدهد كلامه ﴿ **إني وجدت امرأة تملكهم** ﴾ قال النسفي : (هي بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس)

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أقوالاً كثيرة للمفسرين في بلقيس وشأنها : (وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **إني وجدت امرأة تملكهم** ﴾ كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل ، وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء ، وهذا القول هو أقرب على أنّه كثير على مملكة اليمن والله أعلم) .

﴿ **وأوتيت من كل شيء** ﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ أي سرير عظيم كبير مزخرف . وللمفسرين والمؤرخين كلام كثير حول السرير ووصفه ، لسنا بحاجة إليه في مثل هذا التفسير . ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل** ﴾ أي عن طريق الحق أي عن سبيل التوحيد ﴿ **فهم لا يهتدون** ﴾ أي إلى الحق ، دلّ ذلك على أنّ الهدهد كان مدركاً لقضية معرفة الله ، ووجوب السجود له ، وحرمة السجود للشمس ، إلهاماً من الله له أو كأثر من وضوح الرؤية عند كل جند سليمان ﴿ **ألّا يسجدوا لله** ﴾ التقدير فصدهم الشيطان لئلا يسجدوا لله وفي الآية قراءات أخرى وتأويلات أخرى سنراها في الفوائد ﴿ **الذي يخرج الخبء** ﴾ أي المخبوء ﴿ **في السموٰت والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ فهو رب العرش الذي لا يوجد أعظم منه . قال ابن كثير عن العرش : ليس في المخلوقات أعظم منه : قال النسفي : وصف الهدهد عرش الله

بالعظيم تعظيماً له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك وبهذا انتهى كلام الهدهد لسليمان وقبل أن نرى جواب سليمان عليه السلام فلنذكر بعض الفوائد :

فوائد :

١ - قلنا إن في قوله تعالى : ﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ أكثر من قراءة وأكثر من تأويل . وقد لخّص النّسفي ذلك بقوله :

﴿ **ألَّا يسجدوا** ﴾ بالتشديد أي فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع أن وأدغمت النون في اللام ، ويجوز أن تكون لا مزيدة ، ويكون المعني : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ، وبالتخفيف يزيد وعلي إماما من أئمة القراءات . وتقديره : ألا يا هؤلاء اسجدو ، فألا للتنبيه ، ويا حرف نداء ، ومناداه محذوف ، فمن شدد لم يقف إلا على (**العرش العظيم**) ومن خفف وقف على : (**فهم لا يهتدون**) ثم ابتدأ (**ألا يسجدوا**) أو وقف على [**ألا**] ابتدأ [**اسجدوا**] . وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجّاج : إنه لا يجب السجود مع التشديد لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح للآتي بها ، أو ذم لتاركها . وإحدى القراءتين أمر ، والأخرى ذم للتارك .

٢ - بمناسبة كلام الهدهد لسليمان . قال ابن كثير : ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحدة ، والسجود له نهي عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « نهى النبي ﷺ عن أربع من الدواب . النملة والنّحلة والهدهد والصرد » . وإسناده صحيح . والصرد : طير ضخم : الرأس أبيض البطن أصفر الظهر يصطاد صغار الطير .

٣ - نلاحظ من فعل الهدهد وكلامه شدة إخلاصه لنظام الدولة ، وشدة إخلاصه لسليمان ، وحرصه على خدمة النظام ، ومحاربته لأعدائه ، وذلك أثر عن معرفة كلّ جندي من جند سليمان واجبه وقيامه به . وهكذا تكون الدولة النموذجية أن يقوم كل فرد فيها بخدمتها ، بحيث يكون المردود العام هو حصيلة جميع مجهود الأمة .

....

﴿ **قال** ﴾ أي سليمان ﴿ **سننظر أصدقت** ﴾ أي في إخبارك هذا ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ أي في مقالتك ، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ، وفي ذلك درس جديد من دروس الحكم ؛ أن يتثبت الحاكم من كل خبر يلقى إليه ، سواء كان عن أوضاع خارجية أو داخلية . ثم قال سليمان للهدهد : ﴿ **اذهب بكتابي هذا** ﴾ دلّ على أنّ سليمان قد كتب كتاباً سنعرف صيغته فيما بعد ﴿ **فألقه إليهم** ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ **ثم تولّ عنهم** ﴾ أي ثم تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه منك مسموعاً ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أي فانظر ما الذي يردّونه من الجواب ، وفي ذلك درس آخر من دروس الحكم ، وهو أن تكون التعليمات واضحة للمكلّف بمهمة ، وأن تكون تصرفات العدوّ الخارجي معروفة من قبل الحاكم المسلم دون أن يشعر العدو ﴿ **قالت** ﴾ لقومها بعد إذ قام الهدهد بمهمته ﴿ **يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم** ﴾ أي حسن مضمونه وما فيه ، أو مختوم ، أو لأنّه من عند ملك كريم ، ثم بيّنت مضمون الكتاب ، واسم مرسله فقالت : ﴿ **إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي** ﴾ أي لا تترفّعوا عليّ ولا تتكبروا ﴿ **وأتوني مسلمين** ﴾ أي مؤمنين أو منقادين . ومن معرفتنا لمضمون الكتاب ندرك أدباً من آداب الحكم وهو الاختصار في المراسلات الخارجية ، مع الوضوح ، ومن تلقي بلقيس الكتاب بمثل هذا الأدب ، ندرك أننا أمام ملكة عاقلة ، ومملكة عريقة ، إذ لا يتأتى مثل هذا الأدب السياسي إلا باجتماع هذين ، ومن فحوى رسالة سليمان عليه السلام ندرك أن الحاكم المسلم عليه أن يخضع من يستطيع إخضاعه لسلطان الله ، كما ندرك من كلام الهدهد السابق ، ومن تصرّف سليمان ، أنّ ملك سليمان ونفوذه امتدّ خارج حدود فلسطين امتداداً واسعاً ﴿ **قالت يا أيها الملأ** ﴾ الملأ: هم أشراف القوم وأولوا الرأي فيهم ﴿ **أفتوني في أمري** ﴾ أي أشيروا عليّ في الأمر الذي نزل بي ﴿ **ما كنت قاطعة أمراً** ﴾ أي ما كنت فاصلة أو مقررة حكماً ﴿ **حتى تشهدون** ﴾ أي حتى تحضروني ، أو حتى تشيروا عليّ ، أو حتى تشهدوا أنّه صواب ، أي لا أبتّ الأمر إلّا بمحضركم ، وهذا يدلّ على أنّها جمعت أولي الرأي من قومها بعد وصول الرسالة ، كما يدلّ على عراقة المملكة ، إذ لها مجلس شوراها ، ومن كلام بلقيس ندرك أنها تعتبر شوراهم ملزمة لها ، وذلك دليل كذلك على تعقّلها في الأمور ﴿ **قالوا** ﴾ مجيبين لها ﴿ **نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات ، وبالبأس النّجدة والبلاء في الحرب ﴿ **والأمر إليك** ﴾ أي موكول إليك ، ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك ، نطعك ولا

نخالفك ، كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة ، وأنت ذات الرأي والتدبير ﴿ **فانظري ماذا تأمرين** ﴾ أي فانظري ماذا ترين نتبع رأيك ، وهذا يدلّ عل أنهم كانوا واثقين من رأيها ، كما يدل على أنّ وضع المملكة كان وضعاً مستقراً ، فماذا كان جوابها ورأيها ؟ ﴿ **قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية** ﴾ أي عنوة وقهراً ﴿ **أفسدوها** ﴾ أي خرّبوها ﴿ **وجعلوا أعزّة أهلها أذلة** ﴾ أي أذلوا أعزتها ، وأهانوا أشرافها ، وقتلوا وأسروا ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ هل هذه الكلمة تصديق من الله لها فيكون هذا الكلام ليس لها ؟ أو هو تتمة كلامها بمعنى : وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغيّر لأنّها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت ؟ قولان للمفسرين . ولم يذكر ابن كثير إلا الأوّل ، ورجّح النّسفي الثاني ، ومن كلامها هذا يبدو أنها عازفة عن الحرب ، ومُخطّئة لطريقه ثم قالت : ﴿ **وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ أي بقبولها أم بردها .

فوائـــد :

١ – من المعلوم أن الرسول ﷺ قال : « ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » . وهذا يفيد أن السياسة العليا للدولة إذا أصبحت بيد المرأة فإنّ قراراتها لابد أن يكون فيها خلل تسري آثاره على الأمة ، وما من مرّة في تاريخ هذا العالم حكمت فيه امرأة ، ولو كانت أدهى النساء وأحزمهن ، إلا تبيّنت بعد فترة ، بعض الآثار السيئة لحكمهنّ ، حتى فيكتوريا ملكة بريطانيا ، وحتى كاترين ملكة روسيا ، وهذه غولدا مائير وهذه أنديرا غاندي ، وهذه باندارانيكا ، والثلاث الأخيرات حكمن ، وكل منهن سقطت وسقط معها حزبها ، وقد عادت أنديرا إلى الحكم ، ولكن وضع الهند متفجر والمستقبل كاشف ، وفي قصة بلقيس مشاهد :

لا شك أن فكرة الهدية فكرة سياسية رائعة ، إذ من خلالها تستطيع بلقيس أن تتعرّف بواسطة رسلها على وضع سليمان وقوته . إذ بحجّة الهديّة يستطيعون أن يتجسسوا ويتحسسوا ، كما أن للهدية العظيمة أثراً في تليين نفوس الملوك ، فهي رشوة قد تفعل فعلها ، ومن ثم قال قتادة رحمه الله : « ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ؛ علمت أن الهدية تقع موقعاً من النّاس » ولكننا نلاحظ في الوقت نفسه أن قومها وقد أعلنوا استعدادهم للقتال ، مع تفويض أمرهم إليها ، لم تأمرهم بالإعداد ، ولا بالاستعداد ، بل ثبّطت هممهم بقولها ﴿ **إنّ الملوك إذا دخلوا قرية ...** ﴾ ومن ثمّ فإنها لم تتخذ مجموعة

القرارات الضرورية للموقف ، وقد علّق الحسن البصري على تفويض قومها لها ، وذمّ حلّها فقال : « فوّضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها » . ونحن لا نقول هذا الكلام رغبة منا في أن يكون موقفها أحزم تجاه نبي فهذا كفر ، وإنّما لنثبت أنّ المرأة مهما كانت عاقلة فتركيبها النّفسي لا يؤهلها لاتخاذ القرارات العليا في سياسة الدولة .

٢ - بمناسبة الكلام عن رسالة سليمان إلى بلقيس قال ابن كثير : (وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنّه حصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . قال العلماء : لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام ، وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره عن ابن بريدة عن أبيه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال : « إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود » ، قلت يا نبي الله أيّ آية ؟ قال : « سأعلّمكها قبل أن أخرج من المسجد » قال فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه فقلت نسي ثم التفت إليّ وقال : ﴿ **إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ هذا حديث غريب وإسناده ضعيف . وقال ميمون بن مهران : كان رسول الله ﷺ يكتب باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية . فكتب ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ .

٣ - قال ابن عباس وغير واحد : إن بلقيس قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبيّ فاتبعوه وليس في سياق القصة ما يشير إلى هذا والله أعلم .

....

﴿ **فلما جاء** ﴾ رسولها بمن معه ﴿ **سليمان** ﴾ دلّ ذلك على أنها نفّذت اقتراحها وأرسلت ﴿ **قال** ﴾ سليمان منكراً عليهم ﴿ **أتمدونن بمال** ﴾ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟ ﴿ **فما آتاني الله خير مما آتاكم** ﴾ أي الذي أعطاني الله من النبوة والملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ **بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ قال ابن كثير : (أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتّحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف) . وقال النسفي في الآية : (والمعني : أن ما عندي خير مما عندكم ، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر ، والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا مالا يستزاد عليه فكيف - يرضى مثلي بأن يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى إليكم ، لأن ذلك مبلغ همتكم ، وحالي

خلاف حالكم وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية) .

﴿ **ارجع إليهم** ﴾ أي ائت بلقيس وقومها والخطاب للرسول ، أو للهدهد محملاً كتاباً آخر إليهم ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أي لا طاقة لهم بها ﴿ **ولنخرجنّهم منها** ﴾ أي من بلادهم سبإ ﴿ **أذلة وهم صاغرون** ﴾ أي مهانون مدحورون . قال النسفي : (الذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك . والصّغار : أن يقعوا في أسر واستعباد) عندئذ قررّت بلقيس الاستسلام .

فوائـــد :

١ – يذكر المفَسرون كلاماً كثيراً حول الهدية ونوعها ، واختبارات جعلتها فيها بلقيس ، وقد ذكرها ابن كثير ، ثم علّق عليها بقوله : (وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أنّ سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه) .

٢ – إن رفض سليمان الهدية سببه ــ والله أعلم ــ أنها رشوة ، وأنه أراد إعلامهم أنه ليس طالب دنيا ، وإنما هو طالب نصرة دين .

٣ – نلاحظ أن سليمان قد ركّز على نقطة الضّعف التي أظهرتها بلقيس ، وهي خوفها أن يجعل أعزّة قومها أذلّة . ومن ثم قال : ﴿ **ولنخرجنّهم منها أذلّة وهم صاغرون** ﴾ وكان في ذلك استسلامها ، ومن ثم ندرك أهمية المعرفة الكاملة للخصم ، وتأثير ذلك على إحراز النصر .

....

من السياق ندرك أن بلقيس استسلمت وسارت لتقديم الولاء وإعلان الاستسلام وقبل وصولها قال سليمان : ﴿ **قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين** ﴾ أي مستسلمين . قال النسفي : (أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظم قدرة الله تعالى ، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان ، أو أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها ، وهذا بعيد عند أهل التحقيق ، أو أراد أن يؤتى به فينكّر ويغيرّ ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها .

﴿ **قال عفريت من الجن** ﴾ قال مجاهد : أي مارد من الجنّ ﴿ **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ أي من مجلس حكمك وقضائك ﴿ **وإنّي عليه** ﴾ أي على حمله والإتيان به ﴿ **لقوي أمين** ﴾ أي لقوي على حمله ، أمين على ما فيه . قال ابن كثير : (فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من ذلك) من هذا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير ، إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخّر له من الجنود ، وهو شيء لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوّته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، مع أنّها قد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿ **قال الذي عنده علم من الكتاب** ﴾ أكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا . قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخاء ، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم ، وقال قتادة : وكان مؤمناً من الإنس واسمه آصف . والكتاب هو التوراة . ويبدو أنه كان يعرف الكثير من أسراره ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك** ﴾ أي ارفع بصرك ، وانظر مدى بصرك ممّا تقدر عليه ، فإنّك لا يكلّ بصرك إلّا والعرش حاضر عندك ﴿ **فلما رآه** ﴾ أي العرش ﴿ **مستقراً عنده** ﴾ أي ثابتاً لديه غير مضطرب ﴿ **قال هذا** ﴾ أي حصول مرادي وهو حضور العرش في مدة ارتداد الطرف ﴿ **من فضل ربي** ﴾ عليّ وإحسانه إليّ بلا استحقاق مني ، بل هو فضل خال من العوض صاف من الغرض ﴿ **ليبلوني** ﴾ أي يمتحنني ﴿ **أأشكر** ﴾ إنعامه ﴿ **أم أكفر** ﴾ فلا أشكر ، ثم قرّر ﴿ **ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه** ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب ، ويصونها عن سمة الكفران ، ويستجلب به المزيد وتربط به النّعمة . فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة ﴿ **ومن كفر** ﴾ بترك الشكر على النّعمة ﴿ **فإن ربي غني** ﴾ عن الشكر ﴿ **كريم** ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمه ، وهكذا نلاحظ أنّ سليمان يجدّد لله شكراً كلما أحدث الله له نعمة ﴿ **قال نكّروا لها عرشها** ﴾ أي غيّروا بعض صفاته ﴿ **ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون** ﴾ أي أتهتدي إلى معرفة عرشها ، أو أتهتدي للجواب الصواب إذا سئلت عنه أم أنها لا تهتدي إلى ذلك ، ويبدو أن سليمان عليه السلام أراد أن يختبر عقلها من ناحية ، وأن يضعها في وضع نفسي يصل به إلى إسلامها ﴿ **فلما جاءت** ﴾ أي بلقيس ﴿ **قيل أهكذا عرشك** ﴾ قال النسفي : لم يقل هذا عرشك ، ولكن أمثل هذا عرشك ، لئلا يكون تلقيناً قال ابن كثير : (فكان فيها ثبات وعقل ولها لبّ ودهاء وحزم ، فلم

ويتفاخروا بالكفر وأنظمته .

٤ - نلاحظ في كتب العهد القديم في سفر الملوك الأول ، في الإصحاح التاسع ، إشارة إلى بلقيس ، ومجيئها إلى سليمان ، واعترافها له بالحكمة ، وإقرارها بصحة دينه ، وتقديمها الهدايا الكثيرة له ، وليس في ذلك شيء من التفصيلات المذكورة في القرآن ، ورواية العهد القديم ظاهرة الابتسار ، ومردودة السياق ؛ إذ إنها تذكر أن سبب مجيء بلقيس هو مجرد الرغبة في أن تسمع حكمة سليمان . فأي كلام مثل هذا ؟! أتأتي ملكة من اليمن إلي فلسطين دون مقدّمات ، لمجرّد أنّها سمعت بحكمة سليمان ، فجاءت تختبره ، إنّ التفصيل القرآني الذي يظهر فيه سمت الأنبياء ، وتظهر فيه معجزاتهم ، وتظهر فيه طريقتهم ، إن هذا وحده آية من آيات الله على أن هذا القرآن من عند الله .

كلمة في السياق :

قلنا إن سورة النّمل تتألف من مقطعين ، وكل مقطع يتألف من مجموعات ، وأن المجموعة الأولى من المقطع الأول هي مقدمة السورة ، وهي تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ ثم تأتي بعد ذلك في المقطع الأول أربع مجموعات : مجموعة تتحدث عن موسى عليه السلام ، ومجموعة تتحدث عن داود وسليمان عليهما السلام ، ومجموعة تتحدث عن صالح عليه السلام ، ومجموعة تتحدث عن لوط عليه السلام . وفي كل من المجموعات الأربع يوجد رسول تلقّى عن الله ، وفي كل مجموعة تجد مظاهر من حكمة الله وعلمه ، وفي كل مجموعة تجد نموذجاً لرسالة من رسالات الله وكلاماً عن المرسلين ، وفي كل مجموعة تجد آية من آيات الله وذلك كله يفصّل قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين** ﴾ ففي كل مجموعة تجد آيات من آيات الله يتلوها على محمد ﷺ مؤكّدة رسالته ، وقد مرت معنا المقدمة ومجموعتان ، والآن تأتي المجموعتان الأخيرتان من المقطع الأول فلنرهما :

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة من المقطع الأول
وفيها قصة صالح عليه السلام

وتمتد من الآية (٤٥) إلى نهاية الآية (٥٣) وهذه هي :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم** ﴾ في النسب ﴿ **صالحاً** ﴾ كما أرسل داود وسليمان وموسى ، وكما أرسل محمداً ﷺ ﴿ **أن** ﴾ أي بأن ﴿ **اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ أي فإذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق

الحق معي ﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أي بالعذاب الذي توعدون إذا لم تتوبوا ؟ ﴿ **لولا تستغفرون الله** ﴾ أي هلّا تطلبون المغفرة من ربكم بأن تتوبوا وتؤمنوا قبل نزول العذاب بكم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ بالإجابة . والمعنى : لِم تَدْعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ﴿ **قالوا اطيّرنا بك وبمن معك** ﴾ أي قالوا تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين . أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتّبعك خيراً ، وذلك لأنّهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قِبَل صالح وأصحابه . ﴿ **قال طائركم عند الله** ﴾ أي سببكم الذي - يجيء منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، أو عملكم مكتوب عند الله ، فإنما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة . قال النسفي : (وأصله أن المسافر إذا مَرّ بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيامن ، وإذا مَرّ بارحاً تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته ، أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة) .

والمعنى باختصار : أي الله يجازيكم على ذلك ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ أي تُختبرون أو تعذّبون بذنوبكم . قال ابن كثير : قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله ﴿ **تفتنون** ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال ﴿ **وكان في المدينة** ﴾ أي في مدينة ثمود وهي الحجر ﴿ **تسعة رهط** ﴾ أي تسعة نفر ، والرهط جمع لا واحد له ، ولذا جاز تمييز التسعة به ، فكأنه قال تسعة أنفس ، والرهط في الأصل من الثلاثة إلى العشرة ﴿ **يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ يعني أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يختلط بشيء من الصّلاح . فإذا كان بعض المفسدين قد يبدر منه بعض الصلاح فهؤلاء لا صلاح عندهم . وعن الحسن في تفسيرها : أي يظلمون الناس ولايمنعون الظالمين من الظلم . وعن ابن عطاء : يتّبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم . قال ابن كثير : وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . ﴿ **قالوا تقاسموا بالله** ﴾ أي تحالفوا وتعاهدوا وتبايعوا ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ أي لنقتلنّه بياتاً أي ليلاً ، هو وأهله أي ولده وتبعه ﴿ **ثم لنقولنّ لوليه** ﴾ أي ثم لنقولن لوليّ دمه أي لعشيرته إذا طالبت بدمه ﴿ **ما شهدنا مهلك أهله** ﴾ أي إهلاكهم أو مكان الإهلاك . أي لم نتعرض لأهله فكيف تعرضنا له ؟ أو ما حضرنا موضع هلاكه فكيف نكون نحن الذين أهلكناه ؟ ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أي فيما ذكرنا ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون** ﴾ بمكر الله ، مكرهم ما

أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ أي فكان عاقبة مكرهم الدمار بالصيحة ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية** ﴾ أي خالية ولازالت كذلك ﴿ **بما ظلموا** ﴾ أي بسبب ظلمهم ﴿ **إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون** ﴾ أما الجاهلون فلا يعرفون ولا يتّعظون ﴿ **وأنجينا الذين آمنوا** ﴾ بصالح ﴿ **وكانوا يتقون** ﴾ عصيانَ أوامر الله .

نقل :

بمناسبة قول قوم صالح لصالح ﴿ **قالوا اطّيرنا بك** ﴾ قال صاحب الظلال :

(والتطير : التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منه إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا همَّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطارداً .فإن مرّ سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر ، وإن مرَّ بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ؟. وما تدري الطير الغيب ، وما تنبيء حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول . ولكن النفس البشرية لاتستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لاتعرفه وما لاتقدر عليه . فإذا لم تكل المجهول المغيّب إلى الإيمان بعلّام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لاتقف عند حد ، ولاتخضع لعقل ، ولاتنتهي إلى اطمئنان ويقين .

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه ، لأنهم ـــ بزعمهم – قد انتهوا إلى حد من العلم لايليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين ـــ هؤلاء الذين لايؤمنون بالله ولابدينه ولابغيبه .. نراهم يعلّقون أهمية ضخمة على رقم ١٣ ، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة . ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة . وهي جوعتها إلى الإيمان ، وعدم استغنائها عنه ، وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان ، وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام ، لأنه أكبر من الطاقة البشرية ، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان ، زائد على مطالب خلافته في الأرض ، التي زُوّد على قدرها بالمواهب والطاقات) .

فوائـــد :

١ - يذكر بعض المفسرين أسماء التسعة الذين شاركوا في عقر الناقة . ويذكرون اسم الذي باشر ذلك منهم ، فيسمونه قدار بن سالف وليس في ذكر ذلك كبير فائدة والله أعلم بمصدر ذلك .

٢- وصف الله عز وجل التسعة رهط بأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون وقد رأينا تفسير ذلك ، إلا أن بعضهم ذكر نوعاً من الإفساد استحقوا به ذلك الوصف قال ابن كثير : (روى عبد الرزاق عن عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم يعني : أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدّاً كما كان العرب يتعاملون . وروى الإمام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض . وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس .)

٣-بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** ﴾ قال ابن كثير : (أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام . فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين ، وقال قتادة : تواثقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم ، قال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة ، قالوا حين عقروها لنبيّتن صالحاً وأهله فنقتله ، ثم نقول لأولياء صالح : ماشهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به من علم فدمّرهم الله أجمعين . وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة هلمّ فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً عجّلناه قبلنا وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم همّوا به فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لاتقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ماتريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن قصة موسى انتهت بقوله تعالى : ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ ونلاحظ أن قصة صالح كان في أواخرها ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ لاحظ كيف أن الخطاب توجه إلى رسول الله ﷺ في كلتا المرتين ، ولاحظ أنه قد جاء قبل قصة موسى الآية ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ وهي خطاب مباشر لرسول الله ﷺ ، ولاحظ أن آية المحور كانت خطاباً مباشراً لرسول الله ﷺ ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فالسورة سائرة على سنن مطرد في تفصيل محورها مع تكامل سياقها ، ونلاحظ أن قصة صالح كان أواخرها قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية لقوم يعلمون** ﴾ مما يدل على أن السورة تذكر في كل قصة من القصص آية من آيات الله التي يتلوها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة من المقطع الأول
وفيها قصة لوط عليه السلام

وتمتد من الآية (٥٤) إلى نهاية الآية (٥٨) وهذه هي :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

التفسير :

﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه** ﴾ قال النسفي : أي واذكر وقت قول لوط ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أي إتيان الذكور دون الإناث ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها ، أو يرى ذلك بعضهم من بعض ، لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها ، لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكاً في المعصية ، أو وأنتم تبصرون آثار العصاة قبلكم ، وما نزل بهم ، أو وأنتم لكم بصر ونظر وعقل تستطيعون به إدراك فظاعتها وبشاعتها ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ أي للشهوة ﴿ **من دون النساء** ﴾ أي أن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ، ولم يخلق الذكر للذكر ، ولا الأنثى للأنثى ، ففعلكم مضادة لله في حكمه وحكمته ﴿ **بل أنتم قوم تجهلون** ﴾ أي لا تعرفون شيئاً لاطبعاً ولاشرعاً . أو المعنى : تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك ، أو أريد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ، أو أريد جهلهم بحكمة الله في التحريم **إذ لو استغنى** الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، لفني البشر ﴿ **فما كان جواب قومه**

إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط ﴾ أي لوط ومتّبعيه ﴿ **من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ أي يتنزهون عن القاذورات ، فانظر ما أوقحهم ، يعرفون أن ما عليه لوط وآله طهارة ، ويعتبرونها ذنباً يستحق النفي ﴿ **فأنجيناه** ﴾ أي قدرنا فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم ﴿ **وأهله إلا امرأته قدرناها** ﴾ أي قدرنا كونها ﴿ **من الغابرين** ﴾ أي من الهالكين مع قومها . قال ابن كثير : (لأنها كانت رِدْءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها) ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً** ﴾ أي حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ﴿ **فساء مطر المنذَرين** ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه ، وهموا بإخراجه من بينهم . وبهذا انتهى المقطع الأول .

كلمة في سياق المقطع الأول :

جاء المقطع الأول مؤلفاً من خمس مجموعات : مقدمة وأربع قصص مرتبطة بالمقدمة من حيث إنه يظهر في القصص آثار علم الله وحكمته في موضوع الإلقاء إلى الرسل ، والأخذ بيدهم ، وكل ذلك في صيغة دروس تلقى لمحمد عليه الصلاة واالسلام ، وكان في المقدمة بيان لصفات المستفيدين من هذا القرآن الذى هوآيات الله المتلوّة والمنزلة والملقاة على رسول الله ﷺ ، وإذ تحدث السياق في المقطع الأول عن رسل الله المصطفين في معرض إلقاء القرآن على محمد ﷺ فإننا نلاحظ أن المقطع الثاني يبدأ بتوجيه أمر مباشر لرسول الله ﷺ أن يقول : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . فالحمد لله على إلقائه القرآن وسلام على المرسلين الذين قصّ الله علينا في السورة نماذج عنهم . ثم تبدأ المجموعة الأولى من المقطع الثاني تعرفنا على الله منزل القرآن ، والمصطفي من عباده من شاء ، فلنر المقطع الثاني ثم نفسره متحدثين خلال ذلك عن السياق .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (٩٣) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾

لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ
سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ
وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا

أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الآية الأولى في المقطع هي : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ...** ﴾ وأن الآية الأخيرة في المقطع والسورة هي : ﴿**وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ الآية الأولى مبدوءة بـ (قل) والأخيرة

بـ (وقل) فكأنها معطوفة عليها ، ومضمون القول في الأولى : ﴿ **الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ فالحمد جزء منه ، ومضمون القول في الثانية : ﴿ **الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها** .. ﴾ فالحمد جزء منه . الأولى فيها ذكر المرسلين ، والثانية فيها ذكر الآيات . وهذا يدلنا على ما يلي :

١ - على وحدة المقطع بدليل وحدة المبدأ والختام .
٢ - وأن المقطع يبني على المقدمة والمقطع الأول في موضوع الآيات والمرسلين .
٣ - وأن المقطع والسورة يفصّلان المحور الذي ذكرناه ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .
٤ - وأن المقطع الثاني يحدّد ما ينبغي ذكره وتذكّره ، نتيجة لما ورد في المقطع الأول . فلنعرض المقطع الثاني على مجموعات ، لنرى تتمة السورة ، وصلة مقطعها الأول بالثاني والعكس ، ومحلّ ذلك كله في السياق العام .

١ - المجموعة الأولـى

التفسير :

﴿ **قل الحمد لله** ﴾ على نعمة إنعامه هذا القرآن ، وعلى إفاضته على عباده النعم التي لا تعدّ ولا تحصى ، وعلى ما أتصف به من الصّفات العلى والأسماء الحسنى ﴿ **وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ أي الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام . قال ابن كثير : (والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبّعه بعد ذكره لهم ما فعله بأوليائه من النّجاة والنّصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلّموا على عباده المصطفين الأخيار) وقال النسفي : (أمر رسوله محمداً ﷺ بتحميده ، ثم بالصلاة على المصطفين من عباده ، توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته ، وقدرته على كل شيء وهو تعليم لكل متكلّم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما) ..

كلمـة في السياق :

نلاحظ أن ابن كثير ذكر محل آية ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ بالنسبة لما قبلها ، وأن النسفي ذكر محلها بالنسبة لما بعدها ، وبالجمع بين

القولين ندرك أن الآية جسر بين ما قبلها وما بعدها ، فما بعدها حديث عن الله واليوم الآخر ، وما قبلها حديث عن الدعاة لله واليوم الآخر ، وهم المرسلون ولنسر قليلاً :

﴿ **ءآلله خير أمّا يشركون** ﴾ قال ابن كثير (في هذا النص : استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى) . وقال النسفي : (ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء وإنما هو إلزام لهم ، وتهكّم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره ، من زيادة خير ، ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ، ولكن هوىً وعبثاً ، لينبهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط ، وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : « بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم) .

قال ابن كثير : ثم شرع تعالى يبين أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال : ﴿ **أمّن خلق السموٰات والأرض** ﴾ أي على هذه الحكمة والإحكام ﴿ **وأنزل لكم من السماء** ﴾ أي السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **فأنبتنا به** ﴾ بالماء ﴿ **حدائق** ﴾ أي بساتين ﴿ **ذات بهجة** ﴾ أي ذات حسن لأن الناظر يبتهج به ﴿ **ما كان لكم أن تنبتوا شجرها** ﴾ أراد أن تأتّي إنبات الأصناف والألوان والطعوم والأشكال مع الحسن بماء واحد ، وبمثل هذا الإتقان والإحكام محال من غيره ﴿ **أءِله مع الله** ﴾ أي أغيره يقرن به ويجعل شريكاً !؟ ﴿ **بل هم قوم يعدلون** ﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً ﴿ **أمّن جعل الأرض قراراً** ﴾ أي لا تميد ولا تضطرب ، إذ لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، وليس في الآية ما ينفي الدوران ولا الميدان الجزئي الذي يحدث لقطعة من الأرض حال الزلزال ﴿ **وجعل خلالها أنهاراً** ﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها في خلالها ، وصرّفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار ، وبين ذلك ، وسيّرها شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم ، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ، وسخّر لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿ **وجعل لها** ﴾ أي للأرض ﴿ **رواسي** ﴾ أي جبالاً تمنعها من الميدان والاضطراب ﴿ **وجعل بين البحرين** ﴾ العذب والمالح ﴿ **حاجزاً** ﴾ أي مانعاً يمنعهما من الاختلاط . قال ابن كثير : لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا . فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس .

والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى ﴿ **وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً** ﴾ ﴿ **أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ التوحيد فلا يؤمنون ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه** ﴾ المضطر : الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجوء إلى الله ، والتضرّع إليه ، أو المذنب إذا استغفر ، أو المظلوم إذا دعا ، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد ، وهو منه على خطر ﴿ **ويكشف السوء** ﴾ أي الضرّ أو الجور . قال ابن كثير : أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ أي خلفاء فيها أي يخلف قرناً لقرن قبلهم خلفاً لسلف . قال النسفي : وذلك توارثهم سكناها ، والتصرّف فيها ، قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط ﴿ **أءله مع الله قليلاً ما تذكّرون** ﴾ أي تتذكرون تذكراً قليلاً . قال ابن كثير : أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم ﴿ **أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر** ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية بالنجوم وبالعلامات الكثيرة في الليّل والنهار ﴿ **ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته** ﴾ أي قدام المطر ﴿ **أءله مع الله تعالى الله عمّا يشركون** ﴾ فإنه أعظم من أن يشرك به المشركون ﴿ **أمّن يبدأ الخلق** ﴾ أي ينشؤه ﴿ **ثم يعيده** ﴾ قال النسفي : وإنما قيل لهم ﴿ **ثم يعيده** ﴾ وهم منكرون للإعادة لأنّه أُزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿ **ومن يرزقكم من السماء** ﴾ قال النسفي : المطر ﴿ **والأرض** ﴾ قال النسفي النبات ﴿ **أءله مع الله قل هاتوا برهانكم** ﴾ أي حجتكم على إشراككم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر ، وبهذا انتهت المجموعة الأولى .

....

نقــل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكّرون** ﴾ قال صاحب الظلال : (فالمضطر

في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهاوى الأسناد ؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعدّه لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ؛ وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكّر له أو تولى .. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلي الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء . فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق .

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرهم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم ، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدائق البهيجة ، وجعل الأرض قراراً ، والجبال رواسي ، وإجراء الأنهار ، والحاجز بين البحرين . فالتجاء المضطر إلى الله ، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء .

ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم : ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ .. فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولاً . ثم جعلهم قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، يخلف بعضهم بعضاً في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء ؟

أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض ، وزوّدهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها ، وتعدّهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . النواميس التي تجعل الأرض لهم قراراً ؛ والتي تنظم الكون كله متناسقاً بعضه مع بعض بحيث تتهيأ للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه

لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلاً .

وأخيراً أليس هو الله الذي قدّر الموت والحياة ؛ واستخلف جيلاً بعد جيل ؛ ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم وبالآخرين ؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا في عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخّم التصادم والاعتراض ! ولتعطّل موكب الحياة المندفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الآفاق . فمن الذي حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟ ﴿ **أإله مع الله ؟** ﴾ ..

إنهم لينسون ويغفلون . وهذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس ، مشهودة في واقع الحياة : ﴿ **قليلاً ما تذكَّرون** ﴾ ! ولو تذكر الإنسان وتدبّر مثل هذه الحقائق لبقي موصولاً بالله صلة الفطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحداً).

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه قد ورد في الآية الأولى من هذه المجموعة قوله تعالى ﴿ **ءآلله خير أما يشركون** ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ ومن محض العقل ، ومن السياق نعرف الجواب : أن الله خير ، بدليل ما قبل الآية مما يفعل الله لرسله وأوليائه بينما لا تنفع الآلهة المزعومة أصحابها ، وبدليل ما ذكر في بقية المجموعة من كون الله خالقاً ومنعماً ومجيباً وهادياً ومبدئاً ومعيداً ورازقاً ، وغيره لا يخلق ولا ينعم ولا يجيب ولا يهدي ولا يبدىء ولا يعيد ولا يرزق . وهكذا نجد الآية الأولى في المجموعة جسراً بين ما قبلها وما بعدها ، ويلاحظ أنه حيث ورد قوله تعالى : ﴿ **أإله مع الله** ﴾ يكون التقدير : أإله مع الله يُعبد ، أو أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا يدل على أنّ المجموعة كلها مسوقة لتوكيد التوحيد الذي دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كما رأينا ذلك في المقطع الأول ، وفي الآيات كذلك تعليل للأمر الذي ورد في أوّل المجموعة ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ فالله الذي هذا فعله يستحق الحمد ، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالاته يستأهلون السّلام ونلاحظ أنّ الآية الثانية في المجموعة ختمت بقوله : ﴿ **بل هم قوم يعدلون** ﴾ والثالثة بقوله : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ والرابعة بقوله : ﴿ **قليلاً ما تذكّرون** ﴾ والخامسة بقوله : ﴿ **تعالى الله عما**

يشركون ﴾ والسادسة بقوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ فدل ذلك على أن أسباب الشرك تعود إلى مساواة الله بغيره . وإلى الجهل وعدم التذكّر ، وعدم معرفة عظمة الله ، وإلى الجهل بالدليل ، فإذا اتضحت هذه المعاني الكبرى في المجموعة . فقد آن لنا أن نقول :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ﴾ وبعد آيات قرّرت أنّ مصدر هذا القرآن هو الله عزّ وجلّ ﴿ **وإنّك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ وبعد أن ضرب الله عزّ وجلّ أمثلة على إلقائه الوحي ، وإنعامه على الرسل ، أمر رسوله ﷺ أن يحمده ، ثم أقام الدليل على عظمته وتوحيده واستحقاقه الحمد جل جلاله فعرّفنا على ذاته العظيمة من خلال خلقه وعرّفنا على حكمته وعلمه من خلال تعريفنا على أفعاله ، وعرّفنا على استحقاق رسله عليهم الصلاة والسلام للسّلام ، كيف لا وهم الذين بعثوا بالآيات والهداية ، لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ . ولاحظ كيف تكمّل مجموعات السورة ومقاطعها بعضها بعضاً ؛ فالمجموعة الأخيرة عرفتنا على الله منزل القرآن وناصر الرسل . والمجموعات الأربع التي سبقتها أرتنا نماذج على وحي الله ونصرة الرسل ، وكل ذلك بعد المقدمة التي قررت أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل ، وأنّه هو الذي أنزله على محمد ﷺ ، والآن تأتي مجموعة جديدة لتخدم السياق الخاص للسورة ، والسياق العام للقرآن بشكل معجز ، ككل ما في هذا القرآن . إنّ المجموعة الجديدة تبدأ بالأمر ﴿ **قل** ﴾ كما بدأت المجموعة الأولى ، وهي تبني علي المجموعة الأولى وتناقش من لا يؤمنون بالآخرة ، لأنّ عدم الإيقان بالآخرة علّة لرفض القرآن ، وتقيم الحجّة على اليوم الآخر ، وعلى كون هذا القرآن من عند الله ، ومن خلال دراستها سنرى كيف أن مجموعات المقطع الثاني تخدم كل منها ما ورد في المقدمة بشكل من الأشكال ، وكلّ ذلك يأتي بما يخدم محور السورة ، وبما يحدّد التكاليف المترتّبة على ما تقرّر في محور السورة ، وكلها قضايا سنرى تفصيلاتها فيما يأتي . فلنر الآن المجموعة الثانية من المقطع الثاني .

المجموعة الثانية

﴿ **قل لا يعلم من في السموٰات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ أي لا يعلم أحد الغيب إلا الله . والغيب هنا هو مالم يقم عليه دليل ، ولا اطّلع عليه مخلوق ، كما قال النّسفي .

﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي وما يعلمون متى ينشرون . قال ابن كثير : أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموٰات والأرض بوقت الساعة ﴿ بل ادارك ﴾ أي استحكم ﴿ علمهم في الآخرة ﴾ أي في شأنها والمعني : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأنّ القيامة كائنة قد حصلت لهم ، ومكّنوا من معرفته ، وهم شاكون جاهلون . ومن ثم قال : ﴿ بل هم في شك منها ﴾ أي شاكون في وجودها ووقوعها ﴿ بل هم منها عمون ﴾ أي في عماية وجهل كبير في شأنها وأمرها . قال النسفي : (ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية ، وهو وصف المشركين بإنكارهم البعث ، مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله ، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب ، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه ، أنّه لما ذكر أنّ العباد لا يعلمون الغيب ، وكان هذا بياناً لعجزهم ، ووصفاً لقصور علمهم ، وصل به أنّ عندهم عجزاً أبلغ منه ، وهو أنّهم يقولون للكائن الذي لابدّ من كونه ، وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون ، مع أنّ عندهم أسباب معرفة كونه ، واستحكام العلم به) .

....

نقل :

بمناسبة الكلام عن الآخرة في هذا السياق قال صاحب الظلال :

(والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به . فلابد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة ، وتستمرىء الجحود والمعصية ، وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد موعدها أو يكذبوا بالنذر ، ويحسبوها أساطير ، سبق تكرارها ولن تحقق أبداً !

فهل يقر أن الغيب من أمر الله، وأن علمهم عن الآخرة منته عدمه).

كلمة في السياق:

لما كانت الآية الأولى في المجموعة الأولى سبباً للانتقال من الكلام عن المرسلين إلى الكلام عن الله عز وجل، فإن الآية الأولى في المجموعة الثانية كانت سبباً للكلام عن اليوم الآخر. فبعد أن تفتتح المجموعة الأولى على الله، تخبر الآية الأولى من المجموعة الثانية أنه وحده الذي يعلم الغيب، [illegible] في المجموعة الأولى، وعلم الله بكل شيء يقابله جهل الإنسان بأجل الأشياء وهو اليوم الآخر. ومن ثم يأتي الآن الكلام عن موقف الكافرين من اليوم الآخر والرد عليهم.

....

﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ أي من قبورنا أحياء ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي من قبل محمد ﷺ، أي لا زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى لها حقيقة ولا وقوعاً ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا الوعد بإعادة الأبدان إلا خرافات الأولين وأباطيلهم، أخذه قوم عمن قبلهم، وتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة، والجواب ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي آخر أمر الكافرين، أي المكذبين بالرسل، وما حل بهم من سوء العذاب وخيمه، وكيف حلت نقمة الله بهم [illegible]، ونجى الله من بينهم رسله، ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصدقهم، [illegible]. ثم قال الله مسلياً رسوله ﷺ [illegible] ﴿ولا تحزن عليهم﴾ [illegible] ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ [illegible].

كلمة في السياق:

١ - ورد في مقدمة السورة قوله تعالى: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب

انلہ ناملتي نمد وملكلا نضعه يف ثلاث دلب ﴿ **نورسخالا مه ةرخالا يف مهو**
نمدو يخآلا وميلا نع ثدحتت ةدوجم ملذ نالف ، هب ةراشبلا نوقحتسي نمدو ، ناآرقلا
نيفلكملا هب ءيتو ، هيلع ةثالثلا رقفتي وه ةليسا ةرومسلا موضوعها ليساسلا ، لاخلا
مهف ﴾ : ةروسلا ةمدقم يف ةرخالاب نونموي لا نيذلا نع ىلاعت هاوق نيب ةلمحلا
نوهمعي ﴿ ويقين هاوق ىلاعت يف هنم ةدومجا ﴾ **لب مه يف ثلش لهنم لب مه لهنع**
نومع ﴾

٢ – ملقا دلب يف تايآلا روثكا ةريخألا رلع ث فقوم نيفلكملا نم وميلا يخآلا
. هيلع ءرج نيفلكملا ناقلست يفأ ناآكام

....

﴿ **نوماقيو نهت هللا لوهلا** ﴾ يأد للعا بالنعا وأ د لعو جرد وميلا يخآلا ﴾ ناإ
ةحنم نيقعاسم ﴾ يف وحمأ هنإ تآ يأد هلعج اه ماقت ﴾ **لاق مهب نأ نوكي نعرف**
لمحا ﴾ يأد بقي ءلاو أزفع لحا ﴾ **رضعب يدنلا نولجعتست** ﴾ نأ رلع نأ مهلبق
طلخيلا لهجملا للجعتسالا مهنم ةثيبخ د ليقف : مهل نأ يكون نورفخي د يأد لعقم
بحنعم لج هلحلسي الثم هيلع يف يلنالا . لاق رسفملا : مهدو د ماع د مويس و يف بلع
هلالملا هومهيلعو يلت رلع ةلفغ مالاإ ملجمو د ةعفن ثالث رحي بلع الثم هيلعو
﴾ **ناإ كبر وذل لضف رلع سانلا** ﴾ يأد يف ءادتبا ذخم معفه هيلع وه هملهل امهسفنأ د
تلمعتسالاو بالنعا ﴾ **ناكل مهرثكأ ال نوركشي** ﴾ يأد مهرثكأ ال نوفرعي نأ تحر
امعنلا د ال نوركشي د هيفرخي نولجعتسيو نولجعتست بالنعا ﴾ **ناإ كبر ملعيل هن ركحت**
هلمعو مهروده ﴾ يأد هل رفخ ﴾ **مل ملعي نونكت** ﴾ يأد نونكي نم لافعا د رلسيل رخأ
بالنعا ميند ملطف د جالحب امك تقدمت ىناكر د وأ هنأ يعلم هل نورفجي مل نونكي نم
لمعاق رسمأ الثم يلع ملصو مهلكرحو د مهو هعقاوم رلع ثالث لج نوقحتسي هنإ ﴾ **لمع نع**
ةنبائا يف لمسلا ءالكنا ىن ﴾ نيعي لمع نم ةبتيخ بيغي رفخي يف ألاخر وأ يف لمسلا
﴾ **اإ يف باتك نيبم** ﴾ يأد هلمسي نيب اهنيبتي من ةلالكلا و مهو تيملا خفقلا .
مالعون : لمع نم ثبتة ليبليف ةيبيغا الإ ىقم لعله الثم أجل حب أوتيه يف تيملا
خفقلا . أقام : ومستلا أن يكون اإلا بالكتاب نيبلا ناآرقلا د ينلا غص ثالث يف
أما ميسلا د ةيكمن ناعن : أن هللا ناآرقلا ثبتت نع يل يف بيغ يف ملسلا ءالكنا د
يبن يك أن ناآرقلا هللا اإ ﴾ ناآرقلا نع ثبتت هيلع أن ألاكاذ هللا يتجه

إسرائيل ﴾ أي يبيّن لهم ﴿ **أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ وذلك دليل على أنه من عند الله ﴿ **وإنه** ﴾ أي وإنّ القرآن ﴿ **لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ فهو هدى لقلوبهم وذواتهم ، وهو رحمة لهم إن أقاموه في الدنيا والآخرة ﴿ **إن ربك يقضي بينهم** ﴾ أي يفصل بين من آمن بالقرآن ، ومن كفر به ﴿ **بحكمه** ﴾ أي بقضائه العادل ﴿ **وهو العزيز** ﴾ فلا يُردّ قضاؤه ﴿ **العليم** ﴾ بمن يقضي عليه ، أو العزيز في انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين . وبهذا انتهت المجموعة الثانية .

نقــل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ قال صاحب الظلال : ولقد اختلف النصارى في المسيح ــ عليه السلام - وفي أمه مريم .

قالت جماعة : إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة : إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله ــ بزعمهم ــ مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (والابن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس ، وتجسد في مريم إنساناً ، وولد منها في صورة يسوع ! وجماعة قالت : إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوماً ! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت ، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب ، وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة ، وظلتا مختلفتين .. فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً . وقال عن المسيح : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر .. ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل** ﴾ وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون . واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال : إنه صلب حتى مات ودفن ، ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال : إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب . ومنهم من قال : ألقي شبهه على الحواري سيمون وأخذ به .. وقصّ القرآن الكريم الخبر اليقين فقال : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن**

شُبّه لهم ﴾ وقال : ﴿ **يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك** .. ﴾ وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف .

ومن قبل حرّف اليهود التوراة ، وعدّلوا تشريعاتها الإلهية ؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص** ﴾ ..

وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها **نظيفاً** !.. إبراهيم – بزعمهم – قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين ، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو ! ولوط – بزعمهم – أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيهما إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادتا ! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز – بزعمهم – بامرأته ! وسليمان مال إلى عبادة (بعل) بزعمهم . مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها !

وقد جاء القرآن فطهّر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوّثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم – عليه السلام) .

كلمـــة في السياق :

١ – نلاحظ أن هذه المجموعة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من في السموٰات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ وورد في أواخرها قوله تعالى : ﴿ **وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين** ﴾ وفيها ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون** ﴾ وفيها ﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ وذلك من مظاهر علمه بالغيب . وختمت بقوله تعالى ﴿ **إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم** ﴾ فالتدليل على علم الله من خلال المعاني المذكورة شيء

رئيسي في السياق ، وإن صلة ذلك بقوله تعالى في المقدمة ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ لواضحة .

٢ - نلاحظ أنه قد ورد قوله تعالى ﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ في سياق الكلام عن اليوم الآخر . ومن المعروف كما تفيد نصوص العهد الجديد أن اليهود قد اختلفوا في شأن اليوم الآخر اختلافاً كثيراً ، ففي رسالة أعمال الرسل ، الإصحاح الثالث والعشرون (لأنّ الصّدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح وأما الفريسيون فيقرون بذلك) . إن مجيء الآية في سياق الحديث عن اليوم الآخر يشير إلى اختلاف اليهود في موضوع اليوم الآخر ، وأنّ الحقّ والفصل فيه هو ما ذكره الله في القرآن ، إن مثل وجود هذه الدقائق في هذا القرآن لمظهر من مظاهر الإعجاز فيه .

٣ - يلاحظ أن السورة بدأت بالكلام عن القرآن ووصفته بأنه ﴿ **هدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ ونلاحظ أن المجموعة التي بين أيدينا اتجهت في أواخرها للكلام عن هذا القرآن ومما وصفته به ﴿ **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ فهي تؤكد ما ورد في المقدمة مما يدل على وحدة السياق في السورة . ونكتفي بهذه الملاحظات حول السياق لأنّ لنا عودة مفصلة على سياق السورة فيما بعد .

....

المجموعة الثالثة

بعد أن قرر الله في المجموعة الأولى أمر التوحيد . وقرر في المجموعة الثانية أمر اليوم الآخر ، وبيّن لنا سفاهة المشركين والملحدين باليوم الآخر ، يأمر رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فتوكل على الله إنك على الحق المبين** ﴾ أمره بالتوكل على الله ، وقلة المبالاة بأعداء الدين ، لإقامة وتبليغ رسالات الله ، وعلل للأمر بالتوكّل بأنّه على الحق الأبلج ، وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك ، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا وَلَّوْا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم** ﴾ قال النسفي : لما كانوا لا يعون ما يسمعون ، ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون ، وبالعمي حيث يضلون الطريق ، ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ،

ويجعلهم هداة بصراء إلا الله تعالى ، ثم أكد حال الصم بقوله ﴿ **إذا وَلَّوْا مدبرين** ﴾ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته .

﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أي ما يجدي إسماعك إلا للذين علم الله أنّهم يؤمنون بآياته أي يصدّقون بها ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ أي مستسلمون لله مخلصون له .

....

كلمة في السياق :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ... ﴾ فبيّنت المقدّمة أنّ المتّصفين بهذه الصفات هم المهتدون بالقرآن ، وهذه المجموعة بيّنت أن الموتى والصمّ والعمي هم الذين لا يسمعون ولا يهتدون بهذا القرآن ، وأن المؤمنين بالآيات المستسلمين لله هم الذين يسمعون ويهتدون . فالصلة بين المقدمة وهذه المجموعة واضحة ، ولنا عودة على السياق ، وإنّما نسجّل الآن جزئيات فيه.فلنسر في التفسير .

....

المجموعــة الرابعــة

بعد أن أقام السياق الحجّة على اليوم الآخر ، وأمر بالموقف المقابل للجحود ، وبيّن أسباب الجحود ، يعود السياق للحديث عن اليوم الآخر ، مبتدئاً بذكر شرط من أشراط الساعة ، وعلامة من علاماتها . ﴿ **وإذا وقع القول عليهم** ﴾ أي إذا وقع ما وُعدوا من قيام الساعة والعذاب ، والمراد به مشارفة الساعة ، وظهور أشراطها ، حين لا تنفع التوبة ﴿ **أخرجنا لهم دابة من الأرض** ﴾ هذه الدابّة يخرجها الله مقدّمة للحدث الضخم ، وهو قيام القيامة ﴿ **تكلّمهم** ﴾ أي تحدّثهم ﴿ **أنّ النّاس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ أي إن هذا الحدث يكون بسبب عدم إيقان النّاس بالقرآن ، ثم إنّه بعد أن ذكر الله عزّ وجل هذه العلامة من علامات الساعة ، ذكر مشهداً من مشاهد يوم القيامة فقال : ﴿ **ويوم نحشر من كل أمّة فوجاً** ﴾ أي واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم

زمرة ﴿ **ممّن يكذّب بآياتنا** ﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿ **فهم يوزَعون** ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا ، ثم يساقون إلى موضع الحساب ﴿ **حتى إذا جاؤوا** ﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال ﴿ **قال** ﴾ لهم سبحانه وتعالى تهديداً ﴿ **أكذبتم بآياتي** ﴾ المنزلة على رسلي ﴿ **ولم تحيطوا بها علماً** ﴾ أي أكذّبتم باديء الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلي إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب ؟ ﴿ **أمّا ذا كنتم تعملون** ﴾ حيث لم تتفكروا فيها ، فإنكم لم تخلقوا عبثاً ﴿ **ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون** ﴾ أي يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم ، وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النّطق والاعتذار وبعد أن أرانا الله عز وجل حالهم يوم القيامة فإنه يذكر حجّة من حجج مجيء يوم القيامة ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه** ﴾ أي ليطمئنوا في ظلام الليل ، فتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحوا من نصب التعب في نهارهم ﴿ **والنهار مبصراً** ﴾ أي منيراً مشرقاً فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أي يصدّقون فيعتبرون . قال النسفي : (وفيه دليل على صحة البعث لأن معناه : ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا ، ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً ، بل محنة وابتلاءً ، ولابد عند ذلك من ثواب وعقاب فإذا لم يكونا في هذه الدار ، فلابد من دار أخرى للثواب والعقاب) وهكذا نقلنا السياق من جو اليوم الآخر إلى ذكر الدليل عليه . والآن يعود السياق لينقلنا إلى جو اليوم الآخر ، ثم ينقلنا إلى ذكر دليل عليه :

﴿ **ويوم ينفخ في الصور** ﴾ أي واذكر يوم ينفخ في الصور ﴿ **ففزع من في السموٰات ومن في الأرض** ﴾ والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ أي إلا من ثبّت الله قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام ، وقيل الشهداء وقيل الحور ، وخزنة النّار ، وحملة العرش ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾ أي صاغرين . ومعنى الإتيان : حضورهم الموقف ، ورجوعهم إلى أمره تعالى ، وانقيادهم له ، وبعد أن نقلنا السياق إلى أجواء اليوم الآخر ، يعود للتدليل عليه بآية هي معجزة؛ إذ أنها تشير إلى دوران الأرض على رأي ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ أي واقفة ممسكة عن الحركة ﴿ **وهي تمرّ مَرّ السحاب** ﴾ أي وهي تمرّ مثل مَرّ السحاب تراه واقفاً وهو يتحرك ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾ أي أحكم خلق كل شيء ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير

وشر ، وسيجازيهم عليه أتمّ جزاء ، في الآية تدليل على اليوم الآخر ، فالله عزّ وجلّ الذي جعل الأرض ببالغ حكمته كذلك ما فعل هذا عبثاً ، وما فعل هذا إلا بكمال علم ، ومن كان كذلك لا يعجزه أن يبعث وأن يجازي ، ومن ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ إذ فيها تهديد بالمجازاة يوم القيامة ، ومن ثم يعود السياق إلى تلخيص المجازاة يوم القيامة ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ أي لا إله إلا الله ﴿ **فله خير منها** ﴾ أي حاصل من جهتها وهو الجنّة ، أو الخيرية بكثرة المكافأة ، إذ له عشر أمثال الحسنة ﴿ **وهم من فزع يومئذ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **آمنون** ﴾ فلا يخافون ﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ أي بالشرك ﴿ **فكُبت وجوههم في النّار** ﴾ أي ألقوا في النار ، ويقال لهم تبكيتاً عند الكبّ : ﴿ **هل تجزون إلا ماكنتم تعملون** ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعاصي . وبهذا تنتهي المجموعة الرابعة .

....

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ :

(وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة ، بعضها صحيح ، وليس في هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحاً عن أوصافها .

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ؛ وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ؛ وإنما يقضى عليهم بما هم عليه .. عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تتكلم ، أو لا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود . ومما يلاحظ أن المشاهد في سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام . فجاء ذكر « الدابة » وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد . السورة وجوها ، محققاً لتناسق التصوير في القرآن ، وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها المشهد العام) .

كلمـة في السياق :

نلاحظ أن مقدمة السورة كان فيها : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون** ﴾ وقد جاءت المجموعة الرابعة لتحدثنا عن بعض أشراط الساعة ، وعن حال الكافرين بالساعة يوم تقوم ، كما أنّ المجموعة أقامت الحجة على هؤلاء في ثنايا ذلك ، وهكذا بيّنت السورة أنّ هذا القرآن آيات لله تتلى ، وأنه ألقاه إلى محمد ﷺ ، كما بيّنت من هم المستفيدون بهذا القرآن ، وضربت أمثلة على رسالات سابقة لله ، وأقامت الحجة على كل ما يخدم هذه المعاني ، أو ما يقوّيها وكلّ ذلك سنراه بالتفصيل .
والآن فلنلاحظ مايلي :

إنّ السياق الرئيسي للسورة هو مجموعة خطابات لرسول الله ﷺ ﴿ **طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين** ... ﴾

﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾

﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين** ﴾
﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** .. ﴾
﴿ **قل لا يعلم من في السموٰات والأرض الغيب إلا الله** .. ﴾
﴿ **فتوكل على الله إنك على الحق المبين** ﴾ .

وفي هذا السياق الرئيسي الذي ينسجم مع محور السورة :

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾

تأتي الآن خاتمة السورة ، وهي تتوجه كلها بالخطاب لرسول الله ، ﷺ ولكنها تأتي وكأنها على لسانه لتشعرنا بأنّ محمداً ﷺ قائم بذلك فعلاً فلنرها :

....

المجموعة الخامسة وهي خاتمة السورة

﴿ **إنما أُمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة** ﴾ أي مكة ﴿ **الذي حرمها** ﴾ أي جعلها حرماً آمناً يأمن فيها اللاجىء إليها ولا يختلى خلاها ، ولا يعضد شوكها ، ولا ينفر صيدها ، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها ، والاعتناء بها ﴿ **وله كل شيء** ﴾ أي فهو مع ربوبيّته لهذه البلدة مالك الدنيا والآخرة ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ أي الموحّدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له ﴿ **وأن أتلو القرآن** ﴾ أي على الناس أبلّغهم إيّاه ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه** ﴾ أي فمن اهتدى باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ، ونفي الشركاء عنه ، والدّخول في الملّة الحنيفية ، واتباع ما أنزل عليّ من الوحي ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه ﴿ **ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذِرين** ﴾ أي ومن ضلّ ولم يتبعني فلا عليَّ ، وما أنا إلا رسول منذِر ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها** ﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن يحمده على ما خوّله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة ، وأن يُهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها ، وقيل المراد بآياته : انشقاق القمر والدخان وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا ، ويمكن أن يكون المراد بإراءتهم آياته ما سيكشفه لهم من مضامين القرآن في الكون والآفاق ، مما تلزمهم به الحجّة ، ثم ختم الله السورة بقوله : ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء ، فكل عمل يعملونه فإنّ الله عالم به ، غير غافل عنه . فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه جلّ جلاله .

كلمـــة في السياق :

رأينا أنّ محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين** ﴾ وفي مقابل هذه النعمة أمر الله رسوله ﷺ بالعبادة والإنذار والشكر ، والوعيد لأعداء الله ، وهذا الذي نراه في الخاتمة ، ومن هنا تظهر صلة الخاتمة بمحور السورة . ورأينا أنه في بداية السورة قد جاء : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾

وفي مقابل هذه النعمة فعلى رسول الله ﷺ أن يفعل أشياء كثيرة منها ، ما ورد في خاتمة السورة ، ومنها ما ورد قبل ذلك بشكل أوامر ، وهذا مظهر من مظاهر ارتباط الخاتمة بسياق السورة ولازال لنا كلام حول سياق السورة ، سنراه في الكلمة الأخيرة عنها . وإذ لم ننقل شيئاً من فوائد المقطع الثاني : فلننقل الفوائد :

فوائــد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من بلهجيم قال : قلت يا رسول الله إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده الذي إن مسّك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردّ عليك ، والذي إن أصابتك سِنَة فدعوته أنبت لك » قال : قلت أوصني قال : « لا تسبّنّ أحداً ، ولا تزهدنّ في المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك وإسبال الإزار ، فإنّ إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة » . وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابي فقال .. عن جابر بن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو مُحتبٍ بشملة ، وقد وقع هدبها على قدميه ، فقلت : أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البادية ، وفيّ جفاؤهم ، فأوصني قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره ، وإياك وإسبال الإزار ، فإنّ إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تسبن أحداً » قال : فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بعيرا . وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً وعندهما طرف صالح منه ، روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي صالح قال : دخل عليّ طاووس يعودني فقلت له : ادعُ الله لي يا أبا عبد الرحمن فقال : ادع لنفسك فإنّه يجيب المضطر إذا دعاه . وقال وهب بن منبّه قرأت في الكتاب الأول إن الله تعالى يقول : بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السمٰوات بمن فيهن ، والأرض بمن فيهن ، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه ») .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم — يعني النبي ﷺ — ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ،

وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلّف مالا علم له به . وإن أناساً جهلة بأمر الله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم . وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيّان يبعثون . رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه وهو كلام جليل متين صحيح) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ قال ابن كثير : (هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل من مكة ، وقيل من غيرها - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى - فتُكلّم الناس على ذلك ، قال ابن عباس والحسن وقتادة ، ويروى عن علي رضي الله عنه : تُكلّمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة ، وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويروى هذا عن علي ، واختاره ابن جرير ، وفي هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : تجرحهم ، وعنه رواية قال : كُلّا تفعل ، يعني : هذا وهذا ، وهذا قول حسن ولا منافاة ، والله أعلم . وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث كثيرة ، فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان : روى قال الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس مغربها ، والدّخان والدابّة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، والدّجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن حذيفة مرفوعاً ، وقال الترمذي حسن صحيح ، ورواه مسلم أيضاً عن أبي الطفيل موقوفاً ثم ذكر ابن كثير روايات أخرى لهذا الحديث ، كما ذكر أحاديث أخرى في هذا الباب فليراجع .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموٰات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكلٌّ أتوه داخرين** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام مسلم ابن الحجاج ، عن عروة بن مسعود الثقفي ، سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما وقد جاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ـــ أولا إله إلا الله أو كلمة نحوهما ـــ لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ـــ إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يخرب البيت ، ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، قال سمعتها من رسول الله ﷺ وقال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارّ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً - قال : وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـــ أو قال ـــ ينزل الله مطراً كأنه الطّل - أو قال الظّل (شعبة الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، الليت : هو صفحة العنق ، أي أمال عنقه ليسمعه من السماء جيّداً ، فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق .)

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها** ﴾ قال ابن كثير : (أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها ، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد

حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة)

(عضد الشيء : أي قطعه بالمعضد وهو السكين الكبير) (اختلى العشب - جزّه) (الخلى : الواحدة خلاة ، وجمعها أخلاء وهو العشب)

٦ - في قوله تعالى ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ...** ﴾ اتجاهان : اتجاه يقول : إنّ هذه الآية تتحدث عن شيء سيكون يوم القيامة ، واتجاه يقول : إن الآية تتحدث عن ما هو كائن ، وعلى هذا الرأى ففي الآية تصريح بدوران الأرض ، ويشهد لهذا القول مجيء كلمة الإتقان في الآية ﴿ **صنع الله الذي أتقن كلّ شيء** ﴾ ثم إن الجبال يوم القيامة تسيَّر لتنسف ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾ .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ قال ابن كثير : روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله ، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرّة » . وروى أيضاً عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم ، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمّا له أو لغيره :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة   ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

كلمة في سورة النمل :

ذكرنا أن سورة النمل تتألف من مقطعين ، كل منهما يرتبط بالآخر بأوثق رباط ، وذكرنا أنّ محور سورة النمل هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ الآتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ وعلى ضوء ذلك فلنلق نظرة شاملة :

تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ **طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينّا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنّك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ هذه المقدّمة تحدّد مسار السورة ، مفصّلة محورها في حيّزه ، إذ تأتي قصة موسى عليه السلام وفيها آية من آيات هذا القرآن التي تتحدث عن مظاهر حكمة الله وعلمه ، ثم تأتي قصة داود وسليمان عليهما السلام وهي تعرض آية من آيات هذا القرآن . ثم تأتي قصة صالح عليه السلام وهي تعرض آية من آيات هذا القرآن ، ثم تأتي قصة لوط عليه السلام وهي تعرض آية من آيات الله ، ثم تأتي مجموعة تحدثنا عن الله عز وجل هي في بابها آية من آيات هذا القرآن ، وهي تعرض علينا ما يدل على حكمة الله الذي أنزل هذا القرآن ، ثم تأتي مجموعة تحدّثنا عن علم الله ، فتم بذلك الكلام عن العليم الحكيم ، الذي أنزل هذا القرآن ، ثم انتقل السياق إلى الكلام عن اليوم الآخر ، الذي بدون اليقين به لا يهتدي أحد بهذا القرآن . ثم جاء حديث عن ما ينبغي أن يكون عليه رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ، ثم جاء كلام عن حال الفارين من الهداية ، وصممهم وعماهم ، وعن حال الذين يهتدون بهذا القرآن ، وكما أنه في المقدمة تكرّر الكلام عن اليوم الآخر ، فإن السّياق يأتي ههنا بكلام عن اليوم الآخر وأدلته ، وحال الكافرين به يوم القيامة ، ثم تنتهي السورة بعرض بعض ما أُمر به رسول الله ﷺ الذي أنزلت عليه الآيات : العبادة ، والإسلام ، والإنذار بهذا القرآن ، فتكون آخر الآيات أمراً لرسول الله ﷺ بالشكر والإنذار .

....

وعلى هذا فالسورة عرضت لآيات من آيات الله التي أنزلها على محمد ﷺ ، وخصائص المهتدين بها ، وأنواع العقوبات التي أعدّها الله لمن لا تتوافر فيه هذه الخصائص ، وما يلزم الذي أنزلت عليه الآيات . وفي آيات السورة كلام عن آداب من الإسلام ، وكلام عن معان من الإسلام تعرض علينا من خلال الكلام عن المرسلين أو من خلال العرض المباشر ، وأهم ذلك موضوع التوحيد واليوم الآخر . وقد عرضت السورة نماذج من عطاء الله للمرسلين ، ونماذج من مهّمات المرسلين ، ونماذج من الآيات التي أنزلها الله على المرسلين ، كما تحدثت السورة عن بعض خصائص هذا القرآن المعجز ، كما ذكرت ما يعتبر مجرّد ذكره معجزة ، كالإشارة إلى اختلاف بني إسرائيل في

اليوم الآخر ، وكالإشارة إلى دوران الأرض ، وفي قصة سليمان ذكرت ما يدل على أن خوارق العادات قد يعطاها غير النبي ، كما أعطتنا ما يدل على بعض خصائص الجن ، وخصائص المخلوقات الأخرى غير الإنسان .

....

والملاحظ بشكل عام أن مجموعات السورة كل منها ترتبط بمقدمة السورة برباط ما فالمقدمة تحدثت عن مجموعة معان مترابطة مع بعضها ، ثم جاءت مجموعات السورة كل مجموعة تخدم شيئاً في المقدمة ، وترتبط بها بنوع رباط ، وواضح في السورة أنها تنقسم إلى قسمين متكاملين : قسم القصص ، وقسم المعاني المجردة . والربط بين القسمين واضح ، والانتقال من القسم الأول إلى القسم الثاني كان من الروعة في المكان الأعلى .

إن السورة نموذج على الكمال في وحدة السورة القرآنية ، إذ تجدها مؤلفة من مجموعات واضحة متمايزة ، بينها خيط ينتظمها ، وفي كل منها آية من آيات الله عزّ وجل ، تدلّ على أنّ هذا القرآن من عند الله ، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

سورة القصص

وهي السورة الثامنة والعشرون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة التاسعة من المجموعة الثالثة من قسم المئين

وآياتها ثمان وثمانون آية

وهي مكية

وهي السورة الثالثة من زمرة الطاسينات

* * *

وهي آخر سورة في زمرتها وفي مجموعتها وفي قسمها ، فبها ينتهي قسم المئين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة القصص :

(مكية كلها على ما روي عن الحسن . وعطاء وطاووس . وعكرمة ، وقال مقاتل : فيها من المدني قوله تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد ، وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه أن الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة ، وقيل : نزلت بين مكة والجحفة ، وقال المدائني في كتاب العدد عن يحيى بن سلام قال بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال : أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها ؟ قال : نعم قال ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾ الآية وهي ثمان وثمانون آية بالاتفاق ، ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام . قال الجلال السيوطي : إنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ **ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت** ﴾ إلى قول موسى عليه السلام ﴿ **ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين** ﴾ . ثم حكى سبحانه في (طسٓ) قول موسى عليه السلام لأهله ﴿ **إني آنست ناراً** ﴾ إلى آخره الذي هو في الوقوع بعد الفرار ، وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال ، فبسط جل وعلا في هذه السورة ما أوَجزه سبحانه في السورتين ، وفصّل تعالى شأنه ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما ، فبدأ عز وجل بشرح تربية فرعون له مصدّراً بسبب ذلك من علو فرعون ، وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح ، وبسط القصة في تربيته ، وما وقع فيها إلى كبره ، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي ، إلى قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل ، إلى النَّم عليه بذلك الموجب لفراره إلى مدين ، إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام ، تزوجه بابنته ، إلى أن سار بأهله ، وآنس من جانب الطور ناراً ، فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه جل جلاله ، وبعثه تعالى إياه رسولاً وما استتبع ذلك إلى آخر القصة ، فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً على الترتيب ، وبذلك عرف وجه الحكمة من تقديم (طسٓ) على هذه ، وتأخيرها عن الشعراء في الذكر في المصحف ، وكذا في النزول ، فقد روي عن ابن عباس . وجابر بن زيد : أن الشعراء نزلت ، ثم

طسٓ ثم القصص ، وأيضاً قد ذكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يوم القيامة ما ذكر ، وذكر جل شأنه في هذه من ذلك ما هو أبسط وأكثر مما تقدم ، وأيضاً ذكر عز وجل من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك ، وقد يقال في وجه المناسبة أيضاً : إنه تعالى فصّل في تلك السورة أحوال بعض المهلَكين من قوم صالح ، وقوم لوط ، وأجمل هنا في قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية** ﴾ الآيات ، وأيضاً بسط في الجملة هناك حال من جاء بالحسنة ، وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز سبحانه هنا حيث قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ فلم يذكر عز وجل من حال الأولين أمنهم من الفزع ، ومن حال الآخرين كَبَّ وجوههم في النار ، إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة :

(هذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ، هي قوة الله ؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون ، هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ، ولو ساندته جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً .

كلمة في سورة القصص ومحورها :

قلنا : إن محور الطاسينات الثلاث هو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فلنلاحظ الآن بعض ما ورد في سورة القصص مما يؤيد ما قلناه .

تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ التشابه بين بداية السورة وآية المحور : ﴿ **تلك آيات الله** ﴾ يقابلها في السورة ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ ﴿ **نتلوهم عليك بالحق** ﴾ يقابلها ﴿ **نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق** ﴾ فلنلاحظ التشابه الكامل بين

البداية وبين محور السورة .

وفي الآية السابعة يرد قوله تعالى : ﴿ **إنا رادّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور : ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ واضحة ، وبعد أن تنتهي قصة موسى يأتي مباشرة قوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين** ﴾ لاحظ ﴿ **تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين** ﴾ وصلة ذلك بآية المحور ﴿ **نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ . ثم يسير السياق مناقشاً الذين يكفرون بآيات الله وبرسالة محمد ﷺ ، مقيماً الحجة تلو الحجة عليهم ، وكل ذلك نوع تفصيل لمحور السورة . فإذا وصلنا إلى الآية (٦٥) نجدها :

﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ وصلة ذلك مع قوله تعالى : ﴿ **وإنّك لمن المرسلين** ﴾ لا تخفى . وتنتهي السورة بخطاب مباشر لرسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه آياته وجعله من المرسلين : ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد * قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدُنّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** * ﴾

....

تبدأ السّورة بتفصيل آية المحور من خلال قصة موسى في طفولته ، ثم في شبابه ، ثم وهو في مدين ، وهو موضوع لم يذكره القرآن إلا هنا ، ثم تقصّ علينا قصة موسى في عودته وما جرى بينه وبين فرعون ، وهو موضوع يستغرق قسماً كبيراً من سفر الخروج فيما يسمونه التوراة الحالية . ثم تبرهن السورة على رسالة محمد ﷺ ، فتتكلم عن التوراة ، وعن موسى ، لتقيم من خلال ذلك بعض الحجج على رسالة محمد ﷺ ، ثم تقصّ علينا السورة قصة قارون كرجل بغى من قوم موسى أنفسهم ، بعد أن رأينا قصة الباغين على قوم موسى من غير أنفسهم ، فترينا في قصة قارون نهاية الباغين على الرسل من أقوامهم . ثم تأتي خاتمة السورة مربية موجهة لسيد المرسلين .

وإذ كانت الطاسينات الثلاث تفصّل آية واحدة كما رأينا ، فإنّ فيما بينها كثيراً من التشابه ، ولكن لكل منها سياقاً خاصاً يخدم محور السورة بشكل يختلف هدفه في السورة عن سورة أخرى . وهو موضوع سنراه بعد انتهاء الكلام عن سورة القصص تحت عنوان : (كلمة عن زمرة الطاسينات) . ومن ثم فلن نتحدّث هنا عن السياق الخاص لسورة القصص بالنسبة للسياقين الآخرين ، ولكنا نحب أن نقرر هنا إن هذا الذي ذكرناه مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن ، الذي لا تنتهي عجائبه ولا أسراره .

....

تتألف السورة من قسمين :

القسم الأول : وفيه قصة موسى ، وهو يتألف من مقدمة ، وخمسة مشاهد

والقسم الثاني : ويتألف من خمس مجموعات ، وسنعرض القسمين بشكل مجزّأ .

مقدمة السورة وهي مقدمة القسم الأول

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **طسٓمٓ تلك** ﴾ أي هذه ﴿ **آيات الكتاب المبين** ﴾ أي المبين خيره وبركته ، أو المبين للحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، والإخلاص والتوحيد ، أو الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن ﴿ **نتلو عليك** ﴾ أي نقرأ عليك . أي يقرؤه جبريل بأمرنا ﴿ **من نبإ موسى وفرعون** ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما ﴿ **بالحق** ﴾ نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنّك تشاهد وكأنّك حاضر ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ أي لمن سبق في علمنا أنّه مؤمن ، لأنّ التلاوة إنّما تنفع هؤلاء دون غيرهم ، ومن ثمّ فإنهم يأخذون العبرة ، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة أخذ دروس السورة .

....

فائــدة :

في قوله تعالى : ﴿ **بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ إشارة إلى أن هذا هو الحق الخالص الذي يؤمن به المؤمنون بالقرآن ، وذلك لأنّ الكتب السماوية السابقة كلها قد حرّفت ، كما أثبتنا في أكثر من مكان ، وهذا القرآن هو الذي وضع الأمر في نصابه فيما تحدث عنه ، فالمؤمن بهذا القرآن يعلم أنّ ما قصّة هو الحق ، وأن ما خالفه هو الباطل حيثما وجد سواء وجد ، في كتب العهد القديم أو الجديد . أو في غير ذلك .

....

﴿ **إنّ فرعون علا في الأرض** ﴾ أي تكبّر وتجبّر وطغى وجاوز الحدّ في الظلّم ، واستكبر وافتخر بنفسه ، ونسي العبودية ﴿ **في الأرض** ﴾ أي أرض مملكته أي الأرض التي له سلطان عليها ﴿ **وجعل أهلها شيعاً** ﴾ أي فرقاً من أجل أن يسهل عليه استعباد الجميع على قاعدة فرقّ تسد ، أو فرقاً يشايعونه على ما يريد ، ويطيعونه ولا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه ، أو فرقاً مختلفة ، يكرم طائفة ويهين أخرى . يكرم الأقباط ، ويهين الإسرائيليين ﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿ **يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ أي يقتل الأطفال الذكور ويترك البنات أحياءً للخدمة ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾ أي إنّ القتل ظلماً هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته .

فوائـــد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ قال ابن كثير : (يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم هذا ، ولقد سلّط عليهم هذا الملك الجبار العنيد ، يستعملهم في أخسّ الأعمال ، ويكدّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله ، وأشغال رعيّته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوّف هو وأهل مملكته منه ، أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه ، وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتّخذها جارية ، فصانها الله منه ومنعها منه بقدرته وسلطانه ، فبشّر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذرّيته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكلّ أجل كتاب) .

أقول : لا ندري ما هو مصدر ابن كثير في روايته عن سبب حذر فرعون أو فعله ، فقد يكون لتصرف فرعون أسباب غيرها .

٢ - في سفر الخروج في الإصحاح الأول : (وكلّم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين إحداهما شِفْرَة واسم الأخرى فوعة وقال : حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا) وفي نفس الإصحاح :

(ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر لكن كل بنت تستحيونها) . إلا أنّ الإصحاح يعلّل فعله بخوفه من الإسرائيليين أن يكثروا ، وأن يشايعوا أعداءه في اللحظات الحاسمة أثناء حروبه مع أعدائه ، ونحن لا نستطيع أن نعطي أسفار التوراة الحالية شيئاً من الثقة ، تصلح للاعتماد ، لكثرة التناقضات فيها ، كما دللنا على ذلك من قبل ، وكما سنرى أثناء الكلام عن هذه السورة .

....

﴿ **ونريد أن نمّن** ﴾ أي نتفضّل ﴿ **على الذين استضعفوا في الأرض** ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ **ونجعلهم أئمّة** ﴾ أي قادة يقتدى بهم في الخير ، أو قادة إلى الخير ﴿ **ونجعلهم**

الوارثين ﴾ أي يرثون غيرهم في الملك والسلطان ﴿ **ونمكّن لهم في الأرض** ﴾ أي نجعل لهم عليها سلطاناً ، بحيث ينفذ أمرهم فيها ، وهل المراد في الأرض فلسطين وحدها أو الشام ومصر ؟ من الملاحظ أن نفوذ بني إسرائيل وصل في زمن سليمان إلى كل هذه المناطق مع اليمن ﴿ **ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم** ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ **ما كانوا يحذرون** ﴾ أي ما كانوا يتوقّونه منهم . والمعنى : يرون منهم ما حذروه من قهر بني إسرائيل لهم .

هذه هي مقدمة القصة : ونلاحظ أن هذه المقدمة هي التي تستغرق الإصحاح الأول من سفر الخروج في التوراة المحرفة الحالية . والآن يأتي المشهد الأول في القصة :

☆ ☆ ☆

المشهد الأول

ويمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (١٣) وهذا هو :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **وأوحينا إلى أمّ موسى** ﴾ قال النسفي : بالإلهام أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم وليس هذا وحي رسالة ، ولا تكون الأنثى رسولاً ﴿ **أن أرضعيه فإذا خفت عليه** ﴾ من القتل كأن يسمع الجيران صوته فينمّوا عليه ﴿ **فألقيه في اليم** ﴾ أي نيل

مصر ﴿ **ولا تخافي** ﴾ عليه من الغرق والضّياع ﴿ **ولا تحزني** ﴾ بفراقه ﴿ **إنّا رادّوه إليك** ﴾ بوجه لطيف ﴿ **وجاعلوه من المرسلين** ﴾ قال النسفي : (في هذه الآية أمران ، ونهيان ، وخبران ، وبشارتان ، والفرق بين الخوف والحزن : أن الخوف غَمّ يلحق الإنسان لمتوقع ، والحزن : غم يلحقه لواقع ، وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنهما ، وبشّرت بردّه إليها وجعله من المرسلين) ﴿ **فالتقطه آل فرعون** ﴾ أي أخذوه ﴿ **ليكون لهم** ﴾ أي لنجعله لهم ﴿ **عدواً وحزناً** ﴾ أي ليعاديهم ويحزنهم ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ أي كانوا مذنبين ، فعاقبهم الله بأن ربّي عدوّهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، أو كانوا خاطئين في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوّهم ببدع منهم ﴿ **وقالت امرأة فرعون** ﴾ قال ابن كثير : (يعني أن فرعون لما رآه همّ بقتله ، خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل ، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه ، وتذبّ دونه ، وتحببه إلى فرعون) فقالت : ﴿ **قرّة عين لي ولك** ﴾ أي به تطمئنّ أعيننا ﴿ **لا تقتلوه** ﴾ قال النسفي : خاطبته خطاب الملوك (أي بصيغة الجمع أو خاطبت القواد) . ثم علّلت لطلبها بقولها : ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ وقد نفعها الله بذلك ، فكانت من أهل الإيمان ﴿ **أو نتخذه ولداً** ﴾ أي أو نتبنّاه ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة ، أو وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم بالنسبة لتصورهم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنّيه ﴿ **وأصبح فؤاد** ﴾ أي قلب ﴿ **أمّ موسى فارغاً** ﴾ أي صفراً من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، لمّا سمعت بوقوعه في يد فرعون أو أصبح قلبها فارغاً من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ **إن كادت لتبدي به** ﴾ أي إنّه كادت من شدّة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنّه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها ، لولا أنّ الله ثبّتها وصبّرها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ الربط على القلب : تقويته بإلهام الصبر ﴿ **لتكون من المؤمنين** ﴾ أي من المصدّقين ، دلّ ذلك على أن الجزع المخرج عن التكليف يتنافى مع كمال الإيمان ، وأن الصبر في النوازل من الإيمان . قال النسفي : قال يوسف بن الحسين : أمرت أم موسى بشيئين ، ونُهيت عن شيئين ، وبشّرت ببشارتين ، فلم ينفعها الكل حتى تولّى الله حياطتها فربط على قلبها ﴿ **وقالت لأخته** ﴾ وتسميها التوراة الحالية مريم كما ورد في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج ﴿ **قصّيه** ﴾ أي اتّبعي أثره لتعلمي خبره ﴿ **فبصرت به** ﴾ أي أبصرته ﴿ **عن جُنب** ﴾ أي عن بُعد ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أي أنّها أخته ﴿ **وحرّمنا عليه المراضع** ﴾

قال النسفي : تحريم منع لا تحريم شرع . أي منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمّه ، فكان لا يقبل ثدي مرضع ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل قصّها أثره ، أو من قبل أن نردّه على أمه أو أزلاً . قال ابن كثير : أي تحريماً قدرياً ، وذلك لكرامته عند الله ، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمّه لترضعه وهي آمنة بعد ما كانت خائفة ، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ **فقالت** ﴾ أي أخته ﴿ **هل أدلكم** ﴾ أي أرشدكم ﴿ **على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ النصح : إخلاص العمل من شائبة الفساد ﴿ **فرددناه إلى أمّه كي تقر عينها** ﴾ بالمقام معه ﴿ **ولا تحزن** ﴾ أي بفراقه ﴿ **ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾ أي فيما وعدها من ردّه إليها . قال النسفي : أي وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً ﴿ **ولكن أكثرهم** ﴾ أي أكثر الناس ﴿ **لا يعلمون** ﴾ أنّ وعد الله حق فيرتابون ، أو لا يعلمون حكمة الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة . فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس ، وعاقبته محمودة في نفس الأمر . وبهذا انتهى المشهد الأول .

فوائـد :

١ - يتحدث الإصحاح الثاني من سفر الخروج في بدايته عن هذا المشهد ، ولكنه يذكر بدلاً من زوجة فرعون بنت فرعون . وهذا يدلنا على أن في هذا المقام كذباً ، أو غلطاً إلا إذا كان المراد أنها بنت فرعون سابق وعندئذ فلا ينبغي أن تكون زوجة لفرعون موسى . ومن المعلوم أن الفراعنة كانوا يتزوجون أخواتهم . فقد ذكر المؤرخون أن كليوباترا كانت حصيلة تزاوج أربعة عشر جيلاً من الإخوة والأخوات . فإذا عرفنا هذا فلننقل النّص بكامله :

(وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي . فحبلت المرأة وولدت ابنا ولما رأته أنه حسن خبّأته ثلاثة أشهر ، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطاً من البردي وطلته بالحُمَر والزفت . ووضعت الولد فيه . ووضعته بين الحلْفاء على حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به . فنزلت ابنة فرعون إلي النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلْفاء فأرسلت أمتها وأخذته ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكي فرقّتْ لَه وقالت هذا من أولاد العبرانيين . فقالت

أخته لابنة فرعون : هل أذهب وأدعُوا لَكِ أمرأة مرضعة من العبرانيات لتُرضع لك الولد ، فقالت لها ابنة فرعون : اذهبي فذهبت الفتاة ودعت أم الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك ، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت إني أنتشلته من الماء) .

هذا كل ما ذكرته التوراة عن هذا الموضوع . ونلاحظ أن ما ذكره القرآن على اختصاره هو الذي يعطينا التصور الأكمل للموضوع بدقائقه كلها ، ويعطينا تفسيرات شاملة ، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وما خالفه فهو الباطل .

٢ - نلاحظ أن الله عز وجل أكرم أم موسى بإرجاع ولدها إليها مع الرزق الحسن قال ابن كثير :(فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق دار ، ولهذا جاء في الحديث : « مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم ، فسبحان من بيده الأمر ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل همّ فرجاً ، وبعد كل ضيق مخرجاً) . قال النسفي : (وإنما حلّ لها ما تأخذه من الدينار كل يوم ــ كما قال السّدي ــ لأنّه مال حربي ، لا أنّه أجرة على إرضاع ولدها) .

٣ - يسمي العلماء اللام في قوله تعالى : ﴿ **ليكون لهم عدواً وحزناً** ﴾ لام العاقبة . قال النسفي . أي ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا ، كقولهم للموت : ما تلده الوالدة وهي لم تلد لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك كذا قاله الزجاج وعن هذا قال المفسرون : إن هذه لام العاقبة والصيرورة . وقال صاحب الكشاف هي لام كي التي معناها التعليل ، كقولك : جئتك لتكرمني ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز ؛ لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء) .

وقال ابن كثير : (قال محمد بن إسحاق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه أن الله تعالى قيّضهم لالتقاطه ليجعله عدواً لهم وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه) .

٤ - احتج عمر بن العزيز على القدرية ، أي الذين يكذّبون بالقدر بآية ﴿ **ليكون لهم عدواً وحزناً** ﴾ على إثبات القدر ، وعلى خطئهم في زعمهم الكافر . قال ابن كثير : (وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، في تكذيبهم بكتاب الله ، وبأقداره النافذة في علمه السابق : وموسى في علم الله السابق لفرعون عدوّ وحزن قال الله تعالى : ﴿ **ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصراً والله تعالى يقول : ﴿ **ليكون لهم عدواً وحزناً** ﴾) .

٥ - نلاحظ من سياق القصة أن الله عز وجل إذا أراد إنقاذ أمة هيأ لها المنقذ ، ومن ثم فإن وجود الرسول ، أو المجدّد ، أو الوارث ، أو الخليفة ، أو القائد ، له دوره الكامل في نقل الأمّة من حال إلى حال ، كما نلاحظ أن الله عز وجل إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه ، وأنّ كل معاندة مهما كان شأنها لا يمكن أن تخدم إلا مراد الله ، ومن كلام ابن كثير في هذا المقام : (أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه من ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب ، بل نفذ حكمه ، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلّلهُ وتتفدّاه ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموٰات العلا هو القاهر الغالب العظيم ، القوي العزيز ، الشديد المحال ، الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن) .

٦ - في المشهد الأول من هذه السورة دروس كثيرة لهذه الأمة في التعريف على أهمية القيادة ، وفي الاطمئنان إلى فعل الله بعباده المؤمنين ، وفي التدليل على صحة الإلهام ، وفي ضرورة التوكل مع الأخذ بالأسباب ، وغير ذلك من الدروس فلننتقل إلى المشهد الثاني في القصة :

☆ ☆ ☆

المشهد الثاني

ويمتدّ من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (٢٢)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

التفسير :

﴿ **ولما بلغ** ﴾ موسى ﴿ **أشدّه** ﴾ أي نهاية القوة وتمام العقل ﴿ **واستوى** ﴾ أي واعتدل وتم استحكامه ﴿ **آتيناه حكماً** ﴾ أي حكمة أو نبوة ﴿ **وعلماً** ﴾ فقهاً أو علماً بمصالح الدارين ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ أي كما فعلنا بموسى وأمّه نفعل بالمؤمنين . قال الزجاج : جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان ، لأنّهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه ﴿ **ودخل المدينة** ﴾ أي مدينة فرعون وعاصمته ﴿ **على حين غفلة من أهلها** ﴾ هو بين العشاءين ، أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار ﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته** ﴾ أي ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل ، إذ شيعة الرجل أتباعه وأنصاره ﴿ **وهذا من عدوّه** ﴾ أي من مخالفيه من القبط ﴿ **فاستغاثه** ﴾ أي فاستنصره ﴿ **الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى** ﴾ قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه (أي لكمه باصطلاح عصرنا) ، قال النسفي : أو بأطراف أصابعه (على طريقة بعض ضربات لعبة الكاراتيه) وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه ﴿ **فقضى عليه** ﴾ أي فقتله ، أي كان فيها حتفه فمات ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **هذا** ﴾ أي القتل ﴿ **من عمل الشيطان** ﴾ أي من وسوسته أو طريقته قال النسفي : (وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان ، وسماه ظلماً لنفسه ، واستغفر منه ؛ لأنه كان مستأمناً فيهم ، ولا يحل قتل الكافر الحربي المستأمن ، أو لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، وعن ابن جريج ليس لنبي أن يقتل مالم يؤمر) .

﴿ **إنه عدو مضل مبين** ﴾ أي ظاهر العداوة ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **ربّ** ﴾ أي يا رب ﴿ **إني ظلمت نفسي** ﴾ بما فعلت ﴿ **فاغفر لي** ﴾ زلتي ﴿ **فغفر له** ﴾ زلّته ﴿ **إنّه هو الغفور** ﴾ بإقالة الزلل ﴿ **الرحيم** ﴾ بإزالة الخجل ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **رب بما أنعمت عليّ** ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعزّ والنّعمة ﴿ **فلن أكون ظهيراً** ﴾ أي معيناً ﴿ **للمجرمين** ﴾ أي الكافرين بك ، أو المخالفين لأمرك من شيعته ، وعد ربه ألا يعين كافراً ، وألا يواليه وألا ينصره ، وهل قوله ﴿ **بما أنعمت عليّ** ﴾ قسم أو استعطاف ودعاء ؟ قولان ﴿ **فأصبح** ﴾ بعد قتله القبطي ﴿ **في المدينة خائفاً** ﴾ على نفسه من قتله القبطي أن يؤخذ به ﴿ **يترقّب** ﴾ أي يتوقع المكروه ، وهو الاستقادة منه ، أو ينتظر الأخبار ، أو يترقّب ما يقال فيه ، أو يتلفّت ويتوقّع ما يكون من هذا الأمر . قال النسفي : (وفيه دليل على أنّه لا بأس بالخوف من دون الله ، بخلاف ما يقوله بعض

الناس إنه لا يسوغ الخوف من دون الله) . أقول : لكن ينبغي أن يغالب الخوف بالتوكل على الله ﴿ **فإذا الذي استنصره بالأمس** ﴾ أي على ذلك القبطي ﴿ **يستصرخه** ﴾ أي يستغيثه . والمعنى : أن الإسرائيلي الذي خلّصه موسى استغاث به ثانياً من قبطي آخر ﴿ **قال له موسى** ﴾ أي قال موسى للإسرائيلي ﴿ **إنك لغوي مبين** ﴾ أي أي ضال عن الرشد ، ظاهر الغواية ، كثير الشر ﴿ **فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما** ﴾ أي بالقبطي الذي هو عدوّ لموسى وللإسرائيلي ﴿ **قال** ﴾ الإسرائيلي ظانّاً أن موسى يريد أن يبطش به ﴿ **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ يعني القبطي القتيل قال ابن كثير : وذلك لأنّه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ﴿ **إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض** ﴾ أي قتّالاً في الغضب ﴿ **وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ أي في كظمك الغيظ ، وقتلك من يستحقّ القتل . قال النسفي : (وكان قتل القبطي بالأمس قد شاع ، ولكن خفي قاتله ، فلمّا أفشى الإسرائيلي على موسى عليه السلام علم القبطي الثاني أن قاتله أي القبطي الأول موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله) ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ أي يسرع في مشيه . قال ابن كثير : وصفه بالرجولية لأنّه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ﴿ **قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** ﴾ أي يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، أو يتشاورون فيك ليقتلوك ﴿ **فاخرج** ﴾ من المدينة ﴿ **إنّي لك من الناصحين** ﴾ أي المخلصين لك النصيحة ﴿ **فخرج** ﴾ موسى ﴿ **منها** ﴾ من المدينة ﴿ **خائفاً يترقب** ﴾ أي يتلفّت ، أو يترقب التعرض له في الطريق ، أو يترقب أن يلحقه من يقتله ﴿ **قال ربّ نجني من القوم الظالمين** ﴾ أي من فرعون وملائه ﴿ **ولمّا توجّه تلقاء مدين** ﴾ أي نحوها ، ومدين قرية شعيب ولم تكن في سلطان فرعون ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ أي وسطه ، ومعظم نهجه ، أي الطريق الأقوم ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً وبهذا انتهى المشهد الثاني :

فوائد :

١ - هذا المشهد تجده في الإصحاح الثاني من سفر الخروج ، ولكن كالعادة قد اختلط فيه الحق بالباطل ، والخطأ بالصواب ، لتقادم العهد على زمن النسخ - ولأسباب أخرى ــ فجاءنا الله عز وجل بهذا القرآن مصححاً للأخطاء وهادياً للصواب .

فمثلاً نلاحظ في النص التوراتي الغلط في كون المتخاصمين في المرّة الثانية كانا عبرانيين . كما نلاحظ أن النص التوراتي الحالي أغفل كثيراً من الحيثيات التي هي ضرورية لمعرفة نفسية المرشح للنبوة قبلها ، وهذا الكمال في النص القرآني دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، كما أن الغلط في النص التوراتي إنما هو أثر عن كون التوراة الحالية ــ كما أثبتنا في أكثر من مكان ــ قد داخلها التحريف والغلط ، إما بسبب سوء النية ، أو بسبب البعد الزماني الذي كان بين نزول التوراة وتسجيلها هذا الذي وصلنا .

٢ - من الدروس التي نأخذها من هذا المشهد ، دروس التوبة ، والفتوة ، والشجاعة ، والدفاع عن الحقوق ، ومقاومة العدوان ، والبطش به ، وحرص المؤمن ، على المؤمن واللجوء إلى الله في كل أمر .

٣ - قال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ (واحتج أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم ، أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الرصافي أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخ له كاتب فقال له : إن أخي ليس له من أمور السلطان شيء ، إلا أنه يكتب له بقلم مايدخل ومايخرج ، فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتاج ، وإن أخذ به كان له فيه غنى ، قال : لمن يكتب ؟ قال : لخالد بن عبد الله القسري قال : ألم تسمع إلى ماقال العبد الصالح ﴿ **ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ فلا يهتم أخوك بشيء ، وليرم بقلمه ، فإن الله تعالى سيأتيه برزق ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الضبي الكاتب قال : قال رجل لعامر : يا أبا عمرو إني رجل كاتب أكتب مايدخل ومايخرج ، آخذ رزقاً أستغني به أنا وعيالي قال : فلعلك تكتب في دم يسفك قال : لا . قال : فلعلك تكتب في مال يؤخذ قال : لا . قال : فلعلك تكتب في دار تهدم قال : لا . قال : أسمعت بما قال موسى عليه السلام ﴿ **ربّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ قال : أبلغت إليَّ ياأباعمرو ، والله عز وجل لأخطّ لهم بقلم أبداً ، قال : والله تعالى لايدعك الله سبحانه بغير رزق أبداً . وقد كان السلف يجتنبون كل الاجتناب عن خدمتهم . أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال : اذهب بعطاء أهل بخارى فأعطهم ، فقال : اعفني فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه ، فقال له ، بعض أصحابه : ماعليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لاترزؤهم شيئاً ، فقال : لاأحب أن أعين

الظلمة في شيء من أمرهم ، إذا صح حديث « ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة ، وأشباه الظلمة ، وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة ، أو برى لهم قلماً ، فيجمعون في تابوت من حديد ، فيرمى بهم في جهنم » فليبكِ من علم أنه من أعوانهم على نفسه ، وليقلع عما هو عليه قبل حلول رمسه ، ومما يقصم الظهر ماروي عن بعض الأكابر أن خياطاً سأله فقال : أنا ممن يخيط للظلمة ، فهل أعدّ من أعوانهم ؟ فقال : لا . أنت منهم ، والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم ، ويا حسرتا على من باع دينه بدنياه ، واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه . هذا وقد بلغ السيل الزبى وجرى الوادي فطمّ على القرى *) اهـ .

أقول : العبرة في الأعمال للفتوى من أهلها ، والورع طيب .

☆ ☆ ☆

المشهد الثالث

ويمتد من الآية (٢٣) إلى نهاية الآية (٢٨) وهذا هو :

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ

عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

التفسير :

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ أي ولمّا وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿ **وجد عليه** ﴾ أي جانب البئر ﴿ **أمّة** ﴾ أي جماعة ﴿ **من الناس يسقون** ﴾ أي مواشيهم ﴿ **ووجد من دونهم** ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم ، أو في مكان أبعد من مكانهم ﴿ **امرأتين تذودان** ﴾ أي تكفكفان غنمهما لكيلا ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ أي ما شأنكما أي ما خبركما لاتردان مع هؤلاء ﴿ **قالتا لا نسقي** ﴾ غنمنا ﴿ **حتى يصدر الرعاء** ﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿ **وأبونا شيخ** ﴾ لايمكنه سقي الأغنام ﴿ **كبير** ﴾ أي في السن لايقدر على رعي الغنم أي فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى ﴿ **فسقى لهما** ﴾ غنمهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف ﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ أي إلى ظل شجرة . قال النسفي : وفيه دليل جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ﴿ **فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ أي إني فقير لأي شيء قليل أو كثير ، غث أو سمين تبعثه إلي من خير ، وكان قد بلغ به الجهد أشده لأنه لم يكن لديه شيء إذ خرج من مصر ، فكان قوته في رحلته ما يجده .قال النسفي :ولما طال عليه البلاء أنس بالشكوى إذ لانقص في الشكوى إلى المولى ﴿ **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء** ﴾ أي مستحيية .قال النسفي : (وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا ، فأتته مستحيية ، قد استترت بكمّ درعها ،وما في (ما سقيت) مصدرية أي جزاء سقيك روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حُفّل قال لهما : ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها :امشي خلفي وانعتي لي الطريق) ﴿ **قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ أي ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿ **فلما جاءه وقصّ عليه القصص** ﴾ أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿ **قال** ﴾ له ﴿ **لاتخف**

نجوت من القوم الظالمين ﴾ إذ لاسلطان لفرعون بأرضنا .قال النسفي : وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى ، والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورّع ، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل إنه لابأس به عند الحاجة ، كما كان لموسى عليه السلام ﴿ **قالت إحداهما يا أبت استأجره** ﴾ أي اتخذه أجيراً ﴿ **إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان : الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ﴿ **قال إني أريد أن أنكحك** ﴾ أي أزوّجك ﴿ **إحدى ابنتي هاتين** ﴾ قال النسفي : (قوله ﴿ **هاتين** ﴾ يدل على أنه كان له غيرهما) **أقول** : التوراة الحالية تذكر أن له سبع بنات قال النسفي : وهذه مواعدة منه ، ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقد لقال قد أنكحتك ﴿**على أن تأجرني** ﴾ أي على أن تكون أجيراً لي ﴿ **ثماني حجج** ﴾ أي ثماني سنين .قال النسفي ـــ وهو حنفي : (والتزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع ، لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة ، بخلاف التزوج على الخدمة) أي على خدمة الزوجة ﴿ **فإن أتممت عشراً فمن عندك** ﴾ أي فإن أكملت عمل عشر حجج فذلك تفضّل منك ليس بواجب عليك ، أو فإتمامه من عندك ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ ولاأحتّم عليك ، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصالحين** ﴾ في حسن المعاملة ، والمراد بذكره مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيق الله فيه ومعونته ، لأنه إن شاء فعل ، وإن لم يشأ لم يفعل ذلك ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ﴿ **بيني وبينك** ﴾ يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً ، لا يخرج كلانا عنه ،لا أنا فيما شرطت عليّ ولاأنت فيما شرطت على نفسك ﴿ **أيّما الأجلين قضيت** ﴾ العشر أو الثمان ﴿ **فلا عدوان عليّ** ﴾ أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة عليه . قال المبرد :قد علم أنه لاعدوان عليه في أيهما ، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان ، فكذلك طلب الزيادة على الأقل ﴿ **والله على ما نقول وكيل** ﴾ أي شاهد ورقيب .وبهذا انتهى المشهد الثالث .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك**

ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ : (وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ــ ولعله كان يشعر كما أسلفنا - أنها محددة ، وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرّج ولاالتواء . فهو يعرض نكاحاً لايخجل منه ، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل .ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ،والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ، وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ،أو لايليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ، ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولانية نكاح .فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ،وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة .

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ﷺ أو من يرغب في تزويجهن منهم .كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولاحياء .. عرض عمر ــ رضي الله عنه - ابنته حفصة على أبي بكر فسكت ، وعلى عثمان فاعتذر ،فلما أخبر النبي ﷺ بهذا طيّب خاطره عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما .ثم تزوجها ﷺ وعرضت امرأة نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء .فزوجها رجلاً لايملك إلا سورتين من القرآن ، يعلمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه . في غير ما تلعثم ولاجمجمة ولا تصنّع ولا التواء) .

فوائــد :

١ ــ ذكر ابن كثير بسند صحيح إلى عمر بن الخطاب أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون ، قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟

فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .إسناده صحيح .

٢ ــ ذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى :﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ ما قاله ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود قال :أحثثت على جمل ليلتين حتى أصبحت مدين فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى فإذا هي شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملي وكان جائعاً فأخذها جملي فعالجها ساعة ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت ، وفي رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التي كلّم الله منها موسى – كما سيأتي إن شاء الله – والله أعلم . أقول : إن صحت هذه الرواية فإن أهل مدين يكونون قد بقوا يتوارثون قصة موسى والشجرة التي جلس عليها حتى صدر الإسلام .

٣ ــ بمناسبة رعي الفتاتين للغنم قال النسفي : (وإنما رضي شعيب عليه السلام -أقول هذا على القول بأن شعيباً هو صاحب موسى في القصة والتحقيق أنه ليس كذلك - لابنتيه بسقي الماشية لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور ، والدين لايأباه ، وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة) .

٤ ــ حقق ابن كثير في اسم الرجل الذي أوى إليه موسى فقال : (وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟على أقوال : أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، هذا هو المشهور عند كثير من العلماء ،وقد قاله الحسن البصري وغير واحد . ورواه ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قصّ عليه موسى القصص قال ﴿ **لاتخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت » وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب : وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنصّ القرآن ،وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد .وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو ــ والله أعلم ــ احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا ،وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة

موسى لم يصح إسناده - كما سنذكره قريباً إن شاء الله - ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون والله أعلم .

٥ - تتحدث التوراة الحالية عن هذا المشهد وتسمي الرجل رعوئيل ، وتسميه يثرون وتصفه بكاهن مدين .وتذكر أن البنات اللواتي كن يسقين سبع ، وهذا مما حرف وبدّل .ولننقل النص بحروفه كما ورد في الإصحاح الثاني من سفر الخروج وكان لكاهن مِدْيان سبع بنات ، فأتين واستَقَيْن وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن فأتى الرعاة وطردوهن ، فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رَعُوئيل أبيهن . قال : ما بالُكن أسرعتن في المجيء اليوم ؟ فقلن : رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة ، وإنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم ، فقال لبناته : وأين هو ؟ لماذا تركتن الرجل ؟ ادعونه ليأكل طعاماً ، فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل ، فأعطى موسى صفّورة ابنته ، فولدت ابناً فدعا اسمه جِرْشُوم ؛ لأنه قال : كنت نزيلاً في أرض غريبة) ونلاحظ أن النص التوراني المحرّف ليس فيه كثير من التفصيلات التي ذكرها القرآن مع مخالفته للحق الذي أكرم الله عز وجل به هذه الأمة .

٦ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء** ﴾ قال ابن كثير : (كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال :جاءت مستترة بكم درعها ، وقال ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال :قال عمر رضي الله عنه : جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء، دلّاجة، ولّاجة، خرّاجة. هذا إسناد صحيح .قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ، ومن النساء الجارية السليطة ، ومن النوق الشديدة).

٧ - بمناسبة قواله تعالى :﴿ **إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾ قال ابن كثير : (وروى سفيان الثوري عن عبدالله بن مسعود قال :أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرّس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت :ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن صاحب موسى ﴿ **على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال : اشتريت . أنه يصح والله أعلم ....وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي فيما إذا قال : بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة ، أنه يصح ، ويختار المشتري بأيهما أخذ صح .وحملوا

الحديث المروي في سنن أبي داود : « من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله والله أعلم .ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا في ذلك بماروواه ابن ماجه في كتابه السنن حيث قال :باب استئجار الأجير على طعام بطنه....عن عتبة بن المنذر السلمي قال :كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طسٓمٓ حتى إذا بلغ قصة موسى قال :« إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشرة سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » .قال ابن كثير :وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف ... ولكن قد روي من وجه آخر وفيه نظر ..) .

٩ ــ روى البخاري .. عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .هكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ، ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية والأول أشبه ، والله أعلم . وقد روي من حديث ابن عباس مرفوعاًوروىابن جرير .. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال :« سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » .

١٠ ــ أخرج البزار بسنده إلى أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال أوفاهما وأبرهما » قال : « وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » ثم قال البزار لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد .

١١ ــ تروي التوراة الحالية المحرفة في قصّة يعقوب في سفر التكوين (أنّ يعقوب عندما أراد فراق أبي زوجته ، جعل له أبو زوجته كل شاة لها لون معين ، وأن يعقوب جعل عصيّاً ملونة بذلك اللون عند سقي الغنم وأن الغنم ولدت كلها من اللون الذي ليعقوب) ينقل ابن كثير مثل هذه الحادثة على أنها حدثت لموسى ، ويذكر بعضهم حديثاً في الموضوع وبعد أن ذكر ابن كثير الحديث قال :مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري . وفي حفظه سوء وأخشى أن يكون رفعه خطأ . أقول : إن هذه الحادثة هي من روايات أهل الكتاب ــ والله أعلم ــ وحدث فيها خلط فإما أن هناك نسخاً قديمة تذكر هذه الحادثة لموسى أو أن الذي رواها عنهم غلط .

المشهد الرابع

ويمتد من الآية (٢٩) إلى نهاية الآية (٣٥) وهذا هو :

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

☆ ☆ ☆

نقـل :

عند قوله تعالى : ﴿ **فلما قضى موسى الأجل ...** ﴾ قال صاحب الظلال :

(نقف قليلاً أمام تدبير الله لموسى - عليه السلام - في هذه السنوات العشر ، وفي هذه الرحلة ذهاباً وجيئة ، في هذا الطريق..

لقد نقلت يد القدرة خطى موسى ـ عليه السلام-خطوة خطوة ، منذ أن كان رضيعاً في المهد حتى هذه الحلقة ، ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون ، وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوّه ، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً ، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذّره وينصحه بالخروج منها ، وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد .وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف .. هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب ،قبل النداء وقبل التكليف..تجربة الرعاية والحب والتدليل ، وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار ، وتجربة الخوف والمطاردة والفزع ، وتجربة الغربة والوحدة والجوع ، وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور ، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة .. إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي . إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقّاه بشر -عدا رسالة محمد ﷺ- فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض في زمانه ، وأقدمهم عرشاً ، وأثبتهم ملكاً ، وأعرقهم حضارة ،وأشدهم تعبّداً للخلق واستعلاءً في الأرض . وهو مرسلٍ لاستنقاذ قوم من كؤوس الذّل حتى استمرأوا مذاقه فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ،ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس .فاستنقاذ قوم

كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ،انحرفوا عنها ، وفسدت صورتها في قلوبهم فلاهي قلوب خامة تتقبّل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ولاهي باقية على عقيدتها القديمة .ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً ، له حياة خاصة تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير . ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة ، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة ، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى عليه السلام—وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة .

إن لحياة القصور جواً خاصاً ، وتقاليد خاصة ،وظلالاً خاصة تلقيها على النفس وتطبّعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية ، والرسالة معاناة الجماهير من الناس فيهم الغني والفقير ،والواجد والمحروم ، وفيهم النظيف والوسخ . والمهذب والخشن ، وفيهم الطيب والخبيث والشرير . وفيهم القوي والضعيف ،والصابر والجزوع.. وفيهم وفيهم ... وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم ،وطريقة فهمهم للأمور ، وطريقة تصورهم للحياة ،وطريقة حديثهم وحركتهم ، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم..وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ، ومشاعر الذين تربوا في القصور ، ولايكادون يطيقون رؤيتها فضلاً على معاناتها وعلاجها ، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح ،لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لاتفسح لهم في قلوب أهل القصور !

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشظف أحياناً.. وقلوب أهل القصور — مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة . لاتصبر طويلاً على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة .

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى — عليه السلام – أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة ، وأن تزج به في مجتمع الرعاة ، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون

راعي غنم يجد القوت والمأوى ،بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع .وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ،وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم .وأن تلقي به في خضم الحياة كبيراً بعد ما ألقت به في خضم الأمواج صغيراً ليمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها ..

فلما أن استكملت نفس موسى –عليه السلام– تجاربها ، وأكملت مرانتها ودربتها ، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة ،قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ومجال رسالته وعمله ، يتلقاها ، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيداً طريداً خائفاً يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق ؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . والطريق الذي سيقود فيه خطى قومه بأمر ربه ، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته ، حتى لايعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق . فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة ، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ، حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صُنع موسى على عين الله ، وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف .فلنتتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، في طريقه إلى هذا التكليف) .



التفسير :

﴿ **فلّما قضى موسى الأجل** ﴾ أي الأكمل منهما ﴿ **وسار بأهله** ﴾ أي بامرأته نحو مصر ﴿ **آنس من جانب الطور ناراً** ﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿ **قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً** ﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿ **لعلي آتيكم منها بخبر** ﴾ أي عن الطريق لأنّه قد ضلّ الطريق ﴿ **أو جذوة من النار** ﴾ أي قطعة منها ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ أي تستدفئون بها من البرد ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن** ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿ **في البقعة المباركة** ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿ **من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين** ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾ أي ونودي أن ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعباناً ﴿ **فلمّا رآها تهتز** ﴾ أي تتحرك ﴿ **كأنها جان** ﴾ أي حيّة في سعيها وهي ثعبان في جثتها

﴿ **ولّى مدبراً** ﴾ أي هرب منهزماً ﴿ **ولم يعقّب** ﴾ أي ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فقال الله له ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ أي أمنت أن ينالك مكروه من الحيّة فرجع فوقف في مقامه الأوّل ﴿ **اسلك** ﴾ أي أدخل ﴿ **يدك في جيبك** ﴾ أي في جيب قميصك أي في فتحة العنق أي في عُبّك ﴿ **تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ أي من غير برص قال ابن كثير : أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ﴿**واضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾ أي من الخوف ، والمعنى : واضمم يدك إلى صدرك يذهب مابك من فرق أي لأجل الحية﴿ **فذانك** ﴾ أي قلب العصا حية وخروج يده بيضاء ﴿ **برهانان من ربك** ﴾ أي حجتان نيّرتان ، ودليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمره ودينه ﴿**قال رب إني قتلت منهم نفساً**﴾ يعني ذلك القبطي ﴿**فأخاف أن يقتلون** ﴾ أي : إذا رأوني ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً**﴾ قال ابن كثير : وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خيّر بينها وبين التمرة أو الدّرّة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة في التعبير ﴿ **فأرسله**﴾ أي هارون ﴿ **معي ردءًا يصدقني** ﴾ أي عونا قال ابن كثير : أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري يصدقني فيما أقوله ، وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد . قال النسفي : ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت ألاترى إلى قوله ﴿ **هو أفصح مني لساناً فأرسله** ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان ، لالقوله صدقت فسحبان وباقِل فيه يستويان ﴿ **إني أخاف أن يكذبون** ﴾ هذا تعليل لسؤاله الله عز وجل أن يكرمه بأخيه ﴿**قال سنشد عضدك بأخيك** ﴾ أي سنقوّي أمرك ونعزّ جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك ﴿**ونجعل لكما سلطاناً**﴾ أي حجة قاهرة ، أو غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء ﴿**فلا يصلون إليكما بآياتنا**﴾ قال ابن كثير : أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ أي القاهرون فهذه بشارة بالنصر . وبهذا انتهى المشهد الرابع .

فوائــد :

١ ـــ هذا المشهد تتحدث عنه التوراة الحالية المحرفة في سفر الخروج ، في إصحاحاته الثاني والثالث والرابع ، ويظهر أن أقلام النساخ الكاذبة التي تحدث عنها أرميا والتي كتبت هذه الأسفار بعد مئات السنين من حياة موسى كما برهنا على ذلك من قبل ، يظهر أن هذه الأقلام لم يكن عندها تصور واضح عما حدث ، ومن ثم نلاحظ في هذه الإصحاحات الخلط والخبط الكثيرين ، ومما يدلك على فكرة الخلط فيها ماذكره الإصحاح الرابع في أواخره (وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومسّت رجليه فقالت إنك عريس دم لي فانفك عنه حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان) أهذا كلام ؟ ومن الخلط أن موسى عليه السلام نزل عليه الوحي وهو يرعى غنم يثرون على جبل حوريب ، وبعد ذلك ذهب وأتى بزوجته عائداً إلى مصر ، مع أن البعد بين حوريب ومدين كثير جداً أفمن المعقول أن يرعى إنسان غنمه على بعد مئات الأميال بعيداً عن أهله وزوجته ، ومع كل الخلط الموجود في الأصحاحات فقد يكون مناسباً أن ننقل منها هذه الفقرة في الإصحاح الثالث : (وظهر له الرب بلهيب نار من وسط علّيقة فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لاتحترق العلّيقة ،فلما رأى الرب أنه مال . لينظر ناداه الله من وسط العُلَّيْقَة وقال : موسى ، فقال : هاأنذا ، فقال : لا تقترب إلى ها هنا ، اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذي أنت واقف فيه عليه أرض مقدسة ، ثم قال أنا إله أبيك ، إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، فغطّى موسى وجهه ؛ لأنه خاف أن ينظر إلى الله ، فقال الرب : إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر ، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم ، إني علمت أوجاعهم ؛ فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويّين واليبوسيّين) .

٢ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿**واضمم إليك جناحك من الرهب**﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد من الفزع ، وقال قتادة : من الرعب ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعم من هذا ،

وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة .روى ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعباً من فرعون فكان إذا رآه قال : اللهم إني أدرأ بك في نحره ، وأعوذبك من شره ، فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار) .

٣ ــ نقل النسفي عن رؤية موسى النار ما قاله جعفر : أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب ، فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطي ما سأل وأمن مما خاف .

☆ ☆ ☆

المشهد الخامس

ويمتد من الآية (٣٦) إلى نهاية الآية (٤٣) وهذا هو :

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

التفسير :

﴿ **فلما جاءهم** ﴾ أي جاء فرعون وملأه ﴿ **موسى بآياتنا** ﴾ بمعجزاتنا ﴿ **بيّنات** ﴾ أي واضحات ﴿ **قالوا ما هذا إلا سحر مفترى** ﴾ أي سحر تعمله أنت ثم تفتريه على

الله ؛ أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر ، وليس بمعجزة من عند الله ، أي هو مفتعل مصنوع ﴿ **وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾ يعنون عبادة الله وحده لاشريك له ، يقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلايشركون مع الله آلهة أخرى .فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم ﴿ **وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده** ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال ﴿ **ومن تكون له عاقبة الدار** ﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد ﴿ **إنه لايفلح الظالمون** ﴾ أي المشركون بالله عز وجل ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري** ﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده أي ما لكم من إله غيري ، أو هو على ظاهره وأن إلها غيره غير معلوم عنده ﴿ **فأوقد لي يا هامان على الطين** ﴾ أي اطبخ لي الآجر واتخذه ﴿ **فاجعل لي صرحاً** ﴾ أي قصراً عالياً ﴿ **لعلي أطّلع** ﴾ أي أصعد فأرى ﴿ **إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين** ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في دعواه أن له إلهاً وأنه أرسله إلينا رسولاً . قال النسفي : (وقد تناقض المخذول فإنه قال : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان ، وأثبت لموسى إلهاً وأخبر أنه متيقن بكذبه ﴿ **واستكبر** ﴾ أي وتعظم ﴿ **هو وجنوده في الأرض** ﴾ أرض مصر ﴿ **بغير الحق** ﴾ أي بالباطل ، فالاستكبار بالحق لله تعالى ، فهو المتكبر على الحقيقة ، وذلك من كمال ذاته ﴿ **وظنوا أنهم إلينا لايرجعون** ﴾ أي اعتقدوا أنه لاقيامة ولا معاد ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم** ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد وقد شبههم استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجمّ الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفّه فطرحهن في البحر ﴿ **فانظر** ﴾ يامحمد وحذر قومك فإنك منصور عليهم ﴿ **كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ في الدنيا قبل الآخرة ﴿ **وجعلناهم أئمة** ﴾ أي : قادة ﴿ **يدعون إلى النار** ﴾ أي : إلي عمل أهل النار ﴿ **ويوم القيامة لاينصرون** ﴾ من العذاب فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾ أي ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة ، أو شرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، فهم ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ﴿ **ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ أي المطرودين المبعدين أو الهالكين المشوهين ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة ﴿ **من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ أي قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ﴿ **بصائر للناس** ﴾ أي أنواراً فالبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة ، كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجساد ،وقد جعل الله التوراة نوراً للقلب لأنه

بدونها أعمى لا يستبصر ، ولايعرف حقاً من باطل ﴿**وهدى**﴾ أي وإرشاداً للناس لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿**ورحمة**﴾ أي لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ أي لعلهم يتعظون . وبهذا انتهى المشهد الخامس والأخير من قصة موسى في هذه السورة .

....

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه البزار عن أبي سعيد رفعه إلى النبي ﷺ قال :«ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولامن الأرض إلا من قبل موسى» ثم قرأ ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس**﴾ وعلى فرض صحة الحديث فالمراد به عذاب الاستئصال لقوم بأسرهم ، لا لجزء من قوم ، كما حدث لقرية أيلة أو لأمثالها من القرى كالخسف بأغادير في عصرنا .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى :﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾ ورأينا أن بداية السورة كانت قوله تعالى :﴿**طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**﴾ وإذن فقد قص الله علينا من آياته إذ قصّ علينا هذه المشاهد الخمسة من قصة موسى بما يخدم قضية الرسالة ، ومن ثم فإننا نرى المجموعة اللاحقة من القسم الثاني تبني على ما قصه الله علينا فيما سبق من أجل إثبات رسالة محمد ﷺ ثمّ يسير السياق على نفس السنن في المجموعة الثانية .

☆ ☆ ☆

المجموعتان الأولى والثانية من القسم الثاني

وتمتدان من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥١) وهذه هي :

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

☆ ☆ ☆

التفسير :

﴿**وما كنت**﴾ يامحمد ﴿**بجانب**﴾ الجبل ﴿**الغربي**﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب وهو الذي وقع فيه ميقات موسى ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ أي كلّمناه وكلفناه وأرسلناه ﴿**وماكنت من الشاهدين**﴾ أي من جملة الشاهدين للإيحاء إليه أي لم تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ﴿**ولكنا أنشأنا**﴾ أي بعد موسى ﴿**قروناً فتطاول عليهم العمر**﴾ أي طالت أعمارهم وفترت النبوة ، وكادت الأخبار تخفى واندرست العلوم ، ووقع التحريف في كثير منها ، فأرسلناك يامحمد مجدداً لتلك الأخبار ، مبيناً ما وقع فيه التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء . ومن ذلك قصة موسى ، كأنه قال : وماكنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك . فالآيات مسوقة للتدليل على نبوة محمد ﷺ وحكمتها ، وأن الله أوحى إليه ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، فنسي الناس حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، ويستمر السياق على هذا النحو ﴿ **وما كنت ثاوياً**﴾ أي مقيماً ﴿ **في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا** ﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها وما قال لقومه وما ردّوا عليه ﴿ **ولكنا كنا مرسلين**﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك وأرسلناك إلى الناس رسولاً ، أي ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾ موسى ﴿**ولكن رحمة من ربك**﴾ أي ماكنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿ **لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك**﴾ قال النسفي : في زمان الفترة بينك وبين عيسى ... ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من عند الله .

فوائد :

١ ــ في هذه الآيات يذكر الله عز وجل برهاناً على نبوة محمد ﷺ ، وحكمتها ، ومن ثم قدم ابن كثير لهذه الآيات بقوله : يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراءٍ لما تقدم ، وهو رجل أمّي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لايعرفون شيئاً من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما

كان من أمرها فقال تعالى : ﴿**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ الآية أي وماكنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى : ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ الآية . وقال في آخر السورة ﴿**ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك**﴾ وقال بعد ذكر قصة يوسف ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون**﴾ الآية ، وقال في سورة طه ﴿**كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق**﴾ الآية ، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ يعني ما كنت يامحمد بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿ **وما كنت من الشاهدين** ﴾ لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدهم ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

٢ ــ في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أكثر من اتجاه وقد ذكرنا في صلب التفسير ما هو الأولى ، وهو الذي رجحه ابن كثير بعد أن نقل الأقوال الأخرى . وهذا كلامه كله : (روى أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه . عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال : نودوا أن يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني » وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال مقاتل بن حيان ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت ، وقال قتادة : ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾ موسى ، وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى : ﴿**وماكنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخصّ من ذلك وهو النداء كما قال تعالى ﴿ **وإذ نادى ربك موسى** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيّاً** ﴾ :

كلمة في السياق :

نلاحظ أن قصة موسى ختمت بقوله تعالى :

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ وختمت الآيات السابقة بقوله تعالى ﴿ **ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ فالحكمة واحدة من بعثة موسى عليه السلام ، وإنزال الكتاب عليه ومن بعثة محمد ﷺ وإنزال الكتاب عليه ، وقد أقام الله عز وجل الحجة على رسالة محمد ﷺ بالآيات السابقة ، فكأن قصة موسى كانت المقدمة لهذه الآيات لإثبات رسالة محمد ﷺ ، فهذا القرآن الذي يقص علينا أدق التفاصيل عن قصص الأنبياء السابقين ما كان ليكون كذلك لولا أنه من عند الله ، أنزله على محمد ﷺ لأن من سنته الإرسال ﴿ **ولكنا كنا مرسلين** ﴾ ومن أجل أن ينذر به . وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ واضحة ، وبهذه المناسبة نحب أن نسجل هذه الملاحظة حول السياق القرآني :

ملاحظة :

من خلال دراسة قصة موسى في سورة القصص ، نلاحظ أن القرآن يقصّ علينا أدق التفاصيل عن بعض الأمور بما تكتمل به تصوراتنا في شأن النبوة ونفهم به معنى الرسالات ، ونعرف به سنن الله عز وجل ، ونجد أن كل شيء في هذا المقام يصبّ في المصب نفسه الذي تصب به كل آيات القرآن ، فأن تجد مثل هذا التكامل ، وأن تجد مثل هذا الجلال الذي تعرف به كمال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، دون إخلال ، فذلك علامة من علامات كون هذا القرآن من عند الله ، بينما لا تجد مثل هذا في الكتب السابقة التي داخلها التحريف والتبديل ، ومن ثم تجد كثيراً من التفصيلات في القرآن مما يساعد على استكمال التصورات الصحيحة مما لاتجده في الكتب السابقة ، إما بسبب من كمال القرآن ، أو بسبب من عدم وصول هذه الكتب إلينا على الكمال والتمام ، ولنعد إلى السياق فإن الله عز وجل يكمّل الكلام عن الحكمة في إرسال محمد ﷺ والحجة فيها ، وهو مراد رئيسي في السورة .

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة** ﴾ أي عقوبة ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ من الكفر والظلم ، وقد استعملت كلمة الأيدي في هذا المقام بسبب أن أكثر الأعمال تزاول بالأيدي ، فنسبت كل الأعمال إليها وإن كانت من أعمال القلب تغليباً للأكثر على الأقل ﴿ **فيقولوا** ﴾ عند العذاب ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً** ﴾ أي وأرسلته إلينا لتقيم علينا

الحجة ، فمن أجل ذلك أرسلنا ؛ لينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فلا يحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، ويدّعوا أن لو كان رسول لاتّبعوه ﴿ **فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين** ﴾ هذا تتمة كلامهم أي لو أنهم عوقبوا ولم يرسل الله إليهم لادّعوا أنهم لو جاءهم رسول لكانوا يتبعون آيات الله ويؤمنون إذن فهذا كان موقفهم لو عاقبهم الله ولم يرسل رسولاً فماذا كان موقفهم إذ أرسل الرسول : ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا** ﴾ أي القرآن أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز ﴿ **قالوا** ﴾ على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد ﴿ **لولا أوتي مثل ما أوتي موسى** ﴾ قال ابن كثير : يعنون ـــ والله أعلم ـــ من الآيات الكثيرة : مثل العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر ، وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه ، وبني إسرائيل .. ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل** ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة من قبل القرآن ﴿ **قالوا** ﴾ في موسى وهارون ﴿ **سحران تظاهرا** ﴾ أي تعاونا . جعلوا موسى وهارون عين السحر فقالوا سحر يعين سحراً ﴿ **وقالوا إنا بكلٍّ** ﴾ أي بكل واحد منهما ﴿ **كافرون** ﴾ والمعنى : أن الكفر بالمرسلين ليس سببه قلة الآيات بل الكبر والعناد . وبهذا رد الله عز وجل الرد الأول عليهم ، ثمّ يأتي الرد الثاني ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما** ﴾ أي أهدى من التوراة والقرآن ﴿ **أتبعه** ﴾ فإنني لا أستكبر عن اتباع الهدى من الله ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي فيما تدفعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل ، وتتظاهرون به أنكم مخلصون في الرغبة في الوصول إلى الحقيقة ، وقد جاء الجواب متضمناً مجموعة أمور : الأول : أن محمداً أوتي مثل ما أوتي موسى ، وهو هذا القرآن ، والثاني : أن الهدى الموجود في القرآن والتوراة هو وحده حجة ، والثالث : أنهم ليسوا على هدى أصلاً من الله عز وجل ، حتى يستكبروا عن اتباع هدى القرآن ، فالعلة فيهم وليس في ما أوحي إلى محمد ﷺ قصور ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق . وقال النسفي . فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ أي بلا دليل ولا حجة . أي فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ﴿ **ومن أضل ممن اتّبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي الذين يتبعون

أهواءهم ﴿ **ولقد وصّلنا هم القول** ﴾ قال النسفي : يعني : أن القرآن أتاكم متتابعاً متواصلاً ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ومواعظ وقال التوصيل : تكثير الوصل وتكريره ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أي ليتذكروا فيتعظوا فيفلحوا . وبذلك انتهت المجموعة الثانية من القسم الثاني من السورة .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن قصة موسى ختمت بقوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ وأن المجموعة الأولى ختمت بقوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ وأن المجموعة الثانية ختمت بقوله تعالى ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فكأنه في كل مرة قامت بها الحجة تختم بهذه الكلمة .

وواضح أن السورة تقرر مرة بعد مرة أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن آيات الله التي أنزلها على محمد ﷺ ، وأن رسالة محمد ﷺ واحدة من رسالات الله ، وأن محمداً ﷺ من المرسلين ، وصلة ذلك بالمحور واضحة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وواضح أن صلة المجموعتين بقصة موسى قبلهما قائمة ، فهما تبنيان على ما ذكر في قصة موسى من قبل .

فوائـد :

١ ــ ذكرت المجموعة الأخيرة حكمة بعثة محمد ﷺ ، وبعثة المرسلين بأنها إقامة الحجة على الخلق ، كما ذكرت المجموعة الأولى حكمة بعثة محمد ﷺ ، بأنها التذكير بما نسيه الخلق نتيجة لتطاول الزمن ، فالمجموعتان إذاً تتحدّثان عن حكمة بعثة محمد ﷺ ، وكل من المجموعتين أقامت الحجة على الناس برسالته ، وختمت المجموعة الثانية بذكر مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن في قوله تعالى ﴿ **ولقد وصّلنا هم القول لعلهم يتذكرون** ﴾ فالتوصيل كما فسره النسفي : تكثير الوصل وتكريره ، فالله عز وجل قد وصل بعضه ببعض ، القصة بالموعظة بالتشريع وكل ذلك يربطه رباط واحد في السورة الواحدة وفي القرآن كله ، وقد كان ذلك مع التكرار ، بأن عرض المعنى بشكل ثم بشكل آخر ، وفي ذلك من الإعجاز مالا يخفى ، وكل ذلك تقوم به الحجة ، وكل ذلك من أجل أن يتذكر الناس ، وأن يتعظوا ، وقد جاءت هذه الآية بعد أن أقام الله الحجة على المعاندين مرة بعد مَرّة في الآيات الأخيرة .

٢ ـــ في قوله تعالى : ﴿ **ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾أكثر من اتجاه ، وقد ذكرها كلها ابن كثير ، ونحن ننقلها لاستكمال الفائدة ، بعد أن اعتمدنا في صلب التفسير ما رأينا قال ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **ولقد وصّلنا لهم القول** ﴾ قال مجاهد : فصّلنا لهم القول ، وقال السدي بيّنا لهم القول ، وقال قتادة : يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ قال مجاهد وغيره ﴿ **وصّلنا لهم** ﴾ يعني قريشاً وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة...عن رفاعة ابن قرظه القرظي- وجعله ابن منده ـــ رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيي ، وهو الذي طلّق تميمة بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير – قال :نزلت ﴿ **ولقد وصّلنا لهم القول** ﴾ في عشرة أنا أحدهم رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة القصص هو :﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وقد قصّ الله علينا في هذه السورة من آياته ، ثم أقام الحجة على رسالة محمد ﷺ ، وعلى أن هذا القرآن حق ، وبعد ذلك تأتي ، مجموعة تتحدث عن موقف أهل الكتاب المخلصين الصادقين من هذا القرآن ، وأنهم يؤمنون به وفي ذلك حجة جديدة على أن هذا القرآن من عند الله ، إذ يسلّم له أهل الكتاب وفي الوقت نفسه فإن المجموعة تدعو أهل الكتاب للإيمان وهكذا تجد أن المجموعة تحقق أكثر من مقصد من خلال معانيها وسياقها .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتد من الآية (٥٢) إلى نهاية الآية (٥٥) وهذه هي :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

التفسير :

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله** ﴾ أي من قبل القرآن ﴿ **هم به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **يؤمنون** ﴾ أي يصدقون وذلك لمعرفتهم أن هذا التوافق بين القرآن وبين الحق في الكتب السابقة لايمكن أن يكون إلا من عند الله ، ولرؤيتهم أن هذا القرآن يحتوي الخير الذي دعا إليه الرسل جميعاً وزيادة ﴿ **وإذا يتلىٰ** ﴾ القرآن ﴿ **عليهم قالوا آمنا به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله** ﴾ أي من قبل نزول القرآن ﴿ **مسلمين** ﴾ أي كائنين على دين الإسلام أي موحّدين مخلصين لله مستجيبين له ، وفي قولهم ﴿ **إنه الحق من ربنا** ﴾ تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به ﴿ **أولئك** ﴾ المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿ **يؤتون أجرهم مَرّتين بما صبروا** ﴾ أي بصبرهم على الإيمان بالكتب السابقة ، والإيمان بالقرآن ، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ، أو لاستطاعتهم التخلص من أسر الاستمرار على القديم ، وتجشم اتباع الحق ، وما يقتضيه ذلك من قطع كل الوشائج السابقة ، وربط الذات بالوشائج الجديدة وفي ذلك ما فيه مما يحتاج معه إلى الصبر

﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ أي ويدفعون بالطاعة المعصية ، أو بالحلم الأذى أي لايقابلون السيّء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله ، يدخل في ذلك النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة ، والتطوعات المستحبة من صدقات النفل والقربات ﴿ **وإذا سمعوا اللغو** ﴾ أي الباطل أو الشتم من المشركين ﴿ **أعرضوا عنه** ﴾ وعن أهله فهم لايخالطونهم ولايعاشرونهم ﴿ **وقالوا** ﴾ للاّغين ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم** ﴾ أي لكم منا أمان بألا نقابل لغوكم بمثله ﴿ **لانبتغي الجاهلين** ﴾ أي لا نريد مخالطتهم وصحبتهم أي لانريد طريق الجاهلين ولانحبها .

....

كلمة في السياق :

دلت هذه الآيات على الأخلاق العليا التي ينبغي أن يتحقق بها من يدخل في هذا الدين من أهل الكتاب وهي أخلاق ينبغي أن يتحقق بها كل مؤمن ، وكل ذلك في سياق التأكيد على أن هذا القرآن حق ، وإذ قامت الحجة مرة ومرة ومرة على أن هذا القرآن حق ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، تأتي مجموعة تخاطب الرسول ﷺ مباشرة ، وتقيم الحجة على ما يطرحه الكافرون من أفكار ، وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الرابعة . فلننقل فوائد المجموعة الثالثة .

فوائد :

١ ــ في سبب نزول المجموعة السابقة من الآيات يوجد أكثر من وجهة ذكرها ابن كثير وهذه هي :

أ ــ قال سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم** ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إن كنا من قبله مسلمين** ﴾

ب ــ وقال محمد بن إسحاق في السيرة : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عمّا أرادوا دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركباً أحمق منكم – أو كما قالوا لهم – فقالوا لهم سلام عليكم ، لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً . قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أي ذلك كان ، قال : ويقال ــ والله أعلم ــ أن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ إلى قوله ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ : قال مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم والآيات التي في سورة المائدة ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ .

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين** ﴾ قال ابن كثير (وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » .

....

المجموعة الرابعة : وهي تتألف من جزأين وخاتمة

الجزء الأول

ويمتد من الآية (٥٦) إلى نهاية الآية (٧٥) وهذا هو :

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ

كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

كلمة في السياق :

تبدأ هذه المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وصلة ذلك بما قبلها واضحة ، فبعد إذ تقرر أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن من عند الله ، يأتي هذا التقرير ، ليحدثنا أن الرسول ﷺ نفسه

لو أحب هداية إنسان فلا يترتب على ذلك هدايته إلا إذا شاء الله ذلك ثم إن صلة هذه الآية في المحور كذلك واضحة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ فمع أنه من المرسلين فمهمته التبليغ أما الهداية فهي لله وحده :

وبعد إذ يتقرر أمر الهداية كما رأينا ، يعرض السياق أبرع حجج الكفر قديماً وحديثاً ، في الصرف عن الإسلام ويناقشها ويردها مرة بعد مرة فلنر التفسير :

﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة فأنت لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه قومك أوغيرهم ﴿ **ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ أي يخلق فعل الاهتداء في من يشاء ﴿ **وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، أو وهو أعلم بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات :

....

فائدة :

قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب . وقال ابن كثير في الآية (وفي الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فسبق القدر فيه واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة . قال الزهري ... عن المسيّب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرن لك مالم أنهَ عنك » فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى** ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ أخرجاه من حديث الزهري ، وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : لما

حضرت وفاة أبي طالب ، أتاه رسول الله ﷺ فقال : « يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال : لولا أن تعيّرني بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جزع الموت ، لأقررت بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك نزّل الله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان ورواه الإمام أحمد .. عن أبي هريرة بنحوه ، وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتاده أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله فأبى عليه ذلك وقال : أي ابن أخي ملة الأشياخ ، وكان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب . وقال ابن أبي حاتم .. عن سعيد بن أبي راشد قال : كان رسول قيصر جاء إليّ قال : كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ثم قال ممن الرجل قلت من تنوخ ، قال : هل لك في دين أبيك إبراهيم : الحنيفية ؟ قلت : إني رسول قوم ، وعلى دينهم ، حتى أرجع إليهم ، فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ .

....

﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا** ﴾ يخبر تعالى في هذه الآية عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى ، حيث قالوا لرسول الله ﷺ : نخشى إن اتّبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، وهي نفس الحجة التي يرددها اليوم ضعاف النفوس والمغرضون ، فهم إذا ما أقمت عليهم الحجة بالإسلام قالوا : إذا أعلنا موقفنا من الإسلام كمؤمنين به تتكالب علينا دول العالم كلها ، كأن دول العالم كلها ليست متكالبة علينا الآن ، وقد ردّ عز وجل قولهم ﴿ **أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً** ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظّم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم أمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون لهم أمناً وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ ﴿ **يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء** ﴾ أي تجلب وتجمع إليه من كل الثمار ، مما حوله من الطائف وغيره ، ومن كل العالم الآن ﴿ **رزقاً من لدنا** ﴾ أي من عندنا ﴿ **ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله ، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من

عنده ولما خافوا التخطف

قال صاحب الظلال في هذه الآية والآيتين بعدها : ﴿ **وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا** ﴾ .

(فهم لاينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس .وهم ينسون الله ،وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي ، وأن قوى الأرض كلها لاتملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ،وأن قوى الأرض كلها لاتملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدّلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لايكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لايكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ، وأن هذا ليس وهماً وليس قولاً يقال لطمأنة القلوب . إنما هو .. حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة .فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ،ويأوي إلى ركن شديد ،في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة حياة واقعة في هذه الأرض .وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ولايقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معاً برباط واحد ؛ صلاح القلب ، وصلاح المجتمع ، وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ،وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه . وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف . بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة . وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ،ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ؟. وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ ﴿ **إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان . وقد رد الله عليهم في وقتها

بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذي وهبهم الأمن ؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذي جعل القلوب تهوي إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً ؟ تتجمع في الحرم من كل أرض وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة :

﴿ أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟ .. ﴾

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمّنهم وهم عصاة ،يدع الناس يتخطفونهم وهم نقاة ؟! **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** .. لا يعلمون أين يكون الأمن ، وأين تكون المخافة . ولايعلمون أن مرد الأمر كله لله .فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقاً ، وأن يأمنوا التخطّف حقاً ، فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها : **﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين﴾** ..

إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؟ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية .. **﴿لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾** وبقيت شاخصة تحدّث عن مصارع أهلها ،وتروي قصة البطر بالنعمة ،وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً ، ولم يرثها بعدهم أحد **﴿وكنا نحن الوارثين﴾** . على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل فيها رسولاً . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسة رحمة بعباده :

﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ ..)

فوائـد :

١ ـــ أخرج النسائي... قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه أن الحارث بن عامر بن نوفل هو الذي قال : **﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾** .

٢ ـــ نلاحظ أن ذكر شبهة المشركين هذه جاءت بعد قوله تعالى **﴿إنك لا تهدي من**

أحببت.. ﴾ وكأن في ذلك إشارة إلى أن الهداية إذا أرادها الله لإنسان فحلت قلبه فإنه لا يصرفه عنها صارف ، أما الذي لا يريد الله هدايته فإنه يتعلل بكل علة ، ولو كانت غير معقولة ولا مقبولة

٣ ـ إن الشبهة التي عرضتها الآية السابقة هي حجة كافري اليوم في الانصراف عن الإسلام ، ناسين أن الله عز وجل هو الذي بيده الأمور كلها ، وأن الله عز وجل الذي بيده الأمور كلها . قد يعطي الأمن للكافرين فكيف لايعطيه للمؤمنين ، ثم أليست الدنيا دار ابتلاء ، وعلينا أن نجاهد ؟

....

﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعم الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، والبطر : سوء احتمال الغنى ، وهو ألا يحفظ حق الله فيه ﴿**فتلك مساكنهم**﴾ أي منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود ، وقوم شعيب وغيرهم ﴿**لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً** ﴾ من السكنى ﴿**وكنا نحن الوارثين**﴾ لتلك المساكن من ساكنيها ، فلا يملك التصرف فيها غيرنا أي رجعت خراباً ليس فيها أحد ﴿ **وما كان ربك مهلك القرى** ﴾كل وقت ﴿ **حتى يبعث في أمها** ﴾ أي أصلها ومعظمها أو عاصمتها ﴿**رسولاً**﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿**يتلو عليهم آياتنا** ﴾ أي وحينا ﴿**وماكنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ أي وما أهلكناهم إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم بعد الإعذار إليهم .

كلمة في السياق :

هاتان الآيتان حذرتا الكافرين وأنذرتاهم . وفي الوقت نفسه هما ردّ جديد على الذين يتركون الإسلام خوف التخطّف ، فالله عز وجل يذكّرهم هنا بأنه قادر على إهلاكهم كما أهلك القرى المعرضة فليخافوا الله إذن عندما يتركون الإسلام ولا يخافوا الناس إذا دخلوا فى الإسلام .

﴿ **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ أي وأيُّ شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة الدنيا ﴿ **وما عند الله** ﴾ أي ثوابه ﴿**خير**﴾ في نفسه من ذلك ﴿**وأبقى**﴾ لأنه دائم ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أفلا يعقل

من يقدم الدنيا على الآخرة ﴿**أفمن وعدناه وعداً حسناً**﴾ أي الجنة فلا شيء أحسن منها لأنها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى ﴿**فهو لاقيه**﴾ أي رائيه ومدركه ومصيبه وهم المؤمنون المسلمون الصادقون ﴿**كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين**﴾ أي من الذين أحضروا النار وهم الكافرون المكذبون .

كلمة في السياق :

في هاتين الآيتين ترغيب للدخول في الإسلام ، ولو لم يكن معه دنيا ، وترهيب من الكفر ولو كان معه دنيا . وهو ردّ جديد على الذين يتركون الإسلام خوف التخطف فإن الإسلام إذا لم يكن معه دنيا أصلاً فإنه خير من الكفر ولو رافقته الدنيا ، لأن الآخرة خير من الدنيا ، وإذ يقرر الله عز وجل ذلك تأتي ثلاث فقرات ، علامة كل منها هي قوله تعالى ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ وكلها عرض لما يكون في الآخرة ، بحيث يرى منها أن الأمر كل الأمر هناك .



الفقرة الأولى :

﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ أي واذكر يوم ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿**فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون**﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ يقول هذا على سبيل التقريع والتهديد﴿**قال الذين حق عليهم القول**﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ومعنى ﴿**حق عليهم القول**﴾وجب عليهم مقتضاه وثبت وهو قوله تعالى ﴿ **لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ ﴿ **ربنا هؤلاء الذين أغوينا** ﴾ أي دعوناهم إلى الشرك وسوّلنا لهم الغيّ ﴿ **أغويناهم كما** ﴾ أي مثلما﴿ **غوينا** ﴾ يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا : باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً فلا فرق إذاً بين غيِّنا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل ، وأنزل عليهم من الكتب ، وهو كقوله ﴿ **وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد**

الحق ﴾ إلى قوله ﴿ **ولوموا أنفسكم** ﴾ ﴿ **تبرأنا إليك** ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿ **ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ بل يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ﴿ **وقيل** ﴾ للمشركين ﴿ **ادعوا شركاءكم** ﴾ أي ليخلصوكم من العذاب ﴿ **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم** ﴾ أي فلم يجيبوهم ﴿ **ورأوا العذاب لو أنّهم كانوا يهتدون** ﴾ أي فودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدنيا .

....

كلمة في السياق :

لاحظ ما ختمت به الفقرة ﴿ **ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾ لندرك الصلة بين الفقرة وبين المجموعة من بدايتها ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ... ﴾ فالفقرة تصور لنا كيف أن الكافرين يتمنون أن لو كانوا مسلمين يوم القيامة وفي ذلك ردّ جديد على من يتركون الإسلام خوف التخطّف إذْ إنّهم يوم القيامة يتمنّون أن لو كانوا مسلمين .

....

الفقرة الثانية :

﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ أي واذكر يوم ينادي الله المشركين ﴿ **فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ قال ابن كثير : النداء الأول عن سؤال التوحيد وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم وكيف كان حالكم معهم ؟ . وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من نبيك وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنّه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول ها ، ها ، لا أدري . ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » وقال النسفي : (حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم مايقوله الشياطين أو أئمة الكفر عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل) ﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ** ﴾ أي فعميت عليهم الحجج أي فخفيت عليهم الحجج أو الأخبار وقيل خفي عليهم الجواب فلم يدروا

بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿ **فهم لا يتساءلون** ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجّة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب ﴿ **فأما من تاب** ﴾ من الشرك ﴿ **وآمن** ﴾ بربه وبما جاء من عنده ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾ أي يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة فإنّ هذا واقع بفضل الله ومنّته . قال النسفي : وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام وترغيب للكافرين على الإيمان .

....

كلمـة في السياق :

وهكذا ذكّرت الفقرة الثانية بحال من يكفرون بالرسل يوم القيامة وحال المؤمنين وفي ذلك تذكير للمنصرفين عن الإيمان بالحجج الواهية كي يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً .

ثم تأتي بعد ذلك الفقرة الثالثة ولكن بدلاً من أن تأتي علامة الففرة ﴿ **ويوم يناديهم** ﴾ في بدايتها فإنّها تأتي في نهايتها وهذه الفقرة تذكّر بحكمة الله عز وجل ونعمته وفي ذلك دعوة إلى التسليم لله والدخول في دينه وترك التعلّات الصارفة عن الإسلام ، فمن عرف عظمة الله وحكمته سلّم له ودخل في دينه وتوكل عليه ولم يخف أحداً .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة :

﴿ **وربك يخلق ما يشاء** ﴾ فهو المتفرد بالخلق وأنّه ليس له منازع ولا معقّب في ذلك ﴿ **ويختار** ﴾ أي ما يشاء ، فما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن . فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ أي ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً وله الخبرة عليهم ، فهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه فكيف يرفضون دينه ، وكيف يتركون دينه بتعلّات كخوف التخطف وهو أنزله وأمر به وهو الأعلم والأحكم ﴿ **سبحان الله وتعالى عمّا يشركون** ﴾ أي الله برىء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار ﴿ **وربك يعلم ما تكنّ**

صدورهم ﴾ أي ما تضمره ﴿ **وما يعلنون** ﴾ أي وما يبدون والآية في هذا المقام تحذّر من إضمار السوء بالإسلام وأهله أو إعلان السوء بالإسلام وأهله ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو** ﴾ أي هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه كما لا ربّ يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ **له الحمد في الأولى** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **والآخرة** ﴾ لأنه المنعم وحده ﴿ **وله الحكم** ﴾ أي الحاكمية فهو المشرّع وحده لأنّه الخالق وحده ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أي جميعكم يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

....

كلمة في السياق :

ذكّرت هذه الآيات بانفراد الله الخالق وبكمال علمه وحكمته ، وباستحقاقه الحمد وحده . وبكون الحاكمية له وحده . وفي هذا إقامة حجة جديدة على وجوب الدّخول في الإسلام وترك التّعلّات المبعدة عن الدخول فيه . ثمّ يأمر الله رسوله ﷺ أن يتوجه بسؤالين فيهما تدليل على كمال حكمة الله وكمال إنعامه ورحمته وفي ذلك إقامة حجة جديدة .

....

﴿**قل أرأيتم**﴾ أي أخبروني ﴿ **إن جعل الله عليكم الليل سرمداً** ﴾ أي دائماً ﴿ **إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون** ﴾ أي أخبروني من يقدر على هذا ، وإذ كان الله وحده فعل هذا ، وكان في ذلك من المصالح مالا يعلمه إلا الله ، فاعرفوا لله الرحمة والحكمة وأسلموا ولا تفروا من الإسلام بتعلة من التعلات ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ أي تستريحون عن حركاتكم وأشغالكم ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ فتعرفون فاعل ذلك وتعطون ما يجب له . قال النسفي : (ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس ، لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزله ، ومن ثم قرن بالضياء ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ لأن السمع يدرك مالا يدركه البصر من ذكر منافعه ، ووصف فوائده وقرن بالليل ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من

السكون ونحوه ﴿ومن رحمته﴾ بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ بالليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ في النهار بالأسفار والترحال ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، فمن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل .

....

كلمة في السياق :

وهكذا أقام الله الحجة على توحيده وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال إنعامه ، وأنه يجب له الحمد والشكر . وأن له الحكم وفي ذلك حجة جديدة على من لم يهتد ، أو يضع التعلات للفرار من الإسلام ، وها هي علامة الفقرة تأتي هنا في أواخرها ﴿ويوم يناديهم﴾

﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي في دار الدنيا قال النسفي : كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لاشيء أدخل في مرضاته من توحيده ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي رسولاً ، يعني : نبيهم لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فقلنا﴾ للمشركين ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي على صحة مادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق﴾ أي التوحيد ﴿لله وضل عنهم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ماكانوا يفترون﴾ من ألوهية غير الله والشفاعة لهم ، أي ذهبوا ولم ينفعوهم . وبهذا انتهت الفقرات الثلاث وبها ينتهي الجزء الأول من المجموعة الرابعة ويأتي الجزء الثاني وفيه قصة قارون وتعقيب عليها .

كلمة فى السياق :

رأينا أن السورة كلها تنقسم إلى قسمين : الأول : قصة موسى ، ثم القسم الثاني وهو الذي نحن فيه وهو يبنى على القسم الأول ، وفي القسم الثاني أقام الله الحجة على رسالة رسوله ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ثم بيّن الله لرسوله ﷺ أنه لايهدي من أحب ، وإنما الهداية بيد الله لمن سلك أسبابها ، ثم عرض الله عز وجل شبهة من شبه

الكافرين ، في انصرافهم عن الإسلام ، ورد عليها بشكل ثم بآخر ، وفي هذا السياق تأتي قصة قارون لترينا عقوبة من عقوبات الله ، تحل في إنسان هو من قوم رسول بسبب بغيه ، وفي ذلك تحذير جديد لمن يبغي من هذه الأمة على هذه الأمة رافضاً هدى الله ، كافراً برسالة الرسول ، إن الصلة بين قصة قارون وبين قوله تعالى ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا**﴾ واضحة ، إنها تحذير لكل فرد من هذه الأمة من أن يبغي على هذه الأمة :



الجزء الثاني من المجموعة الرابعة
وفيه قصة قارون وتعقيب عليها

وتمتد من الآية (٧٦) إلى نهاية الآية (٨٤) وهذه هي :

* إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ

بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

التفسير :

﴿**إن قارون كان من قوم موسى**﴾ فهو إسرائيلي ﴿ **فبغى عليهم** ﴾ أي ظلم وتكبّر ﴿ **وآتيناه من الكنوز** ﴾ أي الأموال ﴿**ما إن مفاتحه**﴾ جمع مفتح وهو ما يفتح به ﴿**لتنوء بالعصبة أولي القوة**﴾ أي الأشداء ، والعصبة الجماعة الكثيرة ، أي إن مفاتيح مغاليق كنوزه لتثقل العصبة الأقوياء ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح** ﴾ أي لا تبطر بكثرة المال وقد علموا أنه لايفرح بالدنيا إلامن رضي بها واطمأن ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها ﴿ **إن الله لايحب الفرحين** ﴾ أي البطرين الأشرين ، الذين لايشكرون الله على ماأعطاهم ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله** ﴾ من الغنى والثروة ﴿ **الدار الآخرة** ﴾ بأن تتصدق على الفقراء ،وتصل الرحم ، وتصرف إلى أبواب الخير ، أي استعمل ماوهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة ، في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات ، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿**ولاتنس نصيبك من الدنيا** ﴾ قال ابن كثير (أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن والمناكح فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً فآت كل ذي حق حقه) ﴿**وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أي وأحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، أو وأحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام ﴿**ولاتبغ الفساد في الأرض** ﴾ بالظلم والبغي ، والصد عن سبيل الله ، أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿ **إن الله لايحب المفسدين** ﴾ بل يبغضهم ، هذه سنته وهذا شأنه ﴿**قال** ﴾ قارون ﴿ **إنما أوتيته** ﴾ أي المال ﴿**على علم عندي** ﴾ أي على استحقاق لما فيَّ

من العلم ، الذي فضلت به على الناس ، وهو علم جني المال وتثميره ، أو المعنى : إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له ، قال الله عز وجل رداً عليه ما ادعاه من اعتناء الله به ، فيما أعطاه من المال **﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾** أي من هو أقوى منه وأغنى ، أي قد كان من هو أكثر من ذلك لا عن محبة منّا لهم ، وقد أهلكناهم بكفرهم ، وعدم شكرهم **﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾** أي لعلمه تعالى بهم ، بل يدخلون النار بغير حساب ويقذفون بها بغير سؤال ، أو يعرفون بسيماهم فلا يسألون ، أولا يسألون لتُعلم ذنوبهم من جهتهم ، بل يسألون سؤال توبيخ أولا يسأل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة **﴿فخرج على قومه في زينتة ﴾** الكاملة **﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾** ممن لافقه عندهم **﴿ ياليت لنا مثل ماأوتي قارون ﴾** تمنوا ذلك على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر . قالوا ذلك غبطة . والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه ، كهذه الآية والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى : **﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله بعضكم على بعض ﴾** .

﴿ إنه لذو حظ ﴾ أي جدّ وبخت **﴿ عظيم ﴾** أي وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع زجروهم **﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾** بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى قالوا لغابطي قارون **﴿ ويلكم ﴾** هذه كلمة تستعمل في الأصل للدّعاء بالهلاك ثم استعملت في الزّجر والرّدع والبعث على ترك مالا يرضى **﴿ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾** قال ابن كثير : أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدّار الآخرة خير مما ترون . كما في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين . مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب ، واقرؤوا إن شئتم : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾** **﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾** قال السدي : ولا يُلَقّى الجنة إلا الصابرون وكأنّه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، قال ابن جرير : ولا يُلَقّى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

والصابرون هم الذين صبروا على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير **﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾** عقوبة له على بغيه **﴿ فما كان له من فئة ﴾** أي جماعة **﴿ ينصرونه من دون الله ﴾** أي يمنعونه من عذاب الله **﴿ وما**

كان من المنتصرين ﴾ أي على موسى أو من الممتنعين من عذاب الله . قال ابن كثير : أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره ﴿ **وأصبح** ﴾ أي ووصار ﴿ **الذين تمنوا مكانه** ﴾ أي منزلته من الدنيا ﴿ **بالأمس** ﴾ أي قبل ذلك يقولون ﴿ **وي** ﴾ هي كلمة تنبّه على الخطأ وتندّم ، يستعملها النادم بإظهار ندامته ﴿ **كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر** ﴾ أي يوسّع ويضيق على حسب المشيئة ﴿ **لولا أنْ منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ وإن كانوا أغنياء تنبّه القوم على خطئهم في تمنّيهم مالَ قارون ، وعلموا أنّ المال ليس بدال على رضا الله عن صاحبه فإنّ الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ، وبعد أن قصّ الله علينا قصة قارون أعطانا وعداً ، وعلّمنا على سنة من سننه فقال : ﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ﴿ **نجعلها للذين لا يريدون علوًّا** ﴾ أي بغياً وظلماً وكبراً ﴿ **في الأرض ولافساداً** ﴾ أي عملاً بالمعاصي أو قتلاً للنفس بغير حق أو صداً عن سبيل الله ، ولم يعلّق الموعد بترك العلوّ والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ﴿ **والعاقبة** ﴾ المحمودة ﴿ **للمتقين** ﴾ الله بترك ما نهى ، وفعل ما أمر ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **فله خير منها** ﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة . ﴿ **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا** ﴾ مثل ﴿ **ماكانوا يعملون** ﴾ وذلك من كمال فضله ألا يجزي السيئة إلا بمثلها ويجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى مايشاء . وبهذا انتهت قصة قارون والتعليق عليها . ولم يبق عندنا من المجموعة الرابعة إلا آية واحدة هي خاتمة المجموعة .

☆ ☆ ☆

خاتمة المجموعة الرابعة

وهي آية واحدة هي الآية (٨٥) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

التفسير

﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن**﴾ أي أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه﴿**لرادّك إلى معاد** ﴾ أي يوم القيامة ، فيسألك عن ذلك ،أو إلى مكة بعد إخراجك منها﴿**قل**﴾ للناس جميعاً﴿ **ربي أعلم من جاء بالهدى**﴾ يعني محمداً﴿ **ومن هو في ضلال مبين** ﴾ أي واضح وهم المشركون . قال ابن كثير : (أي قل لمن خالفك وكذبك يامحمد من قومك من المشركين ، ومن تبعهم على كفرهم ، قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة) وبهذا ختمت المجموعة الرابعة :

كلمة في السياق :

لاحظ الصلة بين أول آية في المجموعة الرابعة وآخر آية : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين** ﴾ لاحظ وجود كلمة الهداية في الآيتين . ولاحظ أن الآية الأخيرة تعزية على ماورد في الأولى ، وتذكير بالواجب الأول وهو التذكير ،ومن هنا نعلم أن المجموعة الرابعة كلٌّ متكامل ، ففيها تقرير أمر الهداية ، والرد على دعوى صارفة عن الدخول في الإسلام وهي خوف التخطّف التي عولجت بالرد المباشر ، وبالترغيب والترهيب والتذكير بعذاب الآخرة ، وعذاب الدنيا ، والتي ختمت بذكر القاعدة أن الدار الآخرة لا تكون إلا للمتقين ، وأن إرادة العلو والفساد في الأرض لا يكون معها نيل ثواب الله في الآخرة ، وأن الحسنة

تجزى بخير منها . فادخلوا في الإسلام وجاهدوا واعملوا ولا تتلكأوا فأجركم كائن ، ثم جاءت الآية الأخيرة وعداً بالنصر ، وتعزية لرسول الله ﷺ ، وأمراً له بتحديد الموقف الفاصل ، وقد بقيت معنا مجموعة واحدة من السورة هي المجموعة الخامسة .

فوائد :

١ - تحدث المفسرون عن قارون ، وهو أنه قارون بن يصهب بن قاهث ، وهو المذكور في التوراة المحرفة الحالية باسم قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي . والتوراة الحالية تذكر قورح هذا في الإصحاح السادس عشر ، من سفر العدد ، وفي هذا السفر تقول التوراة الحالية (وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال .....وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم ، لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا) إلا أن التوراة الحالية لاتذكر التفصيلات التي ذكرها النص القرآني لكنها ذكرت بغي قورح ومن معه وتمرّده على موسى وهارون وقومهما ، وليس لنا من التوراة الحالية ما نأخذه إلا ماوافق القرآن والسنة؛ فإنها كتبت بعد أزمان متطاولة فلم يبق فيها من الوحي الصادق إلا قليل .

٢ - قال ابن كثير بمناسبة قول قارون : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ أي أنه كان يعاني علم الكيمياء ، وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل ، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له** ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله ، في مجرد الصورة الظاهرة ، أو الشكل ، فكيف بمن يدّعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور محال ، وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون وأن ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ،

ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسمٰوات واختياره وفعله ، كما روى عن حيوة بن شريح المصري رحمه الله أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته فأخذحصاة من الأرض ، فأجالها في كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل ، فإذا هي ذهب أحمر ، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها) أقول : ما قاله ابن كثير في شأن تحويل العناصر فيه نظر فقد أصبح بالإمكان في عصرنا تحويل العنصر إلى عنصر آخر وذلك جائز شرعاً .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن اباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يجر إزاره خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرّد به أحمد وإسناده حسن ، وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولافساداً** ﴾ قال ابن كثير : وروى ابن جرير عن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :«إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لابأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال »

٥ ـــ في قوله تعالى : ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد** ﴾ أكثر من اتجاه عند المفسرين وقد ذكرها ابن كثير وهذا كلامه (وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم

سائلك عن القرآن . قاله السدي وقال أبو سعيد مثلها ،وقال الحاكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **لرداك إلى معاد** ﴾ قال إلى يوم القيامة . ورواه مالك عن الزهري . وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ إلى الموت ، هذه طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد يحييك يوم القيامة . وكذا روي عن عكرمة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبي قزعة وأبي مالك وأبي صالح ، وقال الحسن البصري ، أي والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة ، وقد روي عن ابن عباس غير ذلك . كما روى البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ قال إلى مكة . وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وكذا العوفي رواه عن ابن عباس ﴿ **لرادّك إلى معاد** ﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .وقال محمد ابن إسحاق عن مجاهد في قوله ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ إلى مولدك بمكة . وقال ابن أبي حاتم : وقد روي عن ابن عباس ويحيىٰ بن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك . وحدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال :قال سفيان فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكياً والله أعلم . وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله تعالى﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها .وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القاري أنه قال في قوله﴿**لرادك إلى معاد**﴾ قال : إلى بيت المقدس ، وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ، لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ كما فسر ابن عباس سورة﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله نعي إليه . وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم .ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله ﴿**لرادك إلى معاد** ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة ، الذي هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن ، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق)

المجموعة الخامسة من القسم الثاني

وتمتد من الآية (٨٦) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٨٨) وهذه هي :

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ملاحظة حول السياق :

نلاحظ أن القسم الثاني من هذه السورة بدأ بقوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر** ... ﴾ واستمر حتى وصل إلى ما نحن فيه . فلنلاحظ أن بداية هذه المجموعة - وهي خاتمة السورة - مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وماكنت** ﴾ . لقد بدأت المجموعة الأولى بالحديث عما تثبت به نبوّة محمد ﷺ بالبناء على ما ورد في القسم الأول وتأتي هذه المجموعة في خاتمة القسم الثاني لتذكّر محمداً ﷺ بنعمة الله عليه ، وهي نعمة لم يكن يتوقعها ويرجوها ، ثم تأمره بمجموعة أوامر ونواه هي الشكر المقابل لهذه النعمة . فالسياق كله يصبّ في طريق واحد فلنر تفسير المجموعة :

﴿ **وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب** ﴾ أي وما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي سينزل عليك ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ أي ولكن رحمة من ربك أنزل إليك أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك هذه النعمة العظيمة ﴿ **فلا تكونن ظهيراً** ﴾ أي معيناً ﴿ **للكافرين** ﴾ قال ابن كثير : ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه قد ورد في القسم الأول من السورة على لسان موسى قوله : ﴿**رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين**﴾ وههنا يأمر الله رسوله ﷺ فيقول : ﴿ **فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ﴾ وهذا يشير إلى أن من مقاصد السورة الرئيسية التربية على هذا المعنى ، كما يشير إلى أن القسم الثاني يبنى على ما ورد في القسم الأول .

﴿ **ولايصدنك** ﴾أي ولا يمنعنك هؤلاء ﴿ **عن آيات الله بعد إذ أُنزِلت إليك** ﴾ أي عن العمل بالقرآن ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أي إلى توحيده وعبادته﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾انتساباً أو مشاركة أو عملاً أو اعتقاداً .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **طسم تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ وفي هذه الآية ورد قوله تعالى :﴿**ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ فالصلة بين مقدمة السورة وخاتمتها لا تخفى ، وكنا ذكرنا أن محور هذه السورة هو قوله تعالى : ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ وقد رأينا كيف أن قوله تعالى : ﴿**إنك لاتهدي من أحببت** ..﴾ توجيه لصاحب الرسالة . وههنا نرى الخطاب لمن أنزلت عليه الآيات ألا يصده أحد عن هذه الآيات . فالصلة بين السورة ومحورها واضحة ، كما أن السياق الخاص للسورة واضح الترابط .ثم تختم السورة بقوله تعالى :

....

﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو** ﴾ أي لاتليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلهية الا لعظمته ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ قال ابن كثير : إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ...﴿ **له الحكم** ﴾ أي القضاء في خلقه والأمر والنهي والتشريع والملك والتصرف ولا معقّب لحكمه ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أي يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

فوائـد :

١ ـــ يفسر العلماء قوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ بأن المراد بالوجه هنا الذات . ولبعضهم اتجاه آخر في تفسير الآية . وقد نقل ابن كثير هذه الاتجاهات فقال وقوله ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولايموت ، كما قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ معبر بالوجه عن الذات وهكذا قوله ههنا ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أي إلا إياه وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أي إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له . قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لاينافي القول الأول فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول والآخر ، الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء .

٢ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ ذكر ابن كثير ماذكره ابن أبي الدنيا في كتاب (التفكر والاعتبار) بسنده إلى الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة ، فيقف على بابها ، فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ .

٣ ـــ ونختم الفوائد بتعليقات للنسفي حول معان في قصة قارون قال : قال سهل مانظر أحد إلى نفسه فأفلح ، والسعيد من صرف بصره عن أقواله وأفعاله وفتح له سبيل رؤية منّة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال ، والشقي من زين في عينه أفعاله وأقواله وأحواله ، ولم يفتح له سبيل رؤية منّة الله ، فافتخربها وادّعاها لنفسه ، فشؤمه يهلكه يوماً كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلاً .

كلمة في القسم الثاني من السورة :

رأينا أن القسم الأول تلا علينا آيات الله في قصة موسى وفرعون ، وفي هذه التلاوة معجزة تدل على أن هذا القرآن من عند الله . ثم جاء القسم الثاني ليبني على ذلك أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وأقام الحجة على ذلك مرة ، بعد مرة فإذا استقر ذلك بيّن الله عز وجل لرسوله أن الهداية لا تكون إلا بأمر الله ، وأنها جارية على سنن ، وأن مجرد محبته عليه الصلاة والسلام لهداية إنسان ليست كافية لهدايته ، ثم ناقش أحد الصوارف عن هذا الدين ، وهو خوف التخطف ، ورد عليه ثم حذّر من البغي على رسوله وأمته .ثم بشّر . ثم ذكّر رسوله ﷺ بنعمته عليه بإنزاله عليه هذا القرآن وأمره - وهو أمر لكل أمته - بمجموعة أوامر هي الشكر على هذه النعمة .

كلمة في سورة القصص :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ وبعد أن قصّ الله عز وجل علينا هذه الآيات بنى عليها ما تقوم به الحجة على رسالة محمد ﷺ ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، وأن موقف أهل العلم التسليم لرسالة محمد ﷺ ، ثم بينت السورة أن الهداية بيد الله ، وليست بيد أحد ، وفي هذا السياق يأتي عرض الشبهة القطيعة المستمرة ، وهي ترك الإسلام بحجة الأمن . وتردّ السورة على هذه الشبهة شيئاً فشيئاً وبطريقة بعد طريقة وترد في السياق إنذارات وتحذيرات من خلال عرض ما يكون في الآخرة ، ومن خلال عرض أخذ قارون . ثم تأمر السورة في أواخرها رسول الله ﷺ عدة أوامر ، يؤدي بها شكر نعمة الله عليه بإنزال هذا القرآن .

....

وقد أوردت السورة خصيصة من خصائص هذا القرآن وكانت السورة نموذجاً عليها ، هذه الخصيصة هي قوله تعالى : ﴿ **ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾ فقد وصّل الله عز وجل هذا القرآن بأن وصّل المعنى بالمعنى . فتجد القصة بجانب التقرير ، بجانب الموعظة ، بجانب الإنكار يربطه رباط جامع هو سياق السورة الخاص ضمن محورها في السياق القرآني العام . وقد رأينا في هذه السورة نموذج ذلك .

فمشاهد قصة موسى ، ومجموعات القسم الثاني كل منها يعرض معنى ، ويأتي ليعضد

الأول ويكمّله وهكذا ، وما يحتاج إلى تكرار كثير كرّر . وما يحتاج إلى تكرار أقل كُرر بقدر ذلك .

....

إن سورة القصص آتية تفصّل الآية الآتية في حيّز الأمر ﴿ **ادخلوا في السلم كافة** ﴾ ومن ثم تجد فيها ما يخدم هذا الموضوع ، كتحطيم الأفكار التي تناهضه كقول الكافرين ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ كما أن السورة من خلال القصة والعرض في قسميها تعطينا الكثير من القيم الإسلامية ، والآداب الإسلامية ، والمواقف الإسلامية ، والأحكام الإسلامية ، ومن ذلك بعض القضايا التي تعتبر قضايا دستورية ، كموضوع اللجوء السياسي في قصة موسى عليه السلام في ذهابه إلى مدين .

....

والسورة في سياقها الرئيسي تبيّن لنا ظاهرة الرسالة وخصائصها ، كما تذكر لنا أخلاق المرشحين لها قبلها ، وقد جاء ذلك من خلال التعرّض لأكبر رسالتين في التاريخ : رسالة موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

كلمة في الطاسينات الثلاث ومجموعتها :

الطاسينات الثلاث هي آخر المجموعة الثالثة من القسم الثاني من أقسام القرآن ، أي المجموعة المبدوءة بـ (طه) ولئن كانت سورة (طه) تحدثت عن موسى ، فإن الطاسينات الثلاث تحدثت عن موسى كذلك ، وذلك لأن الموضوع الذي عالجته سورة طه قريب من الموضوع الذي عالجته الطاسينات الثلاث . إلا أن سورة طه عالجته كبداية ، والطاسينات عالجته كنهاية . فسورة (طه) فصلت قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ والطاسينات فصلت قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ مما يشير إلى أن قضية الإيمان بالقرآن والرسول هي البداية والنهاية .

لقد فصّلت الطاسينات الثلاث آية واحدة هي : ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ولكن كل من السور الثلاث فصّل هذه الآية بجرس وأسلوب ومعان يكمّل بعضها بعضاً ، ولكنها كلها تصب فيها ، وتفصلها ضمن حيّز ورود آية المحور في سورة البقرة ، والملاحظ أن آية المحور لم تفصّل قبل ذلك في القرآن، فجاء تفصيلها بهذا

الشكل المتكرر في مكان واحد ، في نهاية المجموعة الثالثة من القسم الثاني ، وفي نهاية القسم الثاني كله ؛ لأنها تؤدي معنى هو مسك الختام في السياق الخاص والعام للقرآن ، إذ تؤكد على كثرة المعجزات في رسالة محمد ﷺ وتؤكد على صحة رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام .

....

إن المجموعة الثالثة من القسم الثاني من أقسام القرآن وهي المبدوءة بـ (طه) والمنتهية (بالطاسينات) هي خاتمة القسم الثاني قسم المئين . ومن ثم نلاحظ في هذه المجموعة تركيزها في بدايتها ونهايتها على قضية الإيمان وعرضها في الوسط لمواضيع تميزت بها عن المجموعتين السابقتين . ففي المجموعتين السابقتين لم ترد سورة مبدوءة بـ (يا أيها...) كما كان في القسم الأول . ولكن في المجموعة الثالثة وجد ذلك ، وفي المجموعتين السابقتين لم ترد سورة كاملة حول قضايا تشريعية كما وجد ذلك في القسم الأول ، ولكن في المجموعة الثالثة وجدت سورة كسورة النور ، وهكذا نجد أن المجموعة الثالثة دورها دور مكمّل لموضوع القسم كله ، بحيث يرى فيها تشابه قسم المئين مع قسم الطِوَل ، وقد استكمل هذا الشبه من خلال هذه المجموعة ، فكأن المجموعتين السابقتين كانتا مقدمتين للمجموعة الثالثة ، وجاءت المجموعة الثالثة لتبني عليهما .

....

إن معرفة أسرار التربية القرآنية ، وطرائق القرآن في التربية ، لا يدرك أبعادها الإنسان إلا بقدر إدراكه لأسرار القرآن ، وبقدر مانبني هذه الأمة على ضوء المعرفة الصحيحية لكتاب الله نكون سائرين في طريق بناء الإنسان البناء الصحيح لأن الله عز وجل منزل القرآن هو الأعلم بالإنسان .

كلمة في القسم الثاني من أقسام القرآن :

رأينا أن القسم الثاني من أقسام القرآن يبدأ بسورة يونس وينتهي بسورة القصص ، وهو القسم الذي أطلق عليه الرسول ﷺ اسم المئين . هذا القسم فصّل سورة البقرة تفصيلاً بعد تفصيل ، فصّل سورة البقرة في مجموعته الأولى بما يصلح أن يكون مقدمة للمجموعة

الثانية . وفصّل سورة البقرة في مجموعته الثانية بانياً على المجموعة الأولى ، ومقدماً للثالثة . وفصّل سورة البقرة في مجموعته الثالثة ، بما يكمّل تفصيل المجموعتين السابقتين .

ولقد فصلت كل مجموعة سورة البقرة نوع تفصيل بحيث لا يتعارض تفصيلان بل يتكاملان ، وبهذا أكمل القسم الثاني من أقسام القرآن ما بناه القسم الأول .

....

جاءت فاتحة القرآن تلخص معاني القرآن كله ، ثم جاءت سورة البقرة فعرضت الإسلام كله عرضاً محكماً مجملاً ، كما قال عليه الصلاة والسلام عنها : « إن كادت لتستحصي الدين كله» ، ثم جاءت السور السبع بعدها ففصّلت الكثير مما أجمل فيها على ترتيب وروده فيها ثم جاء القسم الثاني : ففصل الكثير مما أجمل فيها : جاءت المجموعة الأولى من هذا القسم ففصلت بعض ما أجمل في سورة البقرة على ترتيب وروده فيها ، ثم جاءت المجموعة الثانية ففصلت الكثير مما أجمل في سورة البقرة على ترتيب وروده فيها ، ثم جاءت المجموعة الثالثة ففصلت كذلك الكثير مما أجمل فيها على ترتيب وروده ، ولقد رأينا كثيراً من المعاني قد كررت مرة ومرة ومرة ، مما يشير إلى أهميتها أو يشير إلى ضرورة عرضها مرات ، بحسب احتياج النفس البشرية ، وقد تحدثنا عن تفصيلات ذلك كله أثناء الكلام عن السور ، وعن المجموعات وعن الأقسام بما يكفي ويغني عن أن نقول أكثر مما قلناه . فلننتقل إلى القسم الثالث من أقسام القرآن ، وهو المسمى في الحديث النبوي بقسم المثاني .

فهرس المجلد السابع

الموضوع — الصفحة



☆ ☆ ☆



☆ ☆ ☆

